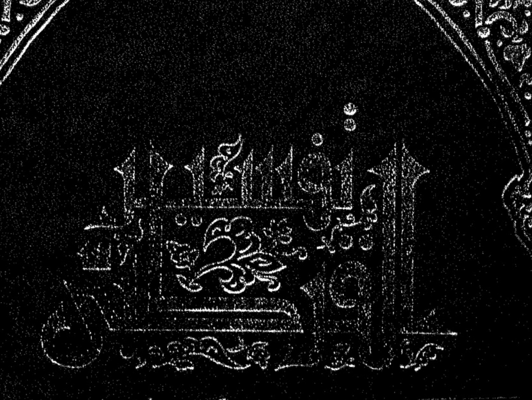




لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري


تفسير القرطبي

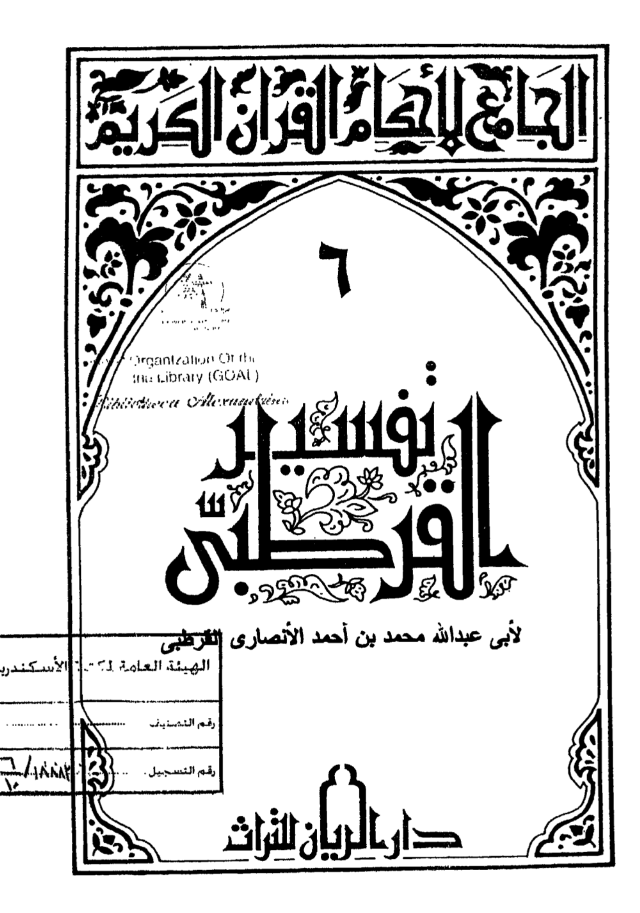
طبعة خاصة

بتصريح من دار الشعب

يطلب من : دار الريان للتراث

● دار الريان للتراث ١٧٧ شارع الهرم . ت : ٥٣٦٥٩٩

● مصر الجديدة: ٢٠ شارع الاندلس . ت : ٢٥٩١٨٩٢/ ٢٥٩١٨٩١


الجامع لأحكام القرآن الكريم
٦
تفسير القرطبي
لأبى عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى
دار الريان للتراث

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة إبراهيم

مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وجابر . وقال ابن عباس وقتادة: إلا آيتين منها مدنيتين وقيل : ثلاث نزلت فى الذين حاربوا الله ورسوله وهى قوله تعالى: « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا » إلى قوله : « فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ »

قوله تعالى : الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ ﴾ تقدم معناه . ﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ ﴾ أى بالكتاب، وهو القرآن، أى بدعائك إليه . ﴿ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أى من ظلمات الكفر والضلالة والجهل إلى نور الإيمان والعلم؛ وهذا على التمثيل، لأن الكفر بمنزلة الظلمة؛ والإسلام بمنزلة النور . وقيل : من البدعة إلى السنة، ومن الشك إلى اليقين ؛ والمعنى متقارب . ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أى بتوفيقه إياهم ولطفه بهم ، والباء فى «بإذن ربهم» متعلقة بـ«تخرج » وأضيف الفعل إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأنه الداعى والمنذر الهادى . ﴿ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ هو كقولك : خرجت إلى زيد العاقل الفاضل من غير واو ، لأنهما شيء واحد ؛ والله هو العزيز الذى لامثل له ولا شبه . وقيل : « العزيز » الذى لا يغلبه غالب . وقيل : « العزيز » المنيع فى ملكه وسلطانه . « الحميد » أى المحمود بكل لسان، والممجد فى كل مكان على كل حال . وروى مِقْسَم عن ابن عباس قال : كان قوم آمنوا بعيسى بن مريم، وقوم كفروا به، فلما بُعث محمد صلى الله عليه وسلم آمن به الذين كفروا بعيسى، وكفر الذين آمنوا بعيسى؛ فنزلت هذه الآية ، ذكره الماوردى .

قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ اللهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ﴾ أى ملكا وعبيدا واختراعا وخلقا . وقرأ نافع وابن عامر وغيرهما « اللهُ » بالرفع على الابتداء « الذى » خبره . وقيل : « الذى » صفة، والخبر مضمر؛ أى الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض قادرٌ على كل شيء . الباقون بالخفض نعتا للعزيز الحميد فقدم النعت على المنعوت؛ كقولك : مررت بالظريف زيد . وقيل : على البدل من « الحميد » وليس صفة ؛ لأن اسم الله صار كالعلَم فلا يوصف؛ كما لا يوصف بزيد وعمرو ؛ بل يجوز أن يوصف به من حيث المعنى؛ لأن معناه أنه المنفرد بقدرة الإيجاد . وقال أبو عمرو : والخفض على التقديم والتأخير، مجازه : إلى صراط الله العزيز الحميد الذى له ما فى السموات وما فى الأرض . وكان يعقوب إذا وقفه على « الحميد » رفع، وإذا وصل خفض على النعت . قال ابن الأنبارى : من خفض وقف على « وما فى الأرض » .

قوله تعالى : ﴿ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ قد تقدّم معنى الويل فى « البقرة »[1] وقال الزجاج : هى كلمة تقال للعذاب والهلكة . « من عذاب شديد » أى فى جهنم . ﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى يختارونها على الآخرة، والكافرون يفعلون ذلك . « فالذين » فى موضع خفض صفة لهم . وقيل : فى موضع رفع خبر ابتداء مضمر؛ أى هم الذين . وقيل : « الذين يستحبون » مبتدأ وخبره « أولئك » . وكل من آثر الدنيا وزهرتها، واستحب

(١) راجع ج ٢ ص ٧ وما بعدها طبعة ثانية .

البقاء فى نعيمها على النعيم فى الآخرة؛ وصدّ عن سبيل الله — أى صرف الناس عنه وهو دين الله، الذى جاءت به الرسل، فى قول ابن عباس وغيره — فهو داخل فى هذه الآية؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : " إن أخوف ما أخاف على أمتى الأئمة المضلون " وهو حديث صحيح . وما أكثر ما هم فى هذه الأزمان، والله المستعان . وقيل : « يستحبون » أى يلتمسون الدنيا من غير وجهها؛ لأن نعمة الله لا تلتمس إلا بطاعته دون معصيته . ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أى يطلبون لها زَيْغا وميلا لموافقة أهوائهم، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم . والسبيل تذكر وتؤنث . والعِوج بكسر العين فى الدين والأمر والأرض، وفى كل ما لم يكن قائما؛ وبفتح العين فى كل ما كان قائما، كالحائط والرُّمح ونحوه؛ وقد تقدم[1] فى « آل عمران » وغيرها . ﴿ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ أى ذهاب عن الحق بعيد عنه .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ ﴾ أى قبلك يا محمد ﴿ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ أى بلغتهم، ليبيّنوا لهم أمر دينهم؛ ووحد اللسان وإن أضافه إلى القوم لأن المراد اللغة؛ فهى اسم جنس يقع على القليل والكثير؛ ولا حجة للعجم وغيرهم فى هذه الآية؛ لأن كل من تُرجم له ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم ترجمة يفهمها لزمته الحجة؛ وقد قال الله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » . وقال صلى الله عليه وسلم : " أرسل كلُّ نبى إلى أمته بلسانها وأرسلنى الله إلى كلّ أحمرَ وأسودَ من خلقه " . وقال صلى الله عليه وسلم : " والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودىّ ولا نصرانىّ ثم لم يؤمن بالذى أُرسلتُ به إلا كان من أصحاب النار " . خرجه مسلم، وقد تقدم . ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ ردّ على القدرية فى نفوذ المشيئة، وهو مستأنف، وليس بمعطوف على

---

(١) راجع جـ ٤ ص ١٥٤ طبعة أولى أو ثانية .

« ليبين » لأن الإرسال إنما وقع للتبيين لا الإضلال . ويجوز النصب فى « يضل » لأن الإرسال صار سببا للإضلال ؛ فيكون كقوله : « لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا » وإنما صار الإرسال سببا للإضلال لأنهم كفروا به لما جاءهم ؛ فصار كأنه سبب لكفرهم . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تقدم معناه .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا ﴾ أى بحجتنا وبراهيننا ؛ أى بالمعجزات الدالة على صدقه . قال مجاهد : هى التسع الآيات[1] . ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ نظيره قوله تعالى لنبينا عليه السلام أول السورة : « لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » . وقيل : « أنْ » هنا بمعنى أى ، كقوله تعالى : « وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا » أى امشوا .

قوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾ أى قل لهم قولا يتذكرون به أيام الله تعالى . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : بنعم الله عليهم ؛ وقاله أُبَىّ بن كعب ورواه مرفوعا ؛ أى بما أنعم الله عليهم من النجاة من فرعون ومن التيه ، إلى سائر النعم ؛ وقد تسمى النعم بالأيام ؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم[2] :

* وأيامٍ لنا غُرٍّ طوالٍ *

---

(١) الآيات التسع هى : الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا ويده والسنين ونقص من الثمرات .

(٢) البيت من معلقته وتمامه :

* عصينا الملك فيها أن ندينا *

وقد يكون تسميتها غرا لعلوهم على الملك وامتناعهم منه ، فأيامهم غر لهم ، وطوال على أعدائهم ؛ وعليه فلا دليل فى البيت على أن الأيام بمعنى النعم . وأيام بالجر عطف على (بأنا) فى البيت قبله ؛ ويجوز أن تجعل الواو بدلا من رب .

وعن ابن عباس أيضا ومقاتل : بوقائع الله في الأمم السابقة ؛ يقال فلان عالم بأيام العرب، أي بوقائعها . قال ابن زيد : يعني الأيام التي انتقم فيها من الأمم الخالية؛ وكذلك روى ابن وهب عن مالك قال : بلاؤه . وقال الطبري : وعظهم بما سلف في الأيام الماضية لهم ؛ أي بما كان في أيام الله من النعمة والمحنة ؛ وقد كانوا عبيدا مستذلين ؛ واكتفى بذكر الأيام عنه لأنها كانت معلومة عندهم . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "بينا موسى عليه السلام في قومه يذكرهم بأيام الله وأيام الله بلاؤه ونعماؤه" وذكر حديث الخضر ؛ ودل هذا على جواز الوعظ المرقق للقلوب، المقوي لليقين، الخالي من كل بدعة ، والمنزه عن كل ضلالة وشبهة . ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في التذكير بأيام الله ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي دلالات . ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي كثير الصبر على طاعة الله، وعن معاصيه . ﴿شَكُورٍ﴾ لنعم الله . وقال قتادة : هو العبد ؛ إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر — ثم تلا هذه الآية — «إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور»" . ونحوه عن الشعبي موقوفا . وتوارى الحسن البصري عن الحجاج سبع سنين، فلما بلغه موته قال : اللهم قد أمته فأمت سنته، وسجد شكرا ، وقرأ «إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور» . وإنما خص بالآيات كل صبار شكور لأنه يعتبر بها ولا يغفل عنها؛ كما قال : «إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا» وإن كان منذرا للجميع .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ تقدم فى «البقرة»(١) مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ قيل : هو من قول موسى لقومه . وقيل : هو من قول الله؛ أى واذكر يا محمد إذ قال ربك كذا . و «تأذّن» وأذن بمعنى أعلم؛ مثل أوعد وتوعد؛ روى معنى ذلك عن الحسن وغيره . ومنه الأذان؛ لأنه إعلام؛ قال الشاعر :

فلم نشعر بضوء الصبح حتى ٭ سمعنا فى مجالسنا الأذينا

وكان ابن مسعود يقرأ «وَإِذْ قَالَ رَبُّكُمْ» والمعنى واحد. ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ أى لئن شكرتم إنعامى لأزيدنكم من فضلى . الحسن : لئن شكرتم نعمتى لأزيدنكم من طاعتى . ابن عباس : لئن وحدتم وأطعتم لأزيدنكم من الثواب، والمعنى متقارب فى هذه الأقوال؛ والآية نص فى أن الشكر سبب المزيد؛ وقد تقدم فى «البقرة»(٢) ما للعلماء فى معنى الشكر . وسئل بعض الصلحاء عن الشكر لله فقال: ألا تتقوى بنعمه على معاصيه . وحكى عن داود عليه السلام أنه قال: أى رب كيف أشكرك، وشكرى لك نعمة مجددة منك على . قال: يا داود الآن شكرتنى .

قلت : فحقيقة الشكر على هذا الاعتراف بالنعمة للمنعم ، وألا يصرفها فى غير طاعته ؛ وأنشد الهادى وهو يأكل :

أنالك رزقه لتقوم فيه ٭ بطاعته وتشكر بعض حقه

فلم تشكر لنعمته ولكن ٭ قويت على معاصيه برزقه

فغص باللقمة، وخنقته العبرة . وقال جعفر الصادق : إذا سمعت النعمة نعمة الشكر فتأهب للمزيد . ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ أى جحدتم حقى . وقيل : نعمى؛ وعد بالعذاب على الكفر، كما وعد بالزيادة على الشكر، وحذفت الفاء التى فى جواب الشرط من «إن» للشهرة .

(١) راجع جـ ١ ص ٣٨٤ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٧١ وما بعدها طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أى لا يلحقه بذلك نقص، بل هو الغنى . «الحميد» أى المحمود .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ النبأ الخبر، والجمع الأنباء؛ قال[1] :

« ألم يأتيك والأنباء تنمى »

ثم قيل : هو من قول موسى . وقيل : من قول الله ؛ أى واذكر يا محمد إذ قال ربك كذا . وقيل : هو ابتداء خطاب من الله تعالى . وخبر قوم نوح وعاد وثمود مشهور قصه الله فى كتابه . وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾ أى لا يحصى عددهم إلا الله ، ولا يعرف نسبهم إلا الله ، والنسابون وإن نسبوا إلى آدم فلا يدعون إحصاء جميع الأمم ، وإنما ينسبون البعض، ويمسكون عن نسب البعض؛ وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم لما سمع النسابين ينسبون إلى معدّ بن عدنان ثم زادوا فقال : "كذب النسابون إن الله يقول « لا يعلمهم إلا الله »" . وقد روى عن عُروة بن الزبير أنه قال : ما وجدنا أحدا يعرف ما بين عدنان وإسمعيل . وقال ابن عباس : بين عدنان وإسمعيل ثلاثون

(١) القائل هو : قيس بن زهير ؛ وتمام البيت : * بما لاقت لبون بنى زياد * ويعده :

وحبسها على القرشى تشرى * بأدراع وأسياف حداد

وبنو زياد : الربيع بن زياد وإخوته ؛ أخذ لقيس درعا فاستاق قيس إبل الربيع لمكة وباعها لعبد الله بن جدعان وهو مراده بالقرشى — بدروع وسيوف .

أنا لا يعرفون . وكان ابن مسعود يقول حين يقرأ « لا يعلمهم إلا الله » : كذب النسابون .
﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالحجج والدلالات . ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أي جعل أولئك القوم أيدى أنفسهم فى أفواههم ليعضّوها عضًّا مما جاء به الرسل؛ إذ كان فيه تسفيه أحلامهم، وشتم أصنامهم؛ قاله ابن مسعود، ومثله قاله عبد الرحمن بن زيد، وقرأ « عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ » . وقال ابن عباس : لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم . وقال أبو صالح : كانوا إذا قال لهم نبيهم أنا رسول الله إليكم أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم : أن اسكت، تكذيبا له ، وردًّا لقوله؛ وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى؛ والضميران للكفار؛ والقول الأول أصحها إسنادا؛ قال أبو عبيد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان عن أبى إسحق عن أبى الأحوص عبد الله فى قوله تعالى « فردوا أيديهم فى أفواههم » قال عَضُّوا عليها غيظا؛ وقال الشاعر :

لو أن سلمى أبصرتْ تَخَدُّدِي[1] ... ودِقَّةً فى عظم ساقى ويدى
وبُعْدَ أهلى وجفاءَ عُوَّدِى ... عضّتْ من الوَجْدِ بأطراف اليد

وقد مضى هذا المعنى فى « آل عمران » مجوّدا[2]، والحمد لله . وقال مجاهد وقتادة : ردّوا على الرسل قولهم وكذبوهم بأفواههم؛ فالضمير الأول للرسل، والثانى للكفار . وقال الحسن وغيره : جعلوا أيديهم فى أفواه الرسل ردًّا لقولهم؛ فالضمير الأول على هذا للكفار، والثانى للرسل . وقيل معناه : أومأوا للرسل أن يسكتوا . وقال مقاتل : أخذوا أيدى الرسل ووضعوها على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم . وقيل : ردّ الرسل أيدى القوم فى أفواههم . وقيل : إن الأيدى هنا النِّعم؛ أى ردّوا نِعم الرسل بأفواههم، أى بالنطق والتكذيب؛ ومجىء الرسل بالشرائع نِعَمٌ؛ والمعنى : كذّبوا بأفواههم ما جاءت به الرسل . و « فى » بمعنى الباء؛ يقال : جلست فى البيت وبالبيت، وحروف الصفات يقام بعضها مقام بعض . وقال أبو عبيدة : هو ضرب مَثَل؛ أى لم يؤمنوا ولم يجيبوا؛ والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن

---

(١) التخدد : أن يضطرب اللحم من الهزال . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٨٢ طبعة أولى أو ثانية .

الجواب وسكت قد ردّ يده فى فيه ؛ وقاله الأخفش أيضا . وقال القتبى : لم نسمع أحدا من العرب يقول : ردّ يده فى فيه إذا ترك ما أمر به ، وإنما المعنى : عضوا على الأيدى حنقا وغيظا ؛ لقول الشاعر :

يردّون فى فيه غشّ الحسو ... د حتى يعضّ علىّ الأكفّا

يعنى أنهم يغيظون الحسود حتى يعضّ على أصابعه وكفّيه . وقال آخر :

قد أفنى أناملَه أزْمُهُ[1] ... فأضحى يعضّ علىّ الوظيفا

وقالوا : — يعنى الأمم للرسل — ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أى بالإرسال على زعمكم، لا أنهم أقروا أنهم أرسلوا . ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ﴾ أى فى ريب ومرية . ﴿مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ﴾ من التوحيد . ﴿مُرِيبٍ﴾ أى موجب للريبة ؛ يقال : أربته إذ فعلت أمرا أوجب ريبة وشكّا ؛ أى نظنّ أنكم تطلبون الملك والدنيا .

قوله تعالى : ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٠﴾

قوله تعالى : ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ﴾ استفهام معناه الإنكار؛ أى لا شك فى الله، أى فى توحيده؛ قاله قتادة . وقيل : فى طاعته . ويحتمل وجها ثالثا : أفى قدرة الله شك؟! لأنهم متفقون عليها ومختلفون فيما عداها ؛ يدل عليه قوله : ﴿فَاطِرِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالقها ومخترعها ومنشئها وموجدها بعد العدم؛ لينبه على قدرته فلا تجوز العبادة إلا له . ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ أى إلى طاعته بالرسل والكتب . ﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ قال أبو عبيد : « من » زائدة . وقال سيبويه : هى للتبعيض؛ ويجوز أن يذكر البعض والمراد منه الجميع .

(١) أزمة : عضا ؛ والوظيف لكل ذى أربع : ما فوق الرسغ إلى مفصل الساق .

وقيل: «من» للبدل وليست بزائدة ولا مبعضة؛ أى لتكون المغفرة بدلا من الذنوب. (ويؤخركم إلى أجل مسمى) يعنى الموت، فلا يعذبكم فى الدنيا. (قالوا إن أنتم) أى ما أنتم. (إلا بشر مثلنا) فى الهيئة والصورة؛ تأكلون مما نأكل، وتشربون مما نشرب، ولستم ملائكة. (تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا) من الأصنام والأوثان. (فأتونا بسلطان مبين) أى بحجة ظاهرة؛ وكان هذا محالا منهم؛ فإن الرسل ما دعوا إلا ومعهم المعجزات.

قوله تعالى: قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)

قوله تعالى: (قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم) أى فى الصورة والهيئة كما قلتم. (ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) أى يتفضل عليه بالنبوة. وقيل: بالتوفيق والحكمة والمعرفة والهداية. وقال سهل بن عبد الله: بتلاوة القرآن وفهم ما فيه.

قلت: وهذا قول حسن؛ وقد خرج الطبرى من حديث ابن عمر قال قلت لأبى ذر: يا عم أوصنى؛ قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتنى فقال: "ما من يوم ولا ليلة ولا ساعة إلا ولله فيه صدقة يمن بها على من يشاء من عباده وما من الله تعالى على عباده بمثل أن يلهمهم ذكره". (وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان) أى بحجة وآية. (إلا بإذن الله) أى بمشيئته. وليس ذلك فى قدرتنا؛ أى لا نستطيع أن نأتى بحجة كما تطلبون إلا بأمره وقدرته؛ فلفظه لفظ الخبر، ومعناه النفى؛ لأنه لا يحظر على أحد ما لا يقدر عليه. (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) تقدم معناه.

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ﴾ « ما » استفهام فى موضع رفع بالابتداء، و« لنا » الخبر، وما بعدها فى موضع الحال؛ التقدير : أىّ شىء لنا فى ترك التوكل على الله ﴿ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ أى الطريق الذى يوصل إلى رحمته، وينجى من سخطه ونقمته . ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ ﴾ لام قسم؛ مجازه: والله لنصبرن ﴿ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ﴾ به، أى من الإهانة والضرب، والتكذيب والقتل، ثقة بالله أنه يكفينا ويثيبنا ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا ﴾ اللام لام قسم؛ أى والله لنخرجنكم . ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ ﴾ أى حتى تعودوا أو إلا أن تعودوا؛ قاله الطبرى وغيره . قال ابن العربى: وهو غير مفتقر إلى هذا التقدير، فإن « أو » على بابها من التخيير؛ خيّر الكفارُ الرسلَ بين أن يعودوا فى ملّتهم أو يخرجوهم من أرضهم؛ وهذه سيرة الله تعالى فى رسله وعباده؛ ألا ترى إلى قوله : « وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا » وقد تقدم هذا المعنى فى « الأعراف » (1) وغيرها . ﴿ فِي مِلَّتِنَا ﴾ أى إلى ديننا ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ أى مقامه بين يدىّ يوم القيامة؛ فأضيف المصدر إلى الفاعل . والمَقام مصدر كالقيام؛ يقال : قام قياما ومَقاما؛ وأضاف ذلك إليه لاختصاصه به . والمقام بفتح الميم مكان الإقامة، وبالضم فعل الإقامة؛ و« ذلك لمن خاف مقامى » أى قيامى عليه، ومراقبتى له؛ قال الله تعالى : « أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » . وقال الأخفش : « ذلك لمن خاف مقامى » أى عذابى، « وخاف وعيد » أى القرآن وزواجره . وقيل : إنه العذاب . والوعيد الاسم من الوعد .

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٥٠ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا﴾ أى وٱستنصروا ؛ أى أُذن للرسل فى الاستفتاح على قومهم، والدعاء بهلاكهم ؛ قاله ابن عباس وغيره ، وقد مضى فى « البقرة »[١] . ومنه الحديث : إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يَسْتَفْتِح بصعاليك المهاجرين ؛ أى يَستنصر. وقال ابن زيد : استفتحت الأمم بالدعاء كما قالت قريش : «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ » الآية ؛ وروى عن ابن عباس . وقيل قال الرسول : "إنهم كذّبونى فافتح بينى وبينهم فتحا" وقالت الأمم : إن كان هؤلاء صادقين فعذّبنا ، عن ابن عباس أيضا ؛ نظيره «ٱئتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين » « ٱئتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين » . ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ الجبّار المتكبر الذى لا يرى لأحد عليه حقا ؛ هكذا هو عند أهل اللغة ، ذكره النحاس . والعنيد المعاند للحق والمجانب له ، عن ٱبن عباس وغيره ؛ يقال : عَنَد عن قومه أى تباعد عنهم . وقيل : هو من العَنَد ، وهو الناحية وعاند فلانٌ أى أخذ فى ناحية مُعْرِضا ؛ قال الشاعر :

إذا نزلتُ فٱجعلونى وَسَطًا ٭ إنّى كبيرٌ لا أُطيقُ العُنَّدَا

وقال الهَرَوىّ قوله تعالى : « جبار عنيد » أى جائر عن القصد ؛ وهو العَنُود والعَنِيد والعانِد ؛ وفى حديث ٱبن عباس وسئل عن المستحاضة فقال : إنه عِرْقٌ عانِدٌ . قال أبو عبيد : هو الذى عَنَد وبَغَى كالإنسان يعانِد ؛ فهذا العِرق فى كثرة ما يخرج منه بمنزلته . وقال شَمِر : العاند الذى لا يرقأ . وقال عمر يذكر سيرته : أَضُمُّ العَنُود ؛ قال الليث : العنود من الإبل الذى لا يخالطها إنما هو فى ناحيــة أبدا ؛ أراد من هَمَّ بالخلاف أو بمفارقة الجماعة عطفتُ به إليها . وقال مقاتل : العنيد المتكبر . وقال ابن كَيْسان : هو الشامخ بأنفه . وقيل : العَنُود والعَنِيد الذى

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٦ وما بعدها طبعة ثانية .

يتكبر على الرسل ويذهب عن طريق الحق فلا يسلكها؛ تقول العرب : شر الإبل العنود الذي يخرج عن الطريق . وقيل : العنيد العاصي ؛ وقال قتادة : العنيد الذي أبى أن يقول لا إله إلا الله .

قلت : والجبار والعنيد في الآية بمعنى واحد، وإن كان اللفظ مختلفا ، وكل متباعد عن الحق جبار وعنيد أي متكبر . وقيل : إن المراد به في الاية أبو جهل؛ ذكره المهدوي . وحكى الماوردي في كتاب « أدب الدنيا والدين » أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوما في المصحف فخرج له قوله عز وجل : « وٱستفتحوا وخاب كل جبار عنيد » فمزق المصحف وأنشأ يقول :

أتُوعِدُ كلَّ جبارٍ عنيدٍ * فها أنا ذاكَ جبارٌ عنيدُ
إذا ماجئتَ ربَّكَ يومَ حَشْرٍ * فقُلْ يا ربِّ مزَّقني الوليدُ

فلم يلبث أياما حتى قُتل شرَّ قِتلة، وصُلب رأسه على قصره، ثم على سُور بلده .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ﴾ أي من وراء ذلك الكافر جهنم ، أي من بعد هلاكه . ووراء بمعنى بعد؛ قال النابغة :

حلفتُ فلم أترك لنفسكَ رِيبةً * وليس وراءَ الله للمرء مذهبُ

أي بعد الله جل جلاله ، وكذلك قوله تعالى : « وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ » أي من بعده؛ وقوله تعالى : « ويكفرون بما وراءه » أي بما سواه؛ قاله الفراء . وقال أبو عبيد : بما بعده . وقيل : « من ورائه » أي من أمامه ، ومنه قول الشاعر :

ومِنْ ورائكَ يومٌ أنتَ بالغُهُ * لا حاضرٌ مُعجِزٌ عنه ولا بادِي

وقال آخر :

أترجو بنو مروانَ سمعي وطاعتي * وقومي تميمٌ والفلاةُ ورائيا

وقال لبيد :

أليس ورائي إنْ [تَراخَتْ] (١) منيتي * لُزومُ العصا تُحنَى عليها الأصابعُ

(١) كذا في ديوانه ؛ وفي الأصل : « إن بلغت منيتي » .

يريد أمامي . وفي التنزيل « وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ » أي أمامهم ، وإلى هذا ذهب أبو عبيدة وأبو علي قُطْرُب وغيرهما . وقال الأخفش : هو كما يقال هذا الأمر من ورائك ، أي سوف يأتيك ، وأنا من وراء فلان أي في طلبه وسأصل إليه . وقال النحاس : في قوله «مِن ورائِه جهنم» أي من أمامه ، وليس من الأضداد ولكنه من توارَى ؛ أي آستتر . وقال الأزهري : إن وراء تكون بمعنى خلف وأمام فهو من الأضداد ، وقاله أبو عبيدة أيضا ، واشتقاقهما مما توارى واستتر ، فجهنم توارَى ولا تظهر ، فصارت من وراء لأنها لا ترى ؛ حكاه ابن الأنباري وهو حسن .

قوله تعالى : ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴾ أي من ماء مثل الصديد ، كما يقال للرجل الشجاع أسد ، أي مثل الأسد ؛ وهو تمثيل وتشبيه . وقيل : هو ما يسيل من أجسام أهل النار من القيح والدم . وقال محمد بن كعب القُرَظي والربيع بن أنس : هو غُسالة أهل النار ، وذلك ماء يسيل من فروج الزناة والزواني . وقيل : هو من ماء كرهته تَصدّ عنه ، فيكون الصديد مأخوذا من الصدّ . وذكر ابن المبارك ، أخبرنا صفوان بن عمرو عن عُبيد الله بن بُسْر عن أبي أُمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله « وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ » قال : " يُقرب إلى فِيه فيكرهه فإذا أُدني منه شَوَى وجهه ووقعت فَرْوَة رأسه فإذا شربه قطّع أمعاءه حتى تخرج من دبره يقول الله « وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ » ويقول « وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ » " خرجه الترمذي ، وقال : حديث غريب ؛ وعُبيد الله بن بُسْر الذي روى عنه صفوان بن عمرو حديث أبي أمامة لعله أن يكون أخا عبد الله ابن بُسْر . ﴿ يَتَجَرَّعُهُ ﴾ أي يتحسّاه جرعا لا مرة واحدة لمرارته وحرارته . ﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ أي يبتلعه ؛ يقال : جرع الماء وآجترعه وتجرعه بمعنى . وساغ الشرابُ في الحلق يسوغ سَوْغا إذا كان سَلِسا سهلا ، وأساغه الله إساغةً . و « يكاد » صلة ؛ أي يسيغه بعد إبطاء ، قال الله تعالى : « وما كادوا يفعلون » أي فعلوا بعد إبطاء ؛ ولهذا قال : « يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ »[1] فهذا يدل على الإساغة . وقال ابن عباس : لا يجيزه ولا يمر به[2] . ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ

(١) آية ٢٠ من سورة الحج . (٢) كذا في الأصل ؛ ولعله « لا يجيزه ولا يمرأ به » .

منْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ قال ابن عباس : أى يأتيه أسباب الموت من كل جهة عن يمينه وشماله ، ومن فوقه وتحته ومن قدامه وخلفه ، كقوله : « لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ » . وقال إبراهيم التيمى : يأتيه من كل مكان من جسده حتى من أطراف شعره؛ للآلام التى فى كل مكان من جسده . وقال الضحاك : إنه ليأتيه الموت من كل ناحية ومكان حتى من إبهام رجليه . وقال الأخفش : يعنى البلايا التى تصيب الكافر فى النار سماها موتا ، وهى من أعظم الموت . وقيل : إنه لا يبقى عضو من أعضائه إلا وُكِّل به نوع من العذاب؛ لو مات سبعين مرة لكان أهون عليه من نوع منها فى فرد لحظة؛ إما حية تنهشه، أو عقرب تلسبه[1] ، أو نار تسفعه ، أو قيد برجليه ، أو غُلّ فى عنقه ، أو سلسلة يقرن بها ، أو تابوت يكون فيه ، أو زقوم أو حميم ، أو غير ذلك من العذاب . وقال محمد بن كعب : إذا دعا الكافر فى جهنم بالشراب فرآه مات موتات ، فإذا دنا منه مات موتات ، فإذا شرب منه مات موتات ؛ فذلك قوله : « وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ » . قال الضحاك : لا يموت فيستريح . وقال ابن جريج : تعلق روحه فى حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ، ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة ؛ ونظيره قوله : « لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا » . وقيل : يخلق الله فى جسده آلاما كل واحد منها كألم الموت . وقيل : « وما هو بميت » لتطاول شدائد الموت به ، وامتداد سكراته عليه ؛ ليكون ذلك زيادة فى عذابه .

قلت : ويظهر من هذا أنه يموت ، وليس كذلك ؛ لقوله تعالى : « وَلَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا » وبذلك وردت السنة ؛ فأحوال الكفار أحوال من استولى عليه سكرات الموت دائما ، والله أعلم . ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِ ﴾ أى من أمامه . ﴿ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ أى شديد متواصل الآلام من غير فتور ؛ ومنه قوله : « وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً » أى شدة وقوة . وقال فضيل بن عياض فى قول الله تعالى : « وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ » قال : حبس الأنفاس .

---

(١) تلسبه : تلدغه .

قوله تعالى : مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ اختلف النحويون فى رفع «مثل» فقال سيبويه : آرتفع بالآبتداء والخبر مضمر؛ التقدير : وفيما يُتلى عليكم أو يُقصّ «مَثَلُ الّذين كَفَرُوا بِرَبِّهِم» ثم آبتدأ فقال : «أَعْمَالُهُم كَرَمَادٍ» أى كَمَثَل رماد ﴿ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ . وقال الزجاج : أى مَثَل الذين كفروا فيما يتلى عليكم أعمالهم كرماد، وهو عند الفراء على إلغاء المَثَل، التقدير : والذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد ؛ وعنه أيضا أنه على حذف مضاف؛ التقدير : مثل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد؛ وذكر الأول عنه المهدوىّ، والثانى القُشَيرىّ والثعلبىّ . ويجوز أن يكون مبتدأ كما يقال : صفة فلان أسمر؛ «فمَثَل» بمعنى صفة . ويجوز فى الكلام جر «أعمالهم» على بدل الآشتمال من «الذين» وآتصل هذا بقوله : «وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» والمعنى : أعمالهم مُحْبَطة غير مقبولة . والرماد ما بقى بعد آحتراق الشيء؛ فضربَ الله هذه الآية مثلا لأعمال الكفّار فى أنه يمحقها كما تمحق الرّيحُ الشديدة الرّمادَ فى يوم عاصف . والعصف شدة الريح؛ وإنما كان ذلك لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى . وفى وصف اليوم بالعُصُوف ثلاثة أقاويل : أحدها — أن العُصُوف وإن كان للريح فإن اليوم قد يوصف به؛ لأن الرّيح تكون فيه، فجاز أن يقال : يوم عاصف، كما يقال : يوم حارّ ويوم بارد، والبرد والحرّ فيها . والثانى — أن يريد «فى يوم عاصف» الريح؛ لأنها ذكرت فى أول الكلمة، كما قال الشاعر :

• إذا جاء يومٌ مُظْلِمُ الشّمسِ كاسِف •

يريد كاسف الشمس فحذف؛ لأنه قد مر ذكره؛ ذكرهما الهَرَوىّ . والثالث — أنه من نعت الريح ؛ غير أنه لما جاء بعد اليوم أتبع إعرابه كما قيل : جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ ، ذكره

الثعلبىّ والماوردىّ . وقرأ ابن إسحق وإبراهيم بن أبى بكر «فى يوم عاصفٍ»[١] . ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ يعنى الكفار . ﴿مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ يريد فى الآخرة ؛ أى من ثواب ما عملوا من البرّ فى الدنيا ، لإحباطه بالكفر . ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أى الخسران الكبير ؛ وإنما جعله كبيرا بعيدا لفوات استدراكه بالموت .

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ الرؤية هنا رؤية القلب ؛ لأن المعنى : ألم ينته علمك إليه . وقرأ حمزة والكسائى — « خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » . ومعنى « بالحق » ليستدل بهما على قدرته . ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها الناس ؛ أى هو قادر على الإفناء كما قدر على إيجاد الأشياء ؛ فلا تعصوه فإنكم إن عصيتموه يذهبكم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أفضل وأطوع منكم ؛ إذ لو كانوا مثل الأولين فلا فائدة فى الإبدال . ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أى منيع متعذر .

قوله تعالى : وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)

---

(١) هذه القراءة بإضافة يوم إلى عاصف ، على أنها صفة لموصوف محذوف ، أى فى يوم ريح عاصف .

قوله تعالى : ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أي برزوا من قبورهم ، يعني يوم القيامة . والبُرُوز الظهور . والبَرَاز المكان الواسع لظهوره ؛ ومنه آمرأة بَرْزة أي تظهر للناس ؛ فمعنى « برزوا » ظهروا من قبورهم . وجاء بلفظ الماضي ومعناه الاستقبال ، وآتصل هذا بقوله : « وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » أي وقاربوا لما آستفتحوا فأهلكوا ، ثم بعثوا للحساب فبرزوا لله جميعا لايسترهم عنه ساتر . « لِلَّهِ » لأجل أمر الله إياهم بالبروز . ﴿ فَقَالَ ٱلضُّعَفَاءُ ﴾ يعني الأتباع ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا ﴾ وهم القادة ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ يجوز أن يكون تَبَعٌ مصدرا ؛ التقدير : ذوى تَبَع . ويجوز أن يكون جمع تابع ؛ مثل حارس وحَرَس ، وخادم وخَدَم ، وراصد ورَصَد ، وباقر وبَقر . ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ ﴾ أي دافعون عنا ﴿ مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي شيئا ، و « من » صلة ؛ يقال : أغنى عنه إذا دفع عنه الأذى ، وأغناه إذا أوصل إليه النفع . ﴿ قَالُوا لَوْ هَدَانَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ أي لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه . وقيل : لو هدانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها . وقيل ؛ لو نجانا الله من العذاب لنجيناكم منه . ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا ﴾ هذا ابتداء خبره « أجزعنا » أي : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾ أي من مهرب وملجأ . ويجوز أن يكون بمعنى المصدر ، وبمعنى الاسم ؛ يقال : حاص فلان عن كذا أي فرّ وزاغ يَحِيص حَيْصًا وحُيُوصًا وحَيَصانًا ؛ والمعنى : ما لنا وجه نتباعد به عن النار . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يقول أهل النار إذا آشتدّ بهم العذاب تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا هَلُمَّ فلنجزع فيجزعون ويصيحون خمسمائة عام فلما رأوا أن ذلك لاينفعهم قالوا « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص» " . وقال محمد بن كعب القُرَظِيّ : ذُكر لنا أن أهل النار يقول بعضهم لبعض : يا هؤلاء ! قد نزل بكم من البلاء والعذاب ما قد ترون ، فهلمّ فلنصبر ؛ فلعلّ الصبر ينفعنا كما صبر أهل الطّاعة على طاعة الله فنفعهم الصّبر إذ صبروا ؛ فأجمعوا رأيهم على الصبر فصبروا ، فطال صبرهم فجزعوا ، فنادوا : « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص » أي مَنجى ، فقام إبليس عند ذلك فقال : « إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ

وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ» يقول: لست بمغن عنكم شيئا «وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ» الحديث بطوله، وقد كتبناه فى كتاب «التذكرة» بكماله .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ قال الحسن : يقف إبليس يوم القيامة خطيبا فى جهنم على منبر من نار يسمعه الخلائق جميعا . ومعنى «لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ» أى حُصّل أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار، على ما يأتى بيانه فى «مريم»[1] عليها السلام .

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ﴾ يعنى البعث والجنة والنار وثواب المطيع وعقاب العاصى فصدّقكم وعده، ووعدتكم أن لا بعث ولا جنة ولا نار ولا ثواب ولا عقاب فأخلفتكم . وروى ابن المبارك من حديث عُقْبة بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث الشفاعة قال : "فيقول عيسى أدلّكم على النبى الأمىّ فيأتون فيأذن الله لى أن أقوم فيثور مجلسى من أطيب ريح شمّها أحدٌ حتى آتى ربى فيشفعنى ويجعل لى نورا من شعر رأسى إلى ظفر قدمى ثم يقول الكافرون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون ما هو غير إبليس هو الذى أضلنا فيأتونه فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فاشفع لنا فإنك أضللتنا فيثور مجلسُهُ من أنتن ريح شمّها أحدٌ ثم يَعظُم نحيبهم ويقول عند ذلك : «إنّ الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم» الآية . «وعد الحق» هو إضافة الشيء إلى نفسه كقولهم؛ مسجد الجامع؛ قال الفراء قال البصريون : وعدكم وعد اليوم الحقّ أو وعدكم وعد الوعد الحق فصدقكم؛ فحذف المصدر لدلالة الحال. ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أى من حجة وبيان؛ أى ما أظهرت لكم حجة على ما وعدتكم وزينته لكم فى الدنيا ﴿ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ أى أغويتكم فتابعتمونى . وقيل : لم أقهركم على ما دعوتكم إليه . «إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ» هو استثناء منقطع؛ أى لكن دعوتكم بالوسواس فاستجبتم لى باختياركم «فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ» . وقيل : «وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ» أى على قلوبكم وموضع إيمانكم لكن

---

(1) فى تفسير قوله تعالى «وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر» آية ٣٩ من السورة المذكورة.

دعوتكم فاستجبتم لي؛ وهذا على أنه خَطَب العاصيَ المؤمنَ والكافرَ الجاحد؛ وفيه نظر لقوله : « لما قضي الأمر » فإنه يدل على أنه خَطَب الكفّار دون العاصين الموحِّدين؛ والله أعلم . ﴿ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ إذا جئتموني من غير حجة . ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ أي بمغيثكم . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ أي بمغيثيّ . والصّارخ والمستصرخ هو الذي يطلب النُّصرة والمعاونة، والمُصْرِخ هو المُغيث . قال سَلَامة بن جَنْدَل :

كنّا إذا ما أتانا صارخٌ فَزِعٌ ... كان الصُّراخُ له قَرْعَ الظَّنابيب[1]

وقال أميّة بن أبي الصَّلْت :

ولا تجزعوا إني لكم غيرُ مُصْرِخٍ ... وليس لكم عندي غَنَاءٌ ولا نَصْرُ

يقال : صَرَخ فلان أي استغاث يَصرُخ صَرْخًا وصُرَاخًا وصَرْخَةً . واصطرخ بمعنى صَرَخ . والتَّصرّخ تكلُّف الصُّراخ . والمُصْرِخ المُغيث، والمستصرِخ المستغيث؛ تقول منه : استصرخني فأصرخته . والصَّريخ صوت المستصرِخ . والصّريخ أيضا الصارخ، وهو المغيث والمستغيث، وهو من الأضداد؛ قاله الجوهري . وقراءة العامة « بمصرخيَّ » بفتح الياء . وقرأ الأعمش وحمزة « بمصرخيِّ » بكسر الياء . والأصل فيها بمصرخِيِين فذهبت النون للإضافة، وأدغمت ياء الجماعة في ياء الإضافة، فمن نصب فلأجل التضعيف، ولأن ياء الإضافة إذا سكن ما قبلها تعين فيها الفتح مثل : هَوايَ وعَصايَ؛ فإن تحرك ما قبلها جاز الفتح والإسكان، مثل : غلاميَ وغلاميْ؛ ومن كسر فلالتقاء الساكنين حركت إلى الكسر؛ لأن الياء أخت الكسرة . وقال الفراء : قراءة حمزة وَهَمٌ منه؛ وقَلَّ من سلم منهم عن خطأ[2] . وقال الزجاج : هذه قراءة رديئة ولا وجه لها إلا وجه ضعيف . وقال قُطْرُب : هذه لغة بني يَرْبُوع يزيدون على ياء الإضافة ياء . القُشَيري : والذي يغني عن هذا أن ما يثبت بالتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم فلا يجوز أن يقال فيه هو خطأ أو قبيح أو رديء، بل هو في القرآن فصيح، وفيه ما هو أفصح منه، فلعل هؤلاء أرادوا أن غير هذا الذي قرأ به حمزة أفصح . ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ

---

(١) الظنابيب (جمع) ظنبوب : وهو حرف الساق اليابس من قدم . وقرع الظنبوب أن يقرع الرجل ظنبوب البعير ليتنوخ له فيركبه؛ والمراد هنا سرعة الإجابة . (٢) أي من القراء .

﴿مِن قَبْلُ﴾ أي كفرت بإشراككم إياي مع الله تعالى في الطاعة؛ فـ «ما» بمعنى المصدر. وقال ابن جريج[1]: إني كفرت اليوم بما كنتم تدعونه في الدنيا من الشرك بالله تعالى. قتادة: إني عصيت الله. الثوري: كفرت بطاعتكم إياي في الدنيا. ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وفي هذه الآيات ردّ على القدرية والمعتزلة والإمامية ومن كان على طريقهم؛ أنظر إلى قول المتبوعين: «لو هدانا الله لهديناكم» وقول إبليس: «إن الله وعدكم وعد الحق» كيف اعترفوا بالحق في صفات الله تعالى وهم في دركات النار؛ كما قال في موضع آخر: «كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها» إلى قوله: «فاعترفوا بذنبهم» واعترافهم في دركات لظى بالحق ليس بنافع، وإنما ينفع الاعتراف صاحبه في الدنيا؛ قال الله عز وجل: «وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم» و«عسى» من الله واجبة.

قوله تعالى: وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾ أي في جنات لأن دخلت لا يتعدى، كما لا يتعدى نقيضه وهو خرجت، ولا يقاس عليه؛ قاله المهدوي. ولما أخبر تعالى بحال أهل النار أخبر بحال أهل الجنة أيضا. وقراءة الجماعة «أُدخلَ» على أنه فعل مبني للمفعول. وقرأ الحسن «وأُدخلُ» على الاستقبال والاستئناف. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي بأمره. وقيل: بمشيئته وتيسيره. وقال: «بإذن ربهم» ولم يقل: بإذني تعظيما وتفخيما. ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ تقدم في «يونس»[2]. والحمد لله.

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾

---

(١) في بعض النسخ ابن عمر. (٢) راجع جـ ٨ ص ٣١٢ طبعة أولى أو ثانية.

فيه مسئلتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ لما ذكر تعالى مَثَل أعمال الكفار وأنها كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف، ذكر مَثَل أقوال المؤمنين وغيرها، ثم فسّر ذلك المَثَل فقال: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الثمر، فحذف لدلالة الكلام عليه. قال ابن عباس: الكلمة الطيبة لا إله إلا الله والشجرة الطيبة المؤمن. وقال مجاهد وابن جُرَيْج : الكلمة الطيبة الإيمان . عطية العَوْفِىّ والربيع بن أنس : هى المؤمن نفسه . وقال مجاهد أيضا وعِكْرِمة : الشّجرة النّخلة ؛ فيجوز أن يكون المعنى : أصل الكلمة فى قلب المؤمن ــ وهو الإيمان ــ شبّهه بالنّخلة فى المَنْبِت، وشبّه ارتفاع عمله فى السماء بارتفاع فروع النّخلة، وثواب الله له بالثمر . وروى من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن مَثَل الإيمان كمثل شجرة ثابتة الإيمانُ عُروقُها والصلاةُ أصلُها والزكاةُ فروعُها والصيامُ أغصانُها والتأذى فى الله نباتُها وحسنُ الخُلُق ورقُها والكفُّ عن محارم الله ثمرتُها". ويجوز أن يكون المعنى: أصل النّخلة ثابت فى الأرض؛ أى عروقها تشرب من الأرض وتسقيها السماء من فوقها، فهى زاكية نامية . وخرّج الترمذى من حديث أنس بن مالك قال: أُتى رسولُ الله صلى الله عليه بقِنَاع(1) فيه رُطَب، فقال : "مَثَلُ كلمةٍ طيبةٍ كشجرةٍ طيبةٍ أصلها ثابت وفرعها فى السماءِ تؤتى أكلها كل حينٍ بإذنِ ربها ــ قال ــ هى النخلة ومثل كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرارٍ ــ قال ــ هى الحَنْظَل" . وروى عن أنس قوله [وقال] : وهو أصح(2) . وخرّج الدّارقُطْنىّ عن ابن عمر قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم «ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أتدرون ما هى" فوقع فى نفسى أنها النّخلة . قال السُّهَيْلىّ : ولا يصح فيها ما روى عن علىّ بن أبى طالب أنها جَوْزة الهند؛ لما صحّ عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث ابن عمر "إنّ من الشجر شجرةً لا يسقط ورقها وهى مِثْلُ المؤمن خبّرونى ما هى ــ ثم قال ــ هى النخلة" خرّجه مالك فى «الموطأ» من رواية ابن القاسم وغيره إلا يحيى فانه أسقطه من روايته . وخرّجه أهل الصحيح وزاد

(1) القناع : الطبق الذى يؤكل عليه . (2) أى قال الترمذى : والحديث الموقوف أصح .

فيه الحارث بن أسامة زيادة تساوى رحلة[1]؛ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "وهي النخلة لا تسقط لها أنملة وكذلك المؤمن لا تسقط له دعوة" فبيّن معنى الحديث والمماثلة .

قلت : وذكر الغزنوى عنه عليه السلام "مَثَلُ المؤمن كالنّخلة إن صاحبتَه نفعكَ و إن جالستَه نفعكَ و إن شاورتَه نفعكَ كالنّخلة كل شيء منها ينتفع به". وقال: "كُلُوا من عَمَّتِكُم" يعنى النخلة خلقت من فَضْلة طينة آدم عليه السلام، وكذلك أنها برأسها تبقى، و بقلبها تحيا ؛ وثمرها بامتزاج الذكر والأنثى . وقد قيل: إنها لما كانت أشبه الأشجار بالإنسان شُبّهت به ؛ وذلك أن كل شجرة إذا قطع رأسها تشعبت الغصون من جوانبها ، والنخلة إذا قطع رأسها يبست وذهبت أصلا ؛ ولأنها تشبه الإنسان وسائر الحيوان فى الالتقاح لأنها لا تحمل حتى تُلْقَح قال النبي صلى الله عليه وسلم: "خيرُ المال سِكّة مأبورة ومُهْرة مأمورة"[2]. والإبار اللّقاح وسيأتى فى سورة « الحجر » بيانه[3] . ولأنها من فَضْلة طينة آدم . ويقال: إن الله عز وجل لما صوّر آدم من الطّين فَضَلت قطعة طين فصوّرها بيده وغرسها فى جنّة عَدْن . قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أكرموا عَمّتكم" قالوا: ومن عمتنا يا رسول الله؟ قال: "النخلة". ﴿تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ قال الربيع: « كلّ حِينٍ» غُدوة وعَشِيّة كذلك يصعَد عملُ المؤمن أول النهار وآخره؛ وقاله ابن عباس. وعنه « تؤتى أكلها كل حِينٍ» قال: هو شجرة الهند لا تتعطل من ثمرة، تحمل فى كل شهر؛ شبه عمل المؤمن لله عز وجل فى كل وقت بالنخلة التى تؤتى أكلها فى أوقات مختلفة . وقال الضحاك: كل ساعة من ليل أو نهار شتاء وصيفا يؤكل فى جميع الأوقات ، وكذلك المؤمن لا يخلو من الخير فى الأوقات كلها . قال النحاس : وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة ، لأن الحين عند جميع أهل اللغة إلا من شذّ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره ، وأنشد الأصمعى بيت النابغة:

تَنَاذَرَها الرّاقُونَ مِن سُوءِ سَمّها ٭ تُطَلِّقُه حِينًا وحِينًا تُرَاجِعُ[4]

---

(١) كذا فى الأصل . (٢) السكة : الطريقة المصطفة من النخل ، والمهرة المأمورة الكثيرة النسل والنتاج ؛ أراد خير المال نتاج أو زرع . (٣) فى تفسير قوله تعالى : «وأرسلنا الرياح لواقح» آية ٢٢ .

(٤) البيت فى وصف حية ؛ و « تناذرها الراقون » أى أنذر بعضهم بعضا ألا يتعرضوا لها . ومعنى «تطلقه حينا وحينا تراجع» أنها تخف الأوجاع عن السليم تارة، وتارة تشتد عليه . ويروى : «من سوء سمها» [illegible] الراقى لا أنها سماء ؛ لقولهم : أسمع من حية .

فهذا يبين لك أن الحين بمعنى الوقت، فالإيمان ثابت فى قلب المؤمن، وعمله وقوله وتسبيحه عالٍ مرتفع فى السماء ارتفاع فروع النخلة، وما يكسب من بركة الإيمان وثوابه كما يُنال من ثمرة النخلة فى أوقات السنة كلها، من الرطب والبُسْر والبلح والزَّهْو[1] والتمر والطَّلْع. وفى رواية عن ابن عباس: إن الشجرة الطيبة شجرة فى الجنة تثمر فى كل وقت. و «مثلا» مفعول بـ«ضرب»، «وكلمة» بدل منه، والكاف فى قوله: «كشجرة» فى موضع نصب على الحال من «كلمة» التقدير: كلمة طيبة مشبهة بشجرة طيبة.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ لما كانت الأشجار تؤتى أكلها كل سنة مرة كان فى ذلك بيان حكم الحين، ولهذا قلنا: من حلف ألّا يكلّم فلانا حينا ولا يقول كذا حينا إن الحين سنة. وقد ورد الحين فى موضع آخر يراد به أكثر من ذلك لقوله تعالى: «هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ» قيل فى «التفسير»: أربعون عاما. وحكى عكرمة أن رجلا قال: إن فعلت كذا وكذا إلى حين فغلامه حُرٌّ، فأتى عمرَ بن عبد العزيز فسأله، فسألنى عنها فقلت: إن من الحين حينا لا يُدْرك، قوله: «وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ» فأرى أن تُمسك ما بين صِرام[2] النخلة إلى حَمْلها، فكأنه أعجبه، وهو قول أبى حنيفة فى الحين أنه ستة أشهر اتباعا لعكرمة وغيره. وقد مضى ما للعلماء فى الحين فى «البقرة»[3] مستوفى والحمد لله. ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ أى الأشباه للناس. ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ويعتبرون، وقد تقدم.

قوله تعالى: وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ الكلمة الخبيثة كلمة الكفر. وقيل: الكافر نفسه. والشجرة الخبيثة شجرة الحنظل كما فى حديث أنس، وهو قول ابن عباس ومجاهد

(١) الزهو: البسر الملوّن. (٢) صرام النخلة: حين يقطع ثمرها. (٣) راجع [illegible] ص ٣٤١ طبعة ثانية أو [illegible].

وغيرهما، وعن ابن عباس أيضا أنها شجرة لم تخلق على الأرض . وقيل : هي شجرة الثوم؛ عن ابن عباس أيضا . وقيل : الكَمْأة أو الطحلبة . وقيل : الكَشُوث، وهي شجرة لا ورق لها ولا عروق في الأرض؛ قال الشاعر :

* وهُمْ كَشُوثٌ فلا أصلٌ ولا ورقٌ[1] *

﴿ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ ﴾ اقتلعت من أصلها؛ قاله ابن عباس؛ ومنه قول لَقِيط[2]:

هو الجلاءُ الذي يَجتثُّ أصلَكُمُ * فمن رأى مثلَ ذا يوماً ومن سَمِعَا

وقال المؤرّج : أُخذت جثتها وهي نفسها ، والجثة شخص الإنسان قاعدا أو قائما . وجثّه قلعه ، واجتثه اقتلعه من فوق الأرض ؛ أي ليس لها أصل راسخ يشرب بعروقه من الأرض . ﴿ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ أي من أصل في الأرض . وقيل : من ثبات؛ فكذلك الكافر لا حجة له ولا ثبات ولا خير فيه ، وما يصعد له قول طيب ولا عمل صالح . وروى معاوية ابن صالح عن علي بن أبي طلحة في قوله تعالى «وضرب الله مثلا كلمة طيبة» قال : لا إله إلا الله «كشجرة طيبة» قال : المؤمن ؛ «أصلها ثابت» لا إله إلا الله ثابتة في قلب المؤمن؛ «ومثل كلمة خبيثة» قال : الشرك، «كشجرة خبيثة» قال : المشرك؛ «اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار» أي ليس للشرك أصل يعمل عليه . وقيل : يرجع المثل إلى الدعاء إلى الإيمان والدعاء إلى الشرك؛ لأن الكلمة يفهم منها القول والدعاء إلى الشيء .

قوله تعالى : يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ قال ابن عباس : هو لا إله إلا الله . وروى النسائي عن البراء قال قال : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت

---

(١) تمامه :

* ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر *

يريد أنهم لا حسب لهم ولا نسب .

(٢) هو لقيط بن معمر الإيادي ، والبيت من قصيدة بعث بها إلى قومه يحذرهم كسرى وجيشه ؛ فلم يلتفتوا إلى قوله ، فظفر بهم كسرى وهزمهم .

فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » نزلت فى عذاب القبر؛ يقال : من ربك ؟ فيقول : ربى الله ودينى دين محمد ، فذلك قوله : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

قلت : وقد جاء هكذا موقوفا فى بعض طرق مسلم عن البَرَاء [أنه][1] قوله ، والصحيح فيه الرفع كما فى صحيح مسلم وكتاب النَّسائى وأبى داود وابن ماجه وغيرهم عن البَرَاء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ وذكر البخاريّ، حدّثنا جعفر بن عمر، قال حدّثنا شُعْبة عن عَلْقمة بن مَرْثَد عن سعد بن عبيدة عن البَرَاء بن عازب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إذا أقعد المؤمنُ فى قبره أتاه آتٍ ثم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فذلك قوله « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة »" . وقد بينا هذا الباب فى كتاب « التذكرة » وبيّنا هناك من يُفْتَن فى قبره ويُسأل، فمن أراد الوقوف عليه تأمله هناك . وقال سهل بن عمّار : رأيت يزيد بن هرون فى المنام بعد موته، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : أتانى فى قبرى ملَكان فظّان غليظان ، فقالا : ما دينك ومن ربك ومن نبيّك ؟ فأخذتُ بلحيتى البيضاء وقلتُ : ألمثلى يقال هذا وقد علّمتُ الناسَ جوابكما ثمانين سَنَة ؟ ! فذهبا وقالا : أكَتَبْتَ عن حَرِيز بن عثمان ؟ قلت نعم ! فقالا : إنه كان يبغض [عليًّا][2] فأبغضه الله . وقيل : معنى «يثبت الله» يديمهم الله على القول الثابت، ومنه قول عبد الله بن رَوَاحة :

يُثَبِّتُ اللهُ ما آتاكَ مِنْ حَسَنٍ * تثبيتَ موسى ونَصراً كالذى نُصِرا

وقيل : يثبتهم فى الدارين جزاء لهم على القول الثابت . وقال القَفَّال وجماعة : « فى الحياة الدنيا » أى فى القبر؛ لأن الموتى فى الدنيا إلى أن يبعثوا « وفى الآخرة » أى عند الحساب؛ وحكاه الماوردىّ عن البَرَاء قال : المراد بالحياة الدنيا المُسَاءلة فى القبر، وبالآخرة المُسَاءلة فى القيامة : ﴿ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ ﴾ أى عن حجتهم فى قبورهم كما ضلّوا فى الدنيا

---

(١) أى قول البراء .   (٢) فى الأصل « عثمان » ومثله فى كتاب « التذكرة » للؤلف . والذى فى « تهذيب التهذيب » أنه كان ينتقص عليا .

بكفرهم فلا يُلقّنهم كلمة الحق ، فإذا سُئلوا فى قبورهم قالوا : لا ندرى ؛ فيقول : لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ[1] ؛ وعند ذلك يُضرَب بالمقامع[2] على ما ثبت فى الأخبار ؛ وقد ذكرنا ذلك فى كتاب « التذكرة » . وقيل : يمهلهم حتى يزدادوا ضلالا فى الدنيا . ﴿ وَيَفْعَلُ اللّٰهُ مَا يَشَاءُ ﴾ من عذاب قوم وإضلال قوم . وقيل : إن سبب نزول هذه الآية ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم لما وصف مُساءلة مُنْكَر ونَكير وما يكون من جواب الميت قال عمر : يا رسول الله أيكون معى عقلى ؟ قال : " نعم " قال : كُفيتُ إذاً ؛ فأنزل الله عز وجل هذه الآية .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللّٰهِ كُفْراً ﴾ أى جعلوا بدل نعمة الله عليهم الكفر فى تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم ، حين بعثه الله منهم وفيهم فكفروا ، والمراد مشركو قريش وأن الآية نزلت فيهم ؛ عن ابن عباس وعلىّ وغيرهما . وقيل : نزلت فى المشركين الذين قاتلوا النبي صلى الله عليه وسلم يوم بَدْر . قال أبو الطُّفَيل : سمعت عليا رضى الله عنه يقول : هم قريش الذين نُحِروا يوم بَدْر . وقيل : نزلت فى الأفجرين من قريش بنى مخزوم وبنى أمية ، فأما بنو أمية فتّعوا إلى حين ؛ وأما بنو مخزوم فأهلكوا يوم بَدْر ؛ قاله علىّ بن أبى طالب وعمر ابن الخطاب رضى الله عنهما . وقول رابع : أنهم متنصرة العرب جَبَلة بن الأَيْهَم وأصحابه حين لَطَم فجعل له عمر القصاص بمثلها ، فلم يَرْض وأَنِف فارتد مُتنصِّرا ولَحِق بالروم فى جماعة من قومه ؛ عن ابن عباس وقَتَادة . ولما صار إلى بلد الروم ندم فقال :

---

(١) قيل فى معنى « ولا تليت » : ولا تلوت ؛ أى لا قرأت ؛ من تلا يتلو ؛ وقالوا تليت بالياء ليعاقب بها الياء فى دريت

(٢) المقامع : سياط من حديد رءوسها معوجة .

تَنَصَّرتِ الأشرافُ من عارِ لَطْمةٍ * وما كان فيها لو صَبَرْتُ لها ضَرَرْ
تَكَنَّفَنِي منها لَجَاجٌ ونَخْــوةٌ * وبِعْتُ لها العينَ الصحيحةَ بالعَوَرْ
فياليتنى أَرْعَى المَخَاضَ ببَــلدةٍ * ولم أنكر القَــولَ الذى قاله عُمَــرْ

وقال الحسن : إنها عامة فى جميع المشركين . ﴿ وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ ﴾ أى أنزلوهم . قال ابن عباس : هم قادة المشركين يوم بَدْر أحلّوا قومهم ؛ أى الذين آتبعوهم . ﴿ دَارَ الْبَـوَارِ ﴾ قيل : جهنم ؛ قاله ابن زيد . وقيل : يوم بدر ؛ قاله علىّ بن أبى طالب ومجاهد . والبوار الهلاك ؛ ومنه قول الشاعر :

فلم أَرَ مثلَهــمْ أبطالَ حَرْبٍ * غداةَ الحربِ إذْ خِيفَ البَوَارُ

﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ بيّن أن دار البوار جهنم كما قال ابن زيد ، وعلى هــذا لا يجوز الوقف على «دار البوار» ؛ لأن جهنم منصوبة على الترجمة عن « دار البوار» فلو رفعها رافع بإضمار، على معنى: هى جهنم ، أو بما عاد من الضمير فى «يصلونها» لحسن الوقف على «دار البوار» . ﴿ وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ أى المستقر . قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ أى أصناما عبدوها ؛ وقد تقدم فى « البقرة »[1] . ﴿ لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أى عن دينه . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء ، وكذلك فى الحج « لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » ومثله فى « لقمان » و « الزمر » وضمها الباقون على معنى ليضلوا الناس عن سبيله ، وأما من فتح فعلى معنى أنهم هم يَضلّون عن سبيل الله على اللزوم ، أى عاقبتهم إلى الإضلال والضلال ؛ فهذه لام العاقبة . ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا ﴾ وعيد لهم ، وهو إشارة إلى تقليل ما هم فيــه من ملاذ الدنيا إذ هو منقطع . ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ أى مردّكم ومرجعكم إلى عذاب جهنم .

قوله تعالى : ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَـٰلٌ ﴿٣١﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٢٣٠ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي إن أهل مكة بدّلوا نعمة الله بالكفر، فقل لمن آمن وحقّق عبوديته أن ﴿ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ يعني الصلوات الخمس، أي قل لهم أقيموا، والأمر معه شرط مقدّر، تقول : أطع الله يُدخلك الجنة؛ أي إن أطعته يدخلك الجنة؛ هذا قول الفراء . وقال الزجاج : « يقيموا » مجزوم بمعنى اللام ، أي ليقيموا فأسقطت اللام لأن الأمر دلّ على الغائب بـ « قل » . قال ويحتمل أن يقال : «يقيموا» جواب أمر محذوف؛ أي قل لهم أقيموا الصلاة يقيموا الصلاة . ﴿ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ يعني الزكاة؛ عن ابن عباس وغيره . وقال الجمهور : السرّ ما خفي والعلانية ما ظهر . وقال القاسم ابن يحيى : إن السرّ التطوع والعلانية الفرض، وقد مضى هذا المعنى في « البقرة »[1] مجوّدا عند قوله : « إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ » . ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾ تقدم في « البقرة »[2] أيضا . و « خلال » جمع خُلّة كقُلّة وقلال . قال[3] :

* فلستُ بمَقْلِيِّ الخِلالِ ولا قالي *

قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أي أبدعها واخترعها على غير مثال سبق . ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي من السحاب . ﴿ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ أي من الشجر

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٣٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢٦٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٣) قاله امرؤ القيس، وصدر البيت :

* صرفت الهوى عنهن من خشية الردى *

ثمرات ﴿ رِزْقًا لَكُمْ ﴾[1] . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ تقدم معناه فى «البقرة» . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾ يعنى البحار العذبة لتشربوا منها وتسقوا وتزرعوا ، والبحار المالحة لاختلاف المنافع من الجهات . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾ أى فى إصلاح ما يصلحان من النبات وغيره ، والدُّءوب مرور الشيء فى العمل على عادة جارية . وقيل : دائبين فى السير امتثالا لأمر الله ، والمعنى يجريان إلى يوم القيامة لا يفتران ؛ روى معناه عن ابن عباس . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى لتسكنوا فى الليل ، ولتبتغوا من فضله فى النهار ، كما قال : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله » .

قوله تعالى : ﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ أى أعطاكم من كل مسئول سألتموه شيئا ؛ فحذف ؛ عن الأخفش . وقيل : المعنى وآتاكم من كل ما سألتموه ، ومن كل ما لم تسألوه ، فحذف ، فلم نسأله شمسا ولا قمرا ولا كثيرا من نعمه التى ابتدأنا بها . وهذا كما قال : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ » على ما يأتى . وقيل : « مِن » زائدة ؛ أى آتاكم كلّ ما سألتموه . وقرأ ابن عباس والضحاك وغيرهما « وَآتَاكُمْ مِنْ كُلٍّ » بالتنوين « مَا سَأَلْتُمُوهُ » وقد رويت هذه القراءة عن الحسن والضحاك وقتادة ؛ هى على النفى أى من كل ما لم تسألوه ؛ كالشمس والقمر وغيرهما . وقيل : من كل شىء ما سألتموه أى الذى سألتموه . ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ ﴾ أى نعم الله لا تحصوها ولا تطيقوا عدها ، ولا تقوموا بحصرها لكثرتها ، كالسمع والبصر وتقويم الصور إلى غير ذلك من العافية والرزق ؛ وهذه النعم من الله ، فلم تبدلون نعمة الله بالكفر ؟! وهلا استعنتم بها على الطاعة ؟! ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ الإنسان لفظ جنس وأراد به الخصوص ؛ قال ابن عباس : أراد أبا جهل . وقيل : جميع الكفار .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩٤ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ آمِنًا ﴾ يعنى مكة وقد مضى فى « البقرة » [1] . ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ أى اجعلنى جانبا عن عبادتها، وأراد بقوله : « بنى » بنيه من صلبه وكانوا ثمانية، فما عبد أحد منهم صنما . وقيل : هو دعاء لمن أراد الله أن يدعو له . وقرأ الجحدرى وعيسى « وَأَجْنِبْنِي » بقطع الألف والمعنى واحد؛ يقال : جَنَبْتُ ذلك الأمرَ، وأجنبته وجَنَّبْته إياه فتجانبه واجتنبه أى تركه . وكان إبراهيم التيمى يقول فى قصصه : من يأمن البلاء بعد الخليل حين يقول : « وَٱجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام » كما عبدها أبى وقومى .

قوله تعالى : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ لما كانت سببا للإضلال أضاف الفعل إليهن مجازا؛ فإن الأصنام جمادات لا تفعل . ﴿ فَمَن تَبِعَنِي ﴾ فى التوحيد . ﴿ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ أى من أهل دينى . ﴿ وَمَنْ عَصَانِي ﴾ أى أصر على الشرك . ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قيل : قال هذا قبل أن يعرفه الله أن الله لا يغفر أن يشرك به . وقيل : غفور رحيم لمن تاب من معصيته قبل الموت . وقال مقاتل بن حيان : « وَمَنْ عَصَانِي » فيما دون الشرك .

قوله تعالى : رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — روى البخارى عن ابن عباس : أول ما ٱتخذ النساء المِنْطَق [2] من قِبل أم إسمعيل؛ ٱتخذت مِنْطقا لتُعفِّى أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم و بابنها إسمعيل وهى ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دَوْحة فوق زمزم فى أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١١٧ وما بعدها طبعة ثانية . (٢) المنطق : النطاق وهو أن تلبس المرأة ثوبها ثم تشد وسطها بشىء، وترفع وسط ثوبها وترسله على الأسفل عند معاناة الأشغال لئلا تعثر فى ذيلها .

بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفّى إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسمعيل، فقالت : يا إبرهيم! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شىء، قالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له : آلله أمرك بهذا؟ قال : نعم . قالت إذًا لايُضيِّعنا، ثم رجعت، فآنطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثَّنِية حيث لايرونه، آستقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات، ورفع يديه فقال : « رَبِّ إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ » حتى بلغ «يشكرون» وجعلت أم إسمعيل تُرضع إسمعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نَفِدما فى السّقاء عطشت وعطش آبنها، وجعلت تنظر إليه يتَلَوَّى ــ أو قال يتَلَبَّط[1] ــ فآنطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصَّفا أقرب جبل فى الأرض يليها، فقامت عليه، ثم آستقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا، فلم تر أحدا، فهبطت من الصَّفا، حتى إذا بلغت الوادى، رفعت طَرَف دِرْعها، ثم سعت سعى الإنسان المجهود، ثم جاوزت الوادى، ثم أتت المَرْوة فقامت عليه؛ فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا، ففعلت ذلك سبع مرات؛ قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم: "فذلك سعى الناس بينهما" فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : صه! تريد نفسها، ثم تَسمّعت فسمعت أيضا فقالت : قد أسمعتَ إن كان عندك غَوَاث[2]! فإذا هى بالمَلَك عند موضع زمزم فبَحَث بعقبه ــ أو قال بجناحه ــ حتى ظهر الماء، فجعلت تُحَوِّضه[3] وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء فى سِقائها وهو يفور بعد ما تغرف؛ قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم : " يرحم الله أم إسمعيل لو تركت زمزم ــ أو قال لو لم تغرف من الماء ــ لكانت زمزم عينا مَعِينا " قال فشربت وأرضعت ولدها فقال لها المَلَك : لا تخافى الضَّيْعة فإن هاهنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يُضيع أهله؛ وذكر الحديث بطوله .

---

(١) يتلبط : يتمرغ .

(٢) غواث (بالفتح) كالغياث (بالكسر) من الإغاثة وهى الإعانة؛ وقد روى بالضم والكسر .

(٣) « وتقول بيدها هكذا » : هو حكاية فعلها وهو من إطلاق القول على الفعل . (قسطلانى) .

مسئلة — لا يجوز لأحد أن يتعلق بهـذا فى طرح ولده وعياله بأرض مضيعة ٱتكالا على العزيز الرحيم، وٱقتداء بفعل إبراهيم الخليل، كما تقوله غُلاة الصوفية فى حقيقة التوكل، فإن إبراهيم فعل ذلك بأمر الله لقوله فى الحديث : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . وقـد روى أن سارة لما غارت من هاجر بعـد أن ولدت إسمعيل خرج بها إبراهيم عليه السلام إلى مكة، فروى أنه ركب البُراق هو وهاجر والطّفل فجاء فى يوم واحد من الشام إلى بطن مكة، وترك ٱبنه وأَمَته هنالك وركب منصرفا من يومه، فكان ذلك كله بوحى من الله تعالى، فلما ولى دعا بضمن هذه الآية .

الثانيـــة — لما أراد الله تأسيس الحال، وتمهيد المقام، وخطّ الموضع للبيت المكرم، والبلد المحرم، أرسل المَلَك فبحَث عن الماء، وأقامه مقام الغذاء، وفى الصحيح أن أبا ذرّ رضي الله عنه ٱجتزأ به ثلاثين من يوم وليـلة، قال أبو ذرّ : ما كان لى طعام إلا ماء زمزم فسمنت حتى تَكَسَّرت عُكَنى، وما أجد على كبـدى سَخْفَة جوع[1]، وذكر الحـديث . وروى الدّارقُطْنى عن ابن عباس قال قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم : " ماء زمزم لما شُرِب له إن شربتَه تشتفى به شفاك الله وإن شربته لشبعك أشبعك الله به وإن شربتَه لقطع ظمئك قطعه وهى هَزْمة[2] جبريل وسُقْيا الله إسمعيل". وروى أيضا عن عكرمة قال كان ابن عباس إذا شرب من زمزم قال : اللهم إنى أسألك علما نافعا، ورزقا واسعا، وشفاء من كل داء . قال ابن العربى : وهذا موجود فيه إلى يوم القيامة لمن صحّت نيّته، وسلمت طويّته، ولم يكن به مكذّبا، ولا يشربه مجرّبا، فإن الله مع المتوكلين، وهو يفضح المجرّبين . وقال أبو عبد الله محمد بن علىّ الترمذى وحدثنى أبى رحمه الله قال : دخلت الطّواف فى ليلة ظلماء فأخذنى من البول ما شغلنى، فجعلت أعتصر حتى آذانى، وخفت إن خرجت من المسجد أن أطأ بعض تلك الأقدام، وذلك أيام الحج ؛ فذكرت هذا الحديث، فدخلت زمزم فتضلّعتُ[3] منه، فذهب عنى إلى الصباح . وروى عن عبد الله بن عمرو : وإن فى زمزم عينا فى الجنة من قبل الركن .

---

(١) سخفة الجوع : رقته وهزاله . (٢) هزمة جبريل : أى ضربها برجله فنبع الماء .
(٣) تضلع : أكثر من الشرب حتى تمدد جنبه وأضلاعه .

الثالثة ــ قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ « من » فى قوله تعالى : « من ذريتى » للتبعيض أى أسكنت بعض ذريتى ؛ يعنى إسمعيل وأمه ، لأن إسحق كان بالشام . وقيل : هى صلة؛ أى أسكنت ذريتى .

الرابعة ــ قوله تعالى : ﴿ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ يدل على أن البيت كان قديما على ما روى قبل الطوفان، وقد مضى هذا المعنى فى سورة « البقرة »[1] . وأضاف البيت إليه لأنه لا يملكه غيره ، ووصفه بأنه محرم، أى يحرم فيه ما يستباح فى غيره من جماع وآستحلال . وقيل : محرم على الجبابرة، وأن تُنهتك حرمته، ويستخفّ بحقّه؛ قاله قتادة وغيره . وقد مضى القول فى هذا فى « المائدة »[2] .

الخامسة ــ قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ خصّها من جملة الدّين لفضلها فيه ، ومكانها منه، وهى عهد الله عند العباد؛ قال صلى الله عليه وسلم : " خمسُ صلوات كتبهنّ الله على العباد " الحديث . واللام فى « ليقيموا الصلاة » لام كى؛ هذا هو الظاهر فيها وتكون متعلقة بـ « أسكنت » ويصح أن تكون لام أمر ، كأنه رَغب إلى الله أن يوفقهم لإقامة الصلاة .

السادسة ــ تضمّنت هذه الآية أن الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها ؛ لأن معنى « ربنا ليقيموا الصلاة » أى أسكنتهم عند بيتك المحرم ليقيموا الصلاة فيه . وقد اختلف العلماء هل الصلاة بمكة أفضل أو فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ؟ فذهب عامة أهل الأثر إلى أن الصلاة فى المسجد الحرام أفضل من الصلاة فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بمائة صلاة، وآحتجوا بحديث عبد الله بن الزّبير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من صلاة فى مسجدى هذا بمائة صلاة " قال الإمام الحافظ أبو عمر : وأسند هذا الحديث حبيب المعلم عن عطاء بن أبى رباح عن عبد الله

(١) راجع جـ ٢ ص ١٢٠ وما بعدها طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ٦ ص ٣٢٥ طبعة أولى أو ثانية .

ابن الزبير وجوده ، ولم يخلط فى لفظه ولا فى معناه ، وكان ثقة . قال ابن أبى خيثمة سمعت يحيى بن معين يقول : حبيب المعلم ثقة . وذكر عبد الله بن أحمد قال سمعت أبى يقول : حبيب المعلم ثقة ما أصح حديثه . وسئل أبو زرعة الرازى عن حبيب المعلم فقال : بصرى ثقة .

قلت — وقد خرج حديث حبيب المعلم هذا عن عطاء بن أبى رباح عن عبد الله بن الزبير عن النبى صلى الله عليه وسلم الحافظ أبو حاتم محمد بن حاتم التميمى البستى فى المسند الصحيح له ، فالحديث صحيح وهو الحجة عند التنازع والاختلاف . والحمد لله . قال أبو عمر : وقد روى عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم مثل حديث ابن الزبير ، رواه موسى الجهنى عن نافع عن ابن عمر ، وموسى الجهنى ثقة ، أثنى عليه القطان وأحمد ويحيى وجماعتهم ، وروى عنه شعبة والثورى ويحيى بن سعيد . وروى حكيم بن سيف ، حدثنا عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الكريم عن عطاء بن أبى رباح ، عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة ألف فيما سواه" وحكيم بن سيف هذا شيخ من أهل الرقة قد روى عنه أبو زرعة الرازى ، وأخذ عنه ابن وضاح ، وهو عندهم شيخ صدوق لا بأس به . فإن كان حفظ فهما حديثان ، وإلا فالقول قول حبيب المعلم . وروى محمد بن وضاح ، حدثنا يوسف بن عدى عن عمر بن عبيد عن عبد الملك عن عطاء عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فى غيره من المساجد إلا المسجد الحرام فإن الصلاة فيه أفضل" قال أبو عمر : وهذا كله نص فى موضع الخلاف قاطع له عند من ألهم رشده ، ولم تمل به عصبيته . وذكر ابن حبيب عن مطرف وعن أصبغ عن ابن وهب أنهما كانا يذهبان إلى تفضيل الصلاة فى المسجد الحرام على الصلاة فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم على ما فى هذا الباب . وقد اتفق مالك وسائر العلماء على أن صلاة العيدين يبرز لهما فى كل بلد إلا مكة فإنها تصلى فى المسجد الحرام . وكان عمر وعلى وابن مسعود وأبو الدرداء وجابر يفضلون مكة ومسجدها وهم أولى بالتقليد ممن بعدهم ، وإلى هذا ذهب الشافعى ، وهو قول عطاء والمكيين والكوفيين ، وروى مثله عن مالك ؛ ذكر ابن وهب فى جامعه عن مالك أن

آدم عليه السلام لما أُهبط إلى الأرض قال : يارب هذه أحب إليك أن تُعبد فيها ؟ قال : بل مكة . والمشهور عنه وعن أهل المدينة تفضيل المدينة، وآختلف أهل البصرة والبغداديون في ذلك فطائفة تقول مكة، وطائفة تقول المدينة .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ الأفئدة جمع فؤاد وهي القلوب . وقد يُعبَّر عن القلب بالفؤاد كما قال الشاعر :

وإن فؤادا قادني بصبابة * إليك على طول المدى لصبور

وقيل : جمع وَفْد، والأصل أوفدة، فقدمت الفاء وقلبت الواو ياء كما هي، فكأنه قال : واجعل وفودا من الناس تَهْوِي إليهم؛ أي تنزع؛ يقال : هَوِيَ نحوه إذا مال، وهوت الناقة تهوي هُوِيًّا فهي هاوية إذا عدت عَدْوا شديدا كأنها في هَوَاء بئر، وقوله : « تهوي إليهم » مأخوذ منه . قال ابن عباس ومجاهد : لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند واليهود والنصارى والمجوس، ولكن قال : « من الناس » فهم المسلمون؛ فقوله : « تهوي إليهم » أي تحنّ إليهم، وتحنّ إلى زيارة البيت . وقرأ مجاهد « تَهوَى إليهم » أي تهواهم وتجلّهم . ﴿ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ فاستجاب الله دعاءه، وأنبت لهم بالطائف سائر الأشجار، وبما يجلب إليهم من الأمصار . وفي صحيح البخاري عن ابن عباس الحديث الطويل وقد ذكرنا بعضه : " فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسمعيل يطالع تَركته فلم يجد إسمعيل، فسأل امرأته عنه فقالت : خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بِشَرٍّ، نحن في ضيق وشدة؛ فشكت إليه، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغيِّر عَتَبة بابه، فلما جاء إسمعيل كأنه آنس شيئا[1] فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألني عنك فأخبرته . وسألني كيف عيشتنا فأخبرته أنا في جهد وشدة، قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت : أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول : غيِّر عَتَبة بابك؛ قال : ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك الْحَقِي بأهلك؛ فطلّقها وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده، ودخل على امرأته فسألها عنه فقالت : خرج يبتغي لنا . قال :

(١) أي كأنه أبصر ورأى شيئا لم يعهده .

كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بخير وسعة وأثنت على الله ، قال : ما طعامكم؟ قالت : اللحم . قال فما شرابكم؟ قالت : الماء . قال : اللهم بارك لهم فى اللحم والماء . قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ولم يكن لهم يومئذ حبّ ولو كان لهم دعا لهم فيه" قال : فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه ، وذكر الحديث . وقال ابن عباس : قول إبراهيم «فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم» سأل أن يجعل الله الناس يهوون السُّكْنى بمكة ، فيصير بيتا محرما ، وكل ذلك كان والحمد لله . وأول من سكنه جُرْهُم . ففى البخارىّ — بعد قوله : وإن الله لا يُضيّع أهلَه — وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السّيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، وكذلك حتى مرّت بهم رُفقة من جُرْهُم قافلين من طريق كداء ، فنزلوا بأسفل مكة ، فرأوا طائرا عائفا فقالوا : إن هذا الطائر لَيدُور على ماء(1) ! لَعهدُنا بهذا الوادى وما فيه ماء ، فأرسلوا جَرِيًّا أو جَرِيّين(2) فإذا هُم بالماء ، فأخبروهم بالماء فأقبلوا . قال : وأم إسمعيل عند الماء ، فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت : نعم ولكن لا حقّ لكم فى الماء . قالوا : نعم . قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم : " [فألفى](3) ذلك أمّ إسمعيل وهى تحب الأنس" فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، شبّ الغلامُ ، وماتت أم إسمعيل ، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسمعيل يطالع تَرِكته ؛ الحديث .

قوله تعالى : رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾

---

(١) العائف هنا هو الذى يتردد على الماء ولا يمضى . (٢) الجرى : الرسول .

(٣) ألفى أى وجد ذلك الحى الجرهمى أم إسمعيل ؛ أو ألفى استئذان جرهم بالنزول أم إسمعيل والحال أنها تحب الأنس ؛ ففاعل ألفى (ذلك) و (ذلك) إشارة إلى الاستئذان .

قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ أى ليس يخفى عليك شىء من أحوالنا . وقال ابن عباس ومقاتل : تعلم جميع ما أخفيه وما أعلنه من الوجد بإسمعيل وأمه حيث أسكنا بواد غير ذى زرع . ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ قيل : هو من قول إبراهيم . وقيل : هو من قول الله تعالى لما قال إبراهيم : « ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن » قال الله : «وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء» . ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ﴾ أى على كبر سنى وسن آمرأتى ؛ قال ابن عباس : ولد له إسمعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وإسحق وهو ابن مائة وآثنتى عشرة سنة . وقال سعيد بن جُبَير : بُشِّر إبراهيمُ بإسحق بعد عشر ومائة سنة . ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ .

قوله تعالى : ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ أى من الثابتين على الإسلام والتزام أحكامه . ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أى وآجعل من ذريتى من يقيمها . ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ أى عبادتى كما قال : « وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » . وقال عليه السلام : "الدعاءُ مُخُّ العبادة" وقد تقدم فى «البقرة» (1) . ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل : استغفر إبراهيمُ لوالديه قبل أن يثبت عنده أنهما عدوان لله قال القُشَيرى : ولا يبعد أن تكون أمه مسلمة لأن الله ذكر عذره فى آستغفاره لأبيه دون أمه .

قلت : وعلى هذا قراءة سعيد بن جُبير « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدِي » يعنى أباه . وقيل : آستغفر لهما طمعا فى إيمانهما . وقيل : آستغفر لهما بشرط أن يُسلما . وقيل : أراد آدم وحواء . وقد رُوى أن العبد إذا قال : اللهم آغفر لى ولوالدى وكان أبواه قد ماتا كافرين آنصرفت المغفرة إلى آدم وحواء لأنهما والدا الخلق أجمع . وقيل : إنه أراد ولديه إسمعيل وإسحق . وكان إبراهيم النَّخَعى يقرأ «وَلِوَلَدَيَّ» يعنى آبنيه ، وكذلك قرأ يحيى بن يَعْمَر ؛ ذكره الماوَرْدى والنحاس . ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عباس : من أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : «للؤمنين» كلهم وهو أظهر . ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أى يوم يقوم الناس للحساب .

(1) راجع جـ ٢ ص ٣٠٩ وما بعدها طبعة ثانية .

قوله تعالى : وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أعجبه من أفعال المشركين ومخالفتهم دين إبراهيم ؛ أي آصبر كما صبر إبراهيم ، وأعلم المشركين أن تأخير العذاب ليس للرضا بأفعالهم ، بل سنّة الله إمهال العصاة مدة . قال ميمون بن مِهْران : هذا وعيد للظالم ، وتعزية للظلوم . ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ ﴾ يعني مشركي مكة يمهلهم ويؤخر عذابهم . وقراءة العامة « يؤخرهم » بالياء واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لقوله : « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ » . وقرأ الحسن والسُّلَمِيّ ورُوِيَ عن أبي عمرو أيضا « نؤخّرهم » بالنون للتعظيم . ﴿ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ أي لا تغمض من هول ما تراه في ذلك اليوم ، قاله الفراء . يقال : شَخَصَ الرجلُ بصرَه وشَخَصَ البصرُ نفسُه أي سَمَا وطَمَح من هول ما يَرى . قال ابن عباس : تَشْخَص أبصار الخلائق يومئذ إلى الهواء لشدة الحيرة فلا يَرْمَضُون .

﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أي مسرعين ؛ قاله الحسن وقتادة وسعيد بن جبير ؛ مأخوذ من أهطع يُهطع إهطاعا إذا أسرع . ومنه قوله تعالى : « مهطعين إلى الداع » أي مسرعين . قال الشاعر :

بدِجْلة دارُهُمْ ولقد أراهُمْ * بدِجْلةَ مُهْطِعِينَ إلى السَّماع

وقيل : المهطع الذي ينظر في ذلّ وخشوع ؛ أي ناظرين من غير أن يَطْرِفوا ؛ قاله ابن عباس ، وقال مجاهد والضحاك : « مهطعين » أي مديمي النظر . وقال النحاس : والمعروف في اللغة أن يقال : أهطع إذا أسرع ؛ قال أبو عبيد : وقد يكون الوجهان جميعا يعني الإسراع مع أدامة النظر . وقال ابن زيد : المهطع الذي لا يرفع رأسه . ﴿ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴾ أي رافعي رءوسهم ينظرون في ذلّ . وإقناع الرأس رفعه ؛ قاله ابن عباس ومجاهد . قال ابن عرفة والقُتَبِيّ وغيرهما : المقنع الذي يرفع رأسه ويقبل ببصره على ما بين يديه ؛ ومنه الإقناع في الصلاة [1]

(١) الإقناع في الصلاة أن يرفع المصلي رأسه حتى يكون أعلى من ظهره .

وأقنع صوته إذا رفعه. وقال الحسن: وجوه الناس يومئذ إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد. وقيل: ناكسي رءوسهم؛ قال المهدوي: ويقال أقنع إذا رفع رأسه، وأقنع إذا طأطأ رأسه ذلة وخضوعا، والآية محتملة الوجهين، وقاله المبرد، والقول الأول أعرف في اللغة؛ قال الراجز:

أَنْغَضَ[1] نَحْوِي رَأْسَهُ وأَقْنَعَا * كأنَّما أَبْصَرَ شيئًا أَطْمَعَا

وقال الشمّاخ يصف إبلا:

يُبَاكِرْنَ العِضَاهَ[2] بِمُقْنَعَاتٍ * نَوَاجِذُهُنَّ كالحِدَإِ الوَقِيعِ

يعني: برءوس مرفوعات إليها لتتناولهن. ومنه قيل: مِقْنَعة لارتفاعها. ومنه قَنِع الرجل إذا رَضِي؛ أي رفع رأسه عن السؤال. وقَنَع إذا سأل أي أتى ما يتقنّع منه؛ عن النحاس. وفم مُقْنَع أي معطوفة أسنانه إلى داخل. ورجل مُقَنَّع بالتشديد؛ أي عليه بَيْضة؛ قاله الجوهري. ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر فهي شاخصة النظر. يقال: طَرَف الرجلُ يَطْرِف طَرْفا إذا أطبق جفْنه على الآخر، فسمّى النظر طَرْفا لأنه به يكون. والطَّرْف العين. قال عنترة:

وأَغُضُّ طَرْفِي ما بَدَتْ لِي جارتي * حتّى يُوارِيَ جارتي مَأْوَاهَا

وقال جميل:

وأَقْصُرُ طَرْفِي دُونَ جُمْلٍ كَرَامَةً * لِجُمْلٍ ولِلطَّرْفِ الذي أنا قاصِرُهْ

﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي لا تغني شيئا من شدة الخوف. ابن عباس: خالية من كل خير. السّدي: خرجت قلوبهم من صدورهم فنشبت في حلوقهم؛ وقال مجاهد ومُرّة وابن زيد: خاوية خربة مُتخرّقة ليس فيها خير ولا عقل؛ كقولك في البيت الذي ليس فيه شيء: إنما هو هواء؛ وقاله ابن عباس. والهواء في اللغة المجوّف الخالي؛ ومنه قول حسان:

أَلَا أَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي * فأَنْتَ مُجَوَّفٌ نَخِبٌ[3] هَوَاءُ

---

(١) أنغض رأسه: حركه. (٢) العضاه: كل شجر يعظم وله شوك. والحدأ (بفتح الحاء) وقيل (بكسرها) جمع حدأة، وهي الفأس ذات الرأسين؛ والوقيع: المحدد. شبه الشاعر أسنان الإبل بالفؤوس في الحدة.

(٣) المجوف والمجوّف: الجبان الذي لا قلب له. والنخب: من النخب بمعنى النزع. يقال: رجل نخب أي جبان؛ كأنه منتزع الفؤاد.

وقال زُهير يصف ناقة صغيرة الرأس :

كأنّ الرَّحْل منها فوق صَعْلٍ[1] * من الظّلمان جُؤْجُؤُه هَواءُ

فارغ أى خال؛ وفى التنزيل : « وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا » أى من كل شىء إلا من همّ موسى . وقيل : فى الكلام إضمار؛ أى ذات هواء وخلاء .

قوله تعالى : وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ ﴾ قال ابن عباس : أراد أهل مكة . ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾ وهو يوم القيامة ؛ أى خوّفهم ذلك اليوم . وإنما خصّهم بيوم العذاب وإن كان يوم الثواب لأن الكلام خرج مخرج التهديد للعاصى . ﴿ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى فى ذلك اليوم ﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا ﴾ أى أمهلنا . ﴿ إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ سألوه الرجوع إلى الدنيا حين ظهر الحق فى الآخرة . ﴿ نُجِبْ دَعْوَتَكَ ﴾ أى إلى الإسلام ﴿ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾ . فيجابوا : ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعنى فى دار الدنيا . ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ قال مجاهد : هو قَسَم قريش أنهم لا يبعثون . ابن جريج : هو ما حكاه عنهم فى قوله : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت » . « مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ » فيه تأويلان : أحدهما — ما لكم من انتقال عن الدنيا إلى الآخرة ؛ أى لا تبعثون ولا تحشرون ؛ وهذا قول مجاهد . الثانى — « ما لكم مِنْ زوالٍ » أى من العذاب . وذكر البيهقى عن محمد بن كعب القُرَظى قال : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله فى أربعة ، فإذا كان فى الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا ؛ يقولون : « رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ » فيجيبهم الله « ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ » .

(١) "فوق صعل" : شبه الناقة فى سرعتها بالظليم؛ فكأن رحلها فوقه . والصعل : الصغير الرأس؛ وبذلك يوصف الظليم .

ثم يقولون : « رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » فيجيبهم الله تعالى « فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » ثم يقولون : « رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ » فيجيبهم الله تعالى « أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ » فيقولون : « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ» فيجيبهم الله تعالى : أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» . و يقولون : « رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ » فيجيبهم الله تعالى : «اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ» فلا يتكلمون بعدها أبدا؛ خرجه ابن المبارك فى « دقائقه » بأطول من هـذا ــ وقد كتبناه فى كتاب « التذكرة » ــ وزاد فى الحديث « وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ . وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » قال هـذه الثالثة، وذكر الحديث وزاد بعد قوله : «اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ» فانقطع عند ذلك الدعاء والرجاء، وأقبل بعضهم على بعض ينبح بعضهم فى وجه بعض، وأطبقت عليهم؛ قال: فحدثنى الأزهر ابن أبى الأزهر أنه ذكر له أن ذلك قوله : «هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ» .

قوله تعالى : وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ أى فى بلاد ثمود ونحوها فهلا اعتبرتم بمساكنهم، بعد ما تبين لكم مافعلنا بهم، و بعد أن ضربنا لكم الأمثال فى القرآن . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى « وَنُبَيِّنْ لَكُمْ » بنون والجزم على أنه مستقبل ومعناه الماضى ، وليناسب قوله : « كيف فعلنا بهم » . وقراءة الجماعة « وَتَبَيَّنَ » وهى مثلها فى المعنى؛ لأن ذلك لا يتبين لهم إلا بتبيين الله إياهم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ﴾ أى بالشرك بالله وتكذيب الرسل والمعاندة؛ عن ابن عباس وغيره . ﴿ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ « إن » بمعنى «ما» أى ما كان مكرهم لتزول منه الجبال لضعفه ووهنه؛ «و إن» بمعنى «ما» فى القرآن فى مواضع خمسة : أحدها هذا . الثانى — «فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ» . الثالث — «لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا» أى ما كنا . الرابع — «قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ» . الخامس — « وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ » . وقرأ الجماعة « وإن كان » بالنون . وقرأ عمرو بن علىّ وابن مسعود وأبىّ «وإن كاد» بالدال. والعامة على كسر اللام فى «لتزول» على أنها لام الجحود وفتح اللام الثانية نصبا. وقرأ بن مُحَيصن وابن جُرَيج والكسائىّ «لَتَزُولُ» بفتح اللام الأولى على أنها لام الابتداء ورفع الثانية « و إن » مخففة من الثقيلة، ومعنى هذه القراءة استعظام مكرهم، أى ولقد عَظُم مكرهم حتى كادت الجبال تزول منه ؛ قال الطَّبَرىّ : الاختيار القراءة الأولى ؛ لأنها لو كانت زالت لم تكن ثابتة؛ قال أبو بكر الأنبارىّ : ولا حجة على مصحف المسلمين فى الحديث الذى حدّثناه أحمدُ بن الحسين : حدّثنا عثمان بن أبى شيبة حدّثنا وكيع بن الجراح عن إسرائيل عن أبى إسحق عن عبد الرحمن بن دانيل قال سمعت علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : إن جبارا من الجبابرة قال لا أنتهى حتى أعلم من فى السموات، فعمَد إلى فراخ نُسور، فأمر أن تطعم اللحم، حتى اشتدت وعَضَلت واستعلجت أمر بأن يُتخذ تابوتٌ يسع فيه رجلين، وأن يجعل فيه عصا فى رأسها لحم شديد حمرته ، وأن يُستوثق من أرجل النسور بالأوتاد، وتُشدّ إلى قوائم التابوت ، ثم جلس هو وصاحب له فى التابوت وأثار النسور، فلما رأت اللحم طلبته، فجعلت ترفع التابوت حتى بلغت به ما شاء الله؛ فقال الجبّار لصاحبه : افتح الباب فانظر ما ترى ؟ فقال : أرى الجبال كأنها ذباب، فقال : أغلق الباب؛ ثم صعدت بالتابوت ما شاء الله أن تصعد، فقال الجبّار لصاحبه : افتح الباب فانظر ما ترى؟ فقال : ما أرى إلا السماء وما تزداد منا إلا بُعدا، فقال: نكِّس العصا فنكّسها، فانقضّت النسور . فلما وقع التابوت على الأرض سمعت له هدّة كادت الجبال تزول عن

مراتبها منها ؛ قال : فسمعت عليًا رضى الله عنه يقرأ « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ » بفتح اللام الأولى من «لتزول» وضم الثانية . وقد ذكر الثعلبي هذا الخبر[1] بمعناه، وأن الجبّار هو النّمرود الذى حاجّ إبراهيم فى ربّه، وقال عِكْرمة : كان معه فى التابوت غلام أمرد، وقد حمل القوس والنبل فرمى بهما فعاد إليــه ملطخا بالدماء وقال : كُفيتُ نَفْسَكَ إلهَ السّماء[2] . قال عِكْرمة : تلطّخ بدم سمكة من السماء، قذفت نفسها إليــه من بحر فى الهواء معلّق . وقيــل : طائر من الطير أصابه السّهم ثم أمر نمرود صاحبه أن يضرب العصا وأن يُنكّس اللحم، فهبطت النّسور بالتابوت، فسمعت الجبال حفيف التابوت والنّسور ففزعت، وظنت أنه قد حدث بها حدث من السماء ، وأنّ الساعة قد قامت، فذلك قوله : « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » . قال القُشَيْرى : وهذا جائز بتقدير خلق الحياة فى الجبال . وذكر المـاوردى عن ابن عباس : أن النّمرود بن كنعان بَنَى الصّرح فى قرية الرسّ من سواد الكوفة، وجعل طوله خمسة آلاف ذراع وخمسين ذراعا، وعرضــه ثلاثة آلاف ذراع وخمســة وعشرين ذراعا ، وصعد منــه مع النّسور، فلما علم أنه لا سبيل له إلى السماء اتخذه حصنا، وجمع فيه أهله وولده ليتحصن فيه ، فأتى الله بنيانه من القواعد، فتداعى الصّرح عليهم فهلكوا جميعا ، فهــذا معنى « وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ » وفى الجبــال التى عَنَى زوالهــا بمكرهم وجهان : أحدهما — جبال الأرض . الثانى — الإسلام والقرآن؛ لأنه لثبوته ورسوخه كالجبال . وقال القُشَيْرى : « وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ » أى هو عالم بذلك فيجازيهم، أو عند الله جزاء مكرهم فحذف المضاف . « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » بكسر اللام ؛ أى ما كان مكرهم مكرا يكون له أثر وخطر عنــد الله تعالى، فالجبال مَثَل لأمر النبى صلى الله عليه وسلم . وقيل : « وإن كان مكرهم » فى تقديرهم « لتزول منه الجبال » وتؤثر فى إبطال الإســلام . وقرئ « لَتَزُولُ منه الجبالُ » بفتح اللام الأولى وضم الثانية ؛ أى كان مكرا عظيما تزول منه الجبال، ولكن الله حفظ رسول الله صلى الله

---

(١) تعقب هذه القصة ابن عطية فى تفسيره بعد أن حكاها عن الطبرى بقوله : «وذلك عندى لا يصح عن على بن أبى طالب رضى الله عنه، وفى هذه القصة ضعف من طريق المعنى، وذلك أنه غير ممكن أن تصعد الأنسر كما وصف، وبعيد أن يغرر أحد بنفسه فى مثل هذا » .

(٢) عبارة الثعلبي فى « قصص الأنبياء » : (كفيتَ شغلَ إلهِ السماء) .

عليه وسلم، وهو كقوله تعالى : « وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا » والجبال لا تزول ولكنّ العبارة عن تعظيم الشيء هكذا تكون .

قوله تعالى : فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ اسم الله تعالى و « مخلف » مفعولا تحسب ؛ و « رُسُلَهُ » مفعول « وَعْدِهِ » وهو على الاتساع، والمعنى : مخلف وعده رسلَه ؛ قال الشاعر :

تَرَى الثَّوْرَ فيها مُدْخِلَ الظِّلِّ رأسَهُ ❊ وسائِرُهُ بادٍ إلى الشَّمْسِ أَجْمَعُ[1]

قال القُتَبي : هو من المقدّم الذى يوضحه التأخير، والمؤخّر الذى يوضحه التقديم، وسواء فى قولك : مخلف وعده رسلَه، ومخلف رسلِه وعدَه . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ أى من أعدائه . ومن أسمائه المنتقم وقد بيّناه فى « الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » .

قوله تعالى : يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ﴾ أى اذكر يوم تبدّل الأرض، فتكون متعلقة بما قبله . وقيل : هو صفة لقوله : « يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ » . واختلف فى كيفية تبديل

---

(١) يصف الشاعر هاجرة قد ألجأت الثيران إلى كنسها ، فترى الثور مدخلا لرأسه فى ظل كناسه لما يجده من الحرارة، وسائره بارز للشمس .

الأرض، فقال كثير من الناس : إن تبدّل الأرض عبارة عن تغير صفاتها، وتسوية آكامها، ونسف جبالها، ومدّ أرضها؛ ورواه ابن مسعود رضى الله عنه؛ خرجه ابن ماجة فى سننه وذكره ابن المبارك من حديث شهر بن حوشب، قال حدّثنى ابن عباس قال : إذا كان يوم القيامة مُدّت الأرض مدّ الأديم وزيد فى سعتها كذا وكذا؛ وذكر الحديث . وروى مرفوعا من حديث أبى هُريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "تُبدّل الأرض غير الأرض فيبسطها ويمدّها مدّ الأديم العُكاظى(1) لا ترى فيها عِوجا ولا أمْتا ثم يزجر الله الخلق زجرةً فإذا هم فى الثانية فى مثل مواضعهم من الأولى [من كان فى بطنها ففى بطنها ومن كان على ظهرها كان على ظهرها](2)" ذكره الغزنوى . وتبديل السماء تكوير شمسها وقمرها، وتناثر نجومها؛ قاله ابن عباس. وقيل: اختلاف أحوالها، فمرة كالمُهل ومرة كالدّهان؛ حكاه ابن الأنبارى؛ وقد ذكرنا هذا الباب مبيّنا فى كتاب « التذكرة » وذكرنا ما للعلماء فى ذلك، وأن الصحيح إزالة هذه الأرض حسب ما ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم . روى مسلم عن ثَوْبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه حبر من أحبار اليهود فقال : السلام عليك؛ وذكر الحديث، وفيه : فقال اليهودى أين يكون الناس يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فى الظُّلمة دون الجِسْر(3)" وذكر الحديث . وخرج عن عائشة قالت : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : « يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات » فأين يكون الناس يومئذ ؟ قال : "على الصراط" خرجه ابن ماجه بإسناد مسلم سواء، وخرجه الترمذى عن عائشة وأنها هى السائلة، قال : هذا حديث حسن صحيح؛ فهذه الأحاديث تنص على أن السموات والأرض تُبدّل وتُزال، ويخلق الله أرضا أخرى يكون الناس عليها بعد كونهم على الجِسْر . وفى صحيح مسلم عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه

(1) أديم عكاظى : منسوب إلى عكاظ، وهو مما حمل إليها فبيع بها . وعكاظ : اسم سوق من أسواق الجاهلية مشهورة كانت بقرب مكة .
(2) عبارة الأصل هنا ناقصة ومحرفة، والزيادة والتصويب من تفسير الطبرى وكتاب « التذكرة » للؤلف .
(3) الجسر : الصراط .

وسلم: "يُحشَر الناسُ يوم القيامة على أرض بيضاءَ عَفْرَاءَ كقُرْصَة النَّقِيّ[1] ليس فيها عَلَمٌ لأحد".
وقال جابر: سألت أبا جعفر محمد بن علي عن قول الله عز وجل: «يوم تبدل الأرض غير الأرض» قال: تبدل خُبْزَةً يأكل منها الخلق يوم القيامة، ثم قرأ «وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ». وقال ابن مسعود: إنها تبدل بأرض غيرها بيضاء كالفضة لم يُعمَل عليها خطيئة. وقال ابن عباس: بأرض من فضة بيضاء. وقال علي رضي الله عنه: تبدل الأرض يومئذ من فضة والسماء من ذهب وهذا تبديل العين، وحسبك. ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أي من قبورهم، وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ وهم المشركون. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة. ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ أي مشدودين ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ وهي الأغلال والقيود، واحدها صَفْد وصَفَد. يقال: صَفَدته صَفْدا أي قيدته والاسم الصَّفَد، فإذا أردت التكثير قلت: صَفَّدته تصفيدا؛ قال عمرو ابن كلثوم:

فَآبُوا بالنِّهَابِ وبالسَّبَايَا ... وأُبْنَا بالمُلُوكِ مُصَفَّدِينَا

أي مقيدينا. وقال حسان:

مِنْ كُلِّ مأسُورٍ يُشَدُّ صِفَادُهُ * صَقْرٍ إذَا لَاقَى الْكَرِيهَةَ حَامِ

أي غُلّه. وأصفدته إصفادا أعطيته. وقيل: صَفَدته وأَصْفَدته جاريان في القيد والإعطاء جميعا؛ قال النابغة:

* فلم أُعَرِّض أَبَيْتَ اللَّعْنَ[2] بالصَّفَد *

فالصَّفَد العطاء لأنه يُقيِّد ويُعبِّد؛ قال أبو الطيب:

وقَيَّدتُ نفسي في ذَرَاكَ[3] محبَّةً * ومَن وجَدَ الإحسانَ قَيْدًا تَقَيَّدَا

---

(١) النقي: الدقيق الحواري. والحواري: ما حوّر أي بيض. والعلم الأثر.
(٢) معنى أبيت اللعن: أي أبيت أن تأتي شيئا تلعن عليه، وصدر البيت:
* هذا الثناء فإن تسمع لقائله *
(٣) الذرا (بالفتح): الدار ونواحيها، وكل ما استترت به؛ تقول: أنا في ذرا فلان أي في كنفه وستره.

قيل : يقرن كل كافر مع شيطان فى غل، بيانه قوله : «ٱحْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ» يعنى قرناءهم من الشياطين . وقيل : إنهم الكفار يجمعون فى الأصفاد كما اجتمعوا فى الدنيا على المعاصى . ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ أى قمصهم ، عن ابن دُريد وغيره، واحدها سربال، والفعل تَسربلتُ وسَربلتُ غيرى ؛ قال كعب بن مالك :

تلقاكُمُ عُصَبٌ حَوْلَ النَّبيِّ لَهُمْ ﴿ مِنْ نَسْجِ دَاودَ فى الهَيْجَا سَرَابِيلُ

«من قَطِرانٍ» يعنى قطران الإبل الذى تُهْنأ به؛ قاله الحسن . وذلك أبلغ لاشتعال النار فيهم. وفى الصحيح أن النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودِرْع من جَرَب . و روى عن حماد أنهم قالوا هو النُّحاس . وقرأ عيسى بن عمر: «قَطْرَانٍ» بفتح القاف وتسكين الطاء . وفيه قراءة ثالثة : كسر القاف وجزم الطاء؛ ومنه قول أبى النَّجْم :

جَوْنٌ كَأَنَّ العَـرَقَ المَنْتُوحَا[1] ﴿ لَبَّسَـهُ القِطْرَانَ والمُسُـوحَا

وقراءة رابعة : « مِنْ قِطْرٍ آنٍ[2] » رويت عن ابن عباس وأبى هُريرة وعكرمة وسعيد بن جُبير و يعقوب؛ والقِطْر النحاس والصُّفْر المذاب؛ ومنه قوله تعالى : «آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا» . والآن : الذى قـد انتهى إلى حرّه ؛ ومنـه قوله تعالى : « وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ » . ﴿ وَتَغْشَى ﴾ أى تضرب ﴿ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ فتغشيها . ﴿ لِيَجْزِىَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ أى بما كسبت. ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ تقدم .

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ ﴾ أى هذا الذى أنزلنا إليك بلاغ ؛ أى تبليغ وعظة . ﴿ وَلِيُنذَرُوا بِهِ ﴾ أى ليخوّفوا عقاب الله عز وجل. وقرئ . «وَلِيَنْذَرُوا» بفتح الياء والذال، يقال: نَذِرت بالشىء أَنْذَر إذا علمت به فاستعددتَ له ،ولم يستعملوا منه مصدرا كما لم يستعملوا من عسى وليس، وكأنهم استغنوا بأن والفعل كقولك: سَرَّنى أن نَذِرتُ بالشىء . ﴿ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ أى وليعلموا وحدانية الله بما أقام من الحجج والبراهين. ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو

---

(١) نتح العرق خرج من الجلد. (٢). «قطر» : ضبطه فى «روح المعانى» بفتح القاف وكسر الطاء وتنوين الراء، ومثله فى «البحر المحيط» ، وضبط بفتح القاف وكسرها مع سكون الطاء، ففيه ثلاث لغات .

الْأَلْبَـابِ ﴾ أى وليتّعظ أصحاب العقول . وهـذه اللامات فى « لينذروا » و « ليعلموا » و « ليذّكر » متعلقة بمحذوف ، التقدير : ولذلك أنزلنـاه . وروى يمـان بن رئاب أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصـديق رضى الله عنـه . وسئل بعضهم هل لكتاب الله عنوان ؟ فقال : نعم ؛ قيـل : وأين هـو ؟ قال قوله تعالى : « هـذا بلاغ للناس ولينذروا به » إلى آخرها . تم تفسير سورة إبراهيم عليه السلام والحمد لله .

تم الجزء التاسع من تفسير القرطبي

يتـلوه إن شـاء الله تعـالى الجـزء العـاشر، وأوّله :

ســـورة « الحجــر »

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الحجر

قوله تعالى : ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (١)

تقدّم معناه[1] . و « الكتاب » قيل فيه : إنه اسم لجنس الكتب المتقدّمة من التوراة والإنجيل، ثم قرنهما بالكتاب المبين . وقيل : الكتاب هو القرآن، جمع له بين الاسمين .

قوله تعالى : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ (٢)

«رُبّ» لا تدخل على الفعل، فاذا لحقتها «ما» هيأتها للدخول على الفعل تقول : ربما قام زيد، وربما يقوم زيد . ويجوز أن تكون «ما» نكرة بمعنى شيء، و«يودّ» صفة له ؛ أي رب شيء يودّ الكافر . وقرأ نافع وعاصم « ربما » مخفف الباء . الباقون مشدّدة، وهما لغتان . قال أبو حاتم : أهل الحجاز يخففون ربما؛ قال الشاعر :

رُبَما ضربةٍ بسيفٍ صقيلٍ ... بين بُصْرى وطعنةٍ نجلاءِ[2]

وتميم وقيس وربيعة يثقلونها . وحكى فيها : رَبَّما ورَبَما، ورُبَّتَما ورُبَتَما، بتخفيف الباء وتشديدها أيضا[3] . وأصلها أن تستعمل في القليل وقد تستعمل في الكثير؛ أي يودّ الكفار في أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين؛ قاله الكوفيون . ومنه قول الشاعر :

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٤ ٢٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) البيت لعدى بن الرعلاء الغسانى . وبصرى : بلدة قرب الشام؛ هي كرسي حوران؛ كان يقوم فيها سوق لجاهلية . قال صاحب خزانة الأدب : « ... وإنما صح اضافة بين إلى بصرى لاشتمالها على متعدد من الأمكنة ؛ أي بين أماكن بصرى ونواحيها . وروى الشريف الحسيني في حماسته : «دون بصرى» ودون هنا بمعنى قبل أو بمعنى خلف . وقال العيني : بمعنى عند» راجع الخزانة في الشاهد التاسع والتسعين بعد السبعمائة . (٣) قال ابن هشام في المغني: «وفي رب ست عشرة لغة : ضم الراء وفتحها، وكلاهما مع التشديد والتخفيف . والأوجه الأربعة مع تاء التأنيث ، ساكنة أو محركة ، ومع التجرد منها ؛ فهذه اثنتا عشرة . والضم والفتح مع إسكان الباء وضم الحرفين مع التشديد ومع التخفيف » .

ألا ربّما أهدت لك العين نظرةً * قُصاراك منها أنها عنك لا تُجدى (١)

وقال بعضهم : هى للتقليل فى هذا الموضع ؛ لأنهم قالوا ذلك فى بعض المواضع لا فى كلها؛ لشَغْلهم بالعذاب، والله أعلم . وقال : « رُبَمَا يَوَدُّ » وهى إنما تكون لما وقع؛ لانه لصدق الوعد كأنه عيان قد كان . وخرّج الطبرانى أبو القاسم من حديث جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن ناسا من أمتى يدخلون النار بذنوبهم فيكونون فى النار ما شاء الله أن يكونوا ثم يعيّرهم أهل الشرك فيقولون ما نرى ما كنتم تخالفونا فيه من تصديقكم و إيمانكم نفعكم فلا يبقى موحّد إلا أخرجه الله من النار — ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم — رُبَمَا يَوَدُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين " . قال الحسن : إذا رأى المشركون المسلمين وقد دخلوا الجنة ومأواهم فى النار تمنّوا أنهم كانوا مسلمين . وقال الضحاك : هذا التمنى إنما هو عند المعاينة فى الدنيا حين تبيّن لهم الهدى من الضلالة . وقيل : فى القيامة إذا رأوا كرامة المؤمنين وذل الكافرين .

قوله تعالى : ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا ﴾ تهديد لهم . ﴿ وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ﴾ أى يشغلهم عن الطاعة . يقال : ألهاه عن كذا أى شغله . ولهِىَ هو عن الشىء يلْهَى . ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ إذا رأوا القيامة وذاقوا و بال ما صنعوا . وهذه الآية منسوخة بالسيف .

الثانية — فى مسند البزار عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أربعة من الشقاء جمود العين وقساوة القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا" . وطولُ الأمل داء

(١) أى لا تغنى؛ يقال : ما يجدى عنك هذا؛ أى ما يغنى . وفى بعض نسخ الأصل : لا تجزى؛ بالزاى؛ وهى بمعنى لا تغنى . ولم نوفق لمعرفة قافية البيت .

عضال ومرض مزمن، ومتى تمكن من القلب فسد مزاجه واشتدّ علاجه ، ولم يفارقه داء ولانجع فيه دواء، بل أعيا الأطباء ويئس من برئه الحكماء والعلماء . وحقيقة الأمل : الحرص على الدنيا والانكباب عليها ، والحبُّ لها والإعراض عن الآخرة . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "نجا أوّل هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخرها بالبخل والأمل" . ويروى عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قام على درج مسجد دمشق فقال : يأهل دمشق ، ألا تسمعون من أخ لكم ناصح ، إنّ مَن كان قبلكم كانوا يجمعون كثيرا ويبنون مشيّدا ويأملون بعيدا ، فأصبح جمعهم بُورا وبنيانهم قبورا وأملهم غرورا . هذه عاد قد ملأت البلاد أهلا ومالا وخيلا ورجالا ، فمن يشترى منى اليوم تركتهم بدرهمين ! وأنشد :

يا ذا المؤمل آمالا وإن بَعُدت * منه ويزعم أن يحظى بأقصاها
أنَّى تفوز بما ترجوه وَيْكَ وما * أصبحت فى ثقة من نَيْل أدناها

وقال الحسن : ما أطال عبدٌ الأمل إلا أساء العمل . وصدق رضي الله عنه ! فالأمل يكسل عن العمل ويورث التراخى والتوانى، ويعقب التشاغل والتقاعس، ويخلد إلى الأرض ويميل إلى الهوى . وهذا أمر قد شوهد بالعيان فلا يحتاج إلى بيان ولا يُطلَب صاحبه ببرهان؛ كما أن قِصر الأمل يبعث على العمل ، ويُحيل على المبادرة، ويحثّ على المسابقة .

قوله تعالى : وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾

أى أجل مؤقت كتب لهم فى اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾

« من » صلة ؛ كقولك : ما جاءنى من أحد . أى لا تتجاوز أجلها فتزيد عليه ، ولا تتقدّم قبله . ونظيره قوله تعالى : « فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ »[1] .

---

(١) آية ٣٤ سورة الأعراف .

قوله تعالى : وَقَالُوا يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾

قاله كفار قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم على جهة الاستهزاء ، ثم طلبوا منه إتيان الملائكة دلالة على صدقه . و ﴿ لَوْ مَا ﴾ تحضيض على الفعل كلولا وهلا . وقال الفراء : الميم في « لوما » بدل من اللام في لولا . ومثله استولى على الشيء واستوى عليه ؛ ومثله خالته وخاللته ، فهو خِلِّي وخِلْمي ؛ أي صديق . وعلى هذا يجوز « لوما » بمعنى الخبر ، تقول : لوما زيد لضرب عمرو . قال الكسائي : لولا ولوما سواء في الخبر والاستفهام . قال ابن مُقْبِل :

لَوْمَا الحياء ولوما الدِّين عبتكما ... ببعض ما فيكما إذ عبتما عَوَرِى

يريد لولا الحياء . وحكى النحاس لوما ولولا وهلا واحد . وأنشد أهل اللغة على ذلك :

تعدّون عَقْر النِّيب أفضلَ مَجْدِكم ... بني ضَوْطَرَى لولا الكميَّ المُقَنَّعا[1]

أي هلا تعدون الكميَّ المقنعا .

قوله تعالى : مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾

قرأ حفص وحمزة والكسائي ﴿ مَا نُنَزِّلُ الملائكةَ إلا بالحق ﴾ واختاره أبو عبيد . وقرأ أبو بكر والمفضل « ما تُنَزَّلُ الملائكةُ » . الباقون « ما تَنَزَّلُ الملائكةُ » وتقديره : ما تتنزل بتاءين حذفت إحداهما تخفيفا ، وقد شدد التاء البَزِّي ، واختاره أبو حاتم اعتبارا بقوله : « تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ »[2] . ومعنى ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ إلا بالقرآن . وقيل بالرسالة ؛ عن مجاهد . وقال الحسن : إلا بالعذاب إن لم يؤمنوا . ﴿وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ﴾ أي لو تنزلت الملائكة بإهلاكهم لما أمهلوا ولا قبلت لهم توبة . وقيل : المعنى لو تنزلت الملائكة تشهد لك فكفروا

---

(١) البيت لجرير يهجو الفرزدق . والعقر : ضرب قوائم الناقة بالسيف . والنيب (بكسر النون) : جمع ناب . وهي الناقة المسنة . وضوطرى : هو الرجل الضخم اللئيم الذي لا غناء عنده ؛ وهي كلمة ذم وسب . والكمي : الشجاع المتكي في سلاحه ؛ لأنه كمّى نفسه أي سترها بالدرع والبيضة . والمقنع : الذي على رأسه البيضة والمغفر .

(٢) آية ٤ سورة القدر .

بعد ذلك لم ينظُروا . وأصل « إذًا » إذ أن — ومعناه حينئذ — فضم إليها أن، واستثقلوا الهمزة فحذفوها .

قوله تعالى : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ من أن يزاد فيه أو ينقص منه . قال قتادة وثابت البُنَانيّ : حفظه الله من أن تزيد فيه الشياطين باطلا أو تُنقِص منه حقا؛ فتولّى سبحانه حفظه فلم يزل محفوظا، وقال فى غيره : « بما استُحْفِظُوا »[1] ، فوكّل حفظه إليهم فبدّلوا وغيروا . أنبأنا الشيخ الفقيه الإمام أبو القاسم عبد الله عن أبيه الشيخ الفقيه الإمام المحدث أبى الحسن على بن خلف بن معزوز الكومى التِّلِمْسانى قال : قرئ على الشيخة العالمة فخر النساء شُهْدة بنت أبى نصر أحمد بن الفرج الدِّينَوَرِيّ وذلك بمنزلها بدار السلام فى آخر جمادى الآخرة من سنة أربع وستين وخمسمائة ، قيل لها : أخبركم الشيخ الأجل العامل نقيب النقباء أبو الفوارس طِرَاد بن محمد الزَّيْنِي قراءة عليه وأنت تسمعين سنة تسعين وأربعمائة، أخبرنا على بن عبد الله بن إبراهيم حدثنا أبو على عيسى بن محمد بن أحمد ابن عمر بن عبد الملك بن عبد العزيز ابن جريج المعروف بالطُّومَارِيّ حدثنا الحسين بن فهم قال : سمعت يحيى بن أكثم يقول : كان للمأمون — وهو أمير إذ ذاك — مجلس نظر، فدخل فى جملة الناس رجل يهودى حسن الثوب حسن الوجه طيب الرائحة ، قال : فتكلم فأحسن الكلام والعبارة ، قال : فلما تقوّض المجلس دعاه المأمون فقال له : إسرائيلى ؟ قال نعم . قال له : أسلم حتى أفعل بك وأصنع ، ووعده . فقال : دينى ودين آبائى ! وانصرف . قال : فلما كان بعد سنة جاءنا مُسْلما ، قال : فتكلّم على الفقه فأحسن الكلام ؛ فلما تقوّض المجلس دعاه المأمون وقال : ألستَ صاحبنا بالأمس ؟ قال له : بلى . قال : فما كان سبب إسلامك ؟ قال : انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن هذه الأديان، وأنت ترانى حسن الخط ،

(١) فى قوله تعالى : «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور...» آية ٤٤ سورة المائدة، وراجع جـ ٦ ص ١٨٨ طبعة أولى أو ثانية .

فعَمدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها الكنيسة فاشتُريت منى ، وعمدت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها البِيعة فاشتُريت منى ، وعَمدت إلى القرآن فعملت ثلاث نسخ وزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها الوراقين فتصفحوها ، فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها ؛ فعلمت أن هذا كتاب محفوظ ، فكان هذا سببَ إسلامى . قال يحيى بن أكثم : فحججت تلك السنةَ فلقيت سفيان بن عُيينة فذكرت له الخبر فقال لى : مصداق هذا فى كتاب الله عز وجل . قال قلت : فى أى موضع ؟ قال : فى قول الله تبارك وتعالى فى التوراة والإنجيل : « بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ »(1) ، فجعل حفظه إليهم فضاع ، وقال عز وجل : « إنّا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » فحفظه الله عز وجل علينا فلم يضع . وقيل : « وإنا له لحافظون » أى لمحمد صلى الله عليه وسلم من أن يتقوّل علينا أو نتقول عليه . أو « وإنا له لحافظون » من أن يكاد أو يقتل . نظيره « واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ »(2) . و « نحن » يجوز أن يكون موضعه رفعا بالابتداء و « نزلنا » الخبر . والجملة خبر « إنّ » . ويجوز أن يكون « نحن » تأكيدا لاسم « إنّ » فى موضع نصب ، ولا تكون فاصلة لأن الذى بعدها ليس بمعرفة وإنما هو جملة ، والجمل تكون نعوتا للنكرات فحكمها حكم النكرات .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾

المعنى : ولقد أرسلنا من قبلك رسلا ، فحذف . والشِّيَع جمع شيعة وهى الأُمّة ، أى فى أممهم ؛ قاله ابن عباس وقتادة . الحسن : فى فرقهم . والشِّيعة : الفرقة والطائفة من الناس المتآلفة المتفقة الكلمة . فكأن الشِّيَع الفِرَق ؛ ومنه قوله تعالى : « أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا »(3) . وأصله مأخوذ من الشِّياع وهو الحطب الصغار يوقد به الكبار ـــ كما تقدم فى « الأنعام » . وقال الكلبى : إن الشِّيَع هنا القرى .

---

(1) آية ٤٤ سورة المائدة . (2) آية ٦٧ سورة المائدة . (3) راجع جـ ٧ ص ٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ ﴾

تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أى كما فعل بك هؤلاء المشركون فكذلك فُعل بمن قبلك من الرسل .

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ ﴾ أى الضلال والكفر والاستهزاء والشرك . ﴿ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ من قومك ؛ عن الحسن وقتادة وغيرهما . أى كما سلكناه فى قلوب من تقدم من شيع الأولين كذلك نسلكه فى قلوب مشركى قومك حتى لا يؤمنوا بك ، كما لم يؤمن من قبلهم برسلهم . وروى ابن جُريج عن مجاهد قال : نسلك التكذيب . والسَّلك : إدخال الشىء فى الشىء كادخال الخيط فى المِخْيط . يقال : سَلَكه يَسْلُكه سَلْكا وسُلوكا ، وأسلكه إسلاكا . وسَلَك الطريق سُلوكا وسَلْكا وأسلكه دخله ، والشىءُ فى غيره مثله ، والشىءَ كذلك والرُّمحَ ، والخيط فى الجوهر ؛ كلُّه فَعَل وأفعل . وقال عَدِىّ بن زيد :

* وقد سلكوك فى يوم عَصيب * (1)

والسِّلك (بالكسر) الخيط . وفى الآية ردّ على القَدَرية والمعتزلة . وقيل : المعنى نسلك القرآن فى قلوبهم فيكذبون به . وقال الحسن ومجاهد وقتادة القولَ الذى عليه أكثر أهل التفسير (2) ، وهو ألزم حجة على المعتزلة . وعن الحسن أيضا : نسلك الذكر إلزاما للحجة ؛ ذكره الغَزْنَوِىّ . ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى مضت سنة الله بإهلاك الكفار ، فما أقرب هؤلاء من الهلاك . وقيل : « خلت سنة الأولين » بمثل ما فعل هؤلاء من التكذيب والكفر ، فهم يقتدون بأولئك .

---

(1) هذا عجز البيت ، وصدره كما فى اللسان وشعراء النصرانية :
* وكنتُ لِزازَ خصمك لم أُعَرِّد *

(2) فى الأصول : « وقرأ » .

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

يقال : ظلّ يفعل كذا، أى يفعله بالنهار . والمصدر الظُّلول . أى لو أجيبوا إلى ما اقترحوا من الآيات لأصروا على الكفر وتعلّلوا بالخيالات ؛ كما قالوا للقرآن المعجز : إنه سحر . ﴿يَعْرُجُونَ﴾ من عَرَج يعرُج أى صعِد . والمعارج المصاعد . أى لو صعدوا إلى السماء وشاهدوا الملكوت والملائكة لأصروا على الكفر؛ عن الحسن وغيره . وقيل : الضمير فى «عليهم» للشركين . وفى «فظلّوا» للملائكة، تذهب وتجيء . أى لو كشف لهؤلاء حتى يعاينوا أبوابا فى السماء تصعّد فيها الملائكة وتنزل لقالوا : رأينا بأبصارنا ما لا حقيقة له ؛ عن ابن عباس وقتادة . ومعنى ﴿سُكِّرَتْ﴾ سُدّت بالسحر؛ قاله ابن عباس والضحاك . وقال الحسن : سُحرت . الكلبي : أغشيت أبصارنا؛ وعنه أيضا عَميت . قتادة : أخذت . وقال المُؤَرِّج : دِيرَبنا من الدوران ؛ أى صارت أبصارنا سكرى . جُوَيبِر : خُدعت . وقال أبو عمرو ابن العلاء : « سكرت » غُشّيت وغُطّيت . ومنه قول الشاعر :

وطلعت شمس عليها مغفر * وجعلت عين الحرور تَسْكَرُ

وقال مجاهد : « سكرت » حبست . ومنه قول أوْس بن حَجر :

فصرتُ على ليلة ساهرهْ[1] * فليست بطَلْقٍ ولا ساكِرَهْ

قلت : وهذه أقوال متقاربة يجمعها قولك : مُنِعت . قال ابن عَزيز : «سُكِّرت أبصارنا» سُدّت أبصارنا؛ هو من قولك : سَكَرت النهرَ إذا سددته . ويقال : هو من سُكْر الشراب ، كأن العين يلحقها مايلحق الشارب إذا سكِر . وقرأ ابن كَثير «سُكِرت» بالتخفيف . والباقون بالتشديد . قال ابن الأعرابى : سُكِرت ملئت[2] . قال المهدَوِى : والتخفيف والتشديد

(١) فى اللسان مادة سكر : «جذلت» بالجيم والذال المفتوحتين؛ ومعنى «جذل» انتصب وثبت لا يبرح . وليلة طلق : مشرق لا برد فيها ولا حرّ ، ولا مطر ولا قرّ . (٢) عبارة ابن الأعرابى كما فى نسخ الأصل : « سكرت ملئت ، وسكرت ملكت » ولم نر ما يؤيد هذا؛ ولعله تكرير من الناسخ مع تحريف .

فى «سكرت» ظاهران، التشديد للتكثير والتخفيف يؤدّى عن معناه، والمعروف أن «سكر» لايتعدى . قال أبو على : يجوز أن يكون سُمع متعديا فى البصر . ومن قرأ «سَكِرت» فإنه شبه ماعرض لأبصارهم بحال السكران، كأنها جرت مجرى السكران لعدم تحصيله . وقد قيل : إنه بالتخفيف [من] سكر الشراب، وبالتشديد أُخذت، ذكرهما المـاوردى . وقال النحاس : والمعروف من قراءة مجاهـد والحسن «سُكِرت» بالتخفيف . قال الحسن : أى سُحِرت . وحكى أبو عبيد عن أبى عبيدة أنه يقال : سُكِّرت أبصارهم إذا غَشِيها سَمادِير[1] حتى لا يبصروا . وقال الفراء : من قرأ «سَكِرت» أخذه من سـكور الريح . قال النحاس : وهـذه الأقوال متقاربة . والأصل فيهـا ما قال أبو عمرو بن العلاء رحمـه الله تعالى، قال : هـو من السكر فى الشراب . وهذا قول حسن؛ أى غشيهم ما غطّى أبصارهم كما غشى السكرانَ ماغطى عقله . وسكور الريح سكونها وفتورها؛ فهو يرجع إلى معنى التحيير .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

لمـا ذكر كفر الكافرين وعجز أصنامهم ذكر كمال قدرته ليُستدلّ بها على وحدانيتـه . والبروجَ : القصور والمنـازل . قال ابن عباس : أى جعلنا فى السماء بروج الشمس والقمر؛ أى منازلهما. وأسماء هذه البروج : الحَمَل، والثَّور، والجَوْزاء، والسَّرطان، والأَسَد، والسُّنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجَـدْى، والدّلو، والحوت . والعرب تَعُدّ المعرفة لمواقع النجوم وأبوابها من أجل العلوم، ويستدلّون بها على الطرقات والأوقات والخصب والجَدْب . وقالوا : الفَلَك اثنا عشر برجا، كلّ برج مِيلان ونصف . وأصل البروج الظهور؛ ومنه تبرّج المرأة بإظهار زينتها . وقد تقدّم هـذا المعنى فى النسـاء[2] . وقال الحسن وقتادة : البروج النجوم، وسميت بذلك لظهورها وآرتفاعها . وقيـل : الكواكب العظام؛ قاله أبو صالح،

(١) السهادير : ضعف البصر . وقيل : هو الشىء الذى يتراءى للانسان من ضعف بصره عند السكر من الشراب .
(٢) راجع جـ ٥ ص ٢٨٤ طبعة أولى أو ثانية .

يعني السبعة السيارة . وقال قوم : « بروجا » ؛ أي قصورا وبيوتا فيها الحرس، خلقها الله[1] في السماء . فالله أعلم . ﴿ وزيناها ﴾ يعني السماء؛ كما قال في سورة المُلْك : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح »[2] . ﴿ للناظرين ﴾ للمعتبرين والمتفكرين .

قوله تعالى : وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾

أي مرجوم . والرجم الرمي بالحجارة . وقيل : الرجم اللعن والطرد . وقد تقدّم[3] . وقال الكسائي : كل رجيم في القرآن فهو بمعنى الشتم . وزعم الكلبي أن السموات كلها لم تحفظ من الشياطين إلى زمن عيسى، فلما بعث الله تعالى عيسى حفظ منها ثلاث سموات إلى مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحفظ جميعها بعد بعثه وحُرست منهم بالشُّهُب . وقاله ابن عباس رضي الله عنه . قال ابن عباس : وقد كانت الشياطين لا يحجبون عن السماء، فكانوا يدخلونها ويلقون أخبارها على الكهنة ، فيزيدون عليها تسعا فيحدثون بها أهل الأرض؛ الكلمة حق والتسع باطل؛ فاذا رأوا شيئا مما قالوه صدقوهم فيما جاءوا به ، فلما ولد عيسى بن مريم عليهما السلام منعوا من ثلاث سموات ، فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها ، فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رُمي بشهاب؛ على ما يأتي[4] .

قوله تعالى : إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾

أي لكن من استرق السمع ، أي الخطفة اليسيرة، فهو استثناء منقطع . وقيل ، هو متصل، أي إلا ممن استرق السمع . أي حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئا من الوحي وغيره؛ إلا من استرق السمع فانا لم نحفظها منه أن تسمع الخبر من أخبار السماء سوى الوحي، فأما الوحي فلا تسمع منه شيئا؛ لقوله : « إنهم عن السمع لمعزولون »[5] . وإذا استمع الشياطين

---

(١) وهي ـــ حسب ترتيبها التصاعدي ـــ : القمر، عطارد، الزهرة، الشمس، المريخ، المشترى، زحل .
(٢) آية ٥ . (٣) راجع جـ ٩ ص ٩١ طبعة أولى أو ثانية . (٤) في سورة الصافات في قوله تعالى : « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ... » آية ٦ وما بعدها . وفي سورة الجن في قوله تعالى : « وأنا لمسنا السماء ... » آية ٨ وما بعدها . (٥) آية ٢١٢ سورة الشعراء .

إلى شئ ليس بوحى فانهم يقذفونه إلى الكهنة فى أسرع من طرفة عين، ثم تتبعهم الشهب فتقتلهم أو تخبلهم[1]؛ ذكره الحسن وابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴾ أتبعه : أدركه ولحقه. شهاب : كوكب مضىء، وكذلك شهاب ثاقب . وقوله : «بِشِهَابٍ قَبَسٍ»[2] بشعلة نار فى رأس عود؛ قاله ابن عزيز . وقال ذو الرمة :

كأنه كوكب فى إثر عِفْرِيَةٍ[3] * مسومٌ فى سواد الليل مُنْقَضِبُ

وسمى الكوكب شهابا لبريقه، يشبه النار . وقيل : شهاب لشعلة من نار، قبس لأهل الأرض، فتحرقهم ولا تعود إذا أحرقت كما إذا أحرقت النار لم تعد ، بخلاف الكوكب فانه إذا أحرق عاد إلى مكانه . قال ابن عباس : تصعد الشياطين أفواجا تسترق السمع فينفرد المارد منها فيعلو، فَيُرْمَى بالشهاب فيصيب جبهته أو أنفه أو ماشاء الله فيلتهب، فيأتى أصحابه وهو يلتهب فيقول : إنه كان من الأمر كذا وكذا ، فيذهب أولئك إلى إخوانهم من الكهنة فيزيدون عليها تسعا ، فيحدثون بها أهل الأرض؛ الكلمة حق والتسع باطل . فاذا رأوا شيئا مما قالوا قد كان صدقوهم بكل ماجاءوا به من كذبهم . وسيأتى هذا المعنى مرفوعا فى سورة « سبأ »[4] إن شاء الله تعالى .

واختلف فى الشهاب هل يقتل أم لا . فقال ابن عباس : الشهاب يجرح ويحرق ويخبل ولا يقتل . وقال الحسن وطائفة : يقتل؛ فعلى هذا القول فى قتلهم بالشهب قبل إلقاء السمع إلى الجن قولان : أحدهما — أنهم يُقتلون قبل إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم؛ فعلى هذا لا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء، ولذلك انقطعت الكهانة . والثانى — أنهم يُقتلون بعد إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم من الجن؛ ولذلك ما يعودون إلى استراقه، ولو لم يصل لا نقطع الاستراق وانقطع الإحراق؛ ذكره الماوردى .

---

(١) الخبل (بسكون الباء) : فساد الأعضاء . (٢) آية ٧ سورة النمل . (٣) أى إثر شيطان، مسوم : معلم ومنقضب : منقض من مكانه . (٤) فى قوله تعالى : «ولا تنفع الشفاعة عنده» آية ٢٦ .

قلت : والقول الأول أصح على ما يأتي بيانه في «الصافات»[1] . واختلف هل كان رمي بالشهب قبل المبعث؛ فقال الأكثرون نعم . وقيل لا ، وإنما ذلك بعد المبعث . وسيأتي بيان هذه المسألة في سورة «الجن» إن شاء الله تعالى . وفي «الصافات» أيضا . قال الزجاج : والرمي بالشهب من آيات النبيّ صلى الله عليه وسلم مما حدث بعد مولده؛ لأن الشعراء في القديم لم يذكروه في أشعارهم، ولم يشبهوا الشيء السريع به كما شبهوا بالبرق وبالسيل . ولا يبعد أن يقال : انقضاض الكواكب كان في قديم الزمان ولكنه لم يكن رجوما للشياطين، ثم صار رجوما حين ولد النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال العلماء : نحن نرى انقضاض الكواكب ، فيجوز أن يكون ذلك كما نرى ثم يصير نارا إذا أدرك الشيطان . ويجوز أن يقال : يُرْمَوْن بشعلة من نار من الهوى فيخيل إلينا أنه نجم سرى . والشهاب في اللغة النار الساطعة . وذكر أبو داود عن عامر الشعبي قال : لما بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم رجمت الشياطين بنجوم لم تكن ترجم بها قبل ، فأتوا عبد ياليل بن عمرو الثقفي فقالوا : إن الناس قد فزعوا وقد أعتقوا رقيقهم وسيّبوا أنعامهم لما رأوا في النجوم . فقال لهم — وكان رجلا أعمى — : لا تعجلوا، وانظروا فإن كانت النجوم التي تُعرف فهي عند فناء الناس، وإن كانت لا تعرف فهي من حَدَث . فنظروا فإذا هي نجوم لا تُعرف، فقالوا : هذا من حدث . فلم يلبثوا حتى سمعوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ هذا من نعمه أيضا ، ومما يدل على كمال قدرته . قال ابن عباس : بسطناها على وجه الماء؛ كما قال : «وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا»[2] أي

(١) في قوله تعالى : «لا يسّمّعون إلى الملأ الأعلى ...» آية ٨ . (٢) آية ٣٠ سورة النازعات .

بسطها . وقال : « والأرض فرشناها فنعم الماهدون »[1] . وهو رد على من زعم أنها كالكرة . وقد تقدم[2] . ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالا ثابتة لئلا تتحرك بأهلها . ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ أي مقدر معلوم؛ قاله ابن عباس وسعيد بن جبير . و إنما قال «موزون» الوزن يعرف به مقدار الشيء . قال الشاعر :

قد كنت قبل لقائكم ذا مِرّة ٭ عندى لكل مُخاصِم ميزانُه

وقال قتادة : موزون يعني مقسوم . وقال مجاهد : موزون معدود . و يقال : هذا كلام موزون؛ أي منظوم غير منتثر . فعلى هذا أي أنبتنا في الأرض ما يوزن من الجواهر والحيوانات والمعادن . وقد قال الله عز وجل في الحيوان : « وأنبتها نباتا حسنا »[3] . والمقصود من الإنبات الإنشاءُ والإيجاد . وقيل : ﴿ أنبتنا فيها ﴾ أي في الجبال ﴿من كل شيء موزون﴾ من الذهب والفضة والنحاس والرصاص والقزدير، حتى الزِّرنيخ والكحل، كل ذلك يوزن وزنا . رُوى معناه عن الحسن وابن زيد . وقيل : أنبتنا في الأرض الثمار مما يكال و يوزن . وقيل : ما يوزن فيه الأثمان لأنه أجلّ قدرا وأعم نفعا مما لا ثمن له . ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ يعني المطاعم والمشارب التي يعيشون بها؛ واحدها معيشة (بسكون الياء) . ومنه قول جرير :

تكلِّفني مَعيشــةَ آلِ زيدٍ ٭ ومَن لى بالمرقَّق والصِّنابِ[4]

والأصلُ مَعْيِشة على مَفْعِلة (بتحريك الياء) . وقد تقدّم في الأعراف[5] . وقيل : إنها الملابس؛ قاله الحسن . وقيل : إنها التصرف في أسباب الرزق مدة الحياة . قال الماوردى : وهو الظاهر . ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ يريد الدواب والأنعام؛ قاله مجاهد . وعنده أيضا هم العبيد والأولاد الذين قال الله فيهم : « نحن نرزقهم وإياكم »[6] ولفظ « من » يجوز أن يتناول العبيد والدواب إذا اجتمعوا ؛ لأنه إذا اجتمع من يعقل وما لا يعقل، غُلِّب من يعقل . أى

---

(١) آية ٤٨ سورة الذاريات . (٢) في قوله تعالى : «وهو الذى مدّ الأرض .. » آية ٣ سورة الرعد . راجع جـ ٩ ص ٢٨٠ طبعة أولى أو ثانية . (٣) آية ٣٧ سورة آل عمران . (٤) الصناب : الخردل المضروب بالزبيب ، يؤتدم به . (٥) راجع جـ ٧ ص ١٦٧ طبعة أولى أو ثانية . (٦) آية ٣١ سورة الإسراء .

جعلنا لكم فيها معايش وعبيدا و إماء ودواب وأولادا نرزقهم ولا ترزقونهم . فـ«ـمن» على هذا التأويل فى موضع نصب ؛ قال معناه مجاهد وغيره . وقيل : أراد به الوحش . قال سعيد : قرأ علينا منصور « وَمَنْ لستم له بِرازقين» قال : الوحش . فـ«ـمن» على هذا تكون لما لا يعقل ؛ مثل « فَمِنْهُم مَنْ يَمْشِى عَلَى بَطْنِهِ »(١) الآية . وهى فى محل خفض عطفا على الكاف والميم فى قوله : « لكم » . وفيه قبح عند البصريين ؛ فإنه لا يجوز عندهم عطف الظاهر على المضمر إلا بإعادة حرف الجر ؛ مثل مررت به و بزيد . ولا يجوز مررت به وزيد إلا فى الشعر . كما قال :

فاليوم قربت تهجونا وتشتمنا * فآذهب فما بك والأيامِ من عَجَب

وقد مضى هذا المعنى فى «البقرة» وسورة «النساء» .

قوله تعالى : وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزَائِنُهُ﴾ أى و إن من شىء من أرزاق الخلق ومنافعهم إلا عندنا خزائنه ؛ يعنى المطر المنزل من السماء ، لأن به نبات كل شىء . قال الحسن : المطر خزائن كل شىء . وقيل : الخزائن المفاتيح ، أى فى السماء مفاتيح الأرزاق ؛ قاله الكلبى . والمعنى واحد . ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ أى ولكن لا ننزله إلا على حسب مشيئتنا وعلى حسب حاجة الخلق إليه ؛ كما قال : « وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ »(٢) . وروى عن ابن مسعود والحكم بن عيينة وغيرهما أنه ليس عام أكثر مطرا من عام ، ولكن الله يقسمه كيف شاء ، فيُمْطَر قوم و يحرم آخرون ، وربما كان المطر فى البحار والقفار . والخزائن جمع الخزانة ، وهو الموضع الذى يستر فيه الإنسان ما له . والخزانة أيضا مصدر خَزَن يخزُن . وما كان فى خزانة الإنسان كان مُعَدًّا له . فكذلك ما يقدر عليه الرب

(١) آية ٤٥ سورة النور . (٢) آية ٢٧ سورة الشورى .

فكأنه مُعَدٌّ عنده؛ قاله القشيري. وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه قال: في العرش مثال كل شيء خلقه الله في البر والبحر. وهو تأويل قوله تعالى: « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ». والإنزال بمعنى الإنشاء والإيجاد؛ كقوله: « وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ »[1] وقوله: « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ »[2]. وقيل: الإنزال بمعنى الإعطاء، وسماه إنزالا لأن أحكام الله إنما تنزل من السماء.

قوله تعالى: وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿ وأَرسَلْنَا الرِّيَاحَ ﴾ قراءة العامة « الرياح » بالجمع. وقرأ حمزة بالتوحيد؛ لأن معنى الريح الجمع أيضا وإن كان لفظها لفظ الواحد. كما يقال: جاءت الريح من كل جانب. كما يقال: أرضٌ سَبَاسِبُ[3] وثوبٌ أخلاق. وكذلك تفعل العرب في كل شيء آتسع. وأما وجه قراءة العامة فلأن الله تعالى نعتها بـ « لواقح » وهي جمع. ومعنى لواقح حوامل؛ لأنها تحمل الماء والتراب والسحاب والخير والنفع. قال الأزهري: وجعل الريح لاقحا لأنها تحمل السحاب؛ أي تُقِلّه وتصرّفه ثم تَمْرِيه فتستَدِرّه[4]، أي تنزله؛ قال الله تعالى: « حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا »[5] أي حملت. وناقة لاقح ونُوق لواقح إذا حملت الأجنة في بطونها. وقيل: لواقح بمعنى مُلْقِحة وهو الأصل، ولكنها لا تُلقح إلا وهي في نفسها لاقح، كأن الرياح لَقِحت بخير. وقيل: ذوات لَقْح، وكل ذلك صحيح؛ أي منها ما يُلقح الشجر، كقولهم: عيشة راضية؛ أي فيها رضًا، وليل نائم؛ أي فيه نوم. ومنها ما تأتي بالسحاب. يقال: لَقِحت الناقة (بالكسر) لَقَحا ولَقَاحا (بالفتح) فهي لاقح. وألقحها الفحل أي ألقى إليها

---

(١) آية ٦ سورة الزمر. (٢) آية ٢٥ سورة الحديد. (٣) السبسب: الأرض المستوية البعيدة.
(٤) مرت الريح السحاب: إذا أنزلت منه المطر. (٥) آية ٥٧ سورة الأعراف.

الماء فحملته ؛ فالرياح كالفحل للسحاب . قال الجوهرى : ورياح لواقح ولا يقال ملاقح، وهو من النوادر . وحكى المهدوى عن أبى عبيدة : لواقح بمعنى ملاقح، ذهب إلى أنه جمع مُلْقِحة ومُلْقِح، ثم حذفت زوائده . وقيل : هو جمع لاقحة ولاقح، على معنى ذات اللقاح على النسب . ويجوز أن يكون معنى لاقح حاملا . والعرب تقول للجنوب : لاقح وحامل، وللشمال حائل وعقيم . وقال عبيد بن عُمير : يرسل الله المبشرة فتقم الأرض قمّا[1]، ثم يرسل المثيرة فتثير السحاب، ثم يرسل المؤلفة فتؤلفه، ثم يبعث اللواقح فتلقح الشجر . وقيل : الريح الملاقح التى تحمل الندى فتمجّه فى السحاب، فإذا اجتمع فيه صار مطرا . وعن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الريح الجنوب من الجنة وهى الريح اللواقح التى ذكرها الله فى كتابه وفيها منافع للناس " . وروى عنه عليه السلام أنه قال : " ما هبّت جنوب إلا أنبع الله بها عينا غَدقة ". وقال أبو بكر بن عياش : لا تقطر قطرة من السحاب إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع فيها ؛ فالصَّبا تهيّجه، والدَّبور تُلقحه، والجنوب تُدِرّه، والشمال تفرّقه .

الثانيـــة ـــ روى ابن وهب وابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم عن مالك ـــ واللفظ لأشهب ـــ قال مالك : قال الله تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقح » فلقاح القمح عندى أن يحبب ويُسَنْبِل، ولا أدرى ما ييبَس فى أكمامه، ولكن يُحبّب حتى يكون لو يبس حينئذ لم يكن فساد الأخير فيه . ولقاح الشجر كلها أن تثمر ثم يسقط منها ما يسقط ويثبت ما يثبت، وليس ذلك بأن تورّد . قال ابن العربى : إنما عوّل مالك فى هذا التفسير على تشبيه لقاح الشجر بلقاح الحمل، وأن الولد إذا عقد وخلق ونفخ فيه الروح كان بمنزلة تحبب الثمر وتسنبله ؛ لأنه سُمّى باسم تشترك فيه كل حاملة وهو اللقاح، وعليه جاء الحديث " نهى النبىّ صلى الله عليه وسلم عن بيع الحَبّ حتى يشتد " . قال ابن عبد البر : الإبّار عند أهل العلم فى النخل التلقيح، وهو أن يؤخذ شىء من طلع [ذكور] النخل فيُدْخَل بين ظهرانى طلع الإناث .

(١) تم البيت : كنسه .

ومعنى ذلك فى سائر الثمار طلوع الثمرة من التين وغيره حتى تكون الثمرة مرئية منظورا إليها . والمعتبر عند مالك وأصحابه فيما يذكّر من الثمار التذكير ، وفيما لا يذكّر أن يثبت من نواره ما يثبت ويسقط ما يسقط . وحدّ ذلك فى الزرع ظهوره من الأرض ؛ قاله مالك . وقد روى عنه أن إباره أن يحبّب . ولم يختلف العلماء أن الحائط إذا انشق طلع إناثه فأخّر إباره وقد أبر غيره ممن حاله مثل حاله ، أن حكمه حكم ما أبر ؛ لأنه قد جاء عليه وقت الإبار وثمرته ظاهرة بعد تغيبها فى الحبّ . فإن أبر بعض الحائط كان مالم يؤبر تبعا له . كما أن الحائط إذا بدا صلاحه كان سائر الحائط تبعا لذلك الصلاح فى جواز بيعه .

الثالثــة — روى الأئمة كلّهم عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من ابتاع نخلا بعد أن تؤبر فثمرتها للذى باعها إلا أن يشترط المبتاع . ومن ابتاع عبدا فماله للذى باعه إلا أن يشترطه المبتاع " . قال علماؤنا : إنما لم يدخل الثمر المؤبر مع الأصول فى البيع إلا بالشرط ؛ لأنه عين موجودة يحاط بها أمن سقوطها غالبا . بخلاف التى لم تؤبر ؛ إذ ليس سقوطها مأمونا فلم يتحقق لها وجود ، فلم يجز للبائع اشتراطها ولا استثناؤها ؛ لأنها كالجنين . وهذا هو المشهور من مذهب مالك . وقيل : يجوز استثناؤها ؛ وهو قول الشافعى .

الرابعــة — لو اشتُرِى النخل وبقى الثمر للبائع جاز لمشترى الأصل شراء الثمرة قبل طيبها على مشهور قول مالك ، ويرى لها حكم التبعية وإن أفردت بالعقد . وعنه فى رواية : لا يجوز . وبذلك قال الشافعى وأبو حنيفة والثورى وأهل الظاهر وفقهاء الحديث . وهو الأظهر من أحاديث النهى عن بيع الثمرة قبل بدوّ صلاحها .

الخامســة — ومما يتعلق بهذا الباب النهى عن بيع الملاقح ؛ والملاقح الفحول من الإبل ، الواحد مُلقح . والملاقح أيضا الإناث التى فى بطونها أولادُها ، الواحدة ملقَحة (بفتح القاف) . والملاقيح ما فى بطون النوق من الأجنة ، الواحدة ملقوحة ؛ من قولهم : لُقحت ؛ كالمحموم من حُمّ ، والمجنون من جُنّ . وفى هذا جاء النهى . وقد روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم :

أنه نهى عن المجر وهو بيع ما فى بطون الإناث . ونهى عن المضامين والملاقيح . قال أبو عبيد : المضامين ما فى البطون، وهى الأجنة . والملاقيح ما فى أصلاب الفحول . وهو قول سعيد بن المسيِّب وغيره . وقيل بالعكس : إن المضامين ما فى ظهور الجمال ، والملاقيح ما فى بطون الإناث . وهو قول ابن حبيب وغيره . وأىَّ الأمرين كان ، فعلماء المسلمين مجمعون على أن ذلك لا يجوز . وذكر المزنى عن ابن هشام شاهدا بأن الملاقيح ما فى البطون لبعض الأعراب :

مَنِيَّتى مَلاَقِحًا فى الأبْطُنِ (١) * تُنْتَج ما تَلْقَحُ بعد أزْمُنِ

وذكر الجوهرىّ على ذلك شاهدا قول الراجز :

إنّا وجدنا طَرَدَ الهَوامِلِ (٢) * خيرا من التأنان والمسائِلِ

وعِدَةِ العامِ وعامٍ قابلِ * مَلقوحةً فى بطن نابٍ حامِلِ

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى من السحاب . وكل ما علاك فأظلّك يسمى سماء . وقيل : من جهة السماء . ﴿ مَاءً ﴾ أى قطرا . ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ أى جعلنا ذلك المطر لسقياكم ولشرب مواشيكم وأرضكم . وقيل : سَقَى وأسقى بمعنًى . وقيل بالفرق ، وقد تقدّم (٣) . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ أى ليست خزائنه عندكم ؛ أى نحن الخازنون لهذا الماء ننزله إذا شئنا ونمسكه إذا شئنا . ومثله « وأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤) » ، « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِى الْأَرْضِ وإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (٥) » . وقال سفيان : لستم بما نعين المطر.

قوله تعالى : وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾

أى الأرض ومن عليها، ولا يبقى شيء سوانا . نظيره « إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٦) » . فملك كلّ شيء لله تعالى . ولكن ملّك عباده أملاكا فاذا ماتوا انقطعت

(١) كذا فى الأصل . (٢) الهوامل : الإبل المهملة . والتأنان : الأنين . والناب : الناقة المسنة . والحائل : التى لم تحمل . (٣) راجع جـ ١ ص ٤١٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) آية ٤٨ سورة الفرقان . (٥) آية ١٨ سورة المؤمنون . (٦) آية ٤٠ سورة مريم .

الدعاوى، فكان الله وارثا من هـذا الوجه . وقيـل : الإحياء فى هـذه الآية إحياء النطفة فى الأرحام . فأما البعث فقد ذكره بعد هذا فى قوله : « وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ » .

قوله تعالى : وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾

فيـه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ فيه ثمان تأويلات : الأوّل ــ « المستقدمين » فى الخلق إلى اليوم، و «المستأخرين» الذين لم يخلقوا بعد؛ قاله قتادة وعكرمة وغيرهما . الثانى ــ « المستقدمين » الأموات، و « المستأخرين » الأحياء؛ قاله ابن عباس والضحاك . الثالث ــ « المستقدمين » من تقدّم أمة محمد ﷺ، و « المستأخرين » أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ قاله مجاهد . الرابع ــ «المستقدمين» فى الطاعة والخير، و « المستأخرين » فى المعصية والشر؛ قاله الحسن وقتادة أيضا . الخامس ــ «المستقدمين» فى صفوف الحرب، و «المستأخرين» فيها؛ قاله سعيد بن المسيّب . السادس ــ «المستقدمين» من قتل فى الجهاد، و «المستأخرين» من لم يقتل؛ قاله القرظى . السابع ــ « المستقدمين » أوّل الخلق ، و « المستأخرين » آخر الخلق ؛ قاله الشعبي . الثامن ــ « المستقدمين » فى صفوف الصلاة، و « المستأخرين » فيها بسبب النساء . وكل هذا معلوم لله تعالى ؛ فإنه عالم بكل موجود ومعدوم ، وعالم بمن خلق وما هو خالقه إلى يوم القيامة . إلا أن القول الثامن هو سبب نزول الآية؛ لما رواه النّسائى والترمذى عن أبى الجوزاء عن ابن عباس قال: كانت امرأة تصلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حسناء من أحسن الناس، فكان بعض القوم يتقدّم حتى يكون فى الصف الأوّل لئلا يراها، ويتأخر بعضهم حتى يكون فى الصف المؤخر، فإذا ركع نظر من تحت إبطه، فأنزل الله عز وجل «وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ » . وروى عن أبى الجوزاء ولم يُذكر ابن عباس . وهو أصح .

الثانيـــة ـــ هذا يدلّ على فضل أوّل الوقت فى الصلاة وعلى فضل الصفّ الأوّل؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لو يعلم الناس ما فى النـداء والصف الأوّل ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا"(١) . فاذا جاء الرجل عند الزوال فنزل فى الصف الأوّل مجاور الإمام، حاز ثلاث مراتب فى الفضل : أوّل الوقت، والصف الأوّل، ومجاورة الإمام . فان جاء عند الزوال فنزل فى الصف الآخر أو فيما نزل عن الصف الأوّل، فقد حاز فضل أوّل الوقت وفاته فضل الصف الأوّل والمجاورة . فإن جاء وقت الزوال ونزل فى الصف الأوّل دون ما يلى الإمام فقد حاز فضل أوّل الوقت وفضل الصف الأوّل، وفاته مجاورة الإمام . فإن جاء بعد الزوال ونزل فى الصف الأوّل فقد فاته فضيلة أوّل الوقت، وحاز فضيلة الصف الأوّل ومجاورة الإمام . وهكذا . ومجاورة الإمام لا تكون لكل أحد، وإنما هى كما قال صلى الله عليه وسلم : "ليَلِيَنِي منكم أولو الأحلام والنهى" الحديث . فما يلى الإمام ينبغى أن يكون لمن كانت هذه صفته، فإن نزلها غيره أُخّر وتقـدّم هو إلى الموضـع ؛ لأنه حقّه بأمر صاحب الشرع ، كالمحراب هو موضع الإمام تقدّم أو تأخر؛ قاله ابن العربى .

قلت : وعليه يحمـل قول عمر رضى الله عنه : تأخر يا فلان ، تقدّم يا فلان ؛ ثم يتقدّم فيكبر . وقد روى عن كعب أن الرجل من هذه الأمة ليَخِرّ ساجدا فيغفر لمن خلفه . وكان كعب يتوخى الصف المؤخر من المسجد رجاء ذلك ، ويذكر أنه وجده كذلك فى التوراة . ذكره الترمذيّ الحكيم فى نوادر الأصول . وسيأتى فى سورة « الصافات » زيادة بيان لهذا الباب إن شاء الله تعالى .

الثالثـــة ـــ وكما تدل هـذه الآية على فضل الصف الأوّل فى الصلاة ، فكذلك تدل على فضل الصف الأوّل فى القتال ؛ فإن القيام فى نحر العدوّ ، وبيع العبد نفسه من الله تعالى لا يوازيه عمل؛ فالتقدّم إليه أفضـل ، ولا خلاف فيه ولا خفاء به . ولم يكن أحد يتقدّم فى الحرب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه كان أشجع الناس . قال البَرَاء : كنا والله إذا احمرّ البأس نتّقى به ، وإن الشجاع منا للذى يحاذى به ، يعنى النبيّ صلى الله عليه وسلم .

---

(١) أى إلا أن يقترعوا .

قوله تعالى : وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ أى للحساب والجزاء . ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ تقدم[1] .

قوله تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ يعنى آدم عليه السلام . ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ ﴾ أى من طين يابس؛ عن ابن عباس وغيره . والصَّلْصَال : الطين الحرّ خُلط بالرمل فصار يتصلصل إذا جفّ ، فإذا طبخ بالنار فهو الفخّار؛ عن أبى عبيدة . وهو قول أكثر المفسرين . وأنشد أهل اللغة :

* كَعَدْوِ المُصَلْصِل الجَوّال *[2]

وقال مجاهد : هو الطين المُنْتِن؛ واختاره الكسائى . قال : وهو من قول العرب : صلّ اللحمُ وأصلّ إذا أنتن — مطبوخا كان أو نيئا — يَصِلّ صلولا . قال الحُطَيْئة :

ذاك فتًى يبذُل ذا قِدْرِه * لا يُفسد اللحمَ لَدَيه الصُّلول

وطين صَلاّل ومِصْلال؛ أى يصوّت إذا نقرته كما يصوّت الحديد . فكان أوّل ترابا ، أى متفرّق الأجزاء ثم بُلّ فصار طينا ، ثم تُرك حتى أنتن فصار حَمأً مسنونا؛ أى متغيرا، ثم يَبِس فصار صلصالا؛ على قول الجمهور . وقد مضى فى «البقرة»[3] بيان هذا . والحَمَأ : الطين الأسود، وكذلك الحمأة بالتسكين؛ تقول منه : حمِئت البئرُ حَمْأً (بالتسكين) إذا نزعت حمأتها . وحَمِئت البئر حماً (بالتحريك) كثرتْ حمأتُها . وأحمأتُها إحماء ألقيتُ فيها الحَمْأة؛ عن ابن السِّكِّيت . وقال أبو عبيدة : الحمأة (بسكون الميم) مثل الكمأة . والجمع حَمْءٌ؛ مثل تمرة وتمر . والحَمَأ المصدر، مثل الهلع والجزع ، ثم سُمّى به . والمسنون المتغيّر . قال ابن عباس : هو التراب المبتل المنتن ،

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) هذا عجز البيت . وتمامه كما فى اللسان
عنتريس تعدو إذا مسها الصو * ت كعدو المصلصل الجوال

(٣) راجع المسألة الأولى جـ ١ ص ٢٧٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

بجعل صلصالا كالفخار . ومثله قول مجاهد وقتادة، قالا : المنتن المتغيّر؛ من قولهم : قد أَسِن الماء إذا تغيّر؛ ومنه « يَتَسَنّه » و «ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ» . ومنه قول أبي قيس بن الأسلت :

سقت صداى رُضابا غير ذى أسن * كالمسك فُتّ على ماء العناقيد

وقال الفراء : هو المتغير، وأصله من قولهم : سَنَنت الحجر على الحجر إذا حككته به . وما يخرج من الحجرين يقال له السنانة والسَّنين؛ ومنه المِسن . قال الشاعر :

ثم خاصرتُها إلى القبة الحمـ * ـراء تمشى في مَرْمَرٍ مَسنون[1]

أى محكوك مُملّس . حُكى أن يزيد بن معاوية قال لأبيه : ألا ترى عبد الرحمن بن حسان يُشبّب بآبنتك . فقال معاوية : وما قال ؟ فقال قال :

هي زَهْراءُ مثلُ لؤلؤة الغوّ * اص مِيزَتْ من جوهرٍ مَكْنونِ

فقال معاوية : صدق ! فقال يزيد : [إنه يقول][2] :

وإذا ما نَسَبْتَها لم تجدها * في سَناء من المكارم دون

فقال : صدق! فقال : أين قوله : ثم خاصرتها ... البيت . فقال معاوية : كذب . وقال أبو عبيدة : المسنون المصبوب، وهو من قول العرب : سننت الماء وغيره على الوجه إذا صببته . والسَّن الصب . وروى عليّ بن أبي طلحة عن آبن عباس قال : المسنون الرَّطب؛ وهذا بمعنى المصبوب؛ لأنه لايكون مصبوبا إلا وهو رطب . النحاس : وهذا قول حسن؛ لأنه يقال : سننت الشيء أى صببته . قال أبو عمرو بن العلاء : ومنه الأثر المروى عن عمر[3] أنه كان يَسُنّ الماء على وجهه ولا يَشُنّه . والشنّ (بالشين) تفريق الماء، وبالسين المهملة صبه من غير تفريق . وقال سيبويه : المسنون المصوّر . أخذ من سُنّة الوجه وهو صورته . وقال ذو الرمة :

تُرِيك سُنّةَ وجهٍ غيرَ مُقْرِفَةٍ * ملساء ليس بها خالٌ ولا نَدَبُ[4]

---

(١) في اللسان : الخضراء . (٢) الزيادة عن اللسان . (٣) في نهاية ابن الأثير : «ابن عمر» .

(٤) السنة : الصورة . والمقرفة : التي دنت من الهجنة . والندب : الأثر من الجراح والقراح . وقوله : غير مقرفة؛ أي غير هجينة، عفيفة كريمة .

وقال الأخفش : المسنون المنصوب القائم؛ من قولهم: وجه مسنون إذا كان فيه طول . وقد قيل : إن الصَّلصال التراب المدقق؛ حكاه المهدوىّ . ومن قال : إن الصلصال هو المنتن فأصله صلّال، فأبدل من إحدى اللامين الصاد . و « مِنْ حَمَإٍ » مفسر لجنس الصلصال؛ كقولك : أخذت هذا من رجل من العرب .

قوله تعالى : وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ والجانَّ خلقناهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل خلق آدم . وقال الحسن : يعنى إبليس، خلقه الله تعالى قبل آدم عليه السلام . وسُمِّىَ جانا لتواريه عن الأعين . وفى صحيح مسلم من حديث ثابت عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لما صوّر الله تعالى آدم عليه السلام فى الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يُطيف به ينظر ما هو فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقا لا يتمالك (١) " . ﴿ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾ قال ابن مسعود : نار السموم التى خلق الله منها الجان جزء من سبعين جزءا من نار جهنم . وقال ابن عباس : السموم الريح الحارة التى تقتل . وعنه : أنها نار لادخان لها، والصواعق تكون منها، وهى نار تكون بين السماء والحجاب . فإذا أحدث الله أمرا اخترقت الحجاب فهوت الصاعقة إلى ما أُمِرت . فالهَدّة (٢) التى تسمعون خرق ذلك الحجاب . وقال الحسن : نار السموم نار دونها حجاب، والذى تسمعون من انغطاط السحاب صوتها . وعن ابن عباس أيضا قال : كان إبليس من حىّ من أحياء الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم من بين الملائكة — قال — : وخلقت الجن الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار .

قلت : هذا فيه نظر؛ فإنه يحتاج إلى سند يقطع العذر؛ إذ مثله لا يقال من جهة الرأى . وقد خرّج مسلم من حديث عروة عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خُلقت الملائكة من نور وخُلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وُصف لكم " .

(١) أى لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات . وقيل : لا يملك نفسه عند الغضب . وقيل : لا يملك دفع الوسواس عنه . (٢) الهدة : صوت وقع الحائط ونحوه .

فقوله : " خلقت الملائكة من نور " يقتضي العموم . والله أعلم . وقال الجوهري : مارج من نار نارٌ لا دخان لها خلق منها الجان، والسموم الريح الحارة تؤنث؛ يقال منه : سمّ يومُنا فهو يوم مسموم، والجمع سمائم . قال أبو عبيدة : السَّمُوم بالنهار وقد تكون بالليل، والحَرُور بالليل وقد تكون بالنهار . القشيري : وسُمِّيت الريح الحارة سموما لدخولها في مسامّ البدن .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ تقدم في «البقرة»[1] . ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ ﴾ من طين ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ أي سوّيت خلقه وصورته . ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ النفخ إجراء الريح في الشيء . والرُّوح جسم لطيف، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم . وحقيقته إضافة خلق إلى خالق ؛ فالروح خلق من خلقه أضافه إلى نفسه تشريفا وتكريما ؛ كقوله : " أرضي وسمائي و بيتي وناقة الله وشهر الله " . ومثله « وروحٌ منه » وقد تقدم في « النساء »[2] مبيّنا . وذكرنا في كتاب (التذكرة) الأحاديث الواردة التي تدل على أن الروح جسم لطيف، وأن النفس والروح اسمان لمسمًّى واحد . وسيأتي ذلك إن شاء الله . ومن قال إن الروح هو الحياة قال أراد : فإذا ركّبت فيه الحياة . ﴿ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ أي خرّوا له ساجدين . وهو سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة . ولله أن يفضل من يريد؛ ففضل الأنبياء على الملائكة . وقد تقدم في « البقرة »[3] هذا المعنى . وقال القفّال : كانوا أفضل من آدم، وامتحنهم بالسجود له تعريضا لهم للثواب الجزيل . وهو مذهب المعتزلة . وقيل : أمروا بالسجود لله عند آدم، وكان آدم قبلة لهم .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٦١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٢ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) راجع جـ ١ ص ٢٩١ وما بعدها . طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — لا شك أن إبليس كان مأمورا بالسجود ؛ لقوله : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ »[1] وإنما منعه من ذلك الاستكبار والاستعظام ؛ كما تقدّم في « البقرة »[2] بيانه . ثم قيل : كان من الملائكة ؛ فهو استثناء من الجنس . وقال قوم : لم يكن من الملائكة ؛ فهو استثناء منقطع . وقد مضى في « البقرة »[3] هذا كلّه مستوفًى . وقال ابن عباس : الجان أبو الجن وليسوا شياطين . والشياطين ولد إبليس ، لا يموتون إلا مع إبليس . والجن يموتون ، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر . فآدم أبو الإنس . والجان أبو الجن . وإبليس أبو الشياطين ؛ ذكره الماوردي . والذي تقدّم في « البقرة » خلاف هذا ، فتأمله هناك .

الثانيــة — الاستثناء من الجنس غير الجنس صحيح عند الشافعي ، حتى لو قال : لفلان علىّ دينار إلا ثوبا ، أو عشرة أثواب إلا قفيز حنطة ، وما جانس ذلك كان مقبولا ، ويسقط عنه من المبلغ قيمة الثوب والحنطة . ويستوى في ذلك المكيلات والموزونات والمقدّرات . وقال مالك وأبو حنيفة رضي الله عنهما : استثناء المكيل من الموزون والموزون من المكيل جائز ، حتى لو استثنى الدراهم من الحنطة والحنطة من الدراهم قُبل . فأما إذا استثنى المقومات من المكيلات أو الموزونات ، والمكيلات من المقومات ، مثل أن يقول : علىّ عشرة دنانير إلا ثوبا ، أو عشرة أثواب إلا دينارا لا يصح الاستثناء ، ويلزم المقبر جميع المبلغ . وقال محمد بن الحسن : الاستثناء من غير الجنس لا يصح ، ويلزم المقر جملة ما أقر به . والدليل

---

(١) آية ١٢ سورة الأعراف . راجع جـ ٧ ص ١٦٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٩٦ طبعة ثانية أو ثالثة . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٩٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

لقول الشافعي أن لفظ الاستثناء يستعمل في الجنس وغير الجنس؛ قال الله تعالى : « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا »[1] فاستثنى السلام من جملة اللغو . ومثله « فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس » وإبليس ليس من جملة الملائكة؛ قال الله تعالى : « إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ »[2] . وقال الشاعر :

وبلدةٍ ليس بها أنيس * إلا اليعافيرُ وإلا العيسُ

فاستثنى اليعافير وهي ذكور الظباء ، والعيس وهي الجمال البيض من الأنيس ؛ ومثله قول النابغة[3] :

... ... * ... ...

قوله تعالى : قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ ﴾ أي ما المانع لك . ﴿ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ أي في ألا تكون . ﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ بين تكبّره وحسده[4] ، وأنه خير منه ، إذ هو من نار والنار تأكل الطين ؛ كما تقدم في « الأعراف » بيانه . ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا ﴾ أي من السموات ، أو من جنة عدن ، أو من جملة الملائكة . ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ أي مرجوم بالشهب . وقيل : ملعون مشئوم . وقد تقدم هذا كله مستوفى في البقرة والأعراف . ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ ﴾ أي لعنتي ؛ كما في سورة « ص »[5] .

---

(١) آية ٢٥ سورة الواقعة. (٢) آية ٥٠ سورة الكهف. (٣) لم يذكر المؤلف رحمة الله عليه قول النابغة ، أو لعله سقط من الناسخ . ولعله يشير الى قوله :

حلفت يمينا غير ذي مَثْنَوِيَّة * ولا علمَ إلا حسنَ ظن بصاحب

وهذا البيت أورده سيبويه في كتابه شاهدا على نصب ما بعد إلا على الاستثناء المنقطع ؛ لأن حسن الظن ليس من العلم . والمثنوية : الاستثناء في اليمين . والمعنى : حلفت غير مستثن في يميني حسن ظن مني بصاحبي قام عندي مقام العلم الذي يوجب اليمين . (راجع كتاب سيبويه) . (٤) راجع جـ ٧ ص ١٧٠ طبعة أولى أو ثانية. (٥) آية ٧٨ .

قوله تعالى : قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ هـذا السؤال من إبليس لم يكن عن ثقته منه بمنزلته عند الله تعالى ، وأنه أهـل أن يجاب له دعاء ؛ ولكن سأل تأخير عذابه زيادة فى بلائه ؛ كفعل الآيس من السلامة . وأراد بسؤاله الإنظار إلى يوم يبعثون : ألا يموت ؛ لأن يوم البعث لا موت فيه ولا بعـده . قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ يعنى من المؤجلين . ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ قال ابن عباس : أراد به النفخة الأولى ، أى حين تموت الخلائق . وقيـل : الوقت المعلوم الذى استأثر الله بعلمه ، ويجهله إبليس . فيموت إبليس ثم يبعث ؛ قال الله تعـالى : « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ »(1) . وفى كلام الله تعالى له قولان : أحدهما ـــ كلمه على لسان رسوله . الثـانى ـــ كلمه تغلظا فى الوعيـد لا على وجه التكرمة والتقـريب .

قوله تعـالى : قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ تقدّم معنى الإغواء والزينـة فى الأعراف(2) . وتزيينه هنـا يكون بوجهين : إما بفعل المعـاصى ، وإما بشغلهم بزينة الدنيا عن فعل الطاعة . ومعنى ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى لأضلنهم عن طريق الهدى . وروى ابن لَهِيعة عبـدُ الله عن دُرّاج أبى السـمح عن أبى الهيثم عن أبى سـعيد الخدرى قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " إن إبليس قال يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغوى بنى آدم ما دامت أرواحهم فى أجسامهم فقال الرب وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى " .

(1) آية ٢٦ سورة الرحمن . (2) راجع جـ ٧ ص ١٧٤ و ١٩٥ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾

قرأ أهل المدينة وأهل الكوفة بفتح اللام ؛ أى الذين استخلصتهم وأخلصتهم . وقرأ الباقون بكسر اللام ؛ أى الذين أخلصوا لك العبادة من فساد أو رياء . حكى أبو ثمامة أن الحواريين سألوا عيسى عليه السلام عن المخلصين لله فقال : " الذى يعمل ولا يحب أن يحمده الناس " .

قوله تعالى : قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾

قال عمر بن الخطاب : معناه هذا صراط يستقيم بصاحبه حتى يهجُم به على الجنة . الحسن : « علىّ » بمعنى إلىّ . مجاهد والكسائى : هذا على الوعيد والتهديد؛ كقولك لمن تُهدّده : طريقك علىّ ومصيرك إلىّ . وكقوله : « إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ »(1) . فكان معنى الكلام : هذا طريقٌ مرجعه إلىّ فأجازى كُلًّا بعمله ، يعنى طريق العبودية . وقيل : المعنى علىّ أن أدل على الصراط المستقيم بالبيان والبرهان . وقيل : بالتوفيق والهداية . وقرأ ابن سيرين وقتادة والحسن وقيس بن عُبَاد وأبو رجاء وحُميد ويعقوب «هذا صِراط علىٌّ مستقيم» برفع « علىّ » وتنوينه ؛ ومعناه رفيع مستقيم ، أى رفيع فى الدين والحق . وقيل : رفيع أن يُنال، مستقيم أن يمال .

قوله تعالى : إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾

فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ قال العلماء : يعنى على قلوبهم . وقال ابن عُيينة : أى فى أن يلقيهم فى ذنب يمنعهم عفوى ويضيقه عليهم . وهؤلاء الذين هداهم الله واجتباهم واختارهم واصطفاهم .

(1) آية ١٤ سورة الفجر .

قلت : لعل قائلا يقول : قد أخبر الله عن صفة آدم وحواء عليهما السلام بقوله : « فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ »(١)، وعن جملة من أصحاب نبيه بقوله: « إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا »(٢) فالجواب ما ذكر، وهو أنه ليس له سلطان على قلوبهم ، ولا موضع إيمانهم، ولا يلقيهم فى ذنب يؤول إلى عدم القبول، بل تزيله التوبة وتمحوه الأوبة . ولم يكن خروج آدم عقوبة لما تناول؛ على ما تقدم فى « البقرة »(٣) بيانه . وأما أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقد مضى القول عنهم فى آل عمران(٢) . ثم إن قوله سبحانه : « ليس لك عليهم سلطان » يحتمل أن يكون خاصا فيمن حفظه الله ، ويحتمل أن يكون فى أكثر الأوقات والأحوال، وقد يكون فى تسلطه تفريج كربة وإزالة غمة؛ كما فعل ببلال، إذ أتاه يهديه كما يهدى الصبي حتى نام، ونام النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلم يستيقظوا حتى طلعت الشمس، وفزعوا وقالوا : ما كفارة ماصنعنا بتفريطنا فى صلاتنا ؟ فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : "ليس فى النوم تفريط" ففرج عنهم . ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ أى الضالين المشركين . أى سلطانه على هؤلاء؛ دليله « إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ »(٤) .

الثانية — وهذه الآية والتى قبلها دليل على جواز استثناء القليل من الكثير والكثير من القليل؛ مثل أن يقول : عشرة إلا درهما . أو يقول : عشرة إلا تسعة . وقال أحمد ابن حنبل : لا يجوز أن يستثنى إلا قدر النصف فما دونه . وأما استثناء الأكثر من الجملة فلا يصح . ودليلنا هذه الآية ، فإن فيها استثناء « الغاوين » من العباد والعباد من الغاوين، وذلك يدل على أن استثناء الأقل من الجملة واستثناء الأكثر من الجملة جائز .

قوله تعالى : وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

(١) آية ٣٦ سورة البقرة . (٢) آية ١٥٥ سورة آل عمران، جـ ٤ ص ٢٤٣ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ١ ص ٣٢١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) آية ١٠٠ سورة النحل .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ يعنى إبليس ومن اتبعه . ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾ أى أطباق، طبق فوق طبق ﴿ لِكُلِّ بَابٍ ﴾ أى لكل طبقة ﴿ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾ أى حظ معلوم . ذكر ابن المبارك قال : أخبرنا إبراهيم أبو هارون الغَنَوِىّ قال : سمعت حطّان ابن عبد الله الرَّقاشى يقول سمعت عليًّا رضى الله عنه يقول : هل تدرون كيف أبواب جهنم؟ قلنا : هى مثل أبوابنا . قال لا، هى هكذا بعضها فوق بعض، ـ زاد الثعلبى : ووضع إحدى يديه على الأخرى ـ وأن الله وضع الجنان على الأرض، والنيران بعضها فوق بعض، فأسفلها جهنم، وفوقها الحُطَمة، وفوقها سقر، وفوقها الجحيم، وفوقها لظى، وفوقها السعير، وفوقها الهاوية، وكلّ باب أشدّ حرا من الذى يليه سبعين مرة .

قلت : كذا وقع هذا التفسير . والذى عليه الأكثر من العلماء أن جهنم أعلى الدّركات، وهى مختصة بالعصاة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وهى التى تخلى من أهلها فتصفق الرياح أبوابها . ثم لظى، ثم الحطمة، ثم سعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية . قال الضحاك : فى الدّرك الأعلى المحمديّون، وفى الثانى النصارى، وفى الثالث اليهود، وفى الرابع الصابئون، وفى الخامس المجوس، وفى السادس مشركو العرب، وفى السابع المنافقون وآل فرعون ومن كفر من أهل المائدة . قال الله تعالى : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » ـ وقد تقدم فى النساء[(١)] ـ ، وقال : « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ »[(٢)] ، وقال : « فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّى أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ »[(٣)] . وقسّم معاذ بن جبل رضى الله عنه العلماء السّوء من هذه الأمة تقسيما على تلك الأبواب؛ ذكرناه فى كتاب (التذكرة) . وروى الترمذى من حديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سلّ سيفه على أمتى " قال : حديث غريب . وقال أُبَىّ بن كعب : لجهنم سبعة أبواب باب منها للحَرُورِيَّة[(٤)] . وقال وهب بن منبّه : بين كل بابين مسيرة سبعين

(١) راجع جـ ٥ ص ٤٢٤ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٤٦ سورة غافر . (٣) آية ١١٥ سورة المائدة .

(٤) فى كتاب الدر المنثور للسيوطى : « قال كعب رضى الله عنه : للشهيد نور، ولمن قاتل الحرورية عشرة أنوار . وكان يقول : لجهنم سبعة أبواب، باب منها للحرورية . قال : ولقد خرجوا فى زمان داود عليه السلام » .

سنة، كلّ باب أشدّ حرًّا من الذى فوقه بسبعين ضعفا. وقد ذكرنا هذا كلّه فى كتاب التذكرة.
وروى سلام الطويل عن أبى سفيان عن أنس بن مالك عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى قول الله تعالى: «لها سبعةُ أبوابٍ لِكلّ بابٍ مِنهم جزءٌ مقسوم» جزء أشركوا بالله، وجزء شكوا فى الله، وجزء غفلوا عن الله، وجزء آثروا شهواتهم على الله، وجزء شفَوْا غيظهم بغضب الله، وجزء صيّروا رغبتهم بحظهم من الله، وجزء عتَوْا على الله. ذكره الحَليمى أبو عبد الله الحسين بن الحسن فى كتاب (منهاج الدين) له، وقال: فإن كان ثابتا فالمشركون بالله هم الثّنوية. والشاكّون هم الذين لا يدرون أن لهم إلٰها أو لا إلٰه لهم، ويشكون فى شريعته أنها من عنده أم لا. والغافلون عن الله هم الذين يجحدونه أصلا ولا يثبتونه، وهم الدهرية. والمؤثرون شهواتهم على الله هم المنهمكون فى المعاصى؛ لتكذيبهم رسلَ الله وأمره ونهيه. والشافون غيظهم بغضب الله هم القاتلون أنبياء الله وسائر الداعين إليه، المعذِّبون من ينصح لهم أو يذهب غير مذهبهم. والمصيرون رغبتهم بحظهم من الله هم المنكرون بالبعث والحساب؛ فهم يعبدون ما يرغبون فيه، لهم جميع حظهم من الله تعالى. والعاتون على الله الذين لا يبالون بأن يكون ما هم فيه حقا أو باطلا، فلا يتفكرون ولا يعتبرون ولا يستدلون. والله أعلم بما أراد رسوله صلى الله عليه وسلم إن ثبت الحديث. ويروى أن سلمان الفارسىّ رضى الله عنه لما سمع هذه الآية «وإن جهنم لَموْعِدُهُمْ أجمعينَ» فرّ ثلاثة أيام من الخوف لا يعقل؛ فجىء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله فقال: يا رسول الله، أنزلت هذه الآية «وإن جهنم لَموْعِدُهم أجمعين»؟ فو الذى بعثك بالحق لقد قطعت قلبى؛ فأنزل الله تعالى «إنّ المتقين فى جناتٍ وعيُونٍ». وقال بلال: كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يصلى فى مسجد المدينة وحده، فمرت به امرأة أعرابية فصلت خلفه ولم يعلم بها، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية «لها سبعة أبوابٍ لِكل بابٍ مِنهم جزء مقسوم» فخرّت الأعرابية مغشيًّا عليها، وسمع النبىّ صلى الله عليه وسلم وَجْبتها (١) فانصرف ودعا بماء فصبّ

(١) الوجبة: صوت الشىء يسقط فيسمع له كالهدّة.

على وجهها حتى أفاقت وجلست، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " يا هـذه مالك " ؟ فقالت : أهذا شيء من كتاب الله المنزل، أو تقوله من تلقاء نفسك ؟ فقال : " يا أعرابية، بل هو من كتاب الله تعالى المنزل " فقالت : كل عضو من أعضائى يعذب على كل باب منها ؟ قال : " يا أعرابيـة ، بل لكل باب منهم جزء مقسوم يعذّب أهل كل منها على قدر أعمالهم " فقالت : والله إنى امرأة مسكينة ، مالى مال، ومالى إلا سبعة أعبد ، أشهدك يا رسول الله ، أن كل عبد منهـم عن كل باب من أبواب جهنم حُرٌّ لوجه الله تعالى . فأتاه جبريل فقال : " يا رسول الله، بشّر الأعرابية أن الله قد حرّم عليها أبواب جهنم كلها وفتح لها أبواب الجنة كلها " .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أى الذين اتقوا الفواحش والشرك . ﴿ فِي جَنَّاتٍ ﴾ أى بساتين . ﴿ وعُيُونٍ ﴾ هى الأنهار الأربعة : ماء وخمر ولبن وعسل . وأما العيون المذكورة فى سورة « الإنسان » : الكافور والزنجبيل والسلسبيل ، وفى « المطففين » : التسنيم ، فيأتى ذكرها وأهلها إن شاء الله . وضم العين من « عُيُونٍ » على الأصل، والكسر مراعاة للياء ، وقرئ بهما . ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴾ قراءة العامة « ادخلوها » بوصل الألف وضم الخاء ، من دخل يدخُل ، على الأمر . تقديره : قيل ادخلوها . وقرأ الحسن وأبو العالية ورُوَيس عن يعقوب « أُدخِلوها » بضم التنوين ووصل الألف وكسر الخاء على الفعل المجهول، من أدخل . أى أدخلهم الله إياها . ومذهبهم كسر التنوين فى مثل « برحمةٍ ادخلوا الجنة »[1] وشبهه؛ إلا أنهم هاهنا ألقوا حركة الهمزة على التنوين؛ إذ هى ألف قطع ، ولكن فيه انتقال من كسر إلى ضم ثم من ضم إلى كسر فيثقل على اللسان . ﴿ بِسَلَامٍ ﴾ أى بسلامة من كل داء وآفة . وقيل : بتحية من الله لهم . ﴿ آمِنِينَ ﴾ أى من الموت والعذاب والعزل والزوال .

(١) آية ٤٩ سورة الأعراف .

قوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

قال ابن عباس : أوّل مايدخل أهل الجنة الجنة تعرض لهم عينان، فيشربون من إحدى العينين فيُذهب الله ما في قلوبهم من غل، ثم يدخلون العين الأخرى فيغتسلون فيها فتشرق ألوانهم وتصفو وجوههم، وتجرى عليهم نضرة النعيم؛ ونحوه عن عليّ رضى الله عنه. وقال عليّ بن الحسين : نزلت في أبي بكر وعمر وعليّ والصحابة، يعني ما كان بينهم في الجاهلية من الغل. والقول الأوّل أظهر، يدلّ عليه سياق الآية. وقال عليّ رضى الله عنه : أرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير من هؤلاء. والغل : الحقد والعداوة؛ يقال منه : غَلّ يغِلّ. ويقال من الغلول وهو السرقة من المغنم : غَلّ يغُلّ. ويقال من الخيانة : أغَلّ يُغِلّ. كما قال[1] :

جَزَى الله عنا حَمْزَةَ بنةَ نوفلٍ * جزاءَ مُغِلٍّ بالأمانة كاذبِ

وقد مضى هذا في آل عمران[2]. ﴿ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ أي لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض تواصلاً وتحاببًا؛ عن مجاهد وغيره. وقيل : الأسرة تدور كيفما شاءوا، فلا يرى أحد قفا أحد. وقيل : « متقابلين » قد أقبلت عليهم الأزواج وأقبلوا عليهن بالودّ. وسُرُر جمع سرير. مثل جديد وجدد. وقيل : هو من السرور؛ فكأنه مكان رفيع ممهّد للسرور. والأوّل أظهر. قال ابن عباس : على سرر مكللة بالياقوت والزبرجد والدر، السرير ما بين صنعاء إلى الجابية وما بين عدن إلى أيلة[3]. « وإخوانا » نصب على الحال من « المتقين »

---

(١) البيت للنمر بن تولب من أبيات في أم أولاده. وكان من حديثها أن أخاه الحارث بن تولب سيد قومه أغار على بني أسد فسبى منهم امرأة منهم يقال لها «حمزة بنت نوفل» فوهبها لأخيه النمر فتركه فحبسها حتى استقرت وولدت له أولادا، ثم قالت له في بعض أيامها : إني قد اشتقت إلى أهلي، فقال لها : إني أخاف ان صرت إلى أهلك أن تغلبيني على نفسك فواثقته لترجعن إليه، ثم خانت عهده. (راجع الأغاني ج ١٩ ص ١٥٨ طبع بولاق).

(٢) راجع ج ٤ ص ٢٥٥ طبعة أولى أو ثانية. (٣) صنعاء : موضعان : أحدهما باليمن وهي العظمى، وأخرى قرية بالغوطة. والجابية : قرية من أعمال دمشق. وعدن : مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن. وأيلة : مدينة على ساحل البحر الأحمر. (عن معجم البلدان).

أو من المضمر فى « ادخلوها » ، أو من المضمر فى « آمنين » ، أو يكون حالا مقدرة من الهاء والميم فى «صدورهم» . ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أى إعياء وتعب . ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ دليل على أن نعيم الجنة دائم لا يزول ، وأن أهلها فيها باقون . أكلها دائم ؛ « إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ » (١) .

قوله تعالى : نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

هذه الآية وزانُ قوله عليه السلام : " لو يعلم المؤمن ما عنـد الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد " أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة . وقد تقدم فى الفاتحة (٢) . وهكذا ينبغى للإنسان أن يذكر نفسه وغيره فيخوف ويرجى ، ويكون الخوف فى الصحة أغلب عليه منه فى المرض . وجاء فى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج على الصحابة وهم يضحكون فقال : " أتضحكون وبين أيديكم الجنة والنار " فشق ذلك عليهم فنزلت الآية . ذكره الماوردى والمهدوى . ولفظ الثعلبى عن ابن عمر قال : اطلع علينا النبى صلى الله عليه وسلم من الباب الذى يدخل منه بنو شيبة ونحن نضحك فقال : " مالكم تضحكون لا أراكم تضحكون " ثم أدبر حتى إذا كان عند الحجر رجع القهقرى فقال لنا : " إنى لما خرجت جاءنى جبريل فقال يا محمد لم تقنط عبادى من رحمتى « نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم » " . فالقنوط إياس ، والرجاء إهمال ، وخير الأمور أوساطها .

قوله تعالى : وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾

(١) آية ٥٤ سورة ص . (٢) راجع جـ ١ ص ١٣٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ضيف إبراهيم : الملائكة الذين بشروه (١) بالولد و بهلاك قوم لوط . وقد تقدّم ذكرهم . وكان إبراهيم عليه السلام يكنى أبا الضيفان، وكان لقصره أربعة أبواب لكيلا يفوته أحد . وسمى الضيف ضيفا لإضافته إليك ونزوله عليك . وقد مضى من حكم الضيف فى « هود » ما يكفى والحمد لله (٢) . ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ جمع الخبر لأن الضيف اسم يصلح للواحد والجمع والتثنية والمذكر والمؤنث كالمصدر . ضافه وأضافه أماله ؛ ومنه الحديث " حين تضيف الشمس للغروب " ، وضيفوفة السهم (٣) ، والإضافة النحوية . ﴿ فَقَالُوا سَلَامًا ﴾ أى سلّموا سلاما . ﴿ قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ أى فزعون خائفون، وإنما قال هذا بعد أن قرّب العجل ورآهم لا يأكلون ، على ما تقدّم فى هود (٤) . وقيل : أنكر السلام ولم يكن فى بلادهم رسم السلام . ﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ ﴾ أى قالت الملائكة لا تخف . ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ أى حليم؛ قاله مقاتل . وقال الجمهور : عالم . وهو إسحاق . ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ ﴾ « أن » مصدرية؛ أى على مس الكبر إياى وزوجتى ، وقد تقدّم فى هود و إبراهيم (٥) ؛ حيث يقول : « فَبِمَ تُبَشِّرُونَ » . استفهام تعجب . وقيل : استفهام حقيق . وقرأ الحسن « تُوجل » بضم التاء . والأعمش «بشرتمونى» بغير ألف، ونافع وشيبة « تُبَشِّرُونِ » بكسر النون والتخفيف؛ مثل «أتحاجّونِى» وقد تقدّم تعليله (٦) . وقرأ ابن كثير وابن محيصن «تُبَشِّرُونِّ» بكسر النون مشدّدة، تقديره تبشروننى، فأدغم النون فى النون . الباقون « تُبَشِّرُونَ » بنصب النون بغير إضافة .

قوله تعالى : قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ أى بما لا خلف فيه ، وأن الولد لابدّ منه . ﴿ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴾ أى من الآيسين من الولد ، وكان قد أيس من الولد لفرط

(١) راجع جـ ٩ ص ٦٢ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) راجع جـ ٩ ص ٦٤ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) ضاف السهم : عدل عن الهدف أو الرمية .
(٤) راجع جـ ٩ ص ٦٥ طبعة أولى أو ثانية .
(٥) راجع جـ ٩ ص ٦٩ و ٣٧٥
(٦) راجع جـ ٧ ص ٢٨ طبعة أولى أو ثانية .

الكبر . وقراءة العامة « مِن القانِطين » بالألف . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب « من القنطين » بلا ألف . وروى عن أبي عمرو . وهو مقصور من «القانطين» . ويجوز أن يكون من لغة من قال : قَنِط يَقْنَط ؛ مثل حذِر يحذر . وفتح النون وكسرها من « يقنط » لغتان قرئ بهما . وحكى فيه «يقنُط» بالضم . ولم يأت فيه «قنَط يقنَط» . [و] من فتح النون في الماضي والمستقبل فإنه جمع بين اللغتين ، فأخذ في الماضي بلغة من قال : قنَط يقنِط ، وفي المستقبل بلغة من قال : قنِط يقنَط ؛ ذكره المهدوي .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

أي المكذبون الذاهبون عن طريق الصواب . يعني أنه استبعد الولد لكبر سنه لا أنه قنط من رحمة الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

فيه مسئلتان :

الأولى ـ لما علم أنهم ملائكة ـ إذ أخبروه بأمر خارق للعادة وهو بشراهم بالولد ـ قال : فما خطبكم ؟ والخطب الأمر الخطير . أي فما أمركم وشأنكم وما الذي جئتم به . ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾ أي مشركين ضالين . وفي الكلام إضمار ؛ أي أرسلنا إلى قوم مجرمين لنهلكهم . ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ ﴾ أتباعه وأهل دينه . ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ ﴾ وقرأ حمزة والكسائي « لَمُنْجُوهم » بالتخفيف من أنجى . الباقون : بالتشديد من نجّى ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم . والتنجية والإنجاء التخليص . ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ ﴾ استثنى من آل لوط امرأته وكانت كافرة فالتحقت بالمجرمين في الهلاك . وقد تقدمت قصة قوم لوط

فى « الأعراف » وسورة « هود » بما فيه كفاية .[1][2] ﴿ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أى قضينا وكتبنا إنها لمن الباقين فى العذاب . والغابر : الباقى .

قال[3] :

لا تكسع الشَّوْل بأغبارها * إنك لا تدرى مَن النَّاتِج

الأغبار بقايا اللبن . وقرأ أبو بكر والمفضل « قَدَرنا » بالتخفيف هنا وفى النمل[4] ، وشدد الباقون . الهَرَوِىّ : يقال قدر وقدّر، بمعنًى .

الثانيــة — لا خلاف بين أهل اللسان وغيرهم أن الاستثناء من النفى إثبات ومن الإثبات نفى؛ فاذا قال رجل : له علىّ عشرة دراهم إلا أربعة إلا درهما؛ ثبت الإقرار بسبعة؛ لأن الدرهم مستثنًى من الأربعة، وهو مثبت لأنه مستثنى من منفى، وكانت الأربعة منفية لأنها مستثناة من موجب وهو العشرة، فعاد الدرهم إلى الستة فصارت سبعة . وكذلك لو قال : علىّ خمسة دراهم إلا درهما إلا ثلثيه؛ كان عليه أربعةِ دراهم وثلث . وكذلك إذا قال : لفلان علىّ عشرة إلا تسعة إلا ثمانية إلا سبعة؛ كان الاستثناء الثانى راجعا إلى ما قبله، والثالث إلى الثانى فيكون عليه درهمان؛ لأن العشرة إثبات والثمانية إثبات فيكون مجموعها ثمانية عشر . والتسعة نفى والسبعة نفى فيكون ستة عشر تسقط من ثمانية عشر ويبقى درهمان، وهو القدر الواجب بالإقرار لا غير . فقوله سبحانه : « إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ . إِلَّا آلَ لُوطٍ إنا لَمُنَجُّوهُمْ أجمعين . إلا ٱمرأَتَه » فاستثنى آل لوط من القوم المجرمين ، ثم قال : «إلا ٱمرأته» فاستثناها من آل لوط ، فرجعت فى التأويل إلى القوم المجرمين كما بينا . وهكذا الحكم فى الطلاق، لو قال لزوجته : أنت طالق ثلاثا إلا ٱثنتين إلا واحدة طلقت ثنتين؛ لأن الواحدة رجعت إلى الباقى من المستثنى منه وهى الثلاث ؛ وكذا كل ما جاء من هذا فتفهّمه .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٣ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٩ ص ٦٢ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) القائل هو الحارث بن حِلِّزة . والكسع : ضرب ضرع الناقة بالماء البارد ليجف لبنها و يتراد فى ظهرها فيكون أقوى لها على الجدب فى العام القابل . والشول : جمع شائلة وهى من الإبل التى أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فخف لبنها . والأغبار : جمع الغبر، وهى بقية اللبن فى الضرع . (٤) فى قوله تعالى : «فأنجيناه وأهله ...» آية ٥٧

قوله تعالى : فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جاءَ آل لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ . قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ أى لا أعرفكم . وقيل : كانوا شبابا ورأى جمالا فخاف عليهم من فتنة قومه ؛ فهذا هو الإنكار . ﴿ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أى يشكون أنه نازل بهم، وهو العذاب . ﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالصدق . وقيل : بالعذاب . ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ أى فى هلاكهم . ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ تقدم فى هود[1] . ﴿ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ ﴾ أى كن من ورائهم لئلا يتخلف منهم أحد فيناله العذاب . ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ﴾ نُهوا عن الالتفات ليجدّوا فى السير ويتباعدوا عن القرية قبل أن يفاجئهم الصبح . وقيل : المعنى لا يتخلف . ﴿ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ قال ابن عباس : يعنى الشام . مقاتل : يعنى صَفَد، قرية من قرى لوط . وقد تقدّم . وقيل : إنه مضى إلى أرض الخليل بمكان يقال له اليقين ، وإنما سمى اليقين لأن إبراهيم لما خرجت الرسل شيّعهم ، فقال لجبريل : من أين يخسف بهم ؟ قال : "من ها هنا" وحدّ له حدًّا، وذهب جبريل ؛ فلما جاء لوط جلس عند إبراهيم وارتقبا ذلك العذاب، فلما اهتزت الأرض قال إبراهيم : "أيقنت بالله" فسمى اليقين .

قوله تعالى : وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾

(١) راجع جـ ٩ ص ٧٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ أى أوحينا إلى لوط . ﴿ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ نظيره « فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا » . ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ أى عند طلوع الصبح . وقد تقدّم[1] . ﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ﴾ أى أهل مدينة لوط ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ مستبشرين بالأضياف طمعا منهم فى ركوب الفاحشة . ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي ﴾ أى أضيافى . ﴿ فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ أى تخجلون . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ يجوز أن يكون من الخزى وهو الذل والهوان، ويجوز أن يكون من الخزاية وهو الحياء والخجل . وقد تقدّم فى هود[2] . ﴿ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ أى عن أن تضيف أحدا لأنا نريد منهم الفاحشة . وكانوا يقصدون بفعلهم الغرباء؛ عن الحسن . وقد تقدم فى الأعراف[3] . وقيل : أو لم ننهك عن أن تكلمنا فى أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة . ﴿ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ أى فتزوجوهن ولا تركنوا إلى الحرام . وقد تقدم بيان هذا فى هود[4] .

قوله تعالى : لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال القاضى أبو بكر بن العربى : قال المفسرون بأجمعهم أقسم الله تعالى ها هنا بحياة محمد صلى الله عليه وسلم تشريفا له ، أن قومه من قريش فى سكرتهم يعمهون وفى حيرتهم يترددون .

قلت : وهكذا قال القاضى عياض : أجمع أهل التفسير فى هذا أنه قسم من الله جلّ جلاله بمدة حياة محمد صلى الله عليه وسلم . وأصله ضم العين من العمر ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال . ومعناه وبقائك يا محمد . وقيل وحياتك . وهذا نهاية التعظيم وغاية البر والتشريف . قال أبو الجوزاء : ما أقسم الله بحياة أحد غير محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنه أكرم البرية عنده . قال ابن العربى : «وما الذى يمنع أن يقسم الله سبحانه وتعالى بحياة لوط ويبلغ به من التشريف

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٢٧ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٩ ص ٧٧ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٤٥ طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع جـ ٩ ص ٧٦ طبعة أولى أو ثانية .

ما شاء، وكل ما يعطيه الله تعالى للوط من فضل يؤتى ضعفيه من شرف لمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أكرم على الله منه ؛ أو لا ترى أنه سبحانه أعطى إبراهيم الخُلّة وموسى التكليم وأعطى ذلك لمحمد، فإذا أقسم بحياة لوط فحياة محمد أرفع . ولا يخرج من كلام إلى كلام لم يجر له ذكر لغير ضرورة » .

قلت : ما قاله حسن ؛ فإنه كان يكون قسمه سبحانه بحياة محمد صلى الله عليه وسلم كلاما معترضا في قصة لوط . قال القشيريّ أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم في تفسيره : ويحتمل أن يقال : يرجع ذلك إلى قوم لوط ، أى كانوا فى سكرتهم يعمهون . وقيل : لما وعظ لوط قومه وقال هؤلاء بناتى قالت الملائكة : يا لوط ، « لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون » ولا يدرون ما يحلّ بهم صباحا . فإن قيل : فقد أقسم تعالى بالتين والزيتون وطور سينين ؛ فما فى هذا ؟ قيل له : ما من شيء أقسم الله به إلا وذلك دلالة على فضله على ما يدخل فى عداده ، فكذلك نبيّنا صلى الله عليه وسلم يجب أن يكون أفضل ممن هو فى عداده . والعَمْر والعُمْر (بضم العين وفتحها) لغتان ومعناهما واحد ؛ إلا أنه لا يستعمل فى القسم إلا بالفتح لكثرة الاستعمال . وتقول : عَمْرَكَ اللهَ ، أى أسأل الله تعميرك . و « لَعَمْرُكَ » رفع بالابتداء ، وخبره محذوف . المعنى لعمرك مما أقسم به .

الثانيــة — كره كثير من العلماء أن يقول الإنسان لعمرى ؛ لأن معناه وحياتى . قال إبراهيم النَّخَعِيّ : يكره للرجل أن يقول لعمرى ؛ لأنه حلف بحياة نفسه ، وذلك من كلام ضَعَفة الرجال . ونحو هذا قال مالك : إن المستضعفين من الرجال والمؤنّثين يقسمون بحياتك وعَيْشك ، وليس من كلام أهل الذُّكْران ، وإن كان الله سبحانه أقسم به فى هذه القصة ، فذلك بيان لشرف المنزلة والرفعة لمكانه ، فلا يحمل عليه سواه ولا يستعمل فى غيره . وقال ابن حبيب : ينبغى أن يُصرف « لعمرك » فى الكلام لهذه الآية . وقال قتادة : هو من كلام العرب . قال ابن العربىّ : وبه أقول ، لكن الشرع قد قطعه فى الاستعمال وردّ القسم إليه .

قلت : القسم بـ « لعمرك ولعمرى » ونحوه فى أشعار العرب وفصيح كلامها كثير .

قال النابغة :

لَعَمْرِى وما عَمْـرِى علىّ بهيّنٍ * لقد نَطقتْ بُطْلًا علىّ الأقارعُ [1]

آخـر :

لَعَمْرُكَ إن الموت ما أخطأ الفتى * لكالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْياه باليـدِ [2]

آخـر :

أيهـا المنكح الـثُّرَيا سُهيلًا * عَمْـرَكَ الله كيف يلتقيـانِ

آخـر :

إذا رَضِيَتْ علىّ بنو قُشَـير * لَعَمْـرُ اللهِ أعجبنى رضاهـا

وقال بعض أهل المعانى : لا يجوز هـذا ؛ لأنه لا يقال لله عمر ، و إنمـا هو تعالى أزلىّ . ذكره الزهراوى .

الثالثـة — قـد مضى الكلام فيما يُحلَف به ومالا يجوز الحلف به فى « المـائدة » [3] ، وذكرنا هنالك قول أحمد بن حنبل فيمن أقسم بالنبىّ صلى الله عليه وسلم لزمته الكفارة . قال آبن خُوَيْزِمَنْدَاد : من جوّز الحلف بغير الله تعالى ممـا يجوز تعظيمه بحق من الحقوق فليس يقول إنها يمين تتعلق بها كفارة ؛ إلا أنه من قصد الكذب كان ملوما ؛ لأنه فى الباطن مستخفّ بما وجب عليه تعظيمه . قالوا : وقوله تعالى « لعمرك » أى وحياتك . و إذا أقسم الله تعـالى بحياة نبيّه فإنمـا أراد بيان التصريح لنـا أنه يجوز لنـا أن نحلف بحياته . وعلى مذهب مالك معنى قوله : « لعمرك » و « التِّينِ والزَّيْتُونِ » « والطُّورِ . وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ » « والنَّجْمِ إِذَا هَوَى» « وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا » « لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ . وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ . وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ . » كل هذا معناه : وخالق التين والزيتون ، وبرب الكتاب المسطور ، وبرب البلد الذى حللت به ، وخالق عيشك وحياتك ، وحق محمـد ؛ فاليمين والقسم حاصل به سبحانه لا بالمخلوق . قال آبن خُوَيْزِمَنْدَاد : ومن جوّز اليمين بغير الله تعالى تأوّل قوله صلى الله عليه وسلم : "لا تحلفوا

(١) أراد بالأقارع بنى قريع بن عوف ، وكانوا قد وشوا به إلى النعمان . (٢) البيت لطرفة بن العبد . والطول : الحبل . وثنياه : ما ثنى منه . (٣) راجع جـ ٦ ص ٢٦٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

بآبائكم " وقال : إنما نهى عن الحلف بالآباء الكفار، ألا ترى أنه قال لما حلفوا بآبائهم : " للجبل عند الله أكرم من آبائكم الذين ماتوا في الجاهلية " . ومالك حمل الحديث على ظاهره . قال ابن خُوَيْزِمنداد : واستدل أيضا من جوز ذلك بأن أيمان المسلمين جرت منذ عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا أن يحلفوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم، حتى أن أهل المدينة إلى يومنا هذا إذا حاكم أحدهم صاحبَه قال : احلف لى بحق ما حواه هذا القبر، وبحق ساكن هذا القبر، يعني النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وكذلك بالحَرَم والمَشاعر العظام ، والرُّكن والمَقام والمحراب وما يُتلى فيه .

قوله تعالى : فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ نصب على الحال ، أي وقت شروق الشمس . يقال : أشرقت الشمس أي أضاءت ، وشَرَقت إذا طلعت . وقيل : هما لغتان بمعنًى . وأشرق القوم أي دخلوا في وقت شروق الشمس . مثل أصبحوا وأمسوا ، وهو المراد في الآية . وقيل : أراد شروق الفجر . وقيل : أوّل العذاب كان عند الصبح وامتدّ إلى شروق الشمس ، فكان تمام الهلاك عند ذلك . والله أعلم . و « الصيحة » العذاب . وتقدّم ذكر « سِجّيل »[1] .

قوله تعالى : إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾

فيه مسألتان :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ روى الترمذيّ الحكيم في (نوادر الأصول) من حديث أبي سعيد الخُدْريّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " للمتفرسين " وهو قول مجاهد . وروى أبو عيسى الترمذيّ عن أبي سعيد الخُدْريّ قال قال رسول الله صلى الله

(١) راجع جـ ٩ ص ٨١ طبعة أولى أو ثانية .

عليه وسلم : " اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله — ثم قرأ — « إن فى ذلك لآيات للمتوسّمين » " . قال : هذا حديث غريب . وقال مقاتل وآبن زيد : للتوسمين للتفكرين . الضحاك : للناظرين . قال الشاعر (١) :

أوَ كلما وردَتْ عكاظَ قبيلةٌ * بعثوا إلىّ عريفَهم يتوسّم

وقال قتادة : للمعتبرين . قال زهير :

وفيهنّ مَلْهًى للصديق ومنظَرٌ * أنيقٌ لعينِ الناظرِ المتوسّمِ

وقال أبو عبيدة : للتبصرين ، والمعنى متقارب . وروى الترمذىّ الحكيم من حديث ثابت عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لله عز وجل عبادا يعرفون الناس بالتوسُّم " . قال العلماء : التوسّم تفعّل من الوَسْم ، وهى العلامة التى يستدلّ بها على مطلوب غيرها . يقال : توسّمت فيه الخير إذا رأيت مِيسَم ذلك فيه ؛ ومنه قول عبد الله ابن رَوَاحة للنبىّ صلى الله عليه وسلم :

إنى توسّمت فيك الخير أعرفه * والله يعلم أنى ثابت البصر

آخر :

توسّمته لما رأيت مهابة * عليه وقلت المرء من آل هاشم

واتّسم الرجل إذا جعل لنفسه علامة يُعرف بها . وتوسّم الرجل طلب كلأ الوَسْمِىّ . وأنشد :

وأصبحن كالدَّوْم النواعِم غُدْوةً * على وِجْهةٍ من ظاعنٍ متوسِّم

وقال ثعلب : الواسم الناظر إليك من فَرْقك إلى قدمك . وأصل التوسّم التثبت والتفكر؛ مأخوذ من الوَسْم وهو التأثير بحديدة فى جلد البعير وغيره ، وذلك يكون بجودة القريحة وحدة الخاطر وصفاء الفكر . زاد غيره : وتفريغ القلب من حشو الدنيا ، وتطهيره من أدناس المعاصى وكدورة الأخلاق وفضول الدنيا . روى نَهْشَل عن ابن عباس « للتوسمين » قال : لأهل الصلاح والخير . وزعمت الصوفية أنها كرامة . وقيل : بل هى استدلال بالعلامات ،

---

(١) هو طريف بن تميم العنبرى (عن شواهد سيبويه) .

ومن العلامات ما يبـدو ظاهرا لكل أحد و بأوّل نظرة ، ومنها ما يخفى فلا يبدو لكل أحد ولا يدرك ببادئ النظر . قال الحسن : المتوسمون هم الذين يتوسمون الأمور فيعلمون أن الذى أهلك قوم لوط قادر على أن يهلك الكفار ؛ فهذا من الدلائل الظاهرة . ومثـله قول ابن عباس : ما سألنى أحد عن شيء إلا عرفت أفقيه هو أو غير فقيه . وروى عن الشافعى ومحمد بن الحسن أنهما كانا بفناء الكعبة و رجل على باب المسجد فقال أحدهما : أراه نجارا ، وقال الآخر : بل حدّادا ؛ فتبادر من حضر إلى الرجل فسأله فقال : كنت نجـارا وأنا اليوم حدّاد . وروى عن جُنْدُب بن عبد الله البَجَلِيّ أنه أتى على رجل يقرأ القرآن فوقف فقال : من سَمّع سَمّع الله به ، ومن راءى راءى الله به . فقلنا له : كأنك عرّضت بهذا الرجل ، فقال : إن هذا يقرأ عليك القرآن اليوم ويخرج غدا حَرُورِيًّا ؛ فكان رأس الحَرُورِيّة ، واسمه مرداس . وروى عن الحسن البصرى أنه دخل عليـه عمرو بن عبيد فقال : هذا سيد فتيان البَصرة إن لم يُحدِث ، فكان من أمره من القدر ما كان ، حتى هجره عامة إخوانه . وقال لأيوب : هذا سيد فتيان أهل البصرة ، ولم يستثن . وروى عن الشَّعْبِيّ أنه قال لداود الأَزْدى وهو يُماريه : إنك لا تموت حتى تُكْوَى فى رأسك ، وكان كذلك . وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل عليه قوم من مَذْحِج فيهم الأشتر ، فصعّد فيه النظر وصوّبه وقال : أيّهم هذا ؟ قالوا : مالك بن الحارث . فقال : ما له قاتله الله ! إنى لأرى للسلمين منه يوما عصيبا ؛ فكان منه فى الفتنة ما كان . وروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه : أن أنس بن مالك دخل عليه ، وكان قد مَرّ بالسوق فنظر إلى امرأة ، فلما نظر إليه قال عثمان : يدخل أحدكم علىّ وفى عينيه أثر الزنى ! فقال له أنس : أوَحْيًا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال لا ! ولكن برهان وفراسة وصدق . ومثله كثير عن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين .

الثانيـــة ــ قال أبو بكر بن العربى : «إذا ثبت أن التوسم والتفرّس من مدارك المعانى فإن ذلك لا يترتب عليـه حكم ولا يؤخذ به موسوم ولا متفرّس . وقـد كان قاضى القضـاة الشامى المـالكى ببغداد أيام كونى بالشام يحكم بالفراسة فى الأحكام ، جَرْيًا على طريق إياس

ابن معاوية أيام كان قاضيا، وكان شيخنا فخر الإسلام أبو بكر الشاشي صنف جزءا في الرد عليه، كتبه لي بخطه وأعطانيه، وذلك صحيح؛ فإن مدارك الأحكام معلومة شرعا مدركة قطعا وليست الفراسة منها .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا ﴾ يعني قرى قوم لوط . ﴿ لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ أي على طريق قومك يا محمد إلى الشام . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي لعبرة للمصدقين . ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴾ يريد قوم شعيب، كانوا أصحاب غياض ورياض وشجر مثمر . والأيكة : الغيضة، وهي جماعة الشجر، والجمع الأيك . ويروى أن شجرهم كان دوما وهو المقل . قال النابغة :

تجلو بقادمتي حمامة أيكة * بردا أسف لثاته بالإثمد

وقيل : الأيكة اسم القرية . وقيل اسم البلدة . وقال أبو عبيدة : الأيكة وليكة مدينتهم، بمنزلة بكة من مكة . وتقدم خبر شعيب وقومه . ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أي بطريق واضح في نفسه، يعني مدينة قوم لوط وبقعة أصحاب الأيكة يعتبر بهما من يمر عليهما .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

الحجر ينطلق على معان : منها حجر الكعبة . ومنها الحرام؛ قال الله تعالى : « وحجرا محجورا »(1) أي حراما محرما . والحجر العقل؛ قال الله تعالى : « لذي حجر »(2) والحجر حجر القميص؛ والفتح أفصح . والحجر الفرس الأنثى . والحجر ديار ثمود، وهو المراد هنا، أي المدينة؛

(1) آية ٥٣ سورة الفرقان . (2) آية ٥ سورة الفجر .

قاله الأزهرى . قتادة : وهى ما بين مكة وتبوك، وهو الوادى الذى فيه ثمود . الطبرى : هى أرض بين الحجاز والشام ، وهم قوم صالح . وقال : ﴿ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وهو صالح وحده ، ولكن من كذب نبياً فقد كذّب الأنبياء كلهم ؛ لأنهم على دين واحد فى الأصول فلا يجوز التفريق بينهم . وقيل : كذبوا صالحا ومَن تبعه ومن تقدّمه من النبيّين أيضا . والله أعلم . روى البخارىّ عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل الحجر فى غزوة تَبُوك أمرهم ألا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها . فقالوا : قد عجَنّا وآستقينا . فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُهَرِيقوا الماء وأن يطرحوا ذلك العجين . وفى الصحيح عن آبن عمر أن الناس نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر أرض ثمود ، فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُهَرِيقوا ما استقوا ويعلفوا الإبل العجين ، وأمرهم أن يستقوا من البئر التى تَرِدها الناقة . وروى أيضا عن ابن عمر قال : مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حَذَراً أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم" ثم زجر(1) فأسرع .

قلت : ففى هذه الآية التى بين الشارع حكمها وأوضح أمرها ثمان مسائل، استنبطها العلماء واختلف فى بعضها الفقهاء ، فأولها ــ كراهة دخول تلك المواضع ، وعليها حمل بعض العلماء دخول مقابر الكفار ؛ فإن دخل الإنسان شيئا من تلك المواضع والمقابر فعلى الصفة التى أرشد إليها النبىّ صلى الله عليه وسلم من الاعتبار والخوف والإسراع . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تدخلوا أرض بابلَ فإنها ملعونة" .

مسألة : أمر النبىّ صلى الله عليه وسلم بهرق ما استقوا من بئر ثمود وإلقاء ما عجن وخبز به لأجل أنه ماء سخط، فلم يجز الانتفاع به فرارا من سخط الله . وقال "اعلفوه الإبل" .

---

(1) أى زجر صلى الله عليه وسلم ناقته .

قلت : وهكذا حكم الماء النجس ولما يعجن به .. وثانيها — قال مالك : إن ما لا يجوز استعماله من الطعام والشراب يجوز أن تعلفه الإبل والبهائم ؛ إذ لا تكليف عليها ؛ وكذلك قال في العسل النجس : إنه يعلفه النحل . وثالثها — أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلف ما عجن بهذا الماء الإبل، ولم يأمر بطرحه كما أمر في لحوم الحُمُر الإنسية يوم خيبَر؛ فدلّ على أن لحم الحُمُر أشد في التحريم وأغلظ في التنجيس . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بكسب الحجام أن يُعلف الناضح[1] والرقيق ، ولم يكن ذلك لتحريم ولا تنجيس . قال الشافعيّ : ولو كان حراما لم يأمره أن يُطعِمَه رقيقَه ؛ لأنه متعبّد فيه كما تعبّد في نفسه . ورابعها — في أمره صلى الله عليه وسلم بعلف الإبل العجين دليل على جواز حمل الرجل النجاسة إلى كلابه ليأكلوها ؛ خلافا لمن منع ذلك من أصحابنا وقال : تطلق الكلاب عليها ولا يحملها إليهم . وخامسها — أمره صلى الله عليه وسلم أن يستقوا من بئر الناقة دليل على التبرك بآثار الأنبياء والصالحين ، وإن تقادمت أعصارهم وخفيت آثارهم؛ كما أن في الأول دليلا على بغض أهل الفساد وذم ديارهم وآثارهم . هذا، وإن كان التحقيق أن الجمادات غير مؤاخذات، لكن المقرون بالمحبوب محبوب، والمقرون بالمكروه المبغوض مبغوض ؛ كما قال كُثَيِّر :

أحب لحبها السودان حتى * أحبّ لحبها سود الكلاب

وكما قال آخر :

أمرّ على الدّيار ديارِ ليلَى * أقبّل ذا الجدارَ وذا الجدارا
وما تلك الديارُ[2] شغفن قلبي * ولكن حب من سكن الديارا

وسادسها — منع بعض العلماء الصلاة بهذا الموضع وقال : لا تجوز الصلاة فيها لأنها دار سخط وبقعة غضب . قال ابن العربيّ : فصارت هذه البقعة مستثناة من قوله صلى الله عليه وسلم : "جعلت لى الأرض مسجدا وطَهورا" فلا يجوز التيمم بترابها ولا الوضوء من مائها ولا الصلاة

---

(١) الناضح : البعير يستقى عليه . (٢) الرواية المشهورة : «وما حب الديار» . والبيتان لمجنون ليلى . (راجع خزانة الأدب في الشاهد التسعين بعد المائتين) .

فيها . وقد روى الترمذى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يصلّى فى سبع مواطن : فى المَزْبلة والمجزرة والمقبرة وقارعة الطريق، وفى الحمام وفى معاطن الإبل وفوق بيت الله . وفى الباب عن أبى مَرْثد وجابر وأنس : حديثُ ابن عمر إسناده ليس بذاك القوىّ ، وقد تُكُلِّمَ فى زيد بن جَبيرة من قِبَل حفظه . وقد زاد علماؤنا : الدار المغصوبة والكنيسة والبِيعة والبيت الذى فيه تماثيل ، والأرض المغصوبة أو موضعا تستقبل فيه نائما أو وجه رجل أو جدارا عليه نجاسة . قال ابن العربىّ : ومن هذه المواضع ما مُنع لحق الغير، ومنه ما مُنع لحق الله تعالى، ومنه ما منع لأجل النجاسة المحققة أو لغلبتها، فما منع لأجل النجاسة إن فرش فيه ثوب طاهر كالحمام والمقبرة فيها أو إليها فإن ذلك جائز فى المدونة . وذكر أبو مصعب عنه الكراهة . وفرق علماؤنا بين المقبرة القديمة والجديدة لأجل النجاسة ، وبين مقبرة المسلمين والمشركين ، لأنها دار عذاب وبقعة سخط كالحِجر . وقال مالك فى المجموعة : لا يُصلَّى فى أعطان الإبل وإن فرش ثوبا ؛ كأنه رأى لها علتين : الاستتار بها[1] ونفارها فتفسد على المصلى صلاتَه ، فإن كانت واحدة[2] فلا بأس ؛ كما كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يفعل ؛ فى الحديث الصحيح . وقال مالك : لا يصلّى على بساط فيه تماثيل إلا من ضرورة . وكره ابن القاسم الصلاة إلى القبلة فيها تماثيل ، وفى الدار المغصوبة ، فإن فعل أجزأه . وذكر بعضهم عن مالك أن الصلاة فى الدار المغصوبة لا تجزى . قال ابن العربىّ : وذلك عندى بخلاف الأرض فإن الدار لا تُدخل إلا بإذن ، والأرض وإن كانت ملكا فإن المسجدية فيها قائمة لا يبطلها الملك .

قلت : الصحيح ــ إن شاء الله ــ الذى يدل عليه النظر والخبر أن الصلاة بكل موضع طاهر جائزة صحيحة . وما روى من قوله صلى الله عليه وسلم : " إن هذا واد به شيطان " وقد رواه معمر عن الزهرىّ فقال : واخرجوا عن الموضع الذى أصابتكم فيه الغفلة . وقول علىّ : نهانى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أصلى بأرض بابل فإنها ملعونة . وقوله عليه

---

(١) فى الموطأ : « لأنها يستتر بها للبول والغائط ؛ فلا تكاد تسلم مباركها من النجاسة » .

(٢) أى ناقة واحدة .

السلام حين مرّ بالحِجر من ثمود : " لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين " ونهيه عن الصلاة فى معاطن الإبل إلى غير ذلك مما فى هذا الباب ، فإنه مردود إلى الأصول المجتمع عليها والدلائل الصحيح مجيئها . قال الإمام الحافظ أبو عمر : المختار عندنا فى هذا الباب أن ذلك الوادى وغيره من بقاع الأرض جائز أن يصلى فيها كلّها ما لم تكن فيها نجاسة متيقّنة تمنع من ذلك ، ولا معنى لاعتلال من آعتل بأن موضع النوم عن الصلاة موضع شيطان ، وموضع ملعون لا يجب أن تقام فيه الصلاة ، وكل ماروى فى هذا الباب من النهى عن الصلاة فى المقبرة و بأرض بابل وأعطان الإبل وغير ذلك مما فى هذا المعنى ، كل ذلك عندنا منسوخ ومدفوع لعموم قوله صلى الله عليه وسلم : " جُعلت لى الأرض كلها مسجدا وطهورا " ، وقوله صلى الله عليه وسلم مخبرا : إن ذلك من فضائله ومما خُصّ به ، وفضائلهُ عند أهل العلم لا يجوز عليها النسخ ولا التبديل ولا النقص . قال صلى الله عليه وسلم : " أوتيت خمسا — وقد روى ستا ، وقد روى ثلاثا وأربعا ، وهى تنتهى إلى أزيد من تسع ، قال فيهن — " لم يؤتهن أحد قبلى بُعثت إلى الأحمر والأسود ونُصرت بالرُّعْب وجُعلت أمتى خير الأمم وأحلّت لى الغنائم وجُعلت لِىَ الأرض مسجدا وطهورا وأوتيت الشفاعة و بعثت بجوامع الكلِم و بينا أنا نائم أتيت بمفاتيح الأرض فوضعت فى يدى وأعطيت الكوثر وختِم بى النبيون " رواها جماعة من الصحابة . و بعضهم يذكر بعضها ، و يذكر بعضهم ما لم يذكر غيره ، وهى صحاح كلها . وجائز على فضائله الزيادة وغير جائز فيها النقصان ؛ ألا ترى أنه كان عبدا قبل أن يكون نبيًّا ثم كان نبيًّا قبل أن يكون رسولا ؛ وكذلك روى عنه . وقال : " ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم " ثم نزلت « لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ »[1] . وسمع رجلا يقوله : يا خير البرية ؛ فقال : " ذاك إبراهيم " وقال : " لا يقولن أحدكم أنا خير من يونس بن متّى " وقال : " السيد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام " ثم قال بعد ذلك كله : " أنا سيد ولد آدم ولا فخر " . ففضائله صلى الله عليه وسلم لم تزل

(١) آية ٢ سورة الفتح .

تزداد إلى أن قبضه الله ؛ فمن هاهنا قلنا : إنه لا يجوز عليها النسخ والاستثناء ولا النقصان ، وجائز فيها الزيادة . وبقوله صلى الله عليه وسلم : " جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا " أجزنا الصلاة في المقبرة والحمام وفي كل موضع من الأرض إذا كان طاهرا من الأنجاس . وقال صلى الله عليه وسلم لأبي ذر : " حيثما أدركتك الصلاةُ فصلِّ فإن الأرض كلها مسجد " ذكره البخاري ولم يخص موضعا من موضع . وأما من احتج بحديث ابن وهب قال : أخبرني يحيى بن أيوب عن زيد بن جَبيرة عن داود بن حصين عن نافع عن ابن عمر حديث الترمذي الذي ذكرناه فهو حديث انفرد به زيد بن جَبيرة وأنكروه عليه ، ولا يعرف هذا الحديث مسندا إلا برواية يحيى بن أيوب عن زيد بن جَبيرة . وقد كتب الليث بن سعد إلى عبد الله بن نافع مولى ابن عمر يسأله عن هذا الحديث ، وكتب إليه عبد الله بن نافع لا أعلم من حدث بهذا عن نافع إلا قد قال عليه الباطل . ذكره الحُلْواني عن سعيد بن أبي مريم عن الليث ، وليس فيه تخصيص مقبرة المشركين من غيرها . وقد رُوي عن علي بن أبي طالب قال : نهاني حبيبي صلى الله عليه وسلم أن أصلي في المقبرة ، ونهاني أن أصلي في أرض بابل فإنها ملعونة . وإسناده ضعيف مجتمع على ضعفه ، وأبو صالح الذي رواه عن علي هو سعيد ابن عبد الرحمن الغفاري ، بصري ليس بمشهور ولا يصح له سماع عن علي ، ومَن دونه مجهولون لا يُعرفون . قال أبو عمر : وفي الباب عن علي من قوله غيرَ مرفوعٍ حديثٌ حسن الإسناد ، رواه الفضل بن دُكين قال : حدثنا المغيرة بن أبي الحُر الكِنْدي قال حدثني أبو العَنْبس حُجر بن عنبس قال : خرجنا مع علي إلى الحرورية ، فلما جاوزنا سوريا وقع بأرض بابل ، قلنا : يا أمير المؤمنين أمسيتَ ، الصلاةَ الصلاةَ ؛ فأبى أن يكلم أحدا . قالوا : يا أمير المؤمنين ، قد أمسيت . قال بلى ، ولكن لا أصلي في أرض خسف الله بها . والمغيرة بن أبي الحُر كوفي ثقة ؛ قاله يحيى بن مَعين وغيره . وحُجر بن عنبس من كبار أصحاب علي . وروى الترمذي عن أبي سعيد الخُدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الأرض كلّها مسجد إلا المقبرةَ والحمام " . قال الترمذي : رواه سفيان الثوري عن عمرو بن

يحيى عن أبيه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم مُرْسَلا، وكأنه أثبت وأصح . قال أبو عمر : فسقط الاحتجاج به عند من لا يرى المرسل حجة، ولو ثبت كان الوجه ما ذكرنا . ولسنا نقول كما قال بعض المنتحلين لمذهب المدنيين : إن المقبرة فى هذا الحديث وغيره أريد بها مقبرة المشركين خاصة؛ فإنه قال : المقبرة والحمام بالألف واللام؛ فغير جائز أن يُرَد ذلك إلى مقبرة دون مقبرة أو حمام دون حمام بغير توقيف عليه ، فهو قول لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ولا خبر صحيح، ولا مدخل له فى القياس ولا فى المعقول، ولا دلّ عليه فحوى الخطاب ولا خرج عليه الخبر . ولا يخلو تخصيص من خص مقبرة المشركين من أحد وجهين : إما أن يكون من أجل اختلاف الكفار إليها بأقدامهم فلا معنى لخصوص المقبرة بالذكر ؛ لأن كل موضع هم فيه بأجسامهم وأقدامهم فهو كذلك ، وقد جلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم بما لا معنى له . أو يكون من أجل أنها بقعة سخط ، فلو كان كذلك ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبنى مسجده فى مقبرة المشركين وينبشها ويسوّيها ويبنى عليها ، ولو جاز لقائل أن يخص من المقابر مقبرة للصلاة فيها لكانت مقبرة المشركين أولى بالخصوص والاستثناء من أجل هذا الحديث . وكل من كره الصلاة فى المقبرة لم يخص مقبرة من مقبرة ؛ لأن الألف واللام إشارة إلى الجنس لا إلى معهود ، ولو كان بين مقبرة المسلمين والمشركين فرق لبيّنه صلى الله عليه وسلم ولم يهمله ؛ لأنه بعث مبيِّنا . ولو ساغ لجاهل أن يقول : مقبرة كذا لجاز لآخر أن يقول : حمام كذا ؛ لأن فى الحديث المقبرة والحمام . وكذلك قوله : المزبلة والمجزرة؛ غيرُ جائز أن يقال : مزبلة كذا ولا مجزرة كذا ولا طريق كذا؛ لأن التحكم فى دين الله غير جائز .

وأجمع العلماء على أن التيمم على مقبرة المشركين إذا كان الموضع طيبا طاهرا نظيفا جائز . وكذلك أجمعوا على أن من صلى فى كنيسة أو بيعة على موضع طاهر، أن صلاته ماضية جائزة . وقد تقدّم هذا فى سورة « براءة »[1] . ومعلوم أن الكنيسة أقرب إلى أن تكون بقعة سخط من المقبرة؛

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٥٥ طبعة أولى أو ثانية .

لأنها بقعة يعصى الله ويكفر به فيها، وليس كذلك المقبرة . وقد وردت السنة باتخاذ البيع والكنائس مساجد . روى النسائي عن طَلْق بن عليّ قال : خرجنا وَفْدًا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فبايعناه وصلينا معه، وأخبرناه أن بأرضنا بِيعة لنا ، وذكر الحديث . وفيه : "فإذا أتيتم أرضكم فاكسروا بِيعتكم واتخذوها مسجدا" . وذكر أبو داود عن عثمان بن أبي العاص أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كانت طواغيتهم . وقد تقدم في « براءة » . وحسبك بمسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم الذي أُسِّس على التقوى مبنيا في مقبرة المشركين ؛ وهو حجة على كل من كره الصلاة فيها . وممن كره الصلاة في المقبرة سواء كانت لمسلمين أو مشركين الثوريُّ وأبو حنيفة والأوزاعيّ والشافعيّ وأصحابهم . وعند الثوريّ لا يعيد . وعند الشافعيّ أجزأه إذا صلى في المقبرة في موضع ليس فيه نجاسة؛ للأحاديث المعلومة في ذلك، ولحديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "صلوا في بيوتكم ولا تتخذوها قبورا" ، ولحديث أبي مَرْثَد الغَنَوِيّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها" . وهذان حديثان ثابتان من جهة الإسناد ، ولا حجة فيهما ؛ لأنهما محتملان للتأويل، ولا يجب أن يمتنع من الصلاة في كل موضع طاهر إلا بدليل لا يحتمل تأويلا . ولم يفرق أحد من فقهاء المسلمين بين مقبرة المسلمين والمشركين إلا ما حكيناه من خَطَل القول الذي لا يشتغل بمثله ، ولا وجه له في نظر ولا في صحيح أثر .

وثامنها[1] — الحائط يلقى فيه النَّتْن والعَذِرة ليكرم فلا يصلّى فيه حتى يُسقى ثلاث مرات، لما رواه الدارقطني عن مجاهد عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في الحائط يُلقى فيه العَذِرة والنَّتْن قال : "إذا سُقِيَ ثلاث مرات فصلّ فيه" . وخرجه أيضا من حديث نافع عن ابن عمر أنه سئل عن هذه الحيطان التي تلقى فيها العَذِرات وهذا الزبل، أيصلّى فيها؟ فقال : إذا سقيت ثلاث مرات فصلّ فيها . رُفع ذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم . اختلفا في الإسناد، والله أعلم .

---

(١) كذا في الأصول . ويلاحظ أنه لم يتقدم للسابعة ذكر .

قوله تعالى : وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا ﴾ أى بآياتنا . كقوله : « آتِنَا غَدَاءَنَا »[1] أى بغدائنا . والمراد الناقة ، وكان فيها آيات جمة : خروجها من الصخرة ، ودنو نتاجها عند خروجها ، وعظمها حتى لم تشبهها ناقة ، وكثرة لبنها حتى تكفيهم جميعا . ويحتمل أنه كان لصالح آيات أخر سوى الناقة ، كالبئر وغيره . ﴿ فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ أى لم يعتبروا .

قوله تعالى : وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

النحت فى كلام العرب : البَرْىُ والنَّجر . نحته ينحته (بالكسر) نحتا أى براه . والنُّحاتة البُراية . والمنحت ما يُنحت به . وفى التنزيل « أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ »[2] أى تنجرون وتصنعون . فكانوا يتخذون من الجبال بيوتا لأنفسهم بشدة قوتهم . ﴿ آمِنِينَ ﴾ أى من أن تسقط عليهم أو تخرب . وقيل : آمنين من الموت . وقيل : من العذاب . ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾ أى فى وقت الصبح ، وهو نصب على الحال . وقد تقدم ذكر الصيحة فى هود والأعراف[3] . ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من الأموال والحصون فى الجبال ، ولا ما أعطوه من القوة .

قوله تعالى : وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾

---

(١) آية ٦٢ سورة الكهف . (٢) آية ٩٥ سورة الصافات .

(٣) راجع ج ٩ ص ٦١ و ج ٧ ص ٢٤٢ طبعة أولى وثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أى للزوال والفناء . وقيل : أى لأجازى المحسن والمسيء ، كما قال : « وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى »(١) . ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴾ أى لكائنة فيجزى كل بعمله . ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ مثل « وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا »(٢) أى تجاوز عنهم يا محمد ، واعف عفوا حسنا ؛ ثم نسخ بالسيف . قال قتادة : نسخه قوله : « فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ »(٣) . وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لهم : "لقد جئتكم بالذبح وبعثت بالحصاد ولم أبعث بالزراعة"(٤) ؛ قاله عكرمة ومجاهد . وقيل : ليس بمنسوخ ، وأنه أمر بالصفح فى حق نفسه فيما بينه وبينهم . والصفح : الإعراض ؛ عن الحسن وغيره . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ ﴾ أى المقدّر للخلق والاخلاق(٥) . ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأهل الوفاق والنفاق . .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾

١

اختلف العلماء فى السبع المثانى ؛ فقيل : الفاتحة ؛ قاله علىّ بن أبى طالب وأبو هريرة والربيع بن أنس وأبو العالية والحسن وغيرهم ، وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من وجوه ثابتة ، من حديث أبىّ بن كعب وأبى سعيد بن المعلّى . وقد تقدّم فى تفسير الفاتحة(٦) . وخرّج الترمذى من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى" . قال : هذا حديث حسن صحيح . وهذا نص ، وقد تقدّم فى الفاتحة . وقال الشاعر :

نشدتكم بمنزل القرآن * أمّ الكتاب السبع من مثانى

وقال ابن عباس : هى السبع الطّوَل : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال والتوبة معا ؛ إذ ليس بينهما التسمية . روى النّسائىّ

---

(١) آية ٣١ سورة النجم . (٢) آية ١٠ سورة المزمل . (٣) آية ٩١ سورة النساء .
(٤) كذا فى الأصول وتفسير الطبرى . وفى كتاب الجامع الصغير : « بالجهاد » . (٥) كذا فى الأصول
(٦) راجع جـ ١ ص ١٠٨ طبعة ثانية أو ثالثة

حدثنا على بن حُجْر أخبرنا شريك عن أبى إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله عز وجل : ﴿ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي ﴾ قال : السبع الطُّوَل ، وسميت مثانى لأن العبر والأحكام والحدود ثُنِّيت فيها . وأنكر قوم هذا وقالوا : أنزلت هذه الآية بمكة ، ولم ينزل من الطُّوَل شئ إذ ذاك . وأجيب بأن الله تعالى أنزل القرآن إلى السماء الدنيا ثم أنزله منها نجوما ، فما أنزله إلى السماء الدنيا فكأنما آتاه محمدا صلى الله عليه وسلم و إن لم ينزل عليه بعد . وممن قال إنها السبع الطول : عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وسعيد بن جبير ومجاهد . وقال جرير :

جزى الله الفرزدق حين يُمْسِى * مُضيعا للفصّل والمثانى

وقيل : المثانى القرآن كله ؛ قال الله تعالى : « كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ »[1] . هذا قول الضحاك وطاوس وأبو مالك ، وقاله ابن عباس . وقيل له مثانى لأن الأنباء والقصص ثُنِّيت فيه . وقالت صفية بنت عبد المطلب ترثى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

فقد كان نورا ساطعا يهتدى به * يُخَصّ بتنزيل القُرَان المعظم

أى القرآن . وقيل : المراد بالسبع المثانى أقسام القرآن من الأمر والنهى والتبشير والإنذار وضرب الأمثال وتعديد نِعَم وأنباء قرون ؛ قاله زياد بن أبى مريم . والصحيح الأوّل لأنه نص . وقد قدمنا فى الفاتحة أنه ليس فى تسميتها بالمثانى ما يمنع من تسمية غيرها بذلك ؛ إلا أنه إذا ورد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وثبت عنه نص فى شئ لا يحتمل التأويل كان الوقوف عنده .

قوله تعالى : ﴿ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ فيه إضمار تقديره : وهو أن الفاتحة القرآن العظيم لاشتمالها على ما يتعلق بأصول الإسلام . وقد تقدم فى الفاتحة . وقيل : الواو مقحمة ، التقدير : ولقد آتيناك سبعا من المثانى القرآن العظيم . ومنه قول الشاعر :

إلى المَلِك القَرْم وابن الهمام * وليثِ الكتيبةِ فى المُزْدَحم

وقد تقدم عند قوله : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى »[2] .

---

(١) آية ٢٣ سورة الزمر . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢١٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

فيــه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ المعنى : قد أغنيتك بالقرآن عما فى أيدى الناس ؛ فإنه ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن ؛ أى ليس منا من رأى أنه ليس يَغْنَى بما عنده من القرآن حتى يطمح بصره إلى زخارف الدنيا وعنده معارف المولى . يقال : إنه وافى سبع قوافل من البُصْرَى وأَذْرِعات ليهود قُرَيظة والنَّضير فى يوم واحد ، فيها البُرّ والطيب والجوهر وأمتعة البحر ، فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها فى سبيل الله ، فأنزل الله تعالى « ولقد آتيناك سبعا من المثانى » أى فهى خير لكم من القوافل السبع ، فلا تمدن أعينكم إليها . وإلى هذا صار ابن عُيينة ، وأورد قوله عليه السلام : "ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن" أى من لم يستغن به . وقد تقدم هــذا المعنى فى أول الكتاب[1] . ومعنى ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أى أمثالا فى النعم ، أى الأغنياء بعضهم أمثال بعض فى الغنى ، فهم أزواج .

الثانيــة ــ هــذه الآية تقتضى الزجر عن التشوّف إلى متاع الدنيا على الدوام ، وإقبال العبــد على عبادة مولاه . ومثله « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ » الآية[2] . وليس كذلك ؛ فإنه روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "حُبِّب إلىّ من دنياكم[3] النساء والطيب وجُعلت قُرّة عينى فى الصلاة" . وكان عليــه الصلاة والســلام يتشاغل بالنساء ، جِبِلّة الآدمية وتشوّف الخلقة الإنسانية ، ويحافظ على الطيب ، ولا تقرّ له عين إلا فى الصلاة لدى مناجاة المولى . ويرى أن مناجاته أحرى من ذلك وأولى . ولم يكن فى دين محمد الرهبانية والإقبال على الأعمال الصالحة بالكلية كما كان فى دين عيسى ،

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٢ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ١٣١ سورة طه . (٣) كذا فى سنن النسائى ومسند الإمام أحمد . والذى فى الأصول : « حبب إلى من دنياكم ثلاث ... إلخ » وكلمة « ثلاث » لا يستقيم الكلام .

وإنما شرع الله سبحانه حنيفية سمحة خالصة عن الحرج خفيفة على الآدمي ، يأخذ من الآدمية بشهواتها ويرجع إلى الله بقلب سليم . ورأى القراء والمخلصون من الفضلاء الانكفاف عن اللذات والخلوص لرب الأرض والسموات اليوم أولى؛ لما غلب على الدنيا من الحرام ، واضطر العبد فى المعاش إلى مخالطة من لا تجوز مخالطته ومصانعة من تحرم مصانعته ، فكانت القراءة أفضل ، والفرار عن الدنيا أصوب للعبد وأعدل؛ قال صلى الله عليه وسلم : " يأتى على الناس زمان يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعف[1] الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن " .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى ولا تحزن على المشركين إن لم يؤمنوا . وقيل : المعنى لا تحزن على ما مُتِّعوا به فى الدنيا فلك فى الآخرة أفضلُ منه . وقيل : لا تحزن عليهم إن صاروا إلى العذاب فهم أهل العذاب . ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى ألِنْ جانبك لمن آمن بك وتواضعْ لهم . وأصله أن الطائر إذا ضمّ فرخه إلى نفسه بسط جناحه ثم قبضه على الفرخ ، فجعل ذلك وصفا لتقريب الإنسان أتباعه . ويقال : فلان خافض الجناح ، أى وقور ساكن . والجناحان من ابن آدم جانباه ؛ ومنه « وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ »[2] وجناح الطائر يده . وقال الشاعر :

وحسبك فتية لزعيم قوم * يمدّ على أخى سقم جناحا

أى تواضعا ولينا .

قوله تعالى : وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾

فى الكلام حذف؛ أى إنى أنا النذير المبين عذابا ، فحذف المفعول ، إذ كان الإنذار يدل عليه ، كما قال فى موضع آخر : « أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ »[3] . وقيل : الكاف زائدة ، أى أنذرتكم ما أنزلنا على المقتسمين؛ كقوله : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ » . وقيل : أنذرتكم

---

(١) أى رءوسها . (٢) آية ٢٢ سورة طه . (٣) آية ١٣ سورة فصلت .

مثل ما أنزلنا بالمقتسمين . وقيل : المعنى كما أنزلنا على المقتسمين ؛ أى من العذاب وكفيناك المستهزئين ، فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين الذين بغوا ، فإنا كفيناك أولئك الرؤساء الذين كنت تلقى منهم ما تلقى .

واختلف فى « ٱلْمُقْتَسِمِينَ » على أقوال سبعة : الأوّل ـــ قال مقاتل والفراء : هم ستة عشر رجلا بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم فاقتسموا أعقاب مكة وأنقابها وفجاجها يقولون لمن سلكها : لا تغترّوا بهذا الخارج فينا يدّعى النبوة؛ فإنه مجنون ، وربما قالوا ساحر، وربما قالوا شاعر، وربما قالوا كاهن . وسُمُّوا المقتسمين لأنهم اقتسموا هذه الطرق ، فأماتهم الله شرّ ميتة ، وكانوا نصبوا الوليد بن المغيرة حَكَمًا على باب المسجد، فإذا سألوه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : صدق أولئك . الثانى ـــ قال قتادة : هم قوم من كفار قريش اقتسموا كتاب الله فجعلوا بعضه شعرا ، وبعضه سحرا، وبعضه كهانة ، وبعضه أساطير الأوّلين . الثالث ـــ قال ابن عباس : هم أهل الكتاب آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه . وكذلك قال عكرمة : هم أهل الكتاب ، وسُمُّوا مقتسمين لأنهم كانوا مستهزئين، فيقول بعضهم : هذه السورة لى وهذه السورة لك . وهو القول الرابع . الخامس ـــ قال قتادة : قسموا كتابهم ففرقوه وبددوه وحرّفوه . السادس ـــ قال زيد بن أسلم : المراد قوم صالح ، تقاسموا على قتله فسُمُّوا مقتسمين؛ كما قال تعالى : « تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ »(1) . السابع ـــ قال الأخفش : هم قوم اقتسموا أيمانا تحالفوا عليها . وقيل : إنهم العاص بن وائل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام وأبو البَخْتَرِيّ بن هشام والنضر بن الحارث وأمية بن خلف ومنبّه ابن الحجاج؛ ذكره الماوردىّ .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ جَعَلُوا ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾

هذه صفة المقتسمين . وقيل : هو مبتدأ وخبره « لنسألنهم » . وواحد العِضين عِضَة ، من عضّيت الشىء تعضية أى فرقته؛ وكل فرقة عِضَة . وقال بعضهم : كانت فى الأصل

(1) آية ٤٩ سورة النمل .

عِضْوَة فنقصت الواو ، ولذلك جمعت عضين؛ كما قالوا : عِزِين فى جمع عِزة، والأصل عِزْوة . وكذلك ثُبة وثبين . ويرجع المعنى إلى ما ذكرناه فى المقتسمين . قال ابن عباس : آمنوا ببعض وكفروا ببعض . وقيل : فرّقوا أقاويلهم فيه فجعلوه كذبا وسحرا وكهانة وشعرا . عضوته أى فرقته . قال الشاعر — هو رؤبة — :

* وليس دين الله بالمُعَضَّى *

أى بالمفرّق . ويقال : نقصانه الهاء وأصله عضْهة؛ لأن العِضَه والعِضين فى لغة قريش السحر . وهم يقولون للساحر : عاضه وللساحرة عاضِهة . قال الشاعر :

أعوذ بربى من النافثا ... ت فى عُقَد العاضِه المُعْضِه

وفى الحديث : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم العاضِهة والمُستَعضِهة، وفُسّر : الساحرة والمستسحرة . والمعنى : أكثروا البُهْت على القرآن ونوّعوا الكذب فيه، فقالوا : سحر وأساطير الأولين، وأنه مفترًى، إلى غير ذلك . ونظير عِضة فى النقصان شَفه، والأصل شَفَهة . كما قالوا : سنة، والأصل سنَهة ، فنقصوا الهاء الأصلية وأثبتت هاء العلامة وهى للتأنيث . وقيل : هو من العَضْه وهى النميمة . والعَضِيهة البهتان ، وهو أن يعضَه الإنسان ويقول فيه ما ليس فيه . يقال عَضَهه عَضْهًا رماه بالبهتان . وقد أعضَهْت أى جئت بالبهتان . قال الكسائىّ : العِضَة الكذب والبهتان ، وجمعها عِضون؛ مثل عِزة وعِزون ؛ قال تعالى : « الذين جعلوا القرآن عِضين » . ويقال : عَضَوه أى آمنوا بما أحبوا منه وكفروا بالباقى، فأحبط كفرهم إيمانهم . وكان الفراء يذهب إلى أنه مأخوذ من العِضاة ، وهى شجر الوادى ويخرج كالشوك .

قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩٣ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى لنسئلن هؤلاء الذين جرى ذكرهم عما عملوا فى الدنيا . وفى البخارىّ : وقال عدة من أهل العلم فى قوله : « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » عن لا إله إلا الله .

قلت : وهذا قد روى مرفوعا ، روى الترمذي الحكيم قال : حدثنا الجارود بن معاذ قال حدثنا الفضل بن موسى عن شريك عن ليث عن بشير بن نَهِيك عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » قال : " عن قول لا إله إلا الله " قال أبو عبد الله : معناه عندنا عن صدق لا إله إلا الله ووفائها ؛ وذلك أن الله تعالى ذكر في تنزيله العمل فقال : « عما كانوا يعملون » ولم يقل عما كانوا يقولون ، وإن كان قد يجوز أن يكون القول أيضا عمل اللسان ، فإنما المعنى به ما يعرفه أهل اللغة أن القول قولٌ والعملَ عملٌ . وإنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " عن لا إله إلا الله " أي عن الوفاء بها والصدق لمقالها ، كما قال الحسن البصري : ليس الإيمان بالتحلي ولا الدين بالتمني ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال . ولهذا ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة " قيل : يارسول الله ، وما إخلاصها ؟ قال : " أن تحجُزه عن محارم الله " . رواه زيد بن أرقم . وعنه أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله عهد إلىّ ألا يأتيني أحد من أمتي بلا إله إلا الله لا يخلط بها شيئا إلا وجبت له الجنة " قالوا : يا رسول الله ، وما الذي يخلط بلا إله إلا الله ؟ قال : " حرصا على الدنيا وجمعا لها ومنعا لها ، يقولون قول الأنبياء ويعملون أعمال الجبابرة " . وروى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا إله إلا الله تمنع العباد من سخط الله مالم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم فإذا آثروا صفقة دنياهم على دينهم ثم قالوا لا إله إلا الله رُدّت عليهم وقال الله كذبتم " . أسانيدها في نوادر الأصول .

قلت : والآية بعمومها تدل على سؤال الجميع ومحاسبتهم كافرهم ومؤمنهم ، إلا من دخل الجنة بغير حساب على ما بيناه في كتاب (التذكرة) . فإن قيل : وهل يسأل الكافر ويحاسب ؟ قلنا : فيه خلاف ، وذكرناه في التذكرة . والذي يظهر سؤاله ، للآية وقوله : « وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ »(1) وقوله : « إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ »(2) . فإن قيل : فقد قال تعالى :

---

(1) آية ٢٤ سورة الصافات . (2) آية ٢٥ سورة الغاشية .

« وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ »(1) وقال : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ »(2) ، وقال : « وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ »(3) ، وقال : « إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ »(4) . قلنا : القيامة مواطن ، فموطن يكون فيه سؤال وكلام ، وموطن لا يكون ذلك فيه . قال عكرمة : القيامة مواطن ، يسأل فى بعضها ولا يسأل فى بعضها . وقال ابن عباس : لا يسألهم سؤال استخبار واستعلام هل عملتم كذا وكذا ؛ لأن الله عالم بكل شىء ، ولكن يسألهم سؤال تقريع وتوبيخ فيقول لهم : لِمَ عصيتم القرآن وما حجتكم فيه ؟ واعتمد قُطْرُب هذا القول . وقيل : « لنسألنهم أجمعين » يعنى المؤمنين المكلفين ؛ بيانُه قولُه تعالى : « ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يومئذ عن النعيم »(5) . والقول بالعموم أولى كما ذكر . والله أعلم .

قوله تعالى : فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ أى بالذى تؤمر به ، أى بلّغ رسالة الله جميع الخلق لتقوم الحجة عليهم ؛ فقد أمرك الله بذلك . والصدع : الشق . وتصدّع القوم أى تفرقوا ؛ ومنه « يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ »(6) أى يتفرقون . وصدعته فانصدع أى انشق . وأصل الصدع الفرق والشق . قال أبو ذُؤَيب يصف الحمار وأُتُنَه :

وكأنهن رِبَابة وكأنه يَسَرٌ * يُفيض على القِداح ويَصْدَع(7)

أى يفرق ويشق . فقوله : « اصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ » قال الفراء : أراد فاصدع بالأمر ، أى أظهر دينك ، فـ « ما » مع الفعل على هذا بمنزلة المصدر . وقال ابن الأعرابى : معنى اصدع بما تؤمر ، أى اقصد . وقيل : « فاصدع بما تؤمر » أى فرّق جمعهم وكلمتهم بأن تدعوهم إلى التوحيد فإنهم يتفرقون بأن يجيب البعض ؛ فيرجع الصدع على هذا إلى صدع جماعة الكفار .

---

(1) آية ٧٨ سورة القصص . (2) آية ٣٩ سورة الرحمن . (3) آية ١٧٤ سورة البقرة .
(4) آية ١٥ سورة المطففين . (5) آخر سورة التكاثر . (6) آية ٤٣ سورة الروم .
(7) الربابة : الجلدة التى تجمع فيها السهام . واليسر : صاحب الميسر الذى يضرب بالقداح .

قوله تعالى : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى عن الاهتمام باستهزائهم وعن المبالاة بقولهم ، فقد برأك الله عما يقولون . وقال ابن عباس : هو منسوخ بقوله « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ »(١) . وقال عبد الله بن عبيد : ما زال النبيّ صلى الله عليه وسلم مستخفياً حتى نزل قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر » فخرج هو وأصحابه . وقال مجاهد : أراد الجهر بالقرآن فى الصلاة . « وأعرض عن المشركين » لا تبال بهم . وقال ابن إسحاق : لما تمادوا فى الشر وأكثروا برسول الله صلى الله عليه وسلم الاستهزاء أنزل الله تعالى « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . إنا كفيناك المستهزئين . الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون » . والمعنى : اصدع بما تؤمر ولا تخف غير الله؛ فإن الله كافيك مَن أذاك كما كفاك المستهزئين ، وكانوا خمسة من رؤساء أهل مكة ، وهم الوليد بن المغيرة وهو رأسهم ، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب بن أسد أبو زمعة . والأسود بن عبد يغوث ، والحارث بن الطُّلاطلة ، أهلكهم الله جميعا ، قيل يوم بدر فى يوم واحد ؛ لاستهزائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم . وسبب هلاكهم فيما ذكر ابن إسحاق : أن جبريل أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يطوفون بالبيت ، فقام وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فمرّ به الأسود ابن المطلب فرمى فى وجهه بورقة خضراء فعَمِيَ ووجعت عينه ، فجعل يضرب برأسه الجدار . ومرّ به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنُه فمات منه حَبَناً . (يقال : حَبِن (بالكسر) حَبَناً وحُبِن للفعول عظم بطنه بالماء الأصفر ، فهو أحبن ، والمرأة حبناء ؛ قاله فى الصحاح) . ومرّ به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله ، وكان أصابه قبل ذلك بسنين ، وهو يجُرّ سَبَلَه(٢) ، وذلك أنه مرّ برجل من خزاعة يَرِيش نَبْلاً له فتعلق سهم من نبله بإزاره فخدش فى رجله ذلك الخدش وليس بشىء ، فانتقض به فقتله . ومرّ به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص رجله ، فخرج على حمار له يريد الطائف ، فربض به على شِبْرِقة(٣) فدخلت فى أخمص رجله شوكةٌ فقتلته . ومرّ به الحارث بن الطُّلاطلة ، فأشار إلى رأسه

(١) آية ٥ سورة التوبة . (٢) السبل (بالتحريك) : الثياب المسبلة ؛ يفعل ذلك كبرا واختيالا .

(٣) الشبرق : نبت حجازى يؤكل ، وله شوك .

فامتخط قيحا فقتله[1] . وقد ذُكر فى سبب موتهم اختلاف قريب من هذا . وقيل : إنهم المراد بقوله تعالى : « فَخَرَّ عليهمُ السَّقْفُ مِن فوقِهِم »[2] . شبّه ما أصابهم فى موتهم بالسقف الواقع عليهم؛ على ما يأتى .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾

هذه صفة المستهزئين . وقيل : هو ابتداء وخبره « فسوف يعلمون » .

قوله تعالى : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ ﴾ أى قلبك ؛ لأن الصدر محل القلب . ﴿ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ أى بما تسمعه من تكذيبك وردّ قولك، وتناله وينالُه أصحابك من أعدائك .

قوله تعالى : فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ ﴾ أى فافزع إلى الصلاة، فهى غاية التسبيح ونهاية التقديس؛ وذلك تفسيرٌ لقوله : ﴿ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ ولا خفاء أن غاية القرب فى الصلاة حال السجود، كما قال عليه السلام : " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأخلصوا الدعاء " . ولذلك خصّ السجود بالذكر .

الثانية — قال ابن العربى : ظن بعض الناس أن المراد بالأمر هنا السجود نفسه، فرأى هذا الموضع محل سجود فى القرآن، وقد شاهدت الإمام بمحراب زكريا من البيت المقدس طهره الله، يسجد فى هذا الموضع وسجدت معه فيها، ولم يره جماهير العلماء .

قلت : قد ذكر أبو بكر النقاش أن ها هنا سجدةً عند أبى حذيفة ويمان بن رئاب، ورأى أنها واجبة

(١) المخط : السيلان والخروج . (٢) آية ٢٦ سورة النحل .

قوله تعالى : وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

فيه مسألة واحدة — وهو أن اليقين الموت . أمره بعبادته إذ قصر عباده فى خدمته ، وأن ذلك يجب عليه . فإن قيل : فما فائدة قوله « حتى يأتيك اليقين » وكان قوله : « واعبد ربك » كافيا فى الأمر بالعبادة . قيل له : الفائدة فى هذا أنه لو قال : « واعبد ربك » مطلقا ثم عبده مرة واحدة كان مطيعا ؛ وإذا قال « حتى يأتيك اليقين » كان معناه لا تفارق هذا حتى تموت . فإن قيل : كيف قال سبحانه « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » ولم يقل أبدا ؛ فالجواب أن اليقين أبلغ من قوله : أبدا ؛ لاحتمال لفظ الأبد للحظة الواحدة ولجميع الأبد . وقد تقدم هذا المعنى[1] . والمراد استمرار العبادة مدة حياته ، كما قال العبد الصالح : وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا . ويتركب على هذا أن الرجل إذا قال لامرأته : أنت طالق أبدا ، وقال : نويت يوما أو شهرا كانت عليه الرجعة . ولو قال : طلقتها حياتها لم يراجعها . والدليل على أن اليقين الموتُ حديثُ أم العلاء الأنصارية ، وكانت من المبايعات ، وفيه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أما عثمان — أعنى عثمان بن مَظْعُون — فقد جاءه اليقين وإنى لأرجو له الخير والله ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل به " وذكر الحديث[2] . انفرد بإخراجه البخارى رحمه الله ! وكان عمر بن عبد العزيز يقول : ما رأيت يقينا أشبه بالشك من يقين الناس بالموت ثم لا يستعدون له ؛ يعنى كأنهم فيه شاكون . وقد قيل : إن اليقين هنا الحق الذى لا ريب فيه من نصرك على أعدائك ؛ قاله ابن شجرة ؛ والأول أصح ، وهو قول مجاهد وقتادة والحسن . والله أعلم . وقد روى جُبير بن نُفَير عن أبى مسلم الخَوْلانِىّ أنه سمعه يقول إن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "ما أوحى إلىّ أن أجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوحى إلىّ أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين " .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٣ طبعة ثانية . (٢) راجع صحيح البخارى جـ ٣ ص ١٥١ طبعة بولاق .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة النحل

وهي مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وتسمى سورة النعم بسبب ما عدّد الله فيها من نعمه على عباده . وقيل : هي مكية غيرَ قوله تعالى : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ[1] » الآية؛ نزلت بالمدينة في شأن التمثيل بحمزة وقتلى أُحُد . وغيرَ قوله تعالى: « وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ[2] ». وغيرَ قوله: « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا[3] » الآية . وأما قوله : « وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا[4] » فمكي، في شأن هجرة الحبشة . وقال ابن عباس : هي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة بعد قتل حمزة، وهي قوله : « وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا — إلى قوله — بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[5] » .

قوله تعالى : أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ قيل : « أَتَى » بمعنى يأتي ؛ فهو كقولك : إن أكرمتني أكرمتك . وقد تقدم أن أخبار الله تعالى في الماضي والمستقبل سواء؛ لأنه آتٍ لا محالة، كقوله : « وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ[6] » . و « أمر الله » عقابه لمن أقام على الشرك وتكذيب رسوله . قال الحسن وابن جُريج والضحاك : إنه ما جاء به القرآن من فرائضه وأحكامه . وفيه بعد؛ لأنه لم يُنقل أن أحدا من الصحابة استعجل فرائض الله من قبل أن تفرض عليهم، وأما مستعجلو العذاب والعقاب فذلك منقول عن كثير من كفار قريش

(١) آية ١٢٦ (٢) آية ١٢٧ (٣) آية ١١٠ (٤) آية ٤١ (٥) آية ٩٥ وما بعدها.
(٦) آية ٤٤ سورة الأعراف .

وغيرهم ، حتى قال النضر بن الحارث : « اللَّهُمَّ إن كان هــذا هو الحقَّ مِن عِندك » الآية ، فاستعجل العذاب .

قلت : قد يستدل الضحاك بقول عمر رضى الله عنه : وافقت ربى فى ثلاث : فى مقام إبراهيم ، وفى الحجاب ، وفى أسارى بدر؛ خرّجه مسلم والبخارى . وقد تقدم فى سورة البقرة (1) . وقال الزجاج : هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم ، وهو كقوله : « حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ» (2) . وقيل : هو يوم القيامة أو ما يدل على قربها من أشراطها . قال ابن عباس : لما نزلت « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ» (3) قال الكفار : إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت ، فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون ، فأمسكوا وانتظروا فلم يروا شيئا ، فقالوا : ما نرى شيئا ! فنزلت « اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ » (4) الآية . فأشفقوا وانتظروا قرب الساعة ، فامتدت الأيام فقالوا : ما نرى شيئا ! فنزلت « أَتَى أَمْرُ اللَّهِ » فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون وخافوا ؛ فنزلت « فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » فاطمأنوا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " بعثت أنا والساعة كهاتين " وأشار بأصبعيه : السبابة والتى تليها . يقول : أن كادت لتسبقنى فسبقتها . وقال ابن عباس : كان بعث النبى صلى الله عليه وسلم من أشراط الساعة ، وأن جبريل لما مرّ بأهل السموات مبعوثا إلى محمد صلى الله عليه وسلم قالوا الله أكبر ، قد قامت الساعة .

قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أى تنزيها له عما يصفونه به من أنه لا يقدر على قيام الساعة ، وذلك أنهم يقولون : لا يقدر أحد على بعث الأموات ، فوصفوه بالعجز الذى لا يوصف به إلا المخلوق ، وذلك شرك . وقيل : « عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى عن إشراكهم . وقيل : « ما » بمعنى الذى ، أى ارتفع عن الذين أشركوا به .

---

(1) راجع جـ ٢ ص ١١٢ طبعة ثانية . (2) آية ٤٠ سورة هود (3) أول سورة القمر .
(4) أول سورة الأنبياء .

قوله تعالى : يُنَزِّلُ الْمَلَٰٓئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾

قرأ المفضل عن عاصم « تَنَزَّلُ الملائكةُ » والأصل تتنزل، فالفعل مسند إلى الملائكة. وقرأ الكسائى عن أبى بكر عن عاصم باختلاف عنه والأعمش « تُنَزَّلُ الملائكةُ » غير مسمى الفاعل . وقرأ الجُعْفِىّ عن أبى بكر عن عاصم « نُنَزِّلُ الملائكةَ » بالنون مسمى الفاعل ؛ الباقون « يُنَزِّلُ » بالياء مسمى الفاعل، والضمير فيه لاسم الله عز وجل . وروى عن قتادة « نُنْزِلُ الملائكةَ » بالنون والتخفيف. وقرأ الأعمش « تَنْزِلُ » بفتح التاء وكسر الزاى، من النزول . « الملائكةُ » رفعاً مثل « تَنَزَّلُ الملائكة »[1]. ﴿ بِالرُّوحِ ﴾ أى بالوحى وهو النبوة ؛ قاله ابن عباس . نظيره « يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ »[2] . الربيع بن أنس : بكلام الله وهو القرآن . وقيل : هو بيان الحق الذى يجب اتباعه . وقيل أرواح الخلق ؛ قاله مجاهد، لا ينزل ملك إلا ومعه روح. وكذا روى عن ابن عباس أن الروح خلق من خلق الله عز وجل كصور ابن آدم، لا ينزل من السماء مَلَك إلا ومعه واحد منهم. وقيل بالرحمة ؛ قاله الحسن وقتادة . وقيل بالهداية؛ لأنها تحيا بها القلوب كما تحيا بالأرواح الأبدان ، وهو معنى قول الزجاج . قال الزجاج : الروح ما كان فيه من أمر الله حياةٌ بالإرشاد إلى أمره . وقال أبو عبيدة : الروح هنا جبريل . والباء فى قوله : « بالروح » بمعنى مع، كقولك : خرج بثيابه ، أى مع ثيابه . ﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ أى بأمره . ﴿ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ ﴾ أى على الذين اختارهم الله للنبوة . وهذا ردّ لقولهم : « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ »[3] . ﴿ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ تحذير من عبادة الأوثان ، ولذلك جاء الإنذار؛ لأن أصله التحذير مما يخاف منه . ودلّ على ذلك قوله : « فاتقون ». و « أنْ » فى موضع نصب بنزع الخافض ، أى بأن أنذروا أهل الكفر بأنه لا إله إلا الله ، فـ « أن » فى محل نصب بسقوط الخافض أو بوقوع الإنذار عليه

(١) آية ٤ سورة القدر . (٢) آية ١٥ سورة غافر . (٣) آية ٣١ سورة الزخرف .

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أى للزوال والفناء . وقيل . « بالحق » أى للدلالة على قدرته ، وأن له أن يتعبد العباد بالطاعة وأن يحيى الخلق بعد الموت . ﴿ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أى من هذه الأصنام التى لا تقدر على خلق شىء .

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ لما ذكر الدليل على توحيده ذكر بعده الإنسان ومناكدته وتعدى طوره . « والإنسان » اسم للجنس . وروى أن المراد به أُبَىّ بن خلف الجمحى ، جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم بعظم رميم فقال : أترى يحيى الله هذا بعد ماقد رَمّ . وفى هذا أيضا نزل « أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ » [(١)] أى خلق الإنسان من ماء يخرج من بين الصلب والترائب ، فنقله أطوارا إلى أن ولد ونشأ بحيث يخاصم فى الأمور . فمعنى الكلام التعجيب من الإنسان « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ » [(٢)] وقوله : ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ ﴾ أى مخاصم ، كالنسيب بمعنى المناسب . أى يخاصم الله عز وجل فى قدرته . و﴿ مُّبِينٌ ﴾ أى ظاهر الخصومة . وقيل : يبين عن نفسه الخصومة بالباطل . والمبين : هو المفصح عما فى ضميره بمنطقه .

قوله تعالى : ﴿ وَالْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ ﴾ لما ذكر الإنسان ذكر ما مَنّ به عليه . والأنعام : الإبل والبقر والغنم . وأكثر ما يقال : نعم وأنعام للإبل ، ويقال للمجموع ولا يقال للغنم مفردة . قال حسان :

(١) آية ٧٧ سورة يس . (٢) آية ٧٨ سورة يس .

عفت ذاتُ الأصابع فالجِوَاءُ * إلى عذراءَ منزِلُها خَلاءُ [1]

دِيارٌ من بَنِي الحَسْحَاس قَفْرٌ * تُعَفِّيها الروامسُ والسماء [2]

وكانت لا يزال بها أنيس * خِلالَ مُرُوجِها نَعَمٌ وشاءُ

فالنَّعَم هنا الإبل خاصّة . وقال الجوهري : والنَّعَم واحد الأنعام وهي المال الراعية ، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل . قال الفَرّاء : هو ذَكَرٌ لا يؤنث ؛ يقولون : هذا نَعَمٌ وارد ، ويجمع على نُعمان مثل حَمَل وحُملان . والأنعام تذكّر وتؤنث ؛ قال الله تعالى : «مِمّا في بُطُونِهِ» [3] . وفي موضع «مِمّا في بُطُونِها» [4] . وانتصب الأنعام عطفا على الإنسان، أو بفعل مقدّر ، وهو أوجه .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ دِفْءٌ ﴾ الدِّفء : السّخانة ، وهو ما استُدْفِئَ به من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، ملابس ولُحُف وقُطُف [5] . وروى عن ابن عباس : دفؤها نسلها ؛ والله أعلم . قال الجوهري في الصحاح : الدفء نِتاج الإبل وألبانها وما ينتفع به منها ؛ قال الله تعالى : « لكم فيها دفء » . وفي الحديث " لنا من دِفْئهم ما سلّموا بالميثاق " . والدفء أيضا : السخونة ، تقول منه : دَفِئَ الرجل دفاءة مثل كَرِه كراهة . وكذلك دَفِئَ دَفًا مثل ظَمِئَ ظمأ . والاسم الدِّفء (بالكسر) وهو الشيء الذي يدفئك ، والجمع الأدفاء . تقول : ما عليه دفء ؛ لأنه اسم . ولا تقول : ما عليك دَفاءة ؛ لأنه مصدر . وتقول : اقعد في دِفء هذا الحائط أي كِنّه . ورجل دفئ على فَعِلٍ إذا لبس ما يدفئه . وكذلك رجل دفآن وامرأة دفأى . وقد أدفأه الثوب وتدفأ هو بالثوب واستدفأ به ، وادّفأ به وهو افتعل ؛ أي لبس ما يدفئه . ودَفُؤت ليلتنا ، ويوم دَفِيء على فعيل وليلة دفيئة ، وكذلك الثوب والبيت . والمُدْفِئة الإبل الكثيرة ؛ لأن بعضها يدفئ بعضا بأنفاسها ، وقد يشدّد . والمُدْفاة الإبل الكثيرة الأوبار والشحوم ؛ عن الأصمعي . وأنشد الشماخ :

وكيف يَضيع صاحبُ مُدْفآتٍ * على أثباجهن من الصَّقيع [6]

---

(١) ذات الأصابع والجواء : موضعان بالشام . وعذراء : قرية بغوطة دمشق . (٢) الحسحاس : اسم رجل . والروامس : الرياح التي تثير التراب وتدفن الآثار .

(٣) آية ٦٦ من هذه السورة .

(٤) آية ٢١ سورة المؤمنون .

(٥) القطف (جمع قطيفة) : كساء له خمل ؛ أي وبر .

(٦) أثباج : جمع ثبج ، وهو وسطها . وقيل ظهرها . وقيل : ما بين كاهلها وظهرها .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنَافِعُ ﴾ قال ابن عباس : المنافع نسل كل دابة . مجاهد : الركوب والحمل والألبان واللحوم والسمن . ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أفرد منفعة الأكل بالذكر لأنها معظم المنافع . وقيل : المعنى ومن لحومها تأكلون عند الذبح .

الثالثة ــ دلت هذه الآية على لباس الصوف ، وقد لبسه رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله كموسى وغيره . وفي حديث المغيرة : فغسل وجهه وعليه جبة من صوف شامية ضيقة الكمين...الحديث ، خرجه مسلم وغيره . قال ابن العربي : وهو شعار المتقين ولباس الصالحين وشارة الصحابة والتابعين ، واختيار الزهاد والعارفين ، وهو يلبس لينًا وخشنا وجيدا ومُقارِبًا[1] ورديئا ، وإليه نسب جماعة من الناس الصوفية ؛ لأنه لباسهم في الغالب ، فالياء للنسب والهاء للتأنيث . وقد أنشدني بعض أشياخهم بالبيت المقدس طهره الله :

تشاجر الناس في الصوفيّ واختلفوا * فيه وظنوه مشتقا من الصوف
ولست أنحل هذا الأسم غير فتى * صافى فصوفى حتى سُمّىَ الصوفى

قوله تعالى : وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾

الجمال ما يتجمّل به ويتزين . والجمال : الحسن . وقد جَمُل الرجل (بالضم) جمالا فهو جميل ، والمرأة جميلة ، وجملاء أيضا ؛ عن الكسائي . وأنشد :

فهى جَمْلاء كبدرٍ طالع * بذّت الخلق جميعا بالجمال

وقول أبي ذؤيب :

جمالَكَ أيها القلبُ القريحُ *[2]

يريد : الزم تجمّلك وحياءك ولا تجزع جزعا قبيحا . قال علماؤنا : فالجمال يكون في الصورة وتركيب الخلقة ، ويكون في الأخلاق الباطنة ، ويكون في الأفعال . فأما جمال الخلقة فهو

---

(١) شيء مقارب (بكسر الراء) : وسط بين الجيد والردىء . (٢) هذا صدر البيت ، وعجزه كما في اللسان :
* ستلقى من تحب فتستريح *

أمر يدركه البصر ويلقيه إلى القلب متلائماً ، فتتعلق به النفس من غير معرفة بوجه ذلك ولا نسبته لأحد من البشر . وأما جمال الأخلاق فكونها على الصفات المحمودة من العلم والحكمة والعدل والعفة ، وكظم الغيظ وإرادة الخير لكل أحد . وأما جمال الأفعال فهو وجودها ملائمة لمصالح الخلق وقاضية لجلب المنافع فيهم وصرف الشر عنهم . وجمال الأنعام والدواب من جمال الخلقة ، وهو مرئيّ بالأبصار موافق للبصائر . ومن جمالها كثرتها وقول الناس إذا رأوها هذه نعم فلان ؛ قاله السدّيّ . ولأنها إذا راحت توفّر حسنها وعظم شأنها وتعلقت القلوب بها ؛ لأنها إذ ذاك أعظم ما تكون أسنمة وضروعا ؛ قاله قتادة . ولهذا المعنى قدّم الرواح على السراح لتكامل دَرّها وسرور النفس بها إذ ذاك . والله أعلم . وروى أشهب عن مالك قال : يقول الله عز وجل « ولكم فيها جمال حين تُريحون وحين تسرحون » وذلك في المواشي حين تروح إلى المرعى وتسرح عليه . والرواح رجوعها بالعشيّ من المرعى ، والسّراح بالغداة ؛ تقول : سَرَحتُ الإبل أسرحها سَرْحًا وسروحا إذا غدوت بها إلى المرعى فخليتها ، وسرحت هي . المتعدّي واللازم واحد .

قوله تعالى : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) ﴾

فيه ثلاث مسائل

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾ الأثقال أثقال الناس من متاع وطعام وغيره ، وهو ما يثقل الإنسانَ حمله . وقيل : المراد أبدانهم ؛ يدل على ذلك قوله تعالى : « وأخرجت الأرض أثقالها »[1] . والبلد مكة ، في قول عكرمة . وقيل : هو محمول على العموم في كل بلد مسلكه على الظهر . وشِقّ الأنفس : مشقتها وغاية جهدها . وقراءة العامة بكسر الشين . قال الجوهري : والشِّق المشقة ؛ ومنه قوله تعالى : « لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس »

---

(١) آية ٢ سورة الزلزلة .

وهذا قد يفتح،حكاه أبو عبيدة . قال المهدوي : وكسر الشين وفتحوا في « شق » متقاربان، وهما بمعنى المشقة ، وهو من الشق في العصا ونحوها ؛ لأنه ينال منها كالمشقة من الإنسان . وقال الثعلبي : وقرأ أبو جعفر « إلا بِشَـقّ الأنفس » وهمـا لغتان ، مثل رِقّ ورَق وجِص وجَص ورِطل ورَطل . وينشد قول الشاعر[1] بكسر الشين وفتحها :

وذى إبل يَسْعَى ويحسبُها له * أخى نَصَب من شِقّها ودُؤوب

ويجوز أن يكون بمعنى المصدر،من شَقَقت عليه أشُقّ شَقًّا . والشِّق أيضا بالكسر النصف، يقال: أخذت شِقّ الشاة وشِقّة الشاة.وقديكون المراد من الآية هذا المعنى؛أى لم تكونوابالغيه إلا بنقص من القوة وذهاب شِق منها،أى لم تكونوا تبلغوه إلا بنصف قوى أنفسكم وذهاب النصف الآخر. والشِّق أيضا الناحية من الجبل. وفى حديث أم زَرْع :وجدنى فى أهل غُنيمة بِشَق . قال أبو عبيـد : هو اسم موضع . والشق أيضا : الشقيق ، يقال : هو أخى وشق نفسى.وشِقّ اسم كاهن من كهان العرب.والشق أيضا : الجانب؛ ومنه قول آمرئ القيس :

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له * بشِـقٍّ وتحتى شِـقُّها لم يُحوّل

فهو مشترك .

الثانيـة — مَنّ الله سبحانه بالأنعام عموما ، وخَصّ الإبل هنا بالذكر فى حمل الأثقال على سائر الأنعام ؛ فإن الغنم للسَّرح والذبح ، والبقر للحرث، والإبل للحمل . وفى صحيح مسـلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بينا رجل يسوق بقرة له قد حمل عليهـا التفتت إليه البقرة فقالت إنى لم أخلق لهـذا ولكنى إنمـا خلقت للحرث فقال الناس سبحان الله تعجبا وفزعا أبقرةٌ تَكلّم " ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وإنى أومن به وأبو بكروعمر ". فدل هذا الحديث على أن البقر لا يحمل عليها ولا تركب، وإنمـا هى للحرث وللأكل والنسل والرِّسْل[2] .

---

(١) هو النمر بن تولب، كما فى اللسان مادة شقق . (٢) الرسل (بالكسر) : اللبن .

الثالثة — فى هذه الآية دليل على جواز السفر بالدواب وحمل الأثقال عليها ؛ ولكن على قدر ما تحتمله من غير إسراف فى الحمل مع الرفق فى السير . وقد أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالرفق بها والإراحة لها ومراعاة التفقد لعلفها وسقيها . وروى مسلم من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا سافرتم فى الخصب فأعطوا الإبل حظها من الأرض وإذا سافرتم فى السَّنة فبادروا بها نِقْيها[1] " رواه مالك فى الموطأ عن أبى عبيد عن خالد بن معْدان . وروى معاوية بن قُرّة قال : كان لأبى الدرداء جمل يقال له دمون ، فكان يقول : يادمون ، لا تخاصمنى عند ربك . فالدواب عُجْم لا تقدر أن تحتال لنفسها ما تحتاج إليه ، ولا تقدر أن تُفصح بحوائجها ، فمن ارتفق بمرافقها ثم ضيّعها من حوائجها فقد ضيع الشكر وتعرض للخصومة بين يدى الله تعالى . وروى مطر بن محمد قال : حدثنا أبو داود قال حدثنا ابن خالد قال حدثنا المسيّب بن آدم قال : رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه ضرب جمّالا وقال : تحمل على بعيرك ما لا يطيق .

قوله تعالى : وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

فيه ثمان مسائل .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَٱلْخَيْلَ ﴾ بالنصب معطوف ، أى وخلق الخيل . وقرأ ابن أبى عَبْلة « والخيلُ والبغالُ والحميرُ » بالرفع فيها كلها . وسُمّيت الخيل خيلا لاختيالها فى المِشْية . وواحد الخيل خائل ، كضائن واحد ضَيْن . وقيل لا واحد له . وقد تقدم هذا فى « آل عمران[2] » ، وذكرنا الأحاديث هناك . ولما أفرد سبحانه الخيل والبغال والحمير بالذكر

---

(١) قوله « فى السنة » أى فى القحط وانعدام نبات الأرض من يبسها . والنق (بكسر النون وسكون القاف) هو المخ . ومعناه : أسرعوا فى السير بالإبل لتصلوا إلى المقصد وفيها بقية من قوتها ؛ إذ ليس فى الأرض ما يقويها على السير .

(٢) راجع ج ٤ ص ٣٤ طبعة أولى أو ثانية .

دل على أنها لم تدخل تحت لفظ الأنعام . وقيل : دخلت ، ولكن أفردها بالذكر لما يتعلق بها من الركوب؛ فإنه يكثر في الخيل والبغال والحمير .

الثانيـــة — قال العلماء : ملّكنا الله تعالى الأنعام والدواب وذللها لنا، وأباح لنا تسخيرها والانتفاع بها رحمة منه تعالى لنا ؛ وما ملكه الإنسان وجاز له تسخيره من الحيوان فكراؤه له جائز بإجماع أهل العلم، لا آختلاف بينهم في ذلك ؛ وحكم كراء الرواحل والدواب مذكور في كتب الفقه .

الثالثـــة — لا خلاف بين العلماء في اكتراء الدواب والرواحل للحمل عليها والسفر بها؛ لقوله تعالى : « وتَحْمِلُ أثقالكم » الآية . وأجازوا أن يُكرى الرجل الدابة والراحلة إلى مدينة بعينها وإن لم يُسَمّ أين ينزل منها ؟ وكم من مَنْهل[(١)] ينزل فيه ، وكيف صفة سيره، وكم ينزل في طريقه، وآجتزوا بالمتعارف بين الناس في ذلك . قال علماؤنا : والكراء يجرى مجرى البيوع فيما يحل منه ويحرم . قال ابن القاسم فيمن اكترى دابة إلى موضع كذا بثوب مَرْوِيّ ولم يصف رُقعته وذرعه : لم يجز ؛ لأن مالكا لا يجيز هـذا في البيع، ولا يجيز في ثمن الكراء إلا ما يجوز في ثمن البيع .

قلت : ولا يُختلف في هذا إن شاء الله؛ لأن ذلكَ إجارة . قال ابن المنذر : وأجمع كل مَن يُحفظ عنه من أهل العلم على أن من اكترى دابة ليحمل عليها عشرة أقفزة قمح فحمل عليها ما آشترط فتلفت أن لا شيء عليه . وهكذا إن حمل عليها عشرة أقفزة شعير . واختلفوا فيمن اكترى دابة ليحمل عليها عشرة أقفزة فحمل عليها أحد عشر قفيزا ؛ فكان الشافعيّ وأبو ثَوْر يقولان : هو ضامن لقيمة الدابة وعليه الكراء . وقال ابن أبي لَيْلَى : عليه قيمتها ولا أجر عليه . وفيه قول ثالث — وهو أن عليه الكراء وعليه جزء من أجر وجزء من قيمة الدابة بقدر ما زاد من الحمل ؛ وهذا قول النعمان ويعقوب ومحمد . وقال ابن القاسم صاحب مالك : لا ضمان عليه في قول مالك إذا كان القفيز الزائد لا يَفْدح الدابة ، ويُعلم أن مثله

---

(١) المنهل : المشرب ، ثم كثر ذلك حتى سميت منازل السُّفّار على المياه مناهل .

لا تعطب فيه الدابة ، ولربّ الدابة أجر القفيز الزائد مع الكراء الأول؛ لأن عطبها ليس من أجل الزيادة . وذلك بخلاف مجاوزة المسافة ؛ لأن مجاوزة المسافة تعدٍّ كله فيضمن إذا هلكت في قليله وكثيره . والزيادة على الحمل المشترط اجتمع فيه إذنٌ وتعدٍّ ، فإذا كانت الزيادة لا تعطب في مثلها عُلم أن هلاكها مما أذن له فيه .

الرابعة — واختلف أهل العلم في الرجل يكترى الدابة بأجر معلوم إلى موضع مسمى؛ فيتعدّى فيتجاوز ذلك المكان ثم يرجع إلى المكان المأذون له في المصير إليه . فقالت طائفة : إذا جاوز ذلك المكان ضمن وليس عليه في التعدّى كراء؛ هكذا قال الثوري . وقال أبو حنيفة : الأجر له فيما سمّى، ولا أجر له فيما لم يسم؛ لأنه خالف فهو ضامن، وبه قال يعقوب . وقال الشافعيّ : عليه الكراء الذى سمّى، وكراء المثل فيما جاوز ذلك ، ولو عطبت لزمه قيمتها . ونحوه قال الفقهاء السبعة، مشيخةُ أهل المدينة قالوا : إذا بلغ المسافة ثم زاد فعليه كراء الزيادة إن سلمت و إن هلكت ضمن . وقال أحمد و إسحاق وأبو ثور : عليه الكراء والضمان . قال ابن المنذر : و به نقول . وقال ابن القاسم : إذا بلغ المكترى الغاية التى اكترى إليها ثم زاد ميلا ونحوه أو أميالا أو زيادة كثيرة فعطبت الدابة ، فلربها كراؤه الأول والخيار في أخذه كراء الزائد بالغا ما بلغ، أو قيمة الدابة يوم التعدّى . ابن المَوّاز : وقد روى أنه ضامن ولو زاد خُطوة . وقال ابن القاسم عن مالك في زيادة الميل ونحوه : وأما مايعدل الناس إليه في المرحلة فلا يضمن . وقال ابن حبيب عن ابن الماجشُون وأَصْبَغ : إذا كانت الزيادة يسيرة أو جاوز الأمد الذى تكاراها إليه بيسير، ثم رجع بها سالمة إلى موضع تكاراها إليه فماتت، أو ماتت في الطريق الى الموضع الذى تكاراها إليه ، فليس له إلا كراء الزيادة، كرّده لما تسلّف من الوديعة . ولو زاد كثيرا مما فيه مقام الأيام الكثيرة التى يتغيّر في مثلها سوقها فهو ضامن ؛ كما لو ماتت في مجاوزة الأمد أو المسافة؛ لأنه إذا كانت زيادة يسيرة مما يعلم أن ذلك مما لم يُعِن على قتلها فهلاكها بعد ردّها إلى الموضع المأذون له فيه كهلاك ما تسلّف من الوديعة بعد ردّه لا محالة . و إن كانت الزيادة كثيرة فتلك الزيادة قد أعانت على قتلها

الخامسة – قال ابن القاسم وابن وهب قال مالك قال الله تعالى: «والخيلَ والبغالَ والحمير لتركبوها وزينةً» فجعلها للركوب والزينة ولم يجعلها للأكل؛ ونحوه عن أشهب. ولهذا قال أصحابنا: لا يجوز أكل لحوم الخيل والبغال والحمير؛ لأن الله تعالى لما نص على الركوب والزينة دل على أن ما عداه بخلافه. وقال فى الأنعام: «ومنها تأكلون» مع ما أمتن الله منها من الدفء والمنافع، فأباح لنا أكلها بالذكاة المشروعة فيها. وبهذه الآية احتج ابن عباس والحَكَم بن عُتَيْبة، قال الحَكَم: لحوم الخيل حرام فى كتاب الله، وقرأ هذه الآية والتى قبلها وقال: هذه للأكل وهذه للركوب. وسئل ابن عباس عن لحوم الخيل فكرهها، وتلا هذه الآية وقال: هذه للركوب، وقرأ الآية التى قبلها «والأنعام خلقها لكم فيها دِفْءٌ ومنافعُ» ثم قال: هذه للأكل. وبه قال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما والأوزاعى ومجاهد وأبو عبيد وغيرهم، واحتجوا بما خرجه أبو داود والنسائى والدَّارَقُطْنِيّ وغيرهم عن صالح بن يحيى بن المِقْدام ابن مَعْدِيكَرِب عن أبيه عن جده عن خالد بن الوليد، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى يوم خَيْبَر عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير، وكلّ ذى ناب من السباع أو مِخْلَب من الطير. لفظ الدَّارَقُطْنِيّ. وعند النسائى أيضا عن خالد بن الوليد أنه سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول: "لا يحل أكل لحوم الخيل والبغال والحمير". وقال الجمهور من الفقهاء والمحدّثين: هى مباحة. وروى عن أبى حنيفة. وشذّت طائفة فقالت بالتحريم؛ منهم الحَكَم كما ذكرنا، وروى عن أبى حنيفة. حكى الثلاث روايات عنه الرُّويانى فى بحر المذهب على مذهب الشافعى.

قلت: الصحيح الذى يدلّ عليه النظر والخبر جواز أكل لحوم الخيل، وأن الآية والحديث لا حجة فيهما لازمة. أما الآية فلا دليل فيها على تحريم الخيل؛ إذ لو دلّت عليه لدلّت على تحريم لحوم الحُمُر، والسورة مكية؛ وأىّ حاجة كانت إلى تجديد تحريم لحوم الحُمُر عامَ خَيْبَر وقد ثبت فى الأخبار تحليلُ الخيل على ما يأتى. وأيضا لما ذكر تعالى الأنعام ذكر الأغلب من منافعها وأهم ما فيها، وهو حمل الأثقال والأكل، ولم يذكر الركوب ولا الحرث بها ولا غير ذلك مصرّحا به، وقد تُركب ويحرث بها؛ قال الله تعالى: «الّذى جَعل لكم الأنعامَ لتركبوا

منها ومنها تأكلون » . وقال فى الخيل : « لتركبوها وزينة » فذكر أيضا أغلب منافعها والمقصود منها ، ولم يذكر حمل الأثقال عليها ، وقد تحمل كما هو مشاهد فلذلك لم يذكر الأكل . وقد بيّنه نبيّه عليه السلام الذى جعل إليه بيان ما أنزل عليه على ما يأتى ، ولا يلزم من كونها خلقت للركوب والزينة ألاّ تؤكل ، فهذه البقرة قد أنطقها خالقها الذى أنطق كلّ شىء فقالت : إنما خلقت للحرث . فيلزم من علّل أن الخيل لا تؤكل لأنها خلقت للركوب ألاّ تؤكل البقر لأنها خُلقت للحرث . وقد أجمع المسلمون على جواز أكلها ، فكذلك الخيل بالسّنّة الثابتة فيها . روى مسلم من حديث جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية وأذن فى لحوم الخيل . وقال النسائىّ عن جابر : أطعمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر لحوم الخيل ونهانا عن لحوم الحُمُر . وفى رواية عن جابر قال : كنا نأكل لحوم الخيل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإن قيل : الرواية عن جابر بأنهم أكلوها فى خَيْبرَ حكايةُ حال وقضيّةٌ فى عَيْن ، فيحتمل أن يكونوا ذبحوا لضرورة ، ولا يحتج بقضايا الأحوال . قلنا : الرواية عن جابر وإخباره بأنهم كانوا يأكلون لحوم الخيل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيل ذلك الاحتمال ، ولئن سلمناه فمعنا حديث أسماء قالت : نحرنا فرسا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالمدينة فأكلناه ؛ رواه مسلم . وكل تأويل من غير ترجيح فى مقابلة النص فإنما هو دعوى ، لا يُلتفت إليه ولا يعرج عليه . وقد روى الدارقطنىّ زيادة حسنة ترفع كل تأويل فى حديث أسماء ؛ قالت أسماء : كان لنا فرس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أرادت أن تموت فذبحناها فأكلناها . فذبْحُها إنما كان لخوف الموت عليها لا لغير ذلك من الأحوال . وبالله التوفيق . فإن قيل : حيوان من ذوات الحوافر فلا يؤكل كالحمار ؟ قلنا : هذا قياس الشبه وقد اختلف أرباب الأصول فى القول به ، ولئن سلمناه فهو منتقض بالخنزير ؛ فإنه ذو ظِلْف وقد باين ذوات الأظلاف ، وعلى أن القياس إذا كان فى مقابلة النص فهو فاسد الوضع لا التفات إليه . قال الطبرىّ : وفى إجماعهم على جواز ركوب ما ذكر للأكل دليل على جواز أكل ما ذكر للركوب .

(١) آية ٧٩ سورة غافر .

السادسة ـ وأما البغال فإنها تلحق بالحمير ، إن قلنا إن الخيل لا تؤكل ؛ فإنها تكون متولدة من عينين لا يؤكلان. وإن قلنا إن الخيل تؤكل، فإنها عين متولدة من مأكول وغير مأكول فغلب التحريم على ما يلزم في الأصول . وكذلك ذبح المولود بين كافرين أحدهما من أهل الذكاة والآخر ليس من أهلها، لا تكون ذكاة ولا تحل به الذبيحة . وقد مضى في «الأنعام»[1] الكلام في تحريم الحمر فلا معنى للإعادة . وقد علل تحريم أكل الحمار بأنه أبدى جوهره الخبيث حيث نزا على ذكر وتلوط؛ فسمي رجسا .

السابعة ـ في الآية دليل على أن الخيل لا زكاة فيها؛ لأن الله سبحانه منّ علينا بما أباحنا منها وكرمنا به من منافعها، فغير جائز أن يلزم فيها كلفة إلا بدليل . وقد روى مالك عن عبد الله بن دينار عن سليمان بن يسار عن عراك بن مالك عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة" . وروى أبو داود عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ليس في الخيل والرقيق زكاة إلا زكاة الفطر في الرقيق" . وبه قال مالك والشافعي والأوزاعي والليث وأبو يوسف ومحمد . وقال أبو حنيفة : إن كانت إناثا كلها أو ذكورا وإناثا ، ففي كل فرس دينار إذا كانت سائمة، وإن شاء قومها فأخرج عن كل مائتي درهم خمسة دراهم . واحتج بأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "في الخيل السائمة في كل فرس دينار" وبقوله صلى الله عليه وسلم : "الخيل ثلاثة ... " الحديث . وفيه : "ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها" . والجواب عن الأول أنه حديث لم يروه إلا غورك[2] السعدي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر . قال الدارقطني : تفرد به غورك عن جعفر وهو ضعيف جدا، ومن دونه ضعفاء . وأما الحديث فالحق المذكور فيه هو الخروج عليها إذا وقع النفير وتعين بها لقتال العدو إذا تعين ذلك عليه، ويحمل المنقطعين عليها إذا احتاجوا لذلك، وهذا واجب عليه إذا تعين ذلك، كما يتعين عليه أن يطعمهم عند الضرورة ، فهذه حقوق الله في رقابها . فإن قيل : هذا هو

(١) راجع جـ ٧ ص ١١٥ وما بعدها . (٢) هو غورك بن الخضرم أبو عبد الله . (عن الدارقطني)

الحق الذي في ظهورها وبين الحق الذي في رقابها ؛ قيل ؛ قد روى " لا ينسى حق الله فيها " ولا فرق بين قوله : " حق الله فيها " أو " في رقابها وظهورها " فإن المعنى يرجع إلى شيء واحد ؛ لأن الحق يتعلق بجملتها . وقد قال جماعة من العلماء : إن الحق هنا حُسْن ملكها وتعهّد شبعها والإحسان إليها وركوبها غير مشقوق عليها ؛ كما جاء في الحديث " لا تتخذوا ظهورها كراسي " . وإنما خص رقابها بالذكر لأن الرقاب والأعناق تستعار كثيرا في مواضع الحقوق اللازمة والفروض الواجبة ؛ ومنه قوله تعالى : « فتحرير رقبة مؤمنة » وكثر عندهم استعمال ذلك واستعارته حتى جعلوه في الرباع والأموال؛ ألا ترى قول كُثَيِّر :

غَمْـر الرداء إذا تبسّم ضاحكا ٭ غَلِقَتْ لِضَحْكَتِه رِقابُ المالِ[1]

وأيضا فإن الحيوان الذي تجب فيه الزكاة له نصاب من جنسه ، ولما خرجت الخيل عن ذلك علمنا سقوط الزكاة فيها. وأيضا فإيجابه الزكاة في إناثها منفردة دون الذكور تناقض منه وليس في الحديث فصل بينهما . ونقيس الإناث على الذكور في نفي الصدقة بأنه حيوان مُقْتَنًى لنسله لا لدره، ولا تجب الزكاة في ذكوره فلم تجب في إناثه كالبغال والحمير . وقد روي عنه أنه لا زكاة في إناثها وإن انفردت كذكورها منفردة؛ وهذا الذي عليه الجمهور . قال ابن عبد البر : الخبر في صدقة الخيل عن عمر صحيح من حديث الزُّهْري وغيره . وقد روي من حديث مالك ، رواه عنه جُوَيْرِيَة عن الزهري أن السائب بن يزيد قال : لقد رأيت أبي يقوّم الخيل ثم يدفع صدقتها إلى عمر . وهذا حجة لأبي حنيفة وشيخه حماد بن أبي سليمان؛ لا أعلم أحدا من فقهاء الأمصار أوجب الزكاة في الخيل غيرهما . تفرد به جُوَيْرِيَة عن مالك وهو ثقة .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَزِينَةً ﴾ منصوب بإضمار فعل، المعنى : وجعلها زينة . وقيل : هو مفعول من أجله . والزينة : ما يُتَزيّن به ، وهذا الجمال والتزيين وإن كان من متاع الدنيا فقد أذن الله سبحانه لعباده فيه ؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " الإبل عِزٌّ

---

(١) الغمر : الماء الكثير . ورجل غمر الرداء وغمر الخلق ، أي واسع الخلق . كثير المعروف سخيّ .

لأهلها والغنم بركة والخيل في نواصيها الخير". خرجه البرقاني وابن ماجه في السنن . وقد تقدم في الأنعام . وإنما جمع النبي صلى الله عليه وسلم العز في الإبل، لأن فيها اللباس والأكل واللبن والحمل والغزو وإن نقصها الكر والفر . وجعل البركة في الغنم لما فيها من اللباس والطعام والشراب وكثرة الأولاد ؛ فإنها تلد في العام ثلاث مرات إلى ما يتبعها من السكينة ، وتحمل صاحبها عليه من خفض الجناح ولين الجانب؛ بخلاف الفدادين[1] أهل الوبر . وقرن النبي صلى الله عليه وسلم الخير بنواصي الخيل بقية الدهر لما فيها من الغنيمة المستفادة للكسب والمعاش، وما يوصل إليه من قهر الأعداء وغلب الكفار وإعلاء كلمة الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَالَا تَعْلَمُونَ ﴾ قال الجمهور : من الخلق . وقيل : من أنواع الحشرات والهوام في أسافل الأرض والبر والبحر مما لم يره البشر ولم يسمعوا به . وقيل : « ويخلق ما لا تعلمون » مما أعد الله في الجنة لأهلها وفي النار لأهلها، مما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولا خطر على قلب بشر . وقال قتادة والسدي : هو خلق السوس في الثياب والدود في الفواكه . ابن عباس : عين تحت العرش؛ حكاه الماوردي . الثعلبي : وقال ابن عباس عن يمين العرش نهر من النور مثل السموات السبع والأرضين السبع والبحار السبع سبعين مرة، يدخله جبريل كل سحر فيغتسل فيزداد نورا إلى نوره وجمالا إلى جماله وعظما إلى عظمه، ثم ينتفض فيخرج الله من كل ريشة سبعين ألف قطرة ، ويخرج من كل قطرة سبعة آلاف ملك ، يدخل منهم كل يوم سبعون ألف ملك إلى البيت المعمور، وفي الكعبة سبعون ألفا لا يعودون إليه إلى يوم القيامة . وقول خامس ــ وهو ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها أرض بيضاء، مسيرة الشمس ثلاثين يوما مشحونة خلقا لا يعلمون أن الله تعالى يعصى في الأرض، قالوا : يارسول الله، من ولد آدم؟ قال : "لا يعلمون أن الله خلق آدم". قالوا : يارسول الله، فأين إبليس منهم؟ قال : "لا يعلمون أن الله خلق إبليس" ــ ثم تلا "ويخلق ما لا تعلمون" ذكره الماوردي .

---

(١) الفدادون : أصحاب الإبل الكثيرة الذين يملك أحدهم المائتين من الإبل إلى الألف .

قلت : ومن هذا المعنى ما ذكر البيهقي عن الشعبي قال : إن لله عبادا من وراء الأندلس كما بيننا و بين الأندلس ، ما يرون أن الله عصاه مخلوق، رَضْراضهم[1] الدرّ والياقوت وجبالهم الذهب والفضة، لا يحرثون ولا يزرعون ولا يعملون عملا ، لهم شجر على أبوابهم لها ثمر هي طعامهم وشجر لها أوراق عراض هي لباسهم ؛ ذكره في بدء الخلق من (كتاب الأسماء والصفات) . وخرج من حديث موسى بن عقبة عن محمد بن المُنْكَدِر عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أذن لي أن أحدث عن مَلَك من ملائكة الله من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام " .

قوله تعالى : وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ أي على الله بيان قصد السبيل، فحذف المضاف وهو البيان . والسبيل : الإسلام، أي على الله بيانه بالرسل والحجج والبراهين . وقصد السبيل : استعانة الطريق؛ يقال : طريق قاصد أي يؤدي إلى المطلوب . ﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ أي ومن السبيل جائر؛ أي عادل عن الحق فلا يهتدى به ؛ ومنه قول امرئ القيس

ومن الطريقة جائر وهُدًى * قصد السبيل ومنه ذو دخل

وقال طَرَفة :

عَدَوْلِيَّةٌ أو من سَفِين آبن يامِنٍ * يَجُور بها الملّاح طَورًا ويهتدي

العَدَوْلِيّة سفينة منسوبة إلى عَدَوْلَى قرية بالبحرين . والعَدَوْلِيّ : المَلّاح؛ قاله في الصحاح . وفي التنزيل « وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ »[2] وقد تقدّم . وقيل : المعنى ومنهم جائر عن سبيل الحق، أي عادل عنه فلا يهتدي إليه . وفيهم قولان : أحدهما أنهم أهل الأهواء المختلفة ؛ قاله ابن عباس . الثاني — ملل الكفر من اليهودية والمجوسية

---

(١) الرضراض : ما دق من الحصى . (٢) راجع ـ ٧ ص ١٣٧ طبعة أولى أو ثانية .

والنصرانية . وفي مصحف عبد الله « ومنكم جائر » وكذا قرأ علي « ومنكم » بالكاف . وقيل : المعنى وعنها جائر؛ أي عن السبيل . فـ « من » بمعنى عن . وقال ابن عباس : أي من أراد الله أن يهديه سهّل له طريق الإيمان، ومن أراد أن يضله ثقل عليه الإيمان وفروعه . وقيل : معنى « قَصْدُ السبيل » مسيركم ورجوعكم . والسبيل واحدة بمعنى الجمع، ولذلك أنث الكناية فقال : « ومنها » والسبيل مؤنثة في لغة أهل الحجاز .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بيّن أن المشيئة لله تعالى، وهو يصحح ما ذهب إليه ابن عباس في تأويل الآية، ويرد على القدرية ومن وافقها كما تقدم .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾

الشراب ما يُشرب ، والشجر معروف . أي ينبت من الأمطار أشجارا وعروشا ونباتا . و﴿ تُسِيمُونَ ﴾ ترعون إبلكم ؛ يقال : سامت السائمة تسوم سَوْمًا أي رعت ، فهي سائمة . والسَّوام والسائم بمعنًى ، وهو المال الراعي . وجمع السائم والسائمة سوائم . وأسمتها أنا أي أخرجتها إلى الرَّعْي، فأنا مُسِيم وهي مُسامة وسائمة . قال :

* أَوْلَى لك آبنَ مُسِيمة الأجمال[1] *

وأصل السَّوْم الإبعاد في المرعى . وقال الزجاج : أخذ من السُّومة وهي العلامة؛ أي أنها تؤثر في الأرض علامات برعيها ، أو لأنها تُعلَّم للإرسال في المرعى .

قلت : والخيل المسومة تكون المرعيّة . وتكون المُعلَّمة . وقوله : « مُسَوِّمين » قال الأخفش تكون مُعلَّمين وتكون مُرْسَلين ؛ من قولك : سوّم فيها الخيل أي أرسلها . ومنه السائمة ، وإنما جاء بالياء والنون لأن الخيل سُوِّمت وعليها ركبانها .

---

(١) هذا عجز بيت ، وصدره كما في تفسير الطبري : « مثل ابن بزعة أو كآخر مثله »

قوله تعالى : يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرۡعَ وَالزَّيۡتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالۡأَعۡنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم « نُنبِت » بالنون على التعظيم . العامة بالياء على معنى ينبت الله لكم يقال : نبتت الأرض وأنبتت بمعنًى، ونبت البقل وأنبتَ بمعنى . وأنشد الفراء :

رأيت ذوى الحاجات حول بيوتهم * قطينا بها حتى إذا أنبت البقل

أى نبت . وأنبته الله فهو منبوت، على غير قياس . وأنبت الغلام نبتت عانته . ونبّتَ الشجرَ غرسه ؛ يقال : نَبِّت أجلّك بين عينيك . ونبّتُّ الصبيّ تنبيتا ربّيته . والمَنْبِت موضع النبات ؛ يقال : ما أحسنَ نابتةَ بنى فلان ؛ أى ما يَنْبُت عليه أموالهم وأولادهم . ونَبَتَتْ لهم نابتةٌ إذا نشأ لهم نشء صغار . وإن بنى فلان لنابتةُ شر . والنوابت من الأحداث الأغمار . والنبيت حيّ من اليمن . والينبوت شجر ؛ كله عن الجوهرىّ . ﴿ وَالزَّيۡتُونَ ﴾ جمع زيتونة . ويقال للشجرة نفسها : زيتونة، وللثمرة زيتونة . وقد مضى فى سورة « الأنعام »[1] حكم زكاة هذه الثمار فلا معنى للإعادة. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ الإنزال والإنبات. ﴿ لَأٓيَةٗ ﴾ أى دلالة. ﴿ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

قوله تعالى : وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيۡلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى للسكون والأعمال، كما قال : « وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيۡلَ وَالنَّهَارَ لِتَسۡكُنُوا فِيهِ وَلِتَبۡتَغُوا مِن فَضۡلِهِۦ »[2] . ﴿ وَالشَّمۡسَ وَالۡقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتُۢ بِأَمۡرِهِ ﴾ أى مُذَلَّلات لمعرفة الأوقات ونضج الثمار والزرع والاهتداء بالنجوم فى الظلمات . وقرأ ابن عامر وأهل الشام « والشمسُ والقمرُ والنجومُ مسخراتٌ » بالرفع

(١) راجع جـ ٧ ص ٩٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٧٣ سورة القصص

على الابتداء والخبر . الباقون بالنصب عطفا على ما قبله . وقرأ حفص عن عاصم برفع « والنجومُ » ، « مسخراتٌ » خبره . وقرئ « والشمسَ والقمرَ والنجومَ » بالنصب . « مسخراتٌ » بالرفع ، وهو خبر ابتداء محذوف أى هى مسخرات ، وهى فى قراءة من نصبها حال مؤكدة ، كقوله : « وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا »[1] . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أى عن الله ما نبههم عليه ووفقهم له .

قوله تعالى : وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ وَمَا ذَرَأَ ﴾ أى وسخر ما ذرأ فى الأرض لكم . « ذَرَأَ » أى خلق ؛ ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذَرْءًا خلقهم ، فهو ذارئ ؛ ومنه الذُّرِّيَّة وهى نسل الثقلين ، إلا أن العرب تركت همزها ، والجمع الذرارى . يقال : أنمى الله ذَرْأَك وذَرْوَك ، أى ذريتك . وأصل الذَّرْو والذَّرْء التفريق عن جمع . وفى الحديث[2] : ذرء النار ، أى أنهم خلقوا لها .

الثانيــة ـ ما ذرأه الله سبحانه منه مسخر مذلل كالدواب والأنعام والأشجار وغيرها ، ومنه غير ذلك . والدليل عليه ما رواه مالك فى الموطأ عن كعب الأحبار قال : لولا كلمات أقولهن لجعلتنى يهودُ حمارا . فقيل له : وما هن ؟ فقـال : أعوذ بوجه الله العظيم الذى ليس شىء أعظم منـه ، وبكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فاجر ، وبأسماء الله الحسنى كلِّها ما علمت منها وما لم أعلم ، من شرّ ما خلق وبرأ وذرأ . وفيـه عن يحيى بن سعيد أنه قال : أُسْرِى برسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى عفريتا من الجن يطلبه بشعلة من نار ، الحديث . وفيه : وشر ما ذَرَأَ فى الأرض . وقد ذكرناه وما فى معناه فى غير هذا الموضع .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٩ طبعة ثانية .

(٢) أى فى حديث عمر رضى الله عنه وقد كتب إلى خالد وإنى لأظنكم آل المغيرة ذرء النار .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ﴾ « مختلفا » نصب على الحال ، و « ألوانه » هيئاته ومناظره، يعنى الدواب والشجر وغيرها . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أى فى اختلاف ألوانها . ﴿ لَآيَةً ﴾ أى لعبرة . ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أى يتعظون و يعلمون أن فى تسخير هذه المكوّنات لعلامات على وحدانية الله تعالى، وأنه لا يقدر على ذلك أحد غيره .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ ﴾ تسخير البحر هو تمكين البشر من التصرف فيه وتذليله بالركوب والإرفاء وغيره، وهذه نعمة من نعم الله علينا، فلو شاء سلطه علينا وأغرقنا . وقد مضى الكلام فى البحر وفى صيده[1] . وسماه هنا لحما واللحوم عند مالك ثلاثة أجناس : فلحم ذوات الأربع جنس، ولحم ذوات الريش جنس ، ولحم ذوات الماء جنس . فلا يجوز بيع الجنس من جنسه متفاضلا ، و يجوز بيع لحم البقر والوحش بلحم الطير والسمك متفاضلا ، وكذلك لحم الطير بلحم البقر والوحش والسمك يجوز متفاضلا . وقال أبو حنيفة : اللحوم كلها أصناف مختلفة كأصولها ؛ فلحم البقر صنف ، ولحم الغنم صنف ، ولحم الإبل صنف ، وكذلك الوحش مختلف ، وكذلك الطير ، وكذلك السمك ، وهو أحد قولى الشافعى . والقول الآخر أن الكل من النَّعَم والصيد والطير والسمك جنس واحد لا يجوز التفاضل فيه . والقول الأول هو المشهور من مذهبه عند أصحابه . ودليلنا هو أن الله تعالى فرق بين أسماء الأنعام فى حياتها فقال : « ثَمَانِيَةَ أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين »[2]

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٨٨ طبعة ثانية أو ثالثة و جـ ٦ ص ٣١٨ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) آية ١٤٣ سورة الأنعام .

ثم قال : « ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين » . فلما أن أم بالجميع إلى اللحم[1] قال : « أحلت لكم بهيمة الأنعام » بجمعها بلحم واحد لتقارب منافعها كتقارب لحم الضأن والمعز . وقال فى موضع آخر : « ولحم طير مما يشتهون[2] » وهذا جمع طائر الذى هو الواحد، لقوله تعالى : « ولا طائر يطير بجناحيه[3] » بجمع لحم الطير كله باسم واحد . وقال هنا : « لحما طريا » بجمع أصناف السمك بذكر واحد، فكان صغاره ككباره فى الجمع بينهما . وقد روى عن ابن عمر أنه سئل عن لحم المعز بلحم الكباش أشيء واحد؟ فقال لا ؛ ولا مخالف له فصار كالإجماع، والله أعلم . ولا حجة للمخالف فى نهيه صلى الله عليه وسلم عن بيع الطعام إلا مثلا بمثل ؛ فان الطعام فى الإطلاق يتناول الحنطة وغيرها من المأكولات ولا يتناول اللحم ؛ ألا ترى أن القائل إذا قال : أكلت اليوم طعاما لم يسبق الفهم منه إلى أكل اللحم ، وأيضا فانه معارض بقوله صلى الله عليه وسلم : "إذا اختلف الجنسان فبيعوا كيف شئتم" وهذان جنسان ، وأيضا فقد اتفقنا على جواز بيع اللحم بلحم الطير متفاضلا لا لعلة أنه بيع طعام لا زكاة له بيع بلحم ليس فيه الزكاة، كذلك بيع السمك بلحم الطير متفاضلا .

الثانية ـــ وأما الجراد فالمشهور عندنا جواز بيع بعضه ببعض متفاضلا . وذكر عن سحنون أنه يمنع من ذلك، وإليه مال بعض المتأخرين ورآه مما يدخر .

الثالثة ـــ اختلف العلماء فيمن حلف ألا يأكل لحما ؛ فقال ابن القاسم : يحنث بكل نوع من هذه الأنواع الأربعة . وقال أشهب فى المجموعة . لا يحنث إلا بكل لحوم الأنعام دون الوحش وغيره، مراعاة للعرف والعادة، وتقديما لها على إطلاق اللفظ اللغوى، وهو أحسن .

الرابعة ـــ قوله تعالى : ﴿ وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ﴾ يعنى به اللؤلؤ والمرجان ؛ لقوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان[4] » . وإخراج الحلية إنما هى فيما عرف من الملح فقط . ويقال : ان فى الزمرد بحريا . وقد خطئ الهذلى فى قوله فى وصف الدرة :

(١) فى الأصول : « فلما أن أم الجميع » . يريد : فلما أن قصد بالجميع إلى اللحم
(٢) آية ٢١ سورة الواقعة . (٣) آية ٣٨ سورة الأنعام . (٤) آية ٢٢ سورة الرحمن .

فجاء بها من دُرّة لَطَمِيّة[1] ◦ على وجهها ماء الفرات يدوم

فجعلها من الماء الحلو . فالحلية حق وهي نحلة الله تعالى لآدم وولده . خلق آدم وتوّج وكُلّل بإكليل الجنة ، وختم بالخاتم الذي ورثه عنه سليمان بن داود صلوات الله عليهم ، وكان يقال له خاتم العز فيما روى .

الخامسة — امتن الله سبحانه على الرجال والنساء امتنانا عاما بما يخرج من البحر ، فلا يحرم عليهم شيء منه ، وإنما حرم الله تعالى على الرجال الذهب والحرير . روى الصحيح عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تلبسوا الحرير فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة " . وسيأتي في سورة « الحج »[2] الكلام فيه إن شاء الله . وروى البخاري عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتما من ذهب ، وجعل فصّه مما يلي باطن كفه ، ونقش فيه محمد رسول الله ؛ فاتخذ الناس مثله ، فلما رآهم قد اتخذوها رمى به وقال : " لا ألبسه أبدا " ثم اتخذ خاتما من فضة فاتخذ الناس خواتيم الفضة . قال ابن عمر : فلبس الخاتم بعد النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ، حتى وقع من عثمان في بئر أريس[3] . قال أبو داود : لم يختلف الناس على عثمان حتى سقط الخاتم من يده . وأجمع العلماء على جواز التختم بالوَرِق على الجملة للرجال . قال الخطابي : وكره للنساء التختم بالفضة ؛ لأنه من زي الرجال ، فإن لم يجدن ذهبا فليصفّرنه بزعفران أو بشبهه . وجمهور العلماء من السلف والخلف على تحريم اتخاذ الرجال خاتم الذهب ؛ إلا ما روى عن أبي بكر بن عبد الرحمن وخبّاب ، وهو خلاف شاذ ، وكل منهما لم يبلغهما النهي والنسخ . والله أعلم . وأما ما رواه أنس بن مالك أنه رأى في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتما من وَرِق يوما واحدا ، ثم إن الناس اصطنعوا الخواتم من وَرِق ولبسوها ، فطرح رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتمه فطرح الناس خواتيمهم — أخرجه الصحيحان واللفظ للبخاري — فهو عند العلماء

---

(١) اللطيمة : الجمال التي تحمل العطار . وقيل : اللطيمة العنبرة التي لطمت بالمسك فتفتقت به حتى نشبت رائحتها ، وهي اللطمية .   (٢) في قوله تعالى : « إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... » آية ٢٣ .
(٣) حديقة بالقرب من مسجد قباء .

وهم من ابن شهاب ؛ لأن الذى نبذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو خاتم الذهب . رواه عبد العزيز بن صُهيب وثابت وقتادة عن أنس ، وهو خلاف ما روى ابن شهاب عن أنس فوجب القضاء بالجماعة على الواحد إذا خالفها ، مع ما يشهد للجماعة من حديث ابن عمر .

السادسة — إذا ثبت جواز التختم للرجال بخاتم الفضة والتحلّى به ، فقد كره ابن سيرين وغيره من العلماء نقشه وأن يكون فيه ذكر الله . وأجاز نقشه جماعة من العلماء . ثم إذا نقش عليه اسم الله أو كلمة حكمة أو كلمات من القرآن وجعله فى شماله ، فهل يدخل به الخلاء ويستنجى بشماله ؟ خفّفه سعيد بن المُسيِّب ومالك . قيل لمالك : إن كان فى الخاتم ذكر الله ويلبسه فى الشمال أيُستنجَى به؟ قال : أرجو أن يكون خفيفا . وروى عنه الكراهة وهو الأَوْلى . وعلى المنع من ذلك أكثر أصحابه . وقد روى همام عن ابن جريج عن الزهرى عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخلاء وضع خاتمه . قال أبو داود : هذا حديث منكر ، وإنما يعرف عن ابن جريج عن زياد بن سعد عن الزهرى عن أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتما من وَرِق ثم ألقاه . قال أبو داود : لم يحدّث بهذا إلا همام .

السابعة — روى البخارى عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتما من فضة ونقش فيه « محمد رسول الله » وقال : "إنى اتخذت خاتما من ورق ونقشت فيه محمد رسول الله فلا ينقشنّ أحد على نقشه" . قال علماؤنا : فهذا دليل على جواز نقش اسم صاحب الخاتم على خاتمه . قال مالك : ومن شأن الخلفاء والقضاة نقش أسمائهم على خواتيمهم ، ونهيه عليه السلام : لا ينقشنّ أحد على نقش خاتمه ، من أجل أن ذلك اسمه وصفته برسالة الله له إلى خلقه . وروى أهل الشام أنه لا يجوز اتخاذ الخاتم لغير ذى سلطان . وروى فى ذلك حديثا عن أبى رَيحانة ، وهو حديث لا حجة فيه لضعفه . وقوله عليه السلام : "لا ينقشنّ أحد على نقشه" يردّه ، ويدل على جواز اتخاذ الخاتم لجميع الناس ، إذا لم ينقش على نقش خاتمه . وكان نقش خاتم الزهرىّ « محمد يسأل الله العافية » . وكان نقش خاتم مالك « حسبى الله ونعم الوكيل » . وذكر الترمذىّ الحكيم فى (نوادر الأصول) أن نقش خاتم موسى عليه السلام

« لكل أجل كتاب » وقد مضى فى الرعد[1] . وبلغ عمر بن عبد العزيز أن ابنه اشترى خاتما بألف درهم فكتب إليه : إنه بلغنى أنك اشتريت خاتما بألف درهم ، فبعه وأطعم منه ألف جائع ، واشتر خاتما من حديد بدرهم ، واكتب عليه « رحم الله امرأ عرف قدر نفسه » .

الثامنـــة — من حلف ألّا يلبس حليًّا فلبس لؤلؤا لم يحنث ، وبه قال أبو حنيفة . قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : لأن هذا وإن كان الاسم اللغوى يتناوله فلم يقصده باليمين ، والأيمان تُخَصّ بالعرف ؛ ألا ترى أنه لو حلف ألا ينام على فراش فنام على الأرض لم يحنَث ، وكذلك لا يستضىء بسراج فجلس فى الشمس لا يحنث ، وإن كان الله تعالى قد سمّى الأرض فراشا والشمس سراجا . وقال الشافعىّ وأبو يوسف ومحمد : من حلف ألا يلبس حليا ولبس اللؤلؤ فإنه يحنث ؛ لقوله تعالى : « وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا » والذى يخرج منه : اللؤلؤ والمرجان .

التاســعة — قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ قد تقدم ذكر الفُلْك وركوب البحر فى « البقرة[2] » وغيرها . وقوله : « مَوَاخِرَ » قال ابن عباس : جوارىَ ، من جَرَت تجرى . سعيد بن جُبير : معترضة . الحسن : مواقر . قتادة والضحاك : أى تذهب وتجىء ، مقبلةً ومدبرة بريح واحدة . وقيــل : « مواخر » ملججة فى داخل البحر ؛ وأصل المَخْر شقّ المــاء عن يمين وشمال . مخرت السفينة تَمْخَر وتَمْخُر مَخْرا ومخورا إذا جرت تشق المــاء مع صوت ؛ ومنه قوله تعالى : « وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ » يعنى جَوارىَ . قال الجوهرى : ومَخَر السابحُ إذا شق المــاء بصدره ، ومَخَر الأرض شقها للزراعة ، ومخرها بالمــاء إذا حبس المــاء فيها حتى تصير أريضة ؛ أى خليقةً بجودة نبات الزرع . وقال الطبرى : المَخْر فى اللغة صوت هبوب الريح ؛ ولم يقيّد كونه فى ماء ، وقال : إن من ذلك قول واصل مولى أبى عُيينــة : إذا أراد أحدكم البول فليتمخّر الريح ؛ أى لينظر فى صوتها فى الأجسام من أين تَهُبّ ، فيتجنّب استقبالها لئلا تردّ عليه بولَه . ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ أى ولتركبوه للتجارة وطلب الربح . ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ تقدم جميع هذا فى « البقرة[3] » والحمد لله .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٢٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٨٨ طبعة ثانية أو ثالثة ، وجـ ٢ ص ١٩٤ طبعة ثانية . (٣) راجع جـ ٢ ص ١٩٤ وما بعدها .

قوله تعالى : وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ أى جبالا ثابتة . رَسَا يرسو إذا ثبت وأقام . قال :

فصبَرْتُ عارفةً لذلك حُرّةً * ترسو إذا نفسُ الجبان تطلّعُ [1]

﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أى لئلا تميد ؛ عنـد الكوفيين . وكراهية أن تميد ؛ على قول البصريين . والمَيْـد : الاضطراب يمينا وشمالا ؛ ماد الشيء يميد ميـدا إذا تحـرك ؛ ومادت الأغصان تمايلت ، وماد الرجل تبختر . قال وهب بن مُنَبِّه : خلق الله الأرض فجعلت تميـد وتمور ، فقـالت الملائكة : إن هـذه غير مقرّة أحدا على ظهـرها فأصبحت وقد أُرسيت بالجبال ، ولم تدر الملائكة ممّ خلقت الجبال . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : لمـا خلق الله الأرض قَمَصت ومالت وقالت : أىْ رَبّ ! أتجعل علىّ من يعمل بالمعاصى والخطايا ، ويلقى علىّ الجيف والنَّتْن ! فأرسى الله تعالى فيهـا من الجبال ما ترون وما لا ترون . وروى الترمذىّ فى آخر (كتاب التفسير) حدّثنا محمد بن بشار حدّثنا يزيد بن هارون أخبرنا العوّام بن حَوْشَب عن سليمان بن أبى سليمان عن أنس بن مالك عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "لمـا خلق الله الأرض جعلت تَميد فخلق الجبال فعاد بهـا عليها فاستقرّت فعجِبت الملائكة من شدّة الجبال قالوا يارَبّ هل من خلقك شىء أشدّ من الجبال قال نعم الحديد قالوا يارب فهل من خلقك شىء أشدّ من الحديد قال نعم النار فقالوا يارب فهـل من خلقك شى أشـدّ من النار قال نعم المـاء قالوا يارب فهـل من خلقك شىء أشـدّ من المـاء قال نعم الريح قالوا يارب فهل من خلقك شىء أشـدّ من الريح قال نعم ابنُ آدم تصـدّق بصدقة بيمينه يخفيها من شماله" . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه .

---

(١) البيت لعنترة العبسى . يقول : حبست نفسا عارفة ؛ أى صابرة . وقبله :

وعلمت أن منيّتى إن تأتنى * لا يجنى منهـا الفـرار الأسرع

قلت : وفى هذه الآية أدلّ دليل على استعمال الأسباب ، وقد كان قادرا على سكونها دون الجبال . وقد تقدّم هـذا المعنى . ﴿ وَأَنْهَارًا ﴾ أى وجعل فيها أنهارا ، أو ألقى فيهـا أنهارا . ﴿ وَسُبُلًا ﴾ أى طُـرُقا ومسالك . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أى إلى حيث تقصدون من البـلاد فلا تضلون ولا تتحيّرون .

قوله تعـالى : وَعَلَـٰمَـٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَعَلَامَاتٍ ﴾ قال ابن عباس : العلامات معالم الطرق بالنهار ؛ أى جعـل للطرق علامات يقع الاهتداء بها . ﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ يعنى بالليل ، والنجمُ يراد به النجـوم . وقرأ ابن وثّاب « وبِالنُّجْم » . الحسن : بضم النون والجيم جميعا ومراده النجوم ، فقصره ؛ كما قال الشاعر :

إنّ الفقـير بيننا قاضٍ حَكَمْ * أن تَرِدَ المـاءَ إذا غاب النُّجُمْ

وكذلك القول لمن قرأ « النُّجْم » إلا أنه سكّن استخفافا . ويجـوز أن يكون النُّجُم جمعَ نَجْم كسُقُف وسَقْف . واختلف فى النجوم ؛ فقال الفراء : الجَدْى والفرقدان . وقيل : الثريا . قال الشاعر[1] :

حـتى إذا ما استقلّ النجمُ فى غَلَس * وغُودر البَقْـــلُ مَلْوِيٌّ ومحصـودُ

أى منـه ملوِيّ ومنه محصود ، وذلك عنـد طلوع الثريا يكون . وقال الكَلْبِيّ : العلامات الجبال . وقال مجاهد : هى النجوم ؛ لأن من النجوم ما يهتَدى بهـا ، ومنها ما يكون علامة لا يهتدى بها ؛ وقاله قَتادة والنَّخَعِيّ . وقيل : تم الكلام عنـد قوله « وعلاماتٍ » ثم ابتدأ وقال : « وبِالنَّجْمِ هم يهتدون » . وعلى الأوّل : أى وجعل لكم علامات ونجوما تهتدون بها . ومن العلامات الرياح يهتدى بهـا . وفى المراد بالاهتداء قولان : أحدهما ــ فى الأسفار ،

(١) البيت لذى الرمة . ومعنى « استقل » طلع لى آخر الليل . وفى ديوانه : « وأحصد » بدل « غودر » . وأحصد : حان حصاده .

وهـذا قول الجمهور . الثاني – في القِبْلة . وقال ابن عباس : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : « وبالنَّجم هم يهتدون » قال : " هو الجَدْي يا بن عباس، عليه قبلتكم و به تهتدون في برّكم و بحركم " ذكره الماوردي .

الثانيـة – قال ابن العربي : أما جميع النجـوم فلا يهتدي بها إلا العارف بمطالعها ومغاربها، والفرق بين الجنوبي والشمالي منها، وذلك قليل في الآخرين. وأما الثُّريّا فلا يهتدي بها إلا من يهتدي بجميع النجوم . وإنما الهَدْي لكل أحد بالجَدْي والفَرْقَدين ؛ لأنها من النجوم المنحصرة المطالع الظاهرة السَّمْت الثابتة في المكان ، فإنها تدور على القطب الثابت دورانا محصّلا ، فهي أبدا هَـدْيُ الخلق في البَرّ إذا عميت الطرق ، وفي البحر عنـد مجرى السفن ، وفي القِبْلة إذا جهل السَّمْت ، وذلك على الجملة بأن تجعل القطب على ظهر منكبك الأيسر فما استقبلت فهو سَمْت الجهة .

قلت : وسأل ابنُ عباس رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن النجم فقال : " هو الجَدْي عليـه قبلتكم و به تهتـدون في برّكم و بحركم " . وذلك أن آخر الجـدي بنات نَعْش الصغرى والقطب الذي تستوي عليه القبلة بينها .

الثالثـة – قال علماؤنا : وحكم استقبال القبلة على وجهين : أحدهما – أن يراها ويعاينها فيلزمه استقبالها و إصابتها وقصـد جهتها بجميع بدنه . والآخر – أن تكون الكعبة بحيث لا يراها فيلزمه التوجه نحوها وتلقاءها بالدلائل، وهي الشمس والقمر والنجوم والرياح وكل ما يمكن به معرفة جهتها، ومن غابت عنه وصـلّى مجتهدا إلى غير ناحيتها وهو ممن يمكنه الاجتهاد فلا صلاة له ؛ فإذا صلّى مجتهدا مستدلّا ثم انكشف له بعـد الفراغ من صلاته أنه صـلى إلى غير القبـلة أعاد إن كان في وقتها، وليس ذلك بواجب عليه ؛ لأنه قد أدّى فرضه على ما أُمر به . وقد مضى هذا المعنى في « البقرة » [1] مستوفًى والحمد لله

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٦٠ طبعة ثانية .

قوله تعالى : أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧)

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ ﴾ هو الله تعالى . ﴿ كَمَن لَا يَخْلُقُ ﴾ يريد الأصنام . ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أخبر عن الأوثان التي لا تخلق ولا تضر ولا تنفع ، كما يُخبر عمن يعقل على ما تستعمله العرب في ذلك ؛ فإنهم كانوا يعبدونها فذكرت بلفظ « مَن » كقوله : « أَلَهُم أَرْجُلٌ » . وقيل : لاقتران الضمير في الذكر بالخالق . قال الفراء : هو كقول العرب : اشتبه على الراكب وجمله فلا أدري مَن ذا ومَن ذا ؛ وإن كان أحدهما غير إنسان . قال المَهْدَوِيّ : ويسأل بـ « مَن » عن البارئ تعالى ولا يسأل عنه بـ « ما » ؛ لأن « ما » إنما يسأل بها عن الأجناس ، والله تعالى ليس بذي جنس ، ولذلك أجاب موسى عليه السلام حين قال له : « فَمَن رَبُّكُمَا يَا مُوسَى »[1] ولم يجبه حين قال له : « وَمَا رَبُّ العالمين » إلا بجواب « مَن » وأضرب عن جواب « ما » حين كان السؤال فاسدا . ومعنى الآية : من كان قادرا على خلق الأشياء المتقدمة الذكر كان بالعبادة أحق ممن هو مخلوق لا يضر ولا ينفع ؛ « هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ »[2] . « أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ »[3] .

قوله تعالى : وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩)

قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ تقدم في إبراهيم[4] . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أي ما تبطنونه وما تظهرونه . وقد تقدم جميع هذا مستوفى .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١)

---

(١) آية ٤٩ سورة طه . (٢) آية ١١ سورة لقمان . (٣) آية ٤٠ سورة فاطر .

(٤) راجع جـ ٩ ص ٣٦٧ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ قراءة العامة «تدعون» بالتاء لأن ماقبله خطاب . وروى أبو بكر عن عاصم وهُبيرة عن حفص « يدعون » بالياء ، وهى قراءة يعقوب . فأما قوله : «وما تُسِرّون وما تُعلنون» فكلهم بالتاء على الخطاب ؛ إلا ما روى هُبيرة عن حفص عن عاصم أنه قرأ بالياء . ﴿ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا ﴾ أى لا يقدرون على خلق شىء ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ . ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ أى هم أموات ، يعنى الأصنام ، لا أرواح فيها ولا تسمع ولا تبصر ، أى هى جمادات فكيف تعبدونها وأنتم أفضل منها بالحياة . ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ يعنى الأصنام . ﴿ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ وقرأ السُّلَمِىّ «إِيّان» بكسر الهمزة ، وهما لغتان ، موضعه نصب بـ«يبعثون» وهى فى معنى الاستفهام . والمعنى : لا يدرون متى يبعثون . وعبر عنها كما عبر عن الآدميين ؛ لأنهم زعموا أنها تعقل عنهم وتعلم وتشفع لهم عند الله تعالى ، بجرى خطابهم على ذلك . وقد قيل : إن الله يبعث الأصنام يوم القيامة ولها أرواح فتتبرأ من عبادتهم ، وهى فى الدنيا جماد لا تعلم متى تبعث . قال ابن عباس : تبعث الأصنام وتركب فيها الأرواح ومعها شياطينها فيتبرءون من عبدتها ، ثم يؤمر بالشياطين والمشركين إلى النار . وقيل : إن الأصنام تطرح فى النار مع عبدتها يوم القيامة ؛ دليله « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ »[1] . وقيل : تمّ الكلام عند قوله : « لا يَخلقون شيئا وهم يُخلقون » ثم ابتدأ فوصف المشركين بأنهم أموات ، وهذا الموت موت كفر . « ومايشعرون أيان يبعثون » أى وما يدرى الكفار متى يبعثون ، أى وقت البعث ؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث حتى يستعدوا للقاء الله . وقيل : أى وما يدريهم متى الساعة ، ولعلها تكون قريبا .

قوله تعالى : إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

(١) آية ٩٨ سورة الأنبياء .

قوله تعالى : ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ لما بين استحالة الإشراك بالله تعالى بين أن المعبود واحد لا رب غيره ولا معبود سواه . ﴿ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ ﴾ أى لا تقبل الوعظ ولا ينجع فيها الذكر، وهذا رد على القدرية . ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى متكبرون متعظمون عن قبول الحق . وقد تقدم فى « البقرة »(١) معنى الاستكبار . ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أى من القول والعمل فيجازيهم . قال الخليل : «لا جرم» كلمة تحقيق ولا تكون إلا جوابا؛ يقال : فعلوا ذلك؛ فيقال: لا جرم سيندمون . أى حقا أن لهم النار . وقد مضى القول فى هذا فى «هود»(٢) مستوفى . ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ أى لا يثيبهم ولا يثنى عليهم . وعن الحسين بن على أنه مر بمساكين قد قدموا كسرا بينهم وهم يأكلون فقالوا : الغذاء يا أبا عبد الله، فنزل وجلس معهم وقال « إنه لا يحب المستكبرين » فلما فرغ قال: قد أجبتكم فأجيبونى؛ فقاموا معه إلى منزله فأطعمهم وسقاهم وأعطاهم وانصرفوا . قال العلماء . وكل ذنب يمكن التستر منه وإخفاؤه إلا الكبر؛ فإنه فسق يلزمه الإعلان، وهو أصل العصيان كله. وفى الحديث الصحيح " إن المتكبرين يحشرون أمثال الذر يوم القيامة يطؤهم الناس بأقدامهم لتكبرهم" . أوكما قال صلى الله عليه وسلم : " تصغر لهم أجسامهم فى المحشر حتى يضرهم صغرها وتعظم لهم فى النار حتى يضرهم عظمها " .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ يعنى وإذا قيل لمن تقدم ذكره ممن لا يؤمن بالآخرة وقلوبهم منكرة بالبعث « ما ذا أنزل ربكم » . قيل : القائل النضر بن الحارث، وأن الآية نزلت فيه، وكان خرج إلى الحيرة فاشترى أحاديث (كليلة ودمنة) فكان يقرأ على قريش ويقول : ما يقرأ محمد على أصحابه إلا أساطير الأولين؛ أى ليس هو من تنزيل

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩٦ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٠ طبعة أولى أو ثانية .

ربنا . وقيل : إن المؤمنين هم القائلون لهم اختبارا فأجابوا بقولهم : « أساطير الأولين » فأقروا بإنكار شيء هو أساطير الأولين . والأساطير : الأباطيل والترهات . وقد تقدم في الأنعام[1]. والقول في « ماذا أنزل ربكم » كالقول في « ماذا ينفقون »[2] وقوله : ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ خبر ابتداء محذوف، التقدير : الذي أنزله أساطير الأولين .

قوله تعالى : لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥)

قوله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ ﴾ قيل : هي لام كي، وهي متعلقة بما قبلها . وقيل : لام العاقبة ؛ كقوله : « لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا » . أي قولهم في القرآن والنبي أداهم إلى أن حملوا أوزارهم ؛ أي ذنوبهم . ﴿ كَامِلَةً ﴾ لم يتركوا منها شيئا لنكبة أصابتهم في الدنيا بكفرهم . وقيل : هي لام الأمر، والمعنى التهدد . ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ قال مجاهد : يحملون وزر من أضلوه ولا ينقص من إثم المضل شيء . وفي الخبر " أيما داع دعا إلى ضلالة فاتبع فإن عليه مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيء وأيما داع دعا إلى هدى فاتبع فله مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء " خرجه مسلم بمعناه . و « من » للجنس لا للتبعيض ؛ فدعاة الضلالة عليهم مثل أوزار من اتبعهم . وقوله : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي يضلون الخلق جهلا منهم بما يلزمهم من الآثام ؛ إذ لو علموا لما أضلوا . ﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ أي بئس الوزر الذي يحملونه . ونظير هذه الآية « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ »[3] وقد تقدم في آخر « الأنعام »[4] بيان قوله : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

---

(١) راجع ج ٦ ص ٤٠٥ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ٣ ص ٣٦ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) آية ١٣ سورة العنكبوت . (٤) راجع ج ٧ ص ١٥٧ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قد مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى سبقهم بالكفر أقوام مع الرسل المتقدّمين فكانت العاقبة الجميلة للرسل . ﴿ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ قال ابن عباس وزيد بن أسلم وغيرهما : إنه النُّمْرود بن كَنْعان وقومه ، أرادوا صعود السماء وقتال أهله ؛ فبنَوا الصرح لِيصعَدوا منه بعد أن صنع بالنسور ما صنع ، فخرّ . كما تقدّم بيانه في آخر سورة « إبراهيم »[1] . ومعنى « فَأَتَى اللهُ بنيانَهم » أى أتى أمرُه البنيان ، إمّا زلزلة أو ريحا فخرّبته . قال ابن عباس ووهب : كان طول الصَّرْح في السماء خمسة آلاف ذراع ، وعرضه ثلاثة آلاف . وقال كعب ومقاتل : كان طوله فرسخين ، فهبّت ريح فألقت رأسه في البحر وخرّ عليهم الباقي . ولما سقط الصرح تبلبلت ألسن الناس من الفزع يومئذ فتكلموا بثلاثة وسبعين لسانا ، فلذلك سُمّىَ بابل ، وما كان لسان قبل ذلك إلا السُّرْيانية . وقد تقدّم هذا المعنى في « البقرة »[2] . وقرأ ابن هُرْمز وابن مُحَيْصن « السُّقُف » بضم السين والقاف جميعا . وضم مجاهد السين وأسكن القاف تخفيفا ؛ كما تقدّم في « والنجم » في الوجهين . والأشبه أن يكون جمع سقف . والقواعد : أصول البناء ، وإذا اختلت القواعد سقط البناء . وقوله : ﴿ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ قال ابن الأعرابي : وكّد ليعلمك أنهم كانوا حالّين تحته . والعرب تقول : خرّ علينا سقف ووقع علينا حائط إذا كان يملكه وإن لم يكن وقع عليه . فجاء بقوله : « من فوقهم » ليخرج هذا الشك الذى في كلام العرب فقال : « من فوقهم » أى عليهم وقع وكانوا تحته فهلكوا وما أفلتوا . وقيل : إن المراد بالسقف السماء ؛ أى إن العذاب أتاهم من السماء التى هى فوقهم ؛ قاله ابن عباس . وقيل : إن قوله : « فأتى اللهُ بنيانَهم من

---

(١) راجع ج ٩ ص ٣٨١ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ١٠ ص ٢٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

القواعد » تمثيل ؛ والمعنى : أهلكهم فكانوا بمنزلة من سقط عليه بنيانه . وقيل : المعنى أحبط الله أعمالهم فكانوا بمنزلة من سقط بنيانه . وقيل : المعنى أبطل مكرهم وتدبيرهم فهلكوا كما هلك من نزل عليه السقف من فوقه . وعلى هذا اختُلف فى الذين خرّ عليهم السقف؛ فقال ابن عباس وابن زيد ما تقدّم . وقيل : إنه بُخْتَنَصر وأصحابه؛ قاله بعض المفسرين . وقيل : المراد المقتسمون الذين ذكرهم الله فى سورة الحجر؛ قاله الكلبيّ . وعلى هذا التأويل يخرج وجه التمثيل، والله أعلم . ﴿ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أى من حيث ظنوا أنهم فى أمان . وقال ابن عباس : يعنى البعوضة التى أهلك الله بها نمرودا .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ ﴾ أى يفضحهم بالعذاب ويذلهم به ويهينهم . ﴿ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ ﴾ أى بزعمكم وفى دعواكم، أى الآلهة التى عبدتم دونى ؛ وهو سؤال توبيخ . ﴿ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ أى تعادون أنبيائى بسببهم، فليدفعوا عنكم هذا العذاب . وقرأ ابن كثير « شُرَكَايَ » بياء مفتوحة من غير همز، والباقون بالهمز . نافع « تُشَاقُّونِ » بكسر النون على الإضافة ، أى تعادوننى فيهم . وفتحها الباقون . ﴿ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ قال ابن عباس : أى الملائكة . وقيل المؤمنون . ﴿ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ ﴾ أى الهوان والذل يوم القيامة . ﴿ وَالسُّوءَ ﴾ أى العذاب . ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ۚ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ هذا من صفة الكافرين .
و «ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ» نصب على الحال؛ أى وهم ظالمون أنفسهم إذ أوردوها موارد الهلاك .
﴿ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ﴾ أى الاستسلام . أى أقروا لله بالربوبية وانقادوا عند الموت وقالوا : ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ﴾ أى من شرك . فقالت لهم الملائكة : ﴿ بَلَى ﴾ قد كنتم تعملون الأسواء .
﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وقال عكرمة : نزلت هذه الآية بالمدينة فى قوم أسلموا بمكة ولم يهاجروا ، فأخرجتهم قريش إلى بدر كرها فقتلوا بها ؛ فقال : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ بقبض أرواحهم . ﴿ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ فى مقامهم بمكة وتركهم الهجرة . ﴿ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ﴾ يعنى فى خروجهم معهم . وفيه ثلاثة أوجه : أحدها — أنه الصلح ؛ قاله الأخفش .
الثانى — الاستسلام؛ قاله قُطْرُب . الثالث — الخضوع؛ قاله مقاتل . ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ﴾ يعنى من كفر . ﴿ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعنى أن أعمالهم أعمال الكفار .
وقيل : إن بعض المسلمين لما رأوا قلة المؤمنين رجعوا إلى المشركين؛ فنزلت فيهم . وعلى القول الأول فلا يخرج كافر ولا منافق من الدنيا حتى ينقاد ويستسلم، ويخضع ويذل؛ ولا تنفعهم حينئذ توبة ولا إيمان؛ كما قال : « فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا »[١] وقد تقدم هذا المعنى . وتقدم فى « الأنفال »[٢] إن الكفار يتوفون بالضرب والهوان ، وكذلك فى « الأنعام »[٣] . وقد ذكرناه فى كتاب التذكرة .

قوله تعالى : فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ أى يقال لهم ذلك عند الموت . وقيل : هو بشارة لهم بعذاب القبر؛ إذ هو باب من أبواب جهنم للكافرين . وقيل : لا تصل أهل الدركة الثانية إليها مثلا إلا بدخول الدركة الأولى ثم الثانية ثم الثالثة هكذا . وقيل : لكل دركة

---

(١) آخر سورة غافر . (٢) راجع جـ ٨ ص ٢٨ (٣) راجع جـ ٧ ص ١٤٤ وما بعدها .

باب مفرد؛ فالبعض يدخلون من باب والبعض يدخلون من باب آخر . فالله أعلم . ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها . ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى﴾ أي مقام ﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ الذين تكبروا عن الإيمان وعن عبادة الله تعالى ، وقد بيّنهم بقوله الحق : « إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ[1] » .

قوله تعالى : وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ أي قالوا : أنزل خيرا ؛ وتم الكلام . و «ماذا» على هذا اسم واحد . وكان يَرِدُ الرجل من العرب مكة في أيام الموسم فيسأل المشركين عن محمد عليه السلام فيقولون : ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون . ويسأل المؤمنين فيقولون : أنزل الله عليه الخير والهدى ، والمراد القرآن . وقيل : إن هذا يقال لأهل الإيمان يوم القيامة . قال الثعلبي : فإن قيل : لِمَ ارتفع الجواب في قوله : «أساطيرُ الأولين» وانتصب في قوله : « خيرا » فالجواب أن المشركين لم يؤمنوا بالتنزيل ، فكأنهم قالوا : الذي يقوله محمد هو أساطير الأولين . والمؤمنون آمنوا بالنزول فقالوا : أنزل خيرا . وهذا مفهوم معناه من الإعراب ، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ قيل : هو من كلام الله عز وجل . وقيل : هو من جملة كلام الذين اتقوا . والحسنة هنا : الجنة ؛ أي من أطاع الله فله الجنة غدا . وقيل : « للذين أحسنوا » اليومَ حسنةٌ في الدنيا من النصر والفتح والغنيمة : ﴿وَلَدَارُ

(1) آية ٣٥ سورة الصافات .

الآخرة خير ﴾ أى ما ينالون فى الآخرة من ثواب الجنة خير وأعظم من دار الدنيا ، لفنائها وبقاء الآخرة . ﴿ ولنعم دار المتقين ﴾ فيه وجهان — قال الحسن : المعنى ولنعم دار المتقين الدنيا؛ لأنهم نالوا بالعمل فيها ثواب الآخرة ودخول الجنة . وقيل : المعنى ولنعم دار المتقين الآخرة؛ وهذا قول الجمهور . وعلى هذا تكون ﴿ جنات عدن ﴾ بدلا من الدار فلذلك ارتفع . وقيل : ارتفع على تقدير هى جنات، فهى مبيّنة لقوله : « دار المتقين » ، أو تكون مرفوعة بالابتداء، التقدير : جنات عدن نعم دار المتقين . ﴿ يدخلونها ﴾ فى موضع الصفة، أى مدخولة . وقيل : « جنات » رفع بالابتداء، وخبره « يدخلونها » وعليه يخرّج قول الحسن . والله أعلم . ﴿ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ تقدم معناه فى البقرة[1] . ﴿ لهم فيها ما يشاءون ﴾ أى مما تمنوه وأرادوه . ﴿ كذلك يجزى الله المتقين ﴾ أى مثل هذا الجزاء يجزى الله المتقين . ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ﴾ قرأ الأعمش وحمزة « يتوفاهم الملائكة » فى الموضعين بالياء؛ واختاره أبو عبيد ؛ لما روى عن ابن مسعود أنه قال : إن قريشا زعموا أن الملائكة إناث فذكّروهم أنتم . الباقون بالتاء ؛ لأن المراد به الجماعة من الملائكة . و﴿ طيبين ﴾ فيه ستة أقوال : الأول — « طيبين » طاهرين من الشرك . الثانى — صالحين . الثالث — زاكية أفعالهم وأقوالهم . الرابع — طيبين الأنفس ثقةً بما يلقونه من ثواب الله تعالى . الخامس — طيبة نفوسهم بالرجوع إلى الله . السادس — « طيبين » أن تكون وفاتهم طيبة سهلة لا صعوبة فيها ولا ألم ؛ بخلاف ما تقبض به روح الكافر والمخلط . والله أعلم . ﴿ يقولون سلام عليكم ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما — أن يكون السلام إنذارا لهم بالوفاة . الثانى — أن يكون تبشيرا لهم بالجنة ؛ لأن السلام أمان . وذكر ابن المبارك قال : حدّثنى حيوة قال أخبرنى أبو صخر عن محمد بن كعب القرظى قال : إذا استنقعت[2] نفس العبد المؤمن جاءه ملك الموت فقال : السلام عليك ولىّ الله، الله يقرأ عليك السلام . ثم نزع بهذه الآية « الذين

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٣٩ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) استنقع الماء : اجتمع وثبت . أى إذا اجتمعت نفس المؤمن فى فيه تريد الخروج ، كما يستنقع الماء فى قراره؛ وأراد بالنفس الروح .

ثم تأتيهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم » . وقال ابن مسعود : إذا جاء ملك الموت يقبض روح المؤمن قال : ربك يقرئك السلام . وقال مجاهد : إن المؤمن ليبشّر بصلاح ولده من بعده لتقرّ عينه . وقد أتينا على هذا فى (كتاب التذكرة) وذكرنا هناك الأخبار الواردة فى هذا المعنى ، والحمد لله . وقوله : ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما ــ أن يكون معناه أبشروا بدخول الجنة . الثانى ــ أن يقولوا ذلك لهم فى الآخرة . ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعنى فى الدنيا من الصالحات .

قوله تعالى : هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ هذا راجع إلى الكفار، أى ما ينتظرون إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم وهم ظالمون لأنفسهم . وقرأ الأعمش وابن وثّاب وحمزة والكسائىّ وخلف « يأتيهم الملائكة » بالياء . والباقون بالتاء على ما تقدّم . ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أى بالعذاب من القتل كيوم بدر ، أو الزلزلة والخسف فى الدنيا . وقيل : المراد يوم القيامة . والقوم لم ينتظروا هذه الأشياء لأنهم ما آمنوا بها ، ولكن امتناعهم عن الإيمان أوجب عليهم العذاب ، فأضيف ذلك إليهم ، أى عاقبتهم العذاب . ﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى أصرّوا على الكفر فأتاهم أمر الله فهلكوا . ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ﴾ أى بتعذيبهم وإهلاكهم ، ولكن ظلموا أنفسهم بالشرك .

قوله تعالى : فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ قيل : فيه تقديم وتأخير؛ التقدير : كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم سيئات ما عملوا، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، فأصابهم عقوبات كفرهم وجزاء الخبيث من أعمالهم . ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أى أحاط بهم ودار . ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى عقاب استهزائهم .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى شيئا، و « مِن » صلة . قال الزجاج : قالوه استهزاء، ولو قالوه عن اعتقاد لكانوا مؤمنين . وقد مضى هذا فى سورة « الأنعام » مبينا معنًى وإعرابا فلا معنى للإعادة (١) . ﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى مثل هذا التكذيب والاستهزاء فعل من كان قبلهم بالرسل فأهلكوا . ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ أى ليس عليهم إلا التبليغ، وأما الهداية فهى إلى الله تعالى .

قوله تعالى : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أى بأن اعبدوا الله ووحّدوه . ﴿ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ أى اتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم، وكل من دعا إلى الضلال . ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ ﴾ أى أرشده إلى دينه وعبادته .

(١) راجع جـ ٧ ص ١٢٨ طبعة أولى أو ثانية .

﴿ وَمِنْهُم مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ أي بالقضاء السابق عليه حتى مات على كفره، وهذا رد على القدرية؛ لأنهم زعموا أن الله هدى الناس كلهم ووفقهم للهدى، والله تعالى يقول: « فَمِنْهُم مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ » وقد تقدم هذا في غير موضع. ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي فسيروا معتبرين في الأرض. ﴿ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي كيف صار آخر أمرهم إلى الخراب والعذاب والهلاك.

قوله تعالى: إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ ﴾ أي إن تطلب يا محمد بجهدك هداهم. ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ﴾ أي لا يرشد من أضله؛ أي من سبق له من الله الضلالة لم يهده. وهذه قراءة ابن مسعود وأهل الكوفة. فـ « يَهْدِي » فعل مستقبل وماضيه هَدَى. و « مَن » في موضع نصب بـ « يهدي » ويجوز أن يكون هَدَى يَهْدِي بمعنى اهتدى يهتدي؛ رواه أبو عبيد عن الفراء قال: كما قرئ « أَمَّن لَا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَى » بمعنى يهتدي. قال أبو عبيد: ولا نعلم أحداً روى هذا غير الفراء، وليس بمتهم فيما يحكيه. النحاس: حكى لي عن محمد ابن يزيد كأن معنى « لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ » من علم ذلك منه وسبق ذلك له عنده، قال: ولا يكون يهدي بمعنى يهتدي إلا أن يكون يَهْدِّي أو يُهْدَى. وعلى قول الفراء « يَهْدِي » بمعنى يهتدي، فيكون « من » في موضع رفع، والعائد إلى « من » الهاء المحذوفة من الصلة، والعائد إلى اسم « إن » الضمير المستكن في « يُضِل ». وقرأ الباقون « لا يُهْدَى » بضم الياء وفتح الدال، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، على معنى من أضله الله لم يهده هاد؛ دليله قوله: « مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ » و « مَن » في موضع رفع على أنه اسم ما لم يسم فاعله، وهي بمعنى الذي، والعائد عليها من صلتها محذوف، والعائد على اسم إن من « فإن الله » الضمير المستكن في « يضل ». ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ تقدم معناه.

قوله تعالى : وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ هذا تعجيب من صنعهم، إذ أقسموا بالله وبالغوا فى تغليظ اليمين بأن الله لا يبعث من يموت . ووجه التعجيب أنهم يظهرون تعظيم الله فيقسمون به ثم يعجزونه عن بعث الأموات . وقال أبو العالية : كان لرجل من المسلمين على مشرك دين فتقاضاه، وكان فى بعض كلامه : والذى أرجوه بعد الموت إنه لكذا، فأقسم المشرك بالله : لايبعث الله من يموت، فنزلت الاية . وقال قتادة : ذكر لنا أن ابن عباس قال له رجل : يابن عباس، إن ناسا يزعمون أن عليا مبعوث بعد الموت قبل الساعة، ويتأولون هذه الآية . فقال ابن عباس : كذب أولئك ! إنما هذه الآية عامة للناس، لو كان علىّ مبعوثا قبل القيامة مانكحنا نساءه ولا قسمنا ميراثه . ﴿ بَلَىٰ ﴾ هذا ردّ عليهم؛ أى بلى ليبعثنهم . ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ مصدر مؤكّد؛ لأن قوله « يبعثهم » يدل على الوعد، أى وعد البعث وعدا حقا . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم مبعوثون . وفى البخارى عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم " قال الله تعالى كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى وأما شتمه إياى فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحد "(1) . وقد تقدّم، ويأتى .

قوله تعالى : لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ﴾ أى ليظهر لهم . ﴿ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ أى من أمر البعث . ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالبعث وأقسموا عليه ﴿ أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ وقيل : المعنى

(1) راجع جـ ٢ ص ٨٥ طبعة ثانية .

ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ليبين لهم الذي يختلفون فيه ، والذي اختلف فيه المشركون والمسلمون أمور : منها البعث ، ومنها عبادة الأصنام ، ومنها إقرار قوم بأن محمدا حق ولكن منعهم من اتباعه التقليد ، كأبي طالب .

قوله تعالى : إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

أعلمهم سهولة الخلق عليه ، أي إذا أردنا أن نبعث من يموت فلا تعب علينا ولا نصب في إحيائهم ، ولا في غير ذلك مما نحدثه ؛ لأنا إنما نقول له كن فيكون . قراءة ابن عامر والكسائي « فيكونَ » نصبا عطفا على أن نقول . وقال الزجاج : يجوز أن يكون نصبا على جواب « كن » . الباقون بالرفع على معنى فهو يكون . وقد مضى القول فيه في « البقرة » مستوفى[1] . وقال ابن الأنباري : أوقع لفظ الشيء على المعلوم عند الله قبل الخلق لأنه بمنزلة ما وجد وشوهد . وفي الآية دليل على أن القرآن غير مخلوق ؛ لأنه لو كان قوله : « كن » مخلوقا لاحتاج إلى قول ثان ، وللثاني إلى ثالث وتسلسل وكان محالا . وفيها دليل على أن الله سبحانه مريد لجميع الحوادث كلها خيرها وشرها نفعها وضرها ؛ والدليل على ذلك أن من يرى في سلطانه مايكرهه ولا يريده فلأحد شيئين : إما لكونه جاهلا لايدري ، وإما لكونه مغلوبا لايطيق ، ولا يجوز ذلك في وصفه سبحانه ، وقد قام الدليل على أنه خالق لأكتساب العباد ، ويستحيل أن يكون فاعلا لشيء وهو غير مريد له ؛ لأن أكثر أفعالنا يحصل على خلاف مقصودنا وإرادتنا ، فلو لم يكن الحق سبحانه مريدا لها لكانت تلك الأفعال تحصل من غير قصد ، وهذا قول الطبيعيين ، وقد أجمع الموحدون على خلافه وفساده .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٩٠ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ قد تقدّم في « النّساء » معنى الهجرة[1]، وهي ترك الأوطان والأهل والقرابة في الله أو في دين الله ، وترك السيئات . وقيل : « في » بمعنى اللام ، أي لله . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ أي عُذّبوا في الله . نزلت في صُهيب وبلال وخبّاب وعمّار ، عذبهم أهل مكة حتى قالوا لهم ما أرادوا ، فلما خلّوهم هاجروا إلى المدينة ؛ قاله الكلبيّ . وقيل : نزلت في أبي جَنْدل بن سهيل . وقال قتادة : المراد أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، ظلمهم المشركون بمكة وأخرجوهم حتى لحق طائفة منهم بالحبشة ؛ ثم بوّأهم الله تعالى دار الهجرة وجعل لهم أنصارا من المؤمنين . والآية تعم الجميع . ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ في الحسنة ستة أقوال : الأوّل — نزول المدينة ؛ قاله ابن عباس والحسن والشّعبيّ وقتادة . الثاني — الرزق الحسن ؛ قاله مجاهد . الثالث — النصر على عدوّهم ؛ قاله الضحاك . الرابع — إنه لسان صدق ؛ حكاه ابن جُريج . الخامس — ما استولوا عليه من فتوح البلاد وصار لهم فيها من الولايات . السادس — ما بقي لهم في الدنيا من الثناء ، وما صار فيها لأولادهم من الشرف . وكل ذلك اجتمع لهم بفضل الله ، والحمد لله . ﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ أي ولأجر دار الآخرة أكبر ، أي أكبر من أن يعلمه أحد قبل أن يشاهده ؛ « وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا »[2] . ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لو كان هؤلاء الظالمون يعلمون ذلك . وقيل : هو راجع إلى المؤمنين . أي لو رأوا ثواب الآخرة وعاينوه لعلموا أنه أكبر من حسنة الدنيا . وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا دفع إلى المهاجرين العطاء قال : هذا ما وعدكم الله في الدنيا وما ادّخر لكم في الآخرة أكثر ؛ ثم تلا عليهم هذه الآية .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

قيل : ﴿ الَّذِينَ ﴾ بدل من « الذين » الأوّل . وقيل : من الضمير في « لَنُبَوِّئَنَّهُمْ » وقيل : هم الذين صبروا على دينهم . ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ في كل أمورهم . وقال بعض أهل التحقيق : خيار الخلق من إذا نابه أمر صبر ، وإذا عجز عن أمر توكل ؛ قال الله تعالى : « الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » .

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٤٧ وما بعدها ، طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٢٠ سورة الإنسان .

قوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ قراءة العامة « يُوحَى » بالياء وفتح الحاء . وقرأ حفص عن عاصم « نُوحِي إليهم » بنون العظمة وكسر الحاء . نزلت فى مشركى مكة حيث أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا ، فهلا بعث إلينا ملكا ؛ فرد الله تعالى عليهم بقوله : « وما أرسلنا من قبلك » إلى الأمم الماضية يا محمد « إلا رجالا » آدميين . ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ قال سفيان : يعنى مؤمنى أهل الكتاب . ﴿ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يخبرونكم أن جميع الأنبياء كانوا بشرا . وقيل : المعنى فاسألوا أهل الكتاب فإن لم يؤمنوا فهم معترفون بأن الرسل كانوا من البشر . رُوِيَ معناه عن ابن عباس ومجاهد . وقال ابن عباس : أهل الذكر أهل القرآن . وقيل : أهل العلم ، والمعنى متقارب . ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ﴾ قيل : « بالبينات » متعلق بـ « أرسلنا » . وفى الكلام تقديم وتأخير ، أى ما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجالا — أى غير رجال ، فـ« إلا » بمعنى غير ؛ كقوله : لا إله إلا الله ؛ وهذا قول الكلبى — نوحى إليهم . وقيل : فى الكلام حذف دل عليه « أرسلنا » أى أرسلناهم بالبينات والزبر . ولا يتعلق « بالبينات » بـ « أرسلنا » الأول على هذا القول ؛ لأن ما قبل « إلا » لا يعمل فيما بعدها ، وإنما يتعلق بأرسلنا المقدرة ، أى أرسلناهم بالبينات . وقيل : مفعول بـ « تعلمون » والباء زائدة ، أو نصب بإضمار أعنى ؛ كما قال الأعشى :

وليس مُجيرا إن أتى الحىَّ خائف ❊ ولا قائلا إلا هو المتعيَّبَا

أى أعنى المتعيب . والبينات : الحجج والبراهين . والزبر : الكتب . وقد تقدم فى آل عمران .
﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ فى هذا الكتاب من الأحكام والوعد والوعيد بقولك وفعلك ؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم مبين عن الله عز وجل مراده مما أجمله فى كتابه من أحكام الصلاة والزكاة ، وغير ذلك مما لم يفصله . وقد تقدم هذا المعنى مستوفى فى مقدمة الكتاب ، والحمد لله . ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيتعظون .

قوله تعالى : أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ أى بالسيئات ، وهذا وعيد للشركين الذين احتالوا فى إبطال الإسلام . ﴿ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ ﴾ قال ابن عباس : كما خسف بقارون ، يقال : خسف المكان يخسف خسوفا ذهب فى الأرض ، وخسف الله به الأرض خسوفا أى غاب به فيها ؛ ومنه قوله : « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ »[(٢)] . وخسف هو فى الأرض وخسف به . والاستفهام بمعنى الإنكار ؛ أى يجب ألا يأمنوا عقوبة تلحقهم كما لحقت المكذبين . ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ كما فعل بقوم لوط وغيرهم . وقيل : يريد يوم بدر ؛ فإنهم أهلكوا ذلك اليوم ، ولم يكن شىء منه فى حسابهم . ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ ﴾ أى فى أسفارهم وتصرفهم ؛ قاله قتادة . ﴿ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى مسابقين الله ولا فائتيه . وقيل : « فِى تَقَلُّبِهِمْ » على فراشهم أينما كانوا . وقال الضحاك : بالليل والنهار . ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : أى على تنقص من أموالهم

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٩٦ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٨١ سورة القصص .

ومواشيهم وزروعهم . وكذا قال ابن الأعرابي : أي على تنقص من الأموال والأنفس والثمرات حتى أهلكهم كلهم . وقال الضحاك : هو من الخوف؛ المعنى : يأخذ طائفة ويدع طائفة ، فتخاف الباقية أن ينزل بها ما نزل بصاحبتها . وقال الحسن : « على تخوف » أن يأخذ القرية فتخافه القرية الأخرى ، وهـذا هو معنى القول الذى قبله بعينه ، وهما راجعان إلى المعنى الأول ، وأن التخوف التنقص ؛ تخوفـه تنقصه ، وتخوفه الدهر وتخونه (بالفاء والنون) بمعنًى؛ يقال : تخونني فلان حقّي إذا تنقصك . قال ذو الرمة :

لا ، بل هو الشوق من دار تخونها * مرًّا سحاب ومرًّا بارحٌ تَرِبُ[1]

وقال لبيـد :

* تخونها نزولي وارتحالي *

أي تنقص لحمها وشحمها . وقال الهيثم بن عدي : التخوف (بالفاء) التنقص ، لغـة لأزدشنوءة . وأنشد :

تخوف غدرهم مالي وأهـدى * سلاسل في الحلوق لها صليل[2]

وقال سـعيد بن المسيب : بينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر قال : يأيها الناس، ما تقولون في قول الله عز وجل : « أو يأخذهم على تخوف » فسكت النـاس ، فقال شيخ من بني هذيل : هي لغتنا يا أمير المؤمنين، التخوف التنقص . فخرج رجل فقال : يا فلان، ما فعل دينك؟ قال : تخوفته، أي تنقصته؛ فرجع فأخبر عمر فقال عمر : أتعرف العرب ذلك في أشـعارهم ؟ قال نعم؛ قال شاعرنا أبو كبير الهذلي[3] يصف ناقة تنقص السير سنامها بعـد تمكه واكتنازه :

تخوف الرحل منها تامكًا قردًا * كما تخـوف عود النبعة السفن[4]

---

(١) البارح : الريح الحارة في الصيف التي فيها تراب كثير . (٢) هذا عجز البيت ،وصدره كما في اللسان :

« عذافرة تقمص بالرداف »

(٣) كذا في جميع الأصول، والذى في اللسان أنه لابن مقبل وقيل لذى الرمة . (٤) القـرد : معناه هنا : المتراكم لحمه بعضه فوق بعض من السمن . والنبعة : شجرة من أشجار الجبال يتخذ منها القسيّ .

فقال عمر : يأيها الناس ، عليكم بديوانكم شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم .
تمك السنام يتمك تمكا ، أي طال وارتفع ، فهو تامك . والسفن والمسفن ما يجرد به الخشب .
وقال الليث بن سعد : « على تخوف » على عجل . وقيل : على تقريع بما قدموه من ذنوبهم ؛
وهذا مروى عن ابن عباس أيضا . وقال قتادة : « على تخوف » أن يعاقب أو يتجاوز .
﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ أي لا يعاجل بل يمهل .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

قرأ حمزة والكسائي وخلف ويحيى والأعمش ﴿ تروا ﴾ بالتاء ، على أن الخطاب لجميع الناس . الباقون بالياء خبرا عن الذين يمكرون السيئات ؛ وهو الاختيار . ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ يعني من جسم قائم له ظل من شجرة أو جبل ؛ قاله ابن عباس . وإن كانت الأشياء كلها سميعة مطيعة لله تعالى . ﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب وغيرهما بالتاء لتأنيث الظلال . الباقون بالياء ، واختاره أبو عبيد . أي يميل من جانب إلى جانب ، ويكون أول النهار على حال ويتقلص ثم يعود في آخر النهار على حالة أخرى ؛ فدورانها وميلانها من موضع إلى موضع سجودها ؛ ومنه قيل للظل بالعشي : فيء ؛ لأنه فاء من المغرب إلى المشرق ، أي رجع . والفيء الرجوع ؛ ومنه « حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ »[1] . روى معنى هذا القول عن الضحاك وقتادة وغيرهما ، وقد مضى هذا المعنى في سورة « الرعد »[2] . وقال الزجاج : يعني سجود الجسم ، وسجوده انقياده وما يرى فيه من أثر الصنعة ، وهذا عام في كل جسم . ومعنى ﴿ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أي خاضعون صاغرون . والدخور : الصغار والذل . يقال : دخر الرجل (بالفتح) فهو داخر ، وأدخره الله . وقال ذو الرمة :

فلم يبق إلا داخر في مخيس ❊ ومنجحر[3] في غير أرضك في جحر

(١) آية ٩ سورة الحجرات . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٨٣ طبعة أولى أو ثانية . (٣) كذا في كتب اللغة . يقال : انجحر الضب اذا دخل الجحر . والذي في الأصول وديوان ذي الرمة : « منجحر في غير أرضك في جحر » بتقديم الحاء على الجيم في الكلمتين .

كذا نسبه الماوردى لذى الرمة، ونسبه الجوهرى للفرزدق وقال : المخيس اسم سجن كان بالعراق؛ أى موضع التذلل . وقال[1] :

أما ترانى كيسا مكيسا ۞ بنيت بعد نافع مخيسا

ووحد اليمين فى قوله : «عن اليمين» وجمع الشمائل؛ لأن معنى اليمين وإن كان واحدا الجمع . ولو قال : عن الأيمان والشمائل، واليمين والشمائل، أو اليمين والشمال، أو الأيمان والشمال لجاز؛ لأن المعنى للكثرة . وأيضا فمن شأن العرب إذا اجتمعت علامتان فى شىء واحد أن تجمع إحداهما وتفرد الأخرى؛ كقوله تعالى : « خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ » وكقوله : « وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » ولو قال على أسماعهم وإلى الأنوار لجاز . ويجوز أن يكون رد اليمين على لفظ «ما» والشمال على معناها . ومثل هذا فى الكلام كثير . قال الشاعر :

الواردون وتيم فى ذرا سبأ ۞ قد عض أعناقهم جلد الجواميس[2]

ولم يقل جلود . وقيل : وحد اليمين لأن الشمس إذا طلعت وأنت متوجه إلى القبلة انبسط الظل عن اليمين ثم فى حال يميل إلى جهة الشمال ثم حالات[3]؛ فسماها شمائل .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ ﴾ أى من كل ما يدب على الأرض . ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ يعنى الملائكة الذين فى الأرض، وإنما أفردهم بالذكر لاختصاصهم

(١) القائل هو سيدنا على رضى الله عنه . ونافع : سجن بالكوفة كان غير مستوثق البناء وكان من قصب، وكان المحبوسون يهربون منه . وقيل : إنه نقب وأفلت منه المحبسون؛ فهدمه على رضى الله عنه وبنى المخيس لهم من مدر .

(٢) البيت لجرير . ورواية ديوانه : تدعوك تيم وتيم فى قرى سبأ ۞ ... ... الخ

(٣) هكذا وردت هذه الجملة فى الأصول . ولعل صوابها : لأن الشمس إذا طلعت وأنت متوجه إلى القبلة انبسط الظل عن اليمين فى حال، ثم يميل إلى جهة الشمال فى حالات؛ فسماها شمائل .

والذى فى البحر لأبى حيان : « وقيل : وحد اليمين وجمع الشمائل لأن الابتداء عن اليمين، ثم ينقبض شيئا فشيئا حالا بعد حال؛ فهو بمعنى الجمع، فصدق على كل حال لفظة الشمال فتعدد بتعدد الحالات » .

بشرف المنزلة ، فميزهم من صفة الدبيب بالذكر وإن دخلوا فيها ؛ كقوله : « فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ »[1] . وقيل : لخروجهم من جملة ما يدب لما جعل الله لهم من الأجنحة ، فلم يدخلوا في الجملة فلذلك ذكروا . وقيل : أراد « ولله يسجد ما في السموات » من الملائكة والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب، « وما في الأرض من دابة » وتسجد ملائكة الأرض . ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن عبادة ربهم . وهذا رد على قريش حيث زعموا أن الملائكة بنات الله . ومعنى ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ أي عقاب ربهم وعذابه ، لأن العذاب المهلك إنما ينزل من السماء . وقيل : المعنى يخافون قدرة ربهم التي هي فوق قدرتهم؛ ففي الكلام حذف . وقيل : معنى « يخافون ربهم من فوقهم » يعني الملائكة ، يخافون ربهم وهي من فوق ما في الأرض من دابة ومع ذلك يخافون ؛ فلأن يخاف من دونهم أولى؛ دليل هذا القول قوله تعالى : ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ يعني الملائكة .

قوله تعالى : وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ قيل : المعنى لا تتخذوا اثنين إلهين . وقيل : جاء قوله « اثنين » توكيدا . ولما كان الإله الحق لا يتعدد وأن كل من يتعدد فليس بإله ، اقتصر على ذكر الاثنين؛ لأنه قصد نفي التعديد . ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ يعني ذاته المقدسة . وقد قام الدليل العقلي والشرعي على وحدانيته حسبما تقدم في « البقرة »[2] بيانه وذكرناه في اسمه الواحد في شرح الأسماء ، والحمد لله . ﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ أي خافون . وقد تقدم في « البقرة »[3] .

قوله تعالى : وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾

---

(١) آية ٦٨ سورة الرحمن . (٢) راجع ج ٢ ص ١٩٠ وما بعدها طبعة ثانية .
(٣) راجع ج ١ ص ٣٣٢ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ﴾ الدين : الطاعة والإخلاص. و « وَاصِبًا » معناه دائما ؛ قاله الفراء، حكاه الجوهري . وَصَبَ الشيء يَصِب وُصوبا ، أي دام . ووَصَب الرجل على الأمر إذا واظب عليه . والمعنى : طاعة الله واجبة أبدا . وممن قال واصبا دائما : الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك . ومنه قوله تعالى: « وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ »[(١)] أي دائم . وقال الدؤلي :

لا أبتغى الحمد القليل بقاؤه * يذم يكون الدهر أجمع واصبا

أنشد الغزنوى والثعلبي وغيرهما :

ما أبتغى الحمد القليلَ بقاؤه * يوما بذم الدهر أجمع واصبا

وقيل : الوَصَب التعب والإعياء؛ أي تجب طاعة الله وإن تعب العبد فيها . ومنه قول الشاعر :

لا يُمسك الساقَ من أين ولا وَصَب * ولا يَعَضّ على شُرْسُوفِهِ الصفر[(٢)]

وقال ابن عباس : « واصبا » واجبا . الفراء والكلبي : خالصا . ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ أي لا ينبغي أن تتقوا غير الله . فـ « غير » نصب بـ « تتقون » .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝٥٤ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٥٥ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ قال الفراء . « ما » بمعنى الجزاء . والباء فى « بكم » متعلقة بفعل مضمر، تقديره : وما يكن بكم . ﴿ مِّن نِّعْمَةٍ ﴾ أى صحة جسم وسعة رزق وولد فمن الله . وقيل : المعنى وما بكم من نعمة فمن الله هي . ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ ﴾

---

(١) آية ٩ سورة الصافات. (٢) الشعر لأعشى باهلة. والشطر الأول من بيت، والثانى من بيت آخر. والبيتان :

لا يتأرى لما فى القدر يرقبه * ولا يعض على شرسوفه الصفر

لا يغمز الساق من أين ولا نصب * ولا يزال أمام القوم يقتفر

تأرى بالمكان : أقام به . والشرسوف : غضروف معلق بكل ضلع مثل غضروف الكتف . والصفر (بالتحريك) : داء فى البطن يصفر منه الوجه . وقيل : الصفر هنا الجوع . واقتفر الأثر : تتبعه .

أى السقم والبلاء والقحط . ﴿ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ أى تضجون بالدعاء . يقال : جأر يجأر جؤارا . والجؤار مثل الخوار ؛ يقال : جأر الثور يجأر ، أى صاح . وقرأ بعضهم «عِجْلًا جَسَدًا لَهُ جُؤَارٌ» حكاه الأخفش . وجأر الرجل إلى الله ، أى تضرع بالدعاء . وقال الأعشى يصف بقرة [1] :

فطافت ثلاثا بين يوم وليلة * وكان النكير أن تُضيف وتجأرا [2]

﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ ﴾ أى البلاء والسقم . ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ بعد إزالة البلاء وبعد الجؤار . فمعنى الكلام التعجيب من الإشراك بعد النجاة من الهلاك ، وهذا المعنى مكرر فى القرآن ، وقد تقدم فى « الأنعام و يونس » [3] ، و يأتى فى « سبحان » وغيرها . وقال الزجاج : هذا خاص بمن كفر . ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ أى ليجحدوا نعمة الله التى أنعم بها عليهم من كشف الضر والبلاء . أى أشركوا ليجحدوا ، فاللام لام كى . وقيل لام العاقبة . وقيل : « لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ » أى ليجعلوا النعمة سببا للكفر ، وكل هذا فعل خبيث ؛ كما قال :

* والكفرُ مَخْبثةٌ لنفس المُنعِم [4] *

﴿ فَتَمَتَّعُوا ﴾ أمر تهديد . وقرأ عبدالله « قل تمتعوا » . ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أى عاقبة أمركم .

قوله تعالى : وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ ذكر نوعا آخر من جهالتهم ، وأنهم يجعلون لما لا يعلمون أنه يضر وينفع — وهى الأصنام — شيئا من أموالهم يتقربون به إليه ؛ قاله مجاهد وقتادة وغيرهما . فـ « يعلمون » على هذا للمشركين . وقيل هى

---

(١) كذا فى الأصول . والذى فى اللسان مادة « ضيف » وكتاب سيبويه ج ٢ ص ١٧٤ أنه النابغة الجعدى .

(٢) فى الأصول : « تطيف » بالطاء . والتصويب عن اللسان وكتاب سيبويه . وتضيف : تشفق وتحذر والنكير : الإنكار . والجؤار : الصياح . والمعنى : أن هذه البقرة فقدت ولدها فطافت تطلبه ثلاث ليال وأياما ، ولا إنكار عندها ولا انتصار مما عدا على ولدها إلا أن تشفق وتحذر وتصيح . (٣) راجع ج ٧ ص ٨ و ج ٨ ص ٣١٧ طبعة أولى وثانية . (٤) هذا عجز بيت من معلقة عنترة ، وصدره :

* نبئت عمرا غير شاكر نعمتى *

للأوثان ، وجرى بالواو والنون مجرى من يعقل ، فهو رد على « ما » ومفعول يعلم محذوف ، والتقدير : ويجعل هؤلاء الكفار للأصنام التى لا تعلم شيئا نصيبا . وقد مضى فى « الأنعام » تفسير هذا المعنى فى قوله : « فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا »[1] ثم رجع من الخبر إلى الخطاب فقال : ﴿ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ ﴾ وهذا سؤال توبيخ . ﴿ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ أى تختلقونه من الكذب على الله أنه أمركم بهذا .

قوله تعالى : وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ ﴾ نزلت فى خزاعة وكنانة ؛ فإنهم زعموا أن الملائكة بنات الله ، فكانوا يقولون ألحقوا البنات بالبنات . ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ نزه نفسه وعظمها عما نسبوه إليه من اتخاذ الأولاد . ﴿ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ أى يجعلون لأنفسهم البنين ويأنفون من البنات . وموضع « ما » رفع بالابتداء ، والخبر « لهم » وتم الكلام عند قوله : « سبحانه » . وأجاز الفراء كونها نصبا ، على تقدير : ويجعلون لهم ما يشتهون . وأنكره الزجاج وقال : العرب تستعمل فى مثل هذا ويجعلون لأنفسهم .

قوله تعالى : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ﴾ أى أخبر أحدهم بولادة بنت . ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ أى متغيرا ، وليس يريد السواد الذى هو ضد البياض ، وإنما هو كناية عن غمه بالبنت . والعرب تقول لكل من لقى مكروها : قد اسود وجهه غما وحزنا ؛ قاله الزجاج . وحكى الماوردى أن المراد سواد اللون قال : وهو قول الجمهور . ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أى ممتلىء من الغم . وقال ابن عباس : حزين . وقال الأخفش : هو الذى يكظم غيظه فلا يظهره . وقيل : إنه المغموم الذى يطبق فاه فلا يتكلم من الغم ؛ مأخوذ من الكظامة وهو شد فم القربة ؛ قاله على بن عيسى . وقد تقدم هذا المعنى فى سورة « يوسف »[2] .

(١) راجع جـ ٧ ص ٨٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٤٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ ﴾ أي يختفي ويتغيب . ﴿ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ﴾ أي من سوء الحزن والعار والحياء الذي يلحقه بسبب البنت . ﴿ أَيُمْسِكُهُ ﴾ ذكّر الكناية لأنه مردود على « ما » . ﴿ عَلَى هُونٍ ﴾ أي هوان . وكذا قرأ عيسى الثقفي « على هَوان » والهُون الهوان بلغة قريش ؛ قاله اليزيدي وحكاه أبو عبيد عن الكسائي . وقال الفراء : هو القليل بلغة تميم . وقال الكسائي : هو البلاء والمشقة . وقالت الخنساء :

نُهين النفوسَ وهُونُ النفو ... س يوم الكريهة أبقى لها

وقرأ الأعمش « أيمسكه على سوء » ذكره النحاس ، قال : وقرأ الجحدري « أم يدسها في التراب » يرده على قوله : « بالأنثى » ويلزمه أن يقرأ « أيمسكها » . وقيل : يرجع الهوان إلى البنت ؛ أي أيمسكها وهي مهانة عنده . وقيل : يرجع إلى المولود له ؛ أيمسكه على رغم أنفه أم يدسه في التراب ، وهو ما كانوا يفعلونه من دفن البنت حية . قال قتادة : كان مُضَر وخُزاعة يدفنون البنات أحياء ؛ وأشدهم في هذا تميم . زعموا خوف القهر عليهم وطمع غير الأكفاء فيهن . وكان صَعْصَعة بن ناجية عمّ الفرزدق إذا أحس بشيء من ذلك وجه إلى والد البنت إبلا يستحييها بذلك . فقال الفرزدق يفتخر :

وعمّي الذي منع الوائدات ... وأحيا الوئيد فلم يُوأَدِ

وقيل : دسّها إخفاؤها عن الناس حتى لا تُعرف ، كالمدسوس في التراب لإخفائه عن الأبصار ؛ وهذا محتمل .

مسألة — ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : جاءتني امرأة ومعها ابنتان لها ، فسألتني فلم تجد عندي غير تمرة واحدة ، فأعطيتها إياها فأخذتها فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئا ، ثم قامت فخرجت وابنتاها ، فدخل عليّ النبي صلى الله عليه وسلم فحدثته

حديثها، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من ابتُلي من البنات بشيء فأحسن إليهن كن له سترا من النار". ففي هذا الحديث ما يدل على أن البنات بلية، ثم أخبر أن في الصبر عليهن والإحسان إليهن ما يقي من النار . وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لهـا، فأطعمتها ثلاث تمـرات فأعطت كل واحدة منهما تمـرة ، ورفعت إلى فيهـا تمرة لتأكلها فاستطعمتها ابنتـاها فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما ؛ فأعجبني شأنها، فذكرتُ الذي صنعتْ لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقالَ : " إن الله عز وجل قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها بها من النار". وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو" وضم أصابعه؛ خرّجهما أيضا مسلم رحمـه الله ! وخرج أبو نعيم الحـافظ من حديث الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كانت له بنت فأدّبها فأحسن أدبها وعلّمها فأحسن تعليمها وأسبغ عليها من نعم الله التي أسبغ عليه كانت له سترا أو حجابا من النار" . وخُطب إلى عَقيل بن عُلّفة ابنته الجرباء فقال :

إني وإن سيق إليّ المهـرُ ٭ ألفٌ وعُبدان وخُـورٌ عشرُ (١)

٭ أحبّ أصهاري إليّ القبر ٭

وقال عبد الله بن طاهر :

لكل أبي بنت يراعي شؤونها ٭ ثلاثةُ أصهار إذا حُمـد الصِّهرُ

فبعلٌ يُراعيها وخِدرٌ يُكنُّها ٭ وقـبرٌ يُواريها وخيرُهم القـبرُ

﴿ألا ساءَ ما يحكُمونَ﴾ أي في إضافة البنات إلى خالقهم وإضافة البنين إليهـم . نظيره ﴿ألكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى . تِلكَ إذاً قِسمَةٌ ضِيزَى﴾ (٢) أي جائرة، وسيأتي .

---

(١) الخور : جمع خوّارة على غير قياس، وهي الناقة الغزيرة اللبن . (٢) آية ٢١ سورة النجم .

قوله تعالى : لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أى لهؤلاء الواصفين لله البنات ﴿ مَثَلُ السَّوْءِ ﴾ أى صفة السوء من الجهل والكفر . وقيل : هو وصفُهم الله تعالى بالصاحبة والولد . وقيل : أى العذاب والنار . ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ﴾ أى الوصف الأعلى من الإخلاص والتوحيد؛ قاله قتادة . وقيل : أى الصفة العليا بأنه خالق رازق قادر ومجاز . وقال ابن عباس : «مثل السوء» النار ، و «المثل الأعلى» شهادة أن لا إله إلا الله . وقيل : ليس كمثله شيء . وقيل : « ولله المثل الأعلى » كقوله : « الله نور السموات والأرض مثل نوره »[1] . فإن قيل : كيف أضاف المثل هنا إلى نفسه وقد قال : «فلا تضربوا لله الأمثال»[2] فالجواب أن قوله : «فلا تضربوا لله الأمثال » أى الأمثال التى توجب الأشباه والنقائص ؛ أى لا تضربوا لله مثلا يقتضى نقصا وتشبيها بالخلق . والمثل الأعلى وصفه بما لا شبيه له ولا نظير ، جلّ وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرا[3] . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تقدم معناه .

قوله تعالى : وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم ﴾ أى بكفرهم وافترائهم ، وعاجلهم . ﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا ﴾ أى على الأرض ، فهو كناية عن غير مذكور ، لكن دل عليه قوله : ﴿ مِن دَابَّةٍ ﴾ فإن الدابة لا تدبّ إلا على الأرض . والمعنى المراد من دابة كافرة ، فهو خاص . وقيل : المعنى أنه لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء . وقيل : المراد بالآية العموم ؛ أى لو آخذ الله الخلق بما كسبوا ما ترك على

(١) آية ٣٥ سورة النور . (٢) آية ٧٤ من هذه السورة . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ وجـ ٢ ص ١٣١ طبعة ثانية .

ظهر هذه الأرض من دابة من نبي ولا غيره؛ وهذا قول الحسن. وقال ابن مسعود وقرأ هذه الآية: لو آخذ الله الخلائق بذنوب المذنبين لأصاب العذابُ جميع الخلق حتى الجِعْلان[1] في جُحْرها، ولأمسك الأمطار من السماء والنبات من الأرض فمات الدواب، ولكن الله يأخذ بالعفو والفضل؛ كما قال: «وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ»[2]. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي أجل موتهم ومنتهى أعمارهم. ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[3] وقد تقدم. فإن قيل: فكيف يعم بالهلاك مع أن فيهم مؤمنا ليس بظالم؟ قيل: يجعل هلاك الظالم انتقاما وجزاء، وهلاك المؤمن معوَّضا بثواب الآخرة. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا أراد الله بقوم عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ثم بُعثوا على نياتهم"[4].

وعن أم سلمة وسئلت عن الجيش الذي يخسف به وكان ذلك في أيام ابن الزبير، فقالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يعوذ بالبيت عائذ فيُبعث إليه بعث فإذا كانوا ببيداء من الأرض خُسف بهم" فقلت: يا رسول الله، فكيف بمن كان كارها؟ قال: "يخسف به معهم ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته". وقد أتينا على هذا المعنى مجوَّدا في (كتاب التذكرة) وتقدم في «المائدة» وآخر «الأنعام»[5] ما فيه كفاية، والحمد لله. وقيل: «فإذا جاء أجلهم» أي فإذا جاء يوم القيامة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أي من البنات. ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ أي وتقول ألسنتهم الكذب. ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ قال مجاهد: هو قولهم أن لهم البنين ولله البنات. «الكذبَ» مفعول «تصف» و«أنّ» في محل نصب بدل من الكذب؛ لأنه

---

(1) الجعلان (بكسر الجيم جمع جعل، كصرد): دابة سوداء من دواب الأرض. (2) آية ٣٠ سورة الشورى. (3) راجع ج ٧ ص ٢٠٢ طبعة أولى أو ثانية. (4) في صحيح مسلم: «على أعمالهم». (5) راجع ج ٦ ص ٣٤٢ و ج ٧ ص ١٢٧ طبعة أولى أو ثانية.

بيان له . وقيل : « الحسنى » الجزاء الحسن؛ قاله الزجاج . وقرأ ابن عباس وأبو العالية ومجاهد وابن مُحَيْصن « الكُذُبُ » برفع الكاف والذال والباء نعتا للألسنة؛ وكذا « ولا تقولوا لِما تَصِف ألسنتكم الكُذُب »[1]. والكُذُب جمع كذوب؛ مثل رَسُول ورُسُل وصَبُور وصبر وشَكُور وشُكُر . ﴿ لَا ﴾ ردّ لقولهم، وتمّ الكلام؛ أي ليس كما تزعمون . ﴿ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ ﴾ أي حقا أن لهم النار . وقد تقدّم مستوفًى[2] . ﴿ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ ﴾ متركون منسيون في النار؛ قاله ابن الأعرابيّ وأبو عبيدة والكسائيّ والفراء، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد . وقال ابن عباس وسعيد بن جبير أيضا : مبعدون . قتادة والحسن : معجلون إلى النار مقدمون إليها . والفارط : الذى يتقدم إلى الماء؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أنا فَرَطُكم على الحوض" أي متقدّمكم . وقال القَطَاميّ :

فاستعجلونا وكانوا من صحابتنا . كما تعجّل فُرّاط لوُرّاد

والفرّاط : المتقدّمون في طلب الماء . والورّاد : المتأخرون . وقرأ نافع في رواية ورْش « مُفْرِطون » بكسر الراء وتخفيفها ، وهي قراءة عبد الله بن مسعود وابن عباس ، ومعناه مسرفون في الذنوب والمعصية ، أي أفرطوا فيها . يقال : أفرط فلان على فلان إذا أربى عليه، وقال له أكثر مما قال من الشر . وقرأ أبو جعفر القارئ « مُفَرِّطون » بكسر الراء وتشديدها، أي مضيّعون أمر الله؛ فهو من التفريط في الواجب .

قوله تعالى : تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي أعمالهم الخبيثة . هذا تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأن من تقدّمه من الأنبياء قد كفر بهم قومهم . ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ ﴾ أي ناصرهم في الدنيا على زعمهم . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

---

(١) آية ١١٦ من هذه السورة . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٠ طبعة أولى أو ثانية .

في الآخرة . وقيل : « فهو وليهم » أى قرينهم في النار . ﴿ الْيَوْمَ ﴾ يعنى يوم القيامة، وأطلق عليه اسم اليوم لشهرته . وقيل يقال لهم يوم القيامة : هذا وليكم فاستنصروا به لينجيكم من العذاب، على جهة التوبيخ لهم .

قوله تعالى : وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ أى القرآن ﴿ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ من الدين والأحكام فتقوم الحجة عليهم ببيانك . وعطف « هُدًى ورحمةً » على موضع قوله : « لِتُبَيِّنَ » لأن محله نصب . ومجاز الكلام : وما أنزلنا عليك الكتاب إلا تبيانا للناس . ﴿ وَهُدًى ﴾ أى رشدا ورحمة للؤمنين .

قوله تعالى : وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى السحاب . ﴿ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ عاد الكلامُ إلى تعداد النعم وبيان كمال القدرة . ﴿ إن فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أى دلالة على البعث وعلى وحدانيته ؛ إذ علموا أن معبودهم لا يستطيع شيئا ، فتكون هذه الدلالة . ﴿ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ عن الله تعالى بالقلوب لا بالآذان؛ « فإنها لا تَعْمَى الأبصارُ ولكن تَعْمَى القلوبُ التى فى الصدور »[1] .

قوله تعالى : وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾

---

(١) آية ٤٦ سورة الحج .

فيـه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ﴾ قد تقدّم القول فى الأنعـام[1]، وهى هنا الأصناف الأربعة : الإبل والبقر والضأن والمعز . ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ أى دلالة على قدرة الله ووحدانيته وعظمته . والعبرة أصلها تمثيل الشيء بالشيء لتعرف حقيقته من طريق المشاكلة، ومنه « فَٱعْتَبِرُوا »[2] . وقال أبو بكر الورّاق : العبرة فى الأنعام تسخيرها لأربابها وطاعتها لهم، وتمرّدك على ربك وخلافك له فى كل شيء . ومن أعظم العبر بريء يحمل مذنبا .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ نُّسْقِيكُم ﴾ قراءة أهل المدينة وابن عامر وعاصم فى رواية أبى بكر (بفتح النون) من سَقَى يَسْقِى . وقرأ البـاقون وحفص عن عاصم (بضم النون) من أسقى يُسقى، وهى قراءة الكوفيين وأهل مكة . قيل : هما لغتان . وقال لَبِيد :

سَقَى قومِى بنى مَجْـد وأسقى ۞ نُميراً والقبائلَ من هِـــلالِ

وقيل : يقال لمـا كان من يدك إلى فيه سقيته، فإذا جعلت له شِرْباً أو عرضته لأن يشرب بفيه أو يزرعه قلت أسقيته؛ قاله ابن عَزِيز[3]، وقد تقدّم . وقرأت فرقة « تسقيكم » بالتاء، وهى ضعيفة، يعنى الأنعام . وقرئ بالياء، أى يسقيكم الله عز وجل . والقراء على القراءتين المتقدّمتين؛ ففتح النون لغة قريش وضمها لغة حِمير .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ ﴾ اختلف الناس فى الضمير من قوله : « مما فى بطونه » على ماذا يعود . فقيل : هو عائد إلى ماقبله وهو جمـع المؤنث . قال سيبويه : العرب تخبر عن الأنعام بخبر الواحد . قال ابن العربى : وما أراه عوّل عليـه إلا من هــذه الآية، وهذا لايشبه منصبه ولا يليق بإدراكه . وقيل: لمـا كان لفظ الجمع وهو اسم الجنس يذكر و يؤنث فيقال : هو الأنعام وهى الأنعام ، جاز عود الضمير بالتذكير؛ وقاله الزجاج .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١١١ طبعة أولى أو ثانية . (٢) من آية ٢ سورة الحشر .

(٣) راجع جـ ١ ص ٤١٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

وقال الكسائي : معناه مما في بطون ما ذكرناه ، فهو على هذا عائد على المذكور ، قال الله تعالى :
« إنها تذكرة . فمن شاء ذكره »[1] وقال الشاعر :

« مثل الفراخ نُتِفت حواصلُهْ »

ومثله كثير . وقال الكسائي : « مما في بطونه » أي مما في بطون بعضه ، إذ الذكور لا ألبان لها ، وهو الذي عوّل عليه أبو عبيدة . وقال الفراء : الأنعام والنَّعَم واحد ، والنَّعَم يذكر ، ولهذا تقول العرب : هذا نَعَم وارد ، فرجع الضمير إلى لفظ النَّعَم الذي هو بمعنى الأنعام . قال ابن العربي : إنما رجع التذكير إلى معنى الجمع ، والتأنيث إلى معنى الجماعة ، فذكّره هنا باعتبار لفظ الجمع ، وأنّثه في سورة المؤمنين باعتبار لفظ الجماعة فقال : « نُسقيكم مما في بطونها »[2] وبهذا التأويل ينتظم المعنى انتظاما حسنا . والتأنيث باعتبار لفظ الجماعة والتذكير باعتبار لفظ الجمع أكثر من رَمْل يَبْرِين وتَيْهاء فِلَسْطين[3] .

الرابعــة — استنبط بعض العلماء الجلة وهو القاضي إسماعيل من عود هذا الضمير ، أن لبن الفحل يفيد التحريم ، وقال : إنما جيء به مذكّرا لأنه راجع إلى ذكر النَّعَم ، لأن اللبن للذكر محسوب ، ولذلك قضى النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن لبن الفحل يحرّم حين أنكرته عائشة في حديث أفلح أخي أبي القُعَيس « فللمرأة السَّقي وللرجل اللقاح » فجرى الاشتراك فيه بينهما . وقد مضى القول في تحريم لبن الفحل في « النساء »[4] والحمد لله .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا ﴾ نبّه سبحانه على عظيم قدرته بخروج اللبن خالصا بين الفَرْث والدم . والفَرْثُ : الزِّبل الذي ينزل إلى الكَرِش ، فإذا خرج لم يسمّ فرثا . يقال : أفرثت الكَرِش إذا أخرجت ما فيها . والمعنى : أن الطعام يكون منه ما في الكَرِش ويكون منه الدم ، ثم يخلص اللبن من الدم ؛ فأعلم الله سبحانه أن هذا اللبن يخرج من بين ذلك وبين الدم في العروق . وقال ابن عباس : إن الدابة تأكل العلف

---

(1) آية ١١ ، ١٢ سورة عبس . (2) آية ٢١ سورة المؤمنون . (3) رمل لا تدرك أطرافه . [illegible] من تيه الجماعة . (ياقوت) . (4) راجع جـ ٥ ص ١١١ طبعة أولى أو ثانية .

فإذا استقر في كَرِشها طبخته فكان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما ، والكبد مسلّط على هذه الأصناف فتقسم الدم وتميّزه وتُجريه في العروق ، وتجري اللبن في الضرع ويبقى الفرث كما هو في الكَرِش ؛ « حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ »[1] . ﴿ خَالِصًا ﴾ يريد من حمرة الدم وقذارة الفرث وقد جمعهما وعاء واحد . وقال ابن بحر : خالصا بياضه . قال النابغة :

* بخالصة الأردان خُضْرِ المناكب[2] *

أي بيض الأكمام . وهذه قدرة لاتنبغي إلا للقائم على كل شئ بالمصلحة .

السادسة — قال النقاش : في هذا دليل على أن المَنِيّ ليس بنجس . وقاله أيضا غيره واحتج بأن قال : كما يخرج اللبن من بين الفرث والدم سائغا خالصا كذلك يجوز أن يخرج المني على مخرج البول طاهرا . قال ابن العربي : إن هذا لجهل عظيم وأخذ شنيع ؛ اللبن جاء الخبر عنه مجيء النعمة والمنة الصادرة عن القدرة ليكون عبرة ؛ فاقتضى ذلك كله وصف الخلوص واللذة ؛ وليس المنِيّ من هذه الحالة حتى يكون ملحقا به أو مقيسا عليه .

قلت : قد يعارَض هذا بأن يقال : وأيّ منّة أعظم وأرفع من خروج المني الذي يكون عنه الإنسان المكرم ؛ وقد قال تعالى : « يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ »[3] ، وقال : « وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً »[4] وهذا غاية في الامتنان .

فإن قيل : إنه يتنجس بخروجه في مجرى البول ، قلنا : هو ما أردناه ، فالنجاسة عارضة وأصله طاهر ؛ وقد قيل : إن مَخْرَجه غير مخرج البول وخاصّةً المرأة ؛ فإن مَدخل الذكر منها ومخرج الولد غيرُ مخرج البول على ما قاله العلماء . وقد تقدّم في البقرة . فإن قيل : أصله دم فهو نجس ، قلنا ينتقض بالمسك ، فإن أصله دم وهو طاهر . وممن قال بطهارته الشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور وغيرهم ؛ لحديث عائشة رضي الله عنها قالت : كنت أفركه من ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم يابسا بظفري . قال الشافعيّ : فإن لم يُفْرَك فلا بأس به . وكان سعد

(١) آية ٥ سورة القمر . (٢) الأردان : جمع ردن (بضم الراء وسكون الدال) وهو أصل الكم .

(٣) آية ٧ سورة الطارق . (٤) آية ٧٢ من هذه السورة .

ابن أبى وقاص يفرك المنىّ من ثوبه . وقال ابن عباس : هو كالنخامة أمطه عنك بإذخرة وامسحه بخرقة . فإن قيل : فقد ثبت عن عائشة أنها قالت : كنت أغسل المنىّ من ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يخرج إلى الصلاة فى ذلك الثوب وأنا أنظر إلى أثر الغسل فيه . قلنا : يحتمل أن تكون غسلته استقذارا كالأشياء التى تزال من الثوب كالنجاسة، ويكون هذا جمعا بين الأحاديث . والله أعلم . وقال مالك وأصحابه والأوزاعىّ : هو نجس . قال مالك : غسل الاحتلام من الثوب أمر واجب مجتمع عليه عندنا، وهو قول الكوفيين . ويروى عن عمر بن الخطاب وابن مسعود وجابر بن سمرة أنهم غسلوه من ثيابهم . واختلف فيه عن ابن عمر وعائشة . وعلى هذين القولين فى نجاسة المنى وطهارته التابعون .

السابعة ـ فى هذه الآية دليل على جواز الانتفاع بالألبان من الشرب وغيره ، فأما لبن الميتة فلا يجوز الانتفاع به ، لأنه مائع طاهر حصل فى وعاء نجس، وذلك أن ضرع الميتة نجس واللبن طاهر فإذا حلب صار مأخوذا من وعاء نجس . فأما لبن المرأة الميتة فاختلف أصحابنا فيه ، فمن قال : إن الإنسان طاهر حيا وميتا فهو طاهر . ومن قال : ينجس بالموت فهو نجس . وعلى القولين جميعا تثبت الحرمة ؛ لأن الصبى قد يغتذى به كما يغتذى من الحية ؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الرضاع ما أنبت اللحم وأنشز العظم " . ولم يخص؛ وقد مضى فى « النساء »[1] .

الثامنة ـ قوله تعالى : ﴿ سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ أى لذيذا هينا لا يغص به من شربه يقال : ساغ الشراب يسوغ سوغا أى سهل مدخله فى الحلق، وأساغه شاربه، وسغته أنا أسيغه وأسوغه ، يتعدّى ولا يتعدّى، والأجود أسغته إساغة . يقال : أسغ لى غُصّتى أى أمهلنى ولا تُعجلنى؛ وقال تعالى: « يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ »[2] . والسِّواغ (بكسر السين) ما أسغت به غُصّتك . يقال : الماء سِواغ الغُصص؛ ومنه قول الكُمَيت ،

• فكانت سِوَاغًا أن جَئِزت بغُصّة •

وروى أن اللبن لم يَشْرَق به أحد قطّ، وروى ذلك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

(١) راجع جـ ٥ ص ١١١ طبعة أولى أو ثانية (٢) آية ١٧ سورة إبراهيم

التاسعة — فى هذه الآية دليل على استعمال الحلاوة والأطعمة اللذيذة وتناولها، ولا يقال: إن ذلك يناقض الزهد أو يباعده، لكن إذا كان من وجهه ومن غير سَرَف ولا إكثار. وقد تقدّم هذا المعنى فى «المائدة»[(1)] وغيرها. وفى الصحيح عن أنس قال: لقد سقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدحى هذا الشراب كله: العسل والنبيذ واللبن والماء. وقد كره بعض القراء أكل الفالوذج[(2)] واللبن من الطعام، وأباحه عامة العلماء. وروى عن الحسن أنه كان على مائدة ومعه مالك بن دينار، فأتى بفالوذج فامتنع عن أكله، فقال له الحسن: كُلْ! فانّ عليك فى الماء البارد أكثر من هذا.

العاشرة — روى أبو داود وغيره عن ابن عباس قال: أُتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلبن فشرب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أكل أحدكم طعاما فليقل اللّهُمّ بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه. وإذا سُقِىَ لبنا فليقل اللّهُمّ بارك لنا فيه وزدنا منه فانه ليس شىء يجزى عن الطعام والشراب إلا اللبن". قال علماؤنا: فكيف لا يكون ذلك وهو أوّل ما يغتذى به الإنسان وتَنْمى به الجثث والأبدان، فهو قوت خلىّ عن المفاسد به قوام الأجسام، وقد جعله الله تعالى علامة لجبريل على هداية هذه الأمة التى هى خير الأمم أمة؛ فقال فى الصحيح: "فجاءنى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال لى جبريل اخترت الفطرة أما إنك لو اخترت الخمر غَوَتْ أمتك". ثم إن فى الدعاء بالزيادة منه علامة الخصب وظهور الخيرات والبركات؛ فهو مبارك كله.

قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٦٧﴾

فيه مسألتان:

الأولى — قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ﴾ قال الطبرى: التقدير ومن ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون؛ فحذف «ما» ودلّ على حذفه قوله: «منه». وقيل:

(1) راجع ج ٦ ص ٢٦٠ وما بعدها. وج ٧ ص ١٩١ طبعة أولى أو ثانية.

(2) الفالوذج: حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل. (عن الألفاظ الفارسية المعربة).

المحذوف شيء، والأمر قريب . وقيل : معنى «منه» أي من المذكور، فلا يكون في الكلام حذف وهو أولى . ويجوز أن يكون قوله : «ومن ثمرات» عطفا على « الأنعام»، أي ولكم من ثمرات النخيل والأعناب عبرة . ويجوز أن يكون معطوفا على « مما » أي ونسقيكم أيضا مشروبات من ثمرات .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ سَكَرًا ﴾ السَّكَر ما يُسكر ، هــذا هو المشهور في اللغة . قال ابن عباس : نزلت هــذه الآية قبل تحريم الخمر . وأراد بالسَّكَر الخمر، وبالرزق الحسن جميع ما يؤكل ويشرب حلالا من هاتين الشجرتين. وقال بهذا القول ابن جُبير والنَّخعي والشَّعبي وأبو ثور . وقد قيل : إن السَّكَر الخَلّ بلغة الحبشة، والرزق الحسن الطعام . وقيل : السَّكَر العصير الحلو الحلال، وسُمّي سَكَرًا لأنه قد يصير مسكرا إذا بقي ، فإذا بلغ الإسكار حرم .

قال ابن العربي: «أسَدّ هذه الأقوال قولُ ابن عباس، ويخرج ذلك على أحد معنيين، إما أن يكون ذلك قبل تحريم الخمر، وإما أن يكون المعنى : أنعم الله عليكم بثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه ما حرّم الله عليكم اعتداء منكم، وما أحل لكم اتفاقا أو قصدا إلى منفعة أنفسكم . والصحيح أن ذلك كان قبل تحريم الخمر فتكون منسوخة، فإن هــذه الآية مكية باتفاق من العلماء، وتحريم الخمر مدني » .

قلت : فعلى أن السَّكَر الخَلّ أو العصير الحلو لا نسخ، وتكون الآية محكمة وهو حسن . قال ابن عباس : الحبشة يسمّون الخــل السَّكَر، إلا أن الجمهور على أن السكر الخمــر ، منهم ابن مسعود وابن عمر وأبو رزين والحسن ومجاهد وابن أبي ليلى والكلبي وغيرهم ممن تقــدم ذكرهم، كلهم قالوا : السَّكَر ما حرمه الله من ثمرتيهما. وكذا قال أهل اللغة السكر اسم للخمر وما يُسكر ، وأنشدوا :

بئس الصُّحاة وبئس الشَّربُ شَربهم • إذا جرى فيهــم المُزّاء والسَّــكَر

والرزق الحسن : ما أحله الله من ثمرتيهما . وقيــل : إن قوله « تتخــذون منه سَكَرًا » خبر معناه الاستفهام بمعنى الإنكار ؛ أي أتتخذون منه سكرا وتدعون رزقا حسنا الخلّ والزبيب

والتمسر ؛ كقوله : « فهم الخالدون » أى أفهم الخالدون . والله أعلم . وقال أبو عبيدة : السكر الطعم ، يقال : هذا سكرلك أى طعم . وأنشد :

« جعلت عيب الأكرمين سكرا »

أى جعلت ذمهم طعما . وهذا اختيار الطبرى أن السكر ما يطعم من الطعام وحل شربه من ثمار النخيل والأعناب ، وهو الرزق الحسن ، فاللفظ مختلف والمعنى واحد ؛ مثل « إنما أشكو بثي وحزني إلى الله »(١) وهذا حسن ولا نسخ ، إلا أن الزجاج قال : قول أبى عبيدة هذا لا يعرف ، وأهل التفسير على خلافه ، ولا حجة له فى البيت الذى أنشده ؛ لأن معناه عند غيره أنه يصف أنها تتخمر بعيوب الناس . وقال الحنفيون : المراد بقوله : « سكرا » ما لا يسكر من الأنبذة ؛ والدليل عليه أن الله سبحانه وتعالى امتن على عباده بما خلق لهم من ذلك ، ولا يقع الامتنان إلا بمحلل لا بمحرم ، فيكون ذلك دليلا على جواز شرب ما دون المسكر من النبيذ ، فإذا انتهى إلى السكر لم يجز ، وعضدوا هذا من السنة بما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " حرم الله الخمر بعينها والسكر من غيرها " . وبما رواه عبد الملك بن نافع عن ابن عمر قال : رأيت رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عند الركن ، ودفع إليه القدح فرفعه إلى فيه فوجده شديدا فرده إلى صاحبه ، فقال له حينئذ رجل من القوم : يا رسول الله ، أحرام هو ؟ فقال : " على بالرجل " فأتى به فأخذ منه القدح ، ثم دعا بماء فصبه فيه ثم رفعه إلى فيه فقطب ، ثم دعا بماء أيضا فصبه فيه ثم قال : " إذا اغتلمت(٢) عليكم هذه الأوعية فاكسروا متونها بالماء " . وروى أنه عليه السلام كان ينبذ له فيشربه ذلك اليوم ، فإذا كان من اليوم الثانى أو الثالث سقاه الخادم إذا تغير ، ولو كان حراما ما سقاه إياه . قال الطحاوى : وقد روى أبو عون الثقفى عن عبد الله بن شداد عن ابن عباس قال : حرمت الخمر بعينها القليل منها والكثير والسكر من كل شراب ؛ خرجه الدارقطنى أيضا .

---

(١) آية ٨٦ سورة يوسف .

(٢) الاغتلام مجاوزة الحد ؛ أى إذا جاوزت حدها الذى لا يسكر إلى حدها الذى يسكر .

فى هذا الحديث وما كان مثله ، أن غير الخمر لم تحرم عينه كما حرمت الخمر بعينها . قالوا : والخمر شراب العنب لا خلاف فيها ، ومن حجتهم أيضا ما رواه شُريك بن عبد الله ، حدثنا أبو إسحاق الهمداني عن عمرو بن ميمون قال قال عمر بن الخطاب : إنا نأكل لحوم هذه الإبل وليس يقطعه فى بطوننا إلا النبيذ . قال شريك : ورأيت الثورىّ يشرب النبيذ فى بيت حَبْر أهل زمانه مالك بن مغول . والجواب أن قولهم : إن الله سبحانه وتعالى امتن على عباده ولا يكون امتنانه إلا بما أحل فصحيح، بيْد أنه يحتمل أن يكون ذلك قبل تحريم الخمر كما بيناه فيكون منسوخا كما قدمناه . قال ابن العربىّ : إن قيل كيف ينسخ هذا وهو خبر والخبر لا يدخله النسخ ، قلنا : هذا كلام من لم يتحقق الشريعة ، وقد بينا أن الخبر إذا كان عن الوجود الحقيقىّ أو عن إعطاء ثواب فضلا من الله فهو الذى لا يدخله النسخ ، فأما إذا تضمن الخبر حكما شرعيا فالأحكام تتبدل وتنسخ ، جاءت بخبر أو أمر ، ولا يرجع النسخ إلى نفس اللفظ وإنما يرجع إلى ما تضمنه ، فإذا فهمتم هذا خرجتم عن الصنف الغبىّ الذى أخبر الله عن الكفار فيه بقوله : « وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (1) » . المعنى أنهم جهلوا أن الرب يأمر بما يشاء ويكلف ما يشاء ، ويرفع من ذلك بعدله ما يشاء ويثبت ما يشاء وعنده أم الكتاب .

قلت : هذا تشنيع شنيع حتى يلحق فيه العلماء الأخيار فى قصور الفهم بالكفار ، والمسألة أصولية ، وهى أن الأخبار عن الأحكام الشرعية هل يجوز نسخها أم لا ؟ اختلف فى ذلك ، والصحيح جوازه لهذه الآية وما كان مثلها ، ولأن الخبر عن مشروعية حكم ما يتضمن طلب ذلك المشروع ، وذلك الطلب هو الحكم الشرعىّ الذى يُستدل على نسخه . والله أعلم .

وأما ما ذكروا من الأحاديث فالأول والثانى ضعيفان ؛ لأنه عليه السلام قد روى عنه بالنقل الثابت أنه قال : " كل شراب أسكر فهو حرام " وقال : " كل مسكر خمر وكل مسكر حرام " وقال : " ما أسكر كثيره فقليله حرام " . قال النسائىّ : وهؤلاء أهل الثبت والعدالة مشهورون

(1) آية ١٠١ من هذه السورة .

بصحة النقل، وعبد الملك لا يقوم مقام واحد منهم ولو عاضده من أشكاله جماعة، وبالله التوفيق . وأما الثالث وإن كان صحيحا فإنه ما كان يسقيه للخادم على أنه مسكر، وإنما كان يسقيه لأنه متغير الرائحة . وكان صلى الله عليه وسلم يكره أن توجد منه الرائحة، فلذلك لم يشربه، ولذلك تحيّل عليه أزواجه في عسل زينب بأن قيل له : إنا نجد منك ريح مغافير، يعني ريحا منكرة، فلم يشربه بعدُ . وسيأتي في التحريم . وأما حديث ابن عباس فقد روى عنه خلاف ذلك من رواية عطاء وطاوس ومجاهد أنه قال: ما أسكر كثيره فقليله حرام، ورواه عنه قيس ابن دينار . وكذلك فُتياه في المسكر؛ قاله الدَّارَقُطْنيّ . والحديث الأول رواه عنه عبد الله ابن شدّاد وقد خالفه الجماعة، فسقط القول به مع ما ثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وأما ما روى عن عمر من قوله : ليس يقطعه في بطوننا إلا النبيذ، فإنه يريد غير المسكر بدليل ما ذكرنا . وقد روى النَّسائيّ عن عتبة بن فَرْقَد قال : كان النبيذ الذي شربه عمر بن الخطاب قد خُلّل . قال النسائيّ : ومما يدل على صحة هذا حديثُ السائب، قال الحارث بن مِسْكين قراءة عليه وأنا أسمع عن ابن القاسم : حدثني مالك عن ابن شهاب عن السائب بن يزيد أنه أخبره أن عمر بن الخطاب خرج عليهم فقال: إني وجدت من فلان ريح شراب، فزعم أنه شراب الطِّلاء، وأنا سائل عما شرب، فإن كان مسكرا جلدته، فجلده عمر بن الخطاب رضي الله عنه الحدّ تاما . وقد قال في خطبته على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما بعد، أيها الناس فإنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة : من العنب والعسل والتمر والحنطة والشعير . والخمر ما خامر العقل . وقد تقدم في « المائدة »[1] . فإن قيل : فقد أحلّ شربه إبراهيمُ النَّخَعيّ وأبو جعفر الطحاويّ وكان إمام أهل زمانه، وكان سفيان الثوريّ يشربه . قلنا : ذكر النَّسائيّ في كتابه أن أول من أحل المسكر من الأنبذة إبراهيم النخعيّ ، وهذه زلة من عالم وقد حذرنا من زلة العالم ، ولا حجة في قول أحد مع السنة . وذكر النسائيّ أيضا عن ابن المبارك قال : ما وجدت الرخصة في المسكر عن أحد صحيحا إلا عن إبراهيم . قال أبو أسامة : ما رأيت

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٨٥ طبعة أولى أو ثانية

رجلا أطلب للعلم من عبد الله بن المبارك الشامات[1] ومصر واليمن والحجاز . وأما الطحاوي وسفيان لو صح ذلك عنهما لم يحتج بهما على من خالفهما من الأئمة في تحريم المسكر مع ما ثبت من السنة؛ على أن الطحاوي قد ذكر في كتابه الكبير في الاختلاف خلاف ذلك .
قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب التمهيد له : قال أبو جعفر الطحاوي اتفقت الأمة على أن عصير العنب إذا اشتد وغلى وقذف بالزبد فهو خمر ومستحله كافر . واختلفوا في نقيع التمر إذا غلى وأسكر . قال : فهذا يدلك على أن حديث يحيى بن أبي كثير عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الخمر من هاتين الشجرتين النخلة والعنب " غير معمول به عندهم؛ لأنهم لو قبلوا الحديث لأكفروا مستحل نقيع التمر؛ فثبت أنه لم يدخل في الخمر المحرمة غير عصير العنب الذي قد اشتد وبلغ أن يسكر . قال : ثم لا يخلو من أن يكون التحريم معلقا بها فقط غير مقيس عليها غيرها أو يجب القياس عليها ، فوجدناهم جميعا قد قاسوا عليها نقيع التمر إذا غلى وأسكر كثيره وكذلك نقيع الزبيب . قال : فوجب قياسا على ذلك أن يحرم كل ما أسكر من الأشربة . قال : وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " كل مسكر حرام " واستغنى عن مسنده لقبول الجميع له ، وإنما الخلاف بينهم في تأويله ، فقال بعضهم : أراد به جنس ما يسكر . وقال بعضهم : أراد به ما يقع السكر عنده كما لا يسمى قاتلا إلا مع وجود القتل .

قلت : فهذا يدل على أنه محرم عند الطحاوي لقوله ، فوجب قياسا على ذلك أن يحرم كل ما أسكر من الأشربة . وقد روى الدارقطني في سننه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : إن الله لم يحرم الخمر لاسمها وإنما حرمها لعاقبتها ، فكل شراب يكون عاقبته كعاقبة الخمر فهو حرام كتحريم الخمر . قال ابن المنذر : وجاء أهل الكوفة بأخبار معلولة ، وإذا اختلف الناس في الشيء وجب رد ذلك إلى كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام ، وما روى عن بعض التابعين أنه شرب الشراب الذي يسكر كثيره فللقوم ذنوب يستغفرون

---

(١) في حاشية السندي على سنن النسائي : « قوله الشامات ، كأنه جمع على إرادة البلاد الشامية » .

الله منها ، وليس يخلو ذلك من أحد معنيين : إما مخطئ أخطأ فى التأويل على حديث سمعه ، أو رجل أتى ذنبا لعله أن يكثر من الاستغفار لله تعالى ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم حجة الله على الأولين والآخرين من هذه الأمة . وقد قيل فى تأويل الآية : إنها إنما ذكرت للاعتبار ، أى من قدر على خلق هذه الأشياء قادر على البعث ، وهذا الاعتبار لا يختلف بأن كانت الخمر حلالا أو حراما ، فاتخاذ السَّكَر لا يدل على التحريم ، وهو كما قال تعالى : « قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ » والله أعلم .

قوله تعالى : وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ قد مضى القول فى الوحى وأنه قد يكون بمعنى الإلهام[1] ، وهو ما يخلقه الله تعالى فى القلب ابتداء من غير سبب ظاهر ، وهو من قوله تعالى : « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا[2] » . ومن ذلك البهائم وما يخلق الله سبحانه فيها من درك منافعها واجتناب مضارها وتدبير معاشها . وقد أخبر عز وجل بذلك عن الموات فقال : « تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا[3] » . قال إبراهيم الحربى : لله عز وجل فى الموات قدرة لم يُدْرَ ما هى ، لم يأتها رسول من عند الله ولكن الله تعالى عرّفها ذلك ؛ أى ألهمها . ولا خلاف بين المتأولين أن الوحى هنا بمعنى الإلهام . وقرأ يحيى بن وثاب « إلى النَّحَل » بفتح الحاء . وسُمّى نحلا لأن الله عز وجل نحله العسل الذى يخرج منه ؛ قاله الزجاج . الجوهرى : والنحل والنحلة الدَّبْر يقع على الذكر والأنثى ، حتى يقال : يَعْسُوب . والنحل يؤنث فى لغة أهل الحجاز ، وكل جمع ليس بينه و بين واحده إلا الهاء . وروى من حديث

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٨٥ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٧ سورة الشمس .

(٣) آية ٤ سورة الزلزلة .

أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الذّبان كلّها فى النار يجعلها عذابا لأهل النار إلا النحل " ذكره الترمذى الحكيم فى (نوادر الأصول) . وروى عن ابن عباس قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل النملة والنحلة والهُدهد والصُّرَد[1]، خرّجه أبو داود أيضا، وسيأتى فى «النمل»[2] إن شاء الله تعالى .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ﴾ هذا إذا لم يكن لها مالك . ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ جعل الله بيوت النحل فى هذه الثلاثة الأنواع، إما فى الجبال وكِوَاها، وإما فى متجوّف الأشجار، وإما فيما يعرش ابن آدم من الأجباح[3] والخلايا والحيطان وغيرها . وعرّش معناه هنا هيّأ ، وأكثر ما يستعمل فيما يكون من إتقان الأغصان والخشب وترتيب ظلالها ؛ ومنه العريش الذى صنع لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، ومن هذا لفظة العرش . يقال : عرش يَعْرِش ويعرُش (بكسر الراء وضمها)، وقرئ بهما . قرأ ابن عامر بالضم وسائرهم بالكسر، واختلف فى ذلك عن عاصم

الثالثـــة ــ قال ابن العربى : ومن عجيب ما خلق الله فى النحل أن ألهمها لاتخاذ بيوتها مسدّسة ، فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطعة الواحدة ، وذلك أن الأشكال من الثلاث إلى العشر إذا جُمع كلّ واحد منها إلى أمثاله لم يتصل وجاءت بينهما فُرَج، إلا الشكل المسدّس ؛ فإنه إذا جمع إلى أمثاله اتصل كأنه كالقطعة الواحدة .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ الثَّمَرَٰتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

---

(١) الصرد (كرطب) : طائر فوق العصفور يصيد العصافير . (٢) فى قوله تعالى : « [illegible] » سورة النمل ــ آية ١٨ . (٣) الأجباح : مواضع النحل فى الجبل وفيها تعسل .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ وذلك أنها إنما تأكل النوار من الأشجار ﴿ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ أى طرق ربك . والسّبل : الطرق، وأضافها إليه لأنه خالقها، أى ادخلى طرق ربك لطلب الرزق فى الجبال وخلال الشجر . ﴿ ذُلُلًا ﴾ جمع ذلول وهو المنقاد؛ أى مطيعة مسخرة . فـ « ذللا » حال من النحل . أى تنقاد وتذهب حيث شاء صاحبها ؛ لأنها تتبع أصحابها حيث ذهبوا ؛ قاله ابن زيد . وقيل : المراد بقوله « ذُلُلًا » السبل . يقول : مذلل طرقها سهلة للسلوك عليها؛ واختاره الطبرى؛ و « ذللا » حال من السبل . واليَعْسُوب سيد النحل ، إذا وقف وقفت وإذا سار سارت .

قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا ﴾ رجع الخطاب إلى الخبر على جهة تعديد النعمة والتنبيه على العبرة فقال : « يخرج من بطونها شراب » يعنى العسل . وجمهور الناس على أن العسل يخرج من أفواه النحل ؛ وورد عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال فى تحقيره للدنيا : أشرف لباس ابن آدم فيها لعاب دودة، وأشرف شرابه رَجِيعُ نحلة . فظاهر هذا أنه من غير الفم . وبالجملة فإنه يخرج ولا يدرى من فيها أو أسفلها ، ولكن لا يتم صلاحه إلا بحمْى أنفاسها . وقد صنع أرسطاطاليس بيتا من زجاج لينظر إلى كيفية ما تصنع ، فأبت أن تعمل حتى لطخت باطن الزجاج بالطين؛ ذكره الغزنوى . وقال : « من بطونها » لأن استحالة الأطعمة لا تكون إلا فى البطن .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ يريد أنواعه من الأحمر والأبيض والأصفر والجامد والسائل ، والأم واحدة والأولاد مختلفون دليل على أن القدرة نوّعته بحسب تنويع الغذاء، كما يختلف طعمه بحسب اختلاف المراعى ؛ ومن هذا المعنى قول زينب للنبىّ صلى الله عليه وسلم : « جَرَسَتْ نحلُه العُرْفُطَ[1] » حين شبهت رائحته برائحة المغافير .

---

(١) الجرس : الأكل . والعرفط (بالضم) : شجر الطلح ، وله صمغ كريه الرائحة ، فإذا أكله النحل حصل فى عسلها من ريحه . أى شربت عسلا أكلت نحله من شجر الطلح .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ الضمير للعسل ؛ قاله الجمهور . أى فى العسل شفاء للناس . وروى عن ابن عباس والحسن ومجاهد والضحاك والفراء وابن كيسان : الضمير للقرآن ؛ أى فى القرآن شفاء . النحاس : وهذا قول حسن ؛ أو فيما قصصنا عليكم من الآيات والبراهين شفاء للناس . وقيل : العسل فيه شفاء ، وهذا القول بيّن أيضا ؛ لأن أكثر الأشربة والمعجونات التى يتعالج بها أصلها من العسل . قال القاضى أبو بكر بن العربى : من قال إنه القرآن بعيد ما أراه يصحّ عنهم ، ولو صح نقلا لم يصح عقلا ؛ فإن مساق الكلام كلّه للعسل ؛ ليس للقرآن فيه ذكر . قال ابن عطية : وذهب قوم من أهل الجهالة إلى أن هذه الآية يراد بها أهل البيت وبنو هاشم ، وأنهم النحل ، وأن الشراب القرآن والحكمة ، وقد ذكر هذا بعضهم فى مجلس المنصور أبى جعفر العباسى ، فقال له رجل ممن حضر : جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بنى هاشم ، فأضحك الحاضرين وبهت الآخر وظهرت سخافة قوله .

الرابعــة ــ اختلف العلماء فى قوله تعالى : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ هل هو على عمومه أم لا ؛ فقالت طائفة : هو على العموم فى كل حال ولكل أحد ، فروى عن ابن عمر أنه كان لا يشكو قرحة ولا شيئا إلا جعل عليه عسلا ، حتى الدُّمّل إذا خرج عليه طلى عليه عسلا . وحكى النقاش عن أبى وجرة أنه كان يكتحل بالعسل ويستمشى بالعسل ويتداوى بالعسل . وروى أن عوف بن مالك الأشجعى مرض فقيل له : ألا نعالجك ؟ فقال : ائتونى بالماء ؛ فإن الله تعالى يقول : « وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا »[1] ثم قال : ائتونى بعسل ، فإن الله تعالى يقول : « فيه شفاءٌ للناس » وائتونى بزيت ، فإن الله تعالى يقول : « مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ »[2] فجاءوه بذلك كله فخلطه جميعا ثم شربه فبرئ . ومنهم من قال : إنه على العموم إذا خلط بالخل ويطبخ فيأتى شرابا ينتفع به فى كل حالة من كل داء . وقالت طائفة : إن ذلك على الخصوص ولا يقتضى العموم فى كل علة وفى كل إنسان ، بل إنه خبر عن أنه يشفى كما يشفى غيره من

(١) آية ٩ سورة ق . (٢) آية [illegible]

الأشربة في بعض حال دون حال؛ ففائدة الآية إخبار منه في أنه دواء لما كثر الشفاء به وصار خليطا ومعينا للأدوية في الأشربة والمعاجين؛ وليس هذا بأول لفظ خصص فالقرآن مملوء منه ولغة العرب يأتي فيها العام كثيرا بمعنى الخاص والخاص بمعنى العام. ومما يدل على أنه ليس على العموم أن «شفاء» نكرة في سياق الإثبات، ولا عموم فيها باتفاق أهل اللسان ومحققي أهل العلم ومختلفي أهل الأصول. لكن قد حملته طائفة من أهل الصدق والعزم على العموم، فكانوا يستشفون بالعسل من كل الأوجاع والأمراض، وكانوا يشفون من عللهم ببركة القرآن وبصحة التصديق والإيقان. ابن العربي: ومن ضعفت نيته وغلبته على الدين عادته أخذه مفهوما على قول الأطباء، والكل من حكم الفعال لما يشاء.

الخامسة - إن قال قائل: قد رأينا من ينفعه العسل ومن يضره، فكيف يكون شفاء للناس؟ قيل له: الماء حياة كل شيء وقد رأينا من يقتله الماء إذا أخذه على ما يضاده من علة في البدن، وقد رأينا شفاء العسل في أكثر هذه الأشربة؛ قال معناه الزجاج. وقد اتفق الأطباء عن بكرة أبيهم على مدح عموم منفعة السكنجبين[1] في كل مرض، وأصله العسل وكذلك سائر المعجونات، على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حسم داء الإشكال وأزاح وجه الاحتمال حين أمر الذي يشتكي بطنه بشرب العسل، فلما أخبره أخوه بأنه لم يزده إلا استطلاقا أمره بعود الشراب له فبرئ؛ وقال: «صدق الله وكذب بطن أخيك».

السادسة - اعترض بعض زنادقة الأطباء على هذا الحديث فقال: قد أجمعت الأطباء على أن العسل يسهل فكيف يوصف لمن به الإسهال؛ فالجواب أن ذلك القول حق في نفسه لمن حصل له التصديق بنبيه عليه السلام، فيستعمله على الوجه الذي عينه وفي المحل الذي أمره بعقد نية وحسن طوية، فإنه يرى منفعته ويدرك بركته، كما قد اتفق لصاحب هذا العسل وغيره كما تقدم. وأما ما حكي من الإجماع فدليل على جهله بالنقل حيث لم يقيد وأطلق. قال الإمام أبو عبد الله المازري: ينبغي أن يعلم أن الإسهال يعرض من ضروب كثيرة، منها الإسهال

(١) السكنجبين: شراب مركب من خل وعسل. (من الألفاظ الفارسية المعربة).

الحادث عن التخم والهَيْضات[1]؛ والأطباء مجمعون فى مثل هذا على أن علاجه بأن يترك للطبيعة وفعلها، و إن احتاجت الى مُعين على الإسهال أعينت مادامت القوّة باقية، فأما حبسها فضرر، فإذا وضح هـذا قلنا : فيمكن أن يكون ذلك الرجل أصابه الإسهال عن امتلاء وهَيْضة فأمره النبيّ صلى الله عليه وسـلم بشرب العسل فزاده إلى أن فنيت المـادة فوقف الإسهال فوافقه شرب العسل . فإذا خرج هذا عن صناعة الطب أذِن ذلك بجهل المعترض بتلك الصناعة . قال : ولسنا نستظهر على قول نبيّنا بأن يصدقه الأطبـاء بل لو كذّبوه لكذبناهم ولكفّرناهم وصدّقناه صلى الله عليه وسلم ؛ فإن أوجدونا بالمشاهدة صحة ما قالوه فنفتقر حينئذ إلى تأويل كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخريجه على ما يصح إذ قامت الدّلالة على أنه لا يكذب .

السابعـة ـــ فى قوله تعالى : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ دليل على جواز التعالج بشرب الدواء وغير ذلك خلافا لمن كره ذلك من جلّة العلماء، وهو ردّ على الصوفية الذين يزعمون أن الولاية لا تتم إلا إذا رضى بجميع ما نزل به من البلاء، ولا يجوز له مداواة . ولا معنى لمن أنكر ذلك، روى الصحيح عن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لكل داء دواء فإذا أصيب دواءُ الداء برأ بإذن الله " . وروى أبو داود والترمـذى عن أسامـة بن شُريك قال قالت الأعراب : ألا نتداوَى يا رسول الله؟ قال :"نعم . يا عباد الله تداوَوْا فان الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء أو دواء إلا داء واحدا" قالوا : يا رسول الله وما هو؟ قال : "الهرم" لفظ الترمذى، وقال : حديث حسن صحيح . وروى عن أبى خزامة عن أبيه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله، أرأيت رُقًى نسترقيها ودواء نتداوى به وتُقاة نتقيها، هل تَرُدّ من قَدَر الله شيئا؟ قال:"هى من قدر الله" قال : حديث حسن، ولا يعرف لأبى خزامة غير هـذا الحديث . وقال صلى الله عليه وسـلم : " ان كان فى شىء من أدويتكم خير ففى شرطة محجَم أو شربة من عسـل أو لَذْعة بنـار وما أحب أن أكتوِىَ " أخرجه الصحيح . والأحاديث فى هذا الباب أكثر من أن تحصى . وعلى إباحة التداوى والاسترقاء

(١) الهيضات : جمع هيضة ، وهى انطلاق البطن .

جمهور العلماء . روى أن ابن عمر اكتوى من اللقوة[1] ورقى من العقرب . وعن ابن سيرين أن ابن عمر كان يسقى ولده الترياق[2] . وقال مالك : لا بأس بذلك . وقد احتج من كره ذلك بما رواه أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "دخلت أمة بقضها وقضيضها[3] الجنة كانوا لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون" . قالوا : فالواجب على المؤمن أن يترك ذلك اعتصاما بالله وتوكلا عليه وثقة به وانقطاعا إليه ؛ فإن الله تعالى قد علم أيام المرض وأيام الصحة فلو حرص الخلق على تقليل ذلك أو زيادته ما قدروا ؛ قال الله تعالى : « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا »[4] . وممن ذهب إلى هذا جماعة من أهل الفضل والأثر ؛ وهو قول ابن مسعود وأبي الدرداء رضوان الله عليهما . دخل عثمان بن عفان على ابن مسعود في مرضه الذي قبض فيه فقال له عثمان : ما تشتكى ؟ قال ذنوبي . قال : فما تشتهي ؟ قال رحمة ربي . قال : ألا أدعو لك طبيبا ؟ قال : الطبيب أمرضني . وذكر الحديث . وسيأتي بكماله في فضل الواقعة إن شاء الله تعالى . وذكر وكيع قال : حدثنا أبو هلال عن معاوية بن قرة قال : مرض أبو الدرداء فعادوه وقالوا : ألا ندعو لك طبيبا ؟ قال : الطبيب أضجعني . وإلى هذا ذهب الربيع بن خيثم . وكره سعيد بن جبير الرقى . وكان الحسن يكره شرب الأدوية كلها إلا اللبن والعسل . وأجاب الأولون عن الحديث بأنه لا حجة فيه ؛ لأنه يحتمل أن يكون قصد إلى نوع من الكي مكروه بدليل كي النبي صلى الله عليه وسلم أُبَيًّا يوم الأحزاب على أكحله[5] لما رُمي . وقال : "الشفاء في ثلاثة" كما تقدم . ويحتمل أن يكون قصد إلى الرقى بما ليس في كتاب الله ؛ وقد قال سبحانه وتعالى : « وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ »[6] على ما يأتي بيانه . ورقى أصحابه وأمرهم بالرقية ؛ على ما يأتي بيانه .

---

(١) اللقوة (بالفتح) : مرض يعرض للوجه فيميله إلى أحد جانبيه . (٢) الترياق : ما يستعمل لدفع السم من الأدوية والمعاجين ؛ وهو معرب . (٣) أي دخلوا مجتمعين ؛ ينقض آخرهم على أولهم . وقال ابن الأعرابي : إن القض الحصى الكبار ، والقضيض الحصى الصغار ؛ أي دخلوا بالكبير والصغير . (٤) آية ٢٢ سورة الحديد . (٥) الأكحل : عرق في وسط الذراع . (٦) آية ٨٢ سورة الإسراء .

الثامنــة ــ ذهب مالك وجماعة أصحابه إلى أن لا زكاة في العسل وإن كان مطعوما مُقتاتا . واختلف فيه قول الشافعي، والذي قطع به في قوله الجديد : أنه لا زكاة فيه . وقال أبو حنيفة بوجوب زكاة العسل في قليله وكثيره؛ لأن النصاب عنده فيه ليس بشرط . وقال محمد بن الحسن : لا شيء فيه حتى يبلغ ثمانية أفراق[1]، والفرق ستة وثلاثون رطلا من أرطال العراق . وقال أبو يوسف : في كل عشرة أزقاق زق ؛ متمسكا بما رواه الترمذي عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "في العسل في كل عشرة أزقاق زق" قال أبو عيسى: في إسناده مقال، ولا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب كبير شيء، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم ، وبه يقول أحمد وإسحاق، وقال بعض أهل العلم : ليس في العسل شيء .

التاســعة ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي يعتبرون؛ ومن العبرة في النحل بإنصاف النظر وإلطاف الفكر في عجيب أمرها . فيشهد اليقين بأن ملهمها الصنعة اللطيفة مع البنية الضعيفة، وحذقها باحتيالها في تفاوت أحوالها هو الله سبحانه وتعالى؛ كما قال : « وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ » الآية . ثم أنها تأكل الحامض والمر والحلو والمالح والحشائش الضارة، فيجعله الله تعالى عسلا حلوا وشفاء، وفي هذا دليل على قدرته .

قوله تعالى : وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ بيّن معناه . ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ يعني أرداه وأوضعه . وقيل : الذي ينقص قوته وعقله ويصيّره إلى الخرف ونحوه . وقال ابن عباس : يعني إلى أسفل العمر، يصير كالصبي الذي لا عقل له؛ والمعنى متقارب . وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ يقول :

(١) في نسخة من الأصل : «ستة أفراق» .

"اللهم إنى أعوذ بك من الكسل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من الهرم وأعوذ بك من البخل" . وفى حديث سعد بن أبى وقاص "وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر" الحديث . خرجه البخارى . ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ أى يرجع إلى حالة الطفولية فلا يعلم ما كان يعلم قبل من الأمور لفرط الكبر . وقد قيل : هذا لا يكون للمؤمن ؛ لأن المؤمن لا ينزع عنه علمه . وقيل : المعنى لكيلا يعمل بعد علم شيئا ؛ فعبر عن العمل بالعلم لافتقاره إليه ؛ لأن تأثير الكبر فى عمله أبلغ من تأثيره فى علمه . والمعنى المقصود الاحتجاج على منكرى البعث ؛ أى الذى رده إلى هذه الحال قادر على أن يميته ثم يحييه .

قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى الرِّزْقِ ﴾ أى جعل منكم غنيا وفقيرا وحرا وعبدا . ﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا ﴾ أى فى الرزق . ﴿ بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ أى لا يرد المولى على ما ملكت يمينه مما رزق شيئا حتى يستوى المملوك والمالك فى المال . وهذا مثل ضربه الله لعبدة الأصنام ، أى إذا لم يكن عبيدكم معكم سواء فكيف تجعلون عبيدى معى سواء ؛ فلما لم يكن يشركهم عبيدهم فى أموالهم لم يجز لهم أن يشاركوا الله تعالى فى عبادة غيره من الأوثان والأنصاب وغيرهما مما عبد ؛ كالملائكة والأنبياء وهم عبيده وخلقه . حكى معناه الطبرى ، وقاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم . وعن ابن عباس أيضا أنها نزلت فى نصارى نجران حين قالوا عيسى ابن الله فقال الله لهم « فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ » أى لا يرد المولى على ما ملكت يمينه مما رزق حتى يكون المولى والعبد فى المال شرعا سواء ، فكيف ترضون لى ما لا ترضون لأنفسكم فتجعلون لى ولدا

من عبيدى . ونظيرها « ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ » [1] على ما يأتى . ودل هذا على أن العبد لا يملك ، على ما يأتى آنفا [2] .

قوله تعالى : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ جعل بمعنى خلق؛ وقد تقدم . ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ يعنى آدم خلق منه حواء . وقيل : المعنى جعل لكم من أنفسكم، أى من جنسكم ونوعكم وعلى خلقتكم؛ كما قال : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » أى من الآدميين . وفى هذا رد على العرب التى كانت تعتقد أنها كانت تزوج الجن وتباضعها، حتى روى أن عمرو بن هند [3] تزوج منهم غولا وكان يخبؤها عن البرق لئلا تراه فتنفر، فلما كان فى بعض الليالى لمع البرق وعاينته السعلاة [4] فقالت : عمرو ! ونفرت، فلم يرها أبدا . وهذا من أكاذيبها ، وإن كان جائزا فى حكم الله وحكمته فهو رد على الفلاسفة الذين ينكرون وجود الجن ويحيلون طعامهم . ﴿أَزْوَاجًا﴾ زوج الرجل هى ثانيته، فإنه فرد فإذا انضافت إليه كانا زوجين، وإنما جعلت الإضافة إليه دونها لأنه أصلها فى الوجود كما تقدم .

---

(١) آية ٢٨ سورة الروم . (٢) يريد بعد قليل . و « آنفا » انما تستعمل فى الماضى القريب لا فى المستقبل القريب . (٣) كذا فى نسخ الأصول وأحكام القرآن لابن العربى ، والصواب أنه عمرو بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن مناة؛ قال علباء بن أرقم :

يا قبح الله بنى السعلاة * عمرو بن يربوع شرار النات

وأجمع شراح التنوير على سقط الزند فى شرح بيت أبى العلاء المعرى :

إذا لاح إيماض سترت وجوهها * كأنى عمرو والمطى سعالى .

(٤) السعلاة : أخبث الغيلان .

قوله تعالى : ﴿ وَجعلَ لكُمْ مِنْ أزْوَاجِكُمْ بنِينَ وحفدَةً ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ ﴾ ظاهر فى تعديد النعمة فى الأبناء، ووجود الأبناء يكون منهما معا ؛ ولكنه لما كان خلق المولود فيها وانفصاله عنها أضيف إليها ، ولذلك تبعها فى الرق والحرية وصار مثلها فى المالية . قال ابن العربى : سمعت إمام الحنابلة بمدينة السلام أبا الوفاء على بن عقيل يقول : إنما تبع الولد الأم فى المالية وصار بحكمها فى الرق والحرية؛ لأنه انفصل عن الأب نطفة لاقيمة له ولامالية فيه ولا منفعة ، و إنما اكتسب ما اكتسب بها ومنها فلأجل ذلك تبعها . كما لو أكل رجل تمرا فى أرض رجل وسقطت منه نواة فى الأرض من يد الآكل فصارت نخلة فإنها ملك صاحب الأرض دون الآكل بإجماع من الأمة لأنها انفصلت عن الآكل ولا قيمة لها .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ وَحَفَدَةً ﴾ روى ابن القاسم عن مالك قال وسألته عن قوله تعالى : « بَنِينَ وَحَفَدَةً » قال : الحَفَدة الخدم والأعوان فى رأيى . وروى عن ابن عباس فى قوله تعالى : « وَحَفَدَةً » قال هم الأعوان، من أعانك فقد حَفَدك . قيل له : فهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم وتقوله ! أو ما سمعت قول الشاعر :

حَفَد الولائدُ حولهن وأسلمَتْ ٭ بأكفّهن أزِمّةَ الأجمال

أى أسرعن الخدمة . والولائد : الخدم، الواحدة وليدة؛ قال الأعشى :

كلّفت مجهولها نُوقًا يمانيـة ٭ إذا الحُداة على أكسائها[1] حَفَدوا

أى أسرعوا . وقال ابن عرفة : الحفدة عند العرب الأعوان ؛ فكل من عمل عملا أطاع فيه وسارع فهو حافد؛ قال : ومنه قولهم « إليك نسعى ونحفِد »، والحَفَدان السرعة . قال أبو عبيد : الحفد العمل والخدمة . وقال الخليل بن أحمد : الحَفَدة عند العرب الخدم، وقاله مجاهد . وقال الأزهرى : قيل الحفدة أولاد الأولاد . وروى عن ابن عباس . وقيل الأختان ؛ قاله ابن مسعود وعلقمة وأبو الضحا وسعيد بن جُبير وإبراهيم ؛

---

(١) الأكساء : جمع كسء (بالضم) وهو مؤخر العجز .

ومنه قول الشاعر :

فلو أن نفسى طاوعتنى لأصبحت * لها حفد مما يعد كثير

ولكنها نفس على أبية * عيوف لإصهار اللئام قذور

وروى زر عن عبد الله قال : الحفدة الأصهار ؛ وقاله إبراهيم ، والمعنى متقارب . قال الأصمعى : الختن من كان من قبل المرأة ، مثل أبيها وأخيها وما أشبههما ؛ والأصهار منهما جميعا . يقال : أصهر فلان إلى بنى فلان وصاهر . وقول عبد الله « هم الأختان » يحتمل المعنيين جميعا . يحتمل أن يكون أراد أبا المرأة وما أشبهه من أقربائها ، ويحتمل أن يكون أراد وجعل لكم من أزواجكم بنين وبنات تزوجونهن ، فيكون لكم بسببهن أختان . وقال عكرمة : الحفدة من نفع الرجل من ولده ؛ وأصله من حفد يحفد (بفتح العين فى الماضى وكسرها فى المستقبل) إذا أسرع فى سيره ؛ كما قال كثير :

* حفد الولائد بينهن ... * البيت .

ويقال : حفدت وأحفدت ، لغتان إذا خدمت . ويقال : حافد وحفد ؛ مثل خادم وخدم ؛ وحافد وحفدة مثل كافر وكفرة . قال المهدوى : ومن جعل الحفدة الخدم جعله منقطعا مما قبله ينوى به التقديم ؛ كأنه قال : جعل لكم حفدة وجعل لكم من أزواجكم بنين .

قلت : ما قاله الأزهرى من أن الحفدة أولاد الأولاد هو ظاهر القرآن بل نصه ؛ ألا ترى أنه قال : « وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة » فجعل الحفدة والبنين منهن . وقال ابن العربى : الأظهر عندى فى قوله « بنين وحفدة » أن البنين أولاد الرجل لصلبه والحفدة أولاد ولده ، وليس فى قوة اللفظ أكثر من هذا ، ويكون تقدير الآية على هذا : وجعل لكم من أزواجكم بنين ومن البنين حفدة . وقال معناه الحسن .

الثالثة — إذا فرعنا على قول مجاهد وابن عباس ومالك وعلماء اللغة فى قولهم إن الحفدة الخدم والأعوان ، فقد خرجت خدمة الولد والزوجة من القرآن بأبدع بيان ؛ قاله ابن العربى . روى البخارى وغيره عن سهل بن سعد أن أبا أسيد الساعدى دعا النبى صلى الله عليه وسلم

لحرمه فكانت امرأته خادمهم ـ الحديث، وقد تقدم في سورة « هود »[1] . وفي الصحيح عن عائشة قالت : أنا فتلت قلائد بُدْن النبيّ صلى الله عليه وسلم بيدى . الحديث . ولهذا قال علماؤنا : عليها أن تفرش الفراش وتطبخ القدْر وتَقُمّ الدار ، بحسب حالها وعادة مثلها ؛ قال الله تعالى : « وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا »[2] فكأنه جمع لنا فيها السكن والاستمتاع وضربا من الخدمة بحسب جرى العادة .

الرابعة ـ ويخدُم الرجُل زوجتَه فيما خفّ من الخدمة ويُعينها ، لما روته عائشة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يكون في مِهْنة أهله فإذا سمع الأذان خرج . وهذا قول مالك : ويعينها . وفي أخلاق النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يخصف النعل ويَقُمّ البيت ويخيط الثوب . وقالت عائشة وقد قيل لها : ما كان يعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته ؟ قالت : كان بشرا من البشر يَفْلى ثوبه ويحلب شاته ويخدُم نفسه .

الخامسة ـ وينفق على خادمة واحدة ، وقيل على أكثر ؛ على قدر الثروة والمنزلة . وهذا أمر دائر على العرف الذى هو أصل من أصول الشريعة ؛ فإن نساء الأعراب وسكان البوادى يخدمن أزواجهن في استعذاب الماء وسياسة الدواب ، ونساء الحواضر يخدم المقل منهم زوجته فيما خف ويعينها ، وأما أهل الثروة فيخدمون أزواجهن ويترفهن معهم إذا كان لهم منصب ذلك ؛ فإن كان أمرا مشكلا شرطت عليه الزوجة ذلك ، فتشهد أنه قد عرفه أنها ممن لا تخدم نفسها فالتزم إخدامها ، فينفذ ذلك وتنقطع الدعوى فيه .

قوله تعالى : ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أى من الثمار والحبوب والحيوان . ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ ﴾ يعني الأصنام ؛ قاله ابن عباس . ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ قراءة الجمهور بالياء . وقرأ أبو عبد الرحمن بالتاء . ﴿ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ ﴾ أى بالإسلام . ﴿ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٦١ (٢) آية ١٨٩ سورة الأعراف .

قوله تعالى : وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمٰوَاتِ ﴾ يعني المطر . ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ يعني النبات . ﴿ شَيْئًا ﴾ قال الأخفش : هو بدل من الرزق . وقال الفراء : هو منصوب بإيقاع الرزق عليه ؛ أي يعبدون مالا يملك أن يرزقهم شيئا . ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أي لا يقدرون على شيء ، يعني الأصنام . ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلهِ الْأَمْثَالَ ﴾ أي لا تشبهوا به هذه الجمادات ؛ لأنه واحد قادر لا مثل له . وقد تقدم .

قوله تعالى : ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا ﴾ نبه تعالى على ضلالة المشركين ، وهو منتظم بما قبله من ذكر نعم الله عليهم وعدم مثل ذلك من آلهتهم . « ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا » أي بين شبها ؛ ثم ذكر ذلك فقال : ﴿ عَبْدًا مَمْلُوكًا ﴾ أي كما لا يستوى عندكم عبد مملوك لا يقدر من أمره على شيء ورجلٌ حُرٌّ قد رزق رزقا حسنا فكذلك أنا وهذه الأصنام . فالذي هو مثال في هذه الآية هو عبد بهذه الصفة مملوك لا يقدر على شيء من المال ولا من أمر نفسه ، وإنما هو مسخر بإرادة سيده . ولا يلزم من الآية أن العبيد كلهم بهذه الصفة ، فإن النكرة في الإثبات لا تقتضي الشمول عند أهل اللسان كما تقدم ، وإنما تفيد واحدا ، فإذا كانت بعد أمر أو نهى أو مضافة إلى مصدر كانت للعموم الشيوعي ؛ كقوله . أعتق رجلا ولا تهن

رجلا، والمصدر كاعتاق رقبة، فأى رجل أعتق فقد خرج من مهدة الخطاب، ويصح منه الاستثناء . وقال قتادة : هــذا المثل للؤمن والكافر؛ فذهب قتادة إلى أن العبد المملوك هو الكافر؛ لأنه لاينتفع فى الآخرة بشىء من عبادته، وإلى أن معنى «وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا» المؤمن . والأول عليه الجمهور من أهل التأويل . قال الأصمّ : المراد بالعبد المملوك الذى ربما يكون أشدّ من مولاه أسْرا[1] وأنضر وجها ، وهو لسيده ذليل لا يقدر إلا على ما أذن له فيه ؛ فقال الله تعالى ضربا للمثال . أى فإذا كان هذا شأنكم وشأن عبيدكم فكيف جعلتم أحجارا مواتا شركاء لله تعالى فى خلقه وعبادته، وهى لا تعقل ولا تسمع .

الثانيـــة — فهم المسلمون من هذه الآية ومما قبلها نقصان رتبة العبد عن الحر فى الملك، وأنه لايملك شيئا وإن مُلِّك . قال أهل العراق: الرِّق ينافى الملك، فلا يملك شيئا ألبتَّة بحال، وهو قول الشافعىّ فى الجديد، وبه قال الحسن وابن سيرين . ومنهم من قال : يملك إلا أنه ناقص الملك؛ لأن لسـيده أن ينتزعه منه أىّ وقت شاء، وهو قول مالك ومن اتّبعه ، وبه قال الشافعىّ فى القديم . وهو قول أهـل الظاهر؛ ولهذا قال أصحابنا : لا تجب عليه عبادة الأموال من زكاة وكفارات ، ولا من عبادات الأبدان ما يقطعه عن خدمة سـيده كالحج والجهاد وغير ذلك . وفائدة هذه المسألة أن سيده لو ملّكه جارية جاز له أن يطأها بملك اليمين، ولو ملكه أربعين من الغنم فحال عليها الحول لم تجب على السيد زكاتها لأنها ملك غيره، ولا على العبد لأن ملكه غير مستقر . والعراقىّ يقول : لايجوز له أن يطأ الجارية، والزكاة فى النصاب واجبة على السيد كما كانت . ودلائل هذه المسألة للفريقين فى كتب الخلاف . وأدلّ دليل لنا قوله تعالى: «الله الذى خلقكم ثم رزقكم» فسوّى بين العبد والحرّ فى الرزق والخلق . وقال عليه السلام : "من أعتق عبدا وله مال ..." فأضاف المال إليه . وكان ابن عمر يرى عبده يتسرّى فى ماله فلا يعيب عليه ذلك . وروى عن ابن عباس أن عبدا له طلق امرأته طلقتين فأمره أن يرتجعها بملك اليمين؛ فهذا دليل على أنه يملك ما بيده ويفعل فيه ما يفعل المالك فى ملكه ما لم ينتزعه سيده . والله أعلم .

---

(١) الأســر : الخلق .

الثالثة – وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن طلاق العبد بيد سيده ، وعلى أن بيع الأمة طلاقها . معولا على قوله تعالى : « لا يقدر على شيء » . قال : فظاهره يفيد أنه لا يقدر على شيء أصلا ، لا على الملك ولا على غيره فهو على عمومه ، إلا أن يدل دليل على خلافه . وفيما ذكرناه عن ابن عمر وابن عباس ما يدل على التخصيص . والله تعالى أعلم .

الرابعة – قال أبو منصور في عقيدته[1] : الرزق ما وقع الاغتذاء به . وهذه الآية ترد هذا التخصيص ، وكذلك قوله تعالى : « ومما رزقناهم ينفقون »[2] . و« أنفقوا مما رزقناكم »[3] وغير ذلك من قول النبي صلى الله عليه وسلم : " جعل رزقي تحت ظل رمحي " وقوله : " أرزاق أمتي في سنابك خيلها وأسنة رماحها " . فالغنيمة كلها رزق ، وكل ما صح به الانتفاع فهو رزق ، وهو مراتب : أعلاها ما يغذي . وقد حصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوه الانتفاع في قوله : " يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت " . وفي معنى اللباس يدخل الركوب وغير ذلك . وفي ألسنة المحدثين : السماع رزق ، يعنون سماع الحديث ، وهو صحيح .

الخامسة – قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا ﴾ هو المؤمن ، يطيع الله في نفسه وماله . والكافر ما لم ينفق في الطاعة صار كالعبد الذي لا يملك شيئا . ﴿ هَلْ يَسْتَوُونَ ﴾ أي لا يستوون ، ولم يقل يستويان لمكان « من » لأنه اسم مبهم يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث . وقيل : « إن عبدا مملوكا » ، « ومن رزقناه » أريد بهما الشيوع في الجنس . ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي هو مستحق للحمد دون ما يعبدون من دونه ، إذ لا نعمة للاصنام عليهم من يد ولا معروف فتحمد عليه ، إنما الحمد الكامل لله ؛ لأنه المنعم الخالق . ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أي أكثر المشركين ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن الحمد لي ، وجميع النعمة مني . وذكر الأكثر وهو يريد الجميع ، فهو خاص أريد به التعميم . وقيل : أي بل أكثر الخلق لا يعلمون ، وذلك أن أكثرهم المشركون .

---

(١) العقيدة : اسم كتاب لأبي منصور الماتريدي ، وهو محمد بن محمد بن محمود مات بسمرقندسنة ٣٣٣ هـ . راجع كشف الظنون وتاج التراجم في طبقات الحنفية . (٢) آية ٣ سورة البقرة . (٣) آية ٢٥٤ سورة البقرة .

قوله تعالى : وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦)

قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ ﴾ هذا مَثَل آخر ضربه الله تعالى لنفسه وللوثن، فالأبكم الذى لا يقدر على شىء هو الوثن، والذى يأمر بالعدل هو الله تعالى؛ قاله قَتادة وغيره . وقال ابن عباس : الأبكم عبد كان لعثمان رضى الله عنه، وكان يعرض عليه الإسلام فيأبى، ويأمر بالعدل عثمانُ . وعنه أيضا أنه مَثَلٌ لأبى بكر الصدّيق ومولًى له كافر . وقيل : الأبكم أبو جهل، والذى يأمر بالعدل عَمّار بن ياسر العَنْسِىّ، وعَنْس (بالنون) حَىّ من مَذْحِج، وكان حليفا لبنى مخزوم رهط أبى جهل، وكان أبو جهل يعذبه على الإسلام ويعذب أمه سُمَيّة ، وكانت مولاة لأبى جهل، وقال لها ذات يوم : إنما آمنت بمحمد لأنك تحبّينه لجماله ، ثم طعنها بالرمح فى قُبُلها فماتت، فهى أوّل شهيد مات فى الإسلام، رحمها الله . من كتاب النقاش وغيره . وسيأتى هذا فى آية الإكراه مبيَّنا[1] إن شاء الله تعالى . وقال عطاء : الأبكم أُبَىّ بن خلَف، كان لا ينطق بخير . ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ ﴾ أى قومه لأنه كان يؤذيهم ويؤذى عثمان بن مَظْعُون . وقال مقاتل : نزلت فى هشام بن عمرو بن الحارث، كان كافرا قليلَ الخير يعادى النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : إن الأبكم الكافرُ، والذى يأمر بالعدل المؤمنُ جملةً بجملة؛ روى عن ابن عباس وهو حَسَن لأنه يَعُمّ . والأبكم الذى لا نطق له . وقيل الذى لا يعقل . وقيل الذى لا يسمع ولا يبصر . وفى التفسير إن الأبكم ها هنا الوثنَ . بيّن أنه لا قدرة له ولا أمر ، وأن غيره ينقله وينحته فهو كَلٌّ عليه . والله الآمر بالعدل، الغالب على كل شىء . وقيل : المعنى « وهو كَلٌّ على مولاه » أى ثِقْل على وليّه وقرابته، ووبال على صاحبه وابن عمه . وقد يسمّى اليتيم كَلًّا لثقله على من يكفله؛ ومنه قول الشاعر :

أكُولٌ لمال الكَلّ قبل شبابه ٭ إذا كان عظم الكَلّ غيرَ شديد

(١) آية ١٠٦ من هذه السورة، ص ١٨٠ وما بعدها من هذا الجزء .

والكَلّ أيضا الذى لا ولد له ولا والد . والكَلّ العيال، والجمع الكُلُول؛ يقال منه : كَلّ السكين يَكِلّ كَلًّا أى غلظت شفرته فلم يقطع . ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ قرأ الجمهور «يُوَجِّهْهُ» وهو خط المصحف؛ أى أينما يرسله صاحبه لا يأت بخير؛ لأنه لا يعرف ولا يفهم ما يقال له ولا يُفهم عنه . وقرأ يحيى بن وثاب «أينما يُوَجَّهْ» على الفعل المجهول . وروى عن ابن مسعود أيضا «تَوَجّهه» على الخطاب . ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أى هل يستوى هذا الأبكم ومن يأمر بالعدل على الصراط المستقيم .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقدّم معناه[1] . وهذا متصل بقوله «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» أى شرعُ التحليل والتحريم إنما يحسن ممن يحيط بالعواقب والمصالح وأنتم أيها المشركون لا تحيطون بها فلِمَ تتحكمون . ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ وتجازَوْن فيها بأعمالكم . والساعة هى الوقت الذى تقوم فيه القيامة؛ سُمّيت ساعة لأنها تفجأ الناس فى ساعة فيموت الخلق بصيحة . واللّمح : النظر بسرعة؛ يقال : لَمَحه لَمْحًا ولَمَحانا . ووجه التأويل أن الساعة لما كانت آتية ولا بُدّ جُعلت من القرب كلمح البصر. وقال الزجاج : لم يرد أن الساعة تأتى فى لمح البصر، وإنما وصف سرعة القدرة على الإتيان بها؛ أى يقول للشىء كن فيكون . وقيل : إنما مثّل بلمح البصر لأنه يلمح السماء مع ما هى عليه من البعد من الأرض . وقيل : هو تمثيل للقرب؛ كما يقول القائل : ما السّنة إلا لحظة، وشبهه . وقيل : المعنى هو عند الله كذلك لا عند المخلوقين؛ دليله قوله : «إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا . وَنَرَاهُ قَرِيبًا»[2] . ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ ليس «أو» للشك بل للتمثيل بأيهما أراد الممثل . وقيل : دخلت لشك المخاطب . وقيل : «أو» بمنزلة بل . ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقدّم[3] .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ١١٧ (٢) آية ٦ سورة المعارج . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٢٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ ذكر أن من [نعمه] أنه أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا لا علم لكم بشيء . وفيه ثلاثة أقاويل : أحدها — لا تعلمون شيئا مما أخذ عليكم من الميثاق فى أصلاب آبائكم . الثانى — لا تعلمون شيئا مما قضى عليكم من السعادة والشقاء . الثالث — لا تعلمون شيئا من منافعكم ؛ وتمّ الكلام ، ثم ابتدأ فقال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ أى التى تعلمون بها وتدركون ؛ لأن الله جعل ذلك لعباده قبل إخراجهم من البطون وإنما أعطاهم ذلك بعد ما أخرجهم؛ أى وجعل لكم السمع لتسمعوا به الأمر والنهى، والأبصار لتبصروا بها آثار صنعه ، والأفئدة لتصلوا بها إلى معرفته . والأفئدة : جمع الفؤاد نحو غراب وأغربة . وقد قيل فى ضمن قوله « وجعل لَكُمُ السَّمْعَ » إثبات النطق لأن من لم يسمع لم يتكلم ، وإذا وجدت حاسة السمع وجد النطق . وقرأ الأعمش وابن وثّاب وحمزة « إمهاتكم » هنا وفى النور[1] والزمر[2] والنجم[3]، بكسر الهمزة والميم . وأما الكسائى فكسر الهمزة وفتح الميم؛ وإنما كان هذا للإتباع . الباقون بضم الهمزة وفتح الميم على الأصل . وأصل الأمهات : أمات ، فزيدت الهاء تأكيدا كما زادوا هاء فى أهرقت الماء وأصله أرقت . وقد تقدم هذا المعنى فى «الفاتحة»[4] . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فيه تأويلان : أحدهما — تشكرون نعمه . الثانى — يعنى تبصرون آثار صنعته ؛ لأن إبصارها يؤدى إلى الشكر .

قوله تعالى : أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

(١) فى قوله تعالى : « ليس على الأعمى حرج ... » آية ٦١ . (٢) فى قوله تعالى : « خلقكم من نفس واحدة .. » آية ٦ . (٣) فى قوله تعالى : « الذين يجتنبون كبائر الإثم ... » آية ٣٢ . (٤) راجع جـ ١ ص ١٤٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ﴾ قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وابن عامر وحمزة ويعقوب « تروا » بالتاء على الخطاب، واختاره أبو عبيد. الباقون بالياء على الخبر. ﴿ مُسَخَّرَاتٍ ﴾ مذللات لأمر الله تعالى؛ قاله الكلبي. وقيل: « مسخرات » مذللات لمنافعكم. ﴿ فِي جَوِّ السَّمَاءِ ﴾ الجو ما بين السماء والأرض؛ وأضاف الجو إلى السماء لارتفاعه عن الأرض. وفي قوله « مسخرات » دليل على مسخر سخرها ومدبر مكنها من التصرف. ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ﴾ في حال القبض والبسط والاصطفاف. بين لهم كيف يعتبرون بها على وحدانيته. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أي علامات وعبرا ودلالات. ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بالله وبما جاءت به رسلهم.

قوله تعالى : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾

فيه عشر[1] مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُم ﴾ معناه صير. وكل ما علاك فأظلك فهو سقف وسماء، وكل ما أقلك فهو أرض، وكل ما سترك من جهاتك الأربع فهو جدار؛ فإذا انتظمت واتصلت فهو بيت. وهذه الآية فيها تعديد نعم الله تعالى على الناس في البيوت، فذكر أولا بيوت المدن وهي التي للإقامة الطويلة. وقوله: ﴿ سَكَنًا ﴾ أي تسكنون فيها وتهدأ جوارحكم من الحركة، وقد تتحرك فيه وتسكن في غيره؛ إلا أن القول خرج على الغالب. وعد هذا في جملة النعم فإنه لو شاء خلق العبد مضطربا أبدا كالأفلاك لكان ذلك كما خلق وأراد، ولو خلقه ساكنا كالأرض لكان كما خلق وأراد، ولكنه أوجده خلقا يتصرف للوجهين، ويختلف حاله بين الحالتين، وردده كيف وأين. والسكن مصدر يوصف به الواحد والجمع. ثم ذكر تعالى بيوت النقلة والرحلة وهي :

(١) اضطربت الأصول في عدد هذه المسائل

الثانيـة — فقال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا ﴾ أى من الأنطاع والأدم. ﴿ بُيُوتًا ﴾ يعنى الخيام والقباب يخف عليكم حملها فى الأسفار . ﴿ يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ﴾ الظعن : سير البادية فى الانتجاع[1] والتحول من موضع إلى موضع؛ ومنه قول عنترة :

ظعن الذين فراقهم أتوقع ٭ وجرى بينهم الغراب الأبقع

والظعن الهودج أيضا؛ قال :

ألا هل هاجك الأظعان إذ بانوا ٭ وإذ جادت بوشك البين غربان

وقرئ بإسكان العين وفتحها كالشَّعْر والشَّعَر . وقيـل : يحتمل أن يعم بيوت الأدم وبيوت الشعر وبيوت الصوف ؛ لأن هـذه من الجلود لكونها ثابتة فيها ؛ نحا إلى ذلك ابن سلام . وهو احتمال حسن . ويكون قوله « ومِنْ أَصْوَافِهَا » ابتـداء كلام، كأنه قال جعـل أثاثا ؛ يريد الملابس والوطاء، وغير ذلك؛ قال الشاعر :

أهاجتـك الظعائن يوم بانوا ٭ بذى الزى الجميل من الأثاث

ويحتمل أن يريد بقوله « من جلود الأنعـام » بيوت الأدم فقـط كما قدمناه أولا . ويكون قوله « ومن أصوافها » عطفا على قوله « من جلود الأنعـام » أى جعـل بيوتا أيضا . قال ابن العربى : « وهـذا أمر انتشر فى تلك الديار، وعزبت عنه بلادنا، فلا تضرب الأخبية عندنا إلا من الكتان والصوف، وقد كان للنبى صلى الله عليه وسلم قبة من أدم، وناهيك من أدم الطائف غلاء فى القيمة، واعتلاء فى الصنعة، وحسنا فى البشرة ، ولم يعد ذلك صلى الله عليه وسلم ترفا ولا رآه سرفا؛ لأنه مما امتن الله سبحانه من نعمته وأذن فيه من متاعه، وظهرت وجوه منفعته فى الاكتنان والاستظلال الذى لا يقدر على الخروج عنه جنس الإنسان . ومن غريب ما جرى أنى زرت بعض المترهدين من الغافلين مع بعض المحدثين ، فدخلنا عليـه فى خباء كتان فعرض عليه صاحبى المحدث أن يحمله إلى منزله ضيفا، وقال : إن هذا موضع يكثر فيه الحر والبيت أرفق بك وأطيب لنفسى بك ؛ فقال : هـذا الخباء لنا كثير، وكان

(١) النجعة والانتجاع : طلب الكلأ ومساقط الغيث .

فى صنعنا من الحقير، فقلت : ليس كما زعمت ! فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو رئيس الزهاد جُبّة من أدم طائفى يسافر معها ويستظل بها، فبهت، ورأيته على منزلة من العِىّ فتركته مع صاحبى وخرجت عنه » .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا ﴾ أذن الله سبحانه بالانتفاع بصوف الغنم ووَبَر الإبل وشعر المعز، كما أذن فى الأعظم، وهو ذبحها وأكل لحومها، ولم يذكر القطن والكَتّان لأنه لم يكن فى بلاد العرب المخاطبين به، وإنما عدّد عليهم ما أنعم به عليهم، وخوطبوا فيما عرفوا بما فهموا . وما قام مقام هذه وناب منابها فيدخل فى الاستعمال والنعمة مدخلها؛ وهذا كقوله تعالى : « وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ »[1]؛ فخاطبهم بالبَرَد لأنهم كانوا يعرفون نزوله كثيرا عندهم، وسكت عن ذكر الثلج؛ لأنه لم يكن فى بلادهم، وهو مثله فى الصفة والمنفعة ، وقد ذكرهما النبىّ صلى الله عليه وسلم معًا فى التطهير فقال : " اللّهم اغسلنى بماء وثلج وبَرَد » . قال ابن عباس : الثلج شىء أبيض ينزل من السماء وما رأيته قطّ . وقيل : إن ترك ذكر القطن والكَتّان إنما كان إعراضا عن التَّرَف؛ إذ ملبس عباد الله الصالحين إنما هو الصوف . وهذا فيه نظر؛ فإنه سبحانه يقول : « يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ » حسبما تقدم بيانه فى «الأعراف»[2] . وقال هنا : « وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ » فأشار إلى القطن والكَتّان فى لفظة « سرابيل » والله أعلم . و﴿ أَثَاثًا ﴾ قال الخليل : متاعا منضما بعضه إلى بعض؛ من أثّ إذا اكثر . قال .

وفَرْعٍ يَزِينُ المَتْنَ أسودَ فاحمٍ ۞ أثيثٍ كقِنْوِ النخلة المُتَعَثْكِلِ[3]

ابن عباس : « أثاثا » ثيابا . وقد تقدّم . وتضمّنت هذه الآية جواز الانتفاع بالأصواف والأوبار والأشعار على كل حال ؛ ولذلك قال أصحابنا : صوف الميتة وشعرها طاهر يجوز

---

(١) آية ٤٣ سورة النور (٢) راجع جـ ٧ ص ١٨٢ طبعة أولى أو ثانيــة . (٣) البيت من معلقة امرئ القيس . والفرع : الشعر التام . والمتن والمتنة : ما عن يمين الصلب وشماله من العصب واللحم . والفاحم : الشديد السواد . والقنو (بالكسر والضم) : العذق وهو الشمراخ . والمتعثكل : الذى قد دخل بعضه فى بعض لكثرته .

الانتفاع به على كل حال ، ويغسل مخافة أن يكون عَلِق به وسخ ؛ وكذلك روت أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا بأس بجلد الميتة إذا دُبغ وصوفها وشعرها إذا غُسل " لأنه مما لا يحلّه الموت ؛ وسواء كان شعر ما يؤكل لحمه أو لا ، كشعر ابن آدم والخنزير ، فإنه طاهر كله ؛ وبه قال أبو حنيفة ، ولكنه زاد علينا فقال : القَرْن والسّن والعظم مثل الشعر ؛ قال : لأن هذه الأشياء كلها لا روح فيها فلا تنجس بموت الحيوان . وقال الحسن البَصْري والليث بن سعد والأوزاعي : إن الشعور كلها نجسة ولكنها تطهر بالغسل . وعن الشافعي ثلاث روايات : الأولى — طاهرة لا تنجس بالموت . الثانية — تنجس . الثالثة — الفرق بين شعر ابن آدم وغيره ، فشعر ابن آدم طاهر وما عداه نجس . ودليلنا عموم قوله تعالى : « ومن أصوافها » الآية . فمَنّ علينا بأن جعل لنا الانتفاع بها ، ولم يخص شعر الميتة من المُذَكّاة ، فهو عموم إلا أن يمنع منه دليل . وأيضا فإن الأصل كونها طاهرة قبل الموت بإجماع ، فمن زعم أنه انتقل إلى نجاسة فعليه الدليل . فإن قيل قوله : « حُرِّمَتْ عليكم الميتة » وذلك عبارة عن الجملة . قلنا : نخصه بما ذكرنا ؛ فإنه منصوص عليه في ذكر الصوف ، وليس في آيتكم ذكره صريحا ، فكان دليلنا أولى . والله أعلم . وقد عوّل الشيخ الإمام أبو إسحاق إمام الشافعية ببغداد على أن الشعر جزء متصل بالحيوان خِلْقة ، فهو ينمى بنمائه ويتنجس بموته كسائر الأجزاء . وأجيب بأن النّماء ليس بدليل على الحياة ؛ لأن النبات ينمى وليس بحيّ . وإذا عوّلوا على النماء المتصل لما على الحيوان عوّلنا نحن على الإبانة التي تدل على عدم الإحساس الذي يدل على عدم الحياة . وأما ما ذكره الحنفيّون في العظم والسن والقَرْن أنه مثل الشعر ، فالمشهور عندنا أن ذلك نجس كاللحم . وقال ابن وهب مثل قول أبي حنيفة . ولنا قول ثالث — هل تلحق أطراف القرون والأظلاف بأصولها أو بالشعر ، قولان . وكذلك الشَّعري من الريش حكمه حكم الشعر ، والعظمي منه حكمه حكمه . ودليلنا قوله صلى الله عليه وسلم : " لا تنتفعوا من الميتة بشيء " وهذا عام فيها وفي كل جزء منها ، إلا ما قام دليله ؛ ومن الدليل القاطع على ذلك قوله تعالى : « قال من يُحْيي العِظَامَ وهي رَمِيم »[1] .

---

(١) آية ٧٨ سورة يس .

وقال تعالى: «وَٱنظُرْ إِلَى ٱلعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا»[١]، وقال : « فَكَسَوْنَا ٱلعِظَامَ لَحْمًا »[٢] ، وقال : « أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً »[٣] . فالأصل هي العظام ، والروح والحياة فيها كما في اللحم والجلد . وفي حديث عبد الله بن عُكَيم : " لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عَصَب " . فإن قيل : قد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في شاة ميمونة : " ألَّا انتفعتم بجلدها" ؟ فقالوا : يارسول الله ، إنها ميّتة . فقال : " إنما حَرُم أكلها " والعظم لا يؤكل . قلنا : العظم يؤكل ، وخاصّةً عظم الجمل الرضيع والجَدْي والطير ، وعظم الكبير يشوى ويؤكل . وما ذكرناه قبلُ يدُلّ على وجود الحياة فيه ، وما كان طاهرا بالحياة ويستباح بالذكاة ينجس بالموت . والله أعلم .

الرابعة — قوله تعالى: ﴿مِنْ جُلُودِ ٱلأَنْعَامِ﴾ عامٌّ في جلد الحيّ والميت ، فيجوز الانتفاع بجلود الميتة وإن لم تدبغ ؛ وبه قال ابن شهاب الزهريّ والليث بن سعد . قال الطحاويّ : لم نجد عن أحد من الفقهاء جواز بيع جلد الميتة قبل الدباغ إلا عن الليث . قال أبو عمر : يعني من الفقهاء أئمة الفتوى بالأمصار بعد التابعين ، وأما ابن شهاب فذلك عنه صحيح ، وهو قول أباه جمهور أهل العلم . وقد روى عنهما خلاف هذا القول ، والأول أشهر .

قلت : قد ذكر الدّارَقُطْنيّ في سننه حديث يحيى بن أيوب عن يونس وعقيل عن الزهريّ ، وحديث بقية عن الزُّبيدي ، وحديث محمد بن كثير العبدي وأبي سلمة المنقريّ عن سليمان بن كثير عن الزهريّ ؛ وقال في آخرها : هذه أسانيد صحاح .

السادسة[٤] — اختلف العلماء في جلد الميتة إذا دُبغ هل يطهر أم لا ؛ فذكر ابن عبد الحكم عن مالك ما يُشبه مذهبَ ابن شهاب في ذلك . وذكره ابن خُوَيْزِمَنْداد في كتابه عن ابن عبد الحكم أيضا . قال ابن خُوَيْزِمَنْداد : وهو قول الزهريّ والليث . قال : والظاهر من مذهب مالك ما ذكره ابن عبد الحكم ، وهو أن الدباغ لا يطهِّر جلد الميتة ، ولكن يبيح الانتفاع به في الأشياء اليابسة ، ولا يصلى عليه ولا يؤكل فيه . وفي المدونة لابن القاسم

---

(١) آية ٢٥٩ سورة البقرة . (٢) آية ١٤ سورة المؤمنون . (٣) آية ١١ سورة النازعات .
(٤) اضطربت الأصول في عدة هذه المسائل .

« من اغتصب جلد ميتة غير مدبوغ فأتلفه كان عليه قيمته » وحكى أن ذلك قول مالك .
وذكر أبو الفرج أن مالكا قال : من اغتصب لرجل جلد ميتة غير مدبوغ فلا شيء عليه .
قال إسماعيل : إلا أن يكون لمجوسي . وروى ابن وهب وابن عبد الحكم عن مالك جواز
بيعه ، وهذا في جلد كل ميتة إلا الخنزير وحده ؛ لأن الزكاة لا تعمل فيه ، فالدباغ أولى .
قال أبو عمر : وكل جلد ذُكِّي فجائز استعماله للوضوء وغيره . وكان مالك يكره الوضوء في إناء
جلد الميتة بعد الدباغ على اختلاف من قوله ، ومرة قال : إنه لم يكرهه إلا في خاصة نفسه ،
وتكره الصلاة عليه وبيعه ، وتابعه على ذلك جماعة من أصحابه . وأما أكثر المدنيين
فعلى إباحة ذلك وإجازته ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أيما إهاب دبغ فقد
طهر ". وعلى هذا أكثر أهل الحجاز والعراق من أهل الفقه والحديث ، وهو اختيار ابن وهب .

السابعة — ذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه إلى أنه لا يجوز الانتفاع
بجلود الميتة في شيء وإن دبغت ؛ لأنها كلحم الميتة . والأخبار بالانتفاع بعد الدباغ ترد قوله .
واحتج بحديث عبد الله بن عكيم — رواه أبو داود — قال : قرئ علينا كتاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم بأرض جهينة وأنا غلام شاب : " ألا تستمتعوا من الميتة بإهاب ولا عصب " .
وفي رواية : « قبل موته بشهر »[1] . رواه القاسم بن مخيمرة عن عبد الله بن عكيم ، قال : حدثنا
مشيخة لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إليهم ... قال داود بن علي : وسألت يحيى بن معين
عن هذا الحديث فضعفه وقال : ليس بشيء ، إنما يقول حدثني الأشياخ . قال أبو عمر :
ولو كان ثابتا لاحتمل أن يكون مخالفا للأحاديث المروية عن ابن عباس وعائشة وسلمة بن
المحبق وغيرهم ، لأنه جائز أن يكون معنى حديث ابن عكيم " ألا تنتفعوا من الميتة بإهاب "
قبل الدباغ ؛ وإذا احتمل ألا يكون مخالفا فليس لنا أن نجعله مخالفا ، وعلينا أن نستعمل
الخبرين ما أمكن ، وحديث عبد الله بن عكيم وإن كان قبل موت النبي صلى الله عليه وسلم
بشهر كما جاء في الخبر فيمكن أن تكون قصة ميمونة وسماع ابن عباس منه " أيما إهاب دبغ
فقد طهر " قبل موته بجمعة أو دون جمعة ، والله أعلم .

(١) لفظة « شهر » ساقطة من سنن أبي داود .

الثامنـــة ـ المشهور عنـدنا أن جلد الخنزير لا يدخل فى الحديث ولا يتناوله العمومُ ، وكذلك الكلب عند الشافعىّ . وعند الأوزاعى وأبى ثور : لا يطهر بالدباغ إلا جلد ما يؤكل لحمه . وروى مَعْن بن عيسى عن مالك أنه سئل عن جلد الخنزير إذا دبغ فكرهه . قال ابن وَضّاح : وسمعت سُحْنُونا يقول لا بأس به ؛ وكذلك قال محمد بن عبـد الحكم وداود بن علىّ وأصحابه ؛ لقوله عليه السلام : "أيمـا مَسْك[1] دبغ فقد طهر". قال أبو عمر : يحتمل أن يكون أراد بهذا القول عموم الجلود المعهود الانتفاع بها ، فأما الخنزير فلم يدخل فى المعنى لأنه غير معهود الانتفاع بجلده ، إذ لا تعمل فيه الذكاة . ودليل آخر وهو ما قاله النَّضْر بن شُمَيل : إن الإهاب جلد البقر والغنم والإبل ، وما عداه فإنمـا يقال له : جلد لا إهاب .

قلت : وجلد الكلب وما لا يؤكل لحمه أيضا غير معهود الانتفاع به فلا يطهر ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : "أكل كلّ ذى ناب من السباع حرام" فليست الذكاة فيها ذكاة ؛ كما أنها ليست فى الخنزير ذكاة . وروى النَّسائىّ عن المقدام بن معد يكرب قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحرير والذهب ومياثر النمور[2] .

التاسعـــة ـ اختلف الفقهاء فى الدباغ التى تطهر به جلود الميتة ما هو ؟ فقال أصحاب مالك وهو المشهور من مذهبـه : كل شىء دبغ الجلد من ملح أو قَرَظ أو شَبّ أو غير ذلك فقد جاز الانتفاع به . وكذلك قال أبو حنيفة وأصحابه ، وهو قول داود . وللشافعىّ فى هذه المسئلة قولان : أحدهما ـ هـذا ، والآخر أنه لا يُطَهِّر إلا الشبّ والقَـرَظ ؛ لأنه الدباغ المعهود على عهـد النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وعليـه خرّج الخطابىّ ـ والله أعلم ـ ما رواه النَّسائىّ عن ميمونة زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه مرّ برسول الله صلى الله عليه وسلّم رجال من قريش يجرّون شاة لهم مثل الحصان ؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لو أخذتم إهابها" قالوا : إنها ميتة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يطهرها المـاء والقرظ".

---

(١) المَسك (بالفتح وسكون السين) : الجلد . وخص بعضهم به جلد السخلة ، ثم كثر حتى صار كل جلد مسكا ، والجمع مسك ومسوك . (٢) أى عن أن تفرش وتوضع على السرج والرحال للجلوس عليها لما فيه من التكبر ، أو لأنها زى العجم ، أو لأن الشعر نجس لا يطهر بالدباغ . (عن شرح سنن النسائى) .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ أَثَاثًا ﴾ الأثاث متاع البيت ، وأحدها أثاثة ؛ هذا قول أبي زيد الأنصارى . وقال الأموى : الأثاث متاع البيت ، وجمعه آثة وأُثُث . وقال غيرهما : الأثاث جميع أنواع المال ولا واحد له من لفظه . وقال الخليل : أصله من الكثرة واجتماع بعض المتاع إلى بعض حتى يكثر ؛ ومنه شعر أثيث أى كثير . وأثّ شعر فلان يأث أثا إذا كثر والتف ؛ قال آمرؤ القيس :

وفرع يزين المتن أسود فاحم ٭ أثيث كقنو النخلة المتعثكل

وقيل : الأثاث ما يلبس ويفترش . وقد تأثثت إذا اتخذت أثاثا . وعن ابن عباس رضى الله عنه « أثاثا » مالا . وقد تقدم القول فى الحين[1] ؛ وهو هنا وقت غير معين بحسب كل إنسان ، إما بموته وإما بفقد تلك الأشياء التى هى أثاث . ومن هذه اللفظة قول الشاعر :

أهاجتك الظعائن يوم بانوا ٭ بذى الزى الجميل من الأثاث

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ظِلَالًا ﴾ الظلال : كل مايستظل به من البيوت والشجر . وقوله ﴿ مِّمَّا خَلَقَ ﴾ يعم جميع الأشخاص المظلة .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ أَكْنَانًا ﴾ الأكنان : جمع كِنّ ، وهو الحافظ من المطر والريح وغير ذلك ؛ وهى هنا الغيران فى الجبال ، جعلها الله عدة للخلق يأوون إليها ويتحصنون بها ويعتزلون عن الخلق فيها . وفى الصحيح أنه عليه السلام كان فى أول أمره يتعبد بغار حراء ويمكث فيه الليالى — الحديث . وفى صحيح البخارى قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) راجع المسألة السادسة ج ١ ص ٣٢١ طبعة ثانية أو ثالثة .

من مكة مهاجرا هاربا من قومه فارا بدينه مع صاحبه أبي بكر حتى لحقا بغار في جبل ثور ، فكمنا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما فيه عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف[1] لقن فيُدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع أمرا يكادان[2] به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، ويرعى عليهما عامر بن فُهيرة مولى أبي بكر منحة[3] من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رِسْل ، وهو لبن منحتهما ورضيفهما[4] حتى ينعق بهما عامر بن فُهيرة بغلس ، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث ... وذكر الحديث . انفرد بإخراجه البخاري .

الثالثة ــ قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ يعني القُمص ، واحدها سربال . ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ﴾ يعني الدروع التي تقي الناس في الحرب ؛ ومنه قول كعب بن زهير :

شُمُّ العرانين أبطال لَبُوسهم * من نَسْج داود في الهيجا سرابيلُ

الرابعة ــ إن قال قائل : كيف قال «وجعل لكم من الجبال أكنانا» ولم يذكر السهل ، وقال «تقيكم الحر» ولم يذكر البرد ؟ فالجواب أن القوم كانوا أصحاب جبال ولم يكونوا أصحاب سهل ، وكانوا أهل حَرّ ولم يكونوا أهل برد ، فذكر لهم نعمه التي تختص بهم كما خصهم بذكر الصوف وغيره ، ولم يذكر القطن والكتان ولا الثلج ــ كما تقدم ــ فإنه لم يكن ببلادهم ؛ قال معناه عطاء الخراساني وغيره . وأيضا : فذكر أحدهما يدل على الآخر ؛ ومنه قول الشاعر :

وما أدري إذا يممت أرضا * أريد الخير أيهما يليني
أألخير الذي أنا أبتغيه * أم الشر الذي هو يبتغيني

الخامسة ــ قال العلماء : في قوله تعالى : ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ﴾ دليل على اتخاذ العباد عدة الجهاد ليستعينوا بها على قتال الأعداء ، وقد لبسها النبي صلى الله عليه وسلم تقاة

---

(١) أي حاذق سريع الفهم . (٢) من الكيد ؛ أي يطلب لهما ما فيه المكروه . (٣) أي شاة تحلب إناء بالغداة وإناء بالعشي . (٤) الرضيف : اللبن المرضوف ، وهو الذي طرح فيه الحجارة المحماة ليذهب وخمه .

الجراحه و إن كان طلب الشهادة ، وليس للعبد أن يطلبها بأن يستسلم للحتوف وللطعن بالسنان وللضرب بالسيوف ، ولكنه يلبس لامة حرب[1] لتكون له قوة على قتال عدوه ، و يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، و يفعل الله بعدُ مايشاء ».

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ قرأ ابن مُحَيْصِن وحميد « تتم » بتاءين ، « نعمتُه » رفعا على أنها الفاعل . الباقون « يتم » بضم الياء على أن الله هو يتمها . و « تسلمون » قراءة ابن عباس وعكرمة « تَسْلَمون » بفتح التاء واللام ، أي تسلمون من الجراح ، وإسناده ضعيف ؛ رواه عَباد بن العوّام عن حنظلة عن شَهْر عن ابن عبـاس . الباقون بضم التاء ، ومعناه تستسلمون وتنقادون إلى معرفة الله وطاعته شكرا على نعمـه . قال أبو عبيد : والاختيار قراءة العامة ؛ لأن ما أنعم الله به علينا من الإسـلام أفضل ممـا أنعم به من السلامة من الجراح .

قوله تعـالى : فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أي أعرضوا عن النظر والاستدلال والإيمان . ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ أي ليس عليك إلا التبليغ ، وأما الهداية فإلينا .

قوله تعـالى : يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ﴾ قال السُّدِّيّ : يعني محمدا صلى الله عليه وسلم ، أي يعرفون نبوّته ﴿ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا ﴾ و يكذبونه . وقال مجـاهد : يريد ماعدّد الله عليهم في هـذه السورة من النعم ؛ أي يعرفون أنها من عند الله و ينكرونها بقولهم إنهم ورثوا ذلك عن آبائهم . و بمثله قال قتادة . وقال عَوْن بن عبـد الله : هو قول الرجل لولا فـلان لكان كذا ، ولولا فـلان ما أصبت كذا ، وهم يعرفون النفع والضر من عند الله . وقال الكلبيّ : هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمـا عرّفهم بهذه النعم كلها عرفوها وقالوا : نعم ، هي كلها نعم من الله ، ولكنها

(١) لأمة الحرب : أداته ، وقد يترك الهمز تخفيفا .

بشفاعة آلهتنا . وقيل : يعرفون نعمة الله بتقلبهم فيها، وينكرونها بترك الشكر عليها . ويحتمل سادسا - يعرفونها فى الشدة وينكرونها فى الرخاء . ويحتمل سابعا - يعرفونها بأقوالهم وينكرونها بأفعالهم . ويحتمل ثامنا - يعرفونها بقلوبهم ويجحدونها بألسنتهم؛ نظيرها «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم»[(١)] ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ يعنى جميعهم؛ حسبما تقدم .

قوله تعالى : وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ نظيره : «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ»[(٢)] وقد تقدم . ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى فى الاعتذار والكلام؛ كقوله : «وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ»[(٣)] . وذلك حين تطبق عليهم جهنم، كما تقدم فى أول «الحجر» ويأتى . ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يعنى يسترضون، أى لا يكلفون أن يرضوا ربهم؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف، ولا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون . وأصل الكلمة من العتب وهى الموجدة؛ يقال : عتب عليه يعتب إذا وجد عليه، فإذا فاوضه ماعتب عليه فيه قيل عاتبه، فإذا رجع إلى مسرتك فقد أعتب، والاسم العتبى وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضى العاتب؛ قاله الهروى . وقال النابغة :

فإن كنتُ مظلوما فعبدا ظلمتَه ... وإن كنتَ ذا عُتبى فمثلك يُعتِب

قوله تعالى : وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى أشركوا . ﴿الْعَذَابَ﴾ أى عذاب جهنم بالدخول فيها . ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أى لا يمهلون، إذ لا توبة لهم ثَمّ .

(١) آية ١٤ سورة النمل . (٢) آية ٤١ سورة النساء . وراجع جـ ٥ ص ١٩٧ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) آية ٣٦ سورة المرسلات .

قوله تعالى : وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أى أصنامهم وأوثانهم التى عبدوها؛ وذلك أن الله يبعث معبوديهم فيتبعونهم حتى يُوردوهم النار . وفى صحيح مسلم : " من كان يعبد شيئا فَلْيَتَّبِعْه فيتبع من كان يعبد الشمس الشمسَ ويتبع من كان يعبد القمر القمرَ ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت " الحديث ، خرجه من حديث أنس[1] ، والترمذى من حديث أبى هريرة ، وفيه : " فيُمثَّل لصاحب الصليب صليبُه ولصاحب التصاوير تصاويرُه ولصاحب النار نارُه فيتبعون ما كانوا يعبدون " وذكر الحديث[2] . ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ﴾ أى الذين جعلناهم لك شركاء . ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أى ألقت إليهم الآلهة القول ، أى نطقت بتكذيب من عبدها بأنها لم تكن آلهة ، ولا أمرتهم بعبادتها ، فيُنطق الله الأصنام حتى تظهر عند ذلك فضيحة الكفار . وقيل : المراد بذلك الملائكة الذين عبدوهم . ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ يعنى المشركين ، أى استسلموا لعذابه وخضعوا لعزه . وقيل : استسلم العابد والمعبود وانقادوا لحكمه فيهم . ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى زال عنهم ما زيّن لهم الشيطان وما كانوا يؤمّلون من شفاعة آلهتهم .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾

(١) ورد هذا الحديث فى صحيح مسلم عن أبى هريرة . راجع كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية .

(٢) راجع الحديث فى سنن الترمذى فى باب صفة الجنة .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ ﴾ قال ابن مسعود : عقارب أنيابها كالنخل الطوال، وحيات مثل أعناق الإبل، وأفاعي كأنها البخاتي[1] تضربهم، فتلك الزيادة . وقيل : المعنى يخرجون من النار إلى الزمهرير فيبادرون من شدة برده إلى النار . وقيل : المعنى زدنا القادة عذابا فوق السفلة . فأحد العذابين على كفرهم والعذاب الآخر على صدهم . ﴿ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ في الدنيا من الكفر والمعصية .

قوله تعالى : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ وهم الأنبياء، شهداء على أممهم يوم القيامة بأنهم قد بلغوا الرسالة ودعوهم إلى الإيمان، في كل زمان شهيد وإن لم يكن نبيا؛ وفيهم قولان : أحدهما ـ أنهم أئمة الهدى الذين هم خلفاء الأنبياء . الثاني ـ أنهم العلماء الذين حفظ الله بهم شرائع أنبيائه .

قلت : فعلى هذا لم تكن فترة إلا وفيها من يوحد الله؛ كقس بن ساعدة، وزيد بن عمرو ابن نفيل[2] الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : "يبعث أمة وحده"، وسطيح، وورقة ابن نوفل الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : "رأيته يغمس في أنهار الجنة" . فهؤلاء ومن كان مثلهم حجة على أهل زمانهم وشهيد عليهم . والله أعلم . وقوله « وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ » تقدم في البقرة والنساء[3] .

قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ نظيره : « مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ »[4] وقد تقدم، فلينظر هناك . وقال مجاهد : تبيانا للحلال والحرام .

(١) البخاتي : جمال طوال الأعناق . (٢) هو كاهن بني ذئب، كان يتكهن في الجاهلية، واسمه ربيع بن ربيعة . (راجع سيرة ابن هشام ص ٩ طبع أوربا) . (٣) راجع ج ٢ ص ١٥٤ طبعة ثانية وج ٥ ص ١٩٧ طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع ج ٦ ص ٤١٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

فيـــه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ رُوى عن عثمان بن مَظْعون أنه قال : لما نزلت هذه الآية قرأتُها على عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه فتعجّب فقال : يا آل غالب، اتبعوه تفلحوا، فوالله إن الله أرسله ليأمركم بمكارم الأخلاق. وفى حديث — إن أبا طالب لما قيل له : إن آبن أخيك زعم أن الله أنزل عليه « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » الآية ، قال : اتبعوا آبن أخى ، فوالله إنه لا يأمر إلا بمحاسن الأخلاق . وقال عكرمة : قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم على الوليد بن المغيرة « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » إلى آخرها ، فقال : يابن أخى أعد ! فأعاد عليه فقال : والله إن له لحلاوة ، و إن عليه لَطُلاوة ، و إن أصله لمُورِق، وأعلاه لمثمر، وما هو بقول بشر ! وذكر الغَزْنَوِيّ أن عثمان بن مظعون هو القارئ . قال عثمان : ما أسلمت ابتداءً إلّا حياءً من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلت هذه الآية وأنا عنده فآستقر الإيمان فى قلبى ، فقرأتها على الوليد بن المغيرة فقال : يابن أخى أعد ! فأعدت فقال : والله إن له لحلاوة، ... وذكر تمام الخبر، وقال ابن مسعود : هذه أجمع آية فى القرآن لخير يمتثل، ولشر يجتنب . وحكى النقاش قال : يقال زكاة العدل الإحسان . وزكاة القدرة العفو ، وزكاة الغنى المعروف، وزكاة الجاه كَتْبُ الرجل إلى إخوانه .

الثانيــة — اختلف العلماء فى تأويل العدل والإحسان ؛ فقال ابن عباس : العدل لا إله إلا الله، والإحسان أداء الفرائض . وقيل : العدل الفرض، والإحسان النافلة . وقال سفيان بن عُيينة : العدل ها هنا استواء السريرة، والإحسان أن تكون السريرة أفضل من العلانية . علىّ بن أبى طالب : العدل الإنصاف ، والإحسان التفضل . قال ابن عطية :

العدل هو كل مفروض من عقائد وشرائع فى أداء الأمانات، وترك الظلم والإنصاف، وإعطاء الحق . والإحسان هو فعل كل مندوب إليه؛ فمن الأشياء ما هو كله مندوب إليه، ومنها ما هو فرض، إلا أن حدّ الإجزاء منه داخل فى العدل ، والتكميلُ الزائد على الإجزاء داخل فى الإحسان . وأما قول ابن عباس ففيه نظر ؛ لأن أداء الفرائض هى الإسلام حسبما فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث سؤال جبريل، وذلك هو العدل ، وإنما الإحسان التكميلاتُ والمندوب إليه حسبما يقتضيه تفسير النبىّ صلى الله عليه وسلم فى حديث سؤال جبريل بقوله : " أنْ تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ". فإن صح هذا عن ابن عباس فإنما أراد الفرائض مكملة . وقال ابن العربى : العدل بين العبد وبين ربه إيثارُ حقه تعالى على حظ نفسه ، وتقديمُ رضاه على هواه ، والاجتنابُ للزواجر والامتثال للاوامر . وأما العدل بينه وبين نفسه فمنعها مما فيه هلاكها؛ قال الله تعالى : « وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى »[1] وعُزوبُ الأطماع عن الاتباع ، ولزومُ القناعة فى كل حال ومعنًى . وأما العدل بينه وبين الخلق فبذلُ النصيحة ، وتركُ الخيانة فيما قَلّ وكَثُر، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه، ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ولا فعل لا فى سِرٍّ ولا فى عَلَن ، والصبرُ على ما يصيبك منهم من البلوى، وأقلّ ذلك الإنصافُ وتركُ الأذى .

قلت : هذا التفصيل فى العدل حَسَنٌ وعدل، وأما الإحسان فقد قال علماؤنا : الإحسان مصدر أحسن يُحسن إحسانا . ويقال على معنيين: أحدهما متعد بنفسه؛ كقولك : أحسنت كذا، أى حسّنته وكمّلته، وهو منقول بالهمزة من حَسُن الشئ . وثانيهما متعدٍّ بحرف جر؛ كقولك : أحسنت إلى فلان، أى أوصلت إليه ما ينتفع به

قلت : وهو فى هذه الآية مراد بالمعنيين معًا؛ فإنه تعالى يحب من خلقه إحسان بعضهم إلى بعض، حتى أن الطائر فى سجنك والسِّنّور فى دارك لا ينبغى أن تقصر تعهّده بإحسانك ؛ وهو تعالى غنىّ عن إحسانهم، ومنه الإحسان والنعم والفضل والمنن . وهو فى حديث جبريل

---

(١) آية ٤٠ سورة النازعات .

بالمعنى الأول لا بالثانى؛ فإن المعنى الأول راجع إلى إتقان العبادة ومراعاتها بآدائها المصححة والمكملة، ومراقبة الحق فيها، واستحضار عظمته وجلاله حالة الشروع وحالة الاستمرار . وهو المراد بقوله "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" . وأرباب القلوب فى هذه المراقبة على حالين : أحدهما غالب عليه مشاهدة الحق فكأنه يراه . ولعل النبيّ صلى الله عليه وسلم أشار إلى هذه الحالة بقوله : "وجُعلت قرة عينى فى الصلاة" . وثانيهما — لا تنتهى إلى هذا ؛ لكن يغلب عليه أن الحق سبحانه مطلع عليه ومشاهد له ، وإليه الإشارة بقوله تعالى « الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ . وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ » [(١)] وقوله : « إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ » [(٢)] .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ أى القرابة؛ يقول : يعطيهم المال كما قال « وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ » [(٣)] يعنى صلته . وهذا من باب عطف المندوب على الواجب . وبه استدل الشافعيّ فى إيجاب إيتاء المكاتَب ؛ على ما يأتى بيانه . وإنما خص ذا القربى لأن حقوقهم أوكد وصلتهم أوجب؛ لتأكيد حقّ الرّحم التى اشتق الله اسمها من اسمه، وجعل صلتها من صلته ، فقال فى الصحيح : "أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك" [(٤)] . ولا سيما إذا كانوا فقراء .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ الفحشاء : الفُحش ؛ وهو كل قبيح من قول أو فعل . ابن عباس : هو الزنى . والمنكر : ما أنكره الشرع بالنهى عنه ؛ وهو يعم جميع المعاصى والرذائل والدناءات على اختلاف أنواعها . وقيل هو الشرك . والبغى : هو الكبر والظلم والحقد والتعدّى ؛ وحقيقته تجاوز الحد ، وهو داخل تحت المنكر، لكنه تعالى خصه بالذكر اهتماما به لشدة ضرره . وفى الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا ذنب أسرع عقوبةً من بَغْي" . وقال عليه السلام : "الباغى مصروع" . وقد وعد الله من بُغِيَ عليه بالنصر. وفى بعض الكتب المنزّلة : لو بغى جبل على جبل لجعل الباغى منهما دكّا .

(١) آية ٢١٨ سورة الشعراء . (٢) آية ٦١ سورة يونس . (٣) آية ٢٦ سورة الإسراء .
(٤) راجع صحيح البخارى فى كتاب التفسير فى سورة محمد وكتاب الأدب والتوحيد . وصحيح مسلم فى كتاب الأدب .

الخامسة ــ ترجم الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري في صحيحه فقال : (باب قول الله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون »، وقوله : « إنما بغيكم على أنفسكم »، «ثم بُغِيَ عليه لينصرنّه الله»، وتركِ إثارة الشر على مسلم أو كافر) ثم ذكر حديث عائشة في سحر لبيد ابن الأعصم النبيَّ صلى الله عليه وسلم . قال ابن بطال : فتأوّل رضي الله عنه من هذه الآيات ترك إثارة الشر على مسلم أو كافر؛ كما دلّ عليه حديث عائشة حيث قال عليه السلام : "أمّا الله فقد شفاني وأما أنا فأكره أن أثير على الناس شرا" . ووجه ذلك ــ والله أعلم ــ أنه تأول في قول الله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » الندب بالإحسان إلى المسيء وترك معاقبته على إساءته . فإن قيل : كيف يصح هذا التأويل في آيات البغي . قيل : وجه ذلك ــ والله أعلم ــ أنه لمّا أعلم الله عباده بأن ضرر البغي ينصرف على الباغي بقوله : « إنما بغيكم على أنفسكم » وضمِن تعالى نُصرة من بُغِيَ عليه ، كان الأولى بمن بغي عليه شكر الله على ما ضمن من نصره ومقابلة ذلك بالعفو عمن بغى عليه ؛ وكذلك فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم باليهودي الذي سحره ، وقد كان له الانتقام منه بقوله : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به »[1]، ولكن آثر الصفح أخذا بقوله : « ولَمَن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور »[2] .

السادسة ــ تضمنت هذه الآية الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر، وقد تقدّم القول فيهما[3] . روى أن جماعة رفعت عاملها إلى أبي جعفر المنصور العباسي، فحاجّها العامل وغلبها، بأنهم لم يُثبتوا عليه كبير ظلم ولا جوره في شيء ؛ فقام فتى من القوم فقال : يا أمير المؤمنين، إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإنه عدل ولم يحسن . قال : فعجب أبو جعفر من إصابته وعزل العامل .

---

(١) آية ١٢٦ من هذه السورة . (٢) آية ٤٣ سورة الشورى . (٣) راجع جـ ٤ ص ٤٧ الطبعة الأولى أو الثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٩١)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ لفظ عام لجميع ما يُعقد باللسان ويلتزمه الإنسان من بيع أوصلة أو موائقة فى أمر موافق للديانة . وهذه الآية مضمّن قوله « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » لأن المعنى فيها : افعلوا كذا، وانتهوا عن كذا؛ فعطف على ذلك التقدير . وقد قيل : إنها نزلت فى بيعة النبيّ صلى الله عليه وسلم على الإسلام . وقيل : نزلت فى التزام الحلف الذى كان فى الجاهلية وجاء الإسلام بالوفاء به؛ قاله قتادة ومجاهد وابن زيد . والعموم يتناول كل ذلك كما بيناه . روى الصحيح عن جُبير بن مُطعِم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا حِلف فى الإسلام وأيّما حِلف كان فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدّة " يعنى فى نصرة الحق والقيام به والمواساة . وهذا كنحو حلف الفُضُول الذى ذكره ابن إسحاق قال : اجتمعت قبائل من قريش فى دار عبد الله بن جُدْعان لشرفه ونسبه(١)، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو غيرهم إلا قاموا معه حتى تُرَدّ عليه مَظْلمته؛ فسمت قريش ذلك الحلف حِلْف الفضول، أى حلف الفضائل . والفضول هنا جمع فضل للكثرة كفلس وفلوس . روى ابن إسحاق عن ابن شهاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد شهدت فى دار عبد الله بن جُدْعان حِلفا ما أحِبّ أن لى به حُمْر النَّعَم لو أدعى به فى الإسلام لأجبت " . وقال ابن إسحاق : تحامل الوليد بن عُتبة على حسين بن علىّ فى مال له، لسلطان الوليد فإنه كان أميرا على المدينة؛ فقال له حسين بن علىّ : أحلِف بالله لتُنْصِفَنّى من حقى أو لآخذنّ سيفى ثم لأقومنّ فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لأدعونّ بحلف الفضول . قال عبد الله بن الزبير : وأنا أحلف والله لئن دعانا(٢) لآخذنّ سيفى ثم لأقومنّ معه حتى ينتصف من حقه أو نموت جميعا . وبلغت المِسْوَر بن مَخْرمة فقال مثل ذلك . وبلغت

(١) فى سيرة ابن هشام : « لشرفه وسنه » . (٢) فى سيرة ابن هشام : « لئن دعا به » .

عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمى فقال مثل ذلك . فلما بلغ ذلك الوليدَ أنصفه . قال العلماء : فهذا الحلف الذى كان فى الجاهلية هو الذى شدّه الإسلام ، وخصّه النبيّ عليه الصلاة والسلام من عموم قوله : " لا حِلْف فى الإسلام ". والحكمة فى ذلك أن الشرع جاء بالانتصار من الظالم وأخذ الحق منه وإيصاله إلى المظلوم، وأوجب ذلك بأصل الشريعة إيجابا عاما على من قدر من المكلّفين ، وجعل لهم السبيل على الظالمين فقال تعالى : « إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »(1) . وفى الصحيح : " أُنصر أخاك ظالما أو مظلوما " قالوا : يا رسول الله ، هذا ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالما؟ قال : " تأخذ على يديه — فى رواية : تمنعه من الظلم — فإن ذلك نصره " . وقد تقدّم قوله عليه السلام : " إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده " .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ يقول بعد تشديدها وتغليظها ؛ يقال : توكيد وتأكيد ، ووكّد وأكّد ، وهما لغتان .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ يعنى شهيدا . ويقال حافظا ، ويقال ضامنا . وإنما قال « بَعْدَ تَوْكِيدِهَا » فرقا بين اليمين المؤكّدة بالعزم وبين لغو اليمين . وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك : التوكيد هو حلف الإنسان فى الشىء الواحد مرارا، يردّد فيه الأيمان ثلاثا أو أكثر من ذلك ؛ كقوله : والله لا أُنقصه من كذا ، والله لا أنقصه من كذا ، والله لا أنقصه من كذا . قال : فكفارة ذلك واحدةٌ مثل كفّارة اليمين . وقال يحيى بن سعيد : هى العهود ، والعهد يمين ، ولكن الفرق بينهما أن العهد لا يكفَّر ؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " يُنْصَب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غَدْرته يقال هذه غدرة فلان " . وأما اليمين بالله فقد شرع الله سبحانه فيها الكفارة بخصلة واحدة ، وحلّ ما انعقدت عليه اليمين . وقال ابن عمر : التوكيد هو أن يحلف مرتين ، فإن حلف واحدة فلا كفارة فيه . وقد تقدّم فى المائدة(2) .

(1) آية ٤٢ سورة الشورى . (2) راجع جـ ٦ ص ٢٦٤ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا ﴾ النقض والنكث واحد، والاسم النكث والنقض، والجمع الأنكاث . فشبهت هذه الآية الذي يحلف ويعاهد ويبرم عهده ثم ينقضه بالمرأة تغزل غزلها وتفتله مُحكمًا ثم تحله . ويروى أن امرأة حمقاء كانت بمكة تسمى رَيْطة بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرّة كانت تفعل ذلك، فبها وقع التشبيه؛ قاله الفراء، وحكاه عبد الله بن كثير والسُّدّى ولم يسمّيا المرأة . وقال مجاهد وقتادة : وذلك ضَرْبُ مثلٍ، لا على امرأة معينة . و «أنكاثا» نصب على الحال . والدَّخَل : الدَّغَل والخديعة والغش . قال أبو عبيدة : كل أمر لم يكن صحيحا فهو دَخَل . ﴿ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ قال المفسرون : نزلت هذه الآية في العرب الذين كانت القبيلة منهم إذا حالفت أخرى ، ثم جاءت إحداهما قبيلة كثيرة قوية فداخلتها غدرت الأولى ونقضت عهدها ورجعت إلى هذه الكبرى — قاله مجاهد — فقال الله تعالى : لا تنقضوا العهود من أجل أن طائفة أكثر من طائفة أخرى أو أكثر أموالا فتنقضون أيمانكم إذا رأيتم الكثرة والسعة في الدنيا لأعدائكم المشركين . والمقصود النهي عن العَوْد إلى الكفر بسبب كثرة الكفار وكثرة أموالهم . وقال الفراء : المعنى لا تغدروا بقوم لقلتهم وكثرتكم أو لقلتكم وكثرتهم ، وقد عززتموهم بالأيمان . ﴿ أَرْبَىٰ ﴾ أي أكثر؛ من رَبَا الشيء يربو إذا كثر . والضمير في « به » يحتمل أن يعود على الوفاء الذي أمر الله به . ويحتمل أن يعود على الرباء ؛ أي أن الله تعالى ابتلى عباده بالتحاسد وطلب بعضهم الظهورَ على بعض، واختبرهم بذلك ليرى من يُجاهد نفسه فيخالفها ممن يتبعها ويعمل بمقتضى هواها ؛ وهو معنى قوله : ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ من البعث وغيره .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أى على ملة واحدة . ﴿ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ بخذلانه إياهم ، عدلًا منه فيهم . ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ بتوفيقه إياهم ، فضلا منه عليهم ، ولا يُسأل عما يفعل بل تسألون أنتم . والآية ترد على أهل القدر كما تقدم . واللام فى «وليبينن ولتسئلن» مع النون المشددة يدلان على قسم مضمر ، أى والله ليبينن لكم ولتسئلن .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ ﴾ كرر ذلك تأكيدا . ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ مبالغة فى النهى عنه لعظم موقعه فى الدين وتردده فى معاشرات الناس ؛ أى لا تعقدوا الأيمان بالانطواء على الخديعة والفساد فتزل قدم بعد ثبوتها ، أى عن الأيمان بعد المعرفة بالله . وهذه استعارة للمستقيم الحال يقع فى شر عظيم ويسقط فيه ؛ لأن القدم إذا زلت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شر ؛ ومن هذا المعنى قول كُثَيِّر :

فلما توافينا ثبتُّ وزلّت

والعرب تقول لكل مبتلى بعد عافية أو ساقط فى وَرْطة : زلّت قدمه ؛ كقول الشاعر :

سَيُمنَع منك السبقُ إن كنتَ سابقا ... وتقتل إن زلّت بك القدمان

ويقال لمن أخطأ فى شىء : زلّ فيه . ثم توعّد تعالى بعدُ بعذابٌ فى الدنيا وعذاب عظيم فى الآخرة . وهذا الوعيد إنما هو فيمن نقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن من عاهده ثم نقض عهده خرج عن الإيمان ، ولهذا قال : ﴿ وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أى بصدكم . وذَوْقُ السوء فى الدنيا هو ما يحل بهم من المكروه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ ولا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ نهى عن الرُّشا وأخذ الأموال على نقض العهد ؛ أى لاتنقضوا عهودكم لعَرَض قليل من الدنيا . وإنما كان قليلا وإن كثر لأنه مما يزول ؛ فهو على التحقيق قليل ، وهو المراد بقوله : « مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وما عند اللهِ باقٍ » فبين الفرق بين حال الدنيا وحال الآخرة بأن هذه تنفَد وتحول ، وما عند الله من مواهب فضله ونعيم جنته ثابت لا يزول لمن وَفَى بالعهد وثَبَت على العقد . ولقد أحسن من قال :

المالُ ينفَدُ حِلُّه وحرامه * يوما وتبقى فى غد آثامُه
ليس التَّقِيُّ بمتَّقٍ لإلهه[1] * حتى يطيب شرابه وطعامه

آخر :

هَبِ الدنيا تساق إليك عفْوًا * أليس مصير ذاك إلى انتقال
وما دنياك إلا مثلُ فَيْءٍ * أظلَّك ثم آذن بالزوال

قوله تعالى : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أى على الإسلام والطاعات وعن المعاصى . ﴿ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى من الطاعات ، وجعلها أحسن لأن ما عداها من الحسن مباح ، والجزاء إنما يكون على الطاعات من حيث الوعد من الله . وقرأ عاصم وابن كثير « ولنجزِيَنّ » بالنون على التعظيم . الباقون بالياء . وقيل : إن هذه الآية « ولا تشتروا » إلى هنا نزلت فى امرئ القيس بن عابس الكندى وخصمه ابن أَسْوع[2] ، اختصما فى أرض فأراد امرؤ القيس أن يحلف فلما سمع هذه الآية نكل وأقرّ له بحقه ؛ والله أعلم .

---

(1) فى نسخ الأصل : * ليس التقى بمن يبر بأهله *
والتصويب عن أدب الدنيا والدين ص ٢١٢ طبع بولاق . (2) الذى فى كتب الصحابة فى ترجمة امرئ القيس ابن عابس أنه ربيعة بن عبدان . وقال صاحب كتاب الإصابة فى ترجمة عبدان بن أسوع : «ذكر مقاتل فى تفسيره أنه الذى خاصم امرأ القيس بن عابس الكندى فى أرضه ، وفيه نزلت « إن الذين يشترون بعهد الله ... » الآية » .

قوله تعالى : مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ شرط وجوابه . وفى الحياة الطيبة خمسة أقوال : الأول — أنه الرزق الحلال؛ قاله ابن عباس وسعيد بن جُبير وعطاء والضحاك . الثانى — القناعة ؛ قاله الحسن البصرى وزيد بن وهب ووهب بن منبّه، ورواه الحكم عن عكرمة عن ابن عباس، وهو قول علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . الثالث — توفيقه إلى الطاعات فإنها تؤديه إلى رضوان الله؛ قال معناه الضحاك . وقال أيضا : من عمل صالحا وهو مؤمن فى فاقة وميسرة فحياته طيبة، ومن أعرض عن ذكر الله ولم يؤمن بربه ولا عمل صالحا فمعيشته ضَنْكٌ لا خير فيها . وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : هى الجنة، وقاله الحسن، وقال : لا تطيب الحياة لأحد إلا فى الجنة . وقيل هى السعادة، روى عن ابن عباس أيضا . وقال أبو بكر الورّاق : هى حلاوة الطاعة . وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِىّ : هى أن ينزع عن العبد تدبيره ويردّ تدبيره إلى الحق . وقال جعفر الصادق : هى المعرفة بالله، وصدقُ المقام بين يدى الله . وقيل : الاستغناء عن الخلق والافتقارُ إلى الحق . وقيل : الرضا بالقضاء . ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أى فى الآخرة . ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ . وقال « فلنحيينه » ثم قال « ولنجزينهم » لأن « مَن » يصلح للواحد والجمع، فأعاد مرة على اللفظ ومرة على المعنى؛ وقد تقدم . وقال أبو صالح : جلس ناس من أهل التوراة وناس من أهل الإنجيل وناس من أهل الأوثان، فقال هؤلاء : نحن أفضل ؛ وقال هؤلاء : نحن أفضل؛ فنزلت .

قوله تعالى : فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾

فيه مسألة واحدة — وهى أن هذه الآية متصلة بقوله : « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ » فإذا أخذتَ فى قراءته فاستعذ بالله من أن يعرض لك الشيطان فيصدّك عن

تدبّره والعمل بما فيه؛ وليس يريد استعذ بعد القراءة؛ بل هو كقولك : إذا أكلت فقل بسم الله؛ أى إذا أردت أن تأكل. وقد روى جُبير بن مُطْعِم عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح الصلاة قال : "اللهم إنى أعوذ بك من الشيطان من هَمْزه ونَفْخه ونَفْثه"[1] . وروى أبو سعيد الخُدْرِيّ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يتعوّذ فى صلاته قبل القراءة . قال الكِيَا الطبرى : ونُقل عن بعض السلف التعوّذ بعد القراءة مطلقا، احتجاجا بقوله تعالى : « فإذا قرأتَ القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » ولا شك أن ظاهر ذلك يقتضى أن تكون الاستعاذة بعد القراءة؛ كقوله تعالى : « فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصلاةَ فاذكروا اللهَ قِيَامًا وقُعُودًا »[2] . إلا أن غيره محتمل؛ مثل قوله تعالى : « وإذا قلتم فاعدلوا »[3] « وإذا سألتموهُنّ مَتاعًا فاسألوهن من وراءِ حِجابٍ »[4] وليس المراد به أن يسألها من وراء حجاب بعد سؤال متقدم . ومثله قول القائل : إذا قلت فاصْدُق ، وإذا أحرمت فاغتسل؛ يعنى قبل الإحرام . والمعنى فى جميع ذلك : إذا أردت ذلك؛ فكذلك الاستعاذة . وقد تقدم هذا المعنى، وتقدّم القول فى الاستعاذة مستوفًى[5] .

قوله تعالى : إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى بالإغواء والكُفْر، أى ليس لك قدرة على أن تحملهم على ذنب لا يُغفر؛ قاله سفيان . وقال مجاهد : لا حجة له على ما يدعوهم إليه من المعاصى . وقيل : إنه ليس له عليهم سلطان بحال؛ لأن الله تعالى صرف

(١) الهمز : النخس والغمز؛ وكل شيء دفعته فقد همزته . والنفخ : الكبر؛ لأن المتكبر يتعاظم ويجمع نفسه ونفَسه فيحتاج أن ينفخ . والنفث : قال ابن الأثير : جاء تفسيره فى الحديث أنه الشعر؛ لأنه ينفث من الفم .
(٢) آية ١٠٣ سورة النساء . (٣) آية ١٥٢ سورة الأنعام . (٤) آية ٥٣ سورة الأحزاب .
(٥) راجع جـ ١ ص ٨٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

سلطانه عليهم حين قال عدوّ الله إبليس لعنه الله « ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلَصين»[1] قال الله تعالى : «إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا منْ اتبعك من الغاوين» .

قلت : قد بينا أن هذا عامٌّ يدخله التخصيص ، وقد أغوى آدمَ وحوّاءَ عليهما السلام بسلطانه ، وقد شوّش على الفضلاء أوقاتهم بقوله : من خلق ربّك ؟ حسبما تقدّم فى آخر الأعراف بيانه[2] . ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ أى يطيعونه . يقال : توليته أى أطعته ، وتوليت عنه ، أى أعرضت عنه . ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أى بالله ؛ قاله مجاهد والضحاك . وقيل : يرجع « به » إلى الشيطان ؛ قاله الربيع بن أنس والقُتَبِىّ . والمعنى : والذين هم من أجله مشركون . يقال : كفرت بهذه الكلمة ، أى من أجلها . وصار فلان بك عالماً ، أى من أجلك . أى والذى تولّى الشيطانَ مشركون بالله .

قوله تعالى : وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ قيل : المعنى بدلنا شريعة متقدّمة بشريعة مستأنفة ؛ قاله ابن بحر . مجاهد : أى رفعنا آية وجعلنا موضعها غيرها . وقال الجمهور : نسخنا آية بآية أشدّ منها عليهم . والنسخ والتبديل رفعُ الشئ مع وضع غيره مكانه . وقد تقدّم الكلام فى النسخ فى البقرة مستوفًى[3] . ﴿قَالُوا﴾ يريد كفار قريش . ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أى كاذبٌ مختلق ، وذلك لما رأوا من تبديل الحكم . فقال الله : ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله شرع الأحكام وتبديل البعض بالبعض . وقوله . ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ

(١) آية ٣٩ وما بعدها سورة الحجر . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٤٨ (٣) راجع جـ ٢ ص ٦١ وما بعدها طبعة ثانية .

القُدُس ﴾ يعني جبريل، نزل بالقرآن كلّه ناسخه ومنسوخه . وروى بإسناد صحيح عن عامر الشّعْبيّ قال : وُكِّل إسرافيل بمحمد صلى الله عليه وسلم ثلاث سنين، فكان يأتيه بالكلمة والكلمة، ثم نزل عليه جبريل بالقرآن . وفي صحيح مسلم أيضا أنه نزل عليه بسورة «الحمد» مَلَك لم ينزل إلى الأرض قطُّ . كما تقدم في الفاتحة بيانه (١) . ﴿ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ أي من كلام ربك . ﴿ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي بما فيه من الحجج والآيات . ﴿ وَهُدًى ﴾ أي وهو هدى . ﴿ وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

قوله تعالى : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ اختلف في اسم هذا الذي قالوا إنما يعلّمه؛ فقيل : هو غلام الفاكه بن المغيرة واسمه جبر، كان نصرانيا فأسلم؛ وكانوا إذا سمعوا من النبيّ صلى الله عليه وسلم ما مضى وما هو آت مع أنه أمّيّ لم يقرأ قالوا : إنما يعلمه جبر وهو أعجمي؛ فقال الله تعالى : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ أي كيف يعلّمه جبر وهو أعجمي هذا الكلام الذي لا يستطيع الإنس والجن أن يعارضوا منه سورة واحدة فما فوقها . وذكر النقاش أن مولى جبر كان يضربه ويقول له : أنت تعلّم محمدا، فيقول : لا والله، بل هو يعلّمني ويهديني . وقال ابن إسحاق : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم — فيما بلغني — كثيرا ما يجلس عند المروة إلى غلام نصراني، يقال له جبر، عبدُ بني الحضرمي، وكان يقرأ الكتب، فقال المشركون : والله ما يعلّم محمدا ما يأتي به إلا جبر النصراني . وقال عكرمة : اسمه يعيش عبدٌ لبني الحضرمي، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقّنه القرآن؛ ذكره الماوردي . وذكر الثعلبي عن عكرمة وقتادة أنه غلام لبني المغيرة اسمه يعيش، وكان يقرأ الكتب الأعجمية، فقالت قريش : إنما يعلّمه بشر، فنزلت . المهدوي عن عكرمة :

---

(١) راجع جـ ١ ص ١١٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

هو غلام لبنى عامر بن لؤى ، واسمه يعيش . وقال عبد الله بن مسلم الحضرمى : كان لنا غلامان نصرانيان من أهل عين التمر، اسم أحدهما يسار واسم الآخر جبر . كذا ذكر الماوردى والقشيرى والثعلبى؛ إلا أن الثعلبى قال: يقال لأحدهما نبت ويكنى أبا فُكَيْهة، والآخر جبر، وكانا صَيْقلين[1] يعملان السيوف؛ وكانا يقرأان كتابا لهم . الثعلبى : يقرأان التوراة والإنجيل . الماوردى والمهدوى : التوراة . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر بهما ويسمع قراءتهما، وكان المشركون يقولون : يتعلم منهما ، فأنزل الله هذه الآية وأكذبهم . وقيل : عنوا سلمان الفارسى رضى الله عنه؛ قاله الضحاك . وقيل : نصرانيا بمكة اسمه بلعام، وكان غلاما يقرأ التوراة؛ قاله ابن عباس . وكان المشركون يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يدخل عليه ويخرج من عنده ، فقالوا : إنما يعلمه بلعام . وقال القُتَبى : كان بمكة رجل نصرانى يقال له أبو ميسرة يتكلم بالرومية، فربما قعد إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال الكفار : إنما يتعلم محمد منه ، فنزلت . وفى رواية أنه عداس غلام عتبة بن ربيعة . وقيل : عابس غلام حويطب بن عبد العُزّى ويسار أبو فكيهة مولى ابن الحضرمى ، وكانا قد أسلما . والله أعلم .

قلت : والكل محتمل؛ فإن النبى صلى الله عليه وسلم ربما جلس إليهم فى أوقات مختلفة ليعلمهم مما علمه الله،وكان ذلك بمكة . وقال النحاس : وهذه الأقوال ليست بمتناقضة؛لأنه يجوز أن يكونوا أومَئُوا إلى هؤلاء جميعا، وزعموا أنهم يعلمونه

قلت : وأما ما ذكره الضحاك من أنه سلمان ففيه بُعْد؛ لأن سلمان إنما أتى النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وهذه الآية مكية. ﴿ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ ﴾ الإلحاد: الميل؛ يقال : لحد وألحد، أى مال عن القصد . وقد تقدم فى الأعراف[2] . وقرأ حمزة «يَلْحَدون» بفتح الياء والحاء؛ أى لسان الذى يميلون إليه ويشيرون أعجمى . والعُجْمة : الإخفاء وضد البيان . ورجل أعجم وامرأة عجماء ، أى لا يُفصح؛ ومنه عُجْم الذنب لاستتاره . والعجماء:

(١) الصيقل : شحاذ السيوف وجلاؤها . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٢٨ طبعة أولى أو ثانية .

البهيمة ؛ لأنها لا توضح عن نفسها . وأعجمت الكتاب أى أزلت عجمته . والعرب تسمى كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بكلامهم أعجميا . وقال الفراء : الأعجم الذى فى لسانه عجمة و إن كان من العرب ، والأعجمي أو العجمي الذى أصله من العجم . وقال أبو على : الأعجمى الذى لا يفصح ، سواء كان من العرب أو من العجم ، وكذلك الأعجم والأعجمى المنسوب إلى العجم و إن كان فصيحا . وأراد باللسان القرآن ؛ لأن العرب تقول للقصيدة والبيت : لسان؛ قال الشاعر :

لسانُ الشر تهديها إلينا * وخنت وما حسبتك أن تخونا

يعنى باللسان القصيدة . ﴿ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ أى أفصح ما يكون من العربية .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أى هؤلاء المشركون الذين لا يؤمنون بالقرآن . ﴿ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ هذا جواب وصفهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالافتراء . ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ هذا مبالغة فى وصفهم بالكذب؛ أى كل كذب قليل بالنسبة إلى كذبهم . ويقال : كذب فلان ولا يقال إنه كاذب؛ لأن الفعل قد يكون لازما وقد لا يكون لازما . فأما النعت فيكون لازما ولهذا يقال : عصى آدمُ ربَّه فغوى ، ولا يقال : إنه عاص غاو . فإذا قيل : كذب فلان فهو كاذب ، كان مبالغة فى الوصف بالكذب؛ قاله القشيرى .

قوله تعالى : مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ (١٠٦)

فيه إحدى وعشرون مسئلة :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ ﴾ هذا متصل بقوله تعالى : « ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها » فكان مبالغة فى الوصف بالكذب؛ لأن معناه لا ترتدوا عن بيعة الرسول صلى الله عليه وسلم . أى من كفر من بعد إيمانه وارتد فعليه غضب الله . قال الكلبي : نزلت فى عبد الله بن سعد بن أبى سرح ومقيس بن صبابة وعبد الله بن خطل[1]، وقيس بن الوليد بن المغيرة ، كفروا بعد إيمانهم . ثم قال : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾ . وقال الزجاج : « من كفر بالله من بعد إيمانه » بدل ممن يفترى الكذب؛ أى إنما يفترى الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه؛ لأنه رأى الكلام إلى آخر الاستثناء غير تام فعلقه بما قبله . وقال الأخفش : « مَن » ابتداء، وخبره محذوف، اكتفى منه بخبر « من » الثانية؛ كقولك : مَن يأتنا مَن يحسن نكرمه .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾ هذه الآية نزلت فى عمار بن ياسر، فى قول أهل التفسير؛ لأنه قارب بعض ما ندبوه إليه . قال ابن عباس : أخذه المشركون وأخذوا أباه وأمه سمية وصهيبا وبلالا وخبابا وسالما فعذبوهم، وربطت سميــة بين بعيرين ووُجئ قُبلها بحربة ، وقيل لها إنك أسلمت من أجل الرجال؛ فقتلت وقتل زوجها ياسر، وهما أول قتيلين فى الإسلام . وأما عمار فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهًا ، فشكا ذلك إلى رســول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كيف تجد قلبك " ؟ قال : مطمئن بالإيمان . فقال رســول الله صلى الله عليه وســلم : " فإن عادوا فعُد " . وروى منصور بن المعتمر عن مجاهد قال : أول شهيدة فى الإسلام أم عمار، قتلها أبو جهل، وأول

(١) فى الأصول : « عبد الله بن أنس بن خطل » وهو تحريف .

شهيد من الرجال مِهْجَع مولى عمر . وروى منصور أيضا عن مجاهد قال : أول من أظهر الإسلام سبعة : رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وبلال ، وخبّاب ، وصهيب ، وعمّار ، وسُمَيّة أمّ عمار . فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه أبو طالب ، وأما أبو بكر فمنعه قومه ، وأخذوا الآخرين فألبسوهم أدراع الحديد ، ثم صَهَروهم فى الشمس حتى بلغ منهم الجهد كل مبلغ من حر الحديد والشمس ، فلما كان من العشىّ أتاهم أبو جهل ومعه حربة ، فجعل يَسُبّهم و يوبخهم ، وأتى سُمَيّة فجعل يسبها و يَرْفُث[1] ، ثم طعن فرجها حتى خرجت الحربة من فمها فقتلها ؛ رضى الله عنها . قال : وقال الآخرون ما سُئلوا ، إلا بلالا فإنه هانت عليه نفسه فى الله ، فجعلوا يعذبونه و يقولون له : ارجع عن دينك ، وهو يقول أَحَدٌ أحد ، حتى ملّوه ، ثم كتّفوه وجعلوا فى عنقه حبلا من ليف ، ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به بين أَخْشَبَىْ[2] مكة حتى ملّوه وتركوه ، قال فقال عمار : كلنا تكلم بالذى قالوا — لولا أن الله تداركنا — غير بلال فإنه هانت عليه نفسه فى الله ، فهان على قومه حتى ملّوه وتركوه . والصحيح أن أبا بكر اشترى بلالا فأعتقه . وروى ابن أبى نَجيح عن مجاهد أن ناسا من أهل مكة آمنوا ، فكتب إليهم بعض أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بالمدينة : أن هاجروا إلينا ، فإنا لا نراكم منا حتى تهاجروا إلينا ، فخرجوا يريدون المدينة حتى أدركتهم قريش بالطريق ، ففتنوهم فكفروا مكرهين ، ففيهم نزلت هذه الآية . ذكر الروايتين عن مجاهد إسماعيلُ بن إسحاق . وروى الترمذىّ عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما خُيِّرَ عمّار بين أمرين إلا اختار أرشدهما" هذا حديث حسن غريب . وروى عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الجنة تشتاق إلى ثلاثة علىّ وعمّار وسلمان بن ربيعة" . قال الترمذىّ : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسن بن صالح .

الثالثة — لما سمح الله عز وجل بالكفر به وهو أصل الشريعة عند الإكراه ولم يؤاخذ به ، حمل العلماء عليه فروع الشريعة كلها ، فإذا وقع الإكراه عليها لم يؤاخذ به ولم يترتب

---

(١) الرفث : الفحش من القول . (٢) الأخشبان : الجبلان المطيفان بمكة ؛ وهما أبو قبيس والأحمر .

عليه حكم؛ وبه جاء الأثر المشهور عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: "رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما آستكرهوا عليه" الحديث. والخبر وإن لم يصح سنده فإن معناه صحيح بآتفاق من العلماء؛ قاله القاضى أبو بكر بن العربى . وذكر أبو محمد عبد الحق أن إسناده صحيح ، قال : وقد ذكره أبو بكر الأصيلى فى الفوائد وابن المنذر فى كتاب الإقناع .

الرابعة ــ أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشى على نفسه القتل، أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا تبين منه زوجته ولا يحكم عليه بحكم الكفر؛ هذا قول مالك والكوفيين والشافعى؛ غير محمد بن الحسن فإنه قال : إذا أظهر الشرك كان مرتدا فى الظاهر، وفيما بينه وبين الله تعالى على الإسلام، وتبين منه آمرأته ولا يصلى عليه إن مات، ولا يرث أباه إن مات مسلما . وهذا قول يرده الكتاب والسنة، قال الله تعالى : «إلا مَن أكرِه» الآية . وقال : «إلا أن تَتّقُوا منْهُم تُقَاةً»(١) وقال : « إنّ الّذينَ تَوَفّاهُمُ المَلائكَةُ ظَالمِي أنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأرْضِ»(٢) الآية . وقال: «إلّا المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ والوِلْدَانِ»(٢) الآية . فعذر الله المستضعفين الذين يمتنعون من ترك ما أمر الله به، والمكره لا يكون إلا مستضعفا غير ممتنع من فعل ما أمر به؛ قاله البخارى .

الخامسة ــ ذهبت طائفة من العلماء إلى أن الرخصة إنما جاءت فى القول، وأما فى الفعل فلا رخصة فيه ، مثل أن يكرهوا على السجود لغير الله أو الصلاة لغير القبلة ، أو قتل مسلم أو ضربه أو أكل ماله ، أو الزنى وشرب الخمر وأكل الربا ؛ يروى هذا عن الحسن البصرى ، رضى الله عنه . وهو قول الأوزاعى وسحنون من علمائنا . وقال محمد بن الحسن : إذا قيل للأسير : أسجد لهذا الصنم وإلا قتلتك . فقال . إن كان الصنم مقابل القبلة فليسجد ويكون نيته لله تعالى ، وإن كان لغير القبلة فلا يسجد وإن قتلوه . والصحيح أنه يسجد وإن كان لغير القبلة، وما أحراه بالسجود حينئذ ؛ ففى الصحيح عن آبن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان

(١) آية ٢٨ سورة آل عمران جـ ٤ ص ٥٧ (٢) آية ٩٧ سورة النساء جـ ٥ ص ٣٤٥

وجهه، قال : وفيه نزلت « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ »[1] في رواية : ويُوتِر عليها ، غير أنه لا يصلّي عليها المكتوبة . فإذا كان هذا مباحا في السفر في حالة الأمن لتعب النزول من الدابة للتنفل فكيف بهذا . واحتج من قصر الرخصة على القول بقول ابن مسعود : ما من كلام يَدرأ عنّي سوطين من ذى سلطان إلا كنت متكلّما به . فقصر الرخصة على القول ولم يذكر الفعل، وهذا لا حجة فيه؛ لأنه يحتمل أن يجعل للكلام مثالا وهو يريد أن الفعل في حكمه . وقالت طائفة : الإكراه في الفعل والقول سواء إذا أسرّ الإيمان . روى ذلك عن عمر بن الخطاب ومكحول، وهو قول مالك وطائفة من أهل العراق. روى ابن القاسم عن مالك أن من أكره على شرب الخمر وترك الصلاة أو الإفطار في رمضان، أن الإثم عنه مرفوع.

السادسة — أجمع العلماء على أن من أكره على قتل غيره أنه لا يجوز له الإقدام على قتله ولا انتهاك حرمته بجلد أو غيره، ويصبر على البلاء الذى نزل به، ولا يحلّ له أن يَفْدِى نفسه بغيره ، ويسأل الله العافية في الدنيا والآخرة .

واختلف في الزنى ، فقال مُطَرِّف وأَصْبَغ وابن عبد الحكم وابن الماجِشُون : لا يفعل أحد ذلك، وإن قُتل لم يفعله، فإن فعله فهو آثم ويلزمه الحدّ ؛ وبه قال أبو ثَوْر والحسن. قال ابن العربي : الصحيح أنه يجوز الإقدام على الزنى ولا حدّ عليه، خلافا لمن ألزمه ذلك؛ لأنه رأى أنها شهوة خُلقية لا يتصوّر الإكراه عليها ، وغفل عن السبب في باعث الشهوة وهو الإلجاء إلى ذلك، وهو الذى أسقط حكمه ، وإنما يجب الحدّ على شهوة بعث عليها سبب اختيارى، فقاس الشيء على ضده، فلم يحلَ بصواب من عنده . وقال ابن خُوَيْزِ مَنْداد في أحكامه : اختلف أصحابنا متى أكره الرجل على الزنى؛ فقال بعضهم : عليه الحدّ؛ لأنه إنما يفعل ذلك باختياره . وقال بعضهم: لا حدّ عليه. قال ابن خُوَيْزِ منداد: وهو الصحيح. وقال أبو حنيفة : إن أكرهه غير السلطان حُدّ، وإن أكرهه السلطان فالقياس أن يحدّ، ولكن استحسن ألا يحدّ . وخالفه صاحباه فقالا : لا حدّ عليه في الوجهين ، ولم يراعوا الانتشار،

---

(١) آية ١١٥ سورة البقرة، جـ ٢ ص ٧٩ طبعة ثانية .

وقالوا : متى علم أنه يتخلص من القتل بفعل الزنى جاز أن ينتشر . قال ابن المنذر : لا حدّ عليه ، ولا فرق بين السلطان فى ذلك وغير السلطان .

السابعة — اختلف العلماء فى طلاق المكره وعتاقه ؛ فقال الشافعيّ وأصحابه : لا يلزمه شيء . وذكر ابن وهب عن عمر وعليّ وابن عباس أنهم كانوا لا يرون طلاقه شيئا . وذكره ابن المنذر عن ابن الزبير وابن عمر وابن عباس وعطاء وطاوس والحسن وشريح والقاسم وسالم ومالك والأوزاعى وأحمد و إسحاق وأبى ثور . وأجازت طائفة طلاقه ؛ روى ذلك عن الشَّعْبِيّ والنَّخَعِيّ وأبى قلابة والزهرى وقتادة ، وهو قول الكوفيين . قال أبو حنيفة : طلاق المكره يلزم ؛ لأنه لم يعدم فيه أكثر من الرضا ، وليس وجوده بشرط فى الطلاق كالهازل . وهذا قياس باطل ؛ فإن الهازل قاصد إلى إيقاع الطلاق راضٍ به ، والمكره غير راض ولا نية له فى الطلاق ، وقد قال عليه السلام : " إنما الأعمال بالنيات " . وفى البخارى : وقال ابن عباس فيمن يكرهه اللصوص فيطلق : ليس بشيء ؛ وبه قال ابن عمر وابن الزبير والشعبى والحسن . وقال الشعبى : إن أكرهه اللصوص فليس بطلاق ، وإن أكرهه السلطان فهو طلاق . وفسّره ابن عيينة فقال : إن اللص يُقْدِم على قتله والسلطان لا يقتلهُ .

الثامنة — وأما بيع المكره والمضغوط فله حالتان . الأولى — أن يبيع ماله فى حق وجب عليه ؛ فذلك ماضٍ سائغٌ لا رجوع فيه عند الفقهاء ؛ لأنه يلزمه أداء الحق إلى ربه من غير المبيع ، فلما لم يفعل ذلك كان بيعه اختيارا منه فلزمه . وأما بيع المكره ظلما أو قهرا فذلك بيع لا يجوز عليه ، وهو أولى بمتاعه يأخذه بلا ثمن ، و يتبع المشترى بالثمن ذلك الظالم ؛ فإن فات المتاع رجع بثمنه أو بقيمته بالأكثر من ذلك على الظالم إذا كان المشترى غير عالم بظلمه . قال مُطَرِّف : ومن كان من المشترين يعلم حال المكره فإنه ضامن لما ابتاع من رقيقه وعروضه كالغاصب ، وكلما أحدث المبتاع فى ذلك من عتق أو تدبير أو تحبيس فلا يلزم المكره ، وله أخذ متاعه . قال سُحْنون : أجمع أصحابنا وأهل العراق على أن بيع المكره على الظلم والجَوْر لا يجوز . وقال الأَبْهَرِيّ : إنه إجماع .

التاسعة — وأما نكاح المكره ؛ فقال سُحْنون : أجمع أصحابنا على إبطال نكاح المكره والمكرهة، وقالوا : لا يجوز المقام عليه، لأنه لم ينعقد . قال محمد بن سُحْنون : وأجاز أهل العراق نكاح المكره، وقالوا : لو أكره على أن ينكح امرأة بعشرة آلاف درهم، وصداقُ مثلها ألف درهم ، أن النكاح جائز وتلزمه الألف ويبطل الفضل . قال محمد : فكما أبطلوا الزائد على الألف فكذلك يلزمهم إبطال النكاح بالإكراه . وقولهم خلاف السنة الثابتة في حديث خَنْساء بنت خِذام الأنصارية ، ولأمره صلى الله عليه وسلم بالاستئمار في أبضاعهن، وقد تقدّم؛ فلا معنى لقولهم .

العاشرة — فإن وطئها المكره على النكاح غير مكره على الوطء والرضا بالنكاح لزمه النكاح عندنا على المسمّى من الصداق ودُرِئ عنه الحد. وإن قال : وطئتها على غير رضًا مني بالنكاح فعليه الحد والصداق المسمّى ؛ لأنه مدّعٍ لإبطال الصداق المسمى، وتُحَدّ المرأة إن أقدمت وهي عالمة أنه مكره على النكاح . وأما المكرهة على النكاح وعلى الوطء فلا حدّ عليها ولها الصداق، ويحدّ الواطئ؛ فاعلمه . قاله سحنون .

الحادية عشرة — إذا استكرهت المرأة على الزنى فلا حدّ عليها؛ لقوله « إلا من أكره » وقوله عليه السلام : « إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » . ولقول الله تعالى : « فإنّ الله من بعد إكراههنّ غفور رحيم »[1] يريد الفتيات . وبهذا المعنى حكم عمر في الوليدة التي استكرهها العبد فلم يحدّها . والعلماء متفقون على أنه لا حدّ على امرأة مستكرَهة . وقال مالك : إذا وجدت المرأة حاملا وليس لها زوج فقالت استكرِهت فلا يقبل ذلك منها وعليها الحدّ، إلا أن تكون لها بيّنة أو جاءت تدّمي على أنها أوتيت[2]، أوما أشبه ذلك . واحتج بحديث عمر بن الخطاب أنه قال : الرجم في كتاب الله حق على من زنى من الرجال والنساء إذا أحصن إذا قامت البينة ، أو كان الحَبَل أو الاعتراف . قال ابن المنذر : وبالقول الأول أقول .

---

(١) آية ٣٣ سورة النور . (٢) عبارة الموطأ : « أو جاءت تدمى إن كانت بكرا أو استغاثت حتى أتيت وهي على ذلك ... » الخ .

الثانية عشرة ــ واختلفوا فى وجوب الصداق للستكرهة ؛ فقال عطاء والزّهرىّ : لهــا صداق مثلها؛ وهو قول مالك والشافعىّ وأحمد وإسحاق وأبى ثور . وقال الثّورىّ : إذا أقيم الحــدّ على الذى زنى بها بطل الصداق . وروى ذلك عن الشعبى ، وبه قال أصحاب مالك وأصحاب الرأى . قال ابن المنذر : القول الأوّل صحيح .

الثالثة عشرة ــ إذا أكره الإنسان على إسلام أهله لمــا لم يحلّ أسلمها ، ولم يقتل نفسه دونها ولا احتمل أذية فى تخليصها . والأصل فى ذلك ما خرّجه البخارى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " هاجر إبراهيمُ عليه السلام بسارة ودخل بها قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة فأرسل إليه أن أرسل بها إلىّ فأرسل بها فقام إليها فقامت تتوضأ وتصلّى فقالت اللهــم إن كنتُ آمنتُ بك وبرسولك فلا تسلّط على هــذا الكافر فغُطّ حتى ركض برجله"[1] . ودل هذا الحديث أيضا على أن سارة لمــا لم يكن عليها ملامة، فكذلك لا يكون على المستكرهة ملامة، ولا حدّ فيما هو أكبر من الخلوة . والله أعلم .

الرابعة عشرة ــ وأما يمين المكره فغير لازمة عنــد مالك والشافعى وأبى ثور وأكثر العلماء . قال ابن المــاجشون : وسواء حلف فيما هو طاعة لله أو فيما هو معصيــة إذا أكره على اليمين؛ وقاله أصبغ . وقال مطرّف : إن أكره على اليمين فيما هو لله معصية أو ليس فى فعله طاعة ولا معصية فاليمين فيه ساقطة ، وإن أكره على اليمين فيما هو طاعة مثل أن يأخذ الوالى رجلا فاسقا فيكرهه أن يحلف بالطلاق لا يشرب خمرا، أولا يفسق ولا يغُشّ فى عمله ، أو الوالد يحلّف ولده تأديبا له فإن اليمين تلزم ؛ وإن كان المكره قد أخطأ فيما يكلّف من ذلك . وقال به ابن حبيب . وقال أبو حنيفة ومن اتبعــه من الكوفيين : إنه إن حلف ألا يفعل ففعل حنث، قالوا : لأن المكره له أن يورّى فى يمينه كلها، فلما لم يورّ ولا ذهبت نيّته إلى خلاف ما أكره عليــه فقد قصد إلى اليمين . احتج الأوّلون بأن قالوا : إذا أكره عليها فنيّته مخالفــة لقوله؛ لأنه كاره لمــا حلف عليه .

---

(١) ذكر المؤلف هذا الحديث مختصرا، فراجعه فى شرح القسطلانى، كتاب البيوع جـ ٤ ص ١٢٢ طبعة بولاق .

الخامسة عشرة — قال ابن العربي : ومن غريب الأمر أن علماءنا اختلفوا في الإكراه على الحنث هل يقع به أم لا ؛ وهذه مسئلة عراقية سرت لنا منهم، لا كانت هذه المسئلة ولا كانوا ! وأي فرق يا معشر أصحابنا بين الإكراه على اليمين في أنها لا تلزم وبين الحنث في أنه لا يقع ! فاتقوا الله وراجعوا بصائركم، ولا تغتروا بهذه الرواية فإنها وصمة في الدراية .

السادسة عشرة — إذا أكره الرجل على أن يحلف وإلا أخذ له مال كأصحاب المكس وظلمة السعاة وأهل الاعتداء؛ فقال مالك : لا تقية له في ذلك، وإنما يدرأ المرء بيمينه عن بدنه لا ماله . وقال ابن الماجشون : لا يحنث وإن درأ عن ماله ولم يخف على بدنه . وقال ابن القاسم بقول مطرف، ورواه عن مالك، وقاله ابن عبد الحكم وأصبغ .

قلت : قول ابن الماجشون صحيح ؛ لأن المدافعة عن المال كالمدافعة عن النفس؛ وهو قول الحسن وقتادة وسيأتي . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام " وقال : " كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه " . وروى أبو هريرة قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال : " فلا تعطه مالك " . قال : أرأيت إن قاتلني؟ قال : " قاتله " قال : أرأيت إن قتلني؟ قال : " فأنت شهيد " قال : أرأيت إن قتلته؟ قال : " هو في النار " خرجه مسلم . وقد مضى الكلام فيه . وقال مطرف وابن الماجشون : وإن بدر الحالف بيمينه للوالي الظالم قبل أن يسألها ليذب بها عما خاف عليه من ماله وبدنه فحلف له فإنها تلزمه . وقاله ابن عبد الحكم وأصبغ . وقال أيضا ابن الماجشون فيمن أخذه ظالم فحلف له بالطلاق ألبتة من غير أن يحلفه وتركه وهو كاذب، وإنما حلف خوفا من ضربه وقتله وأخذ ماله : فإن كان إنما تبرع باليمين غلبة خوف ورجاء النجاة من ظلمه فقد دخل في الإكراه ولا شيء عليه، وإن لم يحلف على رجاء النجاة فهو حانث .

السابعة عشرة — قال المحققون من العلماء : إذا تلفظ المكره بالكفر فلا يجوز له أن يجريه على لسانه إلا مجرى المعاريض[1]؛ فإن في المعاريض لمندوحة عن الكذب . ومتى لم يكن

(1) المعاريض : التورية بالشيء عن الشيء . وأعراض الكلام ومعارضه ومعاريضه : كلام يشبه بعضه بعضا في المعاني .

بكذلك كان كافرا؛ لأن المعاريض لا سلطان للإكراه عليها . مثاله — أن يقال له : أكفر بالله فيقول باللاهي ؛ فيزيد الياء . وكذلك إذا قيل له : أكفر بالنبي فيقول هو كافر بالنبيّ ، مشدداً وهو المكان المرتفع من الأرض[1] . ويطلق على ما يعمل من الخوص شبه المائدة ، فيقصد أحدهما بقلبه ويبرأ من الكفر ويبرأ من إثمه . فإن قيل له : أكفر بالنبيء (مهموزا) فيقول هو كافر بالنبيء يريد بالمخبر ، أي مخبر كان كطليحة[2] ومسيلمة الكذاب . أو يريد به النبيء الذي قال فيه الشاعر :

فأصبح رَتْماً[3] دُقاقُ الحَصَى ＊ مكان النبيّ من الكاثب

الثامنة عشرة - أجمع العلماء على أن من أكره على الكفر فاختار القتل أنه أعظم أجرا عند الله ممن اختار الرخصة . واختلفوا فيمن أكره على غير القتل من فعل ما لا يحل له ؛ فقال أصحاب مالك : الأخذ بالشدة في ذلك واختيار القتل والضرب أفضل عند الله من الأخذ بالرخصة ، ذكره ابن حبيب وسُحنون . وذكر ابن سُحنون عن أهل العراق أنه إذا تهدد بقتل أو قطع أو ضرب يخاف منه التلف فله أن يفعل ما أكره عليه من شرب خمر أو أكل خنزير ؛ فإن لم يفعل حتى قتل خفنا أن يكون آثما لأنه كالمضطر . وروى خبّاب بن الأرتّ قال : شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بُرْدَةً له في ظل الكعبة فقلت : ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا ؟ فقال : " قد كان مَن قبلكم يؤخذ الرجل فيُحفر له في الأرض فيُجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصدّه ذلك عن دينه والله ليتمّنّ هذا الأمر[4] حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حَضْرَمَوْت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون " . فوصفه صلى الله عليه وسلم هذا عن الأمم السالفة على جهة المدح لهم والصبر على المكروه في ذات الله ، وأنهم لم يكفروا في الظاهر وتبطّنوا الإيمان ليدفعوا العذاب عن أنفسهم . وهذه حجة مَن آثر الضرب

---

(١) ومنه الحديث : « لا تصلوا على النبيّ » أي على الأرض المرتفعة المحدودبة . (٢) هو طليحة ابن خويلد بن نوفل الأسدي ، ارتد بعد النبي صلى الله عليه وسلم وادعى النبوة ثم أسلم . (٣) الرتم (بالتاء والثاء) : الدق والكسر . ويريد بالنبيء المكان المرتفع . والكاثب : الرمل المجتمع . (٤) يريد الإسلام .

والقتل والهوان على الرخصة والمقام بدار الجنان. وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة «الأخدود»[١] إن شاء الله تعالى . وذكر أبو بكر محمد بن محمد بن الفرج البغدادى قال : حدثنا شريح بن يونس عن إسماعيل بن إبراهيم عن يونس بن عبيد عن الحسن أن عيونا لمسيلمة أخذوا رجلين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فذهبوا بهما إلى مسيلمة، فقال لأحدهما : أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ قال نعم . قال : أتشهد أنى رسول الله ؟ قال نعم . فخلّى عنه . وقال للآخر : أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ قال نعم . قال : وتشهد أنى رسول الله ؟ قال : أنا أصمّ لا أسمع ؛ فقدّمه وضرب عنقه . فجاء هذا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : هلكتُ ! قال : "وما أهلكك"؟ فذكر الحديث، قال : "أمّا صاحبك فأخذ بالثقة[٢] وأما أنت فأخذت بالرخصة . على ما أنت عليه الساعة" ؟ قال : أشهد أنك رسول الله . قال : "أنت على ما أنت عليه" . الرخصة فيمن حلفه سلطان ظالم على نفسه أو على أن يدله على رجل أو مال رجل؛ فقال الحسن : إذا خاف عليه وعلى ماله فليحلف ولا يكفر يمينه ؛ وهو قول قتادة إذا حلف على نفسه أو مال نفسه . وقد تقدّم ما للعلماء فى هذا . وذكر موسى بن معاوية أن أبا سعيد بن أشرس صاحب مالك استحلفه السلطان بتونس على رجل أراد السلطان قتله أنه ما آواه، ولا يعلم له موضعا ؛ قال : فحلف له ابن أشرس؛ وابن أشرس يومئذ قد علم موضعه وآواه، فحلفه بالطلاق ثلاثا ، فحلف له ابن أشرس، ثم قال لامرأته : اعتزلى فاعتزلته ؛ ثم ركب ابن أشرس حتى قدم على البهلول بن راشد القيروان، فأخبره بالخبر؛ فقال له البهلول : قال مالك إنك حانث . فقال ابن أشرس : وأنا سمعت مالكا يقول ذلك ، وإنما أردت الرخصة، أو كلام هذا معناه؛ فقال له البهلول بن راشد : قال الحسن البصرى إنه لا حنث عليك . قال : فرجع ابن أشرس إلى زوجته وأخذ بقول الحسن . وذكر عبد الملك بن حبيب قال : حدّثنى معبد عن المسيب بن شريك عن أبى شيبة قال : سألت أنس بن مالك عن الرجل يؤخذ بالرجل، هل ترى أن يحلف ليَقيه بيمينه ؟ فقال نعم ؛ ولأن أحلف سبعين يمينا

---

(١) هى سورة البروج رقم ٨٥ (٢) عبارة الدر المنثور : «أما صاحبك فمضى على إيمانه» .

وأحنث أحبّ إلىّ أن أدلّ على مسلم . وقال إدريس بن يحيى كان الوليد بن عبد الملك يأمر جواسيس يتجسسون الخلق يأتونه بالأخبار، قال : فجلس رجل منهم فى حلقة رجاء بن حيوة فسمع بعضهم يقع فى الوليد ، فرفع ذلك إليه فقال : يا رجاء ! أُذْكَرُ بالسوء فى مجلسك ولم تغيّر! فقال : ما كان ذلك يا أمير المؤمنين ؛ فقال له الوليد : قل : آلله الذى لا إله إلا هو ، قال : الله الذى لا إله إلا هو ؛ فأمر الوليد بالجاسوس فضربه سبعين سوطا ، فكان يلقى رجاء فيقول : يا رجاء ، بك يستسقى المطر، وسبعون سوطا فى ظهرى ! فيقول رجاء : سبعون سوطا فى ظهرك خير لك من أن يقتل رجل مسلم .

التاسعة عشرة ـ واختلف العلماء فى حدّ الإكراه؛ فروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : ليس الرجل آمن على نفسه إذا أخفته أو أوثقته أو ضربته . وقال ابن مسعود : ما كلام يدرأ عنى سوطين إلا كنتُ متكلما به . وقال الحسن : التقية جائزة للؤمن إلى يوم القيامة؛ إلا أن الله تبارك وتعالى ليس يجعل فى القتل تقيّة . وقال النَّخَعىّ : القيد إكراه، والسجن إكراه . وهذا قول مالك ، إلا أنه قال : والوعيد المخوف إكراه وإن لم يقع إذا تحقق ظلم ذلك المتعدى وإنفاذه لما يتوعّد به ، وليس عند مالك وأصحابه فى الضرب والسجن توقيت، إنما هو ما كان يؤلم من الضرب ، وما كان من سجن يدخل منه الضيق على المكره . وإكراه السلطان وغيره عند مالك إكراه . وتناقض الكوفيون فلم يجعلوا السجن والقيد إكراها على شرب الخمر وأكل الميتة؛ لأنه يخاف منهما التلف . وجعلوهما إكراها فى إقراره لفلان عندى ألف درهم . قال ابن سحنون : وفى إجماعهم على أن الألم والوجع الشديد إكراه ما يدل على أن الإكراه يكون من غير تلف نفس . وذهب مالك إلى أن من أكره على يمين بوعيد أوسجن أو ضرب أنه يحلف ولا حنث عليه ؛ وهو قول الشافعى وأحمد وأبى ثور وأكثر العلماء .

الموفية عشرين ـ ومن هذا الباب ما ثبت أن من المعاريض لمندوحة عن الكذب . روى الأعمش عن إبراهيم النَّخَعىّ أنه قال : لا بأس إذا بلغ الرجل عنك شىء أن تقول :

والله، إن الله يعلم ما قلتُ فيك من ذلك من شيء . قال عبد الملك بن حبيب : معناه أن الله يعلم أن الذى قلت ، وهو فى ظاهره انتفاء من القول ، ولا حنث على من قال ذلك فى يمينه ولا كذب عليه فى كلامه . وقال النخعى : كان لهم كلام من ألغاز الأيمان يدرءون به عن أنفسهم، لا يرون ذلك من الكذب ولا يخشون فيه الحنث. قال عبد الملك : وكانوا يسمون ذلك المعاريض من الكلام، إذا كان ذلك فى غير مكر ولا خديعة فى حق . وقال الأعمش: كان إبراهيم النخعى إذا أتاه أحد يكره الخروج إليه جلس فى مسجد بيته وقال لجاريته : قولى له هو والله فى المسجد . وروى مغيرة عن إبراهيم أنه كان يجيز للرجل من البَعْث إذا عُرِضوا على أميرهم أن يقول : والله ما أهتدى إلا ما سدّد لى غيرى، ولا أركب إلا ما حملنى غيرى؛ ونحو هذا من الكلام . قال عبد الملك : يعنى بقوله « غيرى » الله تعالى، هو مسدّده وهو يحمله؛ فلم يكونوا يرون على الرجل فى هذا حنثا فى يمينه، ولا كذبا فى كلامه ، وكانوا يكرهون أن يقال هذا فى خديعة وظلم وجُحدان[1] حق فمن اجترأ وفعل أثم فى خديعته ولم تجب عليه كفارة فى يمينه .

الحادية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ أى وسّعه لقبول الكفر، ولا يقدر أحد على ذلك إلا الله؛ فهو يرد على القدرية . و «صدرا» نصب على المفعول . ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وهو عذاب جهنم

قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾

---

(١) هذا المصدر لم تورده كتب اللغة فى هذه المادة .

قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي ذلك الغضب. ﴿ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أي اختاروها على الآخرة. ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ ﴾ « أنّ » في موضع خفض عطفا على « بأنهم ». ﴿ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ ثم وصفهم فقال: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي عن فهم المواعظ. ﴿ وَسَمْعِهِمْ ﴾ عن كلام الله تعالى. ﴿ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ عن النظر في الآيات. ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ عما يراد بهم. ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ تقدّم[1].

قوله تعالى: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا ﴾ هذا كله في عمّار. والمعنى وصبروا على الجهاد؛ ذكره النحاس. وقال قتادة: نزلت في قوم خرجوا مهاجرين إلى المدينة بعد أن فتنهم المشركون وعذبوهم؛ وقد تقدّم ذكرهم في هذه السورة[2]. وقيل: نزلت في ابن أبي سرح، وكان قد ارتد ولحق بالمشركين فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بقتله يوم فتح مكة؛ فاستجار بعثمان فأجاره النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ ذكره النسائي عن عكرمة عن ابن عباس قال: في سورة النحل « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره — إلى قوله — ولهم عذاب عظيم » فنسخ، واستثنى من ذلك فقال « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فُتِنُوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم » وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي كان على مصر، كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأزله الشيطان فلحق بالكفار فأمر به أن يقتل يوم الفتح؛ فاستجار له عثمان بن عفان فأجاره رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى: يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٠ طبعة أولى أو ثانية.   (٢) راجع ص ١٨٠ من هذا الجزء.

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ أى إن الله غفور رحيم فى ذلك، أو ذَكِّرهم « يوم تأتى كلُّ نفسٍ تجادل عن نفسها » أى تخاصم وتحاجّ عن نفسها؛ جاء فى الخبر أن كل أحد يقول يوم القيامة : نفسي نفسي ! من شدة هول يوم القيامة سوى محمد صلى الله عليه وسلم فإنه يسأل فى أمته. وفى حديث عمر أنه قال لكعب الأحبار: يا كعب، خوّفنا هيّجنا حدّثنا نبّهنا . فقال له كعب : يا أمير المؤمنين ، والذى نفسى بيده لو وافيت يوم القيامة بمثل عمل سبعين نبيا لأتت عليك تارات لا يُهمّك إلا نفسك، وإن لجهنم زفرة لا يبقى مَلَك مقرّب ولا نبيّ منتخب إلا وقع جاثيا على ركبتيه؛ حتى إن إبراهيم الخليل لَيُدْلِى بالخُلّة فيقول: يارب، أنا خليلك إبراهيم، لا أسألك اليوم إلا نفسى ! قال : يا كعب، أين تجد ذلك فى كتاب الله ؟ قال : قوله تعالى : « يوم تأتى كُلُّ نفسٍ تجادل عن نفسها وتُوَفَّى كُلُّ نفسٍ ما عملت وهم لا يظلمون » . وقال ابن عباس فى هذه الآية : ما تزال الخصومة بالناس يوم القيامة حتى تخاصم الروح الجسد؛ فتقول الروح : ربِّ، الروح منك أنت خلقته، لم تكن لى يد أبطش بها، ولا رجل أمشى بها، ولا عين أبصر بها؛ ولا أذن أسمع بها ولا عقل أعقل به، حتى جئت فدخلت فى هذا الجسد، فضعّف عليه أنواع العذاب ونجّنى؛ فيقول الجسد : ربِّ، أنت خلقتنى بيدك فكنتُ كالخشبة، ليس لى يد أبطش بها، ولا قدم أسعى به، ولا بصر أبصر به، ولا سمع أسمع به؛ فجاء هذا كشعاع النور، فبه نطق لسانى، وبه أبصرت عينى، وبه مشت رجلى، وبه سمعت أذنى، فضعّف عليه أنواع العذاب ونجّنى منه . قال : فيضرب الله لهما مثلا أعمى ومُقْعدًا دخلا بستانا فيه ثمار، فالأعمى لا يبصر الثمرة والمُقْعد لا ينالها، فنادى المقعدُ الأعمى إيتنى فآحملنى آكل وأطعمك، فدنا منه فحمله ، فأصابوا من الثمرة؛ فعلى من يكون العذاب ؟ قال : عليكما جميعا العذاب؛ ذكره الثعلبى .

قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً ﴾ هذا متصل بذكر المشركين . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا على مشركي قريش وقال : " اللّهمّ اشْدُدْ وطأتك على مُضَر واجعلها عليهم سنين كسِنِي يوسف " . فابتُلُوا بالقحط حتى أكلوا العظام، ووجّه إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما ففرّق فيهم . ﴿ كَانَتْ آمِنَةً ﴾ لا يُهاج أهلها . ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ من البر والبحر؛ نظيره « يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ »[1] الآية . ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ الأنعم : جمع النِّعمة؛ كالأشُدّ جمع الشِّدة . وقيل : جمع نُعْمَى؛ مثل بُؤْسَى وأَبْؤُس . وهذا الكفران تكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ ﴾ أي أذاق أهلها . ﴿ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ سماه لباسا لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس . ﴿ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ أي من الكفر والمعاصي . وقرأه حفص ابن غياث ونصر بن عاصم وابن أبي إسحاق والحسن وأبو عمرو فيما روى عنه عبد الوارث وعبيد وعباس « والخوفَ » نصبا بإيقاع أذاقها عليه، عطفا على « لباس الجوع » وأذاقها الخوف . وهو بعث النبي صلى الله عليه وسلم سراياه التي كانت تُطيف بهم . وأصل الذوق بالفم ثم يستعار فيوضع موضع الابتلاء . وضرب مكة مثلا لغيرها من البلاد؛ أي أنها مع جوار بيت الله وعمارة مسجده لمّا كفر أهلها أصابهم القحط فكيف بغيرها من القرى . وقد قيل : إنها المدينة، آمنت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم كفرت بأنعم الله لقتل عثمان ابن عفان، وما حدث بها بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفتن . وهذا قول عائشة وحفصة زَوْجَيِ النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : إنه مَثَل مضروب بأيّ قرية كانت على هذه الصفة من سائر القُرَى .

قوله تعالى : وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾

---

(١) آية ٥٧ سورة القصص .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ ﴾ هذا يدل على أنها مكة . وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة . ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ وهو الجوع الذي وقع بمكة . وقيل : الشدائد والجوع منها .

قوله تعالى : فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ أي كلوا يا معشر المسلمين من الغنائم . وقيل : الخطاب للشركين ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث إليهم بطعام رِقَّةً عليهم ، وذلك أنهم لما ابتُلُوا بالجوع سبع سنين ، وقطع العرب عنهم المِيرَة بأمر النبي صلى الله عليه وسلم أكلوا العظام المحرّقة والجيفة والكلاب الميتة والجلود والعِلْهِز ، وهو الوَبَر يعالج بالدم . ثم إن رؤساء مكة كلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جُهِدوا وقالوا : هذا عذاب الرجال فما بال النساء والصبيان . وقال له أبو سفيان : يا محمد ، إنك جئت تأمر بصلة الرَّحِم والعفو ، وإن قومك قد هلكوا ؛ فادع الله لهم . فدعا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأذن للناس بحمل الطعام إليهم وهم بعدُ مشركون .

قوله تعالى : إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾

تقدم في « البقرة » القولُ فيها مستوفًى[1] .

قوله تعالى : وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٢١٦ وما بعدها طبعة ثانية .

فيه مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لِمَا تَصِفُ ﴾ ما هنا مصدرية ، أى لوصف . وقيل : اللام لام سبب وأجل ، أى لا تقول لأجل وصفكم « الكذب » بنزع الخافض ، أى لما تصف ألسنتكم من الكذب . وقرئ «الكُذُبُ» بضم الكاف والذال والباء ، نعتا للألسنة ، وقد تقدم.[1] وقرأ الحسن هنا خاصة « الكَذِبِ » بفتح الكاف وخفض الذال والباء ، نعتا «لما» ؛ التقدير : ولا تقولوا لوصف ألسنتكم الكذب . وقيل على البدل من ما ؛ أى ولا تقولوا للكذب الذى تصفه ألسنتكم هـذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب . الآية خطاب للكفار الذين حرموا البحائر والسوائب وأحلوا ما فى بطون الأنعام وإن كان ميتة . فقوله « هذا حلال » إشارة إلى ميتة بطون الأنعام ، وكل ما أحلوه . وقوله « وهـذا حرام » إشارة إلى البحائر والسوائب وكل ما حرموه . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ أى ما هم فيه من نعيم الدنيا يزول عن قريب . وقال الزجاج : أى متاعهم متاع قليل . وقيل : لهم متاع قليل ثم يردون إلى عذاب أليم .

الثانيـــة — أسند الدارمى أبو محمد فى مسنده أخبرنا هارون عن حفص عن الأعمش قال : ما سمعت إبراهيم قط يقول حلال ولا حرام ، ولكن كان يقول : كانوا يكرهون وكانوا يستحبون . وقال ابن وهب قال مالك : لم يكن من فتيا الناس أن يقولوا هـذا حلال وهذا حرام ، ولكن يقولوا إياكم كذا وكذا ، ولم أكن لأصنع هـذا . ومعنى هـذا : أن التحليل والتحريم إنما هو لله عز وجل ، وليس لأحد أن يقول أو يصرح بهذا فى عين من الأعيان ، إلا أن يكون البارئ تعالى يخبر بذلك عنه . وما يؤدى إليه الاجتهاد فى أنه حرام يقول : إنى أكره [كذا] . وكذلك كان مالك يفعل اقتداء بمن تقدم من أهل الفتوى . فإن قيل : فقد قال فيمن قال لزوجته أنت على حرام إنها حرام ويكون ثلاثا . فالجواب أن مالكا لما سمع على بن أبى طالب يقول إنها حرام اقتدى به . وقد يقوى الدليل على التحريم

---

(١) راجع ص ١٢٠ من هذا الجزء .

عند المجتهد فلا بأس عند ذلك أن يقول ذلك، كما يقول إن الربا حرام في غير الأعيان الستة[1]، وكثيرا ما يطلق مالك رحمه الله، فذلك حرام لا يصلح في الأموال الربوية وفيما خالف إلخ وخرج عن طريق المقاصد لقوة الأدلة في ذلك .

قوله تعالى : وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا ﴾ بين أن الأنعام والحرث حلال لهذه الأمة، فأما اليهود فحرمت عليهم منها أشياء[2] . ﴿ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي في سورة الأنعام. ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ أي بتحريم ما حرمنا عليهم ، ولكن ظلموا أنفسهم فحرمنا عليهم تلك الأشياء عقوبة لهم، كما تقدم في النساء[3] .

قوله تعالى : ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ ﴾ أي الشرك، قاله ابن عباس . وقد تقدم في النساء[4] .

قوله تعالى : إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴾ دعا عليه السلام مشركي العرب إلى ملة إبراهيم، إذ كان أباهم وباني البيت الذي به عزهم، والأمة : الرجل الجامع للخير، وقد تقدم محامله[5] . وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك قال : بلغني أن عبد الله بن مسعود

---

(١) هي الذهب والفضة والبر والشعير والتمر والملح . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٢٤ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) راجع جـ ٦ ص ١٢ طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع جـ ٥ ص ٩٢ . (٥) راجع جـ ٢ ص ١٢٧ طبعة ثانية .

قال : يرحم الله معاذا ! كان أمة قانتا . فقيل له : يا أبا عبد الرحمن، إنما ذكر الله عز وجل بهذا إبراهيم عليه السلام . فقال ابن مسعود : إن الأمة الذي يعلّم الناس الخير . و إن القانت هو المطيع . وقد تقدم القنوت في البقرة[1] و « حنيفا » في الأنعام[2] .

قوله تعالى : شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ شَاكِرًا ﴾ أي كان شاكرا . ﴿ لِأَنْعُمِهِ ﴾ الأنعم جمع نعمة ، وقد تقدم . ﴿ اجْتَبَاهُ ﴾ أي اختاره . ﴿ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ قيل : الولد الطيب . وقيل الثناء الحسن . وقيل : النبوة . وقيل : الصلاة مقرونة بالصلاة على محمد عليه السلام في التشهد . وقيل : إنه ليس أهل دين إلا وهم يتولّونه . وقيل : بقاء ضيافته و زيارة قبره . وكل ذلك أعطاه الله و زاده صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ . « من » بمعنى مع، أي مع الصالحين؛ لأنه كان في الدنيا أيضا مع الصالحين. وقد تقدم هذا في البقرة[3] .

قوله تعالى : ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

قال ابن عمر : أمر باتباعه في مناسك الحج كما علم إبراهيم جبريل عليهما السلام . وقال الطبري : أمر باتباعه في التبرؤ من الأوثان والتزين بالإسلام . وقيل : أمر باتباعه في جميع ملته إلا ما أمر بتركه ؛ قاله بعض أصحاب الشافعي على ما حكاه الماوردي . والصحيح الاتباع في عقائد الشرع دون الفروع؛ لقوله تعالى : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا »[4] .

---

(١) راجع المسألة الخامسة جـ ٢ ص ٨٦ و جـ ٣ ص ٢١٣ (٢) ذكر في الأنعام في موضعين (جـ ٧ ص ٢٨ ، ١٥٢) ولم يذكر المؤلف اشتقاقه فيهما ، وإنما تكلم عليه في سورة البقرة جـ ٢ ص ١٣٩ فراجعه (٣) راجع جـ ٢ ص ١٣٣ طبعة ثانية . (٤) راجع جـ ٦ ص ٢١١ طبعة أولى أو ثانية

مسئلة : فى هذه الآية دليل على جواز اتباع الأفضل للفضول — لما تقدم فى الأصول — والعمل به ، ولا دَرك[1] على الفاضل فى ذلك ؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء عليهم السلام ، وقد أمر بالاقتداء بهم فقال : « فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ »[2] . وقال هنا : « ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ » .

قوله تعالى : إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ أى لم يكن فى شرع إبراهيم ولا من دينه ، بل كان سَمْحا لا تغليظ فيه ، وكان السبت تغليظا على اليهود فى رفض الأعمال وترك التبسط فى المعاش بسبب اختلافهم فيه ، ثم جاء عيسى عليه السلام بيوم الجمعة فقال : تفرغوا للعبادة فى كل سبعة أيام يوما واحدا . فقالوا : لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا ، فاختاروا الأحد . وقد اختلف العلماء فى كيفية ما وقع لهم من الاختلاف ؛ فقالت طائفة : إن موسى عليه السلام أمرهم بيوم الجمعة وعيّنه لهم ، وأخبرهم بفضيلته على غيره ، فناظروه أن السبت أفضل ؛ فقال الله له : " دعهم وما اختاروا لأنفسهم " . وقيل : إن الله تعالى لم يعيّنه لهم ، وإنما أمرهم بتعظيم يوم فى الجمعة فاختلف اجتهادهم فى تعيينه ، فعينت اليهود السبت ؛ لأن الله تعالى فرغ فيه من الخلق . وعينت النصارى يوم الأحد ؛ لأن الله تعالى بدأ فيه بالخلق . فألزم كلّ منهم ما أداه إليه اجتهاده . وعيّن الله لهذه الأمة يوم الجمعة من غير أن يَكِلَهم إلى اجتهادهم فضلا منه ونعمة ، فكانت خير الأمم أمة . روى الصحيح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" نحن الآخرون الأوّلون يوم القيامة ونحن أوّل من يدخل الجنة بَيْدَ أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فاختلفوا فيه فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق فهذا يومهم الذى

(١) الدرك : التبعة . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٥ طبعة أولى أو ثانية .

اختلفوا فيه فهدانا الله له – قال يوم الجمعة – فاليوم لنا وغدا لليهود و بعد غد للنصارى". فقوله : " فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه " يقوّى قول من قال : إنه لم يعيّن لهم ؛ فإنه لو عيّن لهم وعاندوا لما قيل « اختلفوا » . وإنما كان ينبغي أن يقال فخالفوا فيه وعاندوا . ومما يقوّيه أيضا قوله عليه السلام : " أضل الله عن الجمعة مَن كان قبلنا " . وهذا نص في المعنى . وقد جاء في بعض طرقه " فهذا يومهم الذي فرض الله عليهم اختلفوا فيه " . وهو حجة للقول الأول . وقد روى : " إن الله كتب الجمعة على من كان قبلنا فاختلفوا فيه وهدانا الله له فالناس لنا فيه تَبَعٌ " .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ يريد في يوم الجمعة كما بيناه ؛ اختلفوا على نبيهم موسى وعيسى . ووجه الاتصال بما قبله أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر باتباع الحق ، وحذر الله الأمة من الاختلاف عليه فيشدّد عليهم كما شدّد على اليهود .

قوله تعالى : ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾

فيه مسألة واحدة – هذه الآية نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنة قريش ، وأمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مخاشنة وتعنيف ، وهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة . فهي محكمة في جهة العصاة من الموحدين ، ومنسوخة بالقتال في حق الكافرين . وقد قيل : إن من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار ورُجي إيمانه بها دون قتال فهي فيه محكمة . والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾

فيـــه أربع مسائل :

الأولى — أطبق جمهور أهل التفسير أن هذه الآية مدنية، نزلت فى شأن التمثيل بحمزة فى يوم أُحُد، ووقع ذلك فى صحيح البخارى وفى كتاب السِّيَر. وذهب النحاس إلى أنها مكية، والمعنى متصل بمـا قبلها من المكى اتصالا حسنا ؛ لأنهـا تتدرج الرتبُ من الذى يُدْعَى ويُوعَظ ، إلى الذى يجادل ، إلى الذى يجازَى على فعـاله . ولكن ما روى الجمهور أثبت .
روى الدَّارَقُطْنِيّ عن ابن عبـاس قال : لمـا انصرف المشركون عن قتلى أُحُد انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى منظراً ساءه، رأى حمـزة قد شُقّ بطنه ، واصطُلِم أنفه ، وجُدِعت أذناه ، فقـال : "لولا أن يحزن النساء أو تكون سـنة بعدى لتركته حتى يبعثه الله من بطون السباع والطير لأمثلنّ مكانه بسبعين رجلا " ثم دعا ببردة وغطّى بهـا وجهه ، فخرجت رجلاه فغطى رســول الله صلى الله عليه وسلم وجهه وجعل على رجليــه من الإذْخِر ، ثم قدّمه فكبر عليه عشرا ، ثم جعل يجـاء بالرجل فيوضع وحمزة مكانه ، حتى صلّى عليه سبعين صلاة ، وكان القتلى سبعين ، فلما دفنوا وفرغ منهم نزلت هذه الآية : « ادْعُ إلى سبيلِ رَبِّكَ بالحكمَة والموعظة الحسَنة — إلى قوله — واصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلاّ بالله » فصبر رسول صلى الله عليه وسـلم ولم يُمَثِّل بأحد . خرجه إسمـاعيل بن إسحـاق من حديث أبى هريرة ، وحديثُ ابن عبـاس أكمل . وحكى الطبرى عن فرقة أنها قالت : إنمـا نزلت هذه الآية فيمن أصيب بظلامة ألا ينال من ظالمه إذا تمكّن إلا مثل ظلامته لايتـعداه الى غيره . وحكاه المـاوردى عن ابن سيرين ومجاهد .

الثانيـــة — واختلف أهل العلم فيمن ظلمه رجل فى أخذ مال ثم ائتمن الظالمُ المظلومَ على مال ، هل يجوز له خيانته فى القدر الذى ظلمه ؛ فقالت فرقة : له ذلك ؛ منهم ابن سيرين وإبراهيم النخعيّ وسفيان ومجاهد ؛ واحتجت بهذه الآية وعموم لفظها . وقال مالك وفرقة معه : لا يجوز له ذلك ؛ واحتجوا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك " . رواه الدارقطنى وقد تقدّم هـذا فى « البقرة » [1] مستوفًى .

(1) راجع جـ ٢ ص ٣٥٥ طبعة ثانية .

ووقع فى مسند ابن إسحاق أن هذا الحديث إنما ورد فى رجل زنى بامرأة آخر، ثم تمكن الآخر من زوجة الثانى بأن تركها عنده وسافر؛ فاستشار ذلك الرجل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى الأمر فقال له: "أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك". وعلى هذا يتقوى قول مالك فى أمر المال؛ لأن الخيانة لاحقة فى ذلك، وهى رذيلة لا انفكاك عنها، فينبغى أن يتجنبها لنفسه؛ فإن تمكن من الانتصاف من مال لم يأتمنه عليه فيُشبه أن ذلك جائز وكأن الله حكم له؛ كما لو تمكن الآخذ بالحكم من الحاكم. وقد قيل: إن هذه الآية منسوخة، نسختها «واصبر وما صبرك إلا بالله».

الثالثة — فى هذه الآية دليل على جواز التماثل فى القصاص؛ فمن قتل بحديدة قُتل بها. ومن قتل بحجر قُتل به، ولا يتعدى قدر الواجب، وقد تقدم هذا المعنى فى «البقرة» مستوفى[1]، والحمد لله.

الرابعة — سمى الله تعالى الإذايات فى هذه الآية عقوبة، والعقوبة حقيقة إنما هى الثانية، وإنما فعل ذلك ليستوى اللفظان وتتناسب دباجة القول، وهذا بعكس قوله: «ومكروا ومكر الله» وقوله: «الله يستهزئ بهم» فإن الثانى هنا هو المجاز والأول هو الحقيقة؛ قاله ابن عطية.

قوله تعالى: وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

فيه مسئلة واحدة — قال ابن زيد: هى منسوخة بالقتال. وجمهور الناس على أنها محكمة. أى اصبر بالعفو عن المعاقبة بمثل ما عاقبوا من المثلة. ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى على قتلى أحد فإنهم صاروا إلى رحمة الله. ﴿ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ ﴾ ضَيْق جمع ضيقة؛ قال الشاعر:

* كَشَفَ الضَّيقةَ عنا وفسح[2] *

---

(١) راجع ج ٢ ص ٢٥٥ طبعة ثانية. (٢) هذا عجز بيت للأعشى. وصدره كما فى اللسان وديوانه: * فلئن ربك من رحمته *

وقراءة الجمهور بفتح الضاد . وقرأ ابن كثير بكسر الضاد، ورويت عن نافع، وهو غلط ممن رواه . قال بعض اللغويين : الكسر والفتح في الضاد لغتان في المصدر . قال الأخفش : الضَّيق والضِّيق مصدر ضاق يضيق . والمعنى : لا يضيق صدرك من كفرهم . وقال الفراء : الضَّيق ما ضاق عنه صدرك، والضِّيق ما يكون في الذي يتّسع و يضيق؛ مثل الدار والثوب . وقال ابن السِّكِّيت : هما سواء؛ يقال : في صدره ضَيق وضِيق . القُتَبي : ضَيق مخفف ضَيِّق؛ أي لا تكن في أمر ضَيِّق فخفف؛ مثل هَيْن وهَيِّن . وقال ابن عرفة : يقال ضاق الرجل إذا بخل، وأضاق إذا افتقر . وقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ أي الفواحش والكبائر بالنصر والمعونة والفضل والبر والتأييد . وتقدم معنى الإحسان . وقيل لهرم بن حيّان عند موته : أوصنا؛ فقال : أوصيكم بآيات الله وآخر سورة النحل : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ » إلى آخرها .

تمت سورة النحل، والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الإسراء

هذه السورة مكية، إلا ثلاث آيات : قوله عز وجل « وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ »(1) نزلت حين جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد ثقيف، وحين قالت اليهود : ليست هذه بأرض الأنبياء . وقوله عز وجل : « وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ »(2) . وقوله تعالى « إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ »(3) الآية . وقال مقاتل : وقوله عز وجل « إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ »(4) الآية . وقال ابن مسعود رضي الله عنه في بني إسرائيل والكهف [ومريم] : إنهن من العتاق الأول، وهن من تلادي؛ يريد من قديم كسبه .

---

(1) آية ٧٦ (2) آية ٨٠ (3) آية ٦٠ (4) آية ١٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)

فيه ثمانى[1] مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (سُبْحَانَ) « سبحان » اسم موضوع موضع المصدر، وهو غير متمكن؛ لأنه لا يجرى بوجوه الإعراب، ولا تدخل عليه الألف واللام، ولم يجر منه فعل؛ ولم ينصرف لأن فى آخره زائدتين، تقول : سبّحت تسبيحا وسُبحانا، مثل كفّرت اليمين تكفيرا وكفرانا . ومعناه التنزيه والبراءة لله عز وجل من كل نقص . فهو ذكر عظيم لله تعالى لا يصلح لغيره؛ فأما قول الشاعر :

أقول لمّا جاءنى فَخْرُهُ * سبحانَ من عَلْقَمَةَ الفاخرِ[2]

فإنما ذكره على طريق النادر . وقد روى طلحة بن عبيد الله الفَيَّاض أحدُ العشرة أنه قال للنبى صلى الله عليه وسلم : ما معنى سبحان الله؟ فقال : "تنزيه الله من كل سوء" . والعامل فيه على مذهب سيبويه الفعل الذى من معناه لا من لفظه ، إذ لم يجر من لفظه فعل، وذلك مثل قعد القُرْفُصاء، واشتمل الصَّمَّاء[3]؛ فالتقدير عنده : أنزّه الله تنزيها؛ فوقع «سبحان الله» مكان قولك تنزيها .

---

(١) كذا فى جميع الأصول، و يلاحظ أن المسائل ست . (٢) البيت للأعشى . يقول هذا لعلقمة بن علاثة الجعفرى فى منافرته لعامر بن الطفيل، وكان الأعشى قد فضل عامرا وتبرأ من علقمة وفخره على عامر (عن الشنتمرى) .

(٣) الصماء، ضرب من الاشتمال . واشتمال الصماء : أن تجلل جسدك بثوبك نحو شملة الاعراب بأكسيتهم؛ وهو أن يرد الكساء من قبل يمينه على يده اليسرى وعاتقه الأيسر ثم يرده ثانية من خلفه على يده اليمنى وعاتقه الأيمن فيغطيهما جميعا .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ « أسرى » فيه لغتان : سرى وأسرى؛ كسقى وأسقى؛ كما تقدم[1] . قال :

أسرتْ عليه من الجَوْزاء سارِيةٌ ✻ تُزجِي الشَّمالُ عليه جامدَ البَرَدِ[2]

وقال آخر

حَيِّ النَّضِيرةَ ربةَ الخِدْرِ ✻ أسرتْ إليّ ولم تكن تَسْرِي[3]

فجمع بين اللغتين في البيتين . والإسراء : سير الليل؛ يقال : سَرَيت مَسْرًى وسُرًى، وأسريت إسراء؛ قال الشاعر :

وليلة ذات نَدًى سريتُ ✻ ولم يَلِتْنِي من سُراها لَيْتُ

وقيل : أسرى سار من أول الليل، وسرى سار من آخره؛ والأول أعرف .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ بِعَبْدِهِ ﴾ قال العلماء : لو كان النبيّ صلى الله عليه وسلم اسم أشرفُ منه لسمّاه به في تلك الحالة العلية . وفي معناه أنشدوا :

يا قومِ قلبي عند زهراءِ ✻ يعرفه السامع والرائي

لا تَدْعُني إلا بيا عبدها ✻ فإنه أشرف أسمائي

وقد تقدم[4] . قال القُشَيْريّ : لما رفعه الله تعالى إلى حضرته السّنية، وأرقاه فوق الكواكب العلوية، ألزمه اسمَ العبودية تواضعا للأمة .

الرابعـة — ثبت الإسراء في جميع مصنّفات الحديث، ورُوي عن الصحابة في كل أقطار الإسلام فهو من المتواتر بهذا الوجه . وذكر النقاش : ممن رواه عشرين صحابيا . روى الصحيح عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أُتيت بالبراق وهو دابة أبيضُ [طويل] فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طَرْفه — قال — فركبته حتى أتيت بيت المقدس — قال — فربطته بالحلْقة التي تربط بها الأنبياء — قال — ثم دخلت المسجد

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) البيت للنابغة الذبياني، من قصيدته التي مطلعها : يا دار مية بالعلياء .

(٣) البيت لحسان بن ثابت .

(٤) راجع جـ ١ ص ٢٢٢ طبعة ثانية أو ثالثة .

فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءنى جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل اخترتَ الفِطْرة — قال — ثم عَرج بنا إلى السماء ـ » وذكر الحديث .

ومما ليس فى الصحيحين ماخرّجه الآجُرِّىّ والسَّمَرْقَنْدىّ ، قال الآجرى عن أبى سعيد الخُدْرىّ فى قوله تعالى « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » قال أبو سعيد : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ليلةِ أُسْرِىَ به ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « أُتِيت بدابّة هى أشبه الدواب بالبغل له أذنان يضطربان[1] وهو البراق الذى كانت الأنبياء تركبه قبلُ فركبته فانطلق تقع يداه عند منتهى بصره فسمعت نداء من يمينى يا محمد على رِسْلِك حتى أسألك فمضيت ولم أُعَرِّج عليه ثم سمعت نداء عن يسارى يا محمد على رِسْلِك فمضيت ولم أُعَرِّج عليه ثم استقبلتنى امرأة عليها من كل زينة الدنيا رافعة يديها تقول على رِسْلِك حتى أسألك فمضيت ولم أُعَرِّج ثم أتيت بيت المقدس الأقصى فنزلت عن الدابة فأوثقته فى الحَلْقة التى كانت الأنبياء تُوثِق بها ثم دخلت المسجد وصلّيت فيه فقال لى جبريل عليه السلام ما سمعتَ يا محمد فقلتُ سمعتُ نداءً عن يمينى يا محمد على رِسْلِك حتى أسألك فمضيت ولم أُعَرِّج فقال ذاك داعى اليهود ولو وقفتَ لتهوّدت أمتك — قال — ثم سمعت نداء عن يسارى على رِسْلِك حتى أسألك فمضيت ولم أُعَرِّج عليه فقال ذاك داعى النصارى أمَا إنك لو وقفت لتنصّرت أمتك — قال — ثم استقبلتنى امرأة عليها من كل زينة الدنيا رافعة يديها تقول على رِسْلِك فمضيت ولم أُعَرِّج عليها فقال تلك الدنيا لو وقفتَ لاخترت الدنيا على الآخرة — قال — ثم أُتيتُ بإناءين أحدهما فيه لبن والآخر فيه خمر فقيل لى خذ فاشرب أيَّهما شئت فأخذت اللبن فشربته فقال لى جبريل أصبت الفِطْرة ولو أنك أخذت الخمر غَوتْ أمتك ثم جاء بالمعراج الذى تعرج فيه أرواح بنى آدم فإذا هو أحسنُ ما رأيتُ أو لم تروا إلى الميت كيف يحدّ بصره إليه فعرج بنا حتى أتينا باب السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل من هذا قال جبريل قالوا ومن معك قال محمد قالوا وقد أرسل إليه ؟

---

(١) فى الأصول : « يضطربان » والتصويب من الدر المنثور .

قال ثم ففتحوا لى وسلموا علىّ و إذا مَلَك يحرس السماء يقال له إسماعيل معـه سبعون ألف ملك مع كل ملك مائة ألف — قال — وما يعلم جُنُودَ رَبِّكَ إلا هو — " وذكر الحـديث إلى أن قال : " ثم مضينا إلى السماء الخامسة و إذا أنا بهارون بن عمران المُحَبّ فى قومه وحوله تبع كثير من أمته فوصفه النبيّ صـلى الله عليه وسلم وقال طويل اللحيـة تكاد لحيته تضرب فى سُرّته ثم مضينا إلى السماء السادسة فإذا أنا بموسى فسلم علىّ ورحب بى — فوصفه النبي صلى الله عليه وسلم فقال — رجل كثير الشعر ولوكان عليه قميصان خرج شعره منهما ... " الحديث . و روى البزّار أن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم أُتِى بفرس فحمل عليـه ، كلّ خُطوة منه أقصى بصره ... وذكر الحديث . وقد جاء فى صفة البراق من حديث ابن عباس قال قال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : " بينا أنا نائم فى الحِجْر إذ أتانى آتٍ فحركنى برجله فاتبعت الشخص فإذا هو جبريل عليـه السلام قائم على باب المسجد معـه دابة دون البغل وفوق الحمـار وجهها وجه إنسـان وخُفّها خُفّ حافر وذَنَبها ذنب ثور وعُرْفها عرف الفرس فلما أدناها منى جبريل عليه السلام نفرت ونفشت عرفها فمسحها جبريل عليه السلام وقال يا بُرْقة لا تَنفِرى من محمد فوالله ما ركبك مَلك مقرب ولا نبيّ مُرسَل افضـلُ من محمد صـلى الله عليه وسـلم ولا أكرم على الله منه قالت قـد علمت أنه كذلك وأنه صاحب الشفاعة وإنّى أحِبّ أن أكون فى شفاعته فقلت أنت فى شفاعتى إن شاء الله تعـالى ... " الحـديث . وذكر ابو سعيد عبـد الملك بن محمد النيسابورى عن أبى سعيد الخدرى قال : لمـا مر النبيّ صـلى الله عليه وسـلم بإدريس عليه السلام فى السماء الرابعـة قال ، مرحبا بالأخ الصالح والنبيّ الصالح الذى وُعدنا أن نراه فلم نره إلا الليلة قال فإذا فيها مريم بنت عمران لها سبعون قصرا من لؤلؤ ولأم موسى بن عمران سبعون قصرا من مرجانة حمراء مكللة باللؤلؤ أبوابها وأسِرّتها من عرق واحد فلمـا عرج المعراج إلى السماء الخامسة وتسبيحُ أهلها سبحان من جمـع بين الثلج والنار من قالهـا مرة واحدة كان له مثلُ ثوابهم استفتح الباب جبريلُ عليه السلام ففُتح له فإذا هو بكهل لم يُرَ قطّ كَهْلٌ أجمل منه عظيم العينين تضرب لحيته

قريبا من سرته قـد كاد أن تكون شَمْطة(١) وحوله قوم جلوس يقص عليهم فقلت يا جبريل من هذا قال هارون المُحَبّ فى قومه ... " وذكر الحديث .

فهذه نبذة مختصرة من أحاديث الإسراء خارجة عن الصحيحين، ذكرها ابو الربيع سليمان ابن سبع بكمالها فى كتاب (شفاء الصدور) له . ولا خلاف بين أهل العلم وجماعة أهل السِّيَر أن الصلاة إنمـا فرضت على النبىّ صلى الله عليه وسلم بمكة فى حين الإسراء حين عرج به إلى السماء . واختلفوا فى تاريخ الإسراء وهيئة الصلاة، وهل كان إسراءً بروحه أو جسده؛ فهذه ثلاث مسائل تتعلق بالآية، وهى مما ينبغى الوقوف عليها والبحث عنها، وهى أهمّ من سَرْد تلك الأحاديث ، وأنا أذكر ما وقفت عليه فيهـا من أقاويل العلماء واختلاف الفقهاء بعـون الله تعـالى .

فأما المسألة الأولى ــ وهى هل كان إسراء بروحه أو جسده؛ اختلف فى ذلك السلف والخلف، فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح، ولم يفارق شخصُه مضجَعه ، وأنها كانت رؤيا رأى فيها الحقائق، ورؤيا الانبياء حق . ذهب إلى هذا معاوية وعائشة، وحكى عن الحسن وابن إسحـاق . وقالت طائفة : كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقـدس، وإلى السماء بالروح، واحتجوا بقوله تعالى : «سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى» فجعـل المسجد الأقصى غاية الإسراء . قالوا : ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره، فإنه كان يكون أبلغ فى المدح . وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه كان إسراء بالجسد وفى اليقظة ، وأنه ركب البراق بمكة ، ووصل إلى بيت المقـدس وصلّى فيه ثم أُسْرِىَ بجسده . وعلى هذا تدل الأخبار التى أشرنا إليها والآية . وليس فى الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة، ولا يُعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة؛ ولو كان مناما لقال بروح عبده ولم يقل بعبده . وقوله «مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى» يدل على ذلك . ولو كان مناما لمـا كانت فيـه آية ولا معجزة ، ولمـا قالت له أم هانئ : لا تحـدّث الناس

---

(١) الشمط فى الشعر : اختلافه بلونين من سواد و بياض .

وتكذيبك، ولا فضل أبو بكر بالتصديق، ولما أمكن قريشا التشنيع والتكذيب، وقد كذبه قريش فيما أخبر به حتى ارتد أقوام كانوا آمنوا، فلو كان بالرؤيا لم يستنكر، وقد قال له المشركون: إن كنت صادقا فخبّرنا عن عيرنا أين لقيتها؟ قال: "بمكان كذا وكذا مررت عليها ففزع فلان" فقيل له: ما رأيت يا فلان، قال: ما رأيت شيئا! غير أن الإبل قد نفرت". قالوا: فأخبرنا متى تأتينا العير؟ قال: "تأتيكم يوم كذا وكذا". قالوا: أية ساعة؟ قال: "ما أدرى، طلوع الشمس من هاهنا أسرع أم طلوع العير من هاهنا". فقال رجل: ذلك اليوم؟ هذه الشمس قد طلعت. وقال رجل: هذه عيركم قد طلعت، واستخبروا النبيّ صلى الله عليه وسلم عن صفة بيت المقدس فوصفه لهم ولم يكن رآه قبل ذلك. روى الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها[1] فكربت كربا ما كربت مثله قط — قال — فرفعه الله لي أنظر إليه فما سألوني عن شيء إلا أنبأتهم به" الحديث.

وقد اعترض قول عائشة ومعاوية: «إنما أسرى بنفس رسول الله صلى الله عليه وسلم» بأنها كانت صغيرة لم تشاهد، ولا حدّثت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. وأما معاوية فكان كافرا في ذلك الوقت غير مشاهد للحال، ولم يحدّث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. ومن أراد الزيادة على ما ذكرنا فليقف على (كتاب الشفاء) للقاضي عياض يجد من ذلك الشفاء. وقد احتج لعائشة بقوله تعالى: «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ»[2] فسماها رؤيا. وهذا يردّه قوله تعالى: «سبحان الذى أسرى بعبده ليلا» ولا يقال في النوم أسرى. وأيضا فقد يقال لرؤية العين: رؤيا، على ما يأتي بيانه في هذه السورة. وفي نصوص الأخبار الثابتة دلالة واضحة على أن الإسراء كان بالبدن، وإذا ورد الخبر بشيء هو مجوّز في العقل في قدرة الله تعالى فلا طريق إلى الإنكار، لا سيما في زمن خرق العوائد، وقد كان للنبيّ صلى الله عليه وسلم معارج؛ فلا يبعد أن يكون البعض بالرؤيا، وعليه يحمل قوله عليه السلام في الصحيح: "بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان" الحديث. ويحتمل أن يردّ من الإسراء إلى نوم. والله أعلم.

---

(١) أي لم أعرفها حق المعرفة؛ يقال: أثبت الشيء وثابته إذا عرفه حق المعرفة.
(٢) آية ٦٠ من هذه السورة.

المسألة الثانية ــ في تاريخ الإسراء ، وقد اختلف العلماء في ذلك أيضا ، واختلف في ذلك على ابن شهاب ؛ فروى عنه موسى بن عقبة أنه أسري به إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة . وروى عنه يونس عن عروة عن عائشة قالت : تُوفِّيت خديجة قبل أن تُفرض الصلاة . قال ابن شهاب : وذلك بعد مبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم بسبعة أعوام . وروى عنه الوَقّاصيّ قال : أُسْري به بعد مبعثه بخمس سنين . قال ابن شهاب : وفُرض الصيام بالمدينة قبل بدر ، وفرضت الزكاة والحج بالمدينة ، وحُرمت الخمر بعد أُحُد . وقال ابن إسحاق : أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس ، وقد فشا الإسلام بمكة في القبائل . وروى عنه يونس بن بكير قال : صلّت خديجة مع النبيّ صلى الله عليه وسلم . وسيأتي . قال أبو عمر : وهذا يدلك على أن الإسراء كان قبل الهجرة بأعوام ؛ لأن خديجة قد توفيت قبل الهجرة بخمس سنين وقيل بثلاث وقيل بأربع . وقول ابن إسحاق مخالف لقول ابن شهاب ؛ على أن ابن شهاب قد اختلف عنه كما تقدم . وقال الحَرْبيّ : أسري به ليلة سبع وعشرين من [شهر] ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة . وقال أبو بكر محمد بن عليّ ابن القاسم الذهبي في تاريخه : أسري به من مكة إلى بيت المقدس ، وعرج به إلى السماء بعد مبعثه بثمانية عشر شهرا . قال أبو عمر : لا أعلم أحدا من أهل السير قال ما حكاه الذهبي ، ولم يُسند قوله إلى أحد ممن يضاف إليه هذا العلم منهم ، ولا رفعه إلى من يحتج به عليهم .

المسألة الثالثة ــ وأما فرض الصلاة وهيئتها حين فرضت ، فلا خلاف بين أهل العلم وجماعة أهل السِّيَر أن الصلاة إنما فرضت بمكة ليلة الإسراء حين عُرِج به إلى السماء ، وذلك منصوص في الصحيح وغيره . وإنما اختلفوا في هيئتها حين فرضت ؛ فروى عن عائشة رضي الله عنها أنها فرضت ركعتين ركعتين ، ثم زيد في صلاة الحضر فأكملت أربعا ، وأُقرّت صلاة السفر على ركعتين . وبذلك قال الشّعْبيّ وميمون بن مِهْران ومحمد بن إسحاق . قال الشعبيّ : إلا المغرب . قال يونس بن بكير : وقال ابن إسحاق ثم إن جبريل عليه السلام أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم حين فرضت عليه الصلاة يعني في الإسراء فهمز له بعقبه في ناحية

الوادي فانفجرت منه ماء فتوضأ جبريل ومحمد ينظر عليهما السلام فوضأ وجهه واستنشق وتمضمض ومسح برأسه وأذنيه ورجليه إلى الكعبين ونضح فرجه، ثم قام يصلي ركعتين بأربع سجدات، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أقر الله عينه وطابت نفسه وجاءه ما يحب من أمر الله تعالى، فأخذ بيد خديجة ثم أتى بها العين فتوضأ كما توضأ جبريل ثم ركع ركعتين وأربع سجدات هو وخديجة، ثم كان هو وخديجة يصليان سواء . وروى عن ابن عباس أنها فرضت في الحضر أربعا وفي السفر ركعتين . وكذلك قال نافع بن جبير والحسن بن أبي الحسن البصري، وهو قول ابن جريج ، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يوافق ذلك . ولم يختلفوا في أن جبريل عليه السلام هبط صبيحة ليلة الإسراء عند الزوال، فعلم النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة ومواقيتها . وروى يونس بن بكير عن سالم مولى أبي المهاجر قال سمعت ميمون بن مهران يقول : كان أول الصلاة مثنى ، ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعا فصارت سنة ، وأقرت الصلاة للمسافر وهي تمام . قال أبو عمر : وهذا إسناد لا يحتج بمثله ، وقوله «فصارت سنة» قول منكر، وكذلك استثناء الشعبي المغرب وحدها ولم يذكر الصبح قول لا معنى له . وقد أجمع المسلمون أن فرض الصلاة في الحضر أربع إلا المغرب والصبح ولا يعرفون غير ذلك عملا ونقلا مستفيضا ، ولا يضرهم الاختلاف فيما كان أصل فرضها .

الخامسة — قد مضى الكلام في الأذان في «المائدة»[1] والحمد لله . ومضى في «آل عمران»[2] أن أول مسجد وضع في الأرض المسجد الحرام، ثم المسجد الأقصى . وأن بينهما أربعين عاما من حديث أبي ذر، و بناء سليمان عليه السلام المسجد الأقصى ودعاؤه له من حديث عبد الله بن عمرو ووجه الجمع في ذلك ؛ فتأمله هناك فلا معنى للإعادة . ونذكر هنا قوله صلى الله عليه وسلم : "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد إلى المسجد الحرام وإلى مسجدي هذا وإلى مسجد إيلياء أو بيت المقدس" . خرجه مالك من حديث أبي هريرة . وفيه ما يدل على فضل هذه المساجد الثلاثة على سائر المساجد؛ لهذا قال العلماء : من نذر صلاة في مسجد

(١) راجع ج ٦ ص ٢٢٤ (٢) ج ٤ ص ١٣٧

لا يصل إليه إلا برحلة وراحلة فلا يفعل ، ويصلّى فى مسجده ؛ إلا فى الثلاثة المساجد المذكورة فإنه من نذر صلاة فيها خرج إليها . وقد قال مالك وجماعة من أهل العلم فيمن نذر رباطا فى ثغر يسدّه : فإنه يلزمه الوفاء حيث كان الرباط لأنه طاعة لله عز وجل . وقد زاد أبو البَخْترِيّ فى هذا الحديث مسجد الجند ، ولا يصح وهو موضوع ؛ وقد تقدّم فى مقدّمة الكتاب .

السادسة ــ قوله تعالى : ﴿ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَى ﴾ سُمّى "الأقصى" لبعد ما بينه وبين المسجد الحرام ؛ وكان أبعد مسجد عن أهل مكة فى الأرض يعظّم بالزيارة ؛ ثم قال : ﴿ ٱلَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ قيل : بالثمار وبمجارى الأنهار . وقيل : بمن دُفن حوله من الأنبياء والصالحين ؛ وبهذا جعله مقدّسا . وروى معاذ بن جبل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يقول الله تعالى يا شام أنت صفوتى من بلادى وأنا سائق إليك صفوتى من عبادى" . ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾ هذا من باب تلوين الخطاب . والآيات التى أراه الله من العجائب التى أخبر بها الناس ، وإسراؤه من مكة إلى المسجد الأقصى فى ليلة وهو مسيرة شهر ، وعروجه إلى السماء ووصفه الأنبياء واحدا واحدا ، حسبما ثبت فى صحيح مسلم وغيره . ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (1) تقدّم .

قوله تعالى : وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾

أى كرّمنا محمدا صلى الله عليه وسلم بالمعراج ، وأكرمنا موسى بالكتاب وهو التوراة . ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ ﴾ أى ذلك الكتاب . وقيل موسى . وقيل معنى الكلام : سبحان الذى أسرى بعبده ليلا وآتى موسى الكتاب ؛ فخرج من الغيبة إلى الإخبار عن نفسه جل وعز . وقيل : إن معنى سبحان الذى أسرى بعبده ليلا ، معناه أسرينا ، يدل عليه ما بعده من قوله : « لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا » فحمل « وآتينا موسى الكتاب » على المعنى . ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُوا ﴾ قرأ أبو عمرو « يتخذوا »

---

(1) راجع جـ ٥ ص ٢٥٨ طبعة أولى أو ثانية . م

بالياء . الباقون بالتاء . فيكون من باب تلوين الخطاب . (وَكِيلًا) أى شريكا؛ عن مجاهد.
وقيل : كفيلا بأمورهم؛ حكاه الفراء . وقيل : ربا يتوكلون عليه فى أمورهم؛ قاله الكلبي .
وقال الفراء : كافيا؛ والتقدير : عهدنا إليه فى الكتاب ألا تتخذوا من دونى وكيلا . وقيل :
التقدير لئلا تتخذوا . والوكيل : من يُوكَل إليه الأمر .

قوله تعالى : ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾

أى يا ذرية من حملنا، على النداء؛ قاله مجاهد ورواه عنه ابن أبى نجيح . والمراد بالذرية
كلُّ من احتج عليه بالقرآن، وهم جميع مَن على الأرض؛ ذكره المهدوى . وقال الماوَرْدِىّ :
يعنى موسى وقومه من بنى إسرائيل، والمعنى يا ذرية من حملنا مع نوح لا تشركوا . وذكر نوحا
ليذكّرهم نعمة الإنجاء من الغرق على آبائهم . وروى سفيان عن حُميد عن مجاهد أنه قرأ
« ذَرِّيَّة » بفتح الذال وتشديد الراء والياء . وروى هذه القراءة عامر بن الواجد[(1)] عن زيد
ابن ثابت . ورُوى عن زيد بن ثابت أيضا « ذِرِّيَة » بكسر الذال وشد الراء . ثم بين أن
نوحا كان عبدا شكورا يشكر الله على نعمه ولا يرى الخير إلا من عنده . قال قتادة : كان إذا لبس
ثوبا قال : بسم الله، فإذا نزعه قال : الحمد لله . كذا روى عنه معمر . ورُوى معمر عن منصور
عن إبراهيم قال : شُكْرُه إذا أكل قال : بسم الله ، فإذا فرغ من الأكل قال : الحمد لله .
قال سلمان الفارسى : لأنه كان يحمد الله على طعامه . وقال عمران بن سليم : إنما سمى نوحا
عبدا شكورا لأنه كان إذا أكل قال : الحمد لله الذى أطعمنى ولو شاء لأجاعنى، وإذا شرب
قال : الحمد لله الذى سقانى ولو شاء لأظمأنى ، وإذا آكتسى قال : الحمد لله الذى كسانى
ولو شاء لأعرانى، وإذا احتذى قال : الحمد لله الذى حذانى ولو شاء لأحفانى ، وإذا قضى
حاجته قال : الحمد لله الذى أخرج عنى الأذى ولو شاء لحبسه فىّ . ومقصود الآية : إنكم
من ذرية نوح وقد كان عبدا شكورا فأنتم أحق بالاقتداء به دون آبائكم الجهال . وقيل :
المعنى أن موسى كان عبدا شكورا إذ جعله الله من ذرية نوح . وقيل : يجوز أن يكون

(1) كذا فى نسخ الأصل، ولم نعثر عليه فى المظان .

« ذرية » مفعولا ثانيا لـ « تتخذوا » ، ويكون قوله : « وكيلا » يراد به الجمع فيسوغ ذلك فى القراءتين جميعا أعنى الياء والتاء فى « تتخذوا » . ويجوز أيضا فى القراءتين جميعا أن يكون « ذرية » بدلا من قوله « وكيلا » لأنه بمعنى الجمع؛ فكأنه قال لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح . ويجوز نصبها بإضمار أعنى وأمدح ، والعرب قد تنصب على المدح والذم . ويجوز رفعها على البدل من المضمر فى « تتخذوا » فى قراءة من قرأ بالياء؛ ولا يحسن ذلك لمن قرأ بالتاء لأن المخاطب لا يبدل منه الغائب . ويجوز جرها على البدل من بنى إسرائيل فى الوجهين . فأما « أنْ » من قوله « ألا تتخذوا » فهى على قراءة من قرأ بالياء فى موضع نصب بحذف الجار ، التقدير : هديناهم لئلا يتخذوا . ويصلح على قراءة التاء أن تكون زائدة والقول مضمر كما تقدم . ويصلح أن تكون مفسرة بمعنى أى ، لا موضع لها من الإعراب، وتكون « لا » للنهى فيكون خروجا من الخبر إلى النهى .

قوله تعالى : وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ﴾ وقرأ سعيد بن جبير وأبو العالية « فِى الكتب » على لفظ الجمع . وقد يرد لفظ الواحد ويكون معناه الجمع؛ فتكون القراءتان بمعنًى واحد . ومعنى « قضينا » أعلمنا وأخبرنا؛ قاله ابن عباس . وقال قتادة : حكمنا؛ وأصل القضاء الإحكام للشئ والفراغ منه . وقيل : قضينا أوحينا ؛ ولذلك قال : « إلى بنى إسرائيل » . وعلى قول قتادة يكون « إلى » بمعنى على؛ أى قضينا عليهم وحكمنا . وقاله ابن عباس أيضا . والمعنيّ بالكتاب اللوح المحفوظ . ﴿ لَتُفْسِدُنَّ ﴾ وقرأ ابن عباس « لَتُفْسَدُنَّ » . عيسى الثقفى « لَتَفْسُدُنَّ » . والمعنى فى القراءتين قريب؛ لأنهم إذا أفسدوا فسدوا ، والمراد بالفساد مخالفة أحكام التوراة . ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ يريد أرض الشام وبيت المقدس وما والاها . ﴿ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ ﴾ اللام فى « لتفسدن ولتعلن » لام قسم مضمر كما تقدم . ﴿ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ أراد التكبر والبغى والطغيان والاستطالة والغلبة والعدوان .

قوله تعالى : فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾

قوله تعالى : (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا) أى أولى المرتين من فسادهم . (بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ) هم أهل بابل، وكان عليهم بُخْتَنَصَّر فى المرة الأولى حين كذبوا إرمياء وجرحوه وحبسوه؛ قاله ابن عباس وغيره . وقال قتادة : أرسل عليهم جالوت فقتلهم، فهو وقومه أولوا بأس شديد . وقال مجاهد : جاءهم جند من فارس يتجسّسون أخبارهم ومعهم بختنصر فوعَى حديثهم من بين أصحابه ، ثم رجعوا إلى فارس ولم يكن قتال، وهذا فى المرة الأولى ، فكان منهم جَوْسٌ خلال الديار لا قتل؛ ذكره القشيرى أبو نصر . وذكر المهدوىّ عن مجاهد أنه جاءهم بختنصر فهزمه بنو إسرائيل ، ثم جاءهم ثانية فقتلهم ودمرهم تدميرا . ورواه ابن أبي نجيح عن مجاهد؛ ذكره النحاس . وقال محمد بن إسحاق فى خبر فيه طول : إن المهزوم سنحاريب[1] ملك بابل، جاء ومعه ستمائة ألف راية تحت كل راية مائة ألف فارس فنزل حول بيت المقدس فهزمه الله تعالى وأمات جميعهم إلا سنحاريب وخمسة نفر من كُتّابه، وبعث ملك بنى إسرائيل واسمه صديقة فى طلب سنحاريب فأخذ مع الخمسة، أحدهم بختنصر، فطرح فى رقابهم الجوامع[2] وطاف بهم سبعين يوما حول بيت المقدس وإيلياء ويرزقهم كل يوم خبزتين من شعير لكل رجل منهم، ثم أطلقهم فرجعوا إلى بابل، ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين، واستخلف بختنصر وعظمت الأحداث فى بنى إسرائيل، واستحلوا المحارم وقتلوا نبيهم شَعْيَا؛ فجاءهم بختنصر ودخل هو وجنوده بيت المقدس وقتل بنى إسرائيل حتى أفناهم . وقال ابن عباس وابن مسعود : أول الفساد قتل زكريا . وقال ابن إسحاق : فسادهم فى المرة الأولى قتل شعيا نبىّ الله فى الشجرة؛ وذلك أنه لما مات صديقة ملكهم مَرِج[3] أمرهم

(١) راجع كتاب قصص الأنبياء، المسمى بالعرائس ص ٢٠٩ طبع بلاق وتاريخ الطبرى جـ ٢ قسم أول ص ٦٣٨ وما بعدها طبع أوربا . (٢) الجوامع : الأغلال، والواحد جامعة . (٣) مرج الأمر : فسد واختلط والتبس المخرج فيه .

وتنافسوا على المُلْك وقتل بعضهم بعضا وهم لا يسمعون من نبيهم؛ فقال الله تعالى له قم في قومك أوحِ على لسانك، فلما فرغ مما أوحى الله إليه عَدَوْا عليه ليقتلوه فهرب فانفلقت له شجرة فدخل فيها، وأدركه الشيطان فأخذ هُدْبة من ثوبه فأراهم إياها، فوضعوا المنشار في وسطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه في وسطها . وذكر ابن إسحاق أن بعض العلماء أخبره أن زكريا مات موتا ولم يقتل وإنما المقتول شَعْيا . وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى : « ثم بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار » هو سنحاريب من أهل نِينَوَى بالمَوْصل ملكُ بابل. وهذا خلاف ما قال ابن إسحاق، فالله أعلم . وقيل : إنهم العمالقة وكانوا كفارا، قاله الحسن. ومعنى جاسوا : عاثوا وقتلوا؛ وكذلك جاسوا وهاسوا وداسوا؛ قاله ابن عَزيز، وهو قول القُتَبِيّ . وقرأ ابن عبـاس : « حاسوا » بالحاء المهملة. قال أبو زيد : الحَوْس والجَـوْس والعَوْس والهَوْس : الطواف بالليل . وقال الجوهري : الجوس مصدر قولك جاسوا خلال الديار، أي تخللوها فطلبوا ما فيها كما يجوس الرجل الأخبار أي يطلبها؛ وكذلك الاجتياس. والجَوَسان (بالتحريك) الطوفان بالليل؛ وهو قول أبي عبيدة . وقال الطبري : طافوا بين الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجائين؛ فجمع بين قول أهل اللغة . قال ابن عباس : مشوا وتردّدوا بين الدُّور والمساكن . وقال الفراء : قتلوكم بين بيوتكم؛ وأنشد لحسان :

ومنّا الذي لاقى بسيف محمـد * فجاس به الأعداء عرض العساكر

وقال قطرب : نزلوا؛ قال :

فجُسْنا ديارهمُ عنـوةً * وأُبْنا بساداتهم موثقينا

﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴾ أي قضاء كائنا لا خُلف فيه .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ أى الدولة والرجعة ؛ وذلك لما تبتم وأطعتم . ثم قيل : ذلك بقتل داود جالوت أو بقتل غيره ، على الخلاف فى من قتلهم . ﴿ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ حتى عاد أمركم كما كان . ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ أى أكثر عددا ورجالا من عدوّكم . والنفير من ينفر مع الرجل من عشيرته ؛ يقال : نفير ونافر مثل قدير وقادر . ويجوز أن يكون النفير جمع نَفْر كالكليب والمعيز والعبيد ؛ قال الشاعر :

فأَكْرِمْ بقحطانَ مِن والدٍ * وحِمْيَرَ أكرم بقوم نفيرا

والمعنى : أنهم صاروا بعد هذه الوقعة الأولى أكثر انضماما وأصلح أحوالا ، جزاءً من الله تعالى لهم على عودهم إلى الطاعة .

قوله تعالى : إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ أى نفع إحسانكم عائد عليكم . ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ أى فعليها ؛ نحو سلام لك ، أى سلام عليك . قال :

* فخرّ صريعا لليدين وللفم *[1]

أى على اليدين وعلى الفم . وقال الطبرى : اللام بمعنى إلى ، يعنى وإن أسأتم فإليها ، أى فإليها ترجع الإساءة ؛ لقوله تعالى : « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا » أى إليها . وقيل : فلها الجزاء والعقاب . وقال الحسين بن الفضل : فلها ربٌّ يغفر الإساءة . ثم يحتمل أن يكون هذا

---

(١) هذا عجز بيت لربيعة بن مُكَدَّم . وصدره :

* وهتكت بالرمح الطويل إهابه *

وقبل هذا البيت :

ضربت راحلة الظعينة نحوه * عمدا ليعلم بعض ما لم يعلم

وبعده :

ومنحت آخر بعده جياشة * نجلاء فاغرة كشدق الأعجم

وهذه الأبيات قيلت يوم الظعينة . راجع أمالى القالى ج ٢ ص ٢٧٠ طبع دار الكتب المصرية

خطابا لبنى إسرائيـل فى أول الأمر؛ أى أساتم فحلّ بكم القتل والسّبىُ والتخريب ثم أحسنتم فعاد إليكم الملك والعُـلوّ وآنتظام الحال . ويحتمل أنه خوطب بهذا بنو إسرائيـل فى زمن محمد صلى الله عليه وسلم؛ أى عرفتم استحقاق أسلافكم للعقوبة على العصيان فآرتقبوا مثله . أو يكون خطابا لمشركى قريش على هذا الوجه . ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ من إفسادكم؛ وذلك أنهم قتلوا فى المرة الثانية يحيى بن زكريا عليهما السـلام، قتله مَلِكٌ من بنى إسرائيل يقال له لاخب؛ قاله القُتَبِيّ . وقال الطبرى : اسمه هيردوس، ذكره فى التاريخ؛ حمله على قتله آمرأة اسمها أزبيل. وقال السدّى : كان ملك بنى إسرائيل يكرم يحيى بن زكريا ويستشيره فى الأمر، فآستشاره الملك أن يتزوج بنت آمرأة له فنهاه عنها وقال : إنها لا تحل لك؛ فحقدت أمّها على يحيى عليه السلام، ثم ألبست ابنتها ثيابا حمرا رقاقا وطيّبتها وأرسلتها إلى الملك وهو على شرابه، وأمرتها أن تتعرض له، وإن أرادها أبت حتى يعطيها ما تسأله؛ فإذا أجاب سألتْ أن يؤتى برأس يحيى بن زكريا فى طَسْت من ذهب؛ ففـعلت ذلك حتى أتى برأس يحيى بن زكريا والرأس تتكلم حتى وضع بين يديه وهو يقول : لا تحل لك؛ لا تحلّ لك؛ فلما أصبح إذ دمه يغلى، فألقى عليه التراب فغلى فوقه، فلم يزل يُلقى عليه التراب حتى بلغ سور المدينة وهو فى ذلك يغلى؛ ذكره الثعلبى وغيره . وذكر ابن عساكر الحافظ فى تاريخه عن الحسين بن علىّ قال : كان ملك من هـذه الملوك مات وترك امرأته وآبنته فورث مُلْكَه أخوه، فأراد أن يتزوج امرأة أخيه، فآستشار يحيى بن زكريا فى ذلك، وكانت الملوك فى ذلك الزمان يعملون بأمر الأنبياء، فقال له : لا تتزوجها فإنها بَغِىّ؛ فعرفت ذلك المرأةُ أنه قـد ذكرها وصرفه عنها، فقالت : من أين هذا! حتى بلغها أنه من قِبَـل يحيى، فقالت : ليقتلن يحيى أو ليخرجن من ملكه، فعمَدت إلى ابنتها وصنّعتها، ثم قالت : اذهبى إلى عمك عنـد الملأ فإنه إذا رآك سيدعوك ويجلسك فى حجره، ويقول سلينى ما شئت، فإنك لن تسأليني شيئا إلا أعطيتك، فإذا قال لك ذلك فقولى : لا أسأل إلا رأس يحيى . قال : وكانت الملوك إذا تكلم أحدهم بشىء على رءوس الملأ ثم لم يَمْض له نُزع من ملكه؛ ففعلت ذلك . قال : فجعل يأتيه الموت من قتله يحيى،

وجعل يأتيه الموت من خروجه من ملكه ، فاختار ملكه فقتله . قال : فساخت بأمها الأرض . قال ابن جُدْعان : فحدثت بهذا الحديث ابنَ المسيّب فقال أفلا أخبرك كيف كان قتل زكريا؟ قلت لا ؛ قال : إن زكريا حيث قُتل ابنه انطلق هاربا منهم واتبعوه حتى أتى على شجرة ذات ساق فدعته إليها فانطوت عليه وبقيت من ثوبه هُدْبة تكفّتها الرياح ، فانطلقوا إلى الشجرة فلم يجدوا أثره بعدها ، ونظروا بتلك الهُدْبة فدعوا بالمنشار فقطعوا الشجرة فقطعوه معها .

قلت : وقع فى التاريخ الكبير للطبرى[1] حدثنى أبو السائب قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال : بعث عيسى بنُ مريم يحيى بنَ زكريا فى اثنى عشر من الحواريين يعلّمون الناس ، قال : كان فيما نهوهم عنه نكاح ابنة الأخ ، قال : وكان لملكهم ابنة أخ تعجبه ... وذكر الخبر بمعناه . وعن ابن عباس قال : بُعث يحيى ابنُ زكريا فى اثنى عشر من الحواريين يعلمون الناس ، وكان فيما يعلّمونهم ينهونهم عن نكاح بنت الأخت ، وكان لملكهم بنت أخت تعجبه ، وكان يريد أن يتزوجها ، وكان لها كلّ يوم حاجةٌ يقضيها ، فلما بلغ ذلك أمُّها أنهم نهوا عن نكاح بنت الأخت قالت لها : إذا دخلت على الملك فقال ألك حاجة فقولى : حاجتى أن تذبح يحيى بن زكريا ؛ فقال : سليني سوى هذا ! قالت : ما أسألك إلا هذا . فلما أبت عليه دعا بطَسْت ودعا به فذبحه ، فندرت قطرة من دمه على وجه الأرض فلم تزل تغْلِي حتى بعث الله عليهم بختنصّر فألقِيَ فى نفسه أن يقتل على ذلك الدم منهم حتى يسكن ذلك الدم ، فقتل عليه منهم سبعين ألفا ، فى رواية خمسة وسبعين ألفا . قال سعيد بن المسيّب : هى دِيةُ كل نبيّ . وعن ابن عباس قال : أوحى الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم إنى قتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفا ، وإنى قاتل بابن ابنتك سبعين ألفا وسبعين ألفا . وعن سمير بن عطية قال : قتل على الصخرة التى فى بيت المقدس سبعون نبيا منهم يحيى بن زكريا . وعن زيد بن واقد قال : رأيت رأس يحيى عليه السلام حيث أرادوا بناء مسجد دمشق أخرج من تحت ركن من أركان القبة التى تلى المحراب

---

(١) راجع ج ١ قسم اول ص ٧١٢ طبع اوربا .

مما يلي الشرق، فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغير . وعن قرة بن خالد قال : ما بكت السماء على أحد إلا على يحيى بن زكريا والحسين بن علي؛ وحمرتها بكاؤها . وعن سفيان بن عُيينة قال : أوحش ما يكون بن آدم في ثلاثة مواطن : يوم ولد فيخرج إلى دار همّ ، وليلة يبيت مع الموتى فيجاور جيرانا لم ير مثلهم، ويوم يُبعث فيشهد مشهدا لم ير مثله؛ قال الله تعالى ليحيى في هذه الثلاثة مواطن : « وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا » . كله من التاريخ المذكور .

واختلف فيمن كان المبعوث عليهم في المرة الآخرة؛ فقيل : بختنصر . وقاله القشيري أبو نصر، لم يذكر غيره . قال السُّهَيْلي : وهذا لا يصح؛ لأن قتل يحيى كان بعد رفع عيسى، وبختنصر كان قبل عيسى بن مريم عليهما السلام بزمان طويل ، وقبل الإسكندر؛ وبين الإسكندر وعيسى نحوٌ من ثلثمائة سنة؛ ولكنه أريد بالمرة الأخرى حين قتلوا شعيا، فقد كان بختنصر إذ ذاك حيا، فهو الذي قتلهم وخرّب بيت المقدس وأتبعهم إلى مصر وأخرجهم منها . وقال الثعلبي : ومن روى أن بختنصّر هو الذي غزا بني إسرائيل عند قتلهم يحيى بن زكريا فغلط عند أهل السِّيَر والأخبار؛ لأنهم مجمعون على أن بختنصر إنما غزا بني إسرائيل عند قتلهم شَعْيَا وفي عهد إِرْمِيَاء . قالوا : ومن عهد إرمياء وتخريب بختنصّر بيت المقدس إلى مولد يحيى ابن زكريا عليهما السلام أربعمائة سنة وإحدى وستون سنة ، وذلك أنهم يعدّون من عهد تخريب بيت المقدس إلى عمارته في عهد كوسك[1] سبعين سنة ، ثم من بعد عمارته إلى ظهور الإسكندر على بيت المقدس ثمانية وثمانين سنة ، ثم من بعد مملكة الإسكندر إلى مولد يحيى ثلثمائة وثلاثا وستين سنة[2] .

قلت : ذكر جميعه الطبري في التاريخ رحمه الله . قال الثعلبي : والصحيح من ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق قال : لما رفع الله عيسى من بين أظهرهم وقتلوا يحيى — وبعض

(١) الذي في تاريخ الطبري : « كيرش » ولم نوفق لتصويبه .

(٢) في الطبري : « ثلثمائة وثلاث سنين » . وراجع ص ٧١٨ من القسم الأول .

الناس يقول : لما قتلوا زكريا — بعث الله إليهم ملكا من ملوك بابل يقال له : خردوس، فسار إليهم بأهل بابل وظهر عليهم بالشام ، ثم قال لرئيس جنوده : كنت حلفت بإلهي لئن أظهرني الله على بيت المقدس لأقتلنهم حتى تسيل دماؤهم في وسط عسكري، وأمر أن يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم، فدخل الرئيس بيت المقدس فوجد فيها دماء تغلي ، فسألهم فقالوا : دم قربان قربناه فلم يتقبل منا منذ ثمانين سنة[1] . قال ما صدقتموني ، فذبح على ذلك الدم سبعمائة وسبعين رجلا من رؤسائهم فلم يهدأ ، [فأتى بسبعمائة غلام من غلمانهم فذبحوا على الدم فلم يهدأ][2] ، فأمر بسبعة آلاف من سبيهم وأزواجهم فذبحهم على الدم فلم يبرد ، فقال : يابني إسرائيل ، أصدقوني قبل ألا أترك منكم نافخ نار من أنثى ولا من ذكر إلا قتلته . فلما رأوا الجهد قالوا : إن هذا دم نبي منا كان ينهانا عن أمور كثيرة من سخط الله فقتلناه ، فهذا دمه ، كان اسمه يحيى بن زكريا ، ما عصى الله قط طرفة عين ولا هم بمعصية . فقال : الآن صدقتموني ، وخر ساجدا ثم قال : لمثل هذا ينتقم منكم ، وأمر بغلق الأبواب وقال : أخرجوا من كان هاهنا من جيش خردوس، وخلا في بني إسرائيل وقال : يا نبي الله، يا يحيى بن زكريا قد علم ربي وربك ما قد أصاب قومك من أجلك، فاهدأ بإذن الله قبل ألا أبقي منهم أحداً. فهدأ دم يحيى بن زكريا بإذن الله عز وجل، ورفع عنهم القتل وقال : رب ؛ إني آمنت بما آمن به بنو إسرائيل وصدقت به ؛ فأوحى الله تعالى إلى رأس من رءوس الأنبياء : إن هذا الرئيس مؤمن صدوق . ثم قال : إن عدو الله خردوس أمرني أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكره، وإني لا أعصيه ، فأمرهم فحفروا خندقا وأمر بأموالهم من الإبل والخيل والبغال والحمير والبقر والغنم فذبحوها حتى سال الدم إلى العسكر ، وأمر بالقتلى الذين كانوا قتلوا قبل ذلك فطرحوا على ما قتل من مواشيهم، ثم انصرف عنهم إلى بابل، وقد كاد أن يفني بني إسرائيل .

---

(١) في تاريخ الطبري ص ٧٢١ : « مائتي سنة » .

(٢) زيادة من تاريخ الطبري .

قلت : قد ورد في هذا الباب حديث مرفوع فيه طول من حديث حذيفة ، وقد كتبناه في (كتاب التذكرة) مقطعا في أبواب في أخبار المَهْـدِي ، نذكر منها هنا ما يبين معنى الآية ويفسرها حتى لا يحتاج معه إلى بيان ، قال حذيفة : قلت يا رسول الله ، لقد كان بيت المقدس عند الله عظيما جسيم الخطر عظيم القدر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هو من أجلّ البيوت ابتناه الله لسليمان بن داود عليهما السلام من ذهب وفضة ودُرّ وياقوت وزمرد" : وذلك أن سليمان بن داود لما بناه سخّر الله له الجن فأتوه بالذهب والفضة من المعادن ، وأتوه بالجواهر والياقوت والزمرد ، وسخر الله تعالى له الجن حتى بنوه من هذه الأصناف . قال حذيفة : فقلت يا رسول الله ، وكيف أخذت هذه الأشياء من بيت المقدس . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن بني إسرائيل لما عصوا الله وقتلوا الأنبياء سلط الله عليهم بختنصّر وهو من المجوس وكان ملكه سبعمائة سنة ، وهو قوله : « فإذا جاء وَعْدُ أُولَاهُمَا بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسُوا خلالَ الديار وكان وعْدًا مفعولا » فدخلوا بيت المقدس وقتلوا الرجال وسبُوا النساء والأطفال وأخذوا الأموال وجميع ما كان في بيت المقدس من هذه الأصناف فاحتملوها على سبعين ألفا ومائة ألف عَجَلَة حتى أودعوها أرض بابل ، فأقاموا يستخدمون بني إسرائيل ويستملكونهم بالخزي والعقاب والنكال مائة عام ، ثم إن الله عز وجل رحمهم فأوحى إلى ملك من ملوك فارس أن يسير إلى المجوس في أرض بابل ، وأن يستنقذ مَن في أيديهم من بني إسرائيل ؛ فسار إليهم ذلك الملك حتى دخل أرض بابل فاستنقذ من بقي من بني إسرائيل من أيدي المجوس واستنقذ ذلك الحلي الذي كان من بيت المقدس وردّه الله إليه كما كان أول مرة وقال لهم : يا بني إسرائيل إن عدتم إلى المعاصي عدنا عليكم بالسَّبْي والقتل ، وهو قوله : « عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا » فلما رجعت بنو إسرائيل إلى بيت المقدس عادوا إلى المعاصي فسلّط الله عليهم ملك الروم قيصر ، وهو قوله : « فإذا جاء وَعْدُ الآخرة لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا » فغزاهم في البر والبحر فسباهم وقتلهم وأخذ أموالهم ونساءهم ، وأخذ حلي جميع بيت المقدس واحتمله على سبعين ألفا ومائة ألف عَجَلة حتى أودعه

فى كنيسة الذهب ، فهو فيها الآن حتى يأخذه المهدى فيردّه إلى بيت المقدس ، وهو ألف سفينة وسبعمائة سفينة يُرسَى بها على يافا[1] حتى تنقل إلى بيت المقدس وبها يجمع الله الأولين والآخرين ... وذكر الحديث .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ أى من المرتين ؛ وجواب « إذا » محذوف ؛ تقديره بعثناهم؛ دلّ عليه « بعثنا » الاول . ﴿ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ أى بالسَّبى والقتل فيظهر أثر الحزن فى وجوهكم؛ فـ « ليسوءوا » متعلق بمحذوف ؛ أى بعثنا عبادا ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم . قيل : المراد بالوجوه السادة ؛ أى ليُذِلّوهم . وقرأ الكسائى « لنسوءَ » بنون وفتح الهمزة ، فعلٌ مخبر عن نفسه معظّم، اعتبارا بقوله « وقضينا ، وبعثنا ورددنا » . ونحوه عن علىّ . وتصديقها قراءة أُبىٍّ « لنسوءنْ » بالنون وحرف التوكيد . وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وثّاب وحمزة وابن عامر « ليسوءَ » بالياء على التوحيد وفتح الهمزة؛ ولها وجهان : أحدهما — ليسوء الله وجوهكم . والثانى — ليسوء الوعدُ وجوهكم . وقرأ الباقون «ليسوءوا» بالياء وضم الهمزة على الجمع ؛ أى ليسوء العباد الذين هم أولوا بأس شديد وجوهكم . ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا ﴾ أى ليدمّروا ويهلكوا . وقال قُطْرُب : يهدموا؛ قال الشاعر :

فما الناس إلا عاملان فعامل ۞ يُتَبِّرُ ما يَبْنِى وآخر رافع

﴿ مَا عَلَوْا ﴾ أى غلبوا عليه من بلادكم ﴿ تَتْبِيرًا ﴾ .

قوله تعالى : عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ وهذا مما أخبروا به فى كتابهم . و « عسى » وعد من الله أن يكشف عنهم . و « عسى » من الله واجبة . ﴿ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ بعد انتقامه منكم ، وكذلك كان؛ فكثّر عددهم وجعل منهم الملوك . ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ قال قتادة :

(1) فى الأصول : « يرسى بها على بابل » والتصويب عن الدر المنثور .

فعادوا فبعث الله عليهم محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ فهم يعطون الجزية بالصغار ؛ وروى عن ابن عباس . وهذا خلاف ما تقدم فى الحديث وغيره . وقال القشيرى : وقد حل العقاب ببنى إسرائيل مرتين على أيدى الكفار ، ومرة على أيدى المسلمين . وهذا حين عادوا فعاد الله عليهم . وعلى هذا يصح قول قتادة . ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ أى محبسا وسجنا ، من الحصر وهو الحبس . قال الجوهرى : يقال حصره يحصره حصرا ضيق عليه وأحاط به . والحصير : الضيق البخيل . والحصير : البارية . والحصير : الجنب ، قال الأصمعى : هو ما بين العرق الذى يظهر فى جنب البعير والفرس معترضا فما فوقه إلى منقطع الجنب . والحصير : الملك ؛ لأنه محجوب . قال لبيد :

وقماقم غلب الرقاب كأنهم • جن لدى باب الحصير قيام

ويروى : • ومقامة غلب الرقاب ـــ •

على أن يكون « غلب » بدلا من « مقامة » كأنه قال : ورب غلب الرقاب . وروى عن أبى عبيدة : • ـــ لدى طرف الحصير قيام •

أى عند طرف البساط للنعمان بن المنذر . والحصير : المحبس ؛ قال الله تعالى : « وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا » . قال القشيرى : ويقال للذى يفترش حصير ؛ لحصر بعضه على بعض بالنسج . وقال الحسن : أى فراشا ومهادا ؛ ذهب إلى الحصير الذى يفرش ، لأن العرب تسمى البساط الصغير حصيرا . قال الثعلبى : وهو وجه حسن .

قوله تعالى : إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ لما ذكر المعراج ذكر ما قضى إلى بنى إسرائيل ، وكان ذلك دلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم بين أن الكتاب الذى

أنزله الله عليه سبب اهتداء . ومعنى ﴿ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ أى الطريقة التى هى أسد وأعدل وأصوب؛ فـ « التى » نعت لموصوف محذوف، أى الطريقة إلى نص أقوم . وقال الزجاج : للحال التى هى أقوم الحالات، وهى توحيد الله والإيمان برسله . وقاله الكلبي والفراء .

قوله تعالى : ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ﴾ تقدم[1] . ﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ أى بأن لهم . ﴿ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ أى الجنة . ﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أى ويبشرهم بأن لأعدائهم العقاب . والقرآن معظمه وعد ووعيد . وقرأ حمزة والكسائي « ويَبْشُر » مخففا بفتح الياء وضم الشين؛ وقد ذُكر[2] .

قوله تعالى : وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ﴾ قال ابن عباس وغيره : هو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لا يحب أن يستجاب له : اللَّهُمّ أهلكه، ونحوه . ﴿ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ﴾ أى كدعائه ربه أن يهب له العافية؛ فلو استجاب الله دعاءه على نفسه بالشر هلك لكن بفضله لا يستجيب له فى ذلك . نظيره : « وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ » وقد تقدم[3] . وقيل : نزلت فى النضر بن الحارث، كان يدعو ويقول : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم[4] » . وقيل : هو أن يدعو فى طلب المحظور كما يدعو فى طلب المباح ، قال الشاعر وهو ابن جامع :

أطوف بالبيت فيمن يطوف ﻭ وأرفع من مئزرى المُسْبَلِ

وأسجد بالليل حتى الصباح ﻭ وأتلو من المُحْكَمِ المُنْزَلِ

عسى فارجُ الهَمّ عن يوسف ﻭ يُسَخِّر لى ربّةَ المَحْمِلِ

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٣٨ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٤ ص ٧٥ طبعة أولى أو ثانية
(٣) راجع جـ ٨ ص ٣١٤ . (٤) راجع جـ ٧ ص ٣٩٨ وجـ ٨ ص ٣٦ طبعة أولى أو ثانية

قال الجوهري : يقال ماعلى فلان مَحْمِل مثال مجلس أى معتمد . والمَحْمِل أيضا : واحد محامل الحاج . والمِحْمَل مثال المِرْجَل : عِلاقة السيف . وحذفت الواو من « ويدع الإنسان » فى اللفظ والخط ولم تحذف فى المعنى لأن موضعها رفع فحذفت لاستقبالها اللام الساكنة ؛ كقوله تعالى : « سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ »[1] « وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ »[2] « وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ »[3] « يُنَادِ الْمُنَادِ »[4] « فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ »[5] . ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ أى طبعه العَجَلة ، فيعْجَل بسؤال الشر كما يعجل بسؤال الخير . وقيل : أشار به إلى آدم عليه السلام حين نهض قبل أن تَرَكَّب فيه الروح على الكمال . قال سلمان : أوّل ماخلق الله تعالى من آدم رأسه فجعل ينظر وهو يخلق جسده ، فلما كان عند العصر بقيت رجلاه لم ينفخ فيهما الروح فقال : يارب عَجِّل قبل الليل ؛ فذلك قوله : « وكان الإنسان عجولا » . وقال ابن عباس : لما انتهت النفخة إلى سرته نظر إلى جسده فذهب لينهض فلم يقدر ؛ فذلك قوله : « وكان الإنسان عجولا » . وقال ابن مسعود : لما دخل الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة ، فلما دخل فى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عَجْلانَ إلى ثمار الجنة ؛ فذلك حين يقول : « خُلِق الإنسان من عَجَل » . ذكره البيهقى . وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لما صور الله تعالى آدم فى الجنة تركه ماشاء الله أن يتركه فجعل إبليس يُطيف به ينظر ماهو فلما رآه أجوف عرف أنه خُلِق خلقا لايتمالك "[6] وقد تقدّم . وقيل : سلّم عليه السلام أسيرا إلى سَوْدة فبات يئن فسألته فقال : أنيني لشدّة القِدّ والأسر ؛ فأرخت من كتافه فلما نامت هرب ؛ فأخبرت النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " قطع الله يديك " فلما أصبحت كانت تتوقع الآفة ؛ فقال عليه السلام : " إنى سألت الله تعالى أن يجعل دعائى على من لا يستحق من أهلى رحمة لأنى بشر أغضب كما يغضب البشر " ونزلت الآية ؛ ذكره القشيرى أبو نصر رحمه الله . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

---

(١) آية ١٨ سورة العلق . (٢) آية ٢٤ سورة الشورى . (٣) آية ١٤٦ سورة النساء .
(٤) آية ٤١ سورة ق . (٥) آية ٥ سورة القمر . (٦) راجع ج ١ ص ٢٨١ طبعة ثانية أو ثالثة .

"اللهم إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر وإني قد اتخذت عندك عهدا لن تخلفنيه فأيما مؤمن آذيته أو سببته أو جلدته فاجعلها له كفارة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة". وفي الباب عن عائشة وجابر. وقيل: معنى «وكان الإنسان عجولا» أي يؤثر العاجل وإن قلّ، على الآجل وإن جلّ.

قوله تعالى: وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾

قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ) أي علامتين على وحدانيتنا ووجودنا وكمال علمنا وقدرتنا. والآية فيهما: إقبال كلّ واحد منهما من حيث لا يعلم، وإدباره إلى حيث لا يعلم. ونقصان أحدهما بزيادة الآخر وبالعكس آيةٌ أيضا. وكذلك ضوء النهار وظلمة الليل. وقد مضى هذا[(١)]. (فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ) ولم يقل: فمحونا الليل، فلما أضاف الآية إلى الليل والنهار دل على أن الآيتين المذكورتين لهما لا هما. و«محونا» معناه طمسنا. وفي الخبر أن الله تعالى أمر جبريل عليه السلام فأمرّ جناحه على وجه القمر فطمس عنه الضوء، وكان كالشمس في النور، والسوادُ الذي يُرى في القمر من أثر المحو. قال ابن عباس: جعل الله الشمس سبعين جزءا والقمر سبعين جزءا، فمحا من نور القمر تسعة وستين جزءا فجعله مع نور الشمس، فالشمس على مائة [وتسع] وثلاثين جزءا والقمرُ على جزء واحد. وعنه أيضا: خلق الله شمسين من نور عرشه، فجعل ما سبق في علمه أن يكون شمسا مثل الدنيا على قدرها ما بين مشارقها إلى مغاربها، وجعل القمر دون الشمس؛ فأرسل جبريل عليه السلام فأمرّ جناحه على وجهه ثلاث مرات وهو يومئذ شمس فطمس ضوءه وبقي نوره؛ فالسواد الذي ترونه في القمر أثر المحو، ولو تركه شمسا لم يعرف الليل من النهار. ذكر

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩٢ طبعة ثانية.

عنه الأول الثعلبي والثاني المهدوي؛ وسيأتي مرفوعا . وقال علي رضي الله عنه وقتادة : يريد بالمحو اللطخة السوداء التي في القمر ، ليكون ضوء القمر أقل من ضوء الشمس فيتميز به الليل من النهار . ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ أي جعلنا شمسه مضيئة للابصار . قال أبو عمرو بن العلاء : أي يبصر بها . قال الكسائي : وهو من قول العرب أبصر النهار إذا أضاء، وصار بحالة يبصر بها . وقيل : هو كقولهم خبيث مخبث إذا كان أصحابه خبثاء . ورجل مضعف إذا كانت دوابه ضعافا ؛ فكذلك النهار مبصرا إذا كان أهله بصراء . ﴿ لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يريد التصرف في المعاش . ولم يذكر السكون في الليل اكتفاء بما ذكر في النهار . وقد قال في موضع آخر : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا »[1] . ﴿ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ أي لو لم يفعل ذلك لما عرف الليل من النهار، ولا كان يعرف الحساب والعدد . ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾ أي من أحكام التكليف؛ وهو كقوله : « تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ »[2] « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ »[3] . وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لما أبرم الله خلقه فلم يبق من خلقه غير آدم خلق شمسا من نور عرشه وقمرا فكانا جميعا شمسين فأما ما كان في سابق علم الله أن يدعها شمسا فخلقها مثل الدنيا ما بين مشارقها ومغاربها وأما ما كان في علم الله أن يخلقها قمرا فخلقها دون الشمس في العظم ولكن إنما يرى صغرهما من شدة ارتفاع السماء وبعدها من الأرض فلو ترك الله الشمس والقمر كما خلقهما لم يعرف الليل من النهار ولا كان الأجير يدري إلى متى يعمل ولا الصائم إلى متى يصوم ولا المرأة كيف تعتد ولا تدرى أوقات الصلوات والحج ولا تحل الديون ولا حين يبذرون و يزرعون ولا متى يسكنون للراحة لأبدانهم وكأن الله نظر إلى عباده وهو أرحم بهم من أنفسهم فأرسل جبريل فأمر جناحه على وجه القمر ثلاث مرات وهو يومئذ شمس فطمس عنه الضوء وبقي فيه النور فذلك قوله وجعلنا الليل والنهار آيتين " الآية .

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٦٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٨٩ سورة النحل .

(٣) آية ٣٨ سورة الأنعام . راجع جـ ٦ ص ٤٢٠

قوله تعالى : « وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ قال الزجاج : ذكر العنق عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة للعنق . وقال ابن عباس : « طائره » عمله وما قُدّر عليه من خير وشر، وهو ملازمه أينما كان . وقال مقاتل والكلبي : خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسب به . وقال مجاهد : عمله ورزقه ، وعنه : ما من مولود يولد إلا وفي عنقه ورقة فيها مكتوب شقيّ أو سعيد . وقال الحسن : « ألزمناه طائره » أي شقاوته وسعادته وما كتب له من خير وشر وما طار له من التقدير، أي صار له عند القسمة في الأزل . وقيل : أراد به التكليف، أي قدرناه إلزام الشرع ، وهو بحيث لو أراد أن يفعل ما أمر به وينزجر عما زُجر به أمكنه ذلك . ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾ يعني كتاب طائره الذي في عنقه . وقرأ الحسن وأبو رجاء ومجاهد : « طيره » بغير ألف ؛ ومنه ما روى في الخبر " اللّهمّ لا خَيْر إلا خيرُك ولا طَيْر إلا طيرك ولا ربّ غيرك " . وقرأ ابن عباس والحسن ومجاهد وابن مُحَيْصِن وأبو جعفر ويعقوب « ويَخْرُج » بفتح الياء وضم الراء، على معنى ويخرج له الطائر كتابا ؛ فـ« كتابا » منصوب على الحال . ويحتمل أن يكون المعنى : ويخرج الطائر فيصير كتابا . وقرأ يحيى بن وثّاب « ويُخرِج » بضم الياء وكسر الراء، وروي عن مجاهد ؛ أي يخرج الله . وقرأ شيبة ومحمد بن السَّمَيْقَع ، وروي أيضا عن أبي جعفر : « ويُخْرَج » بضم الياء وفتح الراء على الفعل المجهول ، ومعناه : ويُخرج له الطائر كتابا . الباقون « ونخرج » بنون مضمومة وكسر الراء ؛ أي ونحن نخرج . احتج أبو عمرو في هذه القراءة بقوله « ألزمناه » . وقرأ أبو جعفر والحسن وابن عامر « يُلَقّاه » بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف ، بمعنى يؤتاه . الباقون بفتح الياء خفيفة ، أي يراه منشورا . وقال « منشورا » تعجيلا للبشرى بالحسنة والتوبيخ بالسيئة . وقال

أبو السوار العدوى وقرأ هذه الآية « وكلَّ إنسان ألزمناه طائره فى عنقه » قال : هما نشرتان وطَيّة؛ أما ما حييت يابن آدم فصحيفتك المنشورة فأمْلِ فيها ما شئت، فإذا متّ طُويت حتى إذا بعثت نُشرت . ﴿ اقرأ كتابك ﴾ قال الحسن : يقرأ الإنسان كتابه أُمّيًا كان أو غير أمّى . ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ أى محاسبا . وقال بعض الصلحاء : هذا كتاب، لسانك قلمه ، وريقك مداده ، وأعضاؤك قرطاسه ، أنت كنت المُملى على حفظتك، ما زيد فيه ولا نُقص منه، ومتى أنكرت منه شيئا يكون فيه الشاهد منك عليك .

قوله تعالى : ﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (١٥)

قوله تعالى : ﴿ مَنِ اهْتَدَى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ﴾ أى إنما كل أحد يحاسب عن نفسه لا عن غيره؛ فمن اهتدى فثواب اهتدائه له، ومن ضل فعقاب كفره عليه . ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ تقدم فى الأنعام[1] . وقال ابن عباس : نزلت فى الوليد ابن المغيرة، قال لأهل مكة : اتبعون واكفروا بمحمد وعلىّ أوزاركم؛ فنزلت هذه الآية؛ أى إن الوليد لا يحمل آثامكم وإنما إثم كل واحد عليه . يقال : وَزَر يَزِر وَزْرا ووِزْرة؛ أى أثم . والوِزر : الثقل المثقل والجمع أوزار؛ ومنه « يحملون أوزارهم على ظهورهم »[2] أى أثقال ذنوبهم . وقد وَزَر إذا حمل فهو وازر؛ ومنه وزير السلطان الذى يحمل ثقل دولته . والهاء فى قوله كناية عن النفس، أى لا تؤخذ نفس آثمة بإثم أخرى ، حتى أن الوالدة تَلقى ولدها يوم القيامة فتقول: يابنىّ! ألم يكن حجرى لك وطاء، ألم يكن ثديى لك سقاء، ألم يكن بطنى لك وعاء ، ! فيقول : بلى يا أُمّه ! فتقول : يا بنىّ! فإن ذنوبى أثقلتنى فاحمل عنى منها ذنبا واحدا ! فيقول : إليك عنى يا أمه ! فإنى بذنبى عنك اليوم مشغول .

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٥ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٦ ص ٤١٣

مسألة ــ ترَّحت عائشة رضى الله عنها بهذه الآية فى الرّد على ابن عمر حيث قال : إن الميت ليُعذَّب ببكاء أهله . قال علماؤنا : وإنما حملها على ذلك أنه لم تسمعه، وأنه معارض للآية . ولا وجه لإنكارها، فإن الرواة لهذا المعنى كثير، كعمر وابنه والمغيرة بن شعبة وقَيْلة بنت مخرمة، وهم جازمون بالرواية؛ فلا وجه لتخطئتهم . ولا معارضة بين الآية والحديث ؛ فإن الحديث محمله على ما إذا كان النوح من وصيّة الميت وسنّته ، كما كانت الجاهلية تفعله ، حتى قال طَرَفة :

إذا متّ فانعيني بما أنا أهله ۞ وشُقّى علىّ الجيب يا ابنة معْبَد

وقال :

إلى الحَوْل ثم اسم السلام عليكما ۞ ومن يبْك حولا كاملا فقد اعتذر

وإلى هذا نحا البخارى . وقد ذهب جماعة من أهل العلم منهم داود إلى اعتقاد ظاهر الحديث، وأنه إنما يعذّب بنَوحهم؛ لأنه أهمل نهيهم عنه قبل موته وتأديبهم بذلك، فيعذّب بتفريطه فى ذلك؛ وبترك ما أمره الله به من قوله : « قُوا أنفسَكُمْ وأهْليكُمْ نَارًا »[1] لا بذنب غيره، والله أعلم

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ أى لم نترك الخلق سدًى، بل أرسلنا الرسل . وفى هذا دليل على أن الأحكام لا تثبت إلا بالشرع ، خلافا للمعتزلة القائلين بأن العقل يقبّح ويحسّن ويبيح ويحظر . وقد تقدّم فى البقرة[2] القول فيه . والجمهور على أن هذا فى حكم الدنيا ؛ أى أن الله لا يهلك أمة بعذاب إلا بعد الرسالة إليهم والإنذار . وقالت فرقة : هذا عام فى الدنيا والآخرة ، لقوله تعالى : « كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا »[3] . قال ابن عطية : والذى يعطيه النظر أن بعثه آدم عليه السلام بالتوحيد وبثّ المعتقدات فى بنيه مع نصب الأدلة الدالة على الصانع مع سلامة الفِطَر توجب على كل أحد من العالم الإيمان واتباع شريعة الله، ثم تجدد ذلك فى زمن نوح عليه السلام بعد

(١) آية ٦ سورة التحريم . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٥١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٣) آية ٨ سورة الملك .

غرق الكفار . وهذه الآية أيضا يعطى احتمال ألفاظها نحو هذا في الذين لم تصلهم رسالة ، وهم أهل الفترات الذين قد قدّر وجودَهم بعضُ أهل العلم . وأما ما روى من أن الله تعالى يبعث إليهم يوم القيامة وإلى المجانين والأطفال فحديث لم يصح ، ولا يقتضى ماتعطيه الشريعة من أن الآخرة ليست دار تكليف . قال المهدوى : وروى عن أبى هريرة أن الله عز وجل يبعث يوم القيامة رسولا إلى أهل الفترة والأبكم والأخرس والأصم ؛ فيطيعه منهم من كان يريد أن يطيعه في الدنيا ، وتلا الآية ؛ رواه معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن أبى هريرة ، ذكره النحاس .

قلت : هذا موقوف ، وسيأتى مرفوعا فى آخر سورة طه إن شاء الله تعالى ؛ ولا يصح . وقد استدل قوم فى أن أهل الجزائر إذا سمعوا بالإسلام وآمنوا فلا تكليف عليهم فيما مضى ؛ وهذا صحيح ، ومن لم تبلغه الدعوة فهو غير مستحق للعذاب من جهة العقل ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ أخبر الله تعالى فى الآية التى قبلُ أنه لم يهلك القرى قبل ابتعاث الرسل ، لا لأنه يقبح منه ذلك إن فعل ، ولكنه وعد منه ، ولا خلف فى وعده . فإذا أراد إهلاك قرية مع تحقيق وعده على ماقاله تعالى أمر مترفيها بالفسق والظلم فيها فحق عليها القول بالتدمير . يعلمك أن من هلك هلك بإرادته ، فهو الذى يسبب الأسباب ويسوقها إلى غاياتها ليحق القول السابق من الله تعالى .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ أَمَرْنَا ﴾ قرأ أبو عثمان النَّهدىّ وأبو رجاء وأبو العالية والربيع ومجاهد والحسن «أمَّرنا» بالتشديد ، وهى قراءة علىّ رضى الله عنه ؛ أى سلّطنا شرارها فعصوا فيها ، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم . وقال أبو عثمان النهدىّ « أمّرنا » بتشديد الميم ، جعلناهم

أمراء مسلّطين؛ وقاله ابن عزيز . وتأمّر عليهم تسلط عليهم . وقرأ الحسن أيضا وقتادة وأبو حَيْوة الشامي و يعقوب وخارجة عن نافع وحماد بن سلمة عن ابن كثير وعليّ وابن عباس باختلاف عنهما « آمرنا » بالمد والتخفيف، أي أكثرنا جبابرتها وأمراءها؛ قاله الكسائيّ . وقال أبو عبيدة : آمرته بالمد وأمرته ، لغتان بمعنى كثّرته؛ ومنه الحديث " خير المال مُهْرَةٌ مأمورة أو سِكّة مأبورة "(١) أي كثيرة النّتاج والنّسل . وكذلك قال ابن عزيز : آمرنا وأمرنا بمعنًى واحد ؛ أي أكثرنا . وعن الحسن أيضا ويحيى بن يَعْمَر « أمِرنا » بالقصر وكسر الميم على فَعِلنا، ورويت عن ابن عباس . قال قتادة والحسن : المعنى أكثرنا؛ وحكى نحوه أبو زيد وأبو عبيد، وأنكره الكسائي وقال : لا يقال من الكثرة إلا آمرنا بالمد؛ قال وأصلها « أأمرنا » فخفف ، حكاه المهدويّ . وفي الصحاح : وقال أبو الحسن أَمِر مالُه (بالكسر) أي كثر . وأَمِر القوم أي كثروا؛ قال الشاعر :

* أَمِرون لا يرثون سَهْمَ القُعْدُدِ *(٢)

وآمر الله ماله (بالمد) . الثعلبي : ويقال للشيء الكثير أَمِرٌ ، والفعل منه : أَمِرَ القومُ يأمَرون أمرا إذا كثروا . قال ابن مسعود : كنا نقول في الجاهلية للحيّ إذا كثروا : أَمِر أَمْرُ بني فلان ؛ قال لَبِيد :

كلُّ بني حُرّةٍ مَصيرُهُمُ * قُلٌّ وإن أكثرتْ من العددِ
إن يَغْبِطُوا يَهْبِطُوا وإن أَمِروا * يوما يصيروا للهُلْك والنَّكَدِ(٣)

---

(١) السكة : الطريقة المصطفة من النخل . والمأبورة : الملقحة؛ يقال : أبرت النخلة وأبرتها؛ فهي مأبورة ومؤبرة . وقيل : السكة سكة الحرث، والمأبورة المصلحة له . أراد : خير المال نتاج وزرع . (ابن الأثير) .

(٢) هذا عجز بيت للأعشى وصدره :

* طرفون ولّا دون كل مبارك *

الطرف والطريف : الكثير الآباء إلى الجد الأكبر . والقعدد : القليل الآباء إلى الجد الأكبر .

(٣) يقول : إن غبطوا يوما فإنهم يموتون . و« يهبطوا » ههنا يموتوا . ويروى : « إن يغبطوا يهبطوا » يموتوا هبطة كأنهم يموتون من غير مرض . (راجع الديوان) .

قلت : وفى حديث هرقل الحديث الصحيح : "لقد أَمِر أَمْرُ ابن أبى كَبْشة[1]، إنه ليخافه ملك بنى الأصفر" أى كثر ، وكله غير متعدّ ولذلك أنكره الكسائى ؛ والله أعلم . قال المهدوى ؛ ومن قرأ «أمَّر» فهى لغة ؛ ووجه تعدية « أمر » أنه شبهه بعمر من حيث كانت الكثرة أقرب شىء إلى العمارة ، فعدّى كما عدّى عمر . الباقون «أَمَرْنا» من الأمر ؛ أى أمرناهم بالطاعة إعذارا[2] وإنذارا وتخويفا ووعيدا . ﴿فَفَسَقُوا﴾ أى فخرجوا عن الطاعة عاصين لنا . ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ فوجب عليها الوعيد ؛ عن ابن عباس . وقيل : «أمَّرنا» جعلناهم أمراء ؛ لأن العرب تقول : أمير غير مأمور ؛ أى غير مؤمر . وقيل : معناه بعثنا مستكبريها . قال هارون : وهى قراءة أُبَىّ « بعثنا أكابر مجرميها ففسقوا » ذكره الماوَرْدى . وحكى النحاس : وقال هارون فى قراءة أُبَىّ « وإذا أردنا أن نهلك قرية بعثنا فيها أكابر مجرميها فمكروا فيها فحق عليها القول » . ويجوز أن يكون « أمرنا » بمعنى أكثرنا ؛ ومنه "خير المال مُهْرةٌ مأمورة" على ما تقدم . وقال قوم : مأمورة اتباع لمأبورة ؛ كالغدايا والعشايا . وكقوله : "ارْجِعن مأزورات غير مأجورات" . وعلى هذا لا يقال : أمرهم الله ؛ بمعنى كثرهم ؛ بل يقال : آمره وأمره . واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة العامة . قال أبو عبيد : وإنما اخترنا « أمرنا » لأن المعانى الثلاثة تجتمع فيها من الأمر والإمارة والكثرة . والمُترَف : المنعم ؛ وخُصّوا بالأمر لأن غيرهم تبع لهم .

الثالثة ـ قوله تعالى : ﴿فَدَمَّرْنَاهَا﴾ أى استأصلناها بالهلاك . ﴿تَدْمِيرًا﴾ ذكر المصدر للمبالغة فى العذاب الواقع بهم . وفى الصحيح من حديث زينب بنت جحش زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فزِعا مُحْمَرًّا وجهه يقول : "لا إله إلا الله ويل للعرب من شرّ قد اقترب فُتح اليوم من ردْم يأجوج ومأجوج مثل هذه" وحلّق بأصبعه الإبهام والتى تليها . قالت : فقلت يا رسول الله ، أنهلك وفينا

---

(١) يريد : رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وكان المشركون يقولون للنبىّ صلى الله عليه وسلم « ابن أبى كبشة » شبهوه بأبى كبشة ؛ رجل من خزاعة خالف قريشا فى عبادة الأوثان . أو هى كنية وهب بن عبد مناف جده صلى الله عليه وسلم من قبل أمه ؛ لأنه كان نزع إليه فى الشبه . أو كنية زوج حليمة السعدية .

(٢) كذا فى الأصول .

الصالحون ؟ قال : "نعم إذا كثر الخبث" . وقد تقدم الكلام في هذا الباب، وأن المعاصي إذا ظهرت ولم تغير كانت سببا لهلاك الجميع[1]؛ والله أعلم .

قوله تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ أي كم من قوم كفروا حلّ بهم البوار . يخوّف كفار مكة ؛ وقد تقدم القول في القرن في أول سورة الأنعام[2] ، والحمد لله . ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ « خبيرا » عليما بهم . « بصيرا » يبصر أعمالهم؛ وقد تقدم[3] .

قوله تعالى : مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ ﴾ يعني الدنيا، والمراد الدار العاجلة ؛ فعبّر بالنعت عن المنعوت . ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾ أي لم نعطه منها إلا ما نشاء ثم نؤاخذه بعمله ، وعاقبته دخول النار . ﴿ مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴾ أي مطردا مبعدا من رحمة الله. وهذه صفة المنافقين الفاسقين، والمرائين المداجين ، يلبسون الإسلام والطاعة لينالوا عاجل الدنيا من الغنائم وغيرها، فلا يقبل ذلك العمل منهم في الآخرة ولا يعطون في الدنيا إلا ما قسم لهم. وقد تقدم في «هود» أن هذه الآية تقيّد تلك الآيات المطلقة؛ فتأمله . ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ ﴾ أي الدار الآخرة . ﴿ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ أي عمل لها عملها من الطاعات . ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ لأن الطاعات لا تقبل إلا من مؤمن . ﴿ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ أي مقبولا غير

---

(1) راجع جـ ٧ ص ٣٩١ طبعة أولى أو ثانية ؛ (2) راجع جـ ٦ ص ٣٩١ طبعة أولى أو ثانية .

(3) راجع جـ ٢ ص ٣٥ طبعة ثانية .

مردود . وقيل : مضاعفا؛ أى تضاعف لهم الحسنات إلى عشر، و إلى سبعين و إلى سبعمائة ضعف ، و إلى أضعاف كثيرة ؛ كما روى عن أبى هريرة وقد قيل له : أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله ليَجْزِى على الحسنة الواحدة ألف ألف حسنة " ؟ فقال سمعته يقول : " إن الله ليَجْزِى على الحسنة الواحدة ألفى ألف حسنة " .

قوله تعالى : كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾ أعلم أنه يرزق المؤمنين والكافرين . ﴿ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ أى محبوسا ممنوعا ؛ من حَظَر يَحْظُر حَظْرا وحظارا . ثم قال تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ فى الرزق والعمل ؛ فمن مُقِلّ ومكثر. ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ أى للؤمنين؛ فالكافر و إن وُسِّع عليه فى الدنيا مرة ، وقُتِّر على المؤمن مَرَّة فالآخرة لا تقسم إلا مرة واحدة بأعمالهم ؛ فمن فاته شيء منها لم يستدركه فيها . وقوله ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد أمته . وقيل : الخطاب للانسان . ﴿ فَتَقْعُدَ ﴾ أى تبقى . ﴿ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ لا ناصر لك ولا وليا .

قوله تعالى : وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾

فيه ست عشرة مسألة :

الأولى — (قضى) أي أمر وألزم وأوجب . قال ابن عباس والحسن وقتادة : وليس هذا قضاء حُكْم بل هو قضاء أمر . وفي مصحف ابن مسعود « ووصّى » وهي قراءة أصحابه وقراءة ابن عباس أيضا وعليّ وغيرهما ، وكذلك عند أُبَيّ بن كعب . قال ابن عباس : إنما هو « ووصى ربك » فالتصقت إحدى الواوين فقرئت « وقضى ربك » إذ لو كان على القضاء ما عصى الله أحد . وقال الضحاك : تصحفت على قوم «وصى بقضى» حين اختلطت الواو بالصاد وقت كَتْب المصحف . وذكر أبو حاتم عن ابن عباس مثل قول الضحاك . وقال عن ميمون بن مهْران أنه قال : إن على قول ابن عباس لنورا؛ قال الله تعالى : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ »(١) ثم أبى أبو حاتم أن يكون ابن عباس قال ذلك . وقال : لو قلنا هذا لطعن الزنادقة في مصحفنا ، ثم قال علماؤنا المتكلمون وغيرهم : القضاء يستعمل في اللغة على وجوه : فالقضاء بمعنى الأمر؛ كقوله تعالى : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ » معناه أمر . والقضاء بمعنى الخلق ؛ كقوله : « فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ »(٢) يعني خلقهن . والقضاء بمعنى الحكم ؛ كقوله تعالى : « فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ »(٣) يعني احكم ما أنت تحكم . والقضاء بمعنى الفراغ ؛ كقوله : «قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ»(٤) . أي فُرِغ منه ؛ ومنه قوله تعالى « فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ »(٥) . وقوله تعالى : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ »(٦) . والقضاء بمعنى الإرادة ؛ كقوله تعالى : « إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »(٧) . والقضاء بمعنى العهد ؛ كقوله تعالى : « وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ »(٨) .

فإذا كان القضاء يحتمل هذه المعاني فلا يجوز إطلاق القول بأن المعاصي بقضاء الله ؛ لأنه إن أريد به الأمر فلا خلاف أنه لا يجوز ذلك ، لأن الله تعالى لم يأمر بها ،

---

(١) آية ١٣ سورة الشورى . (٢) آية ١٢ سورة فصلت . (٣) آية ٧٢ سورة طه .
(٤) آية ٤١ سورة يوسف . (٥) آية ٢٠٠ سورة البقرة . (٦) آية ١٠ سورة الجمعة .
(٧) آية ٤٧ سورة آل عمران . (٨) آية ٤٤ سورة القصص .

فإنه لا يأمر بالفحشاء . وقال زكريا بن سلام : جاء رجل إلى الحسن فقال إنه طلق امرأته ثلاثا . فقال : إنك قد عصيت ربك و بانت منك . فقال الرجل : قضى الله ذلك على ! فقال الحسن وكان فصيحا : ما قضى الله ذلك ! أى ما أمر الله به ، وقرأ هذه الآية : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » .

الثانيـــة — أمر الله سبحانه بعبادته وتوحيده، وجعل برّ الوالدين مقرونا بذلك، كما قرن شكرهما بشكره فقال : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » . وقال : « أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير »(1) . وفى صحيح البخارى عن عبد الله قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم أى العمل أحب إلى الله عز وجل؟ قال : "الصلاة على وقتها" قال : ثم أى؟ قال : "ثم برّ الوالدين" قال ثم أى؟ قال : "الجهاد فى سبيل الله" فأخبر صلى الله عليه وسلم أن برّ الوالدين أفضل الأعمال بعد الصلاة التى هى أعظم دعائم الإسلام . ورتّب ذلك « ثُمّ » التى تعطى الترتيب والمهلة .

الثالثـــة — من البرّ بهما والإحسان إليهما ألا يتعرض لسبّهما ولا يعقّهما ؛ فإن ذلك من الكبائر بلا خلاف ، و بذلك وردت السنة الثابتة؛ ففى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن من الكبائر شتم الرجل والديه" قالوا : يا رسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال "نعم . يسبّ الرجلُ أبا الرجل فيسبّ أباه ويسبّ أمّه فيسب أمّه" .

الرابعـــة — عقوق الوالدين مخالفتهما فى أغراضهما الجائزة لهما؛ كما أن برّهما موافقتهما على أغراضهما . وعلى هذا إذا أمرا أو أحدُهما ولدَهما بأمر وجبت طاعتهما فيه؛ إذا لم يكن ذلك الأمر معصية ، وإن كان ذلك المأمور به من قبيل المباح فى أصله ، وكذلك إذا كان من قبيل المندوب . وقد ذهب بعض الناس إلى أن أمرَهما بالمباح يصيره فى حق الولد مندوبا إليه وأمرُهما بالمندوب يزيده تأكيدا فى ندبيته .

---

(1) آية ١٤ سورة لقمان .

الخامسة — روى الترمذى عن ابن عمر قال : كانت تحتى امرأة أحبها، وكان أبى يكرهها فأمرنى أن أطلقها فأبيتُ، فذكرت ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: "يا عبدالله ابن عمر طلّق امرأتك" . قال هذا حديث حسن صحيح .

السادسة — روى الصحيح عن أبى هريرة قال : جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : مَن أحقّ الناس بحسن صحابتى؟ قال : "أمك" قال : ثم مَن؟ قال : "ثم أمك"، قال : ثم من؟ قال : "ثم أمك" قال : ثم من؟ قال : "ثم ابوك". فهذا الحديث يدلّ على أن محبة الأم والشفقةَ عليها ينبغى أن تكون ثلاثةَ أمثال محبة الأب؛ لذكر النبيّ صلى الله عليه وسلم الأمّ ثلاث مرات وذِكْرِ الأب فى الرابعة فقط . و إذا توصّل(1) هذا المعنى شهد له العيان. وذلك أن صعوبة الحمل وصعوبة الوضع وصعوبة الرضاع والتربية تنفرد بها الأم دون الأب؛ فهذه ثلاث منازل يخلو منها الأب . وروُى عن مالك أن رجلا قال له : إن أبى فى بلد السودان، وقد كتب إلىّ أن أقدَم عليه، وأمى تمنعنى من ذلك؛ فقال له : أطع أباك، ولا تَعص أمك . فدلّ قول مالك هذا أن برّهما متساوٍ عنده . وقد سئل الليث عن هذه المسئلة فأمره بطاعة الأم؛ وزعم أن لها ثلثى البر . وحديث أبى هريرة يدل على أن لها ثلاثة أرباع البر؛ وهو الحجة على من خالف . وقد زعم المحاسبى فى (كتاب الرعاية) له أنه لاخلاف بين العلماء أن للأم ثلاثة أرباع البر وللأب الربع؛ على مقتضى حديث أبى هريرة رضى الله عنه . والله أعلم .

السابعة — لا يختص برّ الوالدين بأن يكونا مسلمين ، بل إن كانا كافرَين يبرّهما ويحسن إليهما إذا كان لهما عهد؛ قال الله تعالى : «لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ(2)» . وفى صحيح البخارىّ عن أسماء قالت : قدِمتْ أمى وهى مشركة فى عهد قريش ومدّتهم إذ عاهدوا النبيّ صلى الله عليه وسلم مع أبيها، فاستفتيتُ النبيّ صلى الله عليه وسلم فقلت : إن أمى قدِمت وهى راغبة(3) أفأصِلُها؟ قال : "نعم صِلى أمك".

(1) كذا فى الأصول . (2) آية ٨ سورة الممتحنة . (3) قوله راغبة : أى طامعة فى برى وصلتى، أو راغبة عن الإسلام كارهة له .

وروى أيضا عن أسماء قالت : أتتني أمي راغبة في عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم فسألت النبيّ صلى الله عليه وسلم أأصلها ؟ قال : " نعم " . قال ابن عُيينة : فأنزل الله عز وجل فيها : « لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ » الأوّل معلّق والثاني مسند .

الثامنــة ـــ من الإحسان إليهما والبرّ بهما إذا لم يتعيّن الجهاد ألّا يجاهد إلا بإذنهما . روى الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال : جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم يستأذنه في الجهاد فقال : " أحيّ والداك " ؟ قال نعم . قال : " ففيهما فجاهد " . لفظ مسلم . في غير الصحيح قال : نعم ، وتركتهما يبكيان . قال : " اذهب فأضحكهما كما أبكيتهما " . وفي خبر آخر أنه قال : " نومك مع أبويك على فراشهما يضاحكانك و يلاعبانك أفضل لك من الجهاد معي " . ذكره ابن خُوَيْزِمنداد . ولفظ البخاريّ في كتاب برّ الوالدين : أخبرنا أبو نعيم أخبرنا سفيان عن عطاء بن السّائب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال : جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم يبايعه على الهجرة ، وترك أبويه يبكيان فقال : " ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما " قال ابن المنذر : في هــذا الحديث النّهيُ عن الخروج بغير إذن الأبوين ما لم يقع النّفير ؛ فإذا وقع وجب الخروج على الجميع . وذلك بيّنٌ في حديث أبي قتادة أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم بعث جيش الأمراء ... ؛ فذكر قصة زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وابن رَوَاحة وأنّ منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى بعـد ذلك : أن الصلاة جامعة ؛ فاجتمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : " أيها الناس ، اخرجوا فأمدوا إخوانكم ولا يتخلفن أحد " فخرج الناس مشاةً وركبانا في حرّ شـديد . فدلّ قوله : " اخرجوا فأمدوا إخوانكم " أن العـذر في التخلف عن الجهاد إنما هو ما لم يقع النفير ؛ مع قوله عليه السلام : " فإذا استنفرتم فانفروا " .

قلت : وفي هذه الأحاديث دليل على أن المفروض أو المندوبات متى اجتمعت قُدّم الأهم منها . وقد استوفى هذا المعنى المحاسبيّ في كتاب الرعاية .

التاســعة ـــ واختلفوا في الوالدين المشركَين هـل يخرج بإذنهما إذا كان الجهـاد من فروض الكفاية ؛ فكان الثّوريّ يقول : لا يغزو إلا بإذنهما . وقال الشافعيّ : له أن يغزو

بغير إذنهما . قال ابن المنذر : والأجداد آباء، والجدات أمهات فلا يغزو المرء إلا بإذنهم، ولا أعلم دلالة توجب ذلك لغيرهم من الإخوة وسائر القرابات . وكان طاوس يرى السعي على الأخوات أفضل من الجهاد في سبيل الله عز وجل .

العاشرة — من تمام برّهما صلة أهل ودّهما ؛ ففي الصحيح عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن من أبرّ البر صلةَ الرجل أهلَ ودّ أبيه بعد أن يُولّيَ". وروى أبو أُسَيد وكان بدريًّا قال : كنت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم جالسا فجاءه رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله، هل بقي من برّ والديّ من بعد موتهما شيء أبرّهما به ؟ قال : "نعم . الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما بعدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما فهذا الذي بقي عليك". وكان صلى الله عليه وسلم يُهدي لصدائق خديجة برًّا بها ووفاء لها وهي زوجته، فما ظنك بالوالدين .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ خصّ حالة الكبر لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلى برّه لتغير الحال عليهما بالضعف والكبر؛ فألزم في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزمه من قبل، لأنهما في هذه الحالة قد صارا كَلًّا عليه، فيحتاجان أن يَلِيَ منهما في الكبر ما كان يحتاج في صغره أن يَلِيَا منه؛ فلذلك خصّ هذه الحالة بالذكر . وأيضا فطول المكث للمرء يوجب الاستثقال للمرء عادة ويحصل الملل ويكثر الضجر فيظهر غضبه على أبويه وتنتفخ لهما أوداجه، ويستطيل عليهما بدالّة البنوة وقلّة الديانة، وأقلّ المكروه ما يظهره بتنفسه المتردّد من الضجر . وقد أمر أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة، وهو السالم عن كل عيب فقال : « فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا » . وروى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "رَغِمَ أنفُه رغم أنفه رغم أنفه" قيل : مَن يا رسول الله ؟ قال : "مَن أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة" . وقال البخاري في كتاب بر الوالدين : حدثنا مسدد حدثنا بشر بن المفضل حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق عن أبي سعيد المَقْبُريّ عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال :

" ورَغِم أنف رجل ذُكرت عنده فلم يصلّ علىّ . رَغِمَ أنفُ رجل أدرك أبويه عند الكبر أو أحدَهما فلم يدخلاه الجنة . ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يُغفر له " . حدّثنا ابن أبى أُوَيْس حدّثنى أخى عن سليمان بن بلال عن محمد بن هلال عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عُجْرة السالمىّ عن أبيه رضى الله عنه قال : إن كعب بن عُجْرة رضى الله عنه قال. قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " أحضروا المنبر " فلما خرج رَقِيَ [إلى] المنبر، فرقى فى أوّل درجة منه قال آمين ثم رقى فى الثانية فقال آمين ثم لما رقى فى الثالثة قال آمين، فلما فرغ ونزل من المنبر قلنا : يارسول الله ، لقد سمعنا منك اليوم شيئا ما كنا نسمعه منْك ؟ قال : " وسمعتموه " ؟ قلنا نعم . قال : " إن جبريل عليه السلام اعترض قال : بَعُدَ من أدرك رمضان فلم يغفر له فقلت آمين فلما رَقِيت فى الثانية قال بَعُدَ من ذُكرتَ عنده فلم يصل عليك فقلت آمين فلما رقيت فى الثالثة قال بَعُدَ من أدرك عنده أبواه الكبَرَ أو أحدُهما فلم يُدخلاه الجنة قلت آمين " . حدّثنا أبو نعيم حدّثنا سلمة بن وردان سمعت أنسا رضى الله عنه يقول : ارتقى رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر درجة فقال آمين ثم ارتقى درجة فقال آمين ثم ارتقى الدرجة الثالثة فقال آمين، ثم استوى وجلس فقال أصحابه : يا رسول الله، علام أمّنت ؟ قال : " أتانى جبريل عليه السلام فقال رَغِم أنف من ذُكرتَ عنده فلم يصلّ عليك فقلت آمين ورغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخل الجنة فقلت آمين " الحديث . فالسعيد الذى يبادر اغتنام فرصة برّهما لئلا تفوته بموتهما فيندم على ذلك . والشقىّ من عقّهما، لا سيما من بلغه الأمر ببرّهما .

الثانية عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ﴾ أى لا تقل لهما ما يكون فيه أدنى تبرّم . وعن أبى رجاء العُطَارِدىّ قال : الأُفّ الكلام القَذِع الردىء الخفىّ . وقال مجاهد : معناه إذا رأيت منهما فى حال الشيخ الغائطَ والبول الذى رأياه منك فى الصغر فلا تقذّرْهما وتقول أفّ . والآية أعم من هذا . والأُفّ والتُّف وسخ الأظفار . ويقال لكل ما يُضجر ويستثقل : أفّ له . قال الأزهرى : والتُّف أيضا الشىء الحقير . وقرئ « أُفّ » منوّن

مخفوض؛ كما تخفض الأصوات وتُنَوَّن، تقول : صَهٍ ومهٍ . وفيه عشر لغات : أفٌّ، وأفِّ، وأفَّ، وأُفًّا وأُفٍّ، وأفٍّ، وأُفِّ، وأفَّه، و إفْ لك(بكسر الهمزة)، وأُفْ (بضم الهمزة وتسكين الفاء)، وأُفًا (مخففة الفاء) . وفي الحديث : "فألقى طرف ثوبه على أنفه ثم قال أف أف" . قال أبو بكر : معناه استقذار لما شمّ . وقال بعضهم : معنى أف الاحتقار والاستقلال؛ أُخذ من الأَفَف وهو القليل . وقال القُتَبيّ : أصله نفخك الشيء يَسقط عليك من رماد وتراب وغير ذلك، وللمكان تريد إماطة شيء لتقعد فيه؛ فقيلت هذه الكلمة لكل مستثقل . وقال أبو عمرو ابن العلاء : الأُفّ وسخ بين الأظفار، والتُّفّ قُلامتها . وقال الزجاج : معنى أف النَّتْن. وقال الأصمعيّ : الأف وسخ الأذن، والتف وسخ الأظفار؛ فكثر استعماله حتى ذُكر في كل ما يُتأذّى به . وروي من حديث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو علم الله من العقوق شيئا أردأ من «أف» لذكره فليعمل البارّ ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار . وليعمل العاقّ ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة" . قال علماؤنا : وإنما صارت قولة « أف » للأبوين أردأ شيء لأنه رفضهما رفض كفر النعمة ، وجحد التربية وردّ الوصية التي أوصاه في التنزيل . و «أف» كلمة مقولة لكل شيء مرفوض؛ ولذلك قال إبراهيم لقومه : « أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ »(1) أي رَفْضٌ لكم ولهذه الأصنام معكم .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ النَّهْر : الزجر والغلظة . ﴿ وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ أي لَيِّنًا لطيفا، مثل : يا أبتاه ويا أمّاه، من غير أن يسميهما ويُكَنّيهما؛ قاله عطاء . وقال ابن البَدّاح(2) التُّجِيبيّ : قلت لسعيد بن المسيّب كلّ ما في القرآن من برّ الوالدين قد عرفته إلا قوله : « وقل لهما قولا كريما » ما هذا القول الكريم ؟ قال ابن المسيّب : قولُ العبد المذنب للسيد الفظّ الغليظ .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ هذه استعارة في الشفقة والرحمة بهما والتذلل لهما تذلّل الرعية للأمير والعبيد للسادة؛ كما أشار إليه سعيد بن

(1) آية ٦٧ سورة الأنبياء . (2) كذا في الأصول، والذي في ابن جرير والدر المنثور : «أبو الهدّاج» .

السيّب . وضرب خفض الجناح ونصبه مثلا لجناح الطائر حين ينتصب بجناحه لولده .
والذل : هو اللين . وقراءة الجمهور بضم الذال، من ذَلّ يَذِل ذُلًّا وذِلّة ومَذَلّة فهو ذالّ وذليل .
وقرأ سعيد بن جُبير وابن عباس وعروة بن الزبير «الذِّل» بكسر الذال، ورُويت عن عاصم؛
من قولهم : دابّة ذَلول بيّنة الذِّل . والذِّل في الدواب المنقاد السهل دون الصعب . فينبغي
بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسان نفسه مع أبويه في خير ذلة ، في أقواله وسكناته ونظره ،
ولا يُحِدّ إليهما بصره فإن تلك هي نظرة الغاضب .

الخامسة عشرة — الخطاب في هذه الآية للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته؛
إذ لم يكن له عليه السلام في ذلك الوقت أبوان . ولم يذكر الذّل في قوله تعالى : « واخفض
جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين »(1) وذكره هنا بحسب عظم الحق وتأكيده . و « من »
في قوله : « من الرّحمة » لبيان الجنس ، أي إن هذا الخفض يكون من الرحمة المستكنّة
في النفس، لا بأن يكون ذلك استعمالا . ويصح أن يكون لانتهاء الغاية، ثم أمر تعالى عباده
بالترحّم على آبائهم والدعاء لهم، وأنْ ترحمهما كما رحماك وترفّق بهما كما رفقا بك؛ إذ وَلِياك
صغيرا جاهلا محتاجا فآثراك على أنفسهما، وأسهرا ليلهما، وجاعا وأشبعاك، وتعرّيا وكسواك،
فلا تجزيهما إلا أن يبلغا من الكبر الحدّ الذي كنت فيه من الصغر، فتلي منهما ما وَلِيا منك ،
ويكون لهما حينئذ فضل التقدّم . قال صلى الله عليه وسلم : " لا يَجْزِي ولد والدا إلا أن يجده
مملوكا فيشتريَه فيُعْتِقه " . وسيأتي في سورة « مريم » الكلام على هذا الحديث .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ كَمَا رَبَّيَانِي ﴾ خصّ التربية بالذكر ليتذكر العبد شفقة
الأبوين وتعبهما في التربية ، فيزيده ذلك إشفاقا لهما وحنانا عليهما ، وهذا كله في الأبوين
المؤمنين . وقد نهى القرآن عن الاستغفار للمشركين الأموات ولو كانوا أولى قُرْبى، كما تقدم(2) .
وذُكر عن ابن عباس وقتادة أن هذا كله منسوخ بقوله : « ما كَانَ لِلنَّبِيِّ والذينَ آمَنُوا أنْ
يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكينَ — إلى قوله — أصْحَابُ الجَحِيم » فإذا كان والدا المسلم ذمّيّين استعمل

---

(1) آية ٢١٥ سورة الشعراء . (2) راجع جـ ٨ ص ٢٧٢ طبعة أولى أو ثانية .

معهما ما أمره الله به هاهنا؛ إلا الترحم لهما بعد موتهما على الكفر؛ لأن هذا وحده نسخ بالآية المذكورة . وقيل : ليس هذا موضع نسخ، فهو دعاء بالرحمة الدنيوية للأبوين المشركين ما داما حيين، كما تقدم . أو يكون عموم هذه الآية خُصّ بتلك، لا رحمة الآخرة، لاسيما وقد قيل إن قوله : « وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا » نزلت في سعد بن أبي وقاص، فإنه أسلم، فألقت أمه نفسها في الرَّمْضَاء متجرِّدة، فذكر ذلك لسعد فقال : لِتَمُتْ، فنزلت الآية . وقيل : الآية خاصة في الدعاء للأبوين المسلمين . والصواب أن ذلك عموم كما ذكرنا . وقال ابن عباس قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من أمسى مُرْضِيًا لوالديه وأصبح أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان من الجنة وإن واحدا فواحدا . ومن أمسى وأصبح مُسْخِطًا لوالديه أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان إلى النار وإن واحدا فواحدا " فقال رجل : يارسول الله، وإن ظلماه ؟ قال : " وإن ظلماه وإن ظلماه وإن ظلماه " . وقد روينا بالإسناد المتصل عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال : جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله، إن أبي أخذ مالي . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم للرجل : " فأتني بأبيك " فنزل جبريل عليه السلام على النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك إذا جاءك الشيخ فاسأله عن شيء قاله في نفسه ما سمعته أذناه " فلما جاء الشيخ قال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما بال ابنك يشكوك أتريد أن تأخذ ماله ؟ " فقال : سله يارسول الله، هل أنفقه إلا على إحدى عماته أو خالاته أو على نفسي! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إِيهِ (1)، دعنا من هذا . أخبرني عن شيء قلته في نفسك ما سمعته أذناك " ؟ فقال الشيخ : والله يارسول الله، مازال الله عز وجل يزيدنا بك يقينا؛ لقد قلتُ في نفسي شيئا ما سمعته أذناي . قال : " قل وأنا أسمع " قال قلت :

---

(1) إيه (بكسر الهاء) : كلمة استزادة واستنطاق، وإذا قلت « إيهًا » بالنصب والتنوين فإنما تأمره بالسكوت . وقال ابن سيده : « وإيه (بالكسر) كلمة زجر بمعنى حسبك، وتنون فيقال إيهًا » . وحكى عن الليث : « إيه حكاية في الاستزادة والاستنطاق . وإيه وإيهًا في الزجر كقولك : إيه حسبك، وإيهًا حسبك » .

غَذَوْتُكَ مولودا ومُنْتُـك يافعا[1] ● تُعَـلّ بمـا أُجْني عليك وتَنْهَل[2]

إذا ليـلةٌ ضافَتْك بالسُّقم[3] لم أَبِتْ ● لسُقْمِك إلا ساهرا أتملمـلُ

كأني أنا المطروق دونك بالذي ● طُرِقْتَ به دوني فعيني تَهْمُـلُ

تخاف الرَّدَى نفسي عليك وإنها ● لتعـلم أن الموت وقتٌ مؤجل

فلما بلغتَ السنَّ والغايةَ التي ● إليها مدى ما كنتُ فيك أؤمِّلُ

جعلتَ جزائي غلظـةً وفظاظة ● كأنك أنت المُنْعِمُ المتفضِّـلُ

فليتك إذ لم تَـرْعَ حقَّ أبوتي ● فعلتَ كما الجار المُصاقِب يفعل

فأوليتني حـقَّ الجوار ولم تكن ● عليَّ بمـال دون مالك تَبْخَـلُ

قال : فحينئذ أخذ النبيّ صلى الله عليه وسلم بتلابيب ابنه وقال : " أنت ومالك لأبيك " .

قال الطبراني : اللخمي لا يروى — يعني هذا الحديث — عن ابن المنكدر بهذا التمام والشعر إلا بهذا الإسناد، وتفرد به عبيد الله بن خلصة . والله أعلم .

قوله تعالى : رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾ أي من اعتقاد الرحمة بهما والحنو عليهما، أو من غير ذلك من العقوق، أو من جعل ظاهر برهما رياء . وقال ابن جبير : يريد البادرة التي تبدر، كالفلتة والزلة، تكون من الرجل إلى أبويه أو أحدهما، لا يريد بذلك بأسا؛ قال الله تعالى : ﴿ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ ﴾ أي صادقين في نية البر بالوالدين فإن الله يغفر البادرة . وقوله : ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ وعد بالغفران مع شرط الصلاح والأوبة بعد الأوبة

---

(١) نسبت هذه الأبيات في أشعار الحماسة لأمية بن أبي الصلت . قال التبريزي : « وتروى لابن عبد الأعلى . وقيل لأبي العباس الأعمى » .   (٢) في الأصول : « وصنتك » . وفي أشعار الحماسة : « وعلتك » أي قت بمؤونتك . و « يافعا » شابا . و « تعل » من عله يعله، سقاه ثانية . و « أجني » أكسب . و « تنهل » من أنهله، سقاه أول سقية .   (٣) في الحماسة :

إذا ليـلة نابتك بالشكو لم أبت ● لشكواك — — — الخ

إلى طاعة الله سبحانه وتعالى . قال سعيد بن المسيّب : هو العبد يتوب ثم يذنب ثم يتوب ثم يذنب . وقال ابن عباس رضي الله عنه : الأوّاب : الحفيظ الذي إذا ذكر خطاياه استغفر منها . وقال عُبيد بن عُمير : هم الذين يذكرون ذنوبهم في الخلاء ثم يستغفرون الله عز وجل . وهـذه الأقوال متقاربة . وقال عَوْن العُقَيْليّ : الأوّابون هم الذين يصلون صلاة الضحا . وفي الصحيح : " صلاة الأوّابين حين تَرْمَضُ الفِصال [1] " . وحقيقة اللفظ من آب يؤوب إذا رجـع .

قوله تعالى : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَآتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ ﴾ أي كما راعيت حق الوالدَيْن فصل الرحم ، ثم تصدّق على المسكين وابن السبيل . وقال عليّ بن الحسين في قوله تعالى « وآتِ ذا القُرْبَى حَقَّه » : هم قرابة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أمر صلى الله عليه وسلم بإعطائهم حقوقهم من بيت المال ، أي من سهم ذَوِي القربى من الغَزْو والغنيمة ، ويكون خطابا للولاة أو من قام مقامهم . والحق في هذه الآية ما يتعين من صلة الرحم ، وسَدّ الخَلّة ، والمواساة عند الحاجة بالمال ، والمعونة بكل وجه .

الثانيـة ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ ﴾ أي لا تُسرف في الإنفاق في غير حق . قال الشافعيّ رضي الله عنه : والتبذير إنفاق المال في غير حقه ، ولا تبذير في عمل الخير . وهذا قول الجمهور . وقال أشهب عن مالك : التبذير هو أخذ المال من حقه ووضعُه في غير حقه ، وهو الإسراف ، وهو حرام لقوله تعالى : « إنّ المُبَذِّرِينَ كانُوا إخْوَانَ الشياطين » وقوله

(1) هي أن تحمى الرمضاء ، وهي الرمل ، فتبرك الفصال من شدة حرها وإحراقها أخفافها .

« إخوان » يعنى أنهم فى حكمهم ؛ إذ المبذّر ساعٍ فى إفساد كالشياطين، أو أنهم يفعلون ما تسوّل لهم أنفسهم، أو أنهم يقرنون بهم غدا فى النار؛ ثلاثة أقوال . والإخوان هنا جمع أخ من غير النسب ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ »(1) . وقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ أى احذروا متابعته والتشبه به فى الفساد . والشيطان اسم الجنس . وقرأ الضحاك « إخوان الشيطان » على الانفراد ، وكذلك ثبت فى مصحف أنس بن مالك رضى الله عنه .

الثالثة ـ من أنفق ماله فى الشهوات زائدا على قدر الحاجات وعرّضه بذلك للنفاد فهو مبذّر . ومن أنفق ربح ماله فى شهواته وحفظ الأصل أو الرقبة فليس بمبذّر . ومن أنفق درهما فى حرام فهو مبذّر ، ويُحجر عليه فى نفقته الدرهم فى الحرام ، ولا يحجر عليه إن بذله فى الشهوات إلا إذا خيف عليه النفاد .

قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ (٢٨)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـ وهو أنه سبحانه وتعالى خص نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : « وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا » . وهو تأديب عجيب وقول لطيف بديع؛ أى لا تعرض عنهم إعراض مستهين عن ظهر الغنى والقدرة فتحرمهم . وإنما يجوز أن تعرض عنهم عند العجز يعرض وعائق يعوق ، وأنت عند ذلك ترجو من الله سبحانه وتعالى فتح باب الخير لتتوصل به إلى مواساة السائل؛ فإن قعد بك الحال فقل لهم قولا ميسورا

الثانية ـ فى سبب نزولها ؛ قال ابن زيد : نزلت الآية فى قوم كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأبى أن يعطيهم ؛ لأنه كان يعلم منهم نفقة المال فى فساد ؛

---

(1) آية ١٠ سورة الحجرات .

فكان يُعرض عنهم رغبة فى الأجر فى منعهم لئلا يعينهم على فسادهم . وقال عطاء الخراسانى: فى قوله تعالى « وإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا » قال : ليس هذا فى ذكر الوالدين، جاء ناس من مُزَيْنَة إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم يستحملونه ؛ فقال : "لا أجد ما أحملكم عليه" فتولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حَزَناً ؛ فأنزل الله تعالى : « وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عنهم ٱبْتِغاءَ رحمةٍ من ربِّك تَرْجُوها » . والرحمة الفَىْءُ .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً ﴾ أمره بالدعاء لهم ، أى يَسِّر فقرهم عليهم بدعائك لهم . وقيـل : اُدْعُ لهم دعاءً يتضمّن الفتح لهم والإصلاح . وقيـل : المعنى "وإما تعرضن" أى إن أعرضت يا محمد عن إعطائهم لضيق يد فقل لهم قولا ميسورا ؛ أى أحسن القول وابسط العذر، وادع لهم بسَعة الرزق، وقل إذا وجدتُ فعلتُ وأكرمتُ ؛ فإن ذلك يعمل فى مَسَرّة نفسه عمل المواساة . وكان عليـه الصلاة والسلام إذا سئل وليس عنده ما يُعطى سكت انتظارا لرزق يأتى من الله سبحانه وتعـالى كراهة الردّ ، فنزلت هـذه الآية ؛ فكان صلى الله عليه وسلم إذا سئل وليس عنده ما يعطى قال : "يرزقنا الله وإياكم من فضله" . فالرحمة على هذا التأويل الرزق المنتظر . وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة . والضمير فى «عنهم» عائد على من تقدّم ذكرهم من الآباء والقرابة والمساكين وأبناء السبيل . و « قولا ميسورا » أى ليّنـا لطيفا طيبا ، مفعول بمعنى الفاعل ، من لفظ اليسر كالميمون ؛ أى وعدا جميلا ، على ما بيناه . ولقد أحسن من قال :

إلّا تكن وَرِقٌ يوما أجود بها ✽ للسائلين فإنى ليّن العُـــود

لا يَعْدَم السائلون الخيرَ من خلق ✽ إمّا نَوالى وإمّا حسنُ مردودى

تقول : يَسّرت لك كذا إذا أعددته .

قوله تعـالى : وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَـا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُوراً (٢٩)

فيـه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ هذا مجاز عبّر به عن البخيل الذى لا يقدر من قلبه على إخراج شىء من ماله ؛ فضرب له مثل الغلّ الذى يمنع من التصرف باليد . وفى صحيح البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مَثَل البخيل والمتصدّق كمثل رجلين عليهما جُبّتان من حديد قد اُضطُرّت أيديهما إلى ثُدِيِّهما وتَراقِيهما فجعل المتصدّق كلما تصدّق بصدقة انبسطت عنه[1] حتى تَغْشَى أنامِلَه وتَعْفُوَ أثره[2] وجعل البخيلُ كلما همّ بصدقة قَلَصت[3] وأخذت كلُّ حَلْقة بمكانها . قال أبو هريرة رضى الله عنه : فأنا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول[4] بإصبعيه هكذا فى جيبه فلو رأيته يُوسِّعها ولا تتوسّع[5] .

الثانيـة ــ قوله تعالى : ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ ضرب بَسْطَ اليد مثلا لذهاب المال، فإن قبض الكف يحبس ما فيها، وبسطها يذهب ما فيها . وهذا كله خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ، وكثيرا ما جاء فى القرآن ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما كان سيّدهم وواسطتهم إلى ربّهم عبّر به عنهم على عادة العرب فى ذلك . وأيضا فإنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يدّخر شيئا لغد، وكان يجوع حتى يشدّ الحجر على بطنه من الجوع . وكان كثير من الصحابة ينفقون فى سبيل الله جميع أموالهم، فلم يعنّفهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ولم ينكر عليهم لصحة يقينهم وشدّة بصائرهم . وإنما نهى الله سبحانه وتعالى عن الإفراط فى الإنفاق، وإخراج ما حوته يده من المال من خِيف عليه الحسرة على ما خرج من يده، فأما من وثق بموعود الله عز وجل وجزيل ثوابه فيما أنفقه فغير مراد بالآية ، والله أعلم . وقيل : إن هذا الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم فى خاصّة نفسه ، علّمه فيه كيفية الإنفاق ، وأمره بالاقتصاد . قال جابر وابن مسعود : جاء غلام إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : إن أمى

---

(١) أى انتشرت عنه الجبة . (٢) أى آثر مشيه لسبوغها . (٣) أى انضمت وارتفعت .

(٤) العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان؛ فتقول : قال بيده، أى أخذه وقال برجله ، أى مشى . وكل ذلك على المجاز والاتساع . (٥) جواب لو محذوف ؛ أى لتعجبت .

تسألك كذا وكذا . فقال : " ما عندنا اليوم شىء " . قال : فتقول لك اكسنى قميصك ؛ فخلع قميصه فدفعه إليه وجلس فى البيت عريانا . وفى رواية جابر : فأذن بلال للصلاة وانتظر رسول صلى الله عليه وسلم يخرج ، واشتغلت القلوب ، فدخل بعضهم فإذا هو عار ؛ فنزلت هذه الاية . وكل هذا فى إنفاق الخير . وأما إنفاق الفساد فقليله وكثيره حرام، كما تقدم .

الثالثة — نهت هذه الاية عن استفراغ الوجد[1] فيما يطرأ أولا من سؤال المؤمنين ؛ لئلا يبقى من يأتى بعد ذلك لا شىء له ، أو لئلا يضيع المنفق عياله . ونحوه من كلام الحكمة : ما رأيت قط سرفا إلا ومعه حق مضيع . وهذه من آيات فقه الحال فلا يبين حكمها إلا باعتبار شخص شخص من الناس .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ قال ابن عرفة : يقول لا تسرف ولا تتلف مالك فتبقى محسورا منقطعا عن النفقة والتصرف؛ كما يكون البعير الحسير، وهو الذى ذهبت قوته فلا انبعاث به ؛ ومنه قوله تعالى : « يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ »[2] أى كليل منقطع . وقال قتادة : أى نادما على ما سلف منك؛ فجعله من الحسرة، وفيه بعد؛ لأن الفاعل من الحسرة حسر وحسران ولا يقال محسور . والملوم : الذى يلام على إتلاف ماله ، أو يلومه من لا يعطيه .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٣٠)[3]

---

(١) الوجد (مثلثة الواو) : اليسار والسعة . (٢) آية ٤ سورة الملك . (٣) هذه الآية لم يتكلم عليها المؤلف ولم تذكر فى النسخ التى بين أيدينا ولعله تكلم عليها وحصل سقط من النساخ .

وعبارة ابن جرير الطبرى فى كلامه على الآية كما وردت فى تفسيره : « يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم إن ربك يا محمد يبسط رزقه لمن يشاء من عباده فيوسع عليه ، ويقدر على من يشاء ، يقول : ويقتر على من يشاء منهم فيضيق عليه . « إنه كان بعباده خبيرا » يقول : إن ربك ذو خبرة بعباده ، ومن الذى تصلحه السعة فى الرزق وتفسده ، ومن الذى يصلحه الاقتار والضيق ويهلكه . « بصيرا » يقول : هو ذو بصر بتدبيرهم وسياستهم . يقول : فانته يا محمد إلى أمرنا فيما أمرناك ونهيناك من بسط يدك فيما تبسطها فيه وفيمن تبسطها له ، ومن كفها عمن تكفها عنه وتكفها فيه ؛ فنحن أعلم بمصالح العباد منك ومن جميع الخلق وأبصر بتدبيرهم » .

قوله تعالى : وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١)

فيه مسألتان :

الأولى — قد مضى الكلام فى هذه الآية فى (الأنعام)، والحمد لله[1]. والإملاق: الفقر وعدم الملك. أملق الرجل أى لم يبق له إلا الملقات؛ وهى الحجارة العظام المُلْس. قال الهُذَلى يصف صائدا:

أُتِيحَ لها أُقَيْدِرُ ذو حَشِيفٍ * إذا سامَتْ على المَلَقَاتِ ساما

الواحدة مَلَقة . والأُقَيْدر تصغير الأقدر، وهو الرجل القصير . والحَشِيف من الثياب : الخَلَق . وسامت مرّت . وقال شَمِر : أملق لازمٌ ومتعدّ، أملق إذا افتقر، وأملق الدهر ما بيده . قال أوس :

* وأَمْلَق ما عندي خطوبٌ تَنَبَّلُ[2] *

الثانية — قوله تعالى : ﴿خِطْئًا﴾ « خطئا » قراءة الجمهور بكسر الخاء وسكون الطاء وبالهمزة والقصر . وقرأ ابن عامر « خَطَأً » بفتح الخاء والطاء والهمزة مقصورة، وهى قراءة أبى جعفر يزيد . وهاتان قراءتان مأخوذتان من « خطئ » إذا أتى الذنب على عمد . قال ابن عرفة : يقال خَطِئ فى ذنبه خَطَأً إذا أثم فيه، وأخطأ إذا سلك سبيلَ خطأ عامدا أو غير عامد . قال : ويقال خَطِئ فى معنى أخطأ . وقال الأزهرى : يقال خَطِئ يخطأ خِطْئًا إذا تعمّد الخطأ؛ مثلُ أثِم يأثم إثما . وأخطأ إذا لم يتعمّد، إخطاء وخطأ . قال الشاعر :

دَعِينى إنما خَطَئى وصَوْبِى * علىّ وإنّ ما أهلكتُ مالُ[3]

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٣٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) صدر البيت :

* لما رأيت العُدْم قَيّد نائلى *

(٣) فى الأصول : « وان ما أهلكت مالى » . والتصويب عن كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة وطبقات الشعراء لابن سلام فى ترجمة أوس بن غَلْفاء؛ ولسان العرب فى مادة « صوب » . وقبل هذا البيت :

ألا قالت امامة يوم غَوْل * تُقَطَّعُ يابن غلفاء الحبال

يقول : وإن الذى أهلكت إنما هو مال، والمال يستخلف ولم أتلف عرضا .

وغول : مكان كان فيه وقعة للعرب لضبّة على بنى كلاب . (راجع معجم ياقوت) .

والخطأ الاسم يقوم مقام الإخطاء، وهو ضد الصواب. وفيه لغتان: القصر وهو الجيد؛ والمد وهو قليل. وروى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما «خَطْأً» بفتح الخاء وسكون الطاء وهمزة. وقرأ ابن كثير بكسر الخاء وفتح الطاء ومد الهمزة. قال النحاس: ولا أعرف لهذه القراءة وجهًا، ولذلك جعلها أبو حاتم غلطا. قال أبو علي: هي مصدر من خاطأ يخاطئ، وإن كنا لا نجد خاطأ، ولكن وجدنا تخاطأ، وهو مطاوع خاطأ، فدلنا عليه؛ ومنه قول الشاعر:

تَخَاطَأَت النَّبْـلُ أحشاءَه * وأُخِّر يـومي فـلم أَعْجَـلِ[1]

وقول الآخر في وصف مَهاة:

تخاطأه القَنّاص حتى وجدتُه * وخرطومُه في مَنْقَع الماء راسبُ

الجوهري: تخاطأه أي أخطأه؛ وقال أوْفَى بن مطر المازني:

ألا أبلغـا خُلّـتي جابرًا * بأنّ خليلك لم يُقتَـل

تخـاطأت النبـل أحشاءه * وأُخِّر[1] يومي فـلم يَعْجَـل

وقرأ الحسن «خَطَاء» بفتح الخاء والطاء والمد في الهمزة. قال أبو حاتم: لا يعرف هذا في اللغة وهي غلط غير جائز. وقال أبو الفتح: الخطأ من أخطأت بمنزلة العطاء من أعطيت، هو اسم بمعنى المصدر، وعن الحسن أيضا «خَطًى» بفتح الخاء والطاء منونة من غير همز.

قوله تعالى: وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾

فيه مسألة واحدة:

قال العلماء: قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ أبلغ من أن يقول: ولا تزنوا؛ فإن معناه لا تدنوا من الزنى. والزنى يمد ويقصر، لغتان. قال الشاعر:

كانت فريضةَ ما تقول كما * كان الزِّناء فريضةَ الرَّجْمِ

و﴿سَبِيلًا﴾ نصب على التمييز؛ التقدير: وساء سبيله سبيلا. أي لأنه يؤدى إلى النار. والزنى من الكبائر، ولا خلاف فيه وفي قبحه لا سيما بحليلة الجار. وينشأ عنه استخدام ولد الغير

(1) أُخِّر: بمعنى تأخر، ويجوز «أُخُر».

واتخاذه ابنا وغير ذلك من الميراث وفساد الأنساب باختلاط المياه . وفى الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بامرأة[1] مُجِحّ على باب فسطاط فقال : " لعله يريد أن يُلِمّ بها " فقالوا : نعم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد همَمْتُ أن ألعنه لعنًا يدخل معه قبره كيف يُورِّثه وهو لا يحلّ له كيف يستخدمه وهو لا يحلّ له " .

قوله تعالى : وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ قد مضى الكلام فيه فى الأنعام[2].

قوله تعالى : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾ . فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا ﴾ أى بغير سبب يوجب القتل . ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ ﴾ أى لمستحق دمه . قال ابن خُوَيْزِمَنْداد: الوليّ يجب أن يكون ذكرا؛ لأنه أفرده بالولاية بلفظ التذكير . وذكر إسماعيل بن إسحاق فى قوله تعالى: « فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ » ما يدل على خروج المرأة عن مطلق لفظ الوليّ، فلا جَرَم، ليس للنساء حق فى القصاص لذلك ولا أثر

---

(١) قوله « أتى بامرأة » أى مر عليها فى بعض أسفاره . و « المجح » (بميم مضمومة وجيم مكسورة وحاء مهملة) صفة لامرأة؛ وهى الحامل التى قربت ولادتها . وقوله : فقال لعله ... الخ فيه حذف تقديره : فسأل عنها فقالوا أمة فلان؛ أى مَسْبِيّته . ومعنى « يلم بها » : أى يطؤها ، وكانت حاملا مسبية ، لا يحل جماعها حتى تضع . وقوله « كيف يورثه ... الخ » معناه : أنه قد تتأخر ولادتها ستة أشهر، بحيث يحتمل كون الولد من هذا السابى، ويحتمل أنه كان ممن قبله . فعلى تقدير كونه من السابى يكون ولدا له ، ويتوارثان . وعلى تقدير كونه من غير السابى لا يتوارثان هو ولا السابى لعدم القرابة ، بل له استخدامه لأنه مملوكه . فتقدير الحديث : أنه قد يستلحقه ويجعله ابنا له ويورثه مع أنه لا يحل له توريثه لكونه ليس منه ، ولا يحل توريثه ومزاحمته لباقى الورثة . وقد يستخدمه استخدام العبيد ويجعله عبدا يتملكه ، مع أنه لا يحل له ذلك لكونه منه اذا وضعته لمدة محتملة كونه من كل واحد منهما ؛ فيجب عليه الامتناع من وطئها خوفا من هذا المحذور . (راجع شرح النووى على صحيح مسلم ، كتاب النكاح باب تحريم وطء الحامل المسبية) .

(٢) راجع جـ ٧ ص ١٣٠ طبعة أولى أو ثانية .

لعفوها، وليس لها الاستيفاء. وقال المخالف: إن المراد هاهنا بالولى الوارث؛ وقد قال تعالى: «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض»[1]، وقال: «والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء»[2]، وقال: «وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله»[3] فاقتضى ذلك إثبات القود لسائر الورثة؛ وأمّا ما ذكروه من أن الولى فى ظاهره على التذكير وهو واحد، كأن ما كان بمعنى الجنس يستوى المذكر والمؤنث فيه، وتتمته فى كتب الخلاف. ﴿سُلْطَانًا﴾ أى تسليطا إن شاء قتل وإن شاء عفا، وإن شاء أخذ الدّية؛ قاله ابن عباس رضى الله تعالى عنهما والضحاك وأشهب والشافعى. وقال ابن وهب قال مالك: السلطان أمر الله. ابن عباس: السلطان الحجة. وقيل: السلطان طلبه حتى يدفع إليه. قال ابن العربى: وهذه الأقوال متقاربة، وأوضحها قول مالك: إنه أمر الله. ثم إن أمر الله عز وجل لم يقع نصًّا فاختلف العلماء فيه؛ فقال ابن القاسم عن مالك وأبى حنيفة: القتل خاصّة. وقال أشهب: الخيرة؛ كما ذكرنا آنفا، وبه قال الشافعىّ. وقد مضى فى سورة «البقرة»[4] هذا المعنى.

الثانيـــة — قوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: لا يقتل غير قاتله؛ قاله الحسن والضحاك ومجاهد وسعيد بن جبير. الثـانى — لا يقتل بدل وليّه اثنين كما كانت العرب تفعله. الثالث — لا يمثّل بالقاتل؛ قاله طَلْق بن حبيب، وكله مراد لأنه إسراف منهىٌّ عنه. وقد مضى فى «البقرة»[4] القول فى هـذا مستوفًى. وقرأ الجمهور «يُسْرِف» بالياء؛ يريد الولى، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى «تسرف» بالتاء من فوق؛ وهى قراءة حُذيفة. وروى العـلاء بن عبد الكريم عن مجاهد قال: هو للقاتل الأوّل، والمعنى عندنا فلا تسرف أيهـا القاتل. وقال الطبرىّ: هو على معنى الخطاب للنبىّ صـلى الله عليه وسلم والأئمـة من بعده. أى لا تقتلوا غير القاتل. وفى حرف أُبَىّ «فلا تسرفوا فى القتل».

---

(١) آية ٧١ سورة التوبة. (٢) آية ٧٢ سورة الأنفال. (٣) آخر سورة الأنفال.

(٤) راجع جـ ٢ ص ٢٤٤ وما بعدها طبعة ثانية.

الثالثة — قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ أى مُعانا، يعنى الولىّ . فإن قيل : وكم من وَلِىّ مخذول لا يصل إلى حقّه . قلنا : المعونة تكون بظهور الحجة تارة وباستيفائها أخرى، وبمجموعهما ثالثة، فأيّها كان فهو نصر من الله سبحانه وتعالى. وروى ابن كثير عن مجاهد قال : إن المقتول كان منصورا . النحاس : ومعنى قوله إن الله نصره بوليّه . وروى أنه فى قراءة أُبَىّ « فلا تسرفوا فى القتل إن وَلِىّ المقتول كان منصورا » . قال النحاس : الأبْيَنُ بالياء ويكون للولىّ؛ لأنه إنما يقال : لا يسرف إن كان له أن يقتل، فهذا للولىّ . وقد يجوز بالتاء ويكون للولىّ أيضا، إلا أنه يحتاج فيه إلى تحويل المخاطبة . قال الضحاك : هذا أوّل ما نزل من القرآن فى شأن القتل، وهى مكية .

قوله تعالى : وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾

فيه مسألتان .

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ قد مضى الكلام فيه فى الأنعام[1] .

الثانية — قوله تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ قد مضى الكلام فيه فى غير موضع[2] . قال الزجاج : كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد . ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ عنه ، فحذف؛ كقوله : «وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ» به وقيل : إن العهد يسأل تبكيتا لناقضه فيقال : نقضْت، كما تسأل المَوْءُودة تبكيتا لوائدها .

قوله تعالى : وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٣٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٣٢ طبعة ثانية أو ثالثة .

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ تقدم الكلام فيه أيضا في الأنعام ؛ وتقتضي هذه الآية أن الكيل على البائع ؛ وقد مضى في سورة « يوسف » فلا معنى للإعادة . والقسطاس (بضم القاف وكسرها) : الميزان بلغة الروم ؛ قاله ابن عزيز . وقال الزجاج : القسطاس : الميزان صغيرا كان أو كبيرا . وقال مجاهد : القسطاس العدل ، وكان يقول : هي لغة رومية ، وكأن الناس قيل لهم : زنوا بمعدلة في وزنكم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر « القُسطاس » بضم القاف ، وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم (بكسر القاف) وهما لغتان .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أي وفاء الكيل وإقامة الوزن خير عند ربك وأبرك . « وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » أي عاقبة . قال الحسن : ذُكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه ليس لديه إلا مخافة الله تعالى إلا أبدله الله في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك " .

قوله تعالى : وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا (٣٦)

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ أي لا تتبع ما لا تعلم ولا يعنيك . قال قتادة : لا تقل رأيتُ وأنت لم تر ، وسمعتُ وأنت لم تسمع ، وعلمتُ وأنت لم تعلم ؛ وقاله ابن عباس رضي الله عنهما . قال مجاهد : لا تذمّ أحدا بما ليس لك به علم ؛ وقاله ابن عباس رضي الله عنهما أيضا . وقال محمد بن الحنفية : هي شهادة الزور . وقال القتبي : المعنى لا تتبع الحدس

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٣٦ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٥٤ طبعة أولى أو ثانية .

والظنون؛ وكلها متقاربة . وأصل القَفْو البُهْتُ والقذفُ بالباطل؛ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : "نحن بنو النضر بن كنانة لا نَقفو أُمَّنا ولا ننتفى من أبينا" أى لا نَسُبّ أمنا .
وقال الكُمَيت : ــ

فلا أرمى البرىء بغير ذنب * ولا أَقْفُو الحواصن إن قُفينا

يقال : قَفَوْتُه أقفوه، وقُفْتُه أَقُوفه، وقفَيته إذا اتّبعت أثره . ومنه القافة لتتبعهم الآثار وقافية كلّ شىء آخره ، ومنه قافية الشِّعر؛ لأنها تقفو البيت . ومنه اسم النبىّ صلى الله عليه وسلم المُقَفِّى؛ لأنه جاء آخر الأنبياء . ومنه القائف، وهو الذى يتبع أثر الشَّبَه . يقال : قاف القائف يقوف إذا فعل ذلك . وتقول : فَقَوْت الأثر، بتقديم الفاء على القاف . ابنُ عطية : ويشبه أن يكون هذا من تلعّب العرب فى بعض الألفاظ ، كما قالوا : رَعَمْلِى فى لَعَمْرِى . وحكى الطبرىّ عن فرقة أنها قالت : قفا وقاف، مثل عتا وعات . وذهب منذر بن سعيد إلى أن قفا وقاف مثل جَبَذ وجَذَب . وبالجملة فهذه الآية تنهى عن قول الزور والقذف ، وما أشبه ذلك من الأقوال الكاذبة والرديئة . وقرأ بعض الناس فيما حكى الكسائى « تَقُفْ » بضم القاف وسكون الفاء . وقرأ الجراح « والفَآد » بفتح الفاء، وهى لغة لبعض الناس، وأنكرها أبو حاتم وغيره .

الثانيــة ــ قال ابن خُوَيْزمنداد : تضمنت هذه الآية الحكم بالقافة؛ لأنه لما قال : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » دلّ على جواز ما لنا به علم . فكلّ ما علمه الإنسان أو غلب على ظنه جاز أن يحكم به ، وبهذا احتججنا على إثبات القُرْعة والخَرْص؛ لأنه ضرب من غلبة الظن؛ وقد يُسمّى علما اتساعا . فالقائف يُلحق الولد بأبيه من طريق الشبه بينهما كما يلحق الفقيه الفرع بالأصل من طريق الشبه . وفى الصحيح عن عائشة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل علىّ مسرورا تَبْرُق أسارير وجهه فقال : " ألم تَرَىْ أن مُجَزِّزًا نظر إلى زيد ابن حارثة وأسامة بن زيد عليهما قطيفة قد غطّيا رءوسهما وبدَتْ أقدامهما فقال إن بعض هذه الأقدام لَمِن بعض " : وفى حديث يونس بن يزيد : " وكان مُجَزِّز قائفا " .

الثالثة — قال الإمام أبو عبد الله المازَرى : كانت الجاهلية تقدح فى نسب أسامة لكونه أسود شديد السواد ، وكان زيد أبوه أبيض من القطن ، هكذا أبو داود عن أحمد بن صالح . قال القاضى عِياض : وقال غير أحمد كان زيد أزهر ال... ، وكان أسامة شديد الأُدمة ؛ وزيد بن حارثة عربىّ صريح من كَلْب ، أصابه سِباء ، حسبما يأتى فى سورة « الأحزاب »(1) إن شاء الله تعالى .

الرابعة — استدل جمهور العلماء على الرجوع إلى القافة عند التنازع فى الولد ، بسرور النبىّ صلى الله عليه وسلم بقول هذا القائف ؛ وما كان عليه السلام بالذى يُسَرّ بالباطل ولا يعجبه . ولم يأخذ بذلك أبو حنيفة و إسحاق والثّورىّ وأصحابهم متمسّكين بإلغاء النبىّ صلى الله عليه وسلم الشبه فى حديث اللّعان ؛ على ما يأتى فى سورة « النور » إن شاء الله تعالى

الخامسة — واختلف الآخذون بأقوال القافة ، هل يؤخذ بذلك فى أولاد الحرائر والإماء أو يختص بأولاد الإماء ، على قولين ؛ فالأوّل — قول الشافعىّ ومالك رضى الله عنهما فى رواية ابن وهب عنه ، ومشهورُ مذهبه قَصْرُه على ولد الأَمَة . والصحيح ما رواه ابن وهب عنه وقاله الشافعىّ رضى الله عنه ؛ لأن الحديث الذى هو الأصل فى الباب إنما وقع فى الحرائر ، فإن أسامة وأباه حُرّان فكيف يُلْغَى السبب الذى خُرّج عليه دليل الحكم وهو الباعث عليه ، هذا مما لا يجوز عند الأصوليين . وكذلك اختلف هؤلاء ، هل يكتفى بقول واحد من القافة أو لا بُدّ من اثنين لأنها شهادة ؛ وبالأوّل قال ابن القاسم وهو ظاهر الخبر بل نصّه . وبالثانى قال مالك والشافعىّ رضى الله عنهما .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ أى يسأل كل واحد منهم عما اكتسب ، فالفؤاد يسأل عما افتكر فيه واعتقده ، والسمع والبصر عما رأى من ذلك وسمع . وقيل : المعنى أن الله سبحانه وتعالى يسأل الإنسان عما حَواه سمعه وبصره وفؤاده ؛ ونظيره قوله صلى الله عليه وسلم : " كلّكم راع وكلكم مسئول عن رعيته "

---

(1) راجع المسألة الخامسة من قوله تعالى : « ما جعل الله لرجل من قلبين... » آية ٤

فالإنسان راع على جوارحه ؛ فكأنه قال كل هذه كان الإنسان عنه مسئولا ، فهو على حذف مضاف . والمعنى الأول أبلغ في الحجة ؛ فإنه يقع تكذيبه من جوارحه ، وتلك غاية الخزى ؛ كما قال : « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون »[1] ، وقوله « شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون »[2] . وعبر عن السمع والبصر والفؤاد بأولئك لأنها حواس لها إدراك ، وجعلها في هذه الآية مسئولة ، فهي حالة من يعقل ، فلذلك عبر عنها بأولئك . وقال سيبويه رحمه الله في قوله تعالى «رأيتهم لي ساجدين» : إنما قال : « رأيتهم » في نجوم ، لأنه لما وصفها بالسجود وهو من فعل من يعقل عبر عنها بكناية من يعقل ؛ وقد تقدم[3] . وحكى الزجاج أن العرب تعبر عما يعقل وعما لا يعقل بأولئك ، وأنشد هو والطبري :

ذُمّ المنازل بعد منزلة اللّوى ❊ والعيش بعد أولئك الأيام

وهذا أمر يوقف عنده . وأما البيت فالرواية فيه « الأقوام » والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ هذا نهي عن الخيلاء وأمر بالتواضع . والمرح : شدة الفرح . وقيل : التكبر في المشي . وقيل : تجاوز الإنسان قدره . وقال قتادة : هو الخيلاء في المشي . وقيل : هو البطر والأشر . وقيل : هو النشاط . وهذه الأقوال متقاربة ولكنها منقسمة قسمين : أحدهما مذموم والآخر محمود به فالتكبر والبطر والخيلاء وتجاوز الإنسان قدره مذموم والفرح والنشاط محمود . وقد وصف الله تعالى نفسه بأحدهما ؛ ففي الحديث الصحيح " لله أفرح بتوبة العبد من رجل ... " الحديث . والكسل

(١) آية ٦٥ سورة يس (٢) آية ٢٠ سورة فصلت . (٣) راجع جـ ٩ ص ١٢٢ طبعة أولى أو ثانية .

مذموم شرعا والنشاط ضده . وقد يكون التكبر وما في معناه محمودا ، وذلك على أعداء الله والظلمة . أسند أبو حاتم محمد بن حبّان عن ابن جابر بن عتيك عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من الغيرة مايبغض الله عز وجل ومنها مايحب الله عز وجل ومن الخُيَلاء مايحب الله عز وجل ومنها مايبغض الله فأما الغيرة التى يحب الله الغَيْرةُ في الدِّين والغيرة التى يبغض الله الغيرةُ فى غير دينه والخيلاء التى يحب الله اختيال الرجل بنفسه عند القتال وعند الصدقة والاختيال الذى يبغض الله الخيلاء فى الباطل " وأخرجه أبو داود فى مصنَّفه وغيره . وأنشـدوا :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا * فكم تحتهـا قوم همو منك أرفع

و إن كنتَ فى عزٍّ وحِرْزٍ ومَنْعة * فكم مات من قوم همو منك أمنع

الثانيـة — إقبال الإنسان على الصيد ونحوه ترفُّعاً دون حاجة إلى ذلك داخل فى هذه الآية ، وفيه تعذيب الحيوان وإجراؤه لغير معنًى . وأما الرجل يستريح فى اليوم النادر[1] والساعة من يومه ، يُجِمّ فيهـا نفسـه فى التطرح والراحة ليستعين بذلك على شـغل من البر، كقراءة علم أو صلاة، فليس بداخل فى هذه الآية .

قوله تعـالى : ﴿ مَرَحًا ﴾ قراءة الجمهور بفتح الراء . وقراءة فرقة فيما حكى يعقوب بكسر الراء على بنـاء اسم الفاعل . والأول أبلغ ، فان قولك : جاء زيد رَكْضاً أبلغ من قولك : جاء زيد راكضا ، فكذلك قولك مَرَحًا . والمرح المصدر أبلغ من أن يقال مَرِحًا .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ ﴾ يعنى لن تتولج باطنها فتعلم ما فيها ﴿ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ أى لن تساوى الجبال بطولك ولا تطاولك . و يقال : خرق الثوب أى شـقه ، وخرق الأرض قطعها . والخَرْق : الواسع من الأرض . أى لن تخرق الأرض بكبرك ومشيك عليها . ﴿ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ بعظمتك ، أى بقدرتك لا تبلغ هذا المبلغ ، بل أنت عبد ذليل ، محاط بك من تحتك ومن فوقك ، والمحاط محصور ضعيف ، فلا يليق بك

---

(١) فى بعض نسخ الأصل : « فى اليوم البارد » .

التكبر . والمراد بخرق الأرض هنا نقبها لا قطعها بالمسافة ؛ والله أعلم . وقال الأزهرى : معناه لن تقطعها . النحاس : وهذا أبين ؛ لأنه مأخوذ من الخرق وهى الصحراء الواسعة . ويقال : فلان أخرق من فلان ، أى أكثر سفرا وعزة ومَنعة . ويروى أن سَبأ دوّخ الأرض بأجناده شرقا وغربا وسَهْلا وجبلا ، وقتل سادة وسبى — وبه سُمّىَ سبأ — ودان له الخلق ، فلما رأى ذلك انفرد عن أصحابه ثلاثة أيام ثم خرج إليهم فقال : إنى لما نلت مالم ينل أحد رأيت الابتداء بشكر هذه النعم ، فلم أر أوقع فى ذلك من السجود للشمس إذا أشرقت ، فسجدوا لها ، وكان ذلك أوّل عبادة الشمس ؛ فهذه عاقبة الخُيَلاء والتكبر والمرَح ، نعوذ بالله من ذلك .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ «ذلك» إشارة إلى جملة ما تقدّم ذكره مما أمر به ونَهى عنه . و « ذلك » يصلح للواحد والجمع والمؤنث والمذكر . وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائى ومسروق « سيِّئُهُ » على إضافة سَيِّئ إلى الضمير ، ولذلك قال : « مَكْرُوهًا » نصب على خبر كان . والسيِّئ : هو المكروه ، وهو الذى لا يرضاه الله عز وجل ولا يأمر به . وقد ذكر الله سبحانه وتعالى فى هذه الآى من قوله : « وقَضَى ربُّك — إلى قوله — كان سيئُه » مأمورات بها ومنهيات عنها ، فلا يخبر عن الجميع بأنه سيّئة فيدخل المأمور به فى المنهىّ عنه . واختار هذه القراءة أبو عبيد . ولأن فى قراءة أُبَىّ « كلُّ ذلك كان سيئاته » فهذه لا تكون إلا للإضافة . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو « سيئةً » بالتنوين ؛ أى كل ما نهى الله ورسوله عنه سيئة . وعلى هذا انقطع الكلام عند قوله : « وأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » ثم قال : « وَلَا تَقْفُ ما ليسَ لكَ بِهِ عِلْمٌ » ، « وَلَا تَمْشِ » ، ثم قال : « كُلُّ ذلك كان سيئةً » بالتنوين . وقيل : إن قوله « ولا تقتلوا أولادَكم » إلى هذه الآية كان سيئةً لا حسنة فيه ، فجعلوا « كلا » محيطا بالمنهىّ عنه دون غيره . وقوله : « مكروها » ليس نعتا لسيئة ، بل هو بدل منه ؛ والتقدير : كان سيئة وكان مكروها . وقد قيل : إن « مكروها » خبر ثان لكان حمل على لفظة كلّ ، و « سيئة » محمول على المعنى فى جميع هذه الأشياء المذكورة قبلُ . وقال بعضهم : هو نعت لسيئة ؛ لأنه لما كان

تأنيثها غير حقيق جاز أن توصف بمذكر . وضعّف أبو على الفارسى هذا وقال : إن المؤنث إذا ذُكّر فإنما ينبغى أن يكون ما بعده مذكرا، وإنما التساهل أن يتقدّم الفعل المسند إلى المؤنث وهو فى صيغة ما يسند إلى المذكّر؛ ألا ترى قول الشاعر :

فلا مزنةٌ ودَقَتْ وَدْقَها ٭ ولا أرضَ أبقلَ إبقالها

مستقبح عندهم . ولو قال قائل : أبقل أرض لم يكن قبيحا . قال أبو علىّ : ولكن يجوز فى قوله « مكروها » أن يكون بدلا من « سيئة » . ويجوز أن يكون حالا من الضمير الذى فى « عند ربك » ويكون « عند ربك » فى موضع الصفة لسيئة .

الخامسة — استدلّ العلماء بهذه الآية على ذمّ الرّقص وتعاطيه . قال الإمام أبو الوفاء ابن عقيل : قد نصّ القرآن على النّهى عن الرقص فقال : « ولا تمش فى الأرض مَرَحًا » وذم المختال . والرقصُ أشد المرح والبطر . أو لسنا الذين قِسْنا النبيذ على الخمر لاتفاقهما فى الإطراب والسكر، فما بالنا لا نقيس القضيب وتلحين الشّعر معه على الطُّنبور والمزمار والطّبل لاجتماعهما . فما أقبح من ذى لِحْية ، وكيف إذا كان شيبةً ، يرقص ويصفّق على إيقاع الألحان والقضبان، وخصوصا إن كانت أصواتٌ لنسوان ومردان ، وهل يحسن لمن بين يديه الموت والسؤال والحشر والصراط ، ثم هو إلى إحدى الدّارين ، يَشْمُس[1] بالرقص شمس البهائم ، ويصفّق تصفيق النسوان ، ولقد رأيت مشايخ فى عمرى ما بان لهم سِنّ من التبسّم فضلا عن الضحك مع إدمان مخالطتى لهم . وقال أبو الفرج ابن الجوزى رحمه الله : ولقد حدّثنى بعض المشايخ عن الإمام الغزالى رضى الله عنه أنه قال : الرقص حماقة بين الكتفين لا تزول إلا بالتعب . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان فى « الكهف[2] » وغيرها[3] إن شاء الله تعالى .

---

(١) شمست الدابة : شردت وجمحت .   (٢) فى المسألة الثانية من قوله تعالى : « وربطنا على قلوبهم ... » آية ١٤ .   (٣) فى أول سورة لقمان .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴾ (٣٩)

الإشارة بـ«ذلك» إلى هذه الآداب والقصص والأحكام التى تضمنتها هذه الآيات المتقدمة التى نزل بها جبريل عليه السلام ، أى هذه من الأفعال المحكمة التى تقتضيها حكمة الله عز وجل فى عباده ، وخلقها لهم من محاسن الأخلاق والحكمة وقوانين المعانى المحكمة والأفعال الفاضلة . ثم عطف قوله « ولا تجعل » على ما تقدم من النواهى . والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمرادُ كلُّ من سمع الآية من البشر . والمدحور : المُهان المبعد المُقْصَى . وقد تقدم فى هذه السورة[(١)] . ويقال فى الدعاء : اللهم ادْحر عنا الشيطان ؛ أى أبعده .

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ (٤٠)

هذا يردّ على من قال من العرب : الملائكة بنات الله ، وكان لهم بنات أيضاً مع البنين ، ولكنه أراد : أفأخلص لكم البنين دونه وجعل البنات مشتركة بينكم وبينه . ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ أى فى الإثم عند الله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ (٤١)

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ أى بيّنا . وقيل كررنا . ﴿ فِى هَٰذَا الْقُرْآنِ ﴾ قيل « فى » زائدة ، والتقدير : ولقد صرفنا هذا القرآن ؛ مثل « وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى » أى أصلح ذريتى . والتصريف : صرف الشيء من جهة إلى جهة . والمراد بهذا التصريف البيان والتكرير . وقيل : المغايرة ؛ أى غايرنا بين المواعظ ليذّكروا ويعتبروا ويتّعظوا . وقراءة العامة « صَرَّفنا »

---

(١) راجع ص ٣٣٥ من هذا الجزء .

بالتشديد على التكثير حيث وقع . وقرأ الحسن بالتخفيف . وقوله « في هذا القرآن » يعني الأمثال والعبر والحكم والمواعظ والأحكام والإعلام . قال الثعلبي : سمعت أبا القاسم الحسين يقول بحضرة الإمام الشيخ أبي الطيب : لقوله تعالى « صرفنا » معنيان ، أحدهما لم يجعله نوعا واحدا بل وعدا ووعيدا ومحكما ومتشابها ونهيا وأمرا وناسخا ومنسوخا وأخبارا وأمثالا ؛ مثل تصريف الرياح من صَبًا ودَبُور وجنوب وشمال ، وتصريف الأفعال من الماضي والمستقبل والأمر والنهي والفعل والفاعل والمفعول ونحوها . والثاني أنه لم ينزل مرة واحدة بل نجوما ؛ نحو قوله « وقرآنا فرقناه » ومعناه : أكثرنا صرف جبريل عليه السلام إليك . ﴿ لِيَذَّكَّرُوا ﴾ قراءة يحيى والأعمش وحمزة والكسائي « لِيَذْكُروا » مخففا ، وكذلك في الفرقان « ولقد صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُروا »[1] . الباقون بالتشديد . واختاره أبو عبيد ؛ لأن معناه ليتذكروا وليتعظوا . قال المهدوي : من شدّد « لِيَذَّكَّروا » أراد التدبر . وكذلك من قرأ « لِيَذْكُروا » . ونظير الأول « وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ »[2] والثاني — « وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ »[3] . ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ أي التصريف والتذكير . ﴿ إِلَّا نُفُورًا ﴾ أي تباعدا عن الحق وغفلة عن النظر والاعتبار ؛ وذلك لأنهم اعتقدوا في القرآن أنه حيلة وسحر وكهانة وشعر .

قوله تعالى : قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ ﴾ هذا متصل بقوله تعالى : « وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ » وهو ردّ على عُبّاد الأصنام . ﴿ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ قرأ ابن كثير وحفص « يقولون » بالياء . الباقون « تقولون » بالتاء على الخطاب . ﴿ إِذًا لَابْتَغَوْا ﴾ يعني الآلهة . ﴿ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ قال ابن العباس رضي الله تعالى عنهما : لطلبوا مع الله منازعة وقتالا كما تفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض . وقال سعيد بن جُبير رضي الله تعالى عنه : المعنى إذًا لطلبوا

---

(١) آية ٥٠ . (٢) آية ٥١ سورة القصص . (٣) آية ٦٣ سورة البقرة .

طريقا إلى الوصول إليه ليزيلوا ملكه ، لأنهم شركاؤه . وقال قتادة : المعنى إذًا لابتغت الآلهة القُربة إلى ذى العرش سبيلا ، والتمست الزُّلفة عنده لأنهم دونه ، والقوم اعتقدوا أن الأصنام تقربهم إلى الله زلفى، فإذا اعتقدوا فى الأصنام أنها محتاجة إلى الله سبحانه وتعالى فقد بطل أنها آلهة . ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ نزه سبحانه نفسه وقدسه ومجده عما لا يليق به . والتسبيح : التنزيه . وقد تقدم[1] .

قوله تعالى : تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ أعاد على السموات والأرض ضمير من يعقل، لما أسند إليها فعل العاقل وهو التسبيح . وقوله : ﴿ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ يريد الملائكة والإنس والجن ، ثم عم بعد ذلك الأشياء كلها فى قوله : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ » . واختلف فى هذا العموم ، هل هو مخصص أم لا ؛ فقالت فرقة : ليس مخصوصا والمراد به تسبيح الدلالة ، وكل محدث يشهد على نفسه بأن الله عز وجل خالق قادر . وقالت طائفة : هذا التسبيح حقيقة ، وكل شىء على العموم يسبح تسبيحا لا يسمعه البشر ولا يفقهه ، ولو كان ما قاله الأولون من أنه أثر الصنعة والدلالة لكان أمرا مفهوما ، والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يفقه . وأجيبوا بأن المراد بقوله : « لا تفقهون » الكفارُ الذين يعرضون عن الاعتبار فلا يفقهون حكمة الله سبحانه وتعالى فى الأشياء . وقالت فرقة : قوله « مِنْ شَيْءٍ » عموم، ومعناه الخصوص فى كل حىّ ونام ، وليس ذلك فى الجمادات . ومن هذا قول عكرمة : الشجرة تسبح والأسطوان لا يسبح . وقال يزيد الرَّقاشى للحسن وهما فى طعام وقد قُدِّم الخوان : أيسبّح هذا الخوان يا أبا سعيد ؟ فقال : قد كان يسبح مرة ؛ يريد أن الشجرة فى زمن ثمرها واعتدالها كانت تسبّح ، وأما الآن فقد صار خوانا مدهونا .

---

(1) راجع جـ ١ ص ٢٧٦ طبعة ثانية أو ثالثة

قلت : و يستدلّ لهذا القول من السُّنّة بما ثبت عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلى الله عليه وسلم مرّ على قبرين فقال : " أنهما ليُعذَّبان وما يُعذَّبان في كبير أما أحدهما فكان يمشي بالنّميمة وأما الآخر فكان لا يستبرئ من البول " قال : فدعا بعَسيب رَطْب فشقّه اثنين، ثم غرس على هذا واحدا وعلى هذا واحدا ثم قال : "لعلّه يخفّف عنهما ما لم ييْبَسَا". فقوله عليه الصلاة والسلام . " ما لم ييبسا " إشارة إلى أنهما ما داما رطبين يسبّحان، فإذا يبسا صارا جمادا . والله أعلم . وفي مسند أبي داود الطّيالسي : فوضع على أحدهما نصفا وعلى الآخر نصفا وقال : " لعله أن يهوّن عليهما العذاب ما دام فيهما من بلولتهما شيء " . قال علماؤنا : ويستفاد من هذا غرس الأشجار وقراءة القرآن على القبور، وإذا خُفف عنهم بالأشجار فكيف بقراءة الرجل المؤمن القرآن . وقد بينا هذا المعنى في (كتاب التذكرة) بيانا شافيا، وأنه يصل إلى الميت ثواب ما يُهْدَى إليه . والحمد لله على ذلك . وعلى التأويل الثاني لا يحتاج إلى ذلك؛ فإن كل شيء من الجماد وغيره يسبح .

قلت : ويستدلّ لهذا التأويل وهذا القول من الكتاب بقوله سبحانه وتعالى : « وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ . إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ »(١)، وقوله : « وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ »(٢) — على قول مجاهد — ، وقوله : « وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا »(٣) . وذكر ابن المبارك في (دقائقه) أخبرنا مسعر عن عبد الله بن واصل عن عوف بن عبد الله قال قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : إن الجبل يقول للجبل : يا فلان، هل مرّ بك اليوم ذاكر لله عز وجل ؟ فإن قال نعم سُرّ به . ثم قرأ عبد الله « وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا » الآية . قال : أفتراهن يسمعن الزور ولا يسمعن الخير . وفيه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ما من صباح ولا رواح إلا تنادى بقاع الأرض بعضها بعضا : يا جاراه، هل مرّ بك اليوم عبد فصلى لله أو ذكر الله عليك ؟ فمن قائلة لا، ومن قائلة نعم، فإذا قالت نعم رأت لها بذلك فضلا عليها . وقال رسول الله صلى

(١) آية ١٧ سورة ص . (٢) آية ٧٤ سورة البقرة . (٣) آية ٩٠ سورة مريم .

الله عليه وسلم : "لا يسمع صوتَ المؤذن جنٌ ولا إنس ولا شجر ولا حجر ولا مَدَر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة" . رواه ابن ماجه في سننه ، ومالك في موطّئه من حديث أبي سعيد الخُدْريّ رضي الله عنه . وخرّج البخاريّ عن عبد الله رضي الله عنه قال : لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل . في غير هذه الرواية عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه : كنا نأكل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الطعام ونحن نسمع تسبيحه . وفي صحيح مسلم عن جابر بن سَمُرَة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن" . قيل : إنه الحجر الأسود، والله أعلم . والأخبار في هذا المعنى كثيرة ؛ وقد أتينا على جملة منها في اللّمع اللؤلؤية في شرح العشرنيات النبوية للفادارى رحمه الله ، وخبر الجذع أيضا مشهور في هذا الباب خرّجه البخاري في مواضع من كتابه . وإذا ثبت ذلك في جماد واحد جاز في جميع الجمادات، ولا ٱستحالة في شيء من ذلك ؛ فكل شيء يسبح للعموم . وكذا قال النَّخَعِيّ وغيره : هو عام فيما فيه روح وفيما لا روح فيه حتى صرير الباب . واحتجّوا بالأخبار التي ذكرنا . وقيل : تسبيح الجمادات أنها تدعو الناظر إليها إلى أن يقول : سبحان الله ! لعدم الإدراك منها . وقال الشاعر :

تُلْقِي بتسبيحة من حيث ما انصرفت ٭ وتستقر حَشَا الرائي بترْعادِ

أي يقول من رآها : سبحانَ خالقها . فالصحيح أن الكل يسبّح للأخبار الدالة على ذلك ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة فأيّ تخصيص لداود ، وإنما ذلك تسبيح المقال بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح كما ذكرنا . وقد نصّت السّنة على مادل عليه ظاهر القرآن من تسبيح كل شيء فالقول به أولى . والله أعلم . وقرأ الحسن وأبو عمرو ويعقوب وحفص وحمزة والكسائي وخَلَف « تفقهون » بالتاء لتأنيث الفاعل . الباقون بالياء، واختاره أبو عبيد ؛ قال : للحائل بين الفعل والتأنيث . ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا ﴾ عن ذنوب عباده في الدنيا . ﴿ غَفُورًا ﴾ للمؤمنين في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ (٤٥)

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قالت : لما نزلت سورة « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها وَلْوَلَة وفي يدها فِهْر[1] وهي تقول

* مُذَمَّمًا عصينا * وأمره أبينا * ودينه قلينا[2] *

والنبيّ صلى الله عليه وسلم قاعد في المسجد ومعه أبو بكر رضي الله عنه، فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله، لقد أقبلتْ وأنا أخاف أن تراك! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنها لن تراني" وقرأ قرآنا فاعتصم به كما قال . وقرأ « وإذا قرأتَ القرآنَ جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مَسْتُورًا » . فوقفت على أبي بكر رضي الله عنه ولم تر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا أبا بكر، أخبرتُ أن صاحبك هجاني ! فقال : لا وربِّ هذا البيت ما هجاك . قال : فولّت وهي تقول : قد علمتْ قريش أني ابنة سيدها . وقال سعيد بن جُبير رضي الله عنه : لما نزلت «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ» جاءت امرأة أبي لهب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر رضي الله عنه، فقال أبو بكر : لو تَنَحَّيْتَ عنها لئلا تُسمعك ما يؤذيك ، فإنها امرأة بذيّة . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إنه سيحال بيني وبينها" فلم تره . فقالت لأبي بكر: يا أبا بكر، هجانا صاحبك! فقال : والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله . فقالت : وإنك لمصدّقه، فاندفعت راجعة . فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله، أما رأتك؟ قال: "لا. ما زال ملك بيني وبينها يسترني حتى ذهبت". وقال كعب رضي الله عنه في هذه الآية : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يستتر من المشركين بثلاث آيات : الآية التي في الكهف « إنا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وفي آذانِهِمْ وَقْرًا[3]»، والآية التي في النحل

---

(١) الفهر (بالكسر) : الحجر ملء الكف . وقيل : هو الحجر مطلقا . (٢) هذا ما ورد في سيرة ابن هشام. والذي في نسخ الأصل : مذمما أبينا * . ودينه قلينا . (٣) آية ٥٧

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ »[1]، والآية التى فى الجاثية[2] « أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً »[3] الآية .

فكان النبىّ صلى الله عليه وسلم إذا قرأهن يستتر من المشركين . قال كعب رضى الله تعالى عنه : فحدّثت بهن رجلا من أهـل الشام، فأتى أرض الروم فأقام بها زمانا، ثم خرج هاربا فخرجوا فى طلبه فقرأ بهن فصاروا يكونون معه على طريقه ولا يبصرونه . قال الثعلبى[4] : وهذا الذى يروُونه عن كعب حدّثت به رجلا من أهل الرىّ فأسر بالدَّيْلَم، فمكث زمانا ثم خرج هاربا فخرجوا فى طلبه فقرأ بهن حتى جعلت ثيابهن لتلمس ثيابه فما يبصرونه

قلت : ويزاد إلى هذه الآى أوّلُ سورة يس إلى قوله «فهم لايبصرون» . فإن فى السيرة فى هجرة النبىّ صلى الله عليـه وسلم ومقامِ علىّ رضى الله عنه فى فراشه قال : وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ حَفْنة من تراب فى يده ، وأخذ الله عز وجل على أبصارهم عنه فلا يرونه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رءوسهم وهو يتلو هذه الآيات من يس : « يس . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ . — إلى قوله — وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » . حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هـذه الآيات ، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابا، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب .

قلت : ولقد آتفق لى ببلادنا الأندلس بحصن منثور[5] من أعمال قرطبة مثل هذا . وذلك أنى هربت أمام العـدوّ وآنحزت إلى ناحية عنـه ، فلم ألبث أن خرج فى طلبى فارسان وأنا فى فضاء من الأرض قاعد ليس يسترنى عنهما شىء، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن؛ فعبرا علىّ ثم رجعا من حيث جاءا وأحدهما يقول للآخر: هذا دِيبْلُه[6]؛ يعنون شيطانا. وأعمى الله عز وجل أبصارهم فلم يرونى، والحمد لله حمدا كثيرا على ذلك . وقيـل : الحجاب

(١) آية ٢٣ (٢) فى الأصـول : « فى الشورى » وهو خطأ . (٣) آية ٢٣
(٤) فى بعض الأصول : «الكلبى» . (٥) كذا فى الأصول . (٦) ضبطناها بذلك لأنها ينطق بها فى الاسبانية «ديبلو» (بكسر الدال وفتح الياء وسكون الباء الموحدة وضم اللام) .

المستور طَبَعُ الله على قلوبهم حتى لا يفقهوه ولا يدركوا ما فيه من الحكمة؛ قاله قتادة . وقال الحسن: أى أنهم لإعراضهم عن قراءتك وتغافلهم عنك كمن بينك وبينه حجاب فى عدم رؤيته لك حتى كأن على قلوبهم أغطية . وقيل : نزلت فى قوم كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ القرآن، وهم أبو جهل وأبو سفيان والنضر بن الحارث وأم جميل امرأة أبى لهب وحُوَيطب؛ فحجب الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم عن أبصارهم عند قراءة القرآن، وكانوا يمرّون به ولا يرونه؛ قاله الزجاج وغيره . وهو معنى القول الأوّل بعينه، وهو الأظهر فى الآية، والله أعلم . وقوله : ﴿ مَسْتُورًا ﴾ فيه قولان : أحدهما — ان الحجاب مستور عنكم لا ترونه . والثانى — أن الحجاب ساتر عنكم ما وراءه؛ ويكون مستورا بمعنى ساتر .

قوله تعالى : وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ « اكنة » جمع كِنان، وهو ما ستر الشيء . وقد تقدم فى « الأنعام »(1) . ﴿ أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ أى لئلا يفقهوه، أو كراهية أن يفقهوه، أى أن يفهموا ما فيه من الأوامر والنواهى والحكم والمعانى . وهذا ردّ على القدرية . ﴿ وَفِى آذانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أى صمما وثقلا . وفى الكلام إضمار، أى أن يسمعوه . ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى القُرآنِ وَحْدَهُ ﴾ أى قلت : لا إله إلا الله وأنت تتلو القرآن . وقال أبو الجَوْزاء أوْس بن عبد الله : ليس شيء أطرَدَ للشيطان من القلب من قول لا إله إلا الله، ثم تلا « وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولّوا على أدبارهم نفورا » . وقال على بن الحسين : هو قوله بسم الله الرحمن الرحيم . وقد تقدم هذا فى البسملة . ﴿ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ قيل : يعنى بذلك المشركين . وقيل الشياطين . و « نُفُورًا » جمع نافر؛ مثل شهود جمع شاهد، وقعود جمع قاعد، فهو منصوب على الحال . ويجوز أن يكون مصدرا على غير الصدر؛ إذ كان قوله « ولّوا » بمعنى نفروا، فيكون معناه نفروا نفورا .

---

(1) راجع جـ ٦ ص ٤٠٤ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ قيل : الباء زائدة فى قوله « به » أى يستمعونه . وكانوا يستمعون من النبيّ صلى الله عليه وسلم القرآن ثم ينفرون فيقولون : هو ساحر ومسحور ؛ كما أخبر الله تعالى به عنهم ؛ قاله قتادة وغيره . ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى ﴾ أى متناجون فى أمرك . قال قتادة : وكانت نجواهم قولهم إنه مجنون وإنه ساحر وإنه يأتى بأساطير الأوّلين ، وغير ذلك . وقيل : نزلت حين دعا عُتْبة أشرافَ قريش إلى طعام صنعه لهم ، فدخل عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى الله ؛ فتناجوا ؛ يقولون ساحر ومجنون . وقيل : أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم عليًّا أن يتخذ طعاما ويدعو إليه أشراف قريش من المشركين ؛ ففعل ذلك عليّ ودخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى التوحيد ، وقال : " قولوا لا إله إلا الله لتطيعكم العرب وتدين لكم العجم " فأبوا ، وكانوا يستمعون من النبيّ صلى الله عليه وسلم ويقولون بينهم متناجين : هو ساحر وهو مسحور ؛ فنزلت الآية . وقال الزجاج : النَّجْوَى اسم للمصدر ؛ أى و إذ هم ذو نجوى ، أى سرار . ﴿ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ ﴾ أبو جهل والوليد بن المُغيرة وأمثالهما . ﴿ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ أى مَطْبُوبا قد خبله السحر فاختلط عليه أمره ، يقولون ذلك لينفروا عنه الناس . وقال مجاهد : « مسحورا » أى مخدوعا ؛ مثل قوله : « فَأَنَّى تُسْحَرُونَ »[1] أى من أين تخدعون . وقال أبو عبيدة : «مسحورا» معناه أن له سَحْرًا ، أى رئة ، فهو لا يستغنى عن الطعام والشراب ؛ فهو مثلكم وليس بمَلَك . وتقول العرب للجبان : قد انتفخ سَحْره . ولكل من أكل من آدمى وغيره أو شرب مسحور ومُسَحَّر . قال لبيد :

فإن تسألينا فيم نحن فإننا * عصافيرُ من هذا الأنام المُسَحَّرِ

(١) آية ٨٩ سورة المؤمنون

وقال امرؤ القيس :

أرانا مُوضِعين لأمرِ غَيْبٍ[1] ✽ ونُسْحَر بالطعام وبالشّراب

أى نُغَـذَّى ونُعَلَّل . وفى الحـديث عن عائشـة رضى الله عنها أنهـا قالت : مَن هـذه التى تُسامينى من أزواج النبى صلى الله عليـه وسلم، وقد تُوُفِّىَ رسول الله صلى الله عليـه وسلم بين سَحْرِى ونَحْرِى[2] .

قوله تعـالى : ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَـبِيلًا ﴿٤٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ ﴾ عجّبه من صنعهم كيف يقولون تارةً ساحر وتارة مجنون وتارة شاعر . ﴿ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ أى حيلة فى صدّ الناس عنك . وقيل : ضَلُّوا عن الحق فلا يجدون سبيلا، أى إلى الهدى . وقيل : مخرجا؛ لتناقض كلامهم فى قولهم : مجنون، ساحر، شاعر .

قوله تعـالى : وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًـا جَـدِيدًا ﴿٤٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالُوا ائِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا ﴾ أى قالوا وهم يتناجون لمـا سمعوا القرآن وسمعوا أمر البعث : لو لم يكن مسحورا مخدوعا لمـا قال هذا . قال ابن عباس : الرُّفات الغبار . مجاهد : التراب . والرفات ما تكسّر وبَلِىَ من كل شىء؛ كالفُتات والحُطام والرُّضاض؛ عن أبى عبيـدة والكسائىّ والفرّاء والأخفش . تقول منه : رُفِتَ الشىء رَفْتًا ، أى حُطِم؛ فهو مرفوت . ﴿ أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ « أئنا » استفهام والمراد به الجَحْد والإنكار . و « خلقا » نصب لأنه مصدر؛ أى بعثا جديدا . وكان هذا غايةَ الإنكار منهم .

---

(١) أوضع الرجل فى السير إذا أسرع . وقوله «لأمر غيب» يريد الموت، وأنه قد غيّب عنا وقته ونحن نلهى عنه بالطعام والشراب .

(٢) تريد أنه مات صلى الله عليه وسلم وهو مستند إلى صدرها وما يحاذى سحرها (وهو الرئة) .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾ أى قل لهم يا محمد كونوا على جهة التعجيز حجارة أو حديدا فى الشدة والقوة . قال الطبرى : أى إن عجبتم من إنشاء الله لكم عظاما ولحما فكونوا أنتم حجارة أو حديدا إن قدرتم . وقال علىّ بن عيسى : معناه أنكم لو كنتم حجارة أو حديدا لم تفوتوا الله عز وجل إذا أرادكم ؛ إلا أنه خرج مخرج الأمر، لأنه أبلغ فى الإلزام . وقيل : معناه لو كنتم حجارة أو حديدا لأعادكم كما بدأكم ، ولأماتكم ثم أحياكم . وقال مجاهد : المعنى كونوا ما شئتم فستعادون . النحاس : وهذا قول حسن ؛ لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارة ، وإنما المعنى أنهم قد أقروا بخالقهم وأنكروا البعث فقيل لهم استشعروا أن تكونوا ما شئتم ، فلو كنتم حجارة أو حديدا لبُعثتم كما خُلقتم أول مرة . ﴿ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ قال مجاهد : يعنى السموات والأرض والجبال لعظمها فى النفوس . وهو معنى قول قتادة . يقول : كونوا ما شئتم ، فإن الله يميتكم ثم يبعثكم . وقال ابن عباس وابن عمر وعبد الله بن عمرو ابن العاص وابن جُبير ومجاهد أيضا وعكرمة وأبو صالح والضحاك : يعنى الموت ؛ لأنه ليس شىء أكبر فى نفس ابن آدم منه ؛ قال أُمَيّة بن أبى الصلت :

* وللمَوْتُ خَلْق فى النفوس فظيع *

يقول . إنكم لو خُلقتم من حجارة أو حديد أو كنتم الموت لأميتنكم ولأبعثنكم ؛ لأن القدرة التى بها أنشأتكم بها نعيدكم . وهو معنى قوله : ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ . وفى الحديث أنه " يؤتى بالموت يوم القيامة فى صورة كَبْش أملَح فيذبح بين الجنة والنار" . وقيل : أراد به البعث ؛ لأنه كان أكبر فى صدورهم ؛ قاله الكلبى . ﴿ فَطَرَكُمْ ﴾ خلقكم وأنشأكم . ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾ أى يحرّكون رءوسهم استهزاء ؛ يقال :

نَغَضَ رأسُه يَنْغُض ويَنْغِض نَغْضاً ونُغوضا؛ أى تحرك . وأنغض رأسه أى حرّكه، كالمتعجب من الشيء؛ ومنه قوله تعالى : « فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ » .

قال الراجـــز :

* أنغض نحوى رأسه وأقنعا [1] *

ويقال أيضا : نغض فلان رأسه أى حرّكه؛ يتعـدّى ولا يتعدّى؛ حكاه الأخفش . ويقال : نَغَضت سِنّه ؛ أى تحركت وانقلعت .

قال الراجـــز :

* ونَغَضت من هَرَم أسنانها *

وقال آخـــر :

* لما رأتنى أنغضتْ لى الرأسا *

وقال آخـــر :

لا ماء فى المَقْراة إن لم تنهض * بمَسَـد فوق المَحَـالِ النُّغَّض

المحال والمحالة : البكرة العظيمة التى يستقى بهـا الإبل . ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ﴾ أى البعث والإعادة وهـذا الوقت . ﴿ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً ﴾ أى هو قريب؛ لأن عسى واجب؛ نظيره « وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً [2] » . و « لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ [3] » . وكل ما هو آت فهو قريب .

قوله تعـالى : يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ الدعاء : النداء إلى المحشر بكلام تسمعه الخلائق ، يدعوهم الله تعالى فيه بالخروج . وقيل : بالصيحة التى يسمعونها؛ فتكون داعية لهم إلى الاجتماع فى أرض القيامة . قال صلى الله عليه وسلم : " إنكم تُدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم " . ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ أى باستحقاقه الحمد على الإحياء .

---

(١) أقنع فلان رأسه ، وهو أن يرفع بصره ووجهه إلى ما حيال رأسه من السماء . (٢) آية ٦٣ سورة الأحزاب . (٣) آية ١٧ سورة الشورى .

وقال أبو سهل : أي والحمد لله ؛ كما قال :

فإني بحمد الله لا ثوب فاجر * لبستُ، ولا من غَدْرة أتقنّع

وقيل: حامدين لله تعالى بألسنتكم. قال سعيد بن جُبير: تخرج الكفار من قبورهم وهم يقولون سبحانك وبحمدك ؛ ولكن لا ينفعهم اعتراف ذلك اليوم . وقال ابن عباس : « بحمده » بأمره ؛ أي تقرّون بأنه خالقكم . وقال قتادة : بمعرفته وطاعته . وقيل : المعنى بقدرته . وقيل : بدعائه إياكم . قال علماؤنا : وهو الصحيح ؛ فإن النفخ في الصور إنما هو سبب لخروج أهل القبور؛ وبالحقيقة إنما هو خروج الخلق بدعوة الحق، قال الله تعالى : « يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ » فيقومون يقولون سبحانك اللهم وبحمدك . قال: فيوم القيامة يوم يُبدأ بالحمد ويُختم به ؛ قال الله تعالى «يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده » وقال في آخره « وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »[(1)]. «وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا» يعني بين النفختين؛ وذلك أن العذاب يُكفّ عن المعذَّبين بين النفختين، وذلك أربعون عاما فينامون؛ فذلك قوله تعالى : «مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا»[(2)] فيكون خاصا للكفار . وقال مجاهد : للكافرين هَجْعة قبل يوم القيامة يجدون فيها طعم النوم ؛ فإذا صِيح بأهل القبور قاموا مذعورين . وقال قتادة : المعنى أن الدنيا تحاقرت في أعينهم وقلّت حين رأوا يوم القيامة . الحسن : «وَتَظُنُّونَ إِن لبثتم إلا قليلا» في الدنيا لطول لبثكم في الآخرة .

قوله تعالى : وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ تقدّم إعرابه[(3)] . والآية نزلت في عمر بن الخطاب . وذلك أن رجلا من العرب شتمه ، وسبّه عمر وهمّ بقتله ، فكادت تثير فتنة فأنزل الله تعالى فيه : « وَقُلْ لِعِبَادِي يقولوا التي هي أحسن » ذكره الثعلبيّ والماورديّ.

(1) آية ٧٥ سورة الزمر . (2) آية ٥٢ سورة يس . (3) راجع جـ ٩ ص ٣٦٦ طبعة أولى أو ثانية .

وابن عطية والواحدى . وقيل : نزلت لما قال المسلمون : ايذن لنا يا رسول الله فى قتالهم فقد طال إيذاؤهم إيانا ، فقال : "لم أومر بعد بالقتال" فأنزل الله تعالى « وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن »؛ قاله الكلبي . وقيل : المعنى قل لعبادى الذين اعترفوا بأنى خالقهم وهم يعبدون الأصنام، يقولوا التى هى أحسن من كلمة التوحيد والإقرار بالنبوة . وقيل : المعنى وقل لعبادى المؤمنين إذا جادلوا الكفار فى التوحيد، أن يقولوا الكلمة التى هى أحسن . كما قال : « وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ »[1] . وقال الحسن : هو أن يقول للكافر إذا تشطط : هداك الله ! يرحمك الله! وهذا قبل أن أمروا بالجهاد ؛ وقيل : المعنى قل لهم يأمروا بما أمر الله به وينهوا عما نهى الله عنه؛ وعلى هذا تكون الآية عامة فى المؤمن والكافر، أى قل للجميع . والله أعلم . وقالت طائفة : أمر الله تعالى فى هذه الآية المؤمنين فيما بينهم خاصة، بحسن الأدب وإلانة القول، وخفض الجناح واطراح نزغات الشيطان؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : "وكونوا عباد الله إخوانا" . وهذا أحسن، وتكون الآية محكمة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ أى بالفساد وإلقاء العداوة والإغواء . وقد تقدم فى آخر الأعراف ويوسف[2] . يقال : نزغ بيننا أى أفسد؛ قاله اليزيدى . وقال غيره : النزغ الإغراء . ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ أى شديد العداوة . وقد تقدم فى البقرة[3] . وفى الخبر "أن قوما جلسوا يذكرون الله عز وجل فجاء الشيطان ليقطع مجلسهم فمنعته الملائكة فجاء إلى قوم جلسوا قريبا منهم لا يذكرون الله فحرش بينهم فتخاصموا وتواثبوا فقال هؤلاء الذاكرون قوموا بنا نصلح بين إخواننا فقاموا وقطعوا مجلسهم وفرح بذلك الشيطان" . فهذا من بعض عداوته .

---

(١) آية ١٠٨ سورة الأنعام . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٤٧ وجـ ٩ ص ١٩٧ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) راجع جـ ٢ ص ٢٠٩ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ هذا خطاب للمشركين ؛ والمعنى : إن يشأ يوفقكم للإسلام فيرحمكم ، أو يميتكم على الشرك فيعذبكم ؛ قاله ابن جريج . و « أعلم » بمعنى عليم ؛ نحو قولهم : الله أكبر ؛ بمعنى كبير . وقيل : الخطاب للمؤمنين ؛ أي إن يشأ يرحمكم بأن يحفظكم من كفار مكة ، أو إن يشأ يعذبكم بتسليطهم عليكم ؛ قاله الكلبي . ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ أي وما وكلناك في منعهم من الكفر ولا جعلنا إليك إيمانهم . وقيل : ما جعلناك كفيلا لهم تؤخذ بهم ؛ قاله الكلبي . وقال الشاعر :

ذكرت أبا أروى فبت كأنني ❊ برد الأمور الماضيات وكيل

أي كفيل .

قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أعاد بعد أن قال : « ربكم أعلم بكم » ليبين أنه خالقهم وأنه جعلهم مختلفين في أخلاقهم وصورهم وأحوالهم ومالهم ؛ « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ »[1] . وكذا النبيون فضل بعضهم على بعض عن علم منه بحالهم . وقد مضى القول في هذا في « البقرة »[2] . ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ الزبور : كتاب ليس فيه حلال ولا حرام ، ولا فرائض ولا حدود ؛ وإنما هو دعاء وتحميد وتمجيد . أي كما آتينا داود الزبور فلا تنكروا أن يؤتى محمد القرآن . وهو في محاجة اليهود .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾

---

(١) آية ١٤ سورة الملك . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢٦١ وما بعدها

قوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ لما ابتليت قريش بالقحط وشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل الله هذه الآية ؛ أي ادعوا الذين تعبدون من دون الله وزعمتم أنهم آلهة . وقال الحسن : يعني الملائكة وعيسى وعزيرا . ابن مسعود : يعني الجن . ﴿ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ ﴾ أي القحط سبع سنين، على قول مقاتل . ﴿ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ من الفقر إلى الغنى ومن السقم إلى الصحة .

قوله تعالى : أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ « أولئك » مبتدأ « الذين » صفة « أولئك » وضمير الصلة محذوف؛ أي يدعونهم . يعني أولئك المدعوون . و ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ خبر، أو يكون حالا ، و « الذين يدعون » خبر؛ أي يدعون إليه عبادا إلى عبادته . وقرأ ابن مسعود « تدعون » بالتاء على الخطاب . الباقون بالياء على الخبر . ولا خلاف في « يبتغون » أنه بالياء . وفي صحيح مسلم من كتاب التفسير عن عبدالله بن مسعود في قوله عز وجل : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة » قال : نفر من الجن أسلموا وكانوا يعبدون ، فبقي الذين كانوا يعبدون على عبادتهم وقد أسلم النفر من الجن . في رواية قال : نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفرا من الجن فأسلم الجنيون و[الإنس][1] الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون؛ فنزلت « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة » . وعنه أيضا أنهم الملائكة كانت تعبدهم قبائل من العرب؛ ذكره الماوردي . وقال ابن عباس ومجاهد : عُزير وعيسى . و « يبتغون » يطلبون من الله الزلفة والقربة، ويتضرعون إلى الله تعالى في طلب الجنة، وهي الوسيلة . أعلمهم الله تعالى أن المعبودين يبتغون القربة إلى ربهم . والهاء والميم في « ربهم » تعود على العابدين أو على المعبودين أو عليهم جميعا . وأما « يدعون » فعلى العابدين . « ويبتغون » على المعبودين . ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ ابتداء وخبر . ويجوز أن يكون « أيهم أقرب »

(١) زيادة عن صحيح مسلم .

بدلا من الضمير في « يبتغون » ؛ والمعنى يبتغي أيهم أقرب الوسيلة إلى الله . ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ أي مخوفا لا أمان لأحد منه ؛ فينبغي أن يُحذر منه ويُخاف . وقال سهل بن عبد الله : الرجاء والخوف زمانان على الإنسان ، فإذا استويا استقامت أحواله ، وإن رجح أحدهما بطل الآخر .

قوله تعالى : وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا ﴾ أي مخربوها . ﴿ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ قال مقاتل : أما الصالحة فبالموت ، وأما الطالحة فبالعذاب . وقال ابن مسعود : إذا ظهر الزنى والربا في قرية أذن الله في هلاكهم . وقيل . المعنى وإن من قرية ظالمة ؛ يقوي ذلك قوله : « وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ »[1] . أي فليتق المشركون ، فإنه ما من قرية كافرة إلا سيحل بها العذاب . ﴿ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ ﴾ أي في اللوح . ﴿ مَسْطُورًا ﴾ أي مكتوبا . والسطر : الخط والكتابة وهو في الأصل مصدر . والسَّطَر (بالتحريك) ، مثله . قال جرير :

من شاء بايعته مالي وخلعته . ما تكمل التيم في ديوانهم سطرا[2]

الخلعة (بضم الخاء) : خيار المال . والسطر جمع أسطار ؛ مثل سبب وأسباب ، ثم يجمع على أساطير . وجمع السطر أسطر وسطور ؛ مثل أفلس وفلوس . والكتاب هنا يراد به اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾

---

(١) آية ٥٩ سورة القصص . (٢) في ديوانه : « ما تكمل التيم ».

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ في الكلام حذف ، والتقدير : وما منعنا أن نرسل بالآيات التي اقترحوها إلا أن يكذبوا بها فيهلكوا كما فُعِلَ بمن كان قبلهم . قال معناه قتادة وابن جُرَيج وغيرهما . فأخر الله تعالى العذاب عن كفار قريش لعلمه أن فيهم من يؤمن وفيهم من يولد مؤمنا . وقد تقدّم في « الأنعام » وغيرها أنهم طلبوا أن يحوّل الله لهم الصَّفَا ذهبا وتتنحّى الجبال عنهم؛ فنزل جبريل وقال : " إن شئت كان ما سأل قومك ولكنهم إن لم يؤمنوا لم يمهلوا . وإن شئت استأنيت بهم " . فقال : " لا ، بل استأن بهم " . و « أن » الأولى في محل نصب بوقوع المنع عليهم ، و « أن » الثانية في محل رفع . والباء في « بالآيات » زائدة . ومجاز الكلام : وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين ، والله تعالى لا يكون ممنوعا عن شيء ؛ فالمعنى المبالغة في أنه لا يفعل ، فكأنه قد منع عنه . ثم بيّن ما فعل بمن سأل الآيات فلم يؤمن بها فقال : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ أي آية دالة مضيئة نيّرة على صدق صالح ، وعلى قدرة الله تعالى . وقد تقدّم ذلك (١) . ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ أي ظلموا بتكذيبها . وقيل : جحدوا بها وكفروا أنها من عند الله فاستأصلهم الله بالعذاب . ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ فيه خمسة أقوال : الأول — العبر والمعجزات التي جعلها الله على أيدي الرسل من دلائل الإنذار تخويفا للمكذّبين . الثاني — أنها آيات الانتقام تخويفا من المعاصي . الثالث — أنها تقلب الأحوال من صغر إلى شباب ثم إلى تكهّل ثم إلى مشيب ، لتعتبر بتقلب أحوالك فتخاف عاقبة أمرك ؛ وهذا قول أحمد بن حنبل رضي الله عنه . الرابع — القرآن . الخامس — الموت الذّريع (٢) ؛ قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٨ و جـ ٩ ص ٦٠ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) أي السريع الفاشي لا يكاد الناس يتدافنون .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ قال ابن عباس : الناس هنا أهل مكة ، و إحاطته بهم إهلاكه إياهم ؛ أى أن الله سيهلكهم . وذكره بلفظ الماضى لتحقق كونه . وعنى بهذا الإهلاك الموعود ما جرى يوم بدر و يوم الفتح . وقيل : معنى « أحاط بالناس » أى أحاطت قدرته بهم ، فهم فى قبضته لا يقدرون على الخروج من مشيئته ؛ قاله مجاهد وابن أبى نجيح . وقال الكلبى : المعنى أحاط علمه بالناس . وقيل : المراد عصمته من الناس أن يقتلوه حتى يبلّغ رسالة ربه ؛ أى وما أرسلناك عليهم حفيظا ، بل عليك التبليغ ، فبلغ بجدك فإنا نعصمك منهم ونحفظك ، فلا تهبهم ، وامض لما آمرك به من تبليغ الرسالة ، فقدرتنا محيطة بالكل ؛ قال معناه الحسن وعروة وقتادة وغيرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ لما بين أن إنزال آيات القرآن تتضمن التخويف ضمّ إليه ذكر آية الإسراء ، وهى المذكورة فى صدر السورة . وفى البخارى والترمذى عن ابن عباس فى قوله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس » قال : هى رؤيا عين أُريها النبى صلى الله عليه وسلم ليلة أُسرى به إلى بيت المقدس . قال : « وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ » هى شجرة الزقوم . قال أبو عيسى الترمذى : هذا حديث صحيح . وبقول ابن عباس قالت عائشة ومعاوية والحسن ومجاهد وقتادة وسعيد ابن جُبير والضحاك وابن أبى نجيح وابن زيد . وكانت الفتنة ارتدادَ قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبى صلى الله عليه وسلم أنه أُسرِىَ به . وقيل : كانت رؤيا نوم . وهذه الآية تقضى بفساده ، وذلك أن رؤيا المنام لا فتنة فيها ، وما كان أحد لينكرها . وعن ابن عباس قال : الرؤيا التى فى هذه الآية هى رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يدخل مكة فى سنة الحُدَيْبِيَة ؛ فَرُدّ فافتتن المسلمون لذلك ، فنزلت الآية ، فلما كان العام المقبل دخلها ، وأنزل الله تعالى « لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ »[1] . وفى هذا التأويل ضعف ؛ لأن السورة مكية وتلك الرؤيا كانت بالمدينة . وقال فى رواية ثالثة : إنه عليه السلام رأى فى المنام بنى مروان ينزون

---

(١) آية ٢٧ سورة الفتح .

على منبره نزو القردة، فساءه ذلك فقيل: إنما هى الدنيا أعطوها، فسُرِّىَ عنه، وما كان له بمكة منبر ولكنه يجوز أن يرى بمكة رؤيا المنبر بالمدينة. وهذا التأويل الثالث قاله أيضا سهل ابن سعد رضى الله عنه. قال سهل: إنما هذه الرؤيا هى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى بنى أمية ينزون على منبره نزو القردة، فاغتم لذلك، وما استجمع ضاحكا من يومئذ حتى مات صلى الله عليه وسلم. فنزلت الآية مخبرة أن ذلك من تملكهم وصعودهم يجعلها الله فتنة للناس وامتحانا. وقرأ الحسن بن علىّ فى خطبته فى شأن بيعته لمعاوية: «وإنْ أَدْرى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لكم ومَتَاعٌ إلى حين»[1]. قال ابن عطية: وفى هذا التأويل نظر، ولا يدخل فى هذه الرؤيا عثمان ولا عمر بن عبد العزيز ولا معاوية.

قوله تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ فيه تقديم وتأخير؛ أى ما جعلنا الرؤيا التى أريناك والشجرة الملعونة فى القرآن إلا فتنة للناس. وفتنتها أنهم لما خُوِّفوا بها قال أبو جهل استهزاء: هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة، ثم يزعم أنها تنبت الشجر والنارُ تأكل الشجر، وما نعرف الزقوم إلا التمر والزبد، ثم أمر أبو جهل جارية فأحضرت تمرا وزبدا وقال لأصحابه: تزقموا. وقد قيل: إن القائل ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد ابن الزِّبَعْرى حيث قال: كثّر الله من الزقوم فى داركم؛ فإنه التمر بالزبد بلغة اليمن. وجائز أن يقول كلاهما ذلك. فافتتن أيضا لهذه المقالة بعض الضعفاء، فأخبر الله تعالى نبيّه عليه السلام أنه إنما جعل الإسراء وذكر شجرة الزقوم فتنة واختبارا ليكفر من سبق عليه الكفر ويصدّق من سبق له الإيمان. كما روى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قيل له صبيحة الإسراء: إن صاحبك يزعم أنه جاء البارحة من بيت المقدس! فقال: إن كان قال ذلك فلقد صدق. فقيل له: أتصدقه قبل أن تسمع منه؟ فقال: أين عقولكم؟ أنا أصدقه بخبر السماء، فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس، والسماء أبعد منها بكثير.

---

(١) آية ١١١ سورة الأنبياء.

قلت : ذكر هذا الخبر ابن إسحاق ، ونصه : « قال كان من الحديث فيما بلغني عن مسراه صلى الله عليه وسلم عن عبد الله بن مسعود وأبي سعيد الخُدْرِيّ وعائشة ومعاوية بن أبي سفيان والحسن بن أبي الحسن وابن شهاب الزُّهْرِيّ وقتادة وغيرهم من أهل العلم وأم هانئ بنت أبي طالب، ما اجتمع في هذا الحديث ، كُلٌّ يحدّث عنه بعض ما ذكر من أمره حين أسري به صلى الله عليه وسلم، وكان في مسراه وما ذكر عنه بلاء وتمحيص وأمر من أمر الله عز وجل في قدرته وسلطانه فيه عبرة لأولي الألباب، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن وصدّق وكان من أمر الله تعالى على يقين ؛ فأسري به صلى الله عليه وسلم كيف شاء وكما شاء ليُرِيَه من آياته ما أراد، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم، وقدرته التي يصنع بها ما يريد . وكان عبد الله بن مسعود فيما بلغني عنه يقول : أُتِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبراق — وهي الدابة التي كانت تُحمل عليها الأنبياء قبله تضع حافرها في منتهى طرفها — فحمل عليها ؛ ثم خرج به صاحبه يُرى الآيات فيما بين السماء والأرض، حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء قد جُمعوا له فصلّى بهم ثم أُتِيَ بثلاثة آنية : إناء فيه لبن و إناء فيه خمر، و إناء فيه ماء . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فسمعت قائلا يقول حين عُرِضتْ عليّ : إن أخذ الماء فغَرِق وغَرِقت أمته و إن أخذ الخمر فغَوِيَ وغَوَتْ أمته و إن أخذ اللبن فهُدِيَ وهُدِيَتْ أمته قال فأخذت إناء اللبن فشربت فقال لي جبريل هُدِيتَ وهُدِيَتْ أمتك يا محمد" .

قال ابن إسحاق : وحدّثت عن الحسن أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بينما أنا نائم في الحِجْر جاءني جبريل عليه السلام فهمزني بقدمه فجلست فلم أر شيئا ثم عُدت لمضجعي فجاءني الثانية فهمزني بقدمه فجلست فلم أر شيئا فعدت لمضجعي فجاءني الثالثة فهمزني بقدمه فجلست فأخذ بعضدي فقمت معه فخرج إلى باب المسجد فإذا دابة أبيض بين البغل والحمار في فخذيه جناحان يَحفِز بهما رجليه يضع حافره في منتهى طَرْفه فحملني عليه ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفوته " .

قال ابن إسحاق : وحُدِّثت عن قتادة أنه قال : حُدِّثت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لما دنوت منه لأركبه شَمَس[1] فوضع جبريل يده على معرفته ثم قال ألا تستحى يا بُراق مما تصنع فوالله ما ركبك عبدٌ لله قبل محمد أكرم عليه منه قال فاستحيا حتى ارفضّ عرقًا ثم قرّ حتى ركبته "

قال الحسن فى حديثه : فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومضى معه [جبريل] حتى انتهى إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى فى نفر من الأنبياء ، فأمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلّى بهم ثم أُتِىَ بإناءين : فى أحدهما خمر وفى الآخر لبن ؛ قال : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إناء اللبن فشرب منه وترك إناء الخمر . قال : فقال له جبريل : هُديت الفطرة وهُديت أمتك وحُرّمت عليكم الخمر . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، فلما أصبح غدا على قريش فأخبرهم الخبر ، فقال أكثر الناس : هذا والله الأمر البيِّن ! والله إن العير لتطرد شهرا من مكة إلى الشام ، مدبرة شهرا ومقبلة شهرا ، فيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ! قال : فارتد كثير ممن كان أسلم ، وذهب الناس إلى أبى بكر فقالوا : هل لك يا أبا بكر فى صاحبك ؟ يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس ، وصلّى فيه ورجع إلى مكة . قال فقال لهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه : إنكم تكذبون عليه . فقالوا : بلى ، ها هو ذا فى المسجد يحدّث به الناس . فقال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدّقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه . ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبىّ الله ، أحدّثت هؤلاء أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال " نعم " قال : يا نبىّ الله ، فصفه لى فإنى قد جئته ؟ فقال الحسن : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رفع لى حتى نظرت إليه " فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفه لأبى بكر ويقول أبو بكر رضى الله عنه : صدقت ، أشهد أنك رسول الله . كلما

(١) شمست الدابة والفرس تشمس : شردت وجمحت ومنعت ظهرها .

وصف له منه شيئا قال : صدقت ، أشهد أنك رسول الله . قال : حتى إذا انتهى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر رضى الله عنه : " وأنت يا أبا بكر الصدّيق " فيومئذ سماه الصدّيق . قال الحسن : وأنزل الله تعالى فيمن ارتد عن الإسلام لذلك : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس والشجرةَ الملعونةَ فى القرآن ونخوّفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا » . فهذا حديث الحسن عن مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما دخل فيه من حديث قتادة . وذكر باقى الإسراء عمن تقدّم فى السيرة . وقال ابن عباس : هذه الشجرة بنو أميّة ، وأن النبىّ صلى الله عليه وسلم نفى الحَكَم . وهذا قول ضعيف محدَث والسورة مكية ، فيبعد هذا التأويل ؛ إلا أن تكون هذه الآية مدنية ، ولم يثبت ذلك . وقد قالت عائشة لمروان : لعن الله أباك وأنت فى صلبه فأنت بعض من لعنة الله[1] . ثم قالت : « والشجرةَ الملعونة فى القرآن » ولم يجر فى القرآن لعن هذه الشجرة ، ولكن الله لعن الكفار وهم آكلوها . والمعنى : والشجرة الملعونة فى القرآن آكلوها . ويمكن أن يكون هذا على قول العرب لكل طعام مكروه ضار : ملعون . وقال ابن عباس : الشجرة الملعونة هى هذه الشجرة التى تلتوى على الشجر فتقتله ، يعنى الكَشُوث . ﴿ ونخوّفهم ﴾ أى بالزقوم . ﴿ فما يزيدهم ﴾ التخويف إلا الكفر .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ تقدّم ذكر كون الشيطان عدوّ الإنسان ، فانجر الكلام إلى ذكر آدم . والمعنى : اذكر بتمادى هؤلاء المشركين وعتوهم على ربهم قصة إبليس حين عصى ربه وأبى السجود ، وقال ما قال ، وهو ما أخبر الله تعالى فى قوله تعالى :

(١) هذه عبارة الفخر الرازى . والذى فى الأصول : « فأنت فظظ من لعنة الله » . والفظظ : القصير الجعد من الشعر ، وشعر الزنجى .

﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ أى من طين . وهذا استفهام إنكار . وقد تقدم القول فى خلق آدم فى « البقرة » والأنعام » مستوفًى . ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ ﴾ أى قال إبليس . والكاف توكيد للمخاطبة . ﴿ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ أى فضلته علىّ . ورأى جوهر النار خيرا من جوهر الطين ولم يعلم أن الجواهر متماثلة . وقد تقدم هذا فى الأعراف . و « هذا » نصب بأرأيت . « الذى » نعته . والإكرام : اسم جامع لكل ما يحمد . وفى الكلام حذف تقديره : أخبرنى عن هذا الذى فضلته علىّ ، لم فضلته وقد خلقتنى من نار وخلقته من طين؟ فحذف لعلم السامع . وقيل : لا حاجة إلى تقدير الحذف ؛ أى أترى هذا الذى كرمته علىّ لأفعلن به كذا وكذا . ومعنى ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ﴾ فى قول ابن عباس : لأستولين عليهم ، وقاله الفراء . مجاهد : لأحتوينهم . ابن زيد : لأضلنهم . والمعنى متقارب ؛ أى لأستأصلن ذريته بالإغواء والإضلال ، ولأجتاحنهم . وروى عن العرب : احتنك الجراد الزرع إذا ذهب به كله . وقيل : معناه لأسوقنهم حيث شئت وأقودنهم حيث أردت . من قولهم : حنكت الفرس أحنكه وأحنُكه حنكا إذا جعلت فى فيه الرسن . وكذلك احتنكه . والقول الأول قريب من هذا ؛ لأنه إنما يأتى على الزرع بالحنك . وقال الشاعر :

أشكو إليك سنة قد أجحفت * جهدا إلى جهد بنا وأضعفت
* واحتنكت أموالنا واجتلفت[2] *

﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ يعنى المعصومين ، وهم الذين ذكرهم الله فى قوله : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » وإنما قال إبليس ذلك ظنا ؛ كما قال الله تعالى : « وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ[3] » أو علم من طبع البشر تركب الشهوة فيهم ، أو بنى على قول الملائكة : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا[4] » . وقال الحسن : ظن ذلك لأنه وسوس إلى آدم عليه السلام فلم يجد له عزما .

قوله تعالى : قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (٦٣)

(١) راجع جـ ١ ص ٢٧٩ طبعة ثانية أو ثالثة . وجـ ٧ ص ١٦٨ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) أى أذهبت . (٣) آية ٢٠ سورة سبأ . (٤) آية ٣٠ سورة البقرة .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ اذْهَبْ ﴾ هذا أمر إهانة ؛ أى اجهد جهدك فقد أنظرناك . ﴿ فَمَن تَبِعَكَ ﴾ أى أطاعك من ذرية آدم . ﴿ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾ أى وافرا ؛ عن مجاهد وغيره . وهو نصب على المصدر ؛ يقال : وفرته أفره وفرا ، ووفر المال بنفسه يفر وفورا فهو وافر؛ فهو لازم ومتعد .

قوله تعالى : وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾

فيه ست مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَفْزِزْ ﴾ أى استزل واستخف؛ وأصله القطع؛ ومنه تفزز الثوب[1] إذا انقطع . والمعنى استزله بقطعك إياه عن الحق . واستفزه الخوف أى استخفه . وقعد مستوفزا أى غير مطمئن . « واستفزز » أمر تعجيز؛ أى أنت لا تقدر على إضلال أحد، وليس لك على أحد سلطان فافعل ما شئت .

الثانية ـ قوله تعالى : ﴿ بِصَوْتِكَ ﴾ وصوته كل داع يدعو إلى معصية الله تعالى ؛ عن ابن عباس . مجاهد : الغناء والمزامير واللهو . الضحاك : صوت المزمار . وكان آدم عليه السلام أسكن أولاد هابيل أعلى الجبل، وولد قابيل أسفله، وفيهم بنات حسان، فزمر اللعين فلم يتمالكوا أن انحدروا فزنوا؛ ذكره الغزنوى . وقيل : «بصوتك» بوسوستك .

الثالثة ـ قوله تعالى : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ أصل الإجلاب السوق بجلبة من السائق؛ يقال : أجلب إجلابا . والجلب والجلبة : الأصوات؛ تقول منه : جلبوا بالتشديد . وجلب الشيء يجلبه ويجلبه جلبا وجلبا . وجلبت الشي إلى نفسي واجتلبته بمعنى . وأجلب على العدو إجلابا؛ أى جمع عليهم . فالمعنى أجمع عليهم كلما تقدر عليه من مكايدك .

(١) لم نجد فى كتب اللغة « تفزز الثوب » بزايين بهذا المعنى، وإنما هو « تفزر » بزاى ثم راء . فليلاحظ .

وقال أكثر المفسرين : يريد كل راكب وماش فى معصية الله تعالى. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : إن له خيلا ورجلا من الجن والإنس ؛ فما كان من راكب وماش يقاتل فى معصية الله فهو من خيل إبليس ورجّالته . وروى سعيد بن جبير ومجاهد عن ابن عباس قال : كل خيل سارت فى معصية الله ، وكل رجل مَشَتْ فى معصية الله ، وكلّ مال أصيب من حرام ، وكلّ ولد بَغِيَّة فهو للشيطان . والرَّجْل جمع راجل ؛ مثل صَحْب وصاحب . وقرأ حفص « ورَجِلك » بكسر الجيم وهما لغتان ؛ يقال : رَجْل ورَجِل بمعنى راجل . وقرأ عكرمة وقتادة « ورجالك » على الجمع .

الرابعــة — ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ أى اجعل لنفسك شركة فى ذلك . فشركته فى الأموال إنفاقها فى معصية الله ؛ قاله الحسن . وقيل : هى التى أصابوها من غير حلّها ؛ قاله مجاهد . ابن عباس : ما كانوا يحرّمونه من البَحِيرة والسائبة والوَصِيلة والحام . وقاله قتادة . الضحاك : ما كانوا يذبحونه لآلهتهم . والأولاد قيل : هم أولاد الزنى ؛ قاله مجاهد والضحاك وعبد الله بن عباس . وعنه أيضا هو ما قتلوا من أولادهم وأتوا فيهم من الجرائم . وعنه أيضا : هو تسميتهم عبد الحارث وعبد العُزّى وعبد اللاّت وعبد الشمس ونحوه . وقيل : هو صِبغة أولادهم فى الكفر حتى هوّدوهم ونصّروهم ؛ كصنع النصارى بأولادهم بالغمس فى الماء الذى لهم ؛ قاله قتادة . وقول خامس — روى عن مجاهد قال : إذا جامع الرجل ولم يُسَمِّ انطوى الجانّ على إحْليله فجامع معه ؛ فذلك قوله تعالى : « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ »[1] وسيأتى . وروى من حديث عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن فيكم مُغَرَّبين " قلت : يارسول الله، وما المغربون؟ قال : " الذين يشترك فيهم الجن " . رواه الترمذى الحكيم فى (نوادر الأصول) . قال الهَرَوِىّ : سموا مغرّبين لأنه دخل فيهم عرق غريب . قال الترمذى الحكيم : فالجن مساماة[2] بابن آدم فى الأمور والاختلاط ؛ فنهم من يتزوّج فيهم ، وكانت بِلْقِيس ملكة سَبَأ أحد أبويها من الجن . وسيأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

(١) آية ٥٦ ، ٧٤ سورة الرحمن . (٢) المساماة : المباراة .

الخامسة ـ قوله تعالى : ﴿ وَعِدْهُمْ ﴾ أي مَنِّهم الأماني الكاذبة ، وأنه لا قيامة ولا حساب ، وأنه إن كان حساب وجنة ونار فأنتم أولى بالجنة من غيركم . يقويه قوله تعالى : « يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا »(١) أي باطلا . وقيل « وَعِدْهُمْ » أي عِدهم النُّصرة على من أرادهم بسوء . وهذا الأمر للشيطان تهدّد ووعيد له . وقيل : استخفاف به وبمن اتبعه .

السادسة ـ في الآية ما يدل على تحريم المزامير والغناء واللهو ؛ لقوله : « وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ » على قول مجاهد . وما كان من صوت الشيطان أو فعله وما يستحسنه فواجب التنزه عنه . وروى نافع عن ابن عمر أنه سمع صوت زمّارة فوضع أصبعيه في أذنيه ، وعدل راحلته عن الطريق وهو يقول : يانافع ! أتسمع؟ فأقول نعم ؛ فمضى حتى قلت له لا ، فوضع يديه وأعاد راحلته إلى الطريق وقال : رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع [صوت] زمّارة راع فصنع مثل هذا . قال علماؤنا : إذا كان هذا فعلهم في حق صوت لا يخرج عن الاعتدال ، فكيف بغناء أهل هذا الزمان وزمرهم . وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة «لقمان» إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ قال ابن عباس : هم المؤمنون . وقد تقدّم الكلام فيه(٢) . ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ أي عاصما من القبول من إبليس ، وحافظا من كيده وسوء مكره .

قوله تعالى : رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾

---

(١) آية ١٢٠ سورة النساء . (٢) راجع ص ٢٨ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ ﴾ الإزجاء : السوق ؛ ومنه قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً » [1] . وقال الشاعر [2] :

يأيها الراكب المُزْجِي مطيّته * سائلْ بنى أسَد ما هذه الصَّوْتُ

وإزجاء الفلك : سوقه بالريح اللينة . والفلك هنا جمع ، وقد تقدّم [3] . والبحر الماء الكثير عذبا كان أو ملحا ، وقد غلب هذا الاسم على الملح . وهذه الآية توقيف على آلاء الله وفضله عند عباده ؛ أى ربكم الذى أنعم عليكم بكذا وكذا فلا تشركوا به شيئا . ﴿ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى فى التجارات . وقد تقدّم [4] . ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾ .

قوله تعالى : وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُوراً ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ﴾ «الضر» لفظ يعم خوف الغرق والإمساك عن الجرى . وأهوال حالاته اضطرابه وتموّجه . ﴿ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ «ضل» معناه تَلِف وفُقِد ؛ وهى عبارة تحقير لمن يدعى إلها من دون الله . والمعنى فى هذه الآية : أن الكفار إنما يعتقدون فى أصنامهم أنها شافعة ، وأن لها فضلا ؛ وكلّ واحد منهم بالفطرة يعلم علما لا يقدر على مدافعته أن الأصنام لا فعل لها فى الشدائد العظام ، فوقّفهم الله من ذلك على حالة البحر حيث تنقطع الحيل . ﴿ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ أى عن الإخلاص . ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً ﴾ الإنسان هنا الكافر . وقيل : وطبع الإنسان كفورا للنعم إلا من عصمه الله ؛ فالإنسان لفظ الجنس

قوله تعالى : أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً ﴿٦٨﴾

---

(١) آية ٤٣ سورة النور . (٢) هو رويشد بن كثير الطائى ؛ كما فى اللسان . (٣) راجع ج ٢ ص ١٩٤ طبعة ثانية . (٤) راجع ج ٢ ص ٤١٣ طبعة ثانية .

قوله تعالى : « ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ﴾ بين أنه قادر على هلاكهم فى البر وإن سلموا من البحر . والخسف : أن تنهار الأرض بالشىء؛ يقال : بئر خسيف إذا انهدم أصلها . وعين خاسف أى غارت حدقتها فى الرأس . وعين من الماء خاسفة أى غار ماؤها . وخسفت الشمس أى غابت عن الأرض . وقال أبو عمرو : والخسيف البئر التى تحفر فى الحجارة فلا ينقطع ماؤها كثرةً . والجمع خُسُف . وجانب البر : ناحية الأرض؛ وسماه جانبا لأنه يصير بعد الخسف جانبا . وأيضا فإن البحر جانب والبرّ جانب . وقيل : إنهم كانوا على ساحل البحر، وساحله جانب البر، وكانوا فيه آمنين من أهوال البحر، فحذّرهم ما أمنوه من البر كما حذرهم ما خافوه من البحر . ﴿ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ يعنى ريحا شديدة ، وهى التى ترمى بالحصباء، وهى الحصى الصغار؛ قاله أبو عبيدة والقتبى . وقال قتادة : يعنى حجارة من السماء تحصبهم ، كما فعل بقوم لوط . ويقال للسحابة التى ترمى بالبَرَد: حاصب، وللريح التى تحمل التراب والحصباء حاصب وحصبة أيضا . قال لبيد :

جرّت عليها أن خوت من أهلها . أذيالها كلّ عَصُوف حَصِبة

وقال الفرزدق :

مستقبلين شمال الشام يضربنا . بحاصب كنديف القطن منثور

﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ أى حافظا ونصيرا يمنعكم من بأس الله .

قوله تعالى : أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ يعنى فى البحر . ﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ ﴾ القاصف : الريح الشديدة التى تكسر بشدة ؛ من قصف الشىء يقصفه؛ أى كسره بشدة . والقصف : الكسر؛ يقال : قصفت الريح السفينة . وريح قاصف ،

شديدة . ورعد قاصف : شديد الصوت . يقال : قَصَف الرعدُ وغيره قصيفا . والقَصِيف : هشيم الشجر . والتقصّف التكسر . والقصف أيضا : اللهو واللعب، يقال : إنها مُوَلَّدة . ﴿ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ أى بكفركم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « نَخْسِفَ بكم » « أو نُرْسِل عليكم » « أن نُعيدكم » « فنُرْسل عليكم » « فنُغرقكم » بالنون فى الخمسة على التعظيم ، ولقوله : « علينا » الباقون بالياء ؛ لقوله فى الآية قبل : « إياه » . وقرأ أبو جعفر وشيبة ورُوَيْس ومجاهد « فتغرقكم » بالتاء نعتا للريح . وعن الحسن وقتادة « فيغرّقكم » بالياء مع التشديد فى الراء . وقرأ أبو جعفر « الرياح » هنا وفى كل القرآن . وقيل : إن القاصف المهلكةُ فى البر، والعاصفَ المغرقةُ فى البحر ؛ حكاه الماوردىّ . وقوله : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ قال مجاهد : ثائرا . النحاس : وهو من الثأر . وكذلك يقال لكل من طلب بثأر أو غيره : تبيع وتابع ؛ ومنه « فاتّباع بالمعروف »(1) أى مطالبة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (٧٠)

فيه ثلاث مسائل(2) :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ الآية . لما ذكر من الترهيب ما ذكر بين النعمة عليهم أيضا . « كرمنا » تضعيف كرم ؛ أى جعلنا لهم كرما أى شرفا وفضلا . وهذا هو كرم نفى النقصان لا كرم المال . وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة فى امتداد القامة وحسن الصورة ، وحملهم فى البر والبحر مما لا يصح لحيوان سوى بنى آدم أن يكون يتحمل بإرادته وقصده وتدبيره . وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس ، وهذا لا يتسع فيه حيوان اتساع بنى آدم ؛ لأنهم يكسبون المال خاصة دون الحيوان ، ويلبسون الثياب ويأكلون المركّبات من الأطعمة . وغاية كلّ حيوان يأكل لحما نيئا أو طعاما غير

(1) آية ١٧٨ سورة البقرة . (2) يلاحظ أن المسائل أربع .

مثلك . وحكى الطبريّ عن جماعة أن التفضيل هو أن يأكل بيـده وسائر الحيوان بالفم . ورُوِي عن ابن عباس ؛ ذكره المهـدويّ والنحاس ؛ وهو قول الكلبيّ ومقاتل ؛ ذكره الماوردِيّ . وقال الضحاك : كرّمهـم بالنطق والتمييز . عطاء : كرّمهم بتـعديل القامة وامتدادها . يمان : بحسن الصورة . محمد بن كعب : بأن جعل محمدا صلّى الله عليه وسلم منهم . وقيل أكرم الرجال باللِّحَى والنساء بالذوائب . وقال محمد بن جرير الطبريّ : بتسليطهم على سائر الخلق ، وتسخير سائر الخلق لهم . وقيل : بالكلام والخط . وقيل : بالفهم والتمييز . والصحيح الذي يعوّل عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف ، وبه يُعرف الله ويُفهم كلامه ، ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله ؛ إلا أنه لمـا لم ينهض بكل المراد من العبد بُعثت الرسل وأنزلت الكتب . فمثال الشرع الشمس ، ومثال العقل العين ، فإذا فتحت وكانت سليمة رأت الشمس وأدركت تفاصيل الأشياء . وما تقدم من الأقوال بعضـه أقوى من بعض . وقد جعل الله في بعض الحيوان خصالا يفضل بهـا ابن آدم أيضا ؛ كجرى الفرس وسمعه وإبصاره ؛ وقوة الفيل وشجاعة الأسد وكرم الديك . وإنما التكريم والتفضيل بالعقل كما بيناه . والله أعلم .

الثانيـــة ـ قالت فرقة : هـذه الآية تقتضي تفضيل الملائكة على الإنس والجن من حيث إنهم المستثنون في قوله تعالى : « وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ »[1] . وهذا غير لازم من الآية ، بل التفضيل فيها بين الإنس والجن ؛ فإن هذه الآية إنما عدد الله فيها على بني آدم ما خصهم به من سائر الحيوان ، والجن هو الكثير المفضول ، والملائكة هم الخارجون عن الكثير المفضول ، ولم تتعرض الآية لذكرهم ، بل يحتمل أن الملائكة أفضـل ، ويحتمل العكس ، ويحتمل التساوي ، وعلى الجملة فالكلام لا ينتهي في هـذه المسألة إلى القطع . وقد تحاشى قوم من الكلام في هـذا كما تحاشوا من الكلام في تفضيل بعض الأنبياء على بعض ؛ إذ في الخبر " لا تُخايروا بين الأنبياء ولا تفضـلوني على يونس بن متّى " . وهـذا ليس بشيء ؛ لوجود

(١) آية ١٧١ سورة النساء .

النص في القرآن في التفضيل بين الأنبياء . وقد بيناه في « البقرة »[1] ومعنى لهذا الكلام في تفضيل الملائكة والمؤمن[2] .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ يعني لذيذ المطاعم والمشارب . قال مقاتل : السمن والعسل والزبد والتمر والحلوى ، وجعل رزق غيرهم ما لا يخفى عليكم من التبن والعظام وغيرها . ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ أي على البهائم والدواب والوحش والطير بالغلبة والاستيلاء، والثواب والجزاء والحفظ والتمييز وإصابة الفراسة .

الرابعة — هذه الآية ترد ما روى عن عائشة رضى الله عنها، قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إخرموا أنفسكم طيب الطعام فإنما قوى الشيطان أن يجرى في العروق منها" . وبه يستدل كثير من الصوفية في ترك أكل الطيبات، ولا أصل له ؛ لأن القرآن يرده، والسنة الثابتة بخلافه، على ما تقرر في غير موضع . وقد حكى أبو حامد الطوسي قال : كان سهل يقتات ورق النبق مدة، وأكل دقاق ورق التين ثلاث سنين . وذكر إبراهيم بن البنا قال : صحبت ذا النون من إخميم إلى الإسكندرية ، فلما كان وقت إفطاره أخرجت قرصا وملحا كان معي، وقلت : هلم . فقال لي : ملحك مدقوق ؟ قلت نعم . قال : لست تفلح! فنظرت إلى مزوده وإذا فيه قليل سويق شعير يسف منه . وقال أبو يزيد : ما أكلت شيئا مما يأكله بنو آدم أربعين سنة . قال علماؤنا : وهذا مما لا يجوز حمل النفس عليه؛ لأن الله تعالى أكرم الآدمي بالحنطة وجعل قشورها لبهائمهم ، فلا يصح مزاحمة الدواب في أكل التبن، وأما سويق الشعير فإنه يورث القولنج[3]، وإذا اقتصر الإنسان على خبز الشعير والملح الجريش فإنه ينحرف مزاجه ؛ لأن خبز الشعير بارد مجفف، والملح يابس قابض يضر الدماغ والبصر . وإذا مالت النفس إلى ما يصلحها فمنعت فقد قووت حكمة الباري سبحانه بردها ، ثم يؤثر ذلك في البدن، فكان هذا الفعل مخالفا للشرع والعقل . ومعلوم أن البدن

---

(١) راجع ج ٣ ص ٢٦١ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ١ ص ٢٨٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٣) القولنج : مرض معوي مؤلم يعسر معه خروج الثفل والريح . معرب .

مطية الآدمى؟ ومتى لم يُرفق بالمطية لم تُبلّغ. وروى عن إبراهيم بن أدهم أنه اشترى زبدا وعسلا وخبز حُوّارى، فقيل له : هذا كله؟ فقال : إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال، وإذا عدمنا صبرنا صبر الرجال. وكان الثورى يأكل اللحم والعنب والفالوذج[1] ثم يقوم إلى الصلاة. ومثل هذا عن السلف كثير. وقد تقدم منه ما يكفى فى المائدة[2] والأعراف[3] وغيرهما. والأول غلوّ فى الدين إن صح عنهم «ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم»[4].

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (٧١)

قوله تعالى : ﴿ يوم ندعوا كل أناس بإمامهم ﴾ روى الترمذى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : «يوم ندعوا كل أناس بإمامهم» قال : "يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه، ويُمدّ له فى جسمه ستون ذراعا، ويُبيّض وجهه ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون اللهم ائتنا بهذا وبارك لنا فى هذا حتى يأتيهم فيقول أبشروا لكل منكم مثلُ هذا — قال — وأما الكافر فيُسوّد وجهه ويُمدّ له فى جسمه ستون ذراعا على صورة آدم ويلبس تاجا فيراه أصحابه فيقولون نعوذ بالله من شر هذا ! اللهم لا تأتنا بهذا . قال : فيأتيهم فيقولون اللهم أخزه . فيقول أبعدكم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا". قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب. ونظير هذا قوله : «وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون»[5]. والكتاب يسمى إماما؛ لأنه يُرجع إليه فى تعرف أعمالهم. وقال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك : «بإمامهم» أى بكتابهم، أى بكتاب كل إنسان منهم الذى فيه عمله؛ دليله «فمن أوتى كتابه بيمينه». وقال ابن زيد : بالكتاب المنزّل عليهم. أى يدعى كل إنسان

---

(١) الفالوذج : حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل . وفيه لغات (عن الألفاظ الفارسية) .

(٢) راجع ج ٦ ص ٢٦٠ . (٣) راجع ج ٧ ص ١٩٥ طبعة أولى أو ثانية .

(٤) آية ٢٧ سورة الحديد . (٥) آية ٢٨ سورة الجاثية .

بكتابه الذى كان يتلوه ؛ فيدعى أهل التوراة بالتوراة ، وأهل القرآن بالقرآن ؛ فيقال : يأهل القرآن، ماذا عملتم ، هل امتثلتم أوامره هل اجتنبتم نواهيه ! وهكذا . وقال مجاهد : «بإمامهم» بنبيهم ، والإمام من يؤتم به . فيقال : هاتوا متبعى إبراهيم عليه السلام، هاتوا متبعى موسى عليه السلام، هاتوا متبعى الشيطان، هاتوا متبعى الأصنام . فيقوم أهل الحق فيأخذون كتابهم بأيمانهم، ويقوم أهل الباطل فيأخذون كتابهم بشمالهم . وقاله قتادة . وقال علىّ رضى الله عنه : بإمام عصرهم . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى قوله : «يوم ندعو كلّ أناس بإمامهم» قال : " كلّ يدعى بإمام زمانهم وكتاب ربهم وسنّة نبيّهم فيقول هاتوا متبعى إبراهيم هاتوا متبعى موسى هاتوا متبعى عيسى هاتوا متبعى محمدا — عليهم أفضل الصلوات والسلام — فيقوم أهل الحق فيأخذون كتابهم بأيمانهم ويقول هاتوا متبعى الشيطان هاتوا متبعى رؤساء الضلالة إمامَ هدًى وإمامَ ضلالة " . وقال الحسن وأبو العالية : «بإمامهم» أى بأعمالهم . وقاله ابن عباس . فيقال : أين الراضون بالمقدور، أين الصابرون عن المحذور . وقيل : بمذاهبهم؛ فيُدعَون بمن كانوا يأتمون به فى الدنيا : ياحنفىّ ، ياشافعىّ ، يامعتزلىّ ، ياقدرىّ ، ونحوه؛ فيتبعونه فى خير أو شر أو على حق أو باطل ، وهذا معنى قول أبى عبيدة . وقد تقدّم . وقال أبو هريرة : يدعى أهل الصدقة من باب الصدقة ، وأهل الجهاد من باب الجهاد ... ، الحديث بطوله . أبو سهل : يقال أين فلان المصلّى والصوّام، وعكسه الدفّاف[(1)] والنمام . وقال محمد بن كعب : « بإمامهم » بأمهاتهم . وإمام جمع آمّ . قالت الحكماء : وفى ذلك ثلاثة أوجه من الحكمة؛ أحدها — لأجل عيسى . والثانى — إظهار لشرف الحسن والحسين . والثالث — لئلا يفتضح أولاد الزنى .

قلت : وفى هذا القول نظر ؛ فإن فى الحديث الصحيح عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا جمع الله الأوّلين والآخرين يوم القيامة يُرفع لكل غادر لواء فيقال هذه غَدْرة فلان بن فلان " خرّجه مسلم والبخارى . فقوله : " هذه غَدْرة فلان بن فلان "

---

(1) الدفاف : الضارب بالدف . وفى الأصول : « الزفاف » بالزاى المعجمة .

دليلٌ على أن الناس يُدْعَوْن فى الآخرة بأسمائهم وأسماء آبائهم ؛ وهذا يردّ على من قال ؛ إنما يُدْعَوْن بأسماء أمهاتهم لأن فى ذلك سترًا على آبائهم . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ هذا يقوِّى قول من قال : « بإمامهم » بكتابهم . ويقوّيه أيضا قوله : « وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ » (١) . ﴿ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ الفتيل الذى فى شقّ النواة . وقد مضى فى « النساء » (٢) .

قوله تعالى : وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ ﴾ أى فى الدنيا عن الاعتبار وإبصار الحق . ﴿ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ ﴾ أى فى أمر الآخرة ﴿ أَعْمَىٰ ﴾ . وقال عكرمة : جاء نفر من أهل اليمن إلى ابن عباس فسألوه عن هذه الآية فقال : اقرءوا ما قبلها « رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ ــ إلى ــ تفضيلا » (٣) . قال ابن عباس : من كان فى هذه النعم والآيات التى رأى أعمى فهو عن الآخرة التى لم يعاين أعمى وأضل سبيلا . وقيل : المعنى من عمى عن النعم التى أنعم الله بها عليه فى الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى . وقيل : المعنى من كان فى الدنيا التى أُمهل فيها وفُسِّح له ووُعد بقبول التوبة أعمى فهو فى الآخرة التى لا توبة فيها أعمى . وقال الحسن : من كان فى هذه الدنيا كافرا ضالا فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا . وقيل : من كان فى الدنيا أعمى عن حجج الله بعثه الله يوم القيامة أعمى ؛ كما قال : « ونحشره يوم القيامة أعمى » (٤) الآيات . وقال : « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ » (٥) . وقيل : المعنى فى قوله « فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ » فى جميع الأقوال : أشدّ عمًى ؛ لأنه من عمى القلب ، ولا يقال مثله فى عمى العين . قال الخليل وسيبويه : لأنه خلقة بمنزلة

---

(١) آية ١٢ سورة يس . (٢) راجع جـ ٥ ص ٢٤٨ طبعة أولى أو ثانية . (٣) آية ٦٦ وما بعدها .
(٤) آية ١٢٤ سورة طه . (٥) آية ٩٧ من هذه السورة .

اليد والرِّجل ، فلم يقل ما أعماه كما لا يقال ما أيداه . الأخفش : لم يقل فيه ذلك لأنه على أكثر من ثلاثة أحرف، وأصله أعمى . وقد أجاز بعض النحويين ما أعماه وما أعشاه ؛ لأن فعله عَمِيَ وعَشِيَ . وقال الفراء : حدثني بالشأم شيخ بصرى أنه سمع العرب تقول : ما أسود شعره . قال الشاعر :

ما في المعالي لكم ظل ولا ثمر * وفي المخازي لكم أشباح أشياخ

أما الملوك فأنت اليوم ألأمهم * لؤما وأبيضهم سِرْبال طبّاخ

وأمال أبو بكر وحمزة والكسائي وخلف الحرفين « أعمى » و « أعمى » وفتح الباقون . وأمال أبو عمرو الأول وفتح الثاني . (وَأَضَلُّ سَبِيلًا) يعني أنه لا يجد طريقا إلى الهداية .

قوله تعالى : وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾

قال سعيد بن جبير : كان النبي صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر الأسود في طوافه، فمنعته قريش وقالوا : لا ندعك تستلم حتى تُلِمّ بآلهتنا . فحدث نفسه وقال : " ما عليّ أن أُلِمّ بها بعد أن يدعوني أستلم الحجر والله يعلم أني لها كاره " فأبى الله تعالى ذلك وأنزل عليه هذه الآية ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقال ابن عباس في رواية عطاء : نزلت في وفد ثقيف ، أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه شططا وقالوا : متّعنا بآلهتنا سنة حتى نأخذ ما يُهدى لها، فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا، وحرّم وادينا كما حرّمت مكة، حتى تعرف العرب فضلنا عليهم ؛ فهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم ذلك فنزلت هذه الآية . وقيل : هو قول أكابر قريش للنبي صلى الله عليه وسلم : اطرد عنا هؤلاء السُّقاط والموالي حتى نجلس معك ونسمع منك؛ فهمّ بذلك حتى نُهي عنه . وقال قتادة : ذكر لنا أن قريشا خلَوْا برسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه ويفخّمونه ، ويسوّدونه ويقاربونه ؛ فقالوا : إنك تأتي بشيء لا يأتي به أحد من الناس، وأنت سيّدنا يا سيّدنا؛ وما زالوا به حتى كاد يقاربهم في بعض ما يريدون؛

ثم عصمه الله من ذلك، وأنزل الله تعالى هذه الآية . ومعنى ﴿ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ أى يزيلونك . يقال : فتنت الرجل عن رأيه إذا أزلته عما كان عليه؛ قاله الهروى . وقيل يصرفونك، والمعنى واحد ﴿ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى حكم القرآن؛ لأن فى إعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن . ﴿ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ﴾ أى لتختلق علينا غير ما أوحينا إليك ، وهو قول ثقيف : وحرّم وادينا كما حرّمت مكة، شجرها وطيرها ووحشها، فإن سألتك العرب لم خصصتهم فقل الله أمرنى بذلك حتى يكون عذرا لك . ﴿ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ أى لو فعلت ما أرادوا لاتخذوك خليلا، أى والوك وصافوك ؛ مأخوذ من الخلة (بالضم) وهى الصداقة لممايلته لهم . وقيل : « لاتخذوك خليلا » أى فقيرا . مأخوذ من الخلة (بفتح الخاء) وهى الفقر لحاجته إليهم .

قوله تعالى : وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ ﴾ أى على الحق وعصمناك من موافقتهم . ﴿ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ ﴾ أى تميل . ﴿ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ أى ركونا قليلا . قال قتادة : لما نزلت هذه الآية قال عليه السلام : " اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين " . وقيل : ظاهر الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وباطنه إخبار عن ثقيف . والمعنى : وإن كادوا ليركنونك ، أى كادوا يخبرون عنك بأنك ملت إلى قولهم؛ فنسب فعلهم إليه مجازا واتساعا ؛ كما تقول لرجل : كدت تقتل نفسك، أى كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت؛ ذكره المهدوى . وقيل : ما كان منه همّ بالركون إليهم ، بل المعنى : ولولا فضل الله عليك لكان منك ميل إلى موافقتهم، ولكن تمّ فضل الله عليك فلم تفعل؛ ذكره القشيرى . وقال ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معصوما ، ولكن هذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين فى شىء من أحكام الله تعالى وشرائعه .

وقوله : ﴿ إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾ أى لو ركنت لأذقناك مثل عذاب الحياة فى الدنيا ومثل عذاب الممات فى الآخرة ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وهذا غاية الوعيد . وكلما كانت الدرجة أعلى كان العذاب عند المخالفة أعظم . قال الله تعالى : « يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ »[1] وضعف الشيء مثله مرتين، وقد يكون الضعف النصيب ؛ كقوله عز وجل : « لِكُلٍّ ضِعْفٌ » أى نصيب . وقد تقدم فى الأعراف[2] .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٧٦)

هذه الآية قيل إنها مدنية ؛ حسبما تقدم فى أول السورة . قال ابن عباس : حسدت اليهود مقام النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة فقالوا : إن الأنبياء إنما بعثوا بالشام ؛ فإن كنت نبيا فالحق بها ؛ فإنك إن خرجت إليها صدقناك وآمنا بك ؛ فوقع ذلك فى قلبه لما يحب من إسلامهم ، فرحل من المدينة على مرحلة فأنزل الله هذه الآية . وقال عبد الرحمن بن غنم : غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة تبوك لا يريد إلا الشام ؛ فلما نزل تبوك نزل « وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ » بعد ما ختمت السورة ؛ وأمر بالرجوع . وقيل : إنها مكية . قال مجاهد وقتادة : نزلت فى هم أهل مكة بإخراجه ؛ ولو أخرجوه لما أمهلوا ولكن الله أمره بالهجرة فخرج ؛ وهذا أصح ؛ لأن السورة مكية ، ولأن ما قبلها خبر عن أهل مكة ، ولم يجر لليهود ذكر . وقوله : ﴿ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ يريد أرض مكة . كقوله : « فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ »[3] أى أرض مصر ؛ دليله « وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ »[4] يعنى مكة . معناه : هم أهلها بإخراجه ؛ فلهذا أضاف إليها[5] وقال « أخرجتك » . وقيل : هم الكفار كلهم أن يستخفوه من أرض العرب بتظاهرهم عليه فمنعه الله ، ولو أخرجوه

(١) آية ٣٠ سورة الأحزاب . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٠٥ طبعة أولى أو ثانية . (٣) آية ٨٠ سورة يوسف .
(٤) آية ١٣ سورة محمد . (٥) فى الأصول : « إليهم » وهو تحريف .

من أرض العرب لم يُمهلوا؛ وهو معنى قوله : ﴿ وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . وقرأ عطاء ابن أبي رَباح « لا يُلَبَّثون » الباء مشددة . « خلفك » نافع وابن كثير وأبو بكر وأبو عمرو؛ ومعناه بعدك . وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي « خلافك » واختاره أبو حاتم؛ اعتبارا بقوله : « فَرِحَ المُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ »[1] ومعناه أيضا بعدك؛ قال الشاعر :

عَقَبَ الديارَ خلافهم فكأنما ﴿ بسطَ الشَّواطِبُ بينهن حَصِيرا

بسط البواسط؛ في الماوردي . يقال : شطبت المرأة الجريد إذا شقته لتعمل منه الحصر . قال أبو عبيد : ثم تُلقيه الشاطبة إلى المُنَقِّية . وقيل : « خلفك » بمعنى بعدك . « وخلافك » بمعنى مخالفتك؛ ذكره ابن الأنباري . ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فيه وجهان : أحدهما ـ أن المدة التي لبثوها بعده ما بين إخراجهم له إلى قتلهم يوم بدر؛ وهذا قول من ذكر أنهم قريش. الثاني ـ ما بين ذلك وقتل بني قُريظة وجلاء بني النَّضير؛ وهذا قول من ذكر أنهم اليهود .

قوله تعالى : سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ أي يعذَّبون كسنة من قد أرسلنا؛ فهو نصب بإضمار يعذبون؛ فلما سقط الخافض عمل الفعل؛ قاله الفراء . وقيل : انتصب على معنى سنناّ سنة من قد أرسلنا . وقيل : هو منصوب على تقدير حذف الكاف؛ التقدير لا يلبثون خلفك إلا قليلا كسنة من قد أرسلنا؛ فلا يوقف على هذا التقدير على قوله : « إلا قليلا » ويوقف على الأول والثاني . « قبلك من رسلنا » وقف حسن . ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ أي لا خُلف في وعدها .

قوله تعالى : أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾

(١) آية ٨١ سورة التوبة .

بــــه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعــالى : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ لما ذكر مكايد المشركين أمر نبيّه عليه السلام بالصبر والمحافظة على الصلاة، وفيها طلب النصر على الأعداء . ومثله « وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَــدْرُكَ بِمَـا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْــدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ » (١) . وتقدم القول في معنى إقامة الصلاة في أول سورة البقرة (٢) . وهذه الآية بإجماع من المفسرين إشارة إلى الصلوات المفروضة . واختلف العلماء في الدُّلوك على قولين : أحدهما — أنه زوال الشمس عن كبد السماء؛ قاله عمر وابنــه وأبو هريرة وابن عباس وطائفة سواهم من علمــاء التابعين وغيرهم . الثاني — أن الدلوك هو الغروب؛ قاله عليّ وابن مسعود وأُبَيّ بن كعب، وروى عن ابن عباس . قال المــاورديّ : من جعل الدُّلوك اسما لغروبهــا فلأن الإنسان يدلك عينيه براحته لتبيّنها حالة المغيب ، ومن جعلــه اسما لزوالها فلأنه يدلك عينيه لشــدة شعاعها . وقال أبو عبيــد : دلوكها غروبهــا . ودلكَتْ بَرَاحِ يعني الشمس؛ أي غابت . وأنشد قُطْرُب :

هــذا مُقَامُ قَدَمَيْ رَبَاحِ ۞ ذَبَّبَ حتى دَلَكَتْ بَرَاحِ

براح (بفتح الباء) على وزن حَزام وقطام ورَقَاش آسم من أسماء الشمس . ورواه الفــراء (بكسر البــاء) وهو جمــع راحة وهى الكف؛ أي غابت وهو ينظر إليها وقد جعــل كفّه على حاجبه (٣) . ومنه قول العجّاج :

والشمس قد كادت تكون دَنَفًا ۞ أدفعهــا بالراح كي تزحلفــا

قال آبن الأعرابيّ : الزُّحلوفة مكان منحدر أملس، لأنهم يتزحلفون فيه . قال : والزَّحلفة كالدحرجــة والدفع؛ يقال : زحلفتــه فتزحلف . ويقال : دلكت الشــمس إذا غابت . قال ذو الرُّمّة :

مصابيح ليست باللواتي تقودها ۞ نجومٌ ولا بالآفــلات الدوالك

---

(١) آية ٩٧ سورة الحجر . (٢) راجع جـ ١ ص ١٦٤ طبعة ثانية أو ثالثة . (٣) أي بإزاء الحجر .

قال ابن عطية : الدلوك هو الميل — فى اللغة — فأول الدلوك هو الزوال وآخره هو الغروب . ومن وقت الزوال إلى الغروب يسمى دلوكا ، لأنها فى حالة مَيل . فذكر الله تعالى الصلوات التى تكون فى حالة الدلوك وعنده ؛ فيدخل فى ذلك الظهر والعصر والمغرب ، ويصح أن تكون المغرب داخلة فى غَسَق الليل . وقد ذهب قوم إلى أن صلاة الظهر يتمادى وقتها من الزوال إلى الغروب ؛ لأن الله سبحانه علق وجوبها على الدلوك ، وهذا دلوك كله ؛ قاله الأوزاعى وأبو حنيفة فى تفصيل . وأشار إليه مالك والشافعى فى حالة الضرورة .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ إِلَىٰ غَسَقِ ٱللَّيْلِ ﴾ روى مالك عن ابن عباس قال : دلوك الشمس ميلها ، وغسق الليل اجتماع الليل وظلمته . وقال أبو عبيدة : الغسق سواد الليل . قال ابن قَيْس الرُّقَيَّات :

إن هــذا الليل قد غَسَقَا * واشتكيتُ الهَمَّ والأَرَقَا

وقد قيل : غسق الليل مغيب الشفق . وقيل : إقبال ظلمته . قال زهير :

ظلت تجـود يداها وهى لاهية * حتى إذا جنح الإظلام والغَسَق

يقال : غسق الليـل غسوقا . والغَسَق اسم بفتح السين . وأصل الكلمة من السيلان ؛ يقال : غَسَقت العين إذا سالت ، تَغْسِق . وغَسَق الجرح غَسَقانا ، أى سال منه ماء أصفر . وأغسق المؤذّن ، أى أخر المغرب إلى غَسَق الليل . وحكى الفراء : غَسَق الليـل وأغسق ، وظَـلم وأظلم ، ودجا وأدجى ، وغَبَس وأغبس ، وغَبِش وأغبش . وكان الربيع بن خُثَيم يقول لمؤذنه فى يوم غَيْم : أغسق أغسق . يقول : أخر المغرب حتى يَغسِق الليل ؛ وهو إظلامه .

الثالثة — اختلف العلماء فى آخر وقت المغرب ؛ فقيل : وقتها وقت واحد لا وقت لها إلا حين تحجب الشمس ، وذلك بيِّن فى إمامة جبريل ؛ فإنه صلاها باليومين لوقت واحد وذلك غروب الشمس ، وهو الظاهر من مذهب مالك عند أصحابه . وهو أحد قولى الشافعى فى المشهور عنه أيضا ، وبه قال الثورى . وقال مالك فى الموطأ : فإذا غاب الشفق فقد خرجْتَ من وقت المغرب ودخل وقت العشاء . وبهذا قال أبو حنيفة وأصحابه والحسن

ابن حىّ وأحمد وإسحاق وأبو ثور وداود؛ لأن وقت الغروب إلى الشفق غسق كله . ولحديث أبى موسى، وفيه : أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى بالسائل المغرب فى اليوم الثانى فأخر حتى كان عند سقوط الشفق ؛ خرجه مسلم . قالوا : وهذا أولى من أخبار إمامة جبريل ؛ لأنه متأخر بالمدينة وإمامة جبريل بمكة ، والمتأخر أولى من فعله وأمره ؛ لأنه ناسخ لما قبله . وزعم ابن العربى أن هذا القول هو المشهور من مذهب مالك ، وقوله فى موطئه الذى أقرأه طول عمره وأملاه فى حياته .

والنكتة فى هذا أن الأحكام المتعلقة بالأسماء هل تتعلق بأوائلها أو بآخرها أو يرتبط الحكم بجميعها ؟ والأقوى فى النظر أن يرتبط الحكم بأوائلها لئلا يكون ذكرها لغوًا فإذا ارتبط بأوائلها جرى بعد ذلك النظر فى تعلقه بالكلّ إلى الآخر .

قلت : القول بالتوسعة أرجح . وقد خرّج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغنى بن سعيد من حديث الأجلح بن عبد الله الكندى عن أبى الزبير عن جابر قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة قريبا من غروب الشمس فلم يُصَلِّ المغرب حتى أتى سَرِف ، وذلك تسعة أميال . وأما القول بالنسخ فليس بالبيّن وإن كان التاريخ معلوما ؛ فإن الجمع ممكن . قال علماؤنا : تُحمل أحاديث جبريل على الأفضلية فى وقت المغرب ، ولذلك اتفقت الأمة فيها على تعجيلها والمبادرة إليها فى حين غروب الشمس . قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : ولا نعلم أحدا من المسلمين تأخر بإقامة المغرب فى مسجد جماعة عن وقت غروب الشمس . وأحاديث التوسعة تبين وقت الجواز ، فيرتفع التعارض ويصح الجمع ، وهو أولى من الترجيح باتفاق الأصوليين ؛ لأن فيه إعمال كل واحد من الدليلين ، والقول بالنسخ أو الترجيح فيه إسقاط أحدهما . والله أعلم .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ انتصب «قرآن» من وجهين : أحدهما أن يكون معطوفا على الصلاة ؛ المعنى : وأقم قرآن الفجر أى صلاة الصبح ؛ قاله الفراء . وقال أهل البصرة . انتصب على الإغراء ؛ أى فعليك بقرآن الفجر ؛ قاله الزجاج . وعبر عنها بالقرآن

خاصة دون غيرها من الصلوات؛ لأن القرآن هو أعظمها، إذ قراءتها طويلة مجهور بها حسبما هو مشهور مسطور؛ عن الزجاج أيضا .

قلت : وقد استقر عمل المدينة على استحباب إطالة القراءة فى الصبح قـدرا لا يضر بمن خلفه ــ يقرأ فيها بطوال المفصَّل ، ويليها فى ذلك الظهر والجمعة ــ وتخفيف القراءة فى المغرب وتوسطها فى العصر والعشاء . وقـد قيل فى العصر : إنهـا تخفَّف كالمغرب . وأما ما ورد فى صحيح مسلم وغيره من الإطالة فيما استقر فيه التقصير ، أو من التقصير فيما استقرت فيه الإطالة ؛ كقراءته فى الفجر المعوذتين ــ كما رواه النَّسائىّ ــ وكقراءة الأعراف والمرسلات والطور فى المغرب ، فمتروك بالعمل . ولإنكاره على معاذ التطويل حين أمّ قومه فى العشاء فافتتح سورة البقرة . خرّجه الصحيح . وبأمره الأئمة بالتخفيف فقال : "أيها الناس إن منكم منفِّرين فأيكم أمّ الناس فليخفف فإن فيهم الصغير والكبير والمريض والسقيم والضعيف وذا الحاجة" . وقال : "فإذا صلى أحدكم وحده فليطوّل ماشاء" . كله مسطور فى صحيح الحديث.

الخامسـة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ دليل على أن لا صلاة إلا بقراءة؛ لأنه سمّى الصلاة قرآنا . وقد اختلف العلمـاء فى القراءة فى الصلاة فذهب جمهورهم إلى وجوب قراءة أم القرآن للإمام والفَذّ فى كل ركعة . وهو مشهور قول مالك . وعنه أيضا أنها واجبة فى جُلّ الصلاة . وهو قول إسحاق . وعنه أيضا تجب فى ركعة واحدة؛ قاله المُغيرة وسُحْنُون . وعنه أن القراءة لا تجب فى شىء من الصلاة . وهو أشـذّ الروايات عنه . وحُكى عن مالك أيضا أنها تجب فى نصف الصلاة ، وإليه ذهب الأوزاعىّ . وعن الأوزاعىّ أيضا وأيوب أنهـا تجب على الإمام والفَـذّ والمأموم على كل حال . وهو أحد قولى الشافعىّ . وقد مضى فى (الفاتحة)[1] مستوفًى .

السادسـة ــ قوله تعـالى : ﴿ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ روى الترمذىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى قوله : « وقرآنَ الفجرِ إن قرآن الفَجْرِ كان مشهودًا » قال : " تشهده

---

(١) راجع جـ ١ ص ١١٧ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

ملائكة الليل وملائكة النهار" هذا حديث حسن صحيح . ورواه عليّ بن مُسْهِر عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة وأبى سعيد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وروى البخاريّ عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " فَضْلُ صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الصبح " . يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم « وقرآنَ الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا » . ولهذا المعنى يُبَكِّر بهذه الصلاة، فمن لم يبكر لم تشهد صلاته إلا إحدى الفئتين من الملائكة . ولهذا المعنى أيضا قال مالك والشافعيّ : التغليس بالصبح أفضل . وقال أبو حنيفة : الأفضل الجمع بين التغليس والإسفار ، فإن فاته ذلك فالإسفار أَوْلَى من التغليس . وهذا مخالف لما كان عليه السلام يفعله من المداومة على التغليس، وأيضا فإن فيه تفويتَ شهود ملائكة الليل . والله أعلم .

السابعة — استدلّ بعض العلماء بقوله صلى الله عليه وسلم : " تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار " على أن صلاة الصبح ليست من صلاة الليل ولا من صلاة النهار .

قلت : وعلى هذا فلا تكون صلاة العصر أيضا لا من صلاة الليل ولا من صلاة النهار؛ فإن فى الصحيح عن النبيّ الفصيح عليه السلام فيما رواه أبو هريرة : " يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فيجتمعون فى صلاة العصر وصلاة الفجر " الحديث . ومعلوم أن صلاة العصر من النهار فكذلك تكون صلاة الفجر من الليل وليس كذلك ، وإنما هى من النهار كالعصر بدليل الصيام والأيمان، وهذا واضح .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ (٧٩)

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ « من » للتبعيض . والفاء فى قوله « فتهجّد » ناسقة على مضمر، أى قم فتهجد . ﴿ به ﴾ أى بالقرآن . والتهجّد من الهجود وهو من الأضداد . يقال : هجد نام، وهجد سهر؛ على الضد . قال الشاعر :

ألا زارت وأهل منى هجود • وليت خيالها بمنى يعود

آخر :

ألا طرقتنا والرفاق هجود • فباتت بعلات النوال تجود [1]

يعني نياما . وهجد وتهجد بمعنى . وهجدته أي أنمته ، وهجدته أي أيقظته . والتهجد التيقظ بعد رقدة ، فصار اسما للصلاة ؛ لأنه ينتبه لها . فالتهجد القيام إلى الصلاة من النوم . قال معناه الأسود وعلقمة وعبد الرحمن بن الأسود وغيرهم . وروى إسماعيل بن إسحاق القاضي من حديث الحجاج بن عمر صاحب النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : أيحسب أحدكم إذا قام من الليل كله أنه قد تهجد ! إنما التهجد الصلاة بعد رقدة ثم الصلاة بعد رقدة ثم الصلاة بعد رقدة . كذلك كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : الهجود النوم . يقال : تهجد الرجل إذا سهر ، وألقى الهجود وهو النوم . ويسمى من قام إلى الصلاة متهجدا ؛ لأن المتهجد هو الذي يلقي الهجود الذي هو النوم عن نفسه . وهذا الفعل جار مجرى تحوب وتحرج وتأثم وتحنث وتقذر وتنجس ؛ إذا ألقى ذلك عن نفسه . ومثله قوله تعالى : « فظلتم تفكهون [2] » معناه تندمون ؛ أي تطرحون الفكاهة عن أنفسكم ، وهي انبساط النفوس وسرورها . يقال رجل فكه إذا كان كثير السرور والضحك . والمعنى في الآية : ووقتا من الليل اسهر به في صلاة وقراءة .

الثانيـة ـــ قوله تعالى : ﴿ نَافِلَةً لَكَ ﴾ أي كرامة لك ؛ قاله مقاتل . واختلف العلماء في تخصيص النبي صلى الله عليه وسلم بالذكر دون أمته ؛ فقيل : كانت صلاة الليل فريضة عليه لقوله : « نافلة لك » أي فريضة زائدة على الفريضة الموظفة على الأمة .

قلت : وفي هذا التأويل بعد لوجهين : أحدهما ـــ تسمية الفرض بالنفل ، وذلك مجاز لا حقيقة . الثاني ـــ قوله صلى الله عليه وسلم : " خمس صلوات فرضهن الله على العباد " ؛ وقوله تعالى : " هن خمس وهن خمسون لا يبدل القول لدي " وهذا نص ، فكيف يقال افترض عليه صلاة زائدة على الخمس ، هذا ما لا يصح ؛ وإن كان قد روي عنه عليه السلام :

---

(١) العلة (هنا) : ما يتعلل به ، مثل البقية . (٢) آية ٦٥ سورة الواقعة .

" ثلاث على فريضة ولأمتى تطوع قيام الليل والوتر والسواك " . وقيل : كانت صلاة الليل تطوعاً منه وكانت فى الابتداء واجبة على الكل ، ثم نسخ الوجوب فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة ؛ كما قالت عائشة ، على ما يأتى مبيّنا فى سورة « المُزّمّل » إن شاء الله تعالى . وعلى هذا يكون الأمر بالتنفل على جهة الندب ويكون الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه مغفور له . فهو إذا تطوّع بما ليس بواجب عليه كان ذلك زيادة فى الدرجات . وغيره من الأمة تطوّعهم كفارات وتدارك لخلل يقع فى الفرض ؛ قال معناه مجاهد وغيره . وقيل : عطية ؛ لأن العبد لا ينال من السعادة عطاء أفضل من التوفيق فى العبادة .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ اختلف فى المقام المحمود على أربعة أقوال :

الأوّل — وهو أصحها — الشفاعة للناس يوم القيامة ؛ قاله حُذيفة بن اليمان . وفى صحيح البخارى عن ابن عمر قال : إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثًا[1] كل أمة تتبع نبيها تقول : يا فلان اشفع ، حتى تنتهى الشفاعة إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فذلك يوم يبعثه الله المقامَ المحمودَ . وفى صحيح مسلم عن أنس قال حدّثنا محمد صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض فيأتون آدم فيقولون له اشفع لذريتك فيقول لست لها ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله فيأتون إبراهيم فيقول لست لها ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله فيؤتى موسى فيقول لست لها ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمته فيؤتى عيسى فيقول لست لها ولكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلم فأُوتَى فأقول أنا لها " وذكر الحديث . وروى الترمذيّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « عسى أن يبعثك ربُّك مقاما محمودا » سئل عنها قال : " هى الشفاعة " قال : هذا حديث حسن صحيح .

---

(١) جثا (جمع جُثوة كخطوة وخطا) أى جماعات .

الرابعــــة — إذا ثبت أن المقام المحمود هو أمر الشفاعة الذى يتدافعه الأنبياء عليهم السلام، حتى ينتهى الأمر إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فيشفع هذه الشفاعة لأهل الموقف ليعجّل حسابهم ويُراحوا من هول موقفهم، وهى الخاصة به صلى الله عليه وسلم؛ ولأجل ذلك قال: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر". قال النقاش : لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث شفاعات: العامة، وشفاعة فى السبق إلى الجنة، وشفاعة فى أهل الكبائر. ابن عطية : والمشهور أنهما شفاعتان فقط: العامة، وشفاعة فى إخراج المذنبين من النار. وهذه الشفاعة الثانية لا يتدافعها الأنبياء بل يشفعون ويشفع العلماء. وقال القاضى أبو الفضل عياض : شفاعات نبينا صلى الله عليه وسلم يوم القيامة خمس شفاعات: العامة. والثانية فى إدخال قوم الجنة دون حساب. الثالثة فى قوم من موحّدى أمته استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع فيهم نبينا صلى الله عليه وسلم، ومَن شاء الله أن يشفع ويدخلون الجنة. وهذه الشفاعة هى التى أنكرتها المبتدعة الخوارج والمعتزلة، فمنعتها على أصولهم الفاسدة، وهى الاستحقاق العقلى المبنىّ على التحسين والتقبيح. الرابعة فيمن دخل النار من المذنبين فيخرجون بشفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء والملائكة وإخوانهم المؤمنين. الخامسة فى زيادة الدرجات فى الجنة لأهلها وترفيعها، وهذه لا تنكرها المعتزلة ولا تنكر شفاعة الحشر الأوّل.

الخامســـة — قال القاضى عياض : وعرف بالنقل المستفيض سؤال السلف الصالح لشفاعة النبىّ صلى الله عليه وسلم ورغبتهم فيها، وعلى هذا لا يلتفت لقول من قال : إنه يكره أن تسأل الله أن يرزقك شفاعة النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ لأنها لا تكون إلا للمذنبين، فإنها قد تكون كما قدّمنا لتخفيف الحساب وزيادة الدرجات. ثم كل عاقل معترف بالتقصير محتاج إلى العفو غير معتدّ بعمله مشفق أن يكون من الهالكين، ويلزم هذا القائل ألا يدعو بالمغفرة والرحمة؛ لأنها لأصحاب الذنوب أيضا، وهذا كله خلاف ما عرف من دعاء السلف والخلف. روى البخارى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من قال حين يسمع النداء اللهم ربّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا — صلى الله عليه وسلم — الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته حلّت له شفاعتى يوم القيامة".

القول الثاني — أن المقام المحمود إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة .

قلت : وهـذا القول لا تنافر بينه وبين الأول؛ فإنه يكون بيده لواء الحمـد ويشفع . وروى الترمذي عن أبي سعيد الخُدْرِيّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنا سـيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدى لواء الحمـد ولا فخر وما من نبيّ يومئـذ آدمَ فمن سواه إلا تحت لوائى " الحديث .

القول الثالث — ما حكاه الطبري عن فرقة، منها مجـاهد ، أنها قالت : المقام المحمود هو أن يُجلس الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم معه على كرسيّه؛ وروت في ذلك حديثا . وعَضَد الطبريّ جواز ذلك بشطط من القول، وهو لا يخرج إلا على تلطُّف في المعنى، وفيه بُعْدٌ . ولا يُنْكَر مع ذلك أن يُرْوَى، والعـلم يتأوله . وذكر النقاش عن أبي داود السِّجِسْتانيّ أنه قال : من أنكر هـذا الحديث فهو عندنا مُتَّهَم، ما زال أهل العلم يتحدّثون بهذا ، من أنكر جوازه على تأويله . قال أبو عمر ومجاهد : وإن كان أحد الأئمة يتأول القرآن فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم أحدهما هذا والثاني في تأويل قوله تعالى : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ »[1] قال : تنتظر الثواب؛ ليس من النظر .

قلت : ذكر هذا في باب ابْنُ شهاب في حديث التنزيل. وروى عن مجاهد أيضا في هذه الآية قال : يُجلسه على العرش . وهـذا تأويل غير مستحيل ؛ لأن الله تعالى كان قبل خلقه الأشياء كلّها والعرش قائمـا بذاته ، ثم خلق الأشياء من غير حاجة إليها، بل إظهارا لقدرته وحكمته ، وليُعـرف وجوده وتوحيده وكمال قدرته وعلمه بكل أفعاله المحكمـة ، وخلق لنفسه عرشا استوى عليـه كما شاء من غير أن صار له مماسا ، أو كان العرش له مكانا . قيل : هو الآن على الصفة التي كان عليها من قبل أن يخلق المكان والزمان؛ فعلى هذا القول سواء في الجواز أقعد محمد على العرش أو على الأرض ؛ لأن استواء الله تعالى على العرش ليس بمعنى الانتقال والزوال وتحويل الأحوال من القيام والقعود والحال التي تشغل العرش، بل هو مستوٍ على عرشه

(١) آية ٢٢ سورة القيامة .

كما أخبر عن نفسه بلا كيف . وليس إقعاده محمدا على العرش موجبا له صفة الربوبية أو مخرجا له عن صفة العبودية ، بل هو رفع لمحله وتشريف له على خلقه . وأما قوله في الإخبار : " معه " فهو بمنزلة قوله : « إن الذين عند ربك »[1] ، و« رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة »[2] ، « وإن الله لمع المحسنين »[3] ونحو ذلك . كل ذلك عائد إلى الرتبة والمنزلة والحظوة والدرجة الرفيعة، لا إلى المكان .

الرابـــع ــ إخراجه من النار بشفاعته من يخرج؛ قاله جابر بن عبد الله . ذكره مسلم . وقد ذكرناه فى (كتاب التذكرة) والله الموفق .

السادســـة ــ اختلف العلماء فى كون القيام بالليل سببا للمقام المحمود على قولين : أحدهما ــ أن البارئ تعالى يجعل ما شاء من فعله سببا لفضله من غير معرفة بوجه الحكمة فيه، أو بمعرفة وجه الحكمة. الثانى ــ أن قيام الليل فيه الخلوة مع البارئ والمناجاة دون الناس، فأعطى الخلوة به ومناجاته فى قيامه وهو المقام المحمود. ويتفاضل فيه الخلق بحسب درجاتهم، فأجلهم فيه درجة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه يعطى ما لا يعطى أحد ويشفع ما لا يشفع أحد . و« عسى» من الله عز وجل واجبة . و « مقاما » نصب على الظرف . أى فى مقام أو إلى مقام . وذكر الطبرى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " المقام المحمود هو المقام الذى أشفع فيه لأمتى". فالمقام الموضع الذى يقوم فيه الإنسان للأمور الجليلة كالمقامات بين يدى الملوك .

قوله تعالى : وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾

قيــل : المعنى أمتنى إماتة صدق، وابعثنى يوم القيامة مبعث صدق؛ ليتصل بقوله : « عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا » . كأنه لما وعده ذلك أمره أن يدعو لينجز له

(١) آخر سورة الأعراف . (٢) آية ١١ سورة التحريم . (٣) آخر سورة العنكبوت .

الوعد . وقيل : ادخلني في الأمور وأخرجني من المنهي ؛ وقيل : علّمه ما يدعو به في صلاته وغيرها من إخراجه من بين المشركين و إدخاله موضع الأمن؛ فأخرجه من مكة وصيره إلى المدينة . وهذا المعنى رواه الترمذي عن ابن عباس قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم بمكة ثم أمر بالهجرة فنزلت « وقل رب أدخلني مُدْخَلَ صِدْقٍ وأخرجني مُخْرَجَ صِدقٍ واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا » قال : هذا حديث حسن صحيح . وقال الضحاك : هو خروجه من مكة ودخوله مكة يوم الفتح آمنا . أبو سهل : حين رجع من تبُوك وقد قال المنافقون : « لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ »[1] يعني إدخال عز و إخراج نصر إلى مكة . وقيل : المعنى أدخلني في الأمر الذي أكرمتني به من النبوة مدخل صدق وأخرجني منه مخرج صدق إذا أمتّني؛ قال معناه مجاهد . والمدخل والمخرج (بضم الميم) بمعنى الإدخال والإخراج؛ كقوله : « أنزلني مُنْزَلا مباركا »[2] أي إنزالا لا أرى فيه ما أكره . وهي قراءة العامة . وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم « مَدخل » و « مخرج » بفتح الميمين بمعنى الدخول والخروج ؛ فالأول رباعي وهذا ثلاثي . وقال ابن عباس : أدخلني القبر مدخل صدق عند الموت وأخرجني مخرج صدق عند البعث . وقيل : أدخلني حيثما أدخلتني بالصدق وأخرجني بالصدق ؛ أي لا تجعلني ممن يدخل بوجه ويخرج بوجه؛ فإن ذا الوجهين لا يكون وجيها عندك . وقيل : الآية عامة في كل ما يُتناول من الأمور ويحاول من الأسفار والأعمال ، ويُنتظر من تصرف المقادير في الموت والحياة . فهي دعاء، ومعناه: رب أصلح لي وِرْدِي في كل الأمور وصَدَرِي . وقوله : ﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾ قال الشعبيّ وعكرمة : أي حجة ثابتة . وذهب الحسن إلى أنه العز والنصر وإظهار دينه على الدين كله . قال: فوعده الله لَيَنْزِعَنّ مُلك فارس والروم وغيرها فيجعله له .

قوله تعالى : ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾

---

(١) آية ٨ سورة المنافقون . (٢) آية ٢٩ سورة المؤمنون .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـ روى البخاريّ والترمذيّ عن ابن مسعود قال : دخل النبيّ صلى الله عليه وسلم مكة عام الفتح وحول الكعبة ثلثمائة وستون نُصُبًا ، فجعل النبيّ صلى الله عليه وسلم يطعنها بمخصرة فى يده ـ وربما قال بعود ـ ويقول : " جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا . جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد " لفظ الترمذيّ . وقال : هذا حديث حسن صحيح . وكذا فى حديث مسلم « نُصُبًا » . وفى رواية صنما . قال علماؤنا : إنما كانت بهذا العدد لأنهم كانوا يعظّمون فى يوم صنما ويخصون أعظمها بيومين . وقوله : "فجعل يطعنها بعود فى يده" يقال : إنها كانت مثبتة بالرّصاص وأنه كلما طعن منها صنما فى وجهه خرّ لقفاه، أو فى قفاه خرّ لوجهه . وكان يقول : " جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا " حكاه أبو عمر والقاضى عياض . وقال القشيريّ : فما بقى منها صنم إلا خرّ لوجهه ، ثم أمر بها فكسرت .

الثانية ـ فى هذه الآية دليل على كسر نُصُب المشركين وجميع الأوثان إذا غُلب عليهم ، ويدخل بالمعنى كسر آلة الباطل كله ، وما لا يصلح إلا لمعصية الله كالطنابير والعيدان والمزامير التى لا معنى لها إلا اللهو بها عن ذكر الله تعالى . قال ابن المنذر : وفى معنى الأصنام الصُّوَر المتّخذة من المَدَر والخشب وشبهها ، وكل ما يتخذه الناس مما لا منفعة فيه إلا اللهو المنهىّ عنه . ولا يجوز بيع شىء منه إلا الأصنام التى تكون من الذهب والفضة والحديد والرصاص ، إذا غُيّرت عما هى عليه وصارت نُقَرا[(1)] أو قطعا فيجوز بيعها والشراء بها . قال المهلّب : وما كسر من آلات الباطل وكان فى حبسها بعد كسرها منفعةٌ فصاحبها أولى بها مكسورة ، إلا أن يرى الإمام حرقها بالنار على معنى التشديد والعقوبة فى المال . وقد تقدّم حرق ابن عمر رضى الله عنه . وقد همّ النبيّ صلى الله عليه وسلم بتحريق دور من تخلف عن صلاة الجماعة . وهذا أصل فى العقوبة فى المال مع قوله عليه السلام فى الناقة التى لعنتها صاحبتها :

---

(1) النقرة : السبيكة .

" دعوها فإنها ملعونة " فأزال ملكها عنها تأديبا لصاحبتها ، وعقوبة لها فيا دعت عليه بما دعت به . وقد أراق عمر بن الخطاب رضى الله عنه لبنا شيب بماء على صاحبه .

الثالثة — ما ذكرنا من تفسير الآية ينظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم : " والله لينزلن عيسى بن مريم حكما عادلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية ولتتركن القلاص(١) فلا يسعى عليها " الحديث . خرجه الصحيحان . ومن هذا الباب هتك النبي صلى الله عليه وسلم الستر الذى فيه الصور، وذلك أيضا دليل على إفساد الصور وآلات الملاهى كما ذكرنا . وهذا كله يحظر المنع من اتخاذها ويوجب التغيير على صاحبها . إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ويقال لهم : أحيوا ما خلقتم ، وحسبك! وسيأتى هذا المعنى فى « النمل » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ ﴾ أى الإسلام . وقيل : القرآن ؛ قاله مجاهد . وقيل : الجهاد . ﴿ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ قيل الشرك . وقيل الشيطان ؛ قاله مجاهد . والصواب تعميم اللفظ بالغاية الممكنة، فيكون التفسير جاء الشرع بجميع ما انطوى فيه . « وزهق الباطل » : بطل الباطل . ومن هذا زهوق النفس وهو بطلانها . يقال زهقت نفسه تزهق زهوقا ، وأزهقتها . ﴿ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ أى لا بقاء له ، والحق الذى يثبت .

قوله تعالى : وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ ﴾ قرأ الجمهور بالنون . وقرأ مجاهد « وينزل » بالياء مخففة، ورواها المروزى عن حفص . و« من » لابتداء الغاية ؛ ويصح أن تكون لبيان الجنس ؛ كأنه قال : وننزل ما فيه شفاء من القرآن . وفى الخبر " من لم يستشف بالقرآن

(١) القلاص (بكسر القاف جمع القلوص بفتحها) وهى الناقة الشابة .

فلا شفاه الله ". وأنكر بعض المتأولين أن تكون « من » للتبعيض ؛ لأنه يحفظ من أن يلزمه ان بعضه لا شفاء فيه . ابن عطية : وليس يلزمه هذا، بل يصح أن تكون للتبعيض بحسب أن إنزاله إنما هو مبعّض؛ فكأنه قال : وننزل من القرآن شيئا شفاء؛ ما فيه كله شفاء .

الثانيــة ـــ اختلف العلماء في كونه شـفاء على قولين : أحدهما ـــ أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وإزالة الرّيب، ولكشف غطاء القلب من مرض الجهل لفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى . الثاني ـــ شفاء من الأمراض الظاهرة بالرُّقَى والتعوذ ونحوه . وقد روى الأئمة ـــ واللفظ للدارقطني ـــ عن أبي سـعيد الخُدْرِيّ قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سَرِيّة ثلاثين راكبا قال : فنزلنا على قوم من العرب فسألناهم أن يُضيفونا فأبَوْا؛ قال : فلُدِغ سـيد الحيّ، فأتونا فقالوا : فيكم أحد يَرْقِي من العقرب ؟ في رواية ابن قَتّـة : إن الملك يموت . قال : قلت أنا نعم، ولكن لا أفعـل حتى تعطونا . فقالوا : فإنا نعطيكم ثلاثين شاة . قال : فقرأت عليه « الحمـد لله رب العـالمين » سبـع مرات فبرأ . في رواية سليمان بن قتة عن أبي سعيد : فأفاق وبرأ . فبعث إلينا بالنُّزل وبعث إلينا بالشاء، فأكلنا الطعام أنا وأصحابي وأبَوْا أن يأكلوا من الغنم، حتى أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته الخبر فقال : "وما يدريك أنها رقية" قلت : يا رسـول الله، شيء أُلقي في رُوعي . قال : "كلوا وأطعمونا من الغنم" خرّجه في كتاب السنن . وخرّج في (كتاب المـدبج[1]) من حديث السَّرِيّ بن يحيى قال : حدثني المعتمر بن سـليمان عن ليث بن أبي سـليم عن الحسن عن أبي أُمامة عن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم أنه قال : "ينفـع بإذن الله تعـالى من البرص والجنون والجذام والبطن والسُّلّ والحُمّى والنَّفْس أن تكتب بزعفران أو بمشق ـــ يعني المَغْرة ـــ أعوذ بكلمات الله التـامة وأسمائه كلّها عامةً من شر السّامة والغـامة ومن شر العين اللامّة ومن شر حاسد إذا حسـد ومن أبي فَروة وما ولد" . كذا قال، ولم يقل من شر أبي قترة[2] . العين اللامّة : التي تصيب بسوء . تقول : أعيذه من كل هامة لامة . وأما قوله :

(١) في بعض الأصول : « المذبح » ولم نوفق لتصويبه .
(٢) أبو قترة (بكسر القاف وسكون التاء) : كنية إبليس .

أميـته من حادثات اللمة فيقـول : هو الدهر . ويقال الشـدة . والسامة : الخـاصة يقال : كيف السامة والعامة . والسامة الدم . ومن أبي فروة وما ولد . وقال : ثلاثة وثلاثون من الملائكة أتوا ربهم عز وجل فقـالوا : وَصَبٌ بأرضنا . فقال : خذوا تربة من أرضكم فامسحوا نواصيكم . أو قال : نوصيكم رقيـة محمد صلى الله عليه وسلم لا أفلح من كتمها أبدا أو أخذ عليها صَفَدا [١]. ثم تكتب فاتحة الكتاب وأربع آيات من أول البقرة ، والآية التي فيها تصريف الرياح وآية الكرسي والآيتين اللتين بعدها ، وخواتيم سـورة البقرة من موضع « لله ما في السموات وما في الارض » إلى آخرها ، وعشرا من أول « آل عمران » وعشرا من آخرها ، وأول آية من النساء ، وأول آية من المـائدة ، وأول آية من الأنعـام ، وأول آية من الأعراف ، والآية التي في الأعراف « إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ [٢] » حتى تختم الآية ، والآية التي في « يونس » من موضع « قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ [٣] » ، والآية التي في طه « وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى [٤] » ، وعشرا من أول الصافات ، و « قل هو الله أحد » ، والمعوِّذتين . تكتب في إناء نظيف ثم تغسل ثلاث مرات بماء نظيف ثم يحثو منه الوجع ثلاث حثوات ثم يتوضأ منـه كوضوئه للصلاة ويتوضأ قبل وضوئه للصلاة حتى يكون على طهر قبل أن يتوضأ به ثم يصب على رأسه وصدره وظهره ولا يستنجي به ثم يصلي ركعتين ثم يستشفي الله عز وجل ؛ يفعل ذلك ثلاثة أيام ، قدر ما يكتب في كل يوم كتابا . في رواية : ومن شر أبي قترة وما ولد . وقال : " فامسحوا نواصيكم " ولم يشك . وروى البخاري عن عائشة أن النبي صـلى الله عليه وسلم كان ينفث على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوِّذات فلما ثقل كنت أنفث عليـه بهن وأمسح بيد نفسه لبركتها . فسألت [٥] الزهري كيف كان ينفث ؟ قال : كان ينفث على يديه ثم يمسح بهما وجهـه . وروى مالك عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى قرأ على نفسه

---

(١) الصفد : العطاء . (٢) آية ٥٤ (٣) آية ٨١ (٤) آية ٦٩

(٥) السائل هو عروة بن الزبير راوي الحديث .

المعوّذتين وتفَل أو نفَث . قال أبو بكر بن الأنبارى : قال اللغويون تفسير « نفث » نفخ نفخا ليس معه ريق . ومعنى « تفَل » نفخ نفخا معه ريق . قال الشاعر :

فإن يبرأ فلم أنفث عليه ٭ وإن يُفْقَد فحُقّ له الفُقود

وقال ذو الرُّمّة :

ومن جَوْف ماءٍ عَرْمَض الحَوْلِ فوقه ٭ متى يَحْسُ منه مائحُ القوم يَتْفُلِ[1]

أراد ينفخ بريق . وسيأتى ما للعلماء فى النفث فى سورة الفلق إن شاء الله تعالى .

الثالثة — روى ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكره الرُّقَى إلا بالمعوّذات . قال الطبرى : وهذا حديث لا يجوز الاحتجاج بمثله فى الدِّين؛ إذ فى نقلته من لا يُعرف . ولو كان صحيحا لكان إما غلطا وإما منسوخا؛ لقوله عليه السلام فى الفاتحة "ما أدراك أنها رُقْية" . وإذا جاز الرقى بالمعوذتين وهما سورتان من القرآن كانت الرقية بسائر القرآن مثلهما فى الجواز إذ كله قرآن . وروى عنه عليه السلام أنه قال : "شفاء أمتى فى ثلاث آية من كتاب الله أو لعقة من عسل أو شرطة من حجم" . وقال رجاء الغَنَوىّ : ومن لم يستشف بالقرآن فلا شفاء له .

الرابعة — واختلف العلماء فى النُّشْرة، وهى أن يكتب شيئا من أسماء الله أو من القرآن ثم يغسله بالماء ثم يمسح به المريض أو يسقيه، فأجازها سعيد بن المسيِّب . قيل له : الرجل يؤخذ عن امرأته أيُحَلّ عنه ويُنْشر ؟ قال : لا بأس به، وما ينفع لم يُنْه عنه . ولم ير مجاهد أن تُكتب آيات من القرآن ثم تغسل ثم يسقاه صاحب الفزع . وكانت عائشة تقرأ بالمعوّذتين فى إناء ثم تأمر أن يُصب على المريض . وقال المازَرِىّ أبو عبد الله : النُّشرة أمر معروف عند أهل التعزيم؛ وسُمّيت بذلك لأنها تَنْشر عن صاحبها أى تُحَلّ . ومنعها الحسن وإبراهيم النَّخَعِىّ، قال النخعى : أخاف أن يصيبه بلاء؛ وكأنه ذهب إلى أنه ما يجىء به القرآن فهو

---

(1) العرمض : الخضرة التى تعلو الماء وهى الرمض والغلق والطحلب . والمائح (بالهمز) : الذى ينزل البئر فيملأ الدلو . والماتح (بالمثناة) هو الذى يجذب الدلو .

إلى أن يعقب بلاء أقرب منه إلى أن يفيد شفاء . وقال الحسن : سألت أنساً فقال : ذكروا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنها من الشيطان . وقد روى أبو داود من حديث جابر آبن عبدالله قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النُّشْرة فقال : "من عمل الشيطان". قال آبن عبد البر . وهذه آثار لينة ولها وجوه محتملة ، وقد قيل : إن هذا محمول على ما إذا كانت خارجة عما في كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام، وعن المداواة المعروفة . والنشرة من جنس الطب فهي غسالة شيء له فضل، فهي كوضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال صلى الله عليه وسلم : "لا بأس بالرُّقَى مالم يكن فيه شرك ومن استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل" .

قلت : قد ذكرنا النص في النشرة مرفوعا وأن ذلك لا يكون إلا من كتاب الله فليعتمد عليه.

الخامسة ــ قال مالك : لا بأس بتعليق الكتب التي فيها أسماء الله عز وجل على أعناق المرضى على وجه التبرّك بها إذا لم يُرِد مُعلِّقُها بتعليقها مدافعة العين . وهذا معناه قبل أن ينزل به شيء من العين . وعلى هذا القول جماعة أهل العلم، لا يجوز عندهم أن يعلّق على الصحيح من البهائم أو بني آدم شيء من العلائق خوف نزول العين، وكل ما يعلّق بعد نزول البلاء من أسماء الله عز وجل وكتابه رجاء الفرج والبرءُ من الله تعالى ، فهو كالرُّقَى المباح الذي وردت السنة بإباحته من العين وغيرها . وقد رَوَى عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا فَزِع أحدكم في نومه فليقل أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وسوء عقابه ومن شر الشياطين وأن يَحْضُرون" . وكان عبد الله يعلّمها من أدرك من ولده منهم، ومن لم يدرك كتبها وعلقها عليه . فإن قيل : فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من علّق شيئا وُكِل إليه" . ورأى آبن مسعود على أم ولده تميمة مربوطة فجبذها جبذا شديدا فقطعها وقال : إن آل آبن مسعود لأغنياءُ عن الشِّرك ، ثم قال : إن التمائم والرُّقَى والتِّوَلة من الشرك . قيل : ما التِّوَلة ؟ قال : ما تحبّبت به لزوجها . وروى عن عقبة بن عامر الجهني قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من علق تميمة فلا أتم الله له

ومن علق وَدَعة فلا وَدَع الله له قلبا". قال الخليل بن أحمد : التميمة قلادة فيها عُوَذ، والوَدَعة خرز. وقال أبو عمر: التميمة فى كلام العرب القلادة، ومعناه عند أهل العلم ما علق فى الأعناق من القلائد خشية العين أو غيرها أن تنزل أو لا تنزل قبل أن تنزل . فلا أتم الله عليه صحته وعافيته، ومن تعلّق وَدَعة — وهى مثلها فى المعنى — فلا ودّع الله له ؛ أى فلا بارك الله له ما هو فيه من العافية . والله أعلم . وهذا كله تحذير مما كان أهل الجاهلية يصنعونه من تعليق التمائم والقلائد، ويظنون أنها تقيهم وتصرف عنهم البلاء، وذلك لا يصرفه إلا الله عز وجل، وهو المعافى والمبتلى، لا شريك له . فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كانوا يصنعون من ذلك فى جاهليتهم . وعن عائشة قالت : ما تعلق بعد نزول البلاء فليس من التمائم . وقد كره بعض أهل العلم تعليق التميمة على كل حال قبل نزول البلاء وبعده . والقول الأول أصح فى الأثر والنظر إن شاء الله تعالى . وما روى عن ابن مسعود يجوز أن يريد بما كره تعليقه غير القرآن أشياء مأخوذة عن العرافين والكُهّان؛ إذ الاستشفاء بالقرآن معلقا وغير معلق لا يكون شركا، وقوله عليه السلام : "من علّق شيئا وُكِل إليه" فمن علّق القرآن ينبغى أن يتولاه الله ولا يكله إلى غيره؛ لأنه تعالى هو المرغوب إليه والمتوكّل عليه فى الاستشفاء بالقرآن . وسئل ابن المسيِّب عن التعويذ أيعلّق ؟ قال : إذا كان فى قصبة أو رقعة يحرز فلا بأس به . وهذا على أن المكتوب قرآن . وعن الضحاك أنه لم يكن يرى بأسا أن يعلّق الرجل الشىء من كتاب الله إذا وضعه عند الجماع وعند الغائط . ورخص أبو جعفر محمد بن على فى التعويذ يعلق على الصبيان . وكان ابن سيرين لا يرى بأسا بالشىء من القرآن يعلّقه الإنسان .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ تفريج الكروب وتطهير العيوب وتكفير الذنوب مع ما تفضّل به تعالى من الثواب فى تلاوته؛ كما روى الترمذى عن عبد الله ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الۤمۤ حرف بل ألفٌ حرفٌ ولامٌ حرفٌ وميمٌ حرفٌ". قال هذا حديث حسن صحيح غريب . وقد تقدم . ﴿ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ لتكذيبهم . قال

قتادة : ما جالس أحد القرآن إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، ثم قرأ « وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ » الآية . ونظير هذه الآية قوله : « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى »(١) . وقيل : شفاء في الفرائض والأحكام لما فيه من البيان .

قوله تعالى : وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ أي هؤلاء الذين يزيدهم القرآن خسارا صفتهم الإعراض عن تدبر آيات الله والكفران لنعمه . وقيل : نزلت في الوليد ابن المغيرة . ومعنى « نأى بجانبه » أي تكبر وتباعد . وناء مقلوب منه؛ والمعنى : بَعُدَ عن القيام بحقوق الله عز وجل؛ يقال : نأى الشيء أي بعد . ونأيته ونأيت عنه بمعنًى، أي بَعُدت . وأنأيته فانتأى؛ أي أبعدته فبَعُد . وتناءَوْا تباعدوا . والمُنْتأى : الموضع البعيد ؛ قال النابغة :

فإنك كالليل الذي هو مُدْرِكي *** وإن خِلْتُ أن المنتأى عنك واسعُ

وقرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان « ناء » مثل باع ، الهمزة مؤخرة، وهو على طريقة القلب من نأى؛ كما يقال : راء ورأى . وقيل : هو من النَّوْء وهو النهوض والقيام . وقد يقال أيضا للوقوع والجلوس نوء؛ وهو من الأضداد . وقرئ « ونَئِيَ » بفتح النون وكسر الهمزة . والعامة « نأى » في وزن رأى . ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ أي إذا ناله شدة من فقر أو سقم أو بؤس يئس وقنط؛ لأنه لا يثق بفضل الله تعالى .

قوله تعالى : قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

---

(١) آية ٤٤ سورة فصلت .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ﴾ قال ابن عباس : ناحيته . وقاله الضحاك . مجاهد : طبيعته . وعنه : حدته . ابن زيد : على دينه . الحسن وقتادة : نيته . مقاتل : جبلته . الفراء : على طريقته ومذهبه الذى جُبِل عليه . وقيل : قل كلٌّ يعمل على ما هو أشكل عنده وأولى بالصواب فى اعتقاده . وقيل : هو مأخوذ من الشكل ؛ يقال : لستَ على شَكْلى ولا شاكلتى . قال الشاعر :

كل امرئٍ يشبهه فعله ٭ ما يفعل المرء فهو أهله

فالشَّكل هو المثل والنظير والضَّرب . كقوله تعالى : « وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ »[1] . والشِّكل (بكسر الشين) : الهيئة . يقال : جارية حسنة الشِّكل . وهذه الأقوال كلّها متقاربة . والمعنى : أن كل أحد يعمل على ما يشاكل أصله وأخلاقه التى ألفها ، وهذا ذمٌّ للكافر ومدح للمؤمن . والآية والتى قبلها نزلتا فى الوليد بن المغيرة ؛ ذكرهُ المهدوىّ . ﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ أى بالمؤمن والكافر وما سيحصل من كل واحد منهم . وقيل : « أهدى سبيلا » أى أسرع قبولا . وقيل : أحسن دينا . وحكى أن الصحابة رضوان الله عليهم تذاكروا القرآن فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر فيه آية أرجى وأحسن من قوله تبارك وتعالى : « قل كلٌّ يعمل على شَاكلته » فإنه لا يشاكل بالعبد إلا العصيان ولا يشاكل بالرب إلا الغفران . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر فيه آية أرجى وأحسن من قوله تعالى : « بِسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ . حمٓ . تنزيلُ الكتابِ مِنَ اللهِ العزيزِ العليمِ . غافِرِ الذنبِ وقابِلِ التوبِ شديدِ العِقابِ ذِى الطَّول »[2] قدم غفران الذنوب على قبول التوبة ، وفى هذا إشارة للمؤمنين . وقال عثمان ابن عفان رضى الله عنه : قرأت جميع القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى : « نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ »[3] . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه .

---

(١) آية ٥٨ سورة ص . (٢) أول سورة غافر . (٣) آية ٤٩ سورة الحجر

قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »[1].

قلت : وقرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ »[2].

قوله تعالى : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

روى البخاري ومسلم والترمذي عن عبد الله قال : بينا أنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في حرث وهو متكئ على عسيب إذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح . فقال : ما رابكم إليه[3] ؟ وقال بعضهم : لا يستقبلكم بشيء تكرهونه . فقالوا : سلوه . فسألوه عن الروح فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئا ؛ فعلمت أنه يوحى إليه ، فقمت مقامي ؛ فلما نزل الوحي قال : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » لفظ البخاري . وفي مسلم : فأسكت النبي صلى الله عليه وسلم . وفيه : وما أوتوا . وقد اختلف الناس في الروح المسئول عنه ، أي الروح هو ؟ فقيل : هو جبريل ؛ قاله قتادة . قال : وكان ابن عباس يكتمه . وقيل هو عيسى . وقيل القرآن ، على ما يأتي بيانه في آخر الشورى . وقال علي بن أبي طالب : هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه ، في كل وجه سبعون ألف لسان ، في كل لسان سبعون ألف لغة ، يسبح الله تعالى بكل تلك اللغات ، يخلق الله تعالى من كل تسبيحة ملكا يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة . ذكره الطبري . قال ابن عطية : وما أظن القول يصح عن علي رضي الله عنه .

قلت : أسند البيهقي أخبرنا أبو زكريا عن أبي إسحاق أخبرنا أبو الحسن الطرائفي حدثنا عثمان بن سعيد حدثنا عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن

---

(١) آية ٥٣ سورة الزمر . (٢) آية ٨٢ سورة الأنعام . (٣) أي ما دعاكم إلى سؤال تخشون عاقبته بأن يستقبلكم بشيء تكرهونه .

عباس في قوله : « ويسألونك عن الروح » يقول : الروح مَلَك . وبإسناده عن معاوية بن صالح حدثني أبو هِران (بكسر الهاء) يزيد بن سَمُرة عمن حدّثه عن عليّ بن أبي طالب أنه قال في قوله تعالى : « ويسئلونك عن الروح » قال : هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه... الحديث بلفظه ومعناه . وروى عطاء عن ابن عباس قال : الروح ملك له أحد عشر ألف جناح وألف وجه ، يسبح الله إلى يوم القيامة ؛ ذكره النحاس . وعنه : جند من جنود الله لهم أيد وأرجل يأكلون الطعام ؛ ذكره الغَزْنَوي . وقال الخطابي : وقال بعضهم ، هو ملك من الملائكة بصفة وضعوها من عظم الخلقة . وذهب أكثر أهل التأويل إلى أنهم سألوه عن الروح الذي يكون به حياة الجسد . وقال أهل النظر منهم : إنما سألوه عن كيفية الروح ومسلكه في بدن الإنسان ، وكيف امتزاجه بالجسم واتصال الحياة به ، وهذا شيء لا يعلمه إلا الله عز وجل . وقال أبو صالح : الروح خلق كخلق بني آدم وليسوا ببني آدم ، لهم أيد وأرجل . والصحيح الإبهام لقوله : « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » ... [1] أي هو أمر عظيم وشأن كبير من أمر الله تعالى ، مُبْهِمًا له وتاركا تفصيله ؛ ليعرف الإنسان على القطع عجزه عن علم حقيقة نفسه مع العلم بوجودها . وإذا كان الإنسان في معرفة نفسه هكذا كان بعجزه عن إدراك حقيقة الحق أولى . وحكمة ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له ، دلالةً على أنه عن إدراك خالقه أعجز .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ اختلف فيمن خُوطب بذلك ؛ فقالت فرقة : السائلون فقط . وقال قوم : المراد اليهود بجملتهم . وعلى هذا هي قراءة ابن مسعود « وما أوتوا » ورواها عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقالت فرقة : المراد العالم كله . وهو الصحيح ؛ وعليه قراءة الجمهور « وما أوتيتم » . وقد قالت اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم : كيف لم نُؤت من العلم إلا قليلا وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ؟ فعارضهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم الله فغُلِبوا . وقد نص رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله في بعض الأحاديث : "كُلًّا" يعني أن المراد بـ « ما أوتيتم » جميع

(١) مكان هذه الأصفار في جميع نسخ الأصل : « دليل على خلق الروح » . ولم نر لهذه الجملة في سياق الكلام معنى .

العالم . وذلك أن يهود قالت له : نحن عنيت أم قومك . فقال : "كُلًّا" . وفى هذا المعنى نزلت « وَلَوْ أَنَّ مَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ »[1] . حكى ذلك الطبرى رحمه الله ! وقد قيل : إن السائلين عن الروح هم قريش ، قالت لهم اليهود : سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح فإن أخبركم عن ٱثنين وأمسك عن واحدة فهو نبى ؛ فأخبرهم بـ أصحاب الكهف وخبر ذى القرنين على ما يأتى . وقال فى الروح : « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى » أى من الأمر الذى لا يعلمه إلا الله . ذكره المهدوى وغيره من المفسرين عن ابن عباس .

قوله تعالى : وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يعنى القرآن . أى كما قدرنا على إنزاله نقدر على إذهابه حتى ينساه الخلق . ويتصل هذا بقوله : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » أى ولو شئتُ أن أذهب بذلك القليل لقدرت عليه . ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ أى ناصرا يردّه عليك . ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَبِّكَ ﴾ يعنى لكن لا نشاء ذلك رحمة من ربك ؛ فهو استثناء ليس من الأوّل . وقيل : إلا أن يرحمك ربّك فلا يذهب به . ﴿ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ إذ جعلك سيّد ولد آدم ، وأعطاك المقام المحمود وهذا الكتاب العزيز .

وقال عبد الله بن مسعود : أوّل ما تفقدون من دينكم الأمانة ، وآخر ما تفقدون الصلاة ، وأن هذا القرآن كأنه قد نُزع منكم ، تُصبحون يوما وما معكم منه شىء . فقال رجل : كيف يكون ذلك يا أبا عبد الرحمن ! وقد ثبّتناه فى قلوبنا وأثبتناه فى مصاحفنا ، نعلّمه أبناءنا ويعلمه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة ! قال : يسرى به فى ليلة فيذهب بما فى المصاحف وما فى القلوب ، فتصبح الناس كالبهائم . ثم قرأ عبد الله « ولئن شئنا لنذهبنّ بالذى أوحينا إليك » الآية . أخرجه أبو بكر بن أبى شيبة بمعناه قال : أخبرنا أبو الأحوص عن عبد العزيز بن رُفيع عن

---
(١) آية ٢٧ سورة لقمان .

شداد بن مَعْقِل قال قال عبد الله ــ يعني ابن مسعود ــ : إن هذا القرآن الذى بين أظهركم يوشك أن يُنزع منكم . قال : قلت كيف ينزع منا وقد أثبته الله فى قلوبنا وثبتناه فى مصاحفنا! قال: يسرى عليه فى ليلة واحدة فينزع ما فى القلوب ويذهب ما فى المصاحف ويصبح الناس منه فقراء . ثم قرأ « ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك » وهذا إسناد صحيح . وعن ابن عمر : لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل، له دَوِيّ كدويّ النحل، فيقول الله ما بالك . فيقول : يارب منك خرجت و إليك أعود، أُتلَى فلا يُعمل بى، أُتلَى ولا يعمل بى.

قلت : قد جاء معنى هــذا مرفوعا من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وحذيفة . قال حذيفة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يدرس الإسلام كما يدرس وَشْيُ الثوب حتى لا يُدْرَى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة فيسرى على كتاب الله تعالى فى ليلة فلا يبقى منه فى الأرض آية وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله . وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة" . قال له صِلَة[(1)] : ما تغنى عنهم لا إله إلا الله! وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة ؛ فأعرض عنه حذيفة ؛ ثم ردّدها ثلاثا ، كل ذلك يُعرض عنه حذيفة . ثم أقبل عليه حذيفة فقال : يا صِلَة ! تنجيهم من النار ، ثلاثا . خرجه ابن ماجه فى السنن . وقال عبد الله بن عمر : خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو معصوب الرأس من وجع فضحك ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : "أيها الناس ما هذه الكتب التى تكتبون أكتاب غير كتاب الله يوشك أن يغضب الله لكتابه فلا يَدَع ورقا ولا قلبا إلا أخذ منه" قالوا : يا رسول الله ، فكيف بالمؤمنين والمؤمنات يومئذ ؟ قال : "من أراد الله به خيرا أبقى فى قلبه لا إله إلا الله" ذكره الثعلبيّ والغزنويّ وغيرهما فى التفسير .

قوله تعالى : قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾

(1) هو صلة بن زفر العبسي، أحد رجال سند الحديث .

أى عونا ونصيرا؛ مثل ما يتعاون الشعراء على بيت شعر فيقيمونه. نزلت حين قال الكفار: لو نشاء لقلنا مثل هذا؛ فأكذبهم الله تعالى. وقد مضى القول فى إعجاز القرآن فى أول الكتاب[1] والحمد لله. و ﴿لَا يَأْتُونَ﴾ جواب القسم فى «لئن» وقد يجزم على إرادة الشرط. قال الشاعر

لئن كان ما حُدِّثْتُه اليوم صادقا • أَقُم[2] فى نهار القَيْظ للشمس باديا

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أى وجهنا القول فيه بكل مثل يجب به الاعتبار؛ من الآيات والعبر والترغيب والترهيب، والأوامر والنواهى وأقاصيص الأولين، والجنة والنار والقيامة. ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ يريد أهل مكة، بيّن لهم الحق وفتح لهم وأمهلهم حتى تبيّن لهم أنه الحق، فأبوا إلا الكفر وقت تبين الحق. قال المهدوى: ولا حجة للقدرى فى قولهم: لا يقال أبى إلا لمن أبى فعل ما هو قادر عليه؛ لأن الكافر وإن كان غير قادر على الإيمان بحكم الله عليه بالإعراض عنه وطبعه على قلبه، فقد كان قادرا وقت الفسحة والمهلة على طلب الحق وتمييزه من الباطل.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٦٩ طبعة ثانية أو ثالثة.

(٢) رواية خزانة الأدب فى الشاهد الرابع والثلاثين بعد الستمائة: «وأصحِ فى نهار القيظ ...» الخ.

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ الآية نزلت في رؤساء قريش مثل عتبة وشيبة ابني ربيعة ، وأبي سفيان والنضر بن الحارث ، وأبي جهل وعبد الله بن أبي أمية ، وأمية بن خلف وأبي البَخْتَرِيّ ، والوليد بن المغيرة وغيرهم . وذلك أنهم لما عجزوا عن معارضة القرآن ولم يرضَوْا به معجزة ، اجتمعوا — فيما ذكر ابن إسحاق وغيره — بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد — صلى الله عليه وسلم — فكلّموه وخاصموه حتى تُعْذَرُوا فيه ، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلموك فأتهم ، فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بَدْو ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصا يحبّ رشدهم ويَعِزّ عليه عَنَتُهم ، حتى جلس إليهم فقالوا له : يا محمد ! إنا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلتَ على قومك ، لقد شتمتَ الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وسفّهت الأحلام وفرّقت الجماعة ، فما بَقِيَ أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك ، أو كما قالوا له . فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا ، وإن كنت تريد به ملكا ملّكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًّا تراه قد غَلَب عليك — وكانوا يسمّون التابع من الجن رَئِيًّا — فربما كان ذلك بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نُبْرِئك منه أو نُعذر فيك . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما بي ما تقولون ما جئتُ بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني إليكم رسولا وأنزل عليّ كتابا وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلّغتكم رسالات ربي ونصحتُ لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردّوه عليّ أصبرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم " أو كما قال صلى الله عليه وسلم . قالوا : يا محمد ، فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك ، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ولا أقلّ ماء ولا أشدّ عيشا منا ، فسَلْ لنا ربّك الذي بعثك بما بعثك به ، فليسيرْ

عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا وليخرق لنا فيها أنهارا كأنهار الشام، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا قصي بن كلاب، فإنه كان شيخ صدق فنسألهم عما تقول، أحق هو أم باطل، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك، وعرفنا به منزلتك من الله تعالى، وأنه بعثك رسولا كما تقول. فقال لهم صلوات الله عليه وسلامه: "ما بهذا بعثت إليكم إنما جئتكم من الله تعالى بما بعثني به وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم". قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك! سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي؛ فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أنا بفاعل وما أنا بالذي يسأل ربه هذا وما بعثت بهذا إليكم ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا — أو كما قال — فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم" قالوا: فأسقط السماء علينا كسفا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل؛ فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ذلك إلى الله عز وجل إن شاء أن يفعله بكم فعل" قالوا: يا محمد، فما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك فيعلمك بما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذ لم نقبل منك ما جئتنا به. إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل من اليمامة يقال له الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا، فقد أعذرنا إليك يا محمد؛ وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلا. فلما قالوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قام عنهم وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته، هو لعاتكة بنت عبد المطلب، فقال له: يا محمد! عرض عليك

قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول، ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل ! ثم سألوك أن تأخذ لنفسك مايعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل ! ثم سألوك أن تعجّل لهم بعض ماتخوفهم به من العذاب فلم تفعل ! ـ أو كما قال له ـ فوالله لا أومن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سُلَّمًا ، ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها، ثم تأتى معك بصَكٍّ معه أربعةٌ من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وَأيمُ اللهِ لو فعلت ذلك ماظننت أنى أصدقك! ثم انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله حزينا آسفًا لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه؛ كلّه لفظ ابن إسحاق . وذكر الواحدى عن عكرمة عن ابن عباس : فأنزل الله تعالى « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا » . ﴿ يَنْبُوعًا ﴾ يعنى العيون ؛ عن مجاهد . وهى يفعول، من نبع ينبع . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى « تَفْجُرَ لنا » مخففة؛ واختاره أبو حاتم لأن الينبوع واحد . ولم يختلفوا فى تفجّر الأنهار أنه مشدّد . قال أبو عبيد : والأولى مثلها . قال أبو حاتم . ليست مثلها؛ لأن الأولى بعدها ينبوع وهو واحد، والثانية بعدها الأنهار وهى جمع ، والتشديد يدل على التكثير . أجيب بأن « ينبوعا » وإن كان واحدا فالمراد به الجمع ؛ كما قال مجاهد . الينبوع عين الماء، والجمع الينابيع . وقرأ قتادة « أو يكون لك جنة » . ﴿ خِلَالَهَا ﴾ أى وسطها . ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ ﴾ قراءة العامة . وقرأ مجاهد « أو يَسْقُطَ السماءُ » على إسناد الفعل إلى السماء . ﴿ كِسَفًا ﴾ قطعا؛ عن ابن عباس وغيره . والكِسَف (بفتح السين) جمع كِسفة، وهى قراءة نافع وابن عامر وعاصم . الباقون « كِسْفًا » بإسكان السين . قال الأخفش : من قرأ كِسْفًا من السماء جعله واحدا، ومن قرأ كِسَفًا جعله جمعا . قال المهدوى : ومن أسكن السين جاز أن يكون جمع كِسْفة وجاز أن يكون مصدرا ؛ من كسفت الشىء إذا غطّيته . فكأنهم قالوا : أسقطها طبقا علينا . وقال الجوهرى : الكِسْفة القطعة من الشىء؛ يقال: أعطنى كِسْفة من ثوبك ، والجمع كِسْف وكِسَف . ويقال : الكِسْف والكِسْفة واحد .

﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾ أى معاينة ، عن قتادة وابن جريج . وقال الضحاك وابن عباس : كفيلا . قال مقاتل : شهيدا . مجاهد : هو جمع القبيلة ؛ أى بأصناف الملائكة قبيلةً قبيلةً . وقيل : ضمناء يضمنون لنا إتيانك به . ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ ﴾ أى من ذهب ؛ عن ابن عباس وغيره . وأصله الزينة . والمُزَخْرَف المزيّن . وزخارف الماء طرائقه . وقال مجاهد : كنت لا أدرى ما الزُّخرف حتى رأيته فى قراءة ابن مسعود « بيتٌ من ذَهَب » أى نحن لا ننقاد لك مع هذا الفقر الذى نرى . ﴿ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ ﴾ أى تصعد؛ يقال : رَقِيت فى السُّلّم أرْقَى رَقْيًا ورُقِيًّا إذا صعدت . وارتقيت مثله . ﴿ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ ﴾ أى من أجل رُقِيّك ، وهو مصدر؛ نحو مضى يمضى مُضِيًّا، وهوى يهوى هُوِيًّا، كذلك رقى يرقى رُقِيًّا . ﴿ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ ﴾ أى كتابا من الله تعالى إلى كل رجل منا؛ كما قال تعالى : « بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً »(١) . ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي ﴾ وقرأ أهل مكة والشام « قال سبحان ربى » يعنى النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ أى قال ذلك تنزيها لله عز وجل عن أن يعجز عن شىء وعن أن يُعترض عليه فى فعل . وقيل : هذا كله تعجب عن فرط كفرهم واقتراحاتهم . الباقون « قل » على الأمر؛ أى قل لهم يا محمد ﴿ هَلْ كُنْتُ ﴾ أى ما أنا ﴿ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ أتبع ما يوحى إلىّ من ربى، ويفعل الله ما يشاء من هذه الأشياء التى ليست فى قدرة البشر، فهل سمعتم أحدا من البشر أتى بهذه الآيات ! وقال بعض الملحدين : ليس هذا جوابا مقنعا، وغلطوا؛ لأنه أجابهم فقال : إنما أنا بشر لا أقدر على شىء مما سألتمونى، وليس لى أن أتخيّر على ربى ، ولم تكن الرسل قبلى يأتون أممهم بكل ما يريدونه ويبغونه ، وسبيلى سبيلهم، وكانوا يقتصرون على ما آتاهم الله من آياته الدالة على صحة نبوّتهم، فإذا أقاموا عليهم الحجة لم يجب لقومهم أن يقترحوا غيرها، ولو وجب على الله أن يأتيهم بكل ما يقترحونه من الآيات لوجب عليه أن يأتيهم بمن يختارونه من الرسل، ولوجب لكل إنسان أن يقول : لا أومن حتى أوتَى بآية خلاف ما طلب غيرى . وهذا يئول إلى أن يكون التدبير إلى الناس ، وإنما التدبير إلى الله تعالى .

---

(١) آية ٥٢ سورة المدثر .

قوله تعالى : وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا منعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾ يعنى الرسل والكتب من عند الله بالدعاء إليه . ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ جهلا منهم . ﴿أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ أى الله أجل من أن يكون رسوله من البشر . فبيّن الله تعالى فرط عنادهم لأنهم قالوا : أنت مثلنا فلا يلزمنا الانقياد ، وغفلوا عن المعجزة . فـ« أَنْ » الأولى فى محل نصب بإسقاط حرف الخفض . و« أنْ » الثانية فى محل رفع بـ« منع » أى وما منع الناس من أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا قولهم أبعث الله بشرا رسولا .

قوله تعالى : قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾

أعلم الله تعالى أن الملَك إنما يُرسل إلى الملائكة ؛ لأنه لو أرسل ملكا إلى الآدميين لم يقدروا أن يروه على الهيئة التى خُلق عليها ، و إنما أقدر الأنبياء على ذلك وخلق فيهم ما يقدرون به ؛ ليكون ذلك آية لهم ومعجزة . وقد تقدّم فى « الأنعام » نظير هذه الآية ؛ وهو قوله : « وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا » وقد تقدّم الكلام فيه (١) .

قوله تعالى : قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

يروى أن كفار قريش قالوا حين سمعوا قوله « هل كنتُ إلا بشرا رسولا » : فمن يشهد لك أنك رسول الله . فنزل « قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا » .

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٩٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى ﴾ أى لو هداهم الله لاهتدوا . ﴿ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى لايهديهم أحد . ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ﴾ فيه وجهان : أحدهما — أن ذلك عبارة عن الإسراع بهم الى جهنم ؛ من قول العرب : قَدِم القوم على وجوههم إذا أسرعوا . الثانى — أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم كما يُفعل فى الدنيا بمن يبالَغ فى هَوانه وتعذيبه . وهـذا هو الصحيح ؛ لحديث أنس أن رجلا قال : يا رسول الله ، الذين يحشرون على وجوههم ، أيحشر الكافر على وجهه ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أليس الذى أمشاه على الرجلين قادرا على أن يُمْشِيَه على وجهه يوم القيامة " : قال قتادة حين بلغه : بَلَى وعِزّةِ رَبِّنا . أخرجه البخارى ومسلم وحسبك . ﴿ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ قال ابن عباس والحسن : أى عُمْىٌ عمّا يسرّهم، بُكْمٌ عن التكلم بحجة، صُمٌّ عما ينفعهم؛ وعلى هـذا القول حواسهم باقية على ما كانت عليه . وقيل : إنهم يحشرون على الصفة التى وصفهم الله بها ؛ ليكون ذلك زيادة فى عذابهم، ثم يخلق ذلك لهم فى النار، فأبصروا ؛ لقوله تعالى : « وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا »[1]، وتكلموا ؛ لقوله تعالى : « دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا »[2]، وسمعوا ؛ لقوله تعالى : « سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا »[3] . وقال مقاتل بن سليمان : إذا قيل لهم « اِخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ »[4] صاروا عُمْيًا لايبصرون صُمًّا لا يسمعون بُكْمًا لا يفقهون . وقيل : عموا حين دخلوا النار لشدّة سوادها، وانقطع كلامهم حين قيل لهم : اخسئوا فيها ولا تكلمون . وذهب الزفير والشهيق بسمعهم فلم يسمعوا شيئا . ﴿ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أى مستقرهم ومقامهم . ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ ﴾ أى سكنت ؛ عن الضحاك

(١) آية ٥٣ سورة الكهف . (٢) آية ١٣ سورة الفرقان . (٣) آية ١٢ سورة الفرقان .
(٤) آية ١٠٨ سورة المؤمنون

وغيره . مجاهد طفئت . يقال : خبت النار تخبو خبوا أى طفئت، وأخبيتها أنا . ﴿ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ أى نارا تتلهب . وسكون التهابها من غير نقصان فى آلامهم ولا تخفيف عنهم من مذاهم . وقيل : إذا أرادت أن تخبو . كقوله : « وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ »[1] .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أى ذلك العذاب جزاء كفرهم . ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا ﴾ أى ترابا . ﴿ أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ فأنكروا البعث فأجابهم الله تعالى فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ قيل : فى الكلام تقديم وتأخير، أى أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض، وجعل لهم أجلا لا ريب فيه قادر على أن يخلق مثلهم . والأجل : مدة قيامهم فى الدنيا ثم موتهم، وذلك ما لا شك فيه إذ هو مشاهد . وقيل : هو جواب قولهم : « أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا » . وقيل : هو يوم القيامة . ﴿ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ أى المشركون إلا جحودا بذلك الأجل وبآيات الله . وقيل : ذلك الأجل هو وقت البعث، ولا ينبغى أن يُشَكّ فيه .

قوله تعالى : قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

---

(١) آية ٤٥ من هذه السورة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ﴾ أى خزائن الأرزاق. وقيل: خزائن النعم؛ وهذا أعم. ﴿ إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴾ من البخل، وهو جواب قولهم : « لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا » حتى نتوسع فى المعيشة . أى لو توسعتم لبخلتم أيضا . وقيل : المعنى لو ملك أحد المخلوقين خزائن الله لما جاد بها كجود الله تعالى؛ لأمرين : أحدهما — أنه لا بد أن يمسك منها لنفقته وما يعود بمنفعته . الثانى — أنه يخاف الفقر ويخشى العدم . والله تعالى يتعالى فى وجوده عن هاتين الحالتين . والإنفاق فى هذه الآية بمعنى الفقر؛ قاله ابن عباس وقتادة . وحكى أهل اللغة أنفق وأصرم وأعدم وأقتر إذا قل ماله . ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ أى بخيلا مضيقا . يقال : قتر على عياله يقتِر ويقتُر قترا وقتورا إذا ضيق عليهم فى النفقة، وكذلك التقتير والإقتار؛ ثلاث لغات . واختلف فى هذه الآية على قولين : أحدهما — أنها نزلت فى المشركين خاصة؛ قاله الحسن . والثانى — أنها عامة؛ وهو قول الجمهور؛ وذكره الماوردى .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ اختلف فى هذه الآيات؛ فقيل : بمعنى آيات الكتاب؛ كما روى الترمذى والنسائى عن صفوان بن عسال المرادى أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبى نسأله؛ فقال : لا تقل له نبى فإنه إن سمعنا كان له أربعة أعين؛ فأتيا النبى صلى الله عليه وسلم فسألاه عن قول الله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا تسرقوا ولا تسحروا ولا تمشوا ببرىء إلى سلطان فيقتله ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا محصنة ولا تفروا من الزحف — شك شعبة — وعليكم [يا معشر] اليهود خاصة ألا تعدوا فى السبت" فقبلا يديه ورجليه وقالا : نشهد أنك نبى . قال :

"فما يمنعكما أن تُسلما" قالا : إن داود دعا الله ألا يزال فى ذريته نبىّ وإنا نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا اليهود . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وقد مضى فى البقرة[1] . وقيل : الآيات بمعنى المعجزات والدلالات . قال ابن عباس والضحاك : الآيات التسع العصا واليد واللسان والبحر والطوفان والجراد والقُمّل والضفادع والدم؛ آيات مفصَّلات . وقال الحسن والشعبىّ : الخمس المذكورة فى «الأعراف»[2]؛ يعنيان الطوفان وما عطف عليه، واليد والعصا والسنين والنقص من الثمرات . وروى نحوه عن الحسن؛ إلا أنه يجعل السنين والنقص من الثمرات واحدة، وجعل التاسعة تلقف العصا ما يأفكون . وعن مالك كذلك؛ إلا أنه جعل مكان السنين والنقص من الثمرات : البحر والجبل . وقال محمد بن كعب : هى الخمس التى فى « الأعراف » والبحر والعصا والحجر والطمس على أموالهم . وقد تقدم شرح هذه الآيات مستوفًى والحمد لله .

﴿ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ ﴾ أى سلهم يا محمد إذ جاءهم موسى بهذه الآيات، حسبما تقدم بيانه فى يونس . وهذا سؤال استفهام ليعرف اليهود صحة ما يقول محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا ﴾ أى ساحرا بغرائب أفعالك ؛ قاله الفراء وأبو عبيدة . فوضع المفعول موضع الفاعل ؛ كما تقول : هذا مشئوم وميمون ، أى شائم ويامن . وقيل مخدوعا . وقيل مغلوبا ؛ قاله مقاتل . وقيل غير هذا؛ وقد تقدم . وعن ابن عباس وأبى نَهيك أنهما قرآ « فَسَأَلَ بَنِي إسرائيل » على الخبر؛ أى سأل موسى فرعونَ أن يخلى بنى إسرائيل ويطلق سبيلهم ويرسلهم معه .

قوله تعالى : قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ ﴾ يعنى الآيات التسع . و « أنزل » بمعنى أوجد . ﴿ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾ أى دلالات يستدل بها على قدرته ووحدانيته .

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩٨ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٦٧

وقراءة العامه « علِمت » بفتح التاء ، خطابا لفرعون . وقرأ الكسائى بضم التاء ، وهى قراءة علىّ رضى الله عنه ؛ وقال : والله ما علم عدو الله ولكن موسى هو الذى علم ، فبلغت ابن عباس فقال : إنها « لقد علمت » ، واحتج بقوله تعالى : « وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا »(١) . ونسب فرعون إلى العناد . وقال أبو عبيد : والمأخوذ به عندنا فتح التاء ؛ وهو الأصح للمعنى الذى احتج به ابن عباس ؛ ولأن موسى لا يحتج بقوله : علمت أنا ، وهو الرسول الداعى ، ولو كان مع هذا كلّه تصح به القراءة عن علىّ لكانت حجة ، ولكن لا تثبت عنه ، إنما هى عن كُلثوم المرادىّ وهو مجهول لا يعرف ، ولا نعلم أحدا قرأ بها غير الكسائى . وقيل : إنما أضاف موسى إلى فرعون العلم بهذه المعجزات ؛ لأن فرعون قد علم مقدار ما يتهيأ للسحرة فعله ، وأن مثل ما فعل موسى لا يتهيأ لساحر ، وأنه لا يقدر على فعله إلا من يفعل الأجسام ويملك السموات والأرض . وقال مجاهد : دخل موسى على فرعون فى يوم شاتٍ وعليه قطيفة له ، فألقى موسى عصاه فإذا هى ثعبان ، فرأى فرعون جانبى البيت بين فُقْمَيْها ، ففزع وأحدث فى قطيفته . ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ الظن هنا بمعنى التحقيق . والثبور : الهلاك والخسران أيضا . قال الكُمَيْت :

ورأت قُضاعة فى الأيا ... من رأىَ مَثْبُورٍ وثابر

أى مخسور وخاسر ، يعنى فى انتسابها إلى اليمن . وقيل : ملعونا . رواه المِنْهال عن سعيد ابن جُبير عن ابن عباس . وقاله أبان بن تَغْلِب . وأنشد :

يا قومنا لا تَرُومُوا حَرْبَنَا سَفَهًا ... إن السَّفاه وإن البَغْىَ مَثْبُورُ

أى ملعون . وقال ميمون بن مهران عن ابن عباس : « مثبورا » ناقص العقل . ونظر المأمون رجلا فقال له : يا مثبور ؛ فسئل عنه قال : قال الرشيد قال المنصور لرجل : مثبور ؛ فسألته فقال : حدثنى ميمون بن مِهران ... فذكره . وقال قتادة هالكا . وعنه أيضا والحسن ومجاهد : مهلكا . والثُّبور : الهلاك ؛ يقال : ثَبَر الله العدوّ ثبورا أهلكه . وقيل : ممنوعا

---

(١) آية ١٤ سورة النمل .

من الخير . حكى أهل اللغة : ما ثبرك عن كذا أى ما منعك منه . وثبره الله يثبره ثبراً . قال ابن الزبعرى :

إذ أجارى الشيطان فى سَنَن الغـ ـىّ ومن مال مَيْـلَه مثبور

الضحاك : «مثبورا» مسحورا . ردّ عليه مثلَ ما قال له باختلاف اللفظ . وقال ابن زيد : «مثبورا» مخبولا لا عقل له .

قوله تعالى : فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أى أراد فرعون أن يخرج موسى وبنى إسرائيل من أرض مصر بالقتل أو الإبعاد؛ فأهلكه الله عز وجل . ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى من بعد إغراقه ﴿ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴾ أى أرض الشام ومصر . ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ أى القيامة ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ أى من قبوركم مختلطين من كل موضع ، قد اختلط المؤمن بالكافر لا يتعارفون ولا ينحاز أحد منكم إلى قبيلته وحَيّه . وقال ابن عباس وقتادة : جئنا بكم جميعا من جهات شتّى . والمعنى واحد . قال الجوهرى : واللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى؛ يقال : جاء القوم بلَفّهم ولفيفهم؛ أى وأخلاطهم . وقوله تعالى « جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا » أى مجتمعين مختلطين . وطعام لَفِيف إذا كان مخلوطا من جنسين فصاعدا . وفلان لفيف فلان أى صديقه . قال الأصمعى : اللفيف جمعٌ وليس له واحد ، وهو مثل الجميع . والمعنى : أنهم يخرجون وقت الحشر من القبور كالجراد المنتشر ، مختلطين لا يتعارفون . وقال الكلبى : «فإذا جاء وعد الآخرة» يعنى مجىء عيسى عليه السلام من السماء .

قوله تعالى : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (١٠٥)

قوله تعالى : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ هذا متصل بما سبق من ذكر المعجزات والقرآن . والكناية ترجع الى القرآن . ووجه التكرير فى قوله « وبالحق نزل » يجوز أن يكون معنى الأوّل : أوجبنا إنزاله بالحق . ومعنى الثانى : ونزل وفيه الحق؛ كقوله خرج بثيابه، أى وعليه ثيابه . وقيل الباء فى «وبالحق» الأوّل بمعنى مع، أى مع الحق؛ كقولك ركب الأمير بسيفه أى مع سيفه . « وبالحق نزل » أى بمحمد صلى الله عليه وسلم ، أى نزل عليه؛ كما تقول نزلت بزيد . وقيل : يجوز أن يكون المعنى وبالحق قدرنا أن ينزل، وكذلك نزل .

قوله تعالى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴾ (١٠٦)

قوله تعالى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ مذهب سيبويه أن «قرآنا» منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر . وقرأ جمهور الناس « فَرَقناه » بتخفيف الراء، ومعناه بيناه وأوضحناه، وفرقنا فيه بين الحق والباطل؛ قاله الحسن . وقال ابن عباس: فصلناه . وقرأ ابن عباس وعلىّ وابن مسعود وأُبىّ بن كعب وقتادة وأبو رجاء والشَّعبىّ « فرّقناه » بالتشديد؛ أى أنزلناه شيئا بعد شىء لا جملة واحدة؛ إلا أن فى قراءة ابن مسعود وأُبىّ «فرقناه عليك» .

واختلف فى كم نزل القرآن من المدّة؛ فقيل : فى خمس وعشرين سنة . ابن عباس فى ثلاث وعشرين . أنس : فى عشرين . وهذا بحسب الخلاف فى سن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا خلاف أنه نزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة . وقد مضى هذا فى «البقرة» . ﴿ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ أى تطاول فى المدّة شيئا بعد شىء . ويتناسق هذا القرآن على قراءة ابن مسعود أى أنزلناه آية آية وسورة سورة . وأمّا على القول الأوّل فيكون «عَلَى مُكْث» أى على ترسّل فى التلاوة وترتيل؛ قاله مجاهد وابن عباس وابن جريج . فيعطى القارئ القراءة حقّها من

ترتيلها وتحسينها وتطييبها بالصوت الحسن ما أمكن من غير تلحين ولا تطريب مؤد[1] إلى تغيير لفظ القرآن بزيادة أو نقصان فإن ذلك حرام على ما تقدم أول الكتاب . وأجمع القراء على ضم الميم من « مُكث » إلا ابن مُحَيصن فإنه قرأ « مَكث » بفتح الميم . ويقال . مَكث ومُكث ومِكث؛ ثلاث لغات . قال مالك : « على مُكث » على تثبّت وترسّل .

قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ مبالغة وتأكيد بالمصدر للمعنى المتقدم، أى أنزلناه نجمًا بعد نجم[2]؛ ولو أخذوا بجميع الفرائض فى وقت واحد لنفروا .

قوله تعالى : قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ﴾ يعنى القرآن . وهذا من الله عز وجل على وجه التبكيت لهم والتهديد لا على وجه التخيير . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى من قبل نزول القرآن وخروج النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهم مؤمنو أهل الكتاب ؛ فى قول ابن جُريج وغيره . قال ابن جُريج : معنى « إذا يتلى عليهم » كتابهم . وقيل القرآن .﴿ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ وقيل: هم قوم من ولد إسماعيل تمسّكوا بدينهم إلى أن بعث الله تعالى النبيّ عليه السلام؛ منهم زيد بن عمرو بن نُفيل وورقة بن نوفل . وعلى هذا ليس يريد أُوتوا الكتاب بل يريد أوتوا علم الدِّين . وقال الحسن : الذين أوتوا العلم أمةُ محمد صلى الله عليه وسلم . وقال مجاهد : إنهم ناس من اليهود؛ وهو أظهر لقوله « مِنْ قَبْله » . ﴿ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ يعنى القرآن فى قول مجاهد . كانوا إذا سمعوا ما أنزل الله تعالى من القرآن سجدوا وقالوا : « سبحان ربّنا إن كان وعد ربّنا لمفعولا » . وقيل : كانوا إذا تلَوْا كتابهم وما أنزل عليه من القرآن خشعوا وسجدوا وسبحوا، وقالوا : هذا هو المذكور فى التوراة، وهذه صفته، ووعد الله به واقع لا محالة، وجنحوا إلى الإسلام؛ فنزلت الآية فيهم . وقالت فرقة : المراد بالذين أوتوا العلم من قبله

---

(١) فى نسخ الأصل : « المؤدى » . (٢) أى نزل آية آية .

محمد صلى الله عليه وسلم ، والضمير في « قبله » عائد على القرآن حسب الضمير في قوله « قل آمنوا به » . وقيل : الضميران لمحمد صلى الله عليه وسلم ، واستأنف ذكر القرآن في قوله : « إذا يتلى عليهم » .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨)

دليل على جواز التسبيح في السجود . وفي صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في سجوده وركوعه "سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي" .

قوله تعالى : وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ هذه مبالغة في صفتهم ومدح لهم . وحق لكل من توسم بالعلم وحصل منه شيئا أن يجرى إلى هذه المرتبة ، فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويذل . وفي مسند الدارمي أبي محمد عن التيمي قال : من أوتي من العلم ما لم يبكه لخليق ألا يكون أوتي علما ؛ لأن الله تعالى نعت العلماء ، ثم تلا هذه الآية . ذكره الطبري أيضا . والأذقان جمع ذقن ، وهو مجتمع اللحيين . وقال الحسن : الأذقان عبارة عن اللحى ؛ أي يضعونها على الأرض في حال السجود ، وهو غاية التواضع . واللام بمعنى على ؛ تقول : سقط لفيه أي على فيه . وقال ابن عباس : « ويخرون للأذقان سجدا » أي للوجوه ، وإنما خص الأذقان بالذكر لأن الذقن أقرب شيء من وجه الإنسان . قال ابن خويز منداد : ولا يجوز السجود على الذقن ؛ لأن الذقن ها هنا عبارة عن الوجه ، وقد يعبر بالشيء عما جاوره وببعضه عن جميعه ؛ فيقال : خر لوجهه ساجدا وإن كان لم يسجد على خده ولا عينه . ألا ترى إلى قوله :

فخر صريعا لليدين وللفم

فإنما أراد : خر صريعا على وجهه ويديه .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ يَبْكُونَ ﴾ دليــل على جواز البكاء فى الصــلاة من خوف الله تعالى ، أو على معصيته فى دين الله ، وأن ذلك لا يقطعها ولا يضرها . ذكر ابن المبارك عن حماد بن سلمة عن ثابت البُنَانِيّ عن مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير عن أبيه قال : أتيت النبيّ صــلى الله عليه وسلم وهو يصــلى ولجوفه أزيز كأزيز المِرجل من البكاء . وفى كتاب أبى داود : وفى صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء .

الثالثــة ــ واختلف الفقهاء فى الأنين؛ فقال مالك : الأنين لا يقطع الصلاة للمريض، وأكرهه للصحيح ، وبه قال الثورى . وروى ابن الحكم عن مالك : التنحنح والأنين والنفخ لا يقطع الصــلاة . وقال ابن القاسم : يقطع . وقال الشــافعى : إن كان له حروف تُسمع وتُفهم يقطع الصــلاة . وقال أبو حنيفة : إن كان من خوف الله لم يقطع . وإن كان من وجع قطع . وروى عن أبى يوسف أن صــلاته فى ذلك كله تامة ؛ لأنه لا يخلو مريض ولا ضعيف من أنين .

الرابعــة ــ قوله تعــالى : ﴿ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾ تقــدم القــول فى الخشــوع فى « البقرة »[1] ويأتى .

قوله تعــالى : قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : ﴿قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ سبب نزول هــذه الآية أن المشركين سمعوا رسول الله صــلى الله عليه وســلم يدعو " يا الله يا رحمن " فقالوا : كان محمد يأمرنا بدعاء إله واحد وهو يدعو إلهين؛ قاله ابن عباس . وقال مكحول : تهجّد رسول الله صــلى الله عليه وسلم ليلةً فقال فى دعائه : " يا رحمن يا رحيم " فسمعه رجل

(١) [illegible]

من المشركين ، وكان باليمامة رجل يسمى الرحمن ؛ فقال ذلك السامع : ما بال محمد يدعو رحمان اليمامة . فنزلت الآية مبينة أنهما اسمان لمسمّى واحد ؛ فإن دعوتموه بالله فهو ذاك ، وإن دعوتموه بالرحمن فهو ذاك . وقيل : كانوا يكتبون فى صدر الكتب : باسمك اللهم ؛ فنزلت « إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ »(١) فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال المشركون : هذا الرحيم نعرفه فما الرحمن ؛ فنزلت الآية . وقيل : إن اليهود قالت : ما لنا لا نسمع فى القرآن اسما هو فى التوراة كثير . يعنون الرحمن ؛ فنزلت الآية . وقرأ طلحة بن مصرف « أيًّا مَنْ تدعوا فله الأسماء الحسنى » أى التى تقتضى أفضل الأوصاف وأشرف المعانى . وحسن الأسماء إنما يتوجه بتحسين الشرع ؛ لإطلاقها والنص عليها . وانضاف إلى ذلك أنها تقتضى معانى حسانا شريفة ؛ وهى بتوقيف لا يصح وضع اسم لله بنظر إلا بتوقيف من القرآن أو الحديث أو الإجماع . حسبما بيناه فى (الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ فيه مسئلتان .

الأولى ـ اختلفوا فى سبب نزولها على خمسة أقوال :

الأول ـ ما روى ابن عباس فى قوله تعالى : « وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا » قال : نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم متوارٍ بمكة ، وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ؛ فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به ؛ فقال الله تعالى : « وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ » فيسمع المشركون قراءتك . « وَلَا تُخَافِتْ بِهَا » عن أصحابك . أسمعهم القرآن ولا تجهر ذلك الجهر . ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ قال : يقول بين الجهر والمخافتة ؛ أخرجه البخارى ومسلم والترمذى وغيرهم . واللفظ لمسلم . والمخافتة : خفض الصوت والسكون ؛ يقال للميت إذا برد : خفت . قال الشاعر :

لم يبق إلا نفس خافت ... ومقلة إنسانها باهت
رثى لها الشامت مما بها ... يا ويح من يرثى له الشامت

(١) آية ٣٠ سورة النمل .

الثاني ــ ما رواه مسلم أيضاً عن عائشة فى قوله عز وجل : « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها » قالت : أنزل هذا فى الدعاء .

الثالث ــ قال ابن سيرين : كان الأعراب يجهرون بتشهدهم فنزلت الآية فى ذلك .

قلت : وعلى هذا فتكون الآية متضمنة لإخفاء التشهد ، وقد قال ابن مسعود : من السّنة أن تخفى التشهد ؛ ذكره ابن المنذر .

الرابع ــ ما روى عن ابن سيرين أيضا أن أبا بكر رضى الله عنه كان يُسر قراءته ، وكان عمر يجهر بها ، فقيل لهما فى ذلك ؛ فقال أبو بكر : إنما أناجى ربى ، وهو يعلم حاجتى إليه . وقال عمر : أنا أطرد الشيطان وأوقظ الوسْنان ؛ فلما نزلت هذه الآية قيل لأبى بكر : ارفع قليلا ، وقيل لعمر اخفض أنت قليلا ؛ ذكره الطبرى وغيره .

الخامس ــ ما روى عن ابن عباس أيضا أن معناها ولا تجهر بصلاة النهار ، ولا تخافت بصلاة الليل ؛ ذكره يحيى بن سلام والزهراوى . فتضمنت أحكام الجهر والإسرار بالقراءة فى النوافل والفرائض ، فأما النوافل فالمصلى مخير فى الجهر والسر فى الليل والنهار ، وكذلك روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يفعل الأمرين جميعا . وأما الفرائض فحكمها فى القراءة معلوم ليلا ونهارا .

وقول سادس ــ قال الحسن : يقول الله لا ترائى بصلاتك تحسنها فى العلانية ولا تسيئها فى السر . وقال ابن عباس : لا تصلّ مرائيا للناس ولا تدعها مخافة الناس .

الثانية ــ عبّر تعالى بالصلاة هنا عن القراءة كما عبر بالقراءة عن الصلاة فى قوله : « وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا » لأن كل واحد منهما مرتبط بالآخر ؛ لأن الصلاة تشتمل على قراءة وركوع وسجود فهى من جملة أجزائها ؛ فعبر بالجزء عن الجملة وبالجملة عن الجزء على عادة العرب فى المجاز وهو كثير . ومنه الحديث الصحيح : " قسمتُ الصلاة بينى وبين عبدى " أى قراءة الفاتحة على ما تقدم .

قوله تعالى : وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ هذه الآية رادة على اليهود والنصارى والعرب فى قولهم أفذاذا : عزير وعيسى والملائكة ذرية الله سبحانه ؛ تعالى الله عن أقوالهم . ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ لأنه واحد لا شريك له فى ملكه ولا فى عبادته . ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ قال مجاهد : المعنى لم يحالف أحدا ولا ابتغى نصر أحد ؛ أى لم يكن له ناصر يجيره من الذل فيكون مدافعا . وقال الكلبي : لم يكن له ولىّ من اليهود والنصارى ؛ لأنهم أذل الناس ، ردا لقولهم : نحن أبناء الله وأحباؤه . وقال الحسن بن الفضل : « وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ » يعنى لم يذلّ فيحتاج إلى ولىّ ولا ناصر لعزته وكبريائه . ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ أى عظّمه عظمة تامة . ويقال : أبلغ لفظة للعرب فى معنى التعظيم والإجلال : الله أكبر ؛ أى صفه بأنه أكبر من كل شىء . قال الشاعر :

رأيتُ الله أكبر كل شىء ٭ محاولة وأكثرهم جنودا

وكان النبىّ صلى الله عليه وسلم إذا دخل فى الصلاة قال : " الله أكبر " وقد تقدّم أوّل الكتاب . وقال عمر بن الخطاب . قول العبد الله أكبر خير من الدنيا وما فيها . وهذه الآية هى خاتمة التوراة . روى مُطَرِّف عن عبدالله بن كعب قال : افتتحت التوراة بفاتحة سورة الأنعام وختمت بخاتمة هذه السورة . وفى الخبر أنها آية العز ؛ رواه معاذ بن جبل عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم إذا أفصح الغلام من بنى عبد المطلب علمه « وقل الحمد لله الذى » الآية . وقال عبد الحميد بن واصل : سمعت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من قرأ وقل الحمد لله الآية كتب الله له من الأجر مثل الأرض والجبال لأن الله تعالى يقول فيمن زعم أن له ولدا تكاد السموات يتفطّرن منه وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هدّا " . وجاء فى الخبر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أمر رجلا شكا إليه بالدَّين بأن يقرأ « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن » — إلى آخر السورة ثم يقول — توكلت على الحى الذى لا يموت ؛ ثلاث مرات .

تمت سورة الإسراء ، والحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبىّ بعده .

تفسير سورة الكهف

وهي مكية في قول جميع المفسرين . وروي عن فرقة أن أول السورة نزل بالمدينة إلى قوله « جُرُزًا »(١)، والأول أصح . وروي في فضلها من حديث أنس أنه قال : من قرأ بها أُعطي نورا بين السماء والأرض ووُقيَ بها فتنة القبر . وقال إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ألا أدلكم على سورة شيّعها سبعون ألف ملك ملأ عِظمها ما بين السماء والأرض لتاليها مثل ذلك " . قالوا : بلى يا رسول الله؟ قال : "سورة أصحاب الكهف من قرأها يوم الجمعة غفر له إلى الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام وأعطي نورا يبلغ السماء ووُقيَ فتنة الدجال" ذكره الثعلبي ، والمهدوي أيضا بمعناه . وفي مسند الدارمي عن أبي سعيد الخدري قال : من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور فيما بينه وبين البيت العتيق . وفي صحيح مسلم عن أبي الدرداء أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم قال : " من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من الدجال " . وفي رواية " من آخر الكهف " . وفي مسلم أيضا من حديث النواس بن سمعان " فمن أدركه — يعني الدجال — فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف " . وذكره الثعلبي . قال : سَمُرة بن جُندُب قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من قرأ عشر آيات من سورة الكهف حفظا لم تضره فتنة الدجال " . ومن قرأ السورة كلها دخل الجنة .

قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ الحمدُ للهِ الذي أنزلَ على عبدِه الكتابَ ولم يجعلْ له عِوجًا . قيِّمًا ﴾ ذكر ابن إسحاق أن قريشا بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي مُعَيط إلى أحبار يهود وقالوا لهما :

(١) آية ٨ .

سـلاهم عن محمد وصِفَا لهم صِفَته وأخبراهم بقوله ؛ فإنهم أهـل الكتاب الأوّل ، وعندهم علمٌ ليس عندنا من علم الأنبياء ؛ فخرجا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، ووَصَفا لهم أمره ، وأخبراهم ببعض قوله ، وقالا لهم : إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هـذا . فقالت لهما أحبار يهود : سَلُوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبيّ مرسل ، و إن لم يفعل فالرجل مُتَقَوِّل ، فرَوْا فيـه رأيكم ؛ سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأوّل ، ما كان أمرهم ؛ فإنه قد كان لهم حديثٌ عَجَب . وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ما كان نَبَؤه . وسلوه عن الروح ، ماهي ؛ فإذا أخبركم بذلك فآتبعوه فإنه نبيّ ، و إن لم يفعل فهو رجل متقوّل فآصنعوا في أمره ما بدا لكم . فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي مُعَيط حتى قدما مكة على قريش فقالا : يا معشر قريش ! قد جئناكم بفَصْل ما بينكم وبين محمد ـــ صلى الله عليـه وسلم ـــ قد أمرَنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمَرُونا بها ، فإن أخبركم عنها فهو نبيّ ، و إن لم يفعل فالرجل متقوِّل ، فرَوْا فيه رأيكم . فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد ، أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأوّل ، قد كانت لهم قصة عجب ، وعن رجل كان طوّافا قـد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وأخبرنا عن الروح ما هي ؟ قال فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أخبركم بمـا سألتم عنه غدا" ولم يستثن[1] . فانصرفوا عنه ، فمكث رسـول الله صلى الله عليـه وسلم فيما يزعمون خمس عشرة ليلة ، لا يُحدث الله إليـه في ذلك وَحْيًا ولا يأتيه جبريل ، حتى أرجف[2] أهل مكة وقالوا : وَعَدَنا محمد غدا ، واليوم خمس عشرة ليلة ، وقد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء ممـا سألناه عنه ؛ وحتى أحزنَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مُكْثُ الوحي عنه ، وشق عليه مايتكلم به أهل مكة ، ثم جاءه جبريل عليه السـلام من عند الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبرُ ما سألوه عنه من أمر الفتية ، والرجل الطواف والروح ، قال ابن إسحاق : فذُكر لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : "لقد احتبست عني

(١) أي لم يقل ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ إن شاء الله . (٢) أرجف القوم : خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن .

يا جبريل حتى سُؤت ظنًّا» فقال له جبريل : « وما نتنزَّل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيًّا »[1]. فافتتح السورة تبارك وتعالى بحمده ، وذكر نبوة رسوله صلى الله عليه وسلم لما أنكروا عليه من ذلك فقال : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب » يعنى محمدا ، إنك رسول منّى ، أى تحقيق لما سألوا عنه من نبوّتك . « ولم يجعل له عوجا قيّما » أى معتدلا لا اختلاف فيه . « لينذر بأسا شديدا من لدنه » أى عاجل عقوبته فى الدنيا ، وعذابا أليما فى الآخرة ، أى من عند ربك الذى بعثك رسولا . « ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا » أى دار الخلد لا يموتون فيها ، الذين صدّقوك بما جئت به مما كذّبك به غيرهم ، وعملوا بما أمرتهم به من الأعمال . « وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا » يعنى قريشا فى قولهم : إنا نعبد الملائكة وهى بنات الله . « ما لهم به من علم ولا لآبائهم » الذين أعظموا فراقهم وعيب دينهم . « كبرت كلمة تخرج من أفواههم » أى لقولهم إن الملائكة بنات الله . « إن يقولون إلا كذبا . فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » لحزنه عليهم حين فاته ما كان يرجوه منهم ، أى لا تفعل . قال ابن هشام : « باخع نفسك » مهلك نفسك ؛ فيما حدثنى أبو عبيدة . قال ذو الرُّمة :

ألا أيهذا الباخع الوجد نفسه ٭ بشىء نحته عن يديه المقادرُ

وجمعها باخعون وبَخَعة . وهذا البيت فى قصيدة له[2] . وتقول العرب : قد بخعت له نُصحى ونفسى ، أى جَهَدت له . « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » قال ابن إسحاق : أى أيهم أتبع لأمرى وأعمل بطاعتى . « وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جُرُزا » أى الأرض ، وإن ما عليها لفانٍ وزائل ، وإن المرجع إلىّ فأجزى كلا بعمله ؛ فلا تأس ولا يحزنك ما ترى وتسمع فيها . قال ابن هشام : الصعيد وجه الأرض ، وجمعه صُعُد . قال ذو الرمة يصف ظبيا صغيرا :

---

(١) آية ٦٤ سورة مريم .   (٢) مطلعها :

لمية أطلال بحزوى دواثر ٭ عفتها السوافى بعدنا والمواطر

كأنه بالضحا ترمى الصعيد به * دبّابةٌ فى عظام الرأس خُرطوم [1]

وهذا البيت فى قصيدة له [2]. والصعيد أيضا : الطريق ، وقد جاء فى الحديث : " إياكم والقعودَ على الصُّعُدات " يريد الطرق . والجُرُز : الأرض التى لا تنبت شيئا ، وجمعها أجراز . ويقال : سنة جُرُز وسنون أجراز ؛ وهى التى لا يكون فيها مطر . وتكون فيها جدوبة ويبس وشدة . قال ذو الرمة يصف إبلا :

طوى النَّحْزُ والأجرازُ ما فى بطونها * فما بقيتْ إلا الضلوع الجراشعُ [3]

قال ابن إسحاق : ثم استقبل قصة الخبر فيما سألوه عنه من شأن الفتية فقال : « أم حسبتَ أنّ أصحابَ الكهفِ والرَّقيمِ كانوا من آياتنا عجبًا » أى قد كان من آياتى فيما وضعت على العباد من حججى ما هو أعجب من ذلك . قال ابن هشام : والرقيم الكتاب الذى رُقم بخبرهم ، وجمعه رُقُم . قال العجّاج :

* ومستقَرّ المصحف المرقَّم *

وهذا البيت فى أرجوزة له [4]. قال ابن إسحاق : ثم قال : « إذ أوى الفتيةُ إلى الكهفِ فقالوا ربَّنا آتنا من لدنكَ رحمةً وهيّئْ لنا من أمرِنا رشَدًا . فضربنا على آذانِهم فى الكهفِ سنينَ عددًا . ثم بعثناهم لنعلمَ أىُّ الحزبينِ أحصى لما لبثوا أمدًا » . ثم قال : « نحنُ نقصّ عليكَ نبأهم بالحقّ » أى بصدق الخبر « إنهم فتيةٌ آمنوا بربِّهم وزدناهم هدًى . وربطنا على قلوبِهم إذ قاموا فقالوا ربُّنا ربُّ السمواتِ والأرضِ لن ندعوَ من دونه إلهًا لقد قلنا إذًا شططًا » أى لم يشركوا بى كما أشركتم بى ما ليس لكم به علم . قال ابن هشام : والشطط الغلوّ ومجاوزة الحق . قال أعشى بن قيس بن ثعلبة :

أتنتهون ولا ينهى ذوِى شططٍ * كالطعن يذهب فيه الزيت والفُتُلُ

---

(١) يعنى الدبابة : الخمر . والخرطوم : الخمر وصفوتها . (٢) مطلعها :

أمن [illegible] من [illegible] * [illegible] مسجوم

(٣) النحز : الضرب والدفع . والجراشع : الغلاظ ، الواحد جرشع . (٤) مطلعها :

يا دار سلمى يا اسلمى ثم اسلمى * بسمسم أو عن يمين سمسم

وهذا البيت في قصيدة له. [1] قال ابن إسحاق: « هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ». قال ابن إسحاق: أي بحجة بالغة. « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا. وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا. وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ». قال ابن هشام: تزاور: تميل؛ وهو من الزَّوَر. وقال أبو الزحف الكُلَيْبِيّ [2] يصف بلدا:

جَدْبُ المُنَدَّى [3] عن هوانا أَزْوَرُ * يُنْضِي المطايا خِمْسُه العَشَنْزَرُ

وهذان البيتان [4] في أرجوزة له. و« تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ » تجاوزهم وتتركهم عن شمالها. قال ذو الرُّمَّة:

إلى ظُعُن يَقْرِضن أقواز مُشْرِف * شِمالا وعن أيمانهن الفوارسُ [5]

وهذا البيت في قصيدة له. [6] والفَجْوة: السَّعة، وجمعها الفجاء. قال الشاعر:

ألبستَ قومك مَخْزاة ومنقصةً * حتى أُبيحوا وخَلُّوا فَجْوة الدار

« ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ » أي في الحجة على من عرف ذلك من أمورهم من أهل الكتاب ممن أمر هؤلاء بمسئلتك عنهم في صدق نبوّتك بتحقيق الخبر عنهم. « مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا. وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ

---

(١) مطلعها: ودّع هريرة إن الركب مرتحل * وهل تطيق وداعا أيها الرجل

(٢) في اللسان مادة « سمهدر » أنه أبو الزحف الكلبي. واستدرك عليه مصحح اللسان بقوله: « قوله الكلبي نسبة لكلين كأمير بلدة بالري ». ومما يقوى أنه الكليبي (بالباء) ما ذكره ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء أنه أبو الزحف بن عطاء بن الخطفي ابن عم جرير الشاعر. ومن البين أن جريرا من بني كليب.

(٣) قبله:

* ودون ليلى بلد سَمَهْدَر *

وبلد سمهدر: بعيد مضلة واسع. والمندى: حيث يرتع ساعة من النهار. والأزور: الطريق المعوج. وأنضى البعير: هزله بكثرة السير. والخمس (بكسر السين) من أظماء الإبل، أن ترعى ثلاثة أيام وترد اليوم الرابع. والعشنزر: الشديد.

(٤) يعني بالبيتين هنا شطرى الرجز.

(٥) القوز (بالفتح): العالي من الرمل كأنه جبل. والفوارس: رمال بالدهناء.

(٦) مطلعها:

ألم تسأل اليوم الرسوم الدوارس * بحُزْوَى وهل تدرى القفار البسابس

الشمالِ وكلبُهم باسطٌ ذراعيه بالوصيد » قال ابن هشام : الوصيد الباب . قال العبسي واسمه عبد بن وهب[1] :

بأرض فلاةٍ لا يُسَدّ وصيدُها ❊ عليّ ومعروفي بها غير منكرِ

وهذا البيت في أبيات له . والوصيد أيضا الفِناء ، وجمعه وصائد ووُصُد ووُصْدان . « لو اطّلعتَ عليهم لولّيتَ منهم فِرارًا — إلى قوله — الذين غَلَبوا على أمرِهم » أهل السلطان والملك منهم . « لنتّخذنّ عليهم مسجدًا . سيقولون » يعني أحبار اليهود الذين أمروهم بالمسألة عنهم . « ثلاثةٌ رابعُهم كلبُهم ويقولون خمسةٌ سادسُهم كلبُهم رجمًا بالغيب ويقولون سبعةٌ وثامنُهم كلبُهم قل ربّي أعلمُ بعدّتهم ما يعلمُهم إلّا قليلٌ فلا تُمارِ فيهم » أي لا تكابرهم . « إلّا مِراءً ظاهرًا ولا تستفتِ فيهم منهم أحدًا » فإنهم لا علم لهم بهم . « ولا تقولنّ لشيءٍ إنّي فاعلٌ ذلك غدًا . إلّا أن يشاءَ الله واذكر ربّك إذا نسيتَ وقل عسى أن يهدينِ ربّي لأقربَ من هذا رشدًا » أي لا تقولنّ لشيء سألوك عنه كما قلت في هذا إني مخبركم غدا ، واستثن مشيئة الله ، واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهديني ربي لخير ما سألتموني عنه رشدا ، فإنك لا تدري ما أنا صانع في ذلك . « ولبثوا في كهفهم ثلاثمائةٍ سنين وازدادوا تسعًا » أي سيقولون ذلك . « قلِ الله أعلمُ بما لبثوا له غيبُ السموات والأرض أبصرْ به وأسمعْ ما لهم من دونه من وليّ ولا يُشركُ في حكمه أحدًا » أي لم يخف عليه شيء مما سألوك عنه .

قلت : هذا ما وقع في السيرة من خبر أصحاب الكهف ذكرناه على نسقه[2] . ويأتي خبر ذي القرنين ، ثم نعود إلى أول السورة فنقول :

قد تقدم معنى الحمد لله . وزعم الأخفش والكسائي والفراء وأبو عبيد وجمهور المتأولين أن في أول هذه السورة تقديما وتأخيرا ، وأن المعنى : الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قيّمًا ولم يجعل له عوجا . و « قيّمًا » نصب على الحال . وقال قتادة : الكلام على سياقه من غير تقديم ولا تأخير ، ومعناه : ولم يجعل له عوجا ولكن جعلناه قيّمًا . وقول الضحاك فيه حسن ، وأن

(١) في سيرة ابن هشام : « عبيد بن وهب » .

(٢) راجع سيرة ابن هشام ص ١٩٢ طبع أوربا ، جـ ١ ص ٣٢١ طبع مطبعة الحلبي .

المعنى : مستقيم [1] ، أى مستقيم الحكمة لا خطأ فيه ولا فساد ولا تناقض . وقيل : « قيما » على الكتب السابقة يصدّقها . وقيل : « قيّما » بالحجج أبدا . « عوجا » مفعول به ؛ والعوج (بكسر العين) فى الدّين والرأى والأمر والطريق . وبفتحها فى الأجسام كالخشب والجدار ؛ وقد تقدّم [2] . وليس فى القرآن عوج ، أى عيب ، أى ليس متناقضا مختلفا ؛ كما قال تعالى : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا [3] » وقيل : أى لم يجعله مخلوقا ؛ كما روى عن ابن عباس فى قوله تعالى «قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ [4]» قال : غير مخلوق . وقال مقاتل : « عوجا » اختلافا . قال الشاعر :

أدوم بودّى للصـديق تكرّما ٭ ولا خير فيمن كان فى الودّ أعوجا

(لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا) أى لينذر محمد أو القرآن . وفيه إضمار ، أى لينذر الكافرين عقاب الله . وهـذا العذاب الشديد قد يكون فى الدنيا وقد يكون فى الآخرة . (مِنْ لَدُنْهُ) أى من عنده . وقرأ أبو بكر عن عاصم « من لدنه » بإسكان الدال وإشمامها الضم وكسر النون ، والهاء موصولة بياء . الباقون « لدُنْه » بضم الدال وإسكان النون وضم الهاء . قال الجوهرى : وفى « لدن » ثلاث لغات : لَدُن ، ولَدَى ، ولَدُ . وقال :

٭ مِن لَدُ لَحْيَيْه إلى مُنْحُوره [5] ٭

المُنْحُور لغة فى المَنْحَر .

قوله تعالى : (وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ) أى بأن لهم . (أَجْرًا حَسَنًا) وهى الجنة . (مَاكِثِينَ) دائمين . (فِيهِ أَبَدًا) لا إلى غاية . وإن حملت التبشير على البيان لم يحتج إلى الباء فى « بأن » . والأجر الحسن : الثواب العظيم الذى يؤدّى إلى الجنة .

---

(١) أى معنى قوله « قيما » .   (٢) راجع جـ ٤ ص ١٥٤ طبعة أولى أو ثانية .   (٣) آية ٨٢ سورة النساء راجع جـ ٥ ص ٢٨٨   (٤) آية ٢٨ سورة الزمر .   (٥) هذا عجز بيت لغيلان بن حريث ، وصدره كما فى اللسان :

٭ يستوعب البوعين من جريره ٭

والمنحور (بالحاء المهملة وضم الميم) لغة فى النحر ، وهو الصدر . وقد وردت هذه الكلمة فى الأصول وصحاح الجوهرى واللسان مادة « نخر ، ولدن » بالخاء المعجمة ، وهو الأنف . وقد استدرك عليه ابن برى فقال : وصواب إنشاده كما أنشده سيبويه « الى منحوره » بالحاء . وصف الشاعر بعيرا أو فرسا بطول العنق ؛ يجعله يستوعب من حبله الذى يوثق به مقدار باعين فيما بين لحييه ونحره . والبوع : الباع . والجرير : الحبل .

قوله تعالى : ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ وهم اليهود ، قالوا عزير ابن الله ، والنصارى قالوا المسيح ابن الله ، وقريش قالت الملائكة بنات الله . فالإنذار فى أول السورة عام ؛ وهذا خاص فيمن قال لله ولد . ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ﴾ « من » صلة ؛ أى مالهم بذلك القول علم ؛ لأنهم مقلدة قالوه بغير دليل . ﴿ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ﴾ أى أسلافهم . ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ « كلمة » نصب على البيان ؛ أى كبرت تلك الكلمة كلمةً . وقرأ الحسن ومجاهد ويحيى بن يعمر وابن أبى إسحاق « كلمةٌ » بالرفع ؛ أى عظمت كلمة ؛ يعنى قولهم اتخذ الله ولدا . وعلى هذه القراءة فلا حاجة إلى إضمار . يقال : كبر الشىء إذا عظم . وكبِر الرجل إذا أسنّ . ﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ فى موضع الصفة . ﴿ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ أى ما يقولون إلا كذبا .

قوله تعالى : فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ ﴾ « باخع » أى مُهلك وقاتل ؛ وقد تقدّم . « آثارهم » جمع أَثَر ، ويقال إِثْر . والمعنى : على أثر تولّيهم وإعراضهم عنك . ﴿ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾ أى القرآن . ﴿ أَسَفًا ﴾ أى حزنا وغضبا على كفرهم ؛ وانتصب على التفسير .

قوله تعالى : إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾ فيه مسألتان

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا ﴾ «ما» و«زينة» مفعولان . والزينة كل ما على وجه الأرض ؛ فهو عموم لأنه دال على بارئه . وقال ابن جُبير عن ابن عباس : أراد بالزينة الرجال ؛ قال مجاهد . وروى عكرمة عن ابن عباس أن الزينة الخلفاء والأمراء . وروى ابن أبي نَجيح عن مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها » قال : العلماء زينة الأرض . وقالت فرقة : أراد النِّعم والملابس والثمار والخضرة والمياه، ونحو هذا مما فيه زينة؛ ولم يدخل فيه الجبال الصم وكل ما لا زينة فيه كالحيات والعقارب . والقول بالعموم أولى، وأن كل ما على الأرض فيه زينة من جهة خلقه وصنعه وإحكامه . والآية بسط في التسلية؛ أي لا تهتم يا محمد للدنيا وأهلها فإنا إنما جعلنا ذلك امتحانا واختبارا لأهلها؛ فمنهم من يتدبّر ويؤمن، ومنهم من يكفر، ثم يوم القيامة بين أيديهم؛ فلا يعظُمنّ عليك كفرهم فإنا نجازيهم .

الثانية — معنى هذه الآية ينظر إلى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن الدنيا خضرة حُلوة والله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون " . وقوله صلى الله عليه وسلم : " إن أخوف ما أخاف عليكم ما يُخرج الله لكم من زَهرة الدنيا " قال : وما زهرة الدنيا ؟ قال : " بركات الأرض " خرجهما مسلم وغيره من حديث أبي سعيد الخُدْري . والمعنى : أن الدنيا مستطابة في ذوقها معجبة في منظرها كالثمر المُسْتَحْلَى المُعْجِب المرأى ؛ فابتلى الله بها عباده لينظر أيّهم أحسن عملا . أي من أزهد فيها وأترك لها ؛ ولا سبيل للعباد إلى معصية ما زيّنه الله إلا [أن] يعينه على ذلك . ولهذا كان عمر يقول فيما ذكر البخاري : اللّهمّ إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زيّنته لنا ، اللّهمّ إني أسألك أن أنفقه في حقه . فدعا الله أن يعينه على إنفاقه في حقه . وهذا معنى قوله عليه السلام : " فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفس كان كالذي يأكل ولا يشبع " . وهكذا هو المكثر من الدنيا لا يقنع بما يحصل له منها بل همّته جمعها ؛ وذلك لعدم الفهم عن الله تعالى ورسوله ؛ فإن الفتنة معها حاصلةٌ وعدمَ السلامة غالبة، وقد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه

الله بما آتاه . وقال ابن عطية : كان أبي رضي الله عنه يقول في قوله « أحسن عملا » : بأحسن العمل أخذٌ بحق وإنفاقٌ في حق مع الإيمان، وأداء الفرائض واجتنابُ المحارم والإكثارُ من المندوب إليه .

قلت : هـذا قول حسن ، وجيز في ألفاظه بليغ في معناه ، وقـد جمعه النبيّ صـلى الله عليه وسلم في لفظ واحد وهو قوله لسفيان بن عبد الله الثّقفي لمّا قال : يارسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدا بعدك — في رواية : غيرك . قال : " قل آمنت بالله ثم استقم " خرّجه مسلم . وقال سفيان الثّوري : « أحسن عملا » أزهدهم فيهـا . وكذلك قال أبو عصام العسقلاني : « أحسن عمـلا » أترك لها . وقـد اختلفت عبارات العلمـاء في الزهد؛ فقال قوم : قصرُ الأمل وليس بأكل الخشن ولبس العباء؛ قاله سفيان الثّوري . قال علماؤنا : وصدق رضي الله عنـه ! فإن من قصّر أملهُ لم يتأنّق في المطعومات ولا يتفنّن في الملبوسات، وأخذ من الدنيا ما تيسّر، واجتزأ منها بمـا يُبَلِّغ . وقال قوم : بُغْضُ المحمدة وحُبّ الثناء . وهو قول الأوزاعيّ ومن ذهب إليه . وقال قوم : ترك الدنيا كلها هو الزهد؛ أحَبَّ تَرْكَها أم كَره . وهو قول فُضيل . وعن بشر بن الحارث قال : حُبُّ الدنيا حبُّ لقاء الناس، والزهدُ في الدنيا الزهد في لقاء الناس . وعن الفضيل أيضا : علامة الزهـد في الدنيا الزهد في الناس . وقال قوم : لا يكون الزاهد زاهدا حتى يكون ترك الدنيا أحبَّ إليـه من أخذها؛ قاله إبراهيم بن أدهم . وقال قوم : الزهد أن تزهد في الدنيا بقلبك؛ قاله ابن المبارك . وقالت فرقة : الزهد حبّ الموت . والقول الأوّل يعم هذه الأقوال بالمعنى فهو أولى .

قوله تعـالى : وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾

تقـدّم بيانه (١) . وقال أبو سهل : ترابا لا نبات به ؛ كأنه قُطع نباته . والجُرُز : القطع ؛ ومنه سنة جُرُز . قال الراجز :

* قد جَرَفَتْهن السّنُونَ الأجْراز *

(١) ص ٢٤٨ من هذا الجزء .

والأرض الجُرُز التي لا نبات فيها ولا شيء من عمارة وغيرها ؛ كأنه قطع وأزيل . يعني يوم القيامة ، فإن الأرض تكون مستوية لا مستتر فيها . النحاس : والجرز في اللغة الأرض التي لا نبات بها . قال الكسائي : يقال جَرِزَت الأرضُ تَجْرَز ، وجرزها القوم يَجْرُزونها إذا أكلوا كل ما جاء فيها من النبات والزرع فهي مجروزة وجرز .[1]

قوله تعالى : أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾

مذهب سيبويه أن « أم » إذا جاءت دون أن يتقدمها ألف استفهام أنها بمعنى بل وألف الاستفهام ، وهي المنقطعة . وقيل . « أم » عطف على معنى الاستفهام في لعلك ، أو بمعنى ألف الاستفهام على الإنكار . قال الطبري : وهو تقرير للنبي صلى الله عليه وسلم على حسابه أن أصحاب الكهف كانوا عجبا ، بمعنى إنكار ذلك عليه ؛ أي لا يعظم ذلك بحسب ما عظمه عليك السائلون من الكفرة ، فإن سائر آيات الله أعظم من قصتهم وأشنع ؛ هذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن إسحاق . والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك أن المشركين سألوه عن فتية فقدوا ، وعن ذي القرنين وعن الروح ، وأبطأ الوحي على ما تقدم . فلما نزل قال الله تعالى لنبيه عليه السلام : أحسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ؛ أي ليسوا بعجب من آياتنا ، بل في آياتنا ما هو أعجب من خبرهم . الكلبي : خَلْق السموات والأرض أعجبُ من خبرهم . الضحاك : ما أطلعتك عليه من الغيب أعجب . الجُنيد : شأنك في الإسراء أعجب . الماوردي : معنى الكلام النفي ؛ أي ما حسبت لولا إخبارنا . أبو سهل : استفهام تقرير ؛ أي أحسبت ذلك فإنهم عجب . والكهف : النقب المتسع في الجبل ؛ وما لم يتسع فهو غار . وحكى النقاش عن أنس بن مالك أنه قال : الكهف الجبل ؛ وهذا غير شهير في اللغة .

واختلف الناس في الرقيم ؛ فقال ابن عباس : كل شيء في القرآن أعلمه إلا أربعة : غِسلين وحَنان والأوّاه والرقيم . وسئل مرة عن الرقيم فقال : زعم كعب أنها قرية خرجوا

(١) في الكلمة أربع لغات : جُرُز ، جُرْز ، جَرْز ، جَرَز .

منها . وقال مجاهد : الرقيم وادٍ . وقال السّدّىّ : الرقيم الصخرة التى كانت على الكهف .
وقال ابن زيد : الرقيم كتاب غمّ الله علينا أمره، ولم يشرح لنا قصته . وقالت فرقة : الرقيم
كتاب فى لوح من نُحاس . وقال ابن عباس : فى لوح من رَصاص كَتب فيه القوم الكفارُ
الذين فرّ الفتية منهم قصتَهم وجعلوها تاريخا لهم، ذكروا وقت فقدهم، وكم كانوا، و بين من
كانوا . وكذا قال الفراء، قال : الرقيم لوح من رَصاص كتب فيه أسماؤهم وأنسابهم ودينهم
وممن هربوا . قال ابن عطية : ويظهر من هذه الروايات أنهم كانوا قوما مؤرّخين للحوادث،
وذلك من نبيل المملكة ؛ وهو أمر مفيد . وهذه الأقوال مأخوذة من الرَّقْم ؛ ومنه كتاب
مرقوم . ومنه الأرقم لتخطيطه . ومنه رَقْمة الوادى ؛ أى مكان جَرْي الماء وانعطافه .
وما روى عن ابن عباس ليس بمتناقض؛ لأن القول الأول إنما سمعه من كَعْب . والقول الثانى
يجوز أن يكون عرف الرقيم بعده . وروى عنه سعيد بن جُبير قال : ذكر ابن عباس أصحاب
الكهف فقال : إن الفتية فُقدوا فطلبهم أهلوهم فلم يجدوهم فرُفع ذلك إلى الملك فقال :
ليكونن لهم نبأ، وأحضر لوحا من رصاص فكتب فيه أسماءهم وجعله فى خزانته؛ فذلك اللوح
هو الرقيم . وقيل : إن مؤمنَيْن كانا فى بيت الملك فكتبا شأن الفتية وأسماءهم وأنسابهم فى لوح
من رصاص ثم جعلاه فى تابوت من نُحاس وجعلاه فى البنيان؛ فالله أعلم . وعن ابن عباس أيضا :
الرقيم كتاب مرقوم كان عندهم فيه الشرع الذى تمسكوا به من دين عيسى عليه السلام .
وقال النقاش عن قتادة : الرقيم دراهمهم . وقال أنس بن مالك والشّعْبىّ : الرقيم كلبهم .
وقال عكرمة : الرقيم الدواة . وقيل : الرقيم اللوح من الذهب تحت الجدار الذى أقامه الخَضِر .
وقيل : الرقيم أصحاب الغار الذى انطبق عليهم؛ فذكر كلُّ واحد منهم أصلح عمله .

قلت : وفى هذا خبر معروف أخرجه الصحيحان[1] ، وإليه نحا البخارى . وقال قوم :
أخبر الله عن أصحاب الكهف، ولم يخبر عن أصحاب الرقيم بشىء . وقال الضحاك : الرقيم بلدة
بالروم فيها غار فيه أحد وعشرون نفسا كأنهم نيام على هيئة أصحاب الكهف . فعلى هذا هم

---

(١) راجع صحيح مسلم جـ ٨ ص ٨٩ طبع الآستانة . وشرح القسطلانى على صحيح البخارى جـ ٤ ص ٢١٧ ،
جـ ٥ ص ٩ ٠ ٥ و جـ ٦ ص ٥ طبع بولاق .

فتية آخرون جرى لهم ما جرى لأصحاب الكهف. والله أعلم. وقيل : الرقيم وادٍ دون فلسطين فيه الكهف؛ مأخوذ من رَقْمة الوادى وهى موضع الماء؛ يقال : عليك بالرَّقْمة ودع الضّفّة؛ ذكره الغزنوى. قال ابن عطية : وبالشام على ما سمعت به من ناس كثير [كهف] فيه موتى؛ يزعم مجاوروه أنهم أصحاب الكهف وعليهم مسجد وبناء يسمى الرقيم ومعهم كلبٌ رِمّة. وبالأندلس فى جهة غَرْناطة بقرب قرية تسمى لَوْشة كهف فيه موتى ومعهم كلبٌ رِمّة، وأكثرهم قد تجرّد لحمه وبعضهم متماسك، وقد مضت القرون السالفة ولم نجد من علم شأنهم أثارة[1]. ويزعم ناس أنهم أصحاب الكهف، دخلتُ إليهم ورأيتُهم سنة أربع وخمسمائة وهم بهذه الحالة، وعليهم مسجد، وقريب منهم بناء رُومى يسمى الرقيم، كأنه قصر مُخْلَق قد بقى بعض جدرانه، وهو فى فلاة من الأرض خربة، وبأعلى غَرْناطة مما يلى القبلة آثار مدينة قديمة رومية يقال لها مدينة دَقْيُوس. وجدنا فى آثارها غرائب من قبور ونحوها.

قلت : ما ذكر من رؤيته لهم بالأندلس فإنما هم غيرهم؛ لأن الله تعالى يقول فى حق أصحاب الكهف : « لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ». وقال ابن عباس لمعاوية لما أراد رؤيتهم : قد منع الله من هو خير منك عن ذلك؛ وسيأتى فى آخر القصة. وقال مجاهد فى قوله « كانوا من آياتنا عَجَبًا » قال : هم عَجَبٌ. كذا روى ابن جُرَيْج عنه؛ يذهب إلى أنه ليس بإنكار على النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يكون عنده أنهم عَجَب. وروى ابن نَجيح عنه قال : يقول ليس بأعجب آياتنا.

قوله تعالى : إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ ﴾ رُوى أنهم قومٌ من أبناء أشراف مدينة دقيوس الملك الكافر، ويقال فيه دقينوس. وروى أنهم كانوا مطوَّقين مسوَّرين

---

(١) الأثارة : البقية.

بالذهب ذوى ذوائب، وهم من الروم واتبعوا دين عيسى . وقيل : كانوا قبل عيسى ، والله أعلم . وقال ابن عباس : إن ملكا من الملوك يقال له دقيانوس ظهر على مدينة من مدائن الروم يقال لها أفسوس . وقيل هى طرسوس وكان بعد زمن عيسى عليه السلام فأمر بعبادة الأصنام فدعا أهلها إلى عبادة الأصنام ، وكان بها سبعة أحداث يعبدون الله سرا ، فرفع خبرهم إلى الملك وخافوه فهربوا ليلا ، ومروا براع معه كلب فتبعهم فآووا إلى الكهف فتبعهم الملك إلى فم الغار ، فوجد أثر دخولهم ولم يجد أثر خروجهم ، فدخلوا فأعمى الله أبصارهم فلم يروا شيئا ، فقال الملك : سدوا عليهم باب الغار حتى يموتوا فيه جوعا وعطشا . وروى مجاهد عن ابن عباس أيضا أن هؤلاء الفتية كانوا فى دين ملك يعبد الأصنام ويذبح لها ويكفر بالله ، وقد تابعه على ذلك أهل المدينة ، فوقع للفتية علم من بعض الحواريين — حسبما ذكر النقاش أو من مؤمنى الأمم قبلهم — فآمنوا بالله ورأوا ببصائرهم قبيح فعل الناس ، فأخذوا نفوسهم بالتزام الدين وعبادة الله ، فرفع أمرهم إلى الملك وقيل له : إنهم قد فارقوا دينك واستخفوا آلهتك وكفروا بها ، فاستحضرهم الملك إلى مجلسه وأمرهم باتباع دينه والذبح لآلهته ، وتوعدهم على فراق ذلك بالقتل ، فقالوا له فيما روى : « ربنا رب السموات والأرض — إلى قوله — وإذ اعتزلتموهم » . وروى أنهم قالوا نحو هذا الكلام وليس به ، فقال لهم الملك : إنكم شبان أغمار لا عقول لكم ، وأنا لا أعجل بكم بل أستأنى فاذهبوا إلى منازلكم ودبروا رأيكم وارجعوا إلى أمرى ، وضرب لهم فى ذلك أجلا ، ثم إنه سافر خلال الأجل فتشاور الفتية فى الهروب بأديانهم ، فقال لهم أحدهم : إنى أعرف كهفا فى جبل كذا ، كان أبى يدخل فيه غنمه فلنذهب فلنختف فيه حتى يفتح الله لنا ، فخرجوا فيما روى يلعبون بالصولجان والكرة ، وهم يدحرجونها إلى نحو طريقهم لئلا يشعر الناس بهم . وروى أنهم كانوا مثقفين فحضر عيد خرجوا إليه فركبوا فى جملة الناس ، ثم أخذوا باللعب بالصولجان حتى خلصوا بذلك . وروى وهب بن منبه أن أول أمرهم إنما كان حوارى لعيسى بن مريم جاء إلى مدينة أصحاب الكهف يريد دخولها ، فأجر نفسه من صاحب الحمام وكان يعمل فيه ، فرأى صاحب الحمام فى أعماله بركة عظيمة ،

فألقى إليه بكل أمره، وعرف ذلك الرجل فتيان من المدينة فعرفهم الله تعالى فآمنوا به واتبعوه على دينه، واشتهرت خلطتهم به، فأتى يوما إلى ذلك الحمام وَلَدُ الملك بامرأة أراد الخلوة بها، فنهاه ذلك الحواريّ فانتهى، ثم جاء مرة أخرى فنهاه فشتمه، وأمضى عزمه في دخول الحمام مع البَغِيّ، فدخل فماتا فيه جميعا؛ فاتُّهم ذلك الحواريّ وأصحابه بقتلهما، ففروا جميعا حتى دخلوا الكهف. وقيل في خروجهم غير هذا.

وأما الكلب فروى أنه كان كلبَ صيد لهم، وروى أنهم وجدوا في طريقهم راعيا له كلب فاتبعهم الراعي على رأيهم وذهب الكلب معهم؛ قاله ابن عباس. واسم الكلب حمران وقيل قطمير.

وأما أسماء أهل الكهف فأعجمية، والسند في معرفتها واه. والذي ذكره الطبري هي هذه: مكسلمينا وهو أكبرهم والمتكلم عنهم، ومحسيميلنينا ويمليخا، وهو الذي مضى بالوَرِق إلى المدينة عند بعثهم من رقدتهم، ومرطوس وكشوطوش ودينموس ويطونس وبيرونس. قال مقاتل: وكان الكلب لمكسلمينا، وكان أسنَّهم وصاحبَ غنم.

الثانيــة — هــذه الآية صريحــة في الفرار بالدّين وهجرة الأهل والبنين والقرابات والأصدقاء والأوطان والأموال خوف الفتنة وما يلقاه الإنسان من المحنة. وقد خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم فارًّا بدينه، وكذلك أصحابه، وجلس في الغار حسبما تقدم في سورة «النحل»[1]. وقد نص الله تعالى على ذلك في «براءة» وقد تقدّم[2]. وهجروا أوطانهم وتركوا أرضهم وديارهم وأهاليهم وأولادهم وقراباتهم وإخوانهم، رجاء السلامة بالدين والنجاة من فتنة الكافرين. فسُكْنَى الجبال ودخول الغيران، والعزلة عن الخلق والانفراد بالخالق، وجواز الفرار من الظالم هي سنة الأنبياء صلوات الله عليهم والأولياء. وقد فضّل رسول الله صلى الله عليه وسلم العزلة، وفضّلها جماعة العلماء لا سيما عند ظهور الفتن وفساد الناس، وقد نص الله تعالى عليها في كتابه فقــال: «فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ».

---

(١) راجع ص ١٥٩ من هذا الجزء. (٢) راجع جـ ٨ ص ١٤٣ وما بعدها.

قال العلماء . الاعتزال عن الناس يكون مرة فى الجبال والشعاب ، ومرة فى السواحل والرباط ، ومرة فى البيوت ، وقد جاء فى الخبر : " إذا كانت الفتنة فأخف مكانك وكف لسانك " . ولم يخص موضعا من موضع . وقد جعلت طائفة من العلماء العزلة اعتزال الشر وأهله بقلبك وعملك ، إن كنت بين أظهرهم . وقال ابن المبارك فى تفسير العزلة : أن تكون مع القوم فإذا خاضوا فى ذكر الله فخض معهم ، وإن خاضوا فى غير ذلك فاسكت . وروى البغوى عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم " . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " نعم صوامع المؤمنين بيوتهم " من مراسيل الحسن وغيره . وقال عقبة بن عامر لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما النجاة يارسول الله ؟ فقال : " ياعقبة أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك " . وقال صلى الله عليه وسلم : " يأتى على الناس زمان خير مال الرجل المسلم الغنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن " . خرجه البخارى . وذكر على بن سعد عن الحسن ابن واقد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كانت سنة ثمانين ومائة فقد حلت لأمتى العزبة والعزلة والترهب فى رؤوس الجبال " . وذكر أيضا على بن سعد عن عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يأتى على الناس زمان لا يسلم لذى دين دينه إلا من فر بدينه من شاهق إلى شاهق أو جحر إلى جحر[1] فإذا كان ذلك لم تنل المعيشة إلا بمعصية الله فإذا كان ذلك حلت العزبة " . قالوا : يارسول الله ، كيف تحل العزبة وأنت تأمرنا بالتزويج ؟ قال : " إذا كان ذلك كان فساد الرجل على يدى أبويه فإن لم يكن له أبوان كان هلاكه على يدى زوجته فإن لم تكن له زوجة كان هلاكه على يدى ولده فإن لم يكن له ولد كان هلاكه على يدى القرابات والجيران " . قالوا : وكيف ذلك يارسول الله ؟ قال : " يعيرونه بضيق المعيشة ويكلفونه ما لا يطيق فعند ذلك يورد نفسه الموارد التى يهلك فيها "

---

(١) الجحر : الموضع . وكل ما جحرته من حائط فهو جحر .

قلت : أحوال الناس فى هذا الباب تختلف ، فرُبّ رجل تكون له قوة على سكنى الكهوف والغيران فى الجبال ، وهى أرفع الأحوال لأنها الحالة التى اختارها الله لنبيّه صلى الله عليه وسلم فى بداية أمره ، ونص عليها فى كتابه مخبرا عن الفتية ، فقال : « وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلّا الله فأْوُوا إلى الكهف » . ورُبّ رجل تكون العزلة له فى بيته أخف عليه وأسهل؛ وقد اعتزل رجال من أهل بدر فلزموا بيوتهم بعد قتل عثمان فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم . ورُبّ رجل متوسّط بينهما فيكون له من القوة ما يصبر بها على مخالطة الناس وأذاهم ، فهو معهم فى الظاهر ومخالف لهم فى الباطن . وذكر ابن المبارك حدّثنا وُهَيب بن الوَرْد قال : جاء رجل إلى وهب بن منبّه فقال : إن الناس وقعوا فيما فيه وقعوا ! وقد حدّثت نفسى ألا أخالطهم . فقال : لا تفعل ! إنه لا بدّ لك من الناس ، ولا بدّ لهم منك ، ولك إليهم حوائج ، ولهم إليك حوائج ، ولكن كن فيهم أصمّ سميعا ، أعمى بصيرا ، سكوتا نطوقا . وقد قيل: إن كل موضع يبعد عن الناس فهو داخل فى معنى الجبال والشّعاب؛ مثل الاعتكاف فى المساجد، ولزوم السواحل للرباط والذكر، ولزوم البيوت فرارا عن شرور الناس، وإنما جاءت الأحاديث بذكر الشعاب والجبال واتباع الغنم — والله أعلم — لأن ذلك هو الأغلب فى المواضع التى يُعتزل فيها؛ فكل موضع يبعد عن الناس فهو داخل فى معناه؛ كما ذكرنا، والله الموفق وبه العصمة . وروى عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "يَعجَب[1] ربُّك من راعى غنم فى رأس شَظِيَّة[2] الجبل يؤذّن بالصلاة ويصلى فيقول الله عز وجل انظروا إلى عبدى يؤذن ويقيم الصلاة يخاف منى قد غفرت لعبدى وأدخلته الجنة". خرجه النّسائى .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ لما فرّوا ممن يطلبهم اشتغلوا بالدعاء ولجئوا إلى الله تعالى فقالوا : « رَبَّنَا آتِنَا مِن لَدُنْكَ رَحْمَةً » أى مغفرة ورزقا . « وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا » توفيقا للرشاد . وقال ابن عباس : مخرجا من الغار فى سلامة . وقيل صوابا . ومن هذا المعنى أنه عليه السلام كان إذا حَزَبَه[3] أمر فَزِع إلى الصلاة .

---

(١) يعجب : كسمع ؛ أى يرضى منه ويثيبه .   (٢) الشظية (بفتح الشين وكسر الظاء) : قطعة مرتفعة فى رأس الجبل   (٣) أى إذا نزل به مُهِمّ أو أصابه غم . وفى الأصول: « وإذا أحزنه » والتصويب عن كتب الحديث .

قوله تعالى : فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾

عبارة عن إلقاء الله تعالى النوم عليهم . وهذه من فصيحات القرآن التى أقرت العرب بالقصور عن الإتيان بمثله . قال الزجاج : أى منعناهم عن أن يسمعوا ؛ لأن النائم إذا سمع انتبه . وقال ابن عباس : ضربنا على آذانهم بالنوم ؛ أى سددنا آذانهم عن نفوذ الأصوات إليها . وقيل : المعنى « فضربنا على آذانهم » أى فاستجبنا دعاءهم ، وصرفنا عنهم شر قومهم ، وأنمناهم . والمعنى كله متقارب . وقال قُطْرُب : هذا كقول العرب ضرب الأمير على يد الرعية إذا منعهم الفساد ، وضرب السيد على يد عبده المأذون له فى التجارة إذا منعه من التصرف . قال الأسود بن يَعْفُر وكان ضريرا :

ومن الحوادث لا أَبالك أننى * ضُرِبتْ علىّ الأرضُ بالأسداد[1]

وأما تخصيص الآذان بالذكر فلأنها الجارحة التى منها عظم فساد النوم ، وقلما ينقطع نوم نائم إلا من جهة أذنه ، ولا يُستحكم نوم إلا من تعطّل السمع . ومن ذكر الأذن فى النوم قوله صلى الله عليه وسلم : "ذاك رجل بال الشيطان فى أذنه" خرّجه الصحيح . أشار عليه السلام إلى رجل طويل النوم ، لا يقوم الليل . و « عَدَدًا » نعت للسنين ؛ أى معدودة ، والقصد به العبارة عن التكثير ؛ لأن القليل لا يحتاج إلى عدد لأنه قد عُرف . والعدّ المصدر ، والعدد اسم المعدود كالنَّفَض والخَبَط . وقال أبو عبيدة : « عددا » نصب على المصدر . ثم قال قوم : بيّن الله تعالى عدد تلك السنين من بعدُ فقال : « وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا تِسْعًا » .

قوله تعالى : ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا أَمَدًا ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ أى من بعد نومهم . ويقال لمن أُحْيِىَ أو أُقيم من نومه مبعوث ؛ لأنه كان ممنوعا من الانبعاث والتصرف .

---

(١) واحد الأسداد : سدّ ، وهو ذهاب البصر ؛ يقول : سدّت علىّ الطريق ؛ أى عميت علىّ مذاهبى .

قوله تعالى : ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى ﴾ « لنعلم » عبارة عن خروج ذلك الشيء إلى الوجود ومشاهدته ؛ وهذا على نحو كلام العرب ، أى لنعلم ذلك موجودا ، وإلا فقد كان الله تعالى علم أىّ الحزبين أحصى الأمد . وقرأ الزُّهْرِىّ « ليعلم » بالياء . والحزبان الفريقان . والظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية إذ ظنوا لبثهم قليلا . والحزب الثانى أهل المدينة الذين بُعث الفِتْية على عهدهم ، حين كان عندهم التاريخ لأمر الفتية ؛ وهذا قول الجمهور من المفسرين . وقالت فرقة : هما حزبان من الكافرين ، اختلفا فى مدة أصحاب الكهف . وقيل : هما حزبان من المؤمنين . وقيل غير ذلك مما لا يرتبط بألفاظ الآية . و « أحصى » فعل ماض . و « أمدا » نصب على المفعول به ؛ قاله أبو علىّ . وقال الفراء : نصب على التمييز . وقال الزجاج : نصب على الظرف ، أى أىّ الحزبين أحصى للبثهم فى الأمد ، والأمد الغاية . وقال مجاهد : « أمدا » معناه عددا ، وهذا تفسير بالمعنى على جهة التقريب . وقال الطبرى : « أمدا » منصوب بـ « لبثوا » . ابن عطية : وهذا غير مُتَّجه ، وأما من قال إنه نصب على التفسير فيلحقه من الاختلال أن أفعل لا يكون من فعل رباعى إلا فى الشاذ ، و « أحصى » فعل رباعى . وقد يحتج له بأن يقال : إن أفعل فى الرباعى قد كثر ؛ كقولك : ما أعطاه للمال وآتاه للخير . وقال فى صفة حوضه صلى الله عليه وسلم : "ماؤه أبيض من اللبن" . وقال عمر بن الخطاب : فهو لما سواها أضيع .

قوله تعالى : نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ لما اقتضى قوله تعالى « لنعلم أى الحزبين أحصى » اختلافا وقع فى أمد الفتية ، عقّب بالخبر عن أنه عز وجل يعلم من أمرهم بالحق الذى وقع . وقوله تعالى « إنهم فتية » أى شباب وأحداث حكم لهم بالفتوة حين آمنوا بلا واسطة ؛ كذلك قال أهل اللسان : رأس الفتوة الإيمان . وقال الجُنيد : الفتوة بذل النّدى وكفّ الأذى وترك الشكوى . وقيل : الفُتوة اجتناب المحارم واستعمال المكارم . وقيل غير هذا . وهذا القول حسن جدا ؛ لأنه يعم بالمعنى جميع ما قيل فى الفتوة .

قوله تعالى : ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ أي يسّرناهم للعمل الصالح؛ من الانقطاع إلى الله تعالى، ومباعدة الناس، والزهد في الدنيا . وهذه زيادة على الإيمان . وقال السُّدّي : زادهم هُدًى بكلب الراعي حين طردوه ورجموه مخافة أن يَنْبَح عليهم ويُنَبِّه بهم؛ فرفع الكلب يديه إلى السماء كالداعي فأنطقه الله، فقال : ياقوم ! لِمَ تطردونني، لِمَ ترجمونني ! لِمَ تضربونني ! فوالله لقد عرفت الله قبل أن تعرفوه بأربعين سنة؛ فزادهم الله بذلك هُدًى .

قوله تعالى : وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ عبارة عن شدّة عزم وقوّة صبر، أعطاها الله لهم حتى قالوا بين يدي الكفار : « رَبُّنَا رَبُّ السمواتِ والأرض لن نَدْعُوَ مِنْ دونِهِ إلهًا لقد قلنا إذًا شَطَطًا » . ولما كان الفزع وخَوَر النفس يُشْبِه بالتناسب الانحلال حَسُن في شدة النفس وقوة التصميم أن يُشْبِه الربط؛ ومنه يقال : فلان رابط الجأش، إذا كان لاتفرّق نفسه عند الفزع والحرب وغيرها . ومنه الربط على قلب أمّ موسى . وقولُه تعالى : « وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأقدامَ »[1] وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا ﴾ فيه مسألتان .

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ إذ قَامُوا فَقَالُوا ﴾ يحتمل ثلاثة معان : أحدها ـــ أن يكون هذا وصفَ مقامهم بين يدى الملك الكافر ـــ كما تقدّم، وهو مَقام يحتاج إلى الربط على القلب حيث خالفوا دينه، ورفضوا في ذات الله هيبته . والمعنى الثاني فيما قيل : إنهم أولاد عظماء تلك المدينة، فخرجوا واجتمعوا وراء تلك المدينة من غير ميعاد؛ فقال أسنّهم : إني أجد في نفسي أن ربّي ربُّ السموات والأرض؛ فقالوا ونحن كذلك نجد في أنفسنا . فقاموا جميعا فقالوا : « رَبُّنَا ربُّ السموات والأرض لن نَدْعُوَ من دونه إلها لقد قلنا إذًا شَطَطًا » .

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٧١ طبعة أولى أو ثانية .

أى لئن دعونا إلها غيره فقد قلنا إذا جَوْراً ومحالا . والمعنى الثالث — أن يعبّر بالقيام من انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله تعالى ومنابذة الناس؛ كما تقول : قام فلان إلى أمر كذا إذا عزم عليه بغاية الجد .

الثانيــة — قال ابن عطية : تعلقت الصوفية فى القيام والقول بقوله « إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض » .

قلت : وهذا تعلّق غير صحيح ! هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته، وشكروا لما أولاهم من نعمه ونعمته، ثم هاموا على وجوههم منقطعين إلى ربهم خائفين من قومهم ؛ وهذه سنة الله فى الرسل والأنبياء والفضلاء الأولياء . أين هذا من ضرب الأرض بالأقدام والرقص بالأكمام ! وخاصّةً فى هذه الأزمان عند سماع الأصوات الحسان من المُرْد والنسوان؛ هيهات ! بينهما والله ما بين الأرض والسماء . ثم هذا حرام عند جماعة العلماء، على ما يأتى بيانه فى سورة لقمان إن شاء الله تعالى . وقد تقدم فى « سبحان » عند قوله : « ولا تَمْشِ فى الأرض مرحا »[1] ما فيه كفاية . وقال الامام أبو بكر الطَّرَسُوسِىّ وسئل عن مذهب الصوفية فقال : وأما الرقص والتواجد فأوّل من أحدثه أصحاب السّامرىّ؛ لما اتخذ لهم عجلا جسدا له خُوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون؛ فهو دين الكفار وعُبّاد العجل ، على ما يأتى .

قوله تعالى : هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ هؤلاءِ قومُنا اتَّخذُوا مِنْ دُونِه آلهةً ﴾ أى قال بعضهم لبعض : هؤلاء قومنا ، أى أهل عصرنا وبلدنا ، عبدوا الأصنام تقليدا من غير حجة . ﴿ لَوْلَا ﴾ أى هلّا . ﴿ يأتونَ عليهِمْ بِسُلْطَانٍ بيِّنٍ ﴾ أى بحجة على عبادتهم الصنم . وقيل : « عليهم » راجع إلى الآلهة؛ أى هلا أقاموا بيّنة على الأصنام فى كونها آلهة ؛ فقولهم « لولا » تحضيض بمعنى التعجيز، وإذا لم يمكنهم ذلك لم يجب أن يُلتفت إلى دعواهم

(١) راجع ص ٢٦٠ من هذا الجزء

قوله تعالى : وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ ﴾ قيل : هو من قول الله لهم . أى وإذ اعتزلتموهم فأووا إلى الكهف . وقيل : هو من قول رئيسهم يمليخا ؛ فيما ذكر ابن عطية . وقال الغزنوى : رئيسهم مكسلمينا ، قال لهم ذلك ؛ أى إذ اعتزلتموهم واعتزلتم ما يعبدون . ثم استثنى وقال ﴿ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أى إنكم لم تتركوا عبادته ؛ فهو استثناء منقطع . قال ابن عطية : وهذا على تقدير إن الذين فر أهلُ الكهف منهم لا يعرفون الله ، ولا علم لهم به ؛ وإنما يعتقدون الأصنام فى ألوهيتهم فقط . وإن فرضنا أنهم يعرفون الله كما كانت العرب تفعل لكنهم يشركون أصنامهم معه فى العبادة فالاستثناء متصل ؛ لأن الاعتزال وقع فى كل ما يعبد الكفار إلا فى جهة الله . وفى مصحف عبد الله بن مسعود « وما يعبدون من دون الله » . قال قتادة هذا تفسيرها .

قلت : ويدل على هذا ما ذكره أبو نُعيم الحافظ عن عطاء الخُراسانى فى قوله تعالى « وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله » قال : كان فتية من قوم يعبدون الله ويعبدون معه آلهة فاعتزلت الفتية عبادة تلك الآلهة ولم تعتزل عبادةَ الله .

ابن عطية : فعلى ما قال قتادة تكون « إلّا » بمنزلة غير ، و « ما » من قوله « وما يعبدون إلا الله » فى موضع نصب ، عطفا على الضمير فى قوله « اعتزلتموهم » . ومُضَمَّن هذه الآية أن بعضهم قال لبعض : إذا فارقنا الكفارَ وانفردنا بالله تعالى فلنجعل الكهف مأوًى ونتكل على الله ؛ فانه سيبسط لنا رحمته ، وينشرها علينا ، ويهيئ لنا من أمرنا مِرْفَقًا . وهذا كله دعاء بحسب الدنيا ، وعلى ثقة كانوا من الله فى أمر آخرتهم . وقال أبو جعفر محمد بن على ابن الحسين رضى الله عنه : كان أصحاب الكهف صياقلة ، واسم الكهف حيوم . ﴿ مِرْفَقًا ﴾ قرئ بكسر الميم وفتحها ، وهو ما يُرتفق به . وكذلك مِرْفَق الإنسان ومَرْفِقه ؛ ومنهم من يجعل « المَرْفق » بفتح الميم الموضع كالمسجد ، وهما لغتان .

قوله تعالى : وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ﴾ أى ترى أيها المخاطَب الشمس عند طلوعها تميل عن كهفهم . والمعنى : إنك لو رأيتهم لرأيتهم كذا ؛ لا أن المخاطَب رآهم على التحقيق . و « تزاور » تتنحّى وتميل ؛ من الازورار . والزَّوَر المَيَل . والأزور فى العين المائل النظر إلى ناحية ، ويستعمل فى غير العين ؛ كما قال ابن أبى ربيعة :

* وجَنْبِي خِيفَةَ القوم أزْوَرُ (١) *

ومن اللفظة قول عنترة :

* فازْوَرَّ من وَقْع القَنَا بلبانه (٢) *

وفى حديث غَزْوة مُؤْتة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى سرير عبد الله بن رواحة ازورارا عن سرير جعفر وزيد بن حارثة . وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو « تزّاور » بإدغام التاء فى الزاى ، والأصل « تتزاور » . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى « تزاور » مخففة الزاى .

(١) والبيت بتمامه كما فى ديوانه :

وخفّض عنى الصوت أقبلت مشية الـ * ـحُباب وشخصى خشية الحى أزور

والحُباب (بالضم) : الحية . وقبل هذا البيت :

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت * مصابيح شبت بالعشاء وأنؤر
وغاب قُمَيْر كنت أهوى غيوبه * وروّح رعيان ونوّم سُمَّر

(٢) وتمامه : * وشكا إلى بعبرة وتحمحم *

واللبان (بالفتح) : الصدر . والتحمحم : صوت مقطع ليس بالصهيل .

وقرأ ابن عامر « تَزْوَرّ » مثل تحمر . وحكى الفراء « تزوارّ » مثل تحمارّ ؛ كلها بمعنًى واحد .
﴿ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ﴾ قرأ الجمهور بالتاء على معنى تتركهم ؛ قاله مجاهد . وقال قتادة : تدعهم . النحاس : وهذا معروف في اللغة ، حكى البصريون أنه يقال : قرضه يقرضه إذا تركه ؛ والمعنى : أنهم كانوا لا تصيبهم شمس ألبتة كرامةً لهم ؛ وهو قول ابن عباس . يعنى أن الشمس إذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين ، أي يمين الكهف ، و إذا غربت تمر بهم ذات الشمال ، أي شمال الكهف ، فلا تصيبهم في ابتداء النهار ولا في آخر النهار . وكان كهفهم مستقبل بنات نَعْش في أرض الروم ، فكانت الشمس تميل عنهم طالعةً وغاربة وجارية لا تبلغهم لتؤذيهم بحرها ، وتغيّر ألوانهم وتُبْلِي ثيابهم . وقد قيل : إنه كان لكهفهم حاجب من جهة الجنوب ، وحاجب من جهة الدَّبور وهم في زاويته . وذهب الزجاج إلى أن فعل الشمس كان آية من الله ، دون أن يكون باب الكهف إلى جهة توجب ذلك . وقرأت فرقة « يقرضهم » بالياء من القرض وهو القطع ، أي يقطعهم الكهف بظله من ضوء الشمس . وقيل : « وإذا غربت تقرضهم » أي يصيبهم يسير منها ، مأخوذ من قُراضة الذهب والفضة ، أي تعطيهم الشمس اليسير من شعاعها . وقالوا : كان في مَسّها لهم بالعشيّ إصلاح لأجسادهم . وعلى الجملة فالآية في ذلك أن الله تعالى آواهم إلى كهف هذه صفته لا إلى كهف آخر يتأذّون فيه بانبساط الشمس عليهم في معظم النهار . وعلى هذا فيمكن أن يكون صرف الشمس عنهم بإظلال غمام أو سبب آخر . والمقصود بيان حفظهم عن تطرق البلاء وتغيّر الأبدان والألوان إليهم ، والتأذّي بحر أو برد . ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ﴾ أي من الكهف . والفَجْوة المتسع ، وجمعها فَجَوات وفِجَاء ؛ مثل رَكْوة ورِكاء ورَكَوات . وقال الشاعر :

ونحن ملأنا كلّ واد وفجــوة ● رجالا وخيلا غير ميل ولا عُزْل

أي كانوا بحيث يصيبهم نسيم الهواء . ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ لطف بهم ؛ وهذا يقوّي قول الزجاج . وقال أهل التفسير : كانت أعينهم مفتوحة وهم نائمون ؛ فكذلك كان الرائي يحسبهم أيقاظا . وقيل : تحسبهم أيقاظا لكثرة تقلّبهم كالمستيقظ في مضجعه . و ﴿ أيقاظا ﴾

جمع يقظ و يقظان، وهو المنتبه . ﴿ وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ كقولهم : وهم قوم ركوع وسجود وقعود ؛ فوصف الجمع بالمصدر . ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ قال ابن عباس : لئلا تأكل الأرض لحومهم . قال أبو هريرة : كان لهم في كل عام تقليبتان . وقيل : في كل سنة مرة . وقال مجاهد : في كل سبع سنين مرة . وقالت فرقة : إنما قُلبوا في التسع الأواخر، وأما في الثلثمائة فلا . وظاهر كلام المفسرين أن التقليب كان من فعل الله، ويجوز أن يكون من مَلَك بأمر الله، فيضاف إلى الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَكَلْبُهُمْ ﴾ قال عمرو بن دينار : إن مما أخذ على العقرب ألا تضر أحدا [قال][(1)] في ليله أو في نهاره : صلى الله على نوح[(2)] . وإن مما أخذ على الكلب ألا يضر من حمل عليه [إذا قال] : وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد .

أكثر المفسرين على أنه كلب حقيقة، وكان لصيد أحدهم أو لزرعه أو غنمه، على ما قال مقاتل . واختلف في لونه اختلافا كثيرا، ذكره الثعلبي . تحصيله : أي لون ذكرت أصبت؛ حتى قيل لون الحجر وقيل لون السماء . واختلف أيضا في اسمه، فعن علي : ريان . ابن عباس : قطمير . الأوزاعي : مشير . عبد الله بن سلام : بسيط . كعب : صهيا . وهب : نقيا . وقيل قطمير ؛ ذكره الثعلبي . وكان اقتناء الكلب جائزا في وقتهم، كما هو عندنا اليوم جائز في شرعنا . وقال ابن عباس : هربوا ليلا، وكانوا سبعة فمروا براع معه كلب فاتبعهم على دينهم . وقال كعب : مروا بكلب فنبح لهم فطردوه فعاد فطردوه مرارا، فقام الكلب على رجليه ورفع يديه إلى السماء كهيئة الداعي، فنطق فقال : لا تخافوا مني ! أنا أحب أحباء الله تعالى فناموا حتى أحرسكم .

الثانيـــة — ورد في الصحيح عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من اقتنى كلبا إلا كلب صيد أو ماشية نقص من أجره كل يوم قيراطان " . وروى الصحيح أيضا عن

(1) زيادة من كتاب حياة الحيوان . (2) في حياة الحيوان : « سلام على نوح » .

أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من اتخذ كلبا إلا كلبَ ماشية أو صيد أو زرع انتُقِص من أجره كل يوم قيراط " . قال الزهرى : وذُكِر لابن عمر قولُ أبى هريرة فقال : يرحم الله أبا هريرة ! كان صاحبَ زرع . فقد دلّت السنة الثابتة على اقتناء الكلب للصيد والزرع والماشية . وجعل النقص فى أجر من اقتناها على غير ذلك من المنفعة ؛ إما لترويع الكلب المسلمين وتشويشه عليهم بنباحه ، أو لمنع دخول الملائكة البيت ، أو لنجاسته ، على ما يراه الشافعى ، أو لاقتحام النهى عن اتخاذ ما لا منفعة فيه ؛ والله أعلم . وقال فى إحدى الروايتين "قيراطان " وفى الأخرى " قيراط" . وذلك يحتمل أن يكون فى نوعين من الكلاب أحدهما أشدّ أذى من الآخر كالأسود الذى أمر عليه السلام بقتله ، ولم يُدخله فى الاستثناء حين نهى عن قتلها كما هو منصوص فى حديث جابر ؛ أخرجه الصحيح . وقال: "عليكم بالأسود البهيم ذى النقطتين فإنه شيطان". ويحتمل أن يكون ذلك لاختلاف المواضع ، فيكون ممسكه بالمدينة مثلا أو بمكة ينقص قيراطان وبغيرها قيراط . وأما المباح اتخاذه فلا ينقص ؛ كالفرس والهرّة . والله أعلم .

الثالثة — وكلب الماشية المباح اتخاذه عند مالك هو الذى يسرح معها ، لا الذى يحفظها فى الدار من السرّاق . وكلب الزرع هو الذى يحفظها من الوحوش بالليل أو بالنهار لا من السراق . وقد أجاز غير مالك اتخاذها لسراق الماشية والزرع . وقد تقدّم فى «المائدة»[(١)] من أحكام الكلاب ما فيه كفاية ، والحمد لله .

الرابعة — قال ابن عطية : وحدّثنى أبى رضى الله عنه قال سمعت أبا الفضل الجوهرى فى جامع مصر يقول على منبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائة : إن من أحبّ أهل الخير نال من بركتهم ؛ كلبٌ أحبّ أهل فضل وصحبهم فذكره الله فى محكم تنزيله .

قلت : إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته ومخالطته الصلحاء والأولياء حتى أخبر الله تعالى بذلك فى كتابه جل وعلا فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٦٥

المحبين للأولياء والصالحين ! بل في هذا تسلية وأنس للمؤمنين المقصّرين عن درجات الكمال ، المحبين للنبيّ صلى الله عليه وسلم وآله خير آل . روى الصحيح عن أنس بن مالك قال : بينا أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم خارجان من المسجد فلقينا رجل عند سُدّة المسجد فقال : يارسول الله ، متى الساعة؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أعددتَ لها " قال : فكأن الرجل أستكان، ثم قال : يارسول الله ، ما أعددتُ لها كثيرَ صلاة ولا صيام ولا صدقة ؛ ولكني أحبّ الله و رسوله . قال : " فأنت مع من أحببتَ " . في رواية قال أنس بن مالك : فما فرحنا بعد الإسلام فرحا أشدّ من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " فأنت مع من أحببت " . قال أنس : فأنا أحب الله و رسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم .

قلت : وهذا الذى تمسّك به أنس يشمل من المسلمين كلّ ذى نفس ، فكذلك تعلقت أطماعنا بذلك وإن كنا مقصرين، ورجونا رحمة الرحمن وإن كنا غير مستأهلين، كلبٌ أحب قوما فذكره الله معهم ! فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان وكلمة الإسلام ، وحبّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ، « ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

وقالت فرقة : لم يكن كلبا حقيقة، و إنما كان أحدهم ، وكان قد قعد عند باب الغار طليعةً لهم ؛ ...[1] كما سمى النجم التابع للجوزاء كلبا ؛ لأنه منها كالكلب من الإنسان ؛ و يقال له : كلب الجبّار[2]. قال ابن عطية : فسُمّى باسم الحيوان الملازمَ لذلك الموضع أمّا إن هذا القول يضعفه ذكر بسط الذراعين فإنها في العرف من صفة الكلب حقيقة ؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب " . وقد حكى أبو عمر المطرّز فى كتاب اليواقيت

(١) فى بعض نسخ الأصل بعد قوله «طليعة لهم » : «قال ابن عطية : فسمى باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع» . ونراها غير لازمة . والذى فى حياة الحيوان للدميرى فى أسم الكلب : « وقال فرقة : كان أحدهم وكان قد قعد عند باب الغار طليعة لهم ؛ فسمى باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع من الناس كما سمى النجم التابع لجوزاء كلبا لأنه منها كالكلب من الإنسان، وهذا القول يضعفه ... » الخ . (٢) الجبار : اسم الجوزاء .

أنه قرئ « وكالبهم باسط ذراعيه بالوصيد » . فيحتمل أن يريد بالكالب هذا الرجل على ما روى ؛ إذ بسط الذراعين واللصوق بالأرض مع رفع الوجه للتطلع هي هيئة الريبة المستخفي بنفسه . ويحتمل أن يريد بالكالب الكلب . وقرأ جعفر بن محمد الصادق « وكالبهم » يعني صاحب الكلب .

قوله تعالى : ﴿ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ ﴾ أعمل اسم الفاعل وهو بمعنى المضي؛ لأنها حكاية حال ولم يقصد الإخبار عن فعل الكلب . والذراع من طرف المرفق إلى طرف الأصبع الوسطى . ثم قيل : بسط ذراعيه لطول المدة . وقيل : نام الكلب، وكان ذلك من الآيات . وقيل : نام مفتوح العين . والوصيد : الفناء؛ قاله ابن عباس ومجاهد وابن جبير، أي فناء الكهف، والجمع وصائد ووُصُد . وقيل الباب . وقاله ابن عباس أيضا . وأنشد :

بأرض فضاء لا يُسَدّ وصيدُها * علىَّ ومعروفي بها غير منكر

وقد تقدم . وقال عطاء : عتبة الباب ، والباب الموصد هو المغلق . وقد أوصدت الباب وآصدته أي أغلقته . والوصيد : النبات المتقارب الأصول، فهو مشترك، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ قرأ الجمهور بكسر الواو . والأعمش ويحيى بن وثاب بضمها . ﴿ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ أي لو أشرفت عليهم لهربت منهم . ﴿ وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ أي لما حفهم الله تعالى من الرعب واكتنفهم من الهيبة . وقيل : لوحشة مكانهم ؛ وكأنهم آواهم الله إلى هذا المكان الوحش[1] في الظاهر لينفر الناس عنهم . وقيل : كان الناس محجوبين عنهم بالرعب، لا يجسر أحد منهم على الدنو إليهم . وقيل : الفرار منهم لطول شعورهم وأظفارهم؛ ذكره المهدوي والنحاس والزجاج والقشيري . وهذا بعيد؛ لأنهم لما استيقظوا قال بعضهم لبعض : لبثنا يوما أو بعض يوم . ودل هذا على أن شعورهم وأظفارهم كانت بحالها؛ إلا أن يقال : إنما قالوا ذلك قبل أن ينظروا إلى أظفارهم وشعورهم . قال ابن عطية : والصحيح في أمرهم أن الله عز وجل حفظ لهم الحالة التي ناموا عليها لتكون لهم ولغيرهم فيهم

(١) مكان وحش : خال .

آية ، فلم يبدّل لهم ثوب ولم تغيّر صفة، ولم ينكر الناهض إلى المدينة إلا معالم الأرض والبناء، ولو كانت فى نفسه حالة ينكرها لكانت عليه أهم . وقرأ نافع وابن كثير وابن عباس وأهل مكة والمدينة « لَمُلِّئْتَ منهم » بتشديد اللام على تضعيف المبالغة؛ أى ملئت ثم ملئت . وقرأ الباقون « لملئت » بالتخفيف ، والتخفيف أشهر فى اللغة . وقد جاء التثقيل فى قول المُخَبَّل السعدى :

وإذ فتك النعمان بالناس مُحْرِمًا * فمُلِّئ من كعب بن عوف سلاسله

وقرأ الجمهور « رُعْبًا » بإسكان العين . وقرأ بضمها أبو جعفر . قال أبو حاتم : هما لغتان . و « فرارا » نصب على الحال و « رعبا » مفعول ثان أو تمييز .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوٓا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم ﴾ البعث : التحريك عن سكون . والمعنى : كما ضربنا على آذانهم وزدناهم هدى وقلّبناهم بعثناهم أيضا؛ أى أيقظناهم من نومهم على ما كانوا عليه من هيئتهم فى ثيابهم وأحوالهم . قال الشاعر :

وفتيانِ صدقٍ قد بعثتُ بسُحْرة * فقاموا جميعا بين عاثٍ ونَشْوانِ [1]

أى أيقظت . واللام فى قوله « ليتساءلوا » لام الصيرورة وهى لام العاقبة؛ كقوله « لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا » فبعثهم لم يكن لأجل تساؤلهم .

(١) البيت لامرئ القيس . والسحرة (بالضم) : السحر . وقيل أعلى السحر . وقيل : هو من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ وذلك أنهم دخلوه غدوة وبعثهم الله في آخر النهار ؛ فقال رئيسهم تمليخا أو مكسلمينا : الله أعلم بالمدة .

قوله تعالى : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى ـ قال ابن عباس : كانت ورقهم كأخفاف الرُّبَع[1] ؛ ذكره النحاس . وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والكسائي وحفص عن عاصم « بورِقكم » بكسر الراء . وقرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم « بورْقكم » بسكون الراء ، حذفوا الكسرة لثقلها ، وهما لغتان . وقرأ الزجاج « بوِرْقكم » بكسر الواو وسكون الراء . ويروى أنهم انتبهوا جياعا ، وأن المبعوث هو تمليخا ، كان أصغرهم ؛ فيما ذكر الغزنوي . والمدينة : أُفْسُوس ويقال هي طرسوس ، وكان اسمها في الجاهلية أفسوس ؛ فلما جاء الإسلام سموها طرسوس . وقال ابن عباس : كان معهم دراهمُ عليها صورة الملك الذي كان في زمانهم .

الثانية ـ قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا ﴾ قال ابن عباس : أحلّ ذبيحة ؛ لأن أهل بلدهم كانوا يذبحون على اسم الصنم ، وكان فيهم قوم يخفون إيمانهم . ابن عباس : كان عامتهم مجوسا . وقيل « أزكى طعاما » أي أكثر بركة . قيل : إنهم أمروه أن يشترى ما يُظن أنه طعام اثنين أو ثلاثة لئلا يُطّلع عليهم ، ثم إذا طُبخ كفى جماعة ؛ ولهذا قيل ذلك الطعام الأرز . وقيل : كان زبيبا . وقيل تمرا ؛ فالله أعلم . وقيل : « أزكى » أطيب . وقيل أرخص . ﴿ فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ ﴾ أي بقوت . ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ أي في دخول المدينة وشراء الطعام . ﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ أي لا يخبرنّ . وقيل : إن ظُهر عليه فلا يوقعنّ إخوانه فيما وقع فيه . ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ قال الزجاج : معناه بالحجارة ، وهو أخبث القتل . وقيل : يرموكم بالسب والشتم ؛ والأول أصح ، لأنه كان عازما على قتلهم كما تقدم في قصصهم . والرجم فيما سلف هي كانت على ما ذكر قبله [عقوبة[2]] مخالفة دين الناس إذ هي أشفى لجملة أهل ذلك الدين من حيث إنهم يشتركون فيها .

(١) الربع (كصرد) : الفصيل ينتج في الربيع . (٢) زيادة يقتضيها السياق .

الثالثـــة — فى هذه البعثة بالورق دليل على الوكالة وصحتها . وقد وكّل علىّ بن أبى طالب أخاه عقيلا عند عثمان رضى الله عنه ؛ ولا خلاف فيها فى الجملة . والوكالة معروفة فى الجاهلية والإســلام ؛ ألا ترى إلى عبـد الرحمن بن عوف كيف وكّل أميّـة بن خلف بأهله وحاشيته بمكة ؛ أى يحفظهم ، وأمية مشرك ، والتزم عبدالرحمن لأمية من حفظ حاشيته بالمدينة مثـل ذلك مجازاةً لصنعه . روى البخارىّ عن عبد الرحمن بن عوف قال : كاتبت أمية بن خلف كتابا بأن يحفظنى فى صاغيتى بمكة وأحفظه فى صاغيته بالمدينة ، فلما ذكرت الرحمن ، قال : لا أعرف الرحمن ! كاتبنى باسمك الذى كان فى الجاهلية ، فكاتبته عبد عمرو ... وذكر الحديث . قال الأصمعى : صاغية الرجل الذين يميلون إليه و يأتونه ؛ وهو مأخوذ من صغا يصغُو و يصغَى إذا مال ، وكلّ مائل إلى الشىء أو معه فقد صغا إليه وأصغى ؛ من كتاب الأفعال .

الرابعـــة — الوكالة عقدُ نيابة ، أذن الله سبحانه فيه للحاجة إليه وقيام المصلحة فى ذلك ؛ إذ ليس كل أحد يقدر على تناول أموره إلا بمعونة من غيره أو يترفّه فيستنيب من يريحه .

وقد استدل علماؤنا على صحتها بآيات من الكتاب ، منها هـذه الآية ، وقوله تعالى : « والعاملين عليها » وقوله « آذهبوا بقميصى هـذا » . وأما من السنة فأحاديث كثيرة ؛ منها حديث عروة البارق ، وقد تقدم فى آخر الأنعام[1] . روى جابر بن عبـد الله قال أردت الخروج إلى خيبر فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له : إنى أردت الخروج إلى خيبر ؛ فقال : "إذا أتيت وكيلى فخذ منه خمسة عشر وسقا فإن آبتغى منك آية فضع يدك على ترقوته[2]" خرجه أبو داود . والأحاديث كثيرة فى هذه المعنى ، وفى إجماع الأمة على جوازها كفاية .

الخامســـة — الوكالة جائزة فى كل حق تجوز النيـابة فيه ، فلو وكل الغاصبُ لم يجـز ، وكان هو الوكيل ؛ لأن كل محرّم فعله لا تجوز النيابة فيه .

السادســة — فى هذه الآية نُكتة بديعة ، وهى أن الوكالة إنما كانت مع التقيّة خوف أن يشعر بهم أحد لمـا كانوا عليه من الخوف على أنفسهم . وجواز توكيل ذوى العـذر متفق

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٦ طبعة أولى أو ثانية (٢) الترقوة : العظم الذى بين ثغرة النحر والعاتق .

عليه ؛ فأما من لا عذر له فالجمهور على جوازها . وقال أبو حنيفة وسُحنون : لا يجوز . قال ابن العربى : وكأن سُحنونَ تلقفه من أسد بن الفُرات فحكم به أيام قضائه ؛ ولعله كان يفعل ذلك بأهل الظلم والجبروت ؛ إنصافا منهم وإذلالا لهم ، وهو الحق ؛ فإن الوكالة معونة ولا تكون لأهل الباطل .

قلت : هــذا حسن ؛ فأما أهــل الدين والفضــل فلهم أن يوكّلوا وإن كانوا حاضرين أصحّاء . والدليل على صحة جواز الوكالة للشاهــد الصحيح ما خرّجه الصحيحان وغيرهما عن أبى هريرة قال : كان لرجل على النبىّ صلى الله عليه وسلم سِنّ من الإبل فجاء يتقاضاه فقال ؛ "أعطوه" فطلبوا له سنه فلم يجدوا إلا سِنًّا فوقها ؛ فقال : "أعطوه" فقال : أوفيتنى أوفى الله لك . قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "إن خيركم أحسنُكم قضاء" . لفظ البخارى . فدل هذا الحديث مع صحته على جواز توكيل الحاضر الصحيح البدن ؛ فإن النبىّ صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه أن يُعطوا عنه السنّ التى كانت عليــه ؛ وذلك توكيل منه لهم على ذلك ، ولم يكن النبىّ صلى الله عليه وسلم مريضا ولا مسافرا . وهذا يرد قول أبى حنيفة وسُحنون فى قولهما ؛ انه لا يجوز توكيل الحاضر الصحيح البدن إلا برضا خصمه ؛ وهذا الحديث خلاف قولهما .

السابعــة ــ قال ابن خُوَيْزِ مَنْداد : تضمنت هذه الآية جواز الشركة لأن الورق كان لجميعهم . وتضمنت جواز الوكالة لأنهــم بَعثوا من وكّلوه بالشراء . وتضمنت جواز أكل الرفقاء وخلطهم طعامهم معا ، وإن كان بعضهم أكثر أكْلًا من الآخر ؛ ومثله قوله تعالى ؛ « وإن تُخالطوهم فإخوانكم » حسبما تقدم بيانه فى «البقرة»[1] . ولهذا قال أصحابنا فى المسكين يُتصدّق عليه فيخلطه بطعام لغنىّ ثم يأكل معه : إن ذلك جائز . وقد قالوا فى المضارب يخلط طعامه بطعام غيره ثم يأكل معه : إن ذلك جائز . وقد كان رسول الله صلى الله عليــه وسلم وكّل من اشترى له أضحية . قال ابن العربى : ليس فى الآية دليل على ذلك ؛ لأنه يحتمل أن يكون كل واحد منهم قــد أعطاه منفردا فلا يكون فيــه اشتراك . ولا مُعوّل فى هذه المسئلة

(١) راجع جـ ٣ ص ٦٢ طبعة أولى أو ثانية .

إلا على حديثين : أحدهما — أن ابن عمر مرّ بقوم يأكلون تمرا فقال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاقتران إلا أن يستأذن الرجل أخاه . الثانى — حديث أبى عبيدة فى جيش الخَبَط[1] . وهذا دون الأول فى الظهور ، لأنه يحتمل أن يكون أبو عبيدة يعطيهم كفافا من ذلك القوت ولا يجمعهم عليه .

قلت : ومما يدل على خلاف هذا من الكتاب قوله تعالى : «وإن تخالطوهم فإخوانكم» وقوله « ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا[2] » على ما يأتى إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أى أطلعنا عليهم وأظهرناهم . و « أعثر » تعدية عثر بالهمزة ، وأصل العثار فى القدم . ﴿ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ يعنى الأمة المسلمة الذين بُعث أهل الكهف على عهدهم . وذلك أن دقيانوس مات ومضت قرون ومَلَكَ أهل تلك الدار رجلٌ صالح ، فاختلف أهل بلده فى الحشر وبعث الأجساد من القبور ، فشك فى ذلك بعض الناس واستبعدوه وقالوا : إنما تحشر الأرواح والجسد تأكله الأرض . وقال بعضهم : تبعث الروح والجسد جميعا ؛ فكبُر ذلك على الملك وبقى حيران لا يدرى كيف يتبين أمره لهم ، حتى لبس المسوح وقعد على الرماد وتضرع إلى الله تعالى فى حجة وبيان ، فأعثر الله على أهل الكهف ، فيقال : إنهم لما بعثوا أحدهم بورقهم إلى المدينة ليأتيهم برزق منها استُنكر شخصه واستُنكرت دراهمه لبعد العهد ، فحُمل إلى الملك وكان صالحا قد آمن وآمن من معه ، فلما

---

(١) سموا جيش الخبط لأنهم خرجوا فى سرية الى أرض جهينة فأصابهم جوع فأكلوا الخبط ؛ فسموا به .

(٢) آية ٦١ سورة النور .

نظر إليه قال : لعل هذا من الفتية الذين خرجوا على عهد دقيانوس الملك ، فقد كنت أدعو الله أن يُرِيَنِيهم ، وسأل الفتى فأخبره؛ فسُرّ الملك بذلك وقال : لعل الله قد بعث لكم آية ، فلنَسِرْ إلى الكهف معه ، فركب مع أهل المدينة إليهم ، فلما دنوا إلى الكهف قال تمليخا : أنا أدخل عليهم لئلا يرعبوا فدخل عليهم فأعلمهم الأمر وأن الأمة أمةُ إسلام ، فروى أنهم سُرّوا بذلك وخرجوا إلى الملك وعظّموه وعظّمهم ثم رجعوا إلى كهفهم . وأكثر الروايات على أنهم ماتوا حين حدّثهم تمليخا ميتة الحق، على ما يأتى . ورجع من كان شكّ فى بَعْث الأجساد إلى اليقين . فهذا معنى «أعثرنا عليهم» . «ليعلموا أن وعد الله حق» أى ليعلم الملك ورعيته أن القيامة حق والبعث حق «إذ يتنازعون بينهم أمرهم» : وإنما استدلوا بذلك الواحد على خبرهم وهابوا الدخول عليهم فقال الملك : ابنوا عليهم بنيانا ؛ فقال الذين هم على دين الفتية : اتخذوا عليهم مسجدا . وروى أن طائفة كافرة قالت : نبنى بيعة أو مضيفا، فمانعهم المسلمون وقالوا لنتخذن عليهم مسجدا . وروى أن بعض القوم ذهب إلى طمس الكهف عليهم وتركهم فيه مغيّبين . وروى عن عبد الله بن عمر(1) أن الله تعالى أعمى على الناس حينئذ أثرهم وحجبهم عنهم . فذلك دعا إلى بناء البنيان ليكون مَعْلَمًا لهم . وقيل : إن الملك أراد أن يدفنهم فى صندوق من ذهب فأتاه آتٍ منهم فى المنام فقال : أردتَ ان تجعلنا فى صندوق من ذهب فلا تفعل؛ فإنا من التراب خُلقنا وإليه نعود، فدَعْنا .

وتنشأ هنا مسائل ممنوعة وجائزة؛ فاتخاذ المساجد على القبور والصلاة فيها والبناء عليها، إلى غير ذلك مما تضمّنته السنة من النهى عنه ممنوع لا يجوز؛ لما روى أبو داود والترمذى عن ابن عباس قال: لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج . قال الترمذى : وفى الباب عن أبى هريرة وعائشة حديث ابن عباس حديث حسن . وروى الصحيحان عن عائشة أن أم حبيبة وأمّ سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن أولئك إذا كان فيهم

(1) فى بعض الأصول . «عن عبيد بن عمير»

الرجل الصالح فمات بَنَوا على قبره مسجدا وصوّروا فيه تلك الصور أولئك شرارُ الخلق عند الله تعالى يوم القيامة" . لفظ مسلم . قال علماؤنا : وهذا يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد . وروى الأئمة عن أبي مَرْثَد الغَنَوِيّ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لا تصلّوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها" لفظ مسلم . أي لا تتخذوها قبلة فتصلّوا عليها أو إليها كما فعل اليهود والنصارى ، فيؤدى إلى عبادة من فيها كما كان السبب في عبادة الأصنام . فحذّر النبيّ صلى الله عليه وسلم عن مثل ذلك ، وسدّ الذرائعَ المؤدّية إلى ذلك فقال : "اشتدّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد" . وروى الصحيحان عن عائشة وعبد الله بن عباس قالا : لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طَفِق يطرح خَميصة له على وجهه فإذا اغتمّ[1] بها[2] كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك : "لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" يحذّر[3] ما صنعوا . وروى مسلم عن جابر قال ، نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُجَصَّص القبر وأن يُقعد عليه وأن يُبنى عليه . وخرّجه أبو داود والترمذى أيضا عن جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تُجَصَّص القبور وأن يكتب عليها وأن يُبْنَى عليها وأن توطأ . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . وروى الصحيح عن أبي الهيّاج الأسدى قال قال لى علىّ بن أبي طالب : ألا[4] أبعثُك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألّا تدعَ تمثالا إلا طمسته ولا قبرا مُشْرِفا إلا سوّيته — فى رواية — ولا صورة إلا طمستها . وأخرجه أبو داود والترمذىّ . قال علماؤنا : ظاهره منع تسنيم القبور ورفعها وأن تكون لاطئة . وقد قال به بعض أهل العلم . وذهب الجمهور إلى أن هذا الارتفاع المأمور بإزالته هو ما زاد على التسنيم ، ويبقى للقبر ما يعرف به ويحترم ، وذلك صفة قبر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقبر صاحبيه رضى الله عنهما — على ما ذكر مالك فى الموطأ — وقبر أبينا آدم صلى الله عليه وسلم ، على ما رواه الدارقطنىّ

---

(١) قوله «إذا اغتم» أى تسخن بالخميصة وأخذ بنفسه من شدة الحر.   (٢) أى فى حالة الطرح والكشف.

(٣) أى يحذر أمته أن يصنعوا بقبره مثل صنع اليهود والنصارى بقبور أنبيائهم .   (٤) قوله «ألا» بتشديد اللام للتحضيض . وقيل بفتحها للتنبيه .

من حديث ابن عباس . وأما تعلية البناء الكثير على نحو ما كانت الجاهلية تفعله تفخيما وتعظيما فذلك يهدم ويزال؛ فإن فيه استعمال زينة الدنيا فى أوّل منازل الآخرة، وتشبّهاً بمن كان يعظّم القبور ويعبدها . وباعتبار هـذه المعانى وظاهر النهى ينبغى أن يقال : هو حرام . والتسنيم فى القبر : ارتفاعه قدر شبر؛ مأخوذ من سنام البعير . ويُرَشّ عليه بالماء لئلا ينتثر بالريح . وقال الشافعى: لا بأس أن يطيّن القبر . وقال أبو حنيفة : لا يجصص القبر ولا يطين ولا يرفع عليه بناء فيسقط . ولا بأس بوضع الأحجار لتكون علامة ؛ لما رواه أبو بكر الأثرم قال : حدثنا مُسدّد حدثنا نوح بن دُرّاج عن أبان بن تغلِب عن جعفر بن محمد قال : كانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تزور قبر حمزة بن عبد المطلب كل جمعة وعلّمته بصخرة؛ ذكره أبو عمر .

وأما الجائزة — فالدفن فى التابوت؛ وهو جائز لا سيما فى الأرض الرِّخوة . وروى أن دانيال صلوات الله عليه كان فى تابوت من حجر، وأن يوسف عليه السلام أوصى بأن يتخذ له تابوت من زجاج ويلقى فى رَكِيّة(1) مخافة أن يُعبد، وبقى كذلك إلى زمان موسى صلوات الله عليهم أجمعين؛ فدلّته عليه عجوز فرفعه ووضعه فى حظيرة إسحاق عليه السلام . وفى الصحيح عن سعد ابن أبى وقّاص أنه قال فى مرضه الذى هلك فيه: اتخذوا لى لَحْدًا وانصبوا علىّ اللّبِن نَصْبًا؛ كما صنع برسول الله صلى الله عليه وسلم . اللحد : هو أن يشق فى الأرض ثم يُحفر قبر آخر فى جانب الشق من جانب القبلة إن كانت الأرض صُلْبة يُدخَل فيه الميت ويُسَدّ عليه باللّبِن . وهو أفضل عندنا من الشق ؛ لأنه الذى اختاره الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم . وبه قال أبو حنيفة قال : السنة اللحد . وقال الشافعى : الشق . ويكره الآجُرّ فى اللحد . وقال الشافعى: لا بأس به لأنه نوع من الحجر . وكرهه أبو حنيفة وأصحابه ؛ لأن الآجر لإحكام البناء، والقبر وما فيه للبِلَى، فلا يليق به الإحكام . وعلى هـذا يسوى بين الحجر والآجر . وقيل : إن الآجر أثر النار فيكره تفاؤلا ؛ فعلى هـذا يفرق بين الحجر والآجر . قالوا : ويستحب اللّبِن والقصب لما روى أنه وضع على قبر النبىّ صلى الله عليه وسلم حُزْمة من قصب . وحكى عن الشيخ الإمام

(1) الركية : البئر .

أبى بكر محمد بن الفضل الحنفىّ رحمه الله أنه جوّز اتخاذ التابوت فى بلادهم لرخاوة الأرض .
وقال : لو اتُّخـذ تابوت من حديد فلا بأس به ؛ لكن ينبغى أن يفرش فيـه التراب وتطيّن الطبقة العليا مما يلى الميت ، ويُجعل اللّبِن الخفيف على يمين الميت ويساره ليصير بمنزلة اللحد .

قلت : ومن هذا المعنى جَعْل القطيفة فى قبر النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ فإن المدينة سَبِخة[(1)]، قال شُقْران : أنا والله طرحت القطيفة تحت رسـول الله صلى الله عليه وسلم فى القبر . قال أبو عيسى الترمذى : حديث شقران حديث حسن غريب .

قوله تعـالى : سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًـا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُـل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِـم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيـلٌ فَـلَا تُمَـارِ فِيهِـمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ الضمير فى « سـيقولون » يراد به أهل التوراة ومعاصرى محمد صلى الله عليه وسـلم . وذلك أنهم اختلفوا فى عدد أهل الكهف هذا الاختلاف المنصوص . وقيل : المراد به النصارى ؛ فإن قوما منهم حضروا النبىّ صـلى الله عليه وسلم من نجران فجرى ذكر أصحاب الكهف فقالت اليَعْقُوبية : كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم . وقالت النَّسْطورية : كانوا خمسة سادسهم كلبهم . وقال المسلمون : كانوا سبعة ثامنهم كلبهم . وقيل : هو إخبار عن اليهود الذين أمروا المشركين بمسألة النبىّ صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الكهف . والواو فى قوله « وثامنهم كلبهم » طريق النحويين أنها واو عطف دخلت فى آخر إخبار عن عددهم ؛ لتفصّل أمرهم ، وتدلّ على أن هذا غاية ماقيل ، ولو سقطت لصح الكلام . وقالت فرقة منها ابن خَالَوَيْه : هى واو الثمانية . وحكى الثعلبىّ عن أبى بكر بن عيّاش أن قريشا كانت تقول فى عددها ستة سبعة وثمانية ؛ فتُدخل الواو فى الثمانية . وحكى نحوه القَفّال ، فقال :

(1) أرض سبخة : ذات ملح ونَزّ .

إن قوما قالوا العدد ينتهي عند العرب إلى سبعة؛ فإذا احتيج إلى الزيادة عليها استؤنف خبر آخر بإدخال الواو؛ كقوله « التائبون العابدون — ثم قال — والناهون عن المنكر والحافظون » . يدل عليه أنه لما ذكر أبواب جهنم « حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها » بلا واو، ولما ذكر الجنة قال : « وفتحت أبوابها » بالواو . وقال « خيرا منكن مسلمات» ثم قال « وأبكارا » فالسبعة نهاية العدد عندهم كالعشرة الآن عندنا . قال القشيري أبو نصر : ومثل هذا الكلام تحكم؛ ومن أين السبعة نهاية عندهم! ثم هو منقوض بقوله تعالى : « هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر » ولم يذكر الاسم الثامن بالواو . وقال قوم ممن صار إلى أن عددهم سبعة : إنما ذكر الواو في قوله « سبعة وثامنهم » لينبه على أن هذا العدد هو الحق ، وأنه مباين للأعداد الأخر التي قال فيها أهل الكتاب ؛ ولهذا قال تعالى في الجملتين المتقدمتين « رجما بالغيب » ولم يذكره في الجملة الثالثة ولم يقدح فيها بشيء؛ فكأنه قال لنبيه هم سبعة وثامنهم كلبهم . والرجم : القول بالظن؛ يقال لكل ما يخرص : رجم فيه ومرجوم ومرجم؛ كما قال :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجم[1]

قلت : قد ذكر الماوردي والغزنوي : وقال ابن جريج ومحمد بن إسحاق كانوا ثمانية، وجعلا قوله تعالى « وثامنهم كلبهم » أي صاحب كلبهم . وهذا مما يقوي طريق النحويين في الواو، وأنها كما قالوا . وقال القشيري : لم يذكر الواو في قوله رابعهم سادسهم ، ولو كان بالعكس لكان جائزا ، فطلب الحكمة والعلة في مثل هذه الواو تكلف بعيد ، وهو كقوله في موضع آخر « وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم »[2] . وفي موضع آخر : « إلا لها منذرون . ذكرى »[3] .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ﴾ أمر الله تعالى نبيه عليه السلام في هذه الآية أن يرد علم عدتهم إليه عز وجل . ثم أخبر أن عالم ذلك من البشر قليل . والمراد به قوم من

---

(١) البيت من معلقة زهير . (٢) آية ٤ سورة الحجر . (٣) آية ٢٠٨ سورة الشعراء .

أهـل الكتاب ، فى قول عطاء . وكان ابن عباس يقول : أنا من ذلك القليل، كانوا سبعة وثامنهم كلبهم، ثم ذكر السبعة بأسمائهم، والكلب اسمه قطمير كلب أنمر، فوق القلطي[1] ودون الكردى . وقال محمد بن سعيد بن المسيب : هو كلب صيني . والصحيح أنه زبرى . وقال : ما بقى بنيسابور محدث إلا كتب عنى هذا الحديث إلا من لم يقدر له . قال : وكتبه أبو عمرو الحيرى عنى .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ أى لا تجادل فى أصحاب الكهف إلا بما أوحيناه إليك، وهو رد علم عدتهم إلى الله تعالى . وقيل : معنى المراء الظاهر أن تقول : ليس كما تقولون ، ونحو هـذا، ولا تحتج على أمر مقـدر فى ذلك . وفى هـذا دليل على أن الله تعالى لم يبين لأحد عددهم فلهذا قال « إلا مراء ظاهرا » أى ذاهبا، كما قال :

* وتلك شكاةٌ ظاهرٌ عنك عارها[2] *

ولم يبح له فى هذه الآية أن يمارى؛ ولكن قوله « إلا مراء » استعارة من حيث يماريه أهل الكتاب . سميت مراجعته لهم مراء ثم قيـد بأنه ظـاهر ؛ ففارق المراء الحقيق المذموم . والضمير فى قوله « فيهم » عائد على أهل الكهف . وفى قوله « منهم » عائد على أهل الكتاب المعارضين . وقوله : « فلا تمار فيهم » يعنى فى عدتهم ، وحذفت العدة لدلالة ظاهر القول عليها .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ روى أنه عليه السلام سأل نصارى نجران عنهم فنهى عن السؤال . وفى هذا دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب فى شىء من العلم .

قوله تعـالى : وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَـدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

(١) القلطى (كعربى) : القصير من الناس والسنانير والكلاب . قال الدميرى : « والقلطى : كلب صينى » .

(٢) هذا عجز بيت لأبى ذؤيب . وصدره :

* وعيرها الواشون أنى أحبها *

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا . إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى ــ قال العلماء : عاتب الله تعالى نبيه عليه السلام على قوله للكفار حين سألوه عن الروح والفتية وذى القرنين : غدا أخبركم بجواب أسئلتكم ؛ ولم يستثن فى ذلك . فاحتبس الوحى عنه خمسة عشر يوما حتى شق ذلك عليه وأرجف الكفار به ، فنزلت عليه هذه السورة مفرجة . وأمر فى هذه الآية ألا يقول فى أمر من الأمور إنى أفعل غدا كذا وكذا ، إلا أن يعلق ذلك بمشيئة الله عز وجل حتى لا يكون محققا لحكم الخبر ؛ فإنه إذا قال : لأفعلن ذلك ولم يفعل كان كاذبا ، و إذا قال لأفعلن ذلك إن شاء الله خرج عن أن يكون محققا للخبر عنه . واللام فى قوله « لشىء » بمنزلة فى ، أو كأنه قال لأجل شىء .

الثانيــة ــ قال ابن عطية : وتكلم الناس فى هذه الآية فى الاستثناء فى اليمين ، والآية ليست فى الأيمان و إنما هى فى سنة الاستثناء فى غير اليمين . وقوله « إلا أن يشاء الله » فى الكلام حذف يقتضيه الظاهر ويحسنه الإيجاز ؛ تقديره : إلا أن تقول إلا أن يشاء الله ؛ أو إلا أن تقول إن شاء الله . فالمعنى : إلا أن تذكر مشيئة الله ؛ فليس « إلا أن يشاء الله » من القول الذى نهى عنه .

قلت : ما اختاره ابن عطية وارتضاه هو قول الكسائى والفراء والأخفش . وقال البصريون : المعنى إلا بمشيئة الله . فإذا قال الإنسان أنا أفعل هذا إن شاء الله فمعناه بمشيئة الله . قال ابن عطية : وقالت فرقة « إلا أن يشاء الله » استثناء من قوله « ولا تقولن » . قال : وهــذا قول حكاه الطبرى ورد عليه ؛ وهو من الفساد بحيث كان الواجب ألا يحكى . وقد تقدم القول فى الاستثناء فى اليمين وحكمه فى « المائدة »[1] .

قوله تعــالى : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ فيه مسألة واحدة ، وهو الأمر بالذكر بعــد النسيان ــ واختلف فى الذكر المأمور به ؛ فقيل : هو قوله « وقل عسى أن يهــدين ربى لأقرب من هــذا رشدا » . قال محمــد الكوفى المفسر : إنها بألفاظها مما أمر أن يقولها كل

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٦٤ طبعة أولى أو ثانية .

من لم يستثن ، وإنها كفارة لنسيان الاستثناء . وقال الجمهور : هو دعاء مأمور به دون هذا التخصيص . وقيل : هو قوله «إن شاء الله» الذى كان نسيه عند يمينه . حكى عن ابن عباس أنه إن نسى الاستثناء ثم ذكر ولو بعد سنة لم يحنث إن كان حالفا . وهو قول مجاهد . وحكى إسماعيل بن إسحاق ذلك عن أبى العالية فى قوله تعالى « واذكر ربك إذا نسيت » قال : يستثنى إذا ذكره . الحسن : ما دام فى مجلس الذكر . ابن عباس : سنتين ؛ ذكره الغزنوى قال : فيحمل على تدارك التبرك بالاستثناء للتخلص عن الإثم . فأما الاستثناء المفيد حكما فلا يصح إلا متصلا . السدى : أى كل صلاة نسيها إذا ذكرها . وقيل : استثن باسمه لئلا تنسى . وقيل : اذكره متى ما نسيته . وقيل : إذا نسيت شيئا فاذكره يذكركه . وقيل : اذكره إذا نسيت غيره أو نسيت نفسك ؛ فذلك حقيقة الذكر . وهذه الآية مخاطبة للنبى صلى الله عليه وسلم ، وهى استفتاح كلام على الأصح ، وليست من الاستثناء فى اليمين بشىء ؛ وهى بعد تعم جميع أمته ؛ لأنه حكم يتردد فى الناس لكثرة وقوعه . والله الموفق .

قوله تعالى : وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾

هذا خبر من الله تعالى عن مدة لبثهم . وفى قراءة ابن مسعود « وقالوا لبثوا » . قال الطبرى : إن بنى إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الإعثار عليهم إلى مدة النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم : إنهم لبثوا ثلثمائة سنة وتسع سنين ، فأخبر الله تعالى نبيه أن هذه المدة فى كونهم نياما ، وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر . فأمر الله تعالى أن يرد علم ذلك إليه . قال ابن عطية : فقوله على هذا « لبثوا » الأول يريد فى نوم الكهف ، و « لبثوا » الثانى يريد بعد الإعثار إلى مدة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو إلى وقت عدمهم بالبلاء . مجاهد : إلى وقت نزول القرآن . الضحاك : إلى أن ماتوا . وقال بعضهم : إنه لما قال « وازدادوا تسعا » لم يدر الناس أهى ساعات أم أيام أم جمع أم شهور أم أعوام . واختلف بنو إسرائيل بحسب ذلك ، فأمر الله تعالى برد العلم إليه فى التسع ، فهى على هذا مبهمة . وظاهر كلام العرب المفهوم منه أنها أعوام ، والظاهر من أمرهم أنهم قاموا ودخلوا الكهف بعد عيسى

يسير وقد بقيت من الحوالين بقية . وقيل غير هذا على ما يأتى . قال القشيرى : لا يفهم من التسع تسع ليال وتسع ساعات لسبق ذكر السنين؛ كما تقول : عندى مائة درهم وخمسة؛ والمفهوم منه خمسة دراهم . وقال أبو على « وازدادوا تسعا » أى ازدادوا لبث تسع؛ فحذف. وقال الضحاك : لما نزلت « ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة » قالوا سنين أم شهور أم جمع أم أيام؛ فأنزل الله عز وجل « سنين » . وحكى النقاش ما معناه أنهم لبثوا ثلثمائة سنة شمسية بحساب الأيام؛ فلما كان الإخبار هنا للنبى العربى ذكرت التسع؛ إذ المفهوم عنده من السنين القمرية؛ وهذه الزيادة هى ما بين الحسابين . ونحوه ذكر الغزنوى . أى باختلاف سنى الشمس والقمر؛ لأنه يتفاوت فى كل ثلاث وثلاثين وثلث سنة سنة فيكون فى ثلثمائة تسع سنين . وقرأ الجمهور « ثلثمائةٍ سنينَ » بتنوين مائة ونصب سنين ، على التقديم والتأخير؛ أى سنين ثلثمائة فقدم الصفة على الموصوف، فتكون « سنين » على هذا بدلا أو عطف بيان . وقيل: على التفسير والتمييز . و « سنين » فى موضع سنة . وقرأ حمزة والكسائى بإضافة مائة إلى سنين، وترك التنوين؛ كأنهم جعلوا سنين بمنزلة سنة إذ المعنى بهما واحد. قال أبو على: هذه الأعداد التى تضاف فى المشهور إلى الآحاد نحو ثلثمائة رجل وثوب قد تضاف إلى الجموع . وفى مصحف عبد الله « ثلثمائة سنة » . وقرأ الضحاك « ثلثمائة سنون » بالواو . وقرأ أبو عمرو بخلاف « تَسْعًا » بفتح التاء . وقرأ الجمهور بكسرها . وقال الفراء والكسائى وأبو عبيدة : التقدير ولبثوا فى كهفهم سنين ثلثمائة .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا (٢٦) ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ قيل بعد موتهم إلى نزول القرآن فيهم، على قول مجاهد . أو إلى أن ماتوا؛ على قول الضحاك . أو إلى وقت تغيرهم بالبِلَى؛ على ما تقدم. وقيل : بما لبثوا فى الكهف، وهى المدة التى ذكرها الله تعالى عن اليهود و إن ذكروا زيادة ونقصانا . أى لا يعلم علم ذلك إلا الله أو من علّمه ذلك «له غَيْبُ السموات والأرض».

قوله تعالى : ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ أى ما أبصره وأسمعه . قال قتادة : لا أحد أبصر من الله ولا أسمع . وهذه عبارات عن الإدراك . ويحتمل أن يكون المعنى « أبصر به » أى بوحيه وإرشاده هداك وحججك والحق من الأمور ، وأسمع به العالم ؛ فيكونان أمرين لا على وجه التعجب . وقيل : المعنى أبصرهم وأسمعهم ما قال الله فيهم . ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ أى لم يكن لأصحاب الكهف ولي يتولى حفظهم دون الله . ويحتمل أن يعود الضمير في « لهم » على معاصرى محمد صلى الله عليه وسلم من الكفار . والمعنى : ما لهؤلاء المختلفين في مدة لبثهم ولي دون الله يتولى تدبير أمرهم ؛ فكيف يكونون أعلم منه ، أو كيف يتعلمون من غير إعلامه إياهم

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ قرئ بالياء ورفع الكاف ، على معنى الخبر عن الله تعالى . وقرأ ابن عامر والحسن وأبو رجاء وقتادة والجحدري « ولا تُشرِكْ » بالتاء من فوق وإسكان الكاف على جهة النهي صلى الله عليه وسلم ، ويكون قوله « ولا تشرك » عطفا على قوله « أبصر به وأسمع » . وقرأ مجاهد « يُشْرِكْ » بالياء من تحت والجزم . قال يعقوب : لا أعرف وجهه .

مسـألة — اختلف في أصحاب الكهف هل ماتوا وفنوا ، أو هم نيام وأجسادهم محفوظة ؛ فروى عن ابن عباس أنه مر بالشام في بعض غزواته مع ناس على موضع الكهف وجبله ، فمشى الناس معه إليه فوجدوا عظاما فقالوا : هذه عظام أهل الكهف . فقال لهم ابن عباس : أولئك قوم فنوا وعدموا منذ مدة طويلة ؛ فسمعه راهب فقال : ما كنت أحسب أن أحدا من العرب يعرف هذا ؛ فقيل له : هذا ابن عم نبينا صلى الله عليه وسلم . وروت فرقة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ليحجن عيسى بن مريم ومعه أصحاب الكهف فإنهم لم يحجوا بعد " . ذكره ابن عطية

قلت : ومكتوب في التوراة والإنجيل أن عيسى بن مريم عبد الله ورسوله ، وأنه يمر بالروحاء حاجا أو معتمرا أو يجمع الله له ذلك فيجعل الله حواريه أصحاب الكهف والرقيم ، فيمرون حجاجا فإنهم لم يحجوا ولم يموتوا . وقد ذكرنا هذا الخبر بكماله في كتاب « التذكرة » . فعلى هذا هم نيام ولم يموتوا إلى يوم القيامة ، بل يموتون قبيل الساعة .

قوله تعالى : وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ قيل : هو من تمام قصة أصحاب الكهف ؛ أى اتبع القرآن فلا مبدّل لكلمات الله ولا خُلف فيما أخبر به من قصة أصحاب الكهف . وقال الطبرى : لا مغيّر لما أوعد بكلماته أهلَ معاصيه والمخالفين لكتابه . ﴿ وَلَن تَجِدَ ﴾ أنت ﴿ مِن دُونِهِۦ ﴾ إن لم تتبع القرآن وخالفته . ﴿ مُلْتَحَدًا ﴾ أى ملجأ . وقيل موئلا . وأصله الميل ؛ ومَن لجأت إليه فقد ملْت إليه . قال القُشَيْرِىّ أبو نصر عبد الرحيم : وهذا آخر قصة أصحاب الكهف . ولما غزا معاوية غزوة المضيق نحو الروم وكان معه ابن عباس فانتهى إلى الكهف الذى فيه أصحاب الكهف ؛ فقال معاوية : لو كُشف لنا عن هؤلاء فننظر إليهم ؛ فقال ابن عباس : قد منع الله من هو خير منك عن ذلك، فقال : « لو اطلعتَ عليهم لولّيتَ منهم فرارا » فقال : لا أنتهى حتى أعلم علمهم ؛ وبعث قوما لذلك ؛ فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحا فأخرجتهم ؛ ذكره الثعلبى أيضا . وذكر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم سأل الله أن يريَه إياهم ، فقال إنك لن تراهم فى دار الدنيا ولكن ابعث إليهم أربعة من خيار أصحابك ليبلغوهم رسالتك و يدعوهم الى الإيمان؛ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام : كيف أبعثهم ؟ فقال : ابسط كساءك وأجلس على طرف من أطرافه أبا بكر وعلى الطرف الآخر عمر وعلى الثالث عثمان وعلى الرابع علىّ ابن أبى طالب ، ثم ادع الريح الرُّخاء المسخرة لسليمان فإن الله تعالى يأمرها أن تطيعك ؛ ففعل فحملتهم الريح إلى باب الكهف ، فقلعوا منه حجرا ، فحمل الكلبُ عليهم فلما رآهم حرك رأسه و بصبص بذَنَبه وأومأ إليهم برأسه أن ادخلوا فدخلوا الكهف فقالوا : السلام عليكم و رحمة الله و بركاته ؛ فردّ الله على الفتية أرواحهم فقاموا بأجمعهم وقالوا : عليكم السلام ورحمة الله و بركاته ؛ فقالوا لهم : معشرَ الفتية ، إن النبىّ محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليكم السلام ؛ فقالوا : وعلى محمد رسول الله السلام ما دامت السموات والأرض، وعليكم بما أبلغتم ، وقبلوا

دينه وأسلموا، ثم قالوا : أقرئوا محمدا رسول الله منا السلام ، وأخذوا مضاجعهم وصاروا إلى رقدتهم إلى آخر الزمان عند خروج المهدى . فيقال : إن المهدى يسلم عليهم فيحييهم الله ثم يرجعون إلى رقدتهم فلا يقومون حتى تقوم الساعة ، فأخبر جبريل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بما كان منهم ، ثم ردّتهم الريح فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "كيف وجدتموهم"؟ فأخبروه الخبر، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "اللّهمّ لا تفرق بيني وبين أصحابي وأصهاري واغفر لمن أحبني وأحبّ أهل بيتي وخاصّتي وأصحابي" . وقيل : إن أصحاب الكهف دخلوا الكهف قبل المسيح ، فأخبر الله تعالى المسيح بخبرهم ثم بُعثوا فى الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : كانوا قبل موسى عليه السلام وأن موسى ذكرهم فى التوراة ؛ ولهذا سألت اليهود رسولَ الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : دخلوا الكهف بعد المسيح ؛ فالله أعلم أىّ ذلك كان .

قوله تعالى : وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَاةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ هذا مثل قوله : « وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَاةِ وَٱلْعَشِىِّ » فى سورة « الأنعام »[1] وقد مضى الكلام فيه . وقال سلمان الفارسى رضى الله عنه : جاءت المؤلّفة قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : عُيينة بن حِصن والأقرع بن حابس فقالوا : يا رسول الله ؛ إنك لو جلست فى صدر المجلس ونحّيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم — يعنون سلمان وأباذرّ وفقراء المسلمين، وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها — جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك ؛ فأنزل الله تعالى « وَٱتْلُ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا . وَٱصْبِرْ

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٣٢ طبعة أولى أو ثانية .

نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ــ حتى بلغ ــ إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها » ، يتهددهم بالنار . فقام النبيّ صلى الله عليه وسلم يلتمسهم حتى إذا أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله قال : "الحمد لله الذي لم يُمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي، معكم المَحْيَا ومعكم المَمات" . ﴿ يريدُونَ وَجْهَهُ ﴾ أي طاعته .

وقرأ نصر بن عاصم ومالك بن دينار وأبو عبد الرحمن « ولا تَطْرُد الذين يدعون ربهم بالغُدْوة والعَشِيّ » وحجتهم أنها في السواد بالواو . وقال أبو جعفر النحاس : وهذا لا يلزم لكَتْبِهم الحياة والصلاة بالواو، ولا تكاد العرب تقول الغدوة لأنها معروفة . وروى عن الحسن « ولا تعدُ[1] عينيك عنهم » أي لا تتجاوز عيناك إلى غيرهم من أبناء الدنيا طلبا لزينتها؛ حكاه اليزيدي . وقيل : لا تحتقرهم عيناك؛ كما يقال فلان تَنْبُو عنه العين؛ أي مستحقرا .

﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي تتزين بمجالسة هؤلاء الرؤساء الذين اقترحوا إبعاد الفقراء من مجلسك؛ ولم يُرِد النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يفعل ذلك، ولكنّ الله نهاه عن أن يفعله، وليس هذا بأكثر من قوله « لئن أشركتَ ليَحْبَطَنّ عَمَلُكَ[2] » . وإن كان الله أعاذه من الشرك . و « تريد » فعل مضارع في موضع الحال؛ أي لا تعد عيناك مريدا؛ كقول امرئ القيس :

فقلتُ له لا تَبْكِ عَيْنُك إنما ۞ نحاول مُلْكا أو نموتَ فنُعْذَرَا

وزعم بعضهم أن حق الكلام : لا تعد عينيك عنهم ؛ لأن « تَعْدُ » متعدّ بنفسه . قيل له : والذي وردت به التلاوة من رفع العينين يئول إلى معنى النصب فيهما ، إذ كان لا تعد عيناك عنهم بمنزلة لا تنصرف عيناك عنهم ، ومعنى لا تنصرف عيناك عنهم لا تصرف عينيك عنهم ؛ فالفعل مسند إلى العينين وهو في الحقيقة موجّه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ كما قال تعالى :

---

(١) في كتاب روح المعاني : « وقرأ الحسن (ولا تُعْدِ عينيك) بضم التاء وسكون العين وكسر الدال المخففة ، من أعداه ، ونصب العينين . وعنه وعن عيسى والأعمش أنهم قرءوا (ولا تُعَدِّ عينيك) بضم التاء وفتح العين وتشديد الدال المكسورة من عداه يعديه بنصب العينين أيضا » .

(٢) آية ٦٥ سورة الزمر .

« فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ » فأسند الإعجاب إلى الأموال ؛ والمعنى : لا تعجبك يا محمد أموالهم .
ويزيدك وضوحا قول الزجاج : إن المعنى لا تصرف بصرك عنهم إلى غيرهم من ذوى الهيئات والزينة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ روى جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى « ولا تُطِعْ من أغفلنا قلبَه عن ذكرنا » قال : نزلت فى أُمَيّة بن خلف الجُمَحِىّ ، وذلك أنه دعا النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى أمر كرهه من تجرد الفقراء عنه وتقريب صناديد أهل مكة ؛ فأنزل الله تعالى : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا » يعنى من ختمنا على قلبه عن التوحيد . ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ يعنى الشرك . ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ قيل هو من التفريط الذى هو التقصير وتقديم العجز بترك الإيمان . وقيل : من الإفراط ومجاوزة الحدّ ، وكان القوم قالوا : نحن أشراف مُضَر إن أسلمنا أسلم الناس ؛ وكان هذا من التكبر والإفراط فى القول . وقيل : « فُرُطًا » أى قدما فى الشر ؛ من قولهم : فَرَط منه أمر أى سبق . وقيل : معنى « أغفلنا قلبه » وجدناه غافلا ؛ كما تقول : لقيت فلانا فأحمدته ؛ أى وجدته محمودا . وقال عمرو بن معديكرب لبنى الحارث بن كعب : والله لقد سألناكم فما أبخلناكم ، وقاتلناكم فما أجبناكم ، وهاجيناكم فما أفحمناكم ؛ أى ما وجدناكم بخلاء ولا جبناء ولا مُفْحَمين . وقيل : نزلت « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا » فى عُيينة بن حِصن الفَزَارى ؛ ذكره عبد الرزاق ، وحكاه النحاس عن سفيان الثَّوْرى . والله أعلم .

قوله تعالى : وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ « الحقُّ » رفع على خبر الابتداء المضمر ؛ أى قل هو الحق . وقيل : هو رفع على الابتداء ، وخبره فى قوله

---

(١) آية ٥٥ سورة التوبة .

«من ربكم» . ومعنى الآية : قل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا : أيها الناس ! من ربكم الحق فإليه التوفيق والخذلان ، وبيده الهدى والضلال ، يهدى من يشاء فيؤمن ، ويضل من يشاء فيكفر ؛ ليس إلى من ذلك شيء ، فالله يؤتى الحق من يشاء وإن كان ضعيفا ، ويحرمه من يشاء وإن كان قويا غنيا ، ولست بطارد المؤمنين لهواكم ؛ فإن شئتم فآمنوا ، وإن شئتم فاكفروا . وليس هذا بترخيص وتخيير بين الإيمان والكفر ، وإنما هو وعيد وتهديد . أى إن كفرتم فقد أعد لكم النار ، وإن آمنتم فلكم الجنة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا ﴾ أى أعددنا . ﴿ لِلظَّالِمِينَ ﴾ أى للكافرين الجاحدين . ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ قال الجوهرى : السرادق واحد السرادقات التى تمد فوق صحن الدار . وكل بيت من كُرْسُف[1] فهو سرادق . قال رؤبة[2] :

يا حَكَمَ بنَ المنذر بن الجارُودْ ❊ سُرادقُ المجد عليك مَمْدُودْ

يقال : بيت مُسَرْدَق . وقال سلامة بن جندل يذكر أبرويز[3] وقتله النعمان بن المنذر تحت أرجل الفيلة :

هو المُدخِل النعمانَ بيتًا سماؤه ❊ صُدورُ الفُيولِ بعد بيتٍ مُسَرْدَقِ

وقال ابن الأعرابى : « سرادقها » سورها . وعن ابن عباس : حائط من نار . الكلبى : عنق تخرج من النار فتحيط بالكفار كالحظيرة . القتبى : السرادق الحجزة التى تكون حول الفسطاط . وقاله ابن عزيز . وقيل : هو دخان يحيط بالكفار يوم القيامة ، وهو الذى ذكره الله تعالى فى سورة «والمرسلات» حيث يقول : « انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ »[4] وقوله : «وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ»[5] قاله قتادة . وقيل : إنه البحر المحيط بالدنيا . وروى يعلى بن أمية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "البحر هو جهنم — ثم تلا — نارًا أحاط بهم سُرادقها —

---

(١) الكرسف : القطن .   (٢) كذا فى الأصل واللسان ، واستدرك عليه صاحب اللسان بأنه للكذاب الحِرْمازى ، وتابعه على هذا سيبويه والأعلم الشنتمرى . مدح الراجز أحد بنى المنذر بن الجارود العبدى ، وحَكَمٌ هذا أحد ولاة البصرة لهشام بن عبد الملك . وسمى جده الجارود لأنه أغار على قوم فاكتسح أموالهم ؛ فشبه بالسيل الذى يجرد ما مر به .

(٣) بفتح الواو وكسرها ، ملك من ملوك الفرس .   (٤) آية ٣٠ .   (٥) آية ٤٣ سورة الواقعة .

ثم قال — والله لا أدخلها أبدا ما دمت حياً ولا يصيبنى منها قطرة" ذكره الماوردى . وخرج ابن المبارك من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " لسرادق النار أربع جُدُر كُثُف(1) كل جدار مسيرة أربعين سنة" . وخرجه أبو عيسى الترمذى ، وقال فيه : حديث حسن صحيح غريب .

قلت : وهذا يدل على أن السرادق ما يعلو الكفار من دخان أو نار، وجُدُره ما وُصف .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ قال ابن عباس : المُهْل ماء غليظ مثل دُرْدِى(2) الزيت . مجاهد : القيح والدم . الضحاك : ماء أسود، وإن جهنم لسوداء، وماؤها أسود وشجرها أسود وأهلها سُود . وقال أبو عبيدة : هو كل ما أذيب من جواهر الأرض من حديد ورَصاص ونُحاس وقَزْدير ، فتموج بالغليان، فذلك المهل . ونحوه عن ابن مسعود . قال سعيد بن جُبير : هو الذى قد انتهى حَرّه . وقال : المهل ضرب من القَطِران ؛ يقال : مَهلت البعير فهو ممهول . وقيل : هو السم . والمعنى فى هذه الأقوال متقارب . وفى الترمذى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله « كالمهل » قال : " كعَكَر الزيت فإذا قربه إلى وجهه سقطت فَرْوة وجهه" قال أبو عيسى : هذا حديث إنما نعرفه من حديث رِشْدِين بن سعد ورِشْدين قد تُكُلّم فيه من قبل حفظه . وخرج عن أبى أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : "وَيُسْقَى مِن ماءٍ صَدِيدٍ يتجرعه" قال : "يقرب إلى فيه فيكرهه فإذا أُدنِىَ منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره . يقول الله تعالى « وسُقُوا ماءً حَمِيًا فقطّع أمعاءهم »(3) يقول « وإن يستغيثوا يُغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشرابُ وساءت مُرْتَفَقًا » " قال : حديث غريب .

قلت : وهذا يدل على صحة تلك الأقوال ، وأنها مرادة، والله أعلم . وكذلك نص عليها أهل اللغة . فى الصحاح « المهل » النحاس المُذاب . ابن الأعرابى : المهل المذاب من

---

(1) الكثف : جمع كثيف ؛ وهو الثخين الغليظ . (2) الدردى (بالضم) : ما يبقى فى الأسفل .

(3) آية ١٥ سورة محمد .

الرصاص . وقال أبو عمرو . المهل دردىّ الزيت . والمهل أيضا القيح والصديد . وفى حديث أبى بكر : ادفنونى فى ثوبىّ هذين فإنهما للمهل والتراب . و﴿ مُرْتَفَقًا ﴾ قال مجاهد : معناه مجتمعا، كأنه ذهب إلى معنى المرافقة . ابن عباس : منزلا . عطاء : مقرا . وقيل مهادا . وقال القتبىّ : مجلسا . والمعنى متقارب؛ وأصله من المتكأ، يقال منه : ارتفقت أى اتكأت على المرفق . قال الشاعر :

قالت له وارتفقت ألا فتى * يسوق بالقوم غزالات الضحا[1]

ويقال : ارتفق الرجل إذا نام على مرفقه لا يأتيه نوم ، قال أبو ذؤيب الهذلىّ :

نام الخلىّ وبتّ الليل مرتفقا[2] * كأن عينىّ فيها الصاب مذبوح

الصاب : عصارة شجر مرّ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾

لما ذكر ما أعدّ للكافرين من الهوان ذكر أيضا ما للؤمنين من الثواب . وفى الكلام إضمار؛ أى لا نضيع أجر من أحسن منهم عملا، فأما من أحسن عملا من غير المؤمنين فعمله محبط . و « عملا » نصب على التمييز، وإن شئت بإيقاع « أحسن » عليه . وقيل :

---

(١) غزالة الضحا وغزالاته : بعد ما تنبسط الشمس وتضحى . وقيل : هو أول الضحا إلى مدّ النهار الأكبر حتى يمضى من النهار نحو من خمسه .

(٢) ورواية الديوان : « منتجرا » والمنتجر : الذى قد تجرّ نفسه ووضع يده تحت نجره على حنكه أو على فه . والنجر : ما بين اللحيين . ومذبوح : مشقوق .

« إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » كلام معترض، والخبر قوله « أولئك لهم جنات عدن » و ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ سُرّة الجنة، أي وسطها وسائر الجنات مُحْدِقة بها . وذكرت بلفظ الجمع لسعتها؛ لأن كل بقعة منها تصلح أن تكون جنة . وقيل : العدن الإقامة ، يقال : عدن بالمكان إذا أقام به . وعدنت البلد توطنته . وعدنت الإبل بمكان كذا لزمته فلم تبرح منه؛ ومنه « جنات عدن » أي جنات إقامة . ومنه سمي المعدِن (بكسر الدال) ؛ لأن الناس يقيمون فيه بالصيف والشتاء . ومركز كل شيء معدنه . والعادن : الناقة المقيمة في المرعى . وعدن بلد؛ قاله الجوهري . ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [1] تقدم في غير موضع . ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ وهو جمع سِوار . قال سعيد بن جبير : على كل واحد منهم ثلاثة أسورة : واحد من ذهب، وواحد من ورق، وواحد من لؤلؤ .

قلت : هذا منصوص في القرآن، قال هنا « من ذهب » وقال في الحج [2] وفاطر [3] « من ذهب ولؤلؤا » وفي الإنسان [4] « من فضة » . وقال أبو هريرة : سمعت خليلي صلى الله عليه وسلم يقول : "تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء" خرجه مسلم . وحكى الفراء : « يَحْلَوْن » بفتح الياء وسكون الحاء وفتح اللام خفيفة؛ يقال : حَلِيت المرأة تَحْلَى فهي حالية إذا لبست الحلي . وحَلِيَ الشيء بعيني يحلى؛ ذكره النحاس . والسِّوار سوار المرأة، والجمع أسورة، وجمع الجمع أساورة . وقرئ « فلولا أُلْقِيَ عليه أساورة من ذهب » [5] وقد يكون الجمع أساور . وقال الله تعالى « يُحَلَّوْن فيها من أساور من ذهب » قاله الجوهري . وقال ابن عزيز : أساور جمع أسورة، وأسورة جمع سِوار وسُوار، وهو الذي يلبس في الذراع من ذهب، فإن كان من فضة فهو قُلْب وجمعه قِلَبة؛ فإن كان من قرن أو عاج فهي مَسَكة وجمعه مَسَك . قال النحاس : وحكى قُطْرب في واحد الأساور إسوار، وقُطْرب صاحب شذوذ، قد تركه يعقوب وغيره فلم يذكره .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٣٩ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٢٣ (٣) آية ٣٣
(٤) آية ٢١ (٥) آية ٥٣ سورة الزخرف .

قلت : قد جاء في الصحاح وقال أبو عمرو بن العلاء : واحدها إسوار . وقال المفسرون : لما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور والتيجان جعل الله تعالى ذلك لأهل الجنة .

قوله تعالى : ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ السُّندُس : الرقيق النحيف ، واحده سُندسة ؛ قاله الكسائي . والإستبرق : ما ثخُن منه — عن عكرمة — وهو الحرير . قال الشاعر :

تراهنّ يلبسن المشاعر مَرّة * وإستبرقُ الديباج طَوْرًا لباسُها

فالإستبرق الديباج . ابن بحر : المنسوج بالذهب . القُتَبِيّ : فارسي معرب . الجوهري : وتصغيره أُبَيْرِق . وقيل : هو استفعل من البريق . والصحيح أنه وفاق بين اللغتين ؛ إذ ليس في القرآن ما ليس من لغة العرب ، على ما تقدّم ، والله أعلم .

وخص الأخضر بالذكر لأنه الموافق للبصر ؛ لأن البياض يبدّد النظر ويؤلم ، والسواد يذمّ ، والخضرة بين البياض والسواد ، وذلك يجمع الشعاع . والله أعلم . روى النسائيّ عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل فقال : يا رسول الله ، أخبرنا عن ثياب الجنة ، أخَلْقٌ يُخلَق أم نسج يُنسج؟ فضحك بعض القوم . فقال لهم : " مِمّ تضحكون من جاهل يسأل عالما " فجلس يسيرا أو قليلا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أين السائل عن ثياب الجنة"؟ فقال : ها هو ذا يا رسول الله ؛ قال " لا بل تَشقّق عنها ثمر الجنة " قالها ثلاثا . وقال أبو هريرة : دار المؤمن درّة مجوّفة في وسطها شجرة تنبت الحُلَل ويأخذ بأصبعه أو قال بأصبعيه سبعين حُلّة منظمة بالدرّ والمَرْجان . ذكره يحيى بن سلام في تفسيره وابن المبارك في رقائقه . وقد ذكرنا إسناده في كتاب التذكرة . وذُكر في الحديث أنه يكون على كل واحد منهم الحلة لها وجهان لكل وجه لون ، يتكلمان بصوت يستحسنه سامعه ، يقول أحد الوجهين للآخر : أنا أكرم على وَليّ الله منك ، أنا ألي جسده وأنت لا تلي . ويقول الآخر : أنا أكرم على وليّ الله منك ، أنا أبصر وجهه وأنت لا تبصر .

قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ « الأرائك » جمع أريكة ، وهي السرر في الحِجال(١) . وقيل الفرش في الحجال ؛ قاله الزجاج . ابن عباس : هي الأسرّة من ذهب ، وهي مكلّلة بالدرّ والياقوت عليها الحجال ، الأريكة ما بين صنعاء إلى أيلة وما بين عدن إلى الجابية . وأصل متكئين مُوتَكِئِين ، وكذلك اتكأ أصله اوتكأ ، وأصل التُّكَأة وُكَأة ؛ ومنه التوكّأ للتحامل على الشيء ، فقلبت الواو تاء وأدغمت . ورجل وُكَأة كثير الاتّكاء . ﴿ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ يعني الجنات ، عكس « وساءت مرتفقا » . وقد تقدّم . ولو كان « نعمت » لجاز لأنه اسم للجنة . وعلى هذا « وحسنت مرتفقا » . وروى البراء ابن عازب أن أعرابيًّا قام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ، والنبيّ صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات على ناقته العَضْباء فقال : إني رجل مسلم فأخبرني عن هذه الآية « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات » الآية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أنت منهم ببعيد ولا هم ببعيد منك هم هؤلاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ فأعلم قومك أن هذه الآية نزلت فيهم " ذكره الماورديّ ، وأسنده النحاس في كتاب معاني القرآن ؛ قال : حدّثنا أبو عبد الله أحمد بن عليّ بن سهل قال حدّثنا محمد بن حميد قال حدّثنا يحيى بن الضُّرَيس عن زهير بن معاوية عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب قال : قام أعرابي ... ؛ فذكره . وأسنده السُّهَيلي في كتاب الاعلام . وقد روّينا جميع ذلك بالإجازة ، والحمد لله .

قوله تعالى : وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

---

(١) الحجال : جمع الحَجَلة (بفتحتين) كالقبة ، وموضع يزين بالثياب والستور والأسرة للعروس .

قوله تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ ﴾ هذا مثل لمن يتعزز بالدنيا و يستنكف عن مجالسة المؤمنين ، وهو متصل بقوله « وٱصبر نفسك » . واختلف فى اسم هذين الرجلين وتعيينهما ؛ فقال الكلبى : نزلت فى أخوين من أهل مكة مخزوميين ، أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد ٱلله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، زوجُ أمّ سلمة قبل النبىّ صلى الله عليه وسلم . والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد ، وهما الأخوان المذكوران فى سورة « الصافات » فى قوله «قال قائل منهم إنى كان لى قرين»[1] ، وَرِث كل واحد منهما أربعة آلاف دينار ، فأنفق أحدُهما مالَه فى سبيل الله وطلب من أخيه شيئا فقال ما قال ... ؛ ذكره الثعلبىّ والقُشَيرىّ . وقيل : نزلت فى النبىّ صلى الله عليه وسلم وأهل مكة . وقيل : هو مَثَل لجميع مَن آمن بالله و جميع مَن كفر . وقيل : هو مَثَل لعُيَيْنة بن حِصْن وأصحابه مع سلمان وصُهيب وأصحابه ؛ شبّههم الله برجلين من بنى إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا ؛ فى قول ابن عباس . وقال مقاتل : اسمه تمليخا . والآخر كافر واسمه قرطوش . وهما اللذان وصفهما الله تعالى فى سورة الصافات . وكذا ذكر محمد بن الحسن المقرئ قال : اسم الخيِّر منهما تمليخا ، والآخر قرطوش ، وأنهما كانا شريكين ثم اقتسما المال فصار لكل واحد منهما ثلاثةُ آلاف دينار ، فاشترى المؤمن منهما عبيدا بألف وأعتقهم ، و بالألف الثانية ثيابا فكسا العُراة ، و بالألف الثالثة طعاما فأطعم الجُوع . و بنى أيضا مساجد ، وفعل خيرا . وأما الآخر فنكح بماله نساء ذوات يسار ، واشترى دواب و بقرا فاستنتجها فنَمَت له نماء مُفْرِطا ، واتّجر بباقيها فربح حتى فاق أهل زمانه غِنًى ؛ وأدركت الأوّلَ الحاجةُ ، فأراد أن يستخدم نفسه فى جنة يخدمها فقال : لو ذهبت لشريكى وصاحبى فسألته أن يستخدمنى فى بعض جناته رجوت أن يكون ذلك أصلح بى ؛ فجاءه فلم يكد يصل إليه من غِلَظ الحجاب ، فلما دخل عليه وعرَفه وسأله حاجته قال له : ألم أكن قاسمتك المال نصفين ! فما صنعتَ بمالك ؟ قال : اشتريت به من الله تعالى ما هو خير منه وأبقى . فقال : أئنك

---

(١) آية ٥١

لمن المصدقين، ما أظن الساعة قائمة ! وما أراك إلا سفيها، وما جزاؤك عندى على سفاهتك
إلا الحرمان، أو ما ترى ما صنعتُ أنا بمالى حتى آلى إلى ما تراه من الثروة وحسن الحال،
وذلك أنى كَسَبْت وسفهت أنت ، اخرج عنى . ثم كان من قصة هذا الغنيّ ما ذكره الله
تعالى فى القرآن من الإحاطة بثمره وذهابها أصلا بما أرسل عليها من السماء من الحُسْبان .
وقد ذكر الثعلبيّ هذه القصة بلفظ آخر، والمعنى متقارب . قال عطاء : كانا شريكين لهما
ثمانية آلاف دينار . وقيل : ورثاه من أبيهما وكانا أخوين فاقتسماها، فاشترى أحدهما أرضا
بألف دينار، فقال صاحبه : اللهم إن فلانا قد اشترى أرضا بألف دينار و إنى اشتريت منك
أرضا فى الجنة بألف دينار فتصدق بها، ثم إن صاحبه بنى دارا بألف دينار فقال : اللهم إن
فلانا بنى دارا بألف دينار وإنى أشترى منك دارا فى الجنة بألف دينار. فتصدق بها، ثم تزوج
امرأة فأنفق عليها ألف دينار، فقال : اللهم إن فلانا تزوج امرأة بألف دينار وإنى أخطب
إليك من نساء الجنة بألف دينار، فتصدق بألف دينار . ثم اشترى خدما ومتاعا بألف دينار،
وإنى أشترى منك خَدَمًا ومتاعا من الجنة بألف دينار، فتصدق بألف دينار . ثم أصابته
حاجة شديدة فقال : لعلّ صاحبي ينالُني معروفه فأتاه فقال : ما فعل مالُك ؟ فأخبره قصته
فقال : وإنك لمن المصدقين بهذا الحديث ! والله لا أعطيك شيئا! ثم قال له : أنت تعبد إله
السماء، وأنا لا أعبد إلاّ صنما؛ فقال صاحبه : والله لأعظنّه، فوعظه وذكّره وخوفه . فقال :
سِرْ بنا نصطد السمك، فمن صاد أكثر فهو على حق ؛ فقال له : يا أخى ! إن الدنيا أحقر
عند الله من أن يجعلها ثوابا لمحسن أو عقابا لكافر . قال : فأكرهه على الخروج معه، فابتلاهما
الله ، فجعل الكافرُ يرمى شبكته ويسمّى باسم صنمه ، فتطلع متدفقة سمكا ، وجعل المؤمن
يرمى شبكته ويسمى باسم الله فلا يطلع له فيها شيء؛ فقال له : كيف ترى ! أنا أكثر منك
فى الدنيا نصيبا ومنزلة ونفرا، كذلك أكون أفضل منك فى الآخرة إن كان ما تقول بزعمك
حقًّا . قال : فضجّ المَلَك الموكّل بهما، فأمر الله تعالى جبريل أن يأخذه فيذهب به إلى
الجنان فيريه منازل المؤمن فيها، فلما رأى ما أعد الله له قال : وعزتك لا يضره ما ناله من

الدنيا بعد ما يكون مصيره إلى هـذا ؛ وأراه منازل الكافر فى جهنم فقال : وعزتك لا ينفعه ما أصابه من الدنيا بعد أن يكون مصيره إلى هذا. ثم إن الله تعالى توفى المؤمن وأهلك الكافر بعذاب من عنده، فلما استقر المؤمن فى الجنة ورأى ما أعد الله له أقبل هو وأصحابه يتساءلون، فقال : « إنى كان لى قرين . يقول أئنك لمن المصدقين» الآية؛ فنادى مناد : يأهل الجنة! هل أنتم مطلعون فاطلع إلى جهنم فرآه فى سواء الجحيم؛ فنزلت « واضرب لهم مثلا » .

بين الله تعالى حال الأخوين فى الدنيا فى هذه السورة ، وبين حالهما فى الآخرة فى سورة « الصافات » فى قوله « إنى كان لى قرين . يقول أئنك لمن المصدقين — إلى قوله — لمثل هـذا فليعمل العاملون »[1] . قال ابن عطيـة : وذكر إبراهيم بن القاسم الكاتب فى كتابه فى عجائب البلاد أن بحيرة تنيس كانت هاتين الجنتين ، وكانتا لأخوين فباع أحدهما نصيبه من الآخر فأنفق فى طاعة الله حتى عيره الآخر، وجرت بينهما المحاورة فغرقها الله تعالى فى ليلة، وإياها عنى بهذه الآية . وقد قيل : إن هذا مثل ضربه الله تعالى لهذه الأمة، وليس بخبر عن حال متقدمة، لتزهـد فى الدنيا وترغب فى الآخرة، وجعله زجرا وإنذارا؛ ذكره الماوردى . وسياق الآية يدل على خلاف هذا، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أى أطفناهما من جوانبهما بنخل . والحفاف الجانب، وجمعه أحفة؛ ويقال : حف القوم بفلان يحفون حفا، أى طافوا به؛ ومنه «حافين من حول العرش»[2] . ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ أى جعلنا حول الأعناب النخل، ووسط الأعناب الزرع . ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ﴾ أى كل واحدة من الجنتين ﴿آتَتْ أُكُلَهَا﴾ تاما، ولذلك لم يقـل آتتا . واختلف فى لفظ « كلتا وكلا » هل هو مفرد أو مثنى؛ فقال أهل البصرة : هو مفرد؛ لأن كلا وكلتا فى توكيد الاثنين نظير «كل» فى المجموع، وهو اسم مفرد غير مثنى؛ فإذا ولى اسما ظاهرا[3] كان فى الرفع والنصب والخفض على حالة واحدة، تقول : رأيت كلا الرجلين وجاءنى كلا الرجلين ومررت بكلا الرجلين؛ فإذا اتصل بمضمر قلبت الألف ياء فى موضع الجر والنصب، تقول:

(١) آية ٥١ وما بعدها . (٢) آخر سورة الزمر . (٣) كذا فى الأصول والصحاح للجوهرى ولد نقله عنه صاحب اللسان . وكان الأولى أن يقال : « فإذا وليه اسم ظاهر ... » .

رأيت كِلَيْهما ومررت بكليهما، كما تقول عليهما . وقال الفراء : هو مثنًّى، وهو مأخوذ من كُلّ فخففت اللام وزيدت الألف للتثنية . وكذلك كلتا للمؤنث، ولا يكونان إلا مضافين ولا يتكلم بواحد، ولو تكلم به لقيل : كِلْ وكِلْت وكِلان وكِلْتان . واحتج بقول الشاعر :

فى كِلْتِ رجليها سُلامَى واحدهْ(١) * كلتاهما مَقْـرونةٌ بزائـدهْ

أراد فى إحدى رجليها فأفرد . وهـذا القول ضعيف عنـد أهل البصرة؛ لأنه لو كان مثنى لوجب أن تكون ألفه فى النصب والجر ياءً مع الاسم الظاهر، ولأن معنى «كِلا» مخـالف لمعنى «كل» لأن «كُلًّا» للإحاطة و«كِلَا» يدل على شئ مخصوص، وأما هذا الشاعر فإنمـا حذف الألف للضرورة وقدر أنها زائدة ، وما يكون ضرورة لا يجوز أن يجعل حجة ، فثبت أنه اسم مفـرد كَمِعَى ، إلا أنه وُضـع ليدل على التثنية، كما أن قولهم « نحن » اسم مفرد يدل على اثنين فمـا فوقهما، يدل على ذلك قول جرير :

كِلَا يَوْمَىْ أُمامةَ يومُ صَدٍّ(٢) * وإن لم نأتهـا إلا لِمـامَا

فأخبر عن « كلا » بيوم مفرد، كما أفرد الخبر بقوله «آتت» ولو كان مثنى لقال آتتا، ويوما . واختلف أيضا فى ألف « كلتا »؛ فقال سيبويه : ألف « كلتا » للتأنيث والتاء بدل من لام الفعل وهى واو والأصل كِلْوا، وإنما أبدلت تاء لأن فى التاء علَمَ التأنيث، والألف «فى كلتا» قد تصير ياء مع المضمر فتخرج عن علم التأنيث ، فصار فى إبدال الواو تاء تأكيدٌ للتأنيث . وقال أبو عمر الجَرْمىّ : التاء ملحقة والألف لام الفعل، وتقديرها عنده : فِعْتَلٌ، ولو كان الأمر على ما زعم لقالوا فى النسبة إليها كِلْتَوِىّ، فلما قالوا كِلَوِىّ وأسقطوا التاء دلّ على أنهم أجروها مُجْرى التاء فى أخت إذا نسبت إليها قلت أَخَوِىّ؛ ذكره الجوهرى . قال أبو جعفر النحاس : وأجاز النحويون فى غير القرآن الحمل على المعنى ، وأن تقول : كلتا الجنتين آتتا أكلهما ؛ لأن المعنى المختار كلتاهما آتتـا . وأجاز الفـراء : كلتـا الجنتين آتى أكله، قال : لأن المعنى كل

---

(١) السلامى (كحبارى) : عظام الأصابع فى اليد والقدم. (٢) كذا فى الأصول واللسان مادة « كلا ». وفى ديوانه المطبوع : « يوم صدق » . والبيت من قصيدة مطلعها :

ألا حى المنازل والخياما * وسكنا طال فيها ما أقاما

الجنتين . قال : وفي قراءة عبد الله «كلّ الجنتين آتى أكله» . والمعنى على هذا عند الفراء : كل شيء من الجنتين آتى أكله . والأكل (بضم الهمزة) ثمر النخل والشجر . وكل ما يؤكل فهو أُكل؛ ومنه قوله تعالى : «أُكُلُهَا دَائِمٌ»(1) وقد تقدم . ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي لم تنقص .

قوله تعالى : ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ أي أجرينا وشققنا وسط الجنتين بنهر . ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ قرأ أبو جعفر وشيبة وعاصم ويعقوب وابن أبي إسحاق «ثَمَر» بفتح الثاء والميم، وكذلك قوله «وأحيط بثَمَره» جمع ثمرة . قال الجوهري : الثمرة واحدة الثمر والثمرات، وجمع الثمر ثمار؛ مثل جبل وجبال . قال الفراء : وجمع الثمار ثُمُر؛ مثل كتاب وكتب، وجمع الثمر أثمار؛ مثل أعناق وعنق . والثمر أيضا المال المُثَمَّر؛ يخفف ويثقل . وقرأ أبو عمرو «وكان له ثُمْر» بضم الثاء وإسكان الميم، وفسره بأنواع المال . الباقون بضمها في الحرفين . قال ابن عباس : ذهب وفضة وأموال . وقد مضى في «الأنعام»(2) نحو هذا مبينا . وذكر النحاس : حدثنا أحمد بن شعيب قال أخبرني عمران بن بكار قال حدثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدي قال حدثنا شعيب بن إسحاق قال هارون قال حدثني أبان عن ثعلب عن الأعمش أن الحجاج قال : لو سمعت أحدا يقرأ «وكان له ثُمُر» لقطعت لسانه؛ فقلت للأعمش : أتأخذ بذلك؟ فقال: لا ! ولا نُعْمَةَ عين(3) . فكان يقرأ «ثُمُر» ويأخذه من جمع الثمر . قال النحاس : فالتقدير على هذا القول أنه جمع ثمرة على ثمار، ثم جمع ثمار على ثمر؛ وهو حسن في العربية إلا أن القول الأول أشبه والله أعلم؛ لأن قوله «كلتا الجنتين آتت أكلها» يدل على أن له ثمرا .

قوله تعالى : ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أي يراجعه في الكلام ويجاوبه . والمحاورة المجاوبة، والتحاورُ التجاوب . ويقال : كلمته فما أحار إليّ جوابا ، وما رجع إليّ حَوِيرا ولا حَوِيرة ولا مَحُورة ولا حِوارا؛ أي ما ردّ جوابا . ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ النفر : الرهط وهو ما دون العشرة . وأراد هاهنا الأتباع والخدم والولد . حسبما تقدم بيانه .

---

(1) راجع ج ٩ ص ٣٢٤ (2) راجع ج ٧ ص ٤٩ (3) في هذه الكلمة اثنتا عشرة لغة : نَعْم عين ونَعْمة ونَعام ونَعِيم (بفتحهن) ونُعْمى ونُعامى ونُعام ونُعْم ونُعْمة (بضمهن) ونِعْمة ونِعام (بكسرها) . ونصبه الكل بإضمار الفعل؛ أي أفعل ذلك إنعاما لعينك وإكراما .

قوله تعالى : وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ ﴾ قيل : أخذ بيد أخيه المؤمن يُطيف به فيها ويُريه إياها . ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ أى بكفره، وهو جملة فى موضع الحال . ومن أدخل نفسه النار بكفره فهو ظالم لنفسه . ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴾ أنكر فناء الدار . ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ أى لا أحسب البعث كائنا . ﴿ وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّى ﴾ أى وإن كان بعثٌ فكما أعطانى هذه النعم فى الدنيا فسيعطينى أفضل منه لكرامتى عليه؛ وهو معنى قوله : ﴿ لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ وإنما قال ذلك لما دعاه أخوه إلى الإيمان بالحشر والنشر . وفى مصاحف مكة والمدينة والشام « منهما » . وفى مصاحف أهل البصرة والكوفة « منها » على التوحيد، والتثنية أولى؛ لأن الضمير أقرب إلى الجنتين .

قوله تعالى : قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ ﴾ يهوذا أو تمليخا؛ على الخلاف فى اسمه . ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴾ وعظه وبيّن له أن ما اعترف به من هذه الأشياء التى لا ينكرها أحد أبدع من الإعادة . و « سوّاك رجلا » أى جعلك معتدل القامة والخلق، صحيح الأعضاء ذكرا . ﴿ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّى ﴾ كذا قرأه أبو عبد الرحمن السُّلَمى وأبو العالية . وروى عن الكسائى « لكن هو الله » بمعنى لكن الأمر هو الله ربى، فأضمر اسمها فيها . وقرأ الباقون « لكنا » بإثبات الألف . قال الكسائى : فيه تقديم وتأخير؛

تقديره: لكن الله هو ربى أنا، فحذفت الهمزة من «أنا» طلبا للخفة لكثرة الاستعمال وأدغمت إحدى النونين فى الأخرى وحذفت ألف «أنا» فى الوصل وأثبتت فى الوقف . وقال النحاس : مذهب الكسائى والفراء والمازنى أن الأصل لكن أنا فألقيت حركة الهمزة على نون لكن وحذفت الهمزة وأدغمت النون فى النون فالوقف عليها لكنا وهى ألف أنا لبيان الحركة . وقال أبو عبيد: الأصل لكن أنا ، فحذفت الألف فآلتقت نونان فجاء بالتشديد لذلك ، وأنشدنا الكسائى :

لَهِنَّكِ من عَبْسِيَّة لَوَسِيمَةٌ ﴿ على هَنَوَاتٍ كاذب من يقولها

أراد : لله إنك، فأسقط إحدى اللامين من «لله» وحذف الألف من إنك . وقال آخر فجاء به على الأصل :

وترميننى بالطَّرْف أى أنت مذنب ﴿ وتَقْلِينَنِى لكنّ إيَّاكِ لَا أَقْلِى

أى لكن أنا . وقال أبو حاتم : ورووا عن عاصم «لكنا هو الله ربى» وزعم أن هذا لحن، يعنى إثبات الألف فى الإدراج . قال الزجاج : إثبات الألف فى «لكنا هو الله ربى» فى الإدراج جيد؛ لأنه قد حذفت الألف من أنا فجاءوا بها عوضا . قال : وفى قراءة أُبَىّ «لكن أنا هو الله ربى» . وقرأ ابن عامر والمسيلى[1] عن نافع ورويس عن يعقوب «لكنا» فى حال الوقف والوصل معا بإثبات الألف . وقال الشاعر :

أنا سيف العشيرة فأعرفونى ﴿ حُمَيْدًا قد تَذَرَّيْتُ السَّناما

وقال الأعشى :

فكيف أنا وآنتحال القوافى ﴿ بعد المشيب كفى ذاك عارا

ولا خلاف فى إثباتها فى الوقف . ﴿ هُوَ اللَّهُ رَبِّى ﴾ «هو» ضمير القصة والشأن والأمر ؛ كقوله «فإذا هِىَ شاخصةٌ أبصارُ الذين كفروا»[2] وقوله «قل هو الله أحد» . ﴿ وَلَا أُشْرِكُ

(١) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد . وهذه النسبة إلى مسيلة (كسفينة) بلدة بالمغرب .

(٢) آية ٩٧ سورة الأنبياء .

رَبِّى أَحَدًا ﴾ دلّ مفهومه على أن الأخ الآخر كان مشركا بالله تعالى يعبد غيره . ويحتمل أنه أراد لا أرى الغنى والفقر إلا منه، وأعلم أنه لو أراد أن يسلب صاحب الدنيا دنياه قدر عليه، وهو الذي آتاني الفقر . ويحتمل أنه أراد جحودك البعث مصيره إلى أن الله تعالى لا يقدر عليه، وهو تعجيز الرب سبحانه وتعالى، ومن عجّزه سبحانه وتعالى شبّهه بخلقه؛ فهو إشراك .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ أي بالقلب، وهو توبيخ ووصية من المؤمن للكافر ورد عليه، إذ قال « مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا » و« ما » في موضع رفع، تقديره : هذه الجنة هي ما شاء الله . وقال الزجاج والفراء : الأمر ما شاء الله، أو هو ما شاء الله؛ أي الأمر مشيئة الله تعالى . وقيل : الجواب مضمر، أي ماشاء الله كان ، وما لا يشاء لا يكون . ﴿ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ أي ما اجتمع لك من المال فهو بقدرة الله تعالى وقوته لا بقدرتك وقوتك، ولو شاء لنزع البركة منه فلم يجتمع .

الثانيــة — قال أشهب قال مالك : ينبغي لكل من دخل منزله أن يقول هذا . وقال ابن وهب قال لي حفص بن ميسرة : رأيت على باب وهب بن منبه مكتوبا « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبي هريرة : "ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة — أو قال كنز من كنوز الجنة" قلت : بلى يارسول الله، قال "لا حول ولا قوة إلا بالله إذا قالها العبد قال الله عز وجل أسلم عبدي واستسلم" أخرجه مسلم

فى صحيحه من حديث أبى موسى . وفيه : فقال " ياأبا موسى أو ياعبد الله بن قيس ألا أدلك على كلمة من كنز الجنة — فى رواية على كنز من كنوز الجنة — " قلت : ما هى يارسول الله ، قال : "لاحول ولا قوة إلا بالله". وعنه قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة أو قال كنز من كنوز الجنة" قلت : بلى ؛ فقال "لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم". وروى أنه من دخل منزله أو خرج منه فقال : بأسم الله ماشاءالله لا قوة إلا بالله تنافرت عنه الشياطين من بين يديه وأنزل الله تعالى عليه البركات . وقالت عائشة : إذا خرج الرجل من منزله فقال باسم الله قال الملك هُديت ، و إذا قال ما شاء الله قال الملك كُفيت ، و إذا قال لا قوة إلا بالله قال الملك وُقيت . خرجه الترمذى من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قال — يعنى إذا خرج من بيته — باسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله يقال كُفيت ووقيت وتنحى عنه الشيطان " هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . خرجه أبو داود أيضا وزاد فيه — فقال له : " هُديت وكُفيت ووُقيت ". وأخرجه ابن ماجه من حديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال . "إذا خرج الرجل من باب بيته أو باب داره كان معه ملَكان موكَّلان به فإذا قال باسم الله قالا هُديت و إذا قال لاحول ولا قوة إلا بالله قالا وُقيت و إذا قال توكلت على الله قالا كفيت قال فيلقاه قريناه فيقولان ماذا تريدان من رجل قد هُدِىَ ووُقِى وكُفِى". وقال الحاكم أبو عبد الله فى علوم الحديث : سئل محمد بن إسحاق بن خزيمة عن قول النبى صلى الله عليه وسلم : " تحاجت الجنة والنار فقالت هذه — يعنى الجنة — يدخلنى الضعفاء " مَن الضعيف ؟ قال : الذى يبرئ نفسه من الحول والقوة يعنى فى اليوم عشرين مرة أو خمسين مرة . وقال أنس بن مالك قال النبى صلى الله عليه وسلم : " من رأى شيئا فأعجبه فقال ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يضره عين ". وقد قال قوم : ما من أحد قال ما شاء الله كان فأصابه شىء إلا رَضِىَ به . وروى أن من قال أربعا أمِنَ من أربع : من قال هذه أمن من العين ، ومن قال حسبنا الله ونعم الوكيل أمن من كيد الشيطان ، ومن قال وأفوض أمرى إلى الله أمن مكر الناس ، ومن قال لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين أمن من الغم .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ . « إن » شرط « ترن » مجزوم به ، والجواب « فعسى ربي » . و « أنا » فاصلة لا موضع لها من الإعراب . ويجوز أن تكون في موضع نصب توكيدا للنون والياء . وقرأ عيسى بن عمر « إن ترن أنا أقل منك » بالرفع يجعل « أنا » مبتدأ و «أقل» خبره، والجملة في موضع المفعول الثاني، والمفعول الأول النون والياء، إلا أن الياء حذفت لأن الكسرة تدل عليها، وإثباتها جيد بالغ وهو الأصل لأنها الاسم على الحقيقة . و ﴿ فعسى ﴾ بمعنى لعل ، أي فلعل ربي . ﴿ أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ ﴾ أي في الآخرة . وقيل في الدنيا . ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا ﴾ أي على جنتك . ﴿ حُسْبَانًا ﴾ أي مرامي من السماء، واحدها حُسْبانة ، قاله الأخفش والقُتَبِيّ وأبو عبيدة . وقال ابن الأعرابي : والحسبانة السحابة ، والحسبانة الوسادة ، والحسبانة الصاعقة . وقال الجوهري : والحسبان (بالضم) : العذاب . وقال أبو زياد الكلابي : أصاب الأرض حسبان أي جراد . والحسبان أيضا الحساب؛ قال الله تعالى : « الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ »[1] . وقد فسر الحُسْبان هنا بهذا . قال الزجاج : الحسبان من الحساب؛ أي يرسل عليها عذاب الحساب، وهو حساب ما اكتسبت يداك؛ فهو من باب حذف المضاف . والحسبان أيضا : سهام قصار يرمى بها في طَلَق واحد، وكان من رَمْى الأكاسرة . والمرامي من السماء عذاب . ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ يعني أرضا بيضاء لا ينبت فيها نبات ولا يثبت عليها قدم ، وهي أضر أرض بعد أن كانت جنة أنفع أرض؛ و « زلقا » تأكيد لوصف الصعيد؛ أي تزل عنها الأقدام لملاستها . يقال : مكان زَلَق (بالتحريك) أي دَحْض ، وهو في الأصل مصدر قولك : زلِقت رجله تَزْلَق زَلَقا ، وأزلقها غيره . والزلق أيضا عجز الدابة . قال رؤبة :

* كأنها حَقْباء بَلْقاء الزَّلَق *

والمَزْلَقة والمَزْلَقة : الموضع الذي لا يثبت عليه قدم . وكذلك الزَّلّاقة . والزَّلْق الحلق ، زَلَق رأسه يَزْلِقه زَلْقا حلقه ؛ قاله الجوهري . والزَّلَق المحلوق ، كالنَّقْض والنِّقْض . وليس المراد

---

(١) آية ٥ سورة الرحمن .

أنها تصير مزلقة ، بل المراد أنها لا يبقى فيها نبات كالرأس إذا حُلق لا يبقى عليه شعر ؛ قاله القشيرى . ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا ﴾ أى غائرا ذاهبا ؛ فتكون أعدمَ أرض للماء بعد أن كانت أوجدَ أرض للماء . والغَوْر مصدر وضع موضع الاسم ؛ كما يقال : رجلٌ صَوْمٌ وفِطْرٌ وعَدْلٌ ورِضًا وفَضْلٌ وزَوْرٌ ونساءٌ نوحٌ ، ويستوى فيه المذكر والمؤنث والتثنية والجمع .
قال عمرو بن كُلثوم :

تظلّ جياده نَوْحا عليه ٭ مقلّدة أعنّتها صُفُونا

آخر :

هَرِيق من دموعهما سِجاما ٭ ضُباع وجاوبى نوحا قياما

أى نائحات . وقيل : أو يصبح ماؤها ذا غَوْر ؛ فحذف المضاف ؛ مثلُ « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ » ذكره النحاس . وقال الكسائى : ماءٌ غَوْرٌ . وقد غار الماء يغور غَوْرا وغُؤورا ، أى سفَل فى الأرض ، ويجوز الهمز لانضمام الواو . وغارت عينه تغور غَوْرا وغُؤورا ؛ دخلت فى الرأس .
وغارت تَغار لغة فيه . وقال :

٭ أغارتْ عينُه أم لم تَغارَا ٭

وغارتِ الشمس تغور غِيارا ، أى غربت . قال أبو ذُؤيب :

هل الدهر إلا ليلة ونهارُها ٭ وإلا طلوعُ الشمس ثم غيارها

﴿ فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ أى لن تستطيع ردّ الماء الغائر ، ولا تقدر عليه بحيلة . وقيل : فلن تستطيع طلب غيره بدلا منه . وإلى هذا الحديث انتهت مناظرة أخيه وإنذاره .

قوله تعالى : وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ اسم ما لم يسم فاعله مضمر ، وهو المصدر . ويجوز أن يكون المخفوض فى موضع رفع . ومعنى « أُحيط بثمره » أى أهلك مالُه كله . وهذا أول ما حقق الله تعالى به إنذار أخيه . ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ أى فأصبح الكافر يضرب إحدى

يديه على الأخرى ندماً؛ لأن هذا يصدر من النادم . وقيل : يقلّب ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق؛ وهذا لأن الملك قد يعبَّر عنه باليد، من قولهم : فى يده مال ، أى فى ملكه مال ؛ ودلّ قوله « فأصبح » على أن هـذا الإهلاك جرى بالليل ؛ كقوله « فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ . فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ »[1] ويقال : أنفقتُ فى هذه الدار كذا وأنفقت عليها . ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ أى خالية قد سقط بعضها على بعض ؛ مأخوذ من خَوَت النجوم تخوى خَيًّا أمحلت ، وذلك إذا سقطت ولم تُمطر فى نوئها . وأخْوَت مثله . وخَوَت الدار خواء أقوت ، وكذلك إذا سقطت ؛ ومنه قوله تعالى : « فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا »[2] ويقال ساقطة ؛ كما يقال فهى خاوية على عروشها أى ساقطة على سقوفها ؛ فجمع عليه بين هلاك الثمر والأصل ، وهذا من أعظم الجوائح ، مقابلةً على بغيه . ﴿ وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ أى يا ليتنى عرفت نعم الله علىّ ، وعرفت أنها كانت بقدرة الله ولم أكفر به . وهذا ندم منه حين لا ينفعه الندم .

قوله تعالى : وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ « فئةٌ » اسم « تكن » و « له » الخبر . « ينصرونه » فى موضع الصفة ، أى فئة ناصرة . ويجوز أن يكون « ينصرونه » الخبر . والوجه الأول عند سيبويه أولى لأنه قد تقدم « له » . وأبو العباس يخالفه ، ويحتج بقول الله عز وجل « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » . وقد أجاز سيبويه الآخر . و « ينصرونه » على معنى فئة ؛ لأن معناها أقوام ، ولو كان على اللفظ لقال ولم تكن له فئة تنصره ؛ أى فرقة وجماعة يلتجئ إليهم . ﴿ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴾ أى ممتنعا ؛ قاله قتادة . وقيل : مستردًّا بدل ما ذهب منه . وقد تقدم اشتقاق الفئة فى « آل عمران »[3] . والهاء عوض من الياء التى نقصت

---

(١) آية ١٩ سورة ن . (٢) آية ٥٢ سورة النمل . (٣) راجع جـ ٤ ص ٢٤ .

من وسطه، أصله فِيءٌ مثلُ فِيع؛ لأنه من فاء، ويجمع على فِئون وفئات، مثل شِيات ولِدات ومئات . أى لم تكن له عشيرة يمنعونه من عذاب الله، وضل عنه من افتخر بهم من الخدم والولد .

قوله تعـالى : هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴾ اختلف فى العـامل فى قوله « هنـالك » وهو ظرف ؛ فقيل : العامل فيه « ولم تكن له فئة » ولا كان هنالك ؛ أى ما نُصر ولا انتصر هنالك ؛ أى لمـا أصابه من العذاب . وقيل : تم الكلام عند قوله « منتصرا » . والعامل فى قوله « هنالك » : « الولاية » ، وتقديره على التقديم والتأخير : الولاية لله الحقّ هنالك ، أى فى القيامة . وقرأ أبو عمرو والكسائى « الحقُّ » بالرفع نعتا للولاية . وقرأ أهـل المدينة وحمزة « الحقِّ » بالخفض نعتا لله عز وجل، والتقدير : لله ذى الحق . قال الزجاج : ويجوز « الحقَّ » بالنصب على المصدر والتوكيد؛ كما تقول : هـذا لك حقا . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى « الوِلاية » بكسر الواو ، الباقون بفتحها ، وهما بمعنًى واحد كالرَّضاعة والرِّضاعة . وقيـل : الوَلاية بالفتح من الموالاة؛ كقوله « اللهُ وَلِيُّ الذين آمنوا »[(١)] . « ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الذين آمنوا »[(٢)] . وبالكسر يعنى السلطان والقدرة والإمارة؛ كقوله « والأمرُ يومئذٍ لله »[(٣)] أى له الملك والحكم يومئذ؛ أى لا يُرَدّ أمره إلى أحد؛ والملك فى كل وقت لله ولكن تزول الدعاوى والتوهمات يوم القيامة . وقال أبو عبيد : إنها بفتح الواو للخالق ، وبكسرها للمخلوق . ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا ﴾ أى الله خير ثوابا فى الدنيا والآخرة لمن آمن به ، وليس ثَمّ غير يُرْجَى منه ، ولكنه أراد فى ظن الجهال؛ أى هو خير من يُرجى . ﴿ وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ قرأ عاصم والأعمش وحمزة ويحيى « عُقْبا » ساكنة القاف، البـاقون بضمها، وهما بمعنًى واحد؛ أى هو خير عاقبـة لمن رجاه وآمن به . يقال : هذا عاقبة أمر فلان وعقباه وعُقُبُه، أى آخره .

---

(١) آية ٢٥٧ سورة البقرة .   (٢) آية ١١ سورة محمد .   (٣) آخر سورة الانفطار .

قوله تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي صف لهؤلاء المتكبرين الذين سألوك طرد فقراء المؤمنين مَثَل الحياة الدنيا ، أي شبهها . ﴿ كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ ﴾ أي بالماء . ﴿ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾ حتى استوى . وقيل : إن النبات اختلط بعضه ببعض حين نزل عليه الماء ؛ لأن النبات إنما يختلط ويكثر بالمطر . وقد تقدّم هذا المعنى في « يونس »(١) مبيَّناً . وقالت الحكماء : إنما شبّه تعالى الدنيا بالماء لأن الماء لا يستقر في موضع ، كذلك الدنيا لا تبقى على واحد ، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا ، ولأن الماء لا يبقى ويذهب كذلك الدنيا تفنى ، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتلّ كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها ، ولأن الماء إذا كان بقدرٍ كان نافعاً مُنْبِتاً ، و إذا جاوز المقدار كان ضاراً مهلكاً ، وكذلك الدنيا الكفافُ منها ينفع وفضولها يضرّ . وفي حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم قال له رجل : يارسول الله ، إني أريد أن أكون من الفائزين ؛ قال : " ذَرِ الدنيا وخُذ منها كالماء الراكد فإن القليل منها يكفي والكثير منها يُطغي " . وفي صحيح مسلم عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " قد أفلح من أسلم ورُزق كفافا وقنعه الله بما آتاه " .

﴿ فَأَصْبَحَ ﴾ أي النبات ﴿ هَشِيماً ﴾ أي متكسّرا من اليُبس متفتّتا ، يعني بانقطاع الماء عنه ، فحذف ذلك إيجازا لدلالة الكلام عليه . والهَشْم : كسر الشيء اليابس . والهشيم من النبات اليابس المتكسر ، والشجرة البالية يأخذها الحاطب كيف يشاء . ومنه قولهم : ما فلانٌ إلا هشيمةُ كَرْم ؛ إذا كان سَمحا . ورجل هَشيم : ضعيف البدن . وتهشّم عليه فلان إذا تعطّف . واهتشم

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٢٦

ما في ضرع الناقة إذا احتلبه . ويقال : هَشَمَ الثريد؛ ومنه سُمّي هاشم بن عبد مناف واسمه عمرو، وفيه يقول عبد الله بن الزِّبَعْرَى :

عَمْرُو العُلَا هَشَمَ الثريدَ لقومه * ورجالُ مكةَ مُسْنِتُون عِجافُ

وكان سبب ذلك أن قريشا أصابتهم سنونَ ذهبْن بالأموال فخرج هاشم إلى الشام فأمر بخبز كثير فخبز له ، فحمله في الغرائر على الإبل حتى وافى مكة ، وهشم ذلك الخبز، يعني كسره وثَرَدَه، ونحر تلك الإبل، ثم أمر الطُّهاة فطبخوا، ثم كفأ القدور على الجفان فأشبع أهل مكة؛ فكان ذلك أول الحباء بعد السنة التي أصابتهم؛ فسُمّيَ بذلك هاشما . ﴿ تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴾ أي تفرقه؛ قاله أبو عبيدة . ابن قتيبة : تنسفه . ابن كَيْسان : تذهب به وتجيء . ابن عباس : تديره؛ والمعنى متقارب . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « تذريه الريح » . قال الكسائي : وفي قراءة عبد الله «تُذريه» . يقال : ذَرَتْه الريح تَذْرُوه ذَرْوًا و [تذريه] ذَرْيا وأذرته تُذْريه إذْراء إذا طارت به . وحكى الفراء : أذريت الرجل عن فرسه أي قلبته . وأنشد سيبويه والفراء .

فقلت له صَوِّبْ ولا تَجْهَدَنَّهُ * فيُذْرِك[1] من أخرى القَطاةِ فتَزْلَقِ

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ من الإنشاء والإفناء والإحياء، سبحانه!

قوله تعالى : ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦)

قوله تعالى : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ويجوز « زينتا » وهو خبر الابتداء في التثنية والإفراد . وإنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا لأن في المال جمالا ونفعا، وفي البنين قوة ودفعا ، فصارا زينة الحياة الدنيا ، لكن معه قرينة الصفة للمال

---

(١) في كتاب سيبويه : «فيدنك» وهي رواية أخرى في البيت . وقد نسبه سيبويه إلى عمرو بن عمار الطائي . ومعنى صوب : خذ القصد في السير وارتق بالفرس ولا تجهد . وأخرى القطاة : آخرها ؛ والقطاة : مقعد الردف . (أي مؤخر الظهر حيث يكون ردف الراكب) . يقول هذا لغلامه وقد حمله على فرسه ليصيد له . (راجع الشنتمري على كتاب سيبويه) .

والبنين ؛ لأن المعنى : المال والبنون زينة هذه الحياة المحتقرة فلا تُتبعوها نفوسكم . وهو ردٌّ على عُيينة بن حصن وأمثاله لما افتخروا بالغنى والشرف، فأخبر تعالى أن ما كان من زينة الحياة الدنيا فهو غرور يمر ولا يبقى، كالهشيم حين ذرته الريح ؛ إنما يبقى ما كان من زاد القبر وعُدد الآخرة . وكان يقال : لا تعقد قلبك مع المال لأنه فَيْءٌ ذاهب ، ولا مع النساء لأنها اليومَ معك وغدًا مع غيرك، ولا مع السلطان لأنه اليوم لك وغدًا لغيرك . ويكفى فى هذا قول الله تعالى : « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ »[1]. وقال تعالى : « إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ »[2] .

قوله تعالى : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ﴾ أى ما يأتى به سَلْمان وصُهيب وفقراء المسلمين من الطاعات ﴿ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾ أى أفضل ﴿ وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ أى أفضل أملا من ذى المال والبنين دون عمل صالح، وليس فى زينة الدنيا خير، ولكنه خرج مخرج قوله « أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا »[3] . وقيل : خير فى التحقيق مما يظنه الجهال أنه خير فى ظنهم .

واختلف العلماء فى «الباقيات الصالحات» ؛ فقال ابن عباس وابن جُبير وأبو مَيْسرة وعمرو ابن شُرَحْبِيل : هى الصلوات الخمس . وعن ابن عباس أيضا : أنها كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للآخرة . وقاله ابن زيد ورجّحه الطبرى . وهو الصحيح إن شاء الله؛ لأن كل ما بقى ثوابه جاز أن يقال له هذا . وقال علىّ رضى الله عنه : الحرث حرثان فحرث الدنيا المال والبنون، وحرث الآخرة الباقيات الصالحات، وقد يجمعهن الله تعالى لأقوام . وقال الجمهور: هى الكلمات المأثور فضلها : سبحانَ الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . خرّجه مالك فى موطئه عن عمارة بن صياد عن سعيد بن المسيّب أنه سمعه يقول فى الباقيات الصالحات : إنها قول العبد الله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله . أسنده النَّسائىّ عن أبى سعيد الخُدْرىّ أن رسول الله

(١) آية ١٥ سورة التغابن . (٢) آية ١٤ سورة التغابن . (٣) آية ٢٤ سورة الفرقان .

صلى الله عليه وسلم قال : "استكثروا من الباقيات الصالحات" قيل : وما هي يارسول الله؟ قال : "التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله". صححه أبو محمد عبد الحق رحمه الله. وروى قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ غُصْناً فخرطه حتى سقط ورقه وقال : "إن المسلم إذا قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر تحاتّت خطاياه كما تحات هذا خذهن إليك أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن فإنهن من كنوز الجنة وصفايا الكلام وهن الباقيات الصالحات". ذكره الثعلبي، وخرجه ابن ماجه بمعناه من حديث أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "عليك بسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فإنهن يعني يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها". وأخرجه الترمذي من حديث الأعمش عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بشجرة يابسة الورقة فضربها بعصاة فتناثر الورق فقال: "إن الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر لتساقط من ذنوب العبد كما تساقط ورق هذه الشجرة". قال: هذا حديث غريب ولا نعرف للأعمش سماعا من أنس، إلا أنه قد رآه ونظر إليه. وخرج الترمذي أيضا عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لَقِيت إبراهيم عليه السلام ليلة أُسْرِيَ بي فقال يامحمد أقرئ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التُّربة عذبة الماء وأنها قِيعان وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر" قال : حديث حسن غريب، خرّجه الماوردي بمعناه. وفيه — فقلت : وما غراس الجنة؟ قال : "لا حول ولا قوة إلا بالله". وخرّج ابن ماجه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ به وهو يَغْرِس غَرْسا فقال : "يا أبا هريرة ما الذي تغرس" قلت غراسا . قال "ألا أدُلّك على غِراس خير من هذا سبحان الله والحمد لله ولا إله الا الله والله أكبر يُغرس لك بكل واحدة شجرة في الجنة". وقد قيل : إن الباقيات الصالحات هي النيات والهمّات؛ لأن بها تقبل الأعمال وترفع ؛ قاله الحسن . وقال عُبيد ابن عُمير : هن البنات؛ يدل عليه أوائل الآية؛ قال الله تعالى : «المال والبنون زينة الحياة الدنيا» ثم قال «والباقيات الصالحات» يعني البنات الصالحات هنّ عند الله لآبائهن خير ثوابا،

«خير أملا فى الآخرة لمن أحسن إليهن. يدل عليه ما روته عائشة رضى الله عنها قالت: دخلت على امرأة مسكينة ... الحديث، وقد ذكرناه فى سورة النحل فى قوله «يتوارى من القوم» الآية.(1)
وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لقد رأيت رجلا من أمتى أمر به إلى النار فتعلق به بناته وجعلن يصرخن ويقلن ربّ إنه كان يحسن إلينا فى الدنيا فرحمه الله بهن".
وقال قتادة فى قوله تعالى: «فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً» قال: أبدلهما منه ابنة فتزوجها نبيّ فولدت له اثنى عشر غلاما كلهم أنبياء.

قوله تعالى: وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ قال بعض النحويين: التقدير والباقيات الصالحات خير عند ربك يوم نسيّر الجبال. قال النحاس: وهذا غلط من أجل الواو. وقيل: المعنى واذكر يوم نسيّر الجبال، أى نزيلها من أماكنها من على وجه الأرض، ونسيرها كما نسير السحاب؛ كما قال فى آية أخرى «وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ». ثم تكسر فتعود إلى الأرض؛ كما قال «وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً. فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً». وقرأ ابن كثير والحسن وأبو عمرو وابن عامر «ويوم تُسيَّر» بتاء مضمومة وفتح الياء. و«الجبالُ» رفعا على الفعل المجهول. وقرأ ابن مُحيصن ومجاهد «ويوم تَسير الجبالُ» بفتح التاء مخففا من سار. «الجبالُ» رفعا. دليل قراءة أبى عمرو «وإذا الجبال سُيِّرت». ودليل قراءة ابن محيصن «وتسير الجبال سيرا». واختار أبو عبيد القراءة الأولى «نسيّر» بالنون لقوله «وحشرناهم». ومعنى ﴿بارزة﴾ ظاهرة، وليس عليها ما يسترها من جبل ولا شجر ولا بنيان؛ أى قد اجتثت ثمارها وقلعت جبالها، وهدم بنيانها؛ فهى بارزة ظاهرة. وعلى هذا القول أهل التفسير. وقيل: «وترى الأرض بارزة» أى برز ما فيها من الكنوز والأموات؛ كما قال «وألقت ما فيها

(1) راجع ص ١١٧ من هذا الجزء.

وتخلّت » وقال[1] « وأخرجت الأرض أثقالها[2] » وهذا قول عطاء . ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ ﴾ أى إلى الموقف . ﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أى لم نترك ؛ يقال : غادرت كذا أى تركته . قال عنترة :

غادرتُـه متعفّـرا أوصـالُه * والقـومُ بين مُجرَّح ومُجـدَّلِ

أى تركته . والمغادرة الترك ؛ ومنه الغَدْر ؛ لأنه ترك الوفاء . وإنما سمى الغدير من الماء غديرا لأن الماء ذهب وتركه . ومنه غدائر المرأة لأنها تجعلها خلفها . يقول : حشرنا بَرّهم وفاجرَهم وجنّهم وإنسهم .

قوله تعالى : وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ « صفا » نصب على الحال . قال مقاتل : يعرضون صفًّا بعد صفّ كالصفوف فى الصلاة ، كل أمة وزمرة صفا ؛ لا أنهم صفّ واحد . وقيل جميعا ؛ كقوله « ثم ائتوا صفًّا[3] » أى جميعا . وقيل قياما . وخرّج الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن مَنْدَه فى كتاب التوحيد عن معاذ بن جبل أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله تبارك وتعالى ينادى يوم القيامة بصوت رفيع غير فظيع يا عبادى أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين ياعبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون أحضروا حجتكم ويسّروا جوابا فإنكم مسئولون محاسبون . يا ملائكتى أقيموا عبادى صفوفا على أطراف أنامل أقدامهم للحساب " .

قلت : هذا الحديث غاية فى البيان فى تفسير الآية ، ولم يذكره كثير من المفسرين ، وقد كتبناه فى كتاب التذكرة ، ومنه نقلناه والحمد لله .

﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أى يقال لهم : لقد جئتمونا حُفاةً عُراةً ، لا مالَ معكم ولا ولدا . وقيل فرادى ؛ دليله قوله « ولقد جئتمونا فُرادَى كما خلقناكم أوّلَ مرة[4] » . وقد تقدم . وقال الزجاج : أى بعثناكم كما خلقناكم . ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ ﴾ هذا خطاب لمنكرى

(١) آية ٤ سورة الانشقاق . (٢) آية ٢ سورة الزلزلة . (٣) آية ٦٤ سورة طه .
(٤) آية ٩٤ سورة الأنعام . راجع جـ ٧ ص ٤٠٢ طبعة أولى أو ثانية .

البعث، أى زعمتم فى الدنيا أن لن تُبعثوا وأن لن نجعل لكم موعدا للبعث . وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يُحْشَر الناس يوم القيامة حُفاةً عُراة غُرْلًا " قلت : يا رسول الله ! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال : " يا عائشة ، الأمر أشدّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض " . « غُرْلًا » أى غير مختونين . وقد تقدم فى « الأنعام »(١) بيانه .

قوله تعالى : وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ « الكتاب » اسم جنس، وفيه وجهان : أحدهما — أنها كتب الأعمال فى أيدى العباد؛ قاله مُقاتل . الثانى — أنه وضع الحساب؛ قاله الكلبى، فعبّر عن الحساب بالكتاب لأنهم يحاسبون على أعمالهم المكتوبة . والقول الأوّل أظهر؛ ذكره ابن المبارك قال : أخبرنا الحكم أو أبو الحكم — شكّ نُعيم — عن إسماعيل بن عبد الرحمن عن رجل من بنى أسد قال قال عمر لكعب : وَيْحك يا كعب ! حدّثنا من حديث الآخرة؛ قال : نعم يا أمير المؤمنين ! إذا كان يوم القيامة رُفع اللوح المحفوظ فلم يبق أحد من الخلائق إلا وهو ينظر إلى عمله — قال — ثم يؤتى بالصحف التى فيها أعمال العباد فتنثر حول العرش، وذلك قوله تعالى « ووُضع الكتاب فترى المجرمين مُشْفقين مما فيه و يقولون يا وَيْلَتنا ما لهذا الكتاب لا يُغادر صغيرةً ولا كبيرة إلا أحصاها — قال الأسدى : الصغيرة ما دون الشرك ، والكبيرة الشرك، إلا أحصاها — قال كعب : ثم يدعى المؤمن فيُعطى كتابه بيمينه فينظر فيه فإذا حسناته باديات للناس وهو يقرأ سيئاته لكيلا يقول كانت لى حسنات فلم تذكر فأحبّ الله أن يُريه عمله كلّه حتى إذا استنقص ما فى الكتاب وجد فى آخر

(١) راجع جـ ٧ ص ٤٢

ذلك كلّه أنه مغفور وأنك من أهل الجنة ؛ فعند ذلك يُقبل إلى أصحابه ثم يقول « هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ . إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ » (١) ثم يدعى بالكافر فيعطى كتابه بشماله ثم يُلف فيجعل من وراء ظهره ويُلوى عنقه ؛ فذلك قوله « وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ » (٢) فينظر فى كتابه فإذا سيئاته باديات للناس وينظر فى حسناته لكيلا يقول أفأثاب على السيئات. وكان الفُضيل بن عِيَاض إذا قرأ هــذه الآية يقول : ياويلتاه ! ضجُّوا إلى الله تعالى من الصغائر قبل الكبائر . قال ابن عباس : الصغيرة التبسم ، والكبيرة الضحك ؛ يعنى ما كان من ذلك فى معصية الله عز وجل ؛ ذكره الثعلبى . وحكى الماوَرْدِىّ عن ابن عباس أن الصغيرة الضحك .

قلت فيحتمل أن يكون صغيرة إذا لم يكن فى معصية ، فإن الضحك من المعصية رضًا بها والرضا بالمعصية معصية ، وعلى هذا تكون كبيرة ، فيكون وجه الجمع هــذا والله أعلم . أو يحمل الضحك فيما ذكر الماوردى على التبسم ، وقد قال تعالى : «فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا» . وقال سعيد بن جبير : إن الصغائر اللَّمَم كالمَسِيس والقُبَل ، والكبيرة المواقعة والزِّنى . وقــد مضى فى « النساء » (٣) بيان هذا . قال قتادة : اشتكى القوم الإحصاء ، وما اشتكى أحد ظلما ، فإياكم ومحقَّرات الذنوب فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه . وقد مضى . ومعنى « أحصاها » عدّها وأحاط بها ؛ وأضيف الإحصاء إلى الكتاب توسُّعا . ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ أى وجدوا إحصاء ما عملوا حاضرا . وقيل : وجدوا جزاء ما عملوا حاضرا . ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ أى لا يأخذ أحدا بجُرم أحد ، ولا يأخذه بما لم يعمله ؛ قاله الضحاك . وقيــل : لا ينقص طائعا من ثوابه ولا يزيد عاصيا فى عقابه .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾

(١) آية ١٩ سورة الحاقة . (٢) آية ١٠ سورة الانشقاق . (٣) راجع جـ ٥ ص ١٥٨

قوله تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾ تقدم في « البقرة » هذا مستوفى(١). قال أبو جعفر النحاس : وفي هذه الآية سؤال، يقال : ما معنى « ففسق عن أمر ربه » ففي هذا قولان : أحدهما — وهو مذهب الخليل وسيبويه أن المعنى أتاه الفسق لما أمر فعصى، فكان سبب الفسق أمر ربه ؛ كما تقول : أطعمته عن جوع . والقول الآخر — وهو مذهب محمد بن قطرب أن المعنى : ففسق عن رد أمر ربه . ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني ﴾ وقف عز وجل الكفرة على جهة التوبيخ بقوله أفتتخذونه يا بني آدم وذريته أولياء وهم لكم عدو؛ أي أعداء، فهو اسم جنس . ﴿ بئس للظالمين بدلا ﴾ أي بئس عبادة الشيطان بدلا عن عبادة الله . أو بئس إبليس بدلا عن الله . واختلف هل لإبليس ذرية من صلبه ؛ فقال الشعبي : سألني رجل فقال هل لإبليس زوجة؟ فقلت : إن ذلك عرس لم أشهده، ثم ذكرت قوله «أفتتخذونه وذريته أولياء» فعلمت أنه لا تكون ذرية إلا من زوجة فقلت نعم . وقال مجاهد : إن إبليس أدخل فرجه في فرج نفسه فباض خمس بيضات؛ فهذا أصل ذريته . وقيل : إن الله تعالى خلق له في فخذه اليمنى ذكرا وفي اليسرى فرجا؛ فهو ينكح هذا بهذا ، فيخرج له كل يوم عشر بيضات ، يخرج من كل بيضة سبعون شيطانا وشيطانة ، فهو يخرج وهو يطير ، وأعظمهم عند أبيهم منزلة أعظمهم في بني آدم فتنة . وقال قوم : ليس له أولاد ولا ذرية ، وذريته أعوانه من الشياطين. قال القشيري أبو نصر ، والجملة أن الله تعالى أخبر أن لإبليس أتباعا وذرية، وأنهم يوسوسون إلى بني آدم وهم أعداؤهم ، ولا يثبت عندنا كيفية في كيفية التوالد منهم وحدوث الذرية عن إبليس، فيتوقف الأمر فيه على نقل صحيح .

قلت : الذي ثبت في هذا الباب من الصحيح ما ذكره الحميدي في الجمع بين الصحيحين عن الإمام أبي بكر البرقاني أنه خرج في كتابه مسندا عن أبي محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ من رواية عاصم عن أبي عثمان عن سلمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تكن

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩١ طبعة ثانية أو ثالثة .

أوّل من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فيها باض الشيطان وفرّخ" . وهذا يدل على أن للشيطان ذرية من صلبه، والله أعلم . قال ابن عطية : وقوله «وذريته» ظاهر اللفظ يقتضى الموسوسين من الشياطين، الذين يأتون بالمنكر ويحملون على الباطل . وذكر الطبرى وغيره أن مجاهدا قال : ذرية إبليس الشياطين، وكان يعدّهم : زَلَنْبُور صاحبُ الأسواق، يضع رايته فى كل سوق بين السماء والأرض، يجعل تلك الراية على حانوت أوّل من يفتح وآخر من يغلق. وثبر صاحب المصائب ، يأمر بضرب الوجوه وشق الجيوب، والدعاء بالويل والحرب . والأعور صاحب أبواب الزنى . ومسوط صاحب الأخبار، يأتى بها فيلقيها فى أفواه الناس فلا يجدون لها أصلا . وداسم الذى إذا دخل الرجل بيته فلم يسلّم ولم يذكر اسم الله بصّره من المتاع ما لم يُرفع وما لم يُحسَن موضعه ، وإذا أكل ولم يذكر اسم الله أكل معه . قال الأعمش : وإنى ربما دخلت البيت فلم أذكر الله ولم أسلّم ، فرأيت مطهرة فقلت : ارفعوا هذه! وخاصمتهم، ثم أذكر فأقول : داسم داسم! أعوذ بالله منه! زاد الثعلبى وغيره عن مجاهد : والأبيض ، وهو الذى يوسوس للأنبياء . وصخر وهو الذى اختلس خاتم سليمان عليه السلام. والولهان وهو صاحب الطهارة يوسوس فيها . والأقيس وهو صاحب الصلاة يوسوس فيها . ومُرّة وهو صاحب المزامير وبه يُكنَى . والهفاف يكون بالصحارى يُضلّ الناس ويتيههم . ومنهم الغيلان . وحكى أبو مطيع مكحول بن الفضل النسفى فى كتاب اللؤلؤيات عن مجاهد أن الهفاف هو صاحب الشراب ، ولقوس صاحب التحريش، والأعور صاحب أبواب السلطان . قال وقال الدارانى : إن لإبليس شيطانا يقال له المتقاضى، يتقاضى ابن آدم فيخبر بعمل كان عمله فى السرّ منذ عشرين سنة، فيحدّث به فى العلانية . قال ابن عطية : وهذا وما جانسه مما لم يأت به سند صحيح، وقد طوّل النقاش فى هذا المعنى وجلب حكايات تبعد عن الصحة، ولم يمر بى فى هذا صحيح إلا ما فى كتاب مسلم من أن للصلاة شيطانا يسمى خَنْزَب . وذكر الترمذى أن للوضوء شيطانا يسمى الولهان .

قلت : أما ماذكر من التعيين فى الاسم فصحيح ؛ وأما أن له أتباعا وأعوانا وجنودا فمقطوع به ، وقد ذكرنا الحديث الصحيح فى أن له أولادا من صلبه، كما قال مجاهد وغيره . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : إن الشيطان ليتمثل فى صورة الرجل فيأتى القوم فيحدثهم بالحديث من الكذب فيتفرقون فيقول الرجل منهم سمعت رجلا أعرف وجهه ولا أدرى ما اسمه يحدث . وفى مسند البزار عن سلمان الفارسى قال قال النبى صلى الله عليه وسلم : "لا تكونن إن استطعت أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته" . وفى مسند أحمد بن حنبل قال : أنبأنا عبد الله بن المبارك قال حدثنا سفيان عن عطاء بن السائب عن أبى عبد الرحمن السلمى عن أبى موسى الأشعرى قال : إذا أصبح إبليس بث جنوده فيقول من أضل مسلما ألبسته التاج قال فيقول له القائل لم أزل بفلان حتى طلق زوجته، قال : يوشك أن يتزوج . ويقول آخر : لم أزل بفلان حتى عق؛ قال : يوشك أن يبر . قال ويقول القائل : لم أزل بفلان حتى شرب؛ قال : أنت ! قال ويقول : لم أزل بفلان حتى زنى؛ قال : أنت ! قال ويقول : لم أزل بفلان حتى قتل؛ قال : أنت أنت ! وفى صحيح مسلم عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول ما صنعت شيئا قال ثم يجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله قال فيدنيه أو قال فيلتزمه ويقول نعم أنت" . وقد تقدم . وسمعت شيخنا الإمام أبا محمد عبد المعطى بثغر الإسكندرية يقول : إن شيطانا يقال له البيضاوى يتمثل للفقراء المواصلين فى الصيام فإذا استحكم منهم الجوع وأضر بأدمغتهم يكشف لهم عن ضياء ونور حتى يملأ عليهم البيوت فيظنون أنهم قد وصلوا وأن ذلك من الله وليس كما ظنوا .

قوله تعالى : ﴿مَآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى : ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ قيل : الضمير عائد على إبليس وذريته؛ أى لم أشاورهم فى خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم، بل خلقتهم على ما أردت . وقيل : ما أشهدت إبليس وذريته خلق السموات والأرض «ولا خلق أنفسهم» أى أنفس المشركين فكيف اتخذوهم أولياء من دونى؟ . وقيل : الكناية فى قوله : «مَا أَشْهَدْتُهُمْ» ترجع إلى المشركين، و إلى الناس بالجملة، فتضمن الآية الرد على طوائف من المنجمين وأهل الطبائع والمتحكمين من الأطباء وسواهم من كل من يتخرط فى هذه الأشياء . وقال ابن عطية : وسمعت أبى رضى الله عنه يقول سمعت الفقيه أبا عبد الله محمد بن معاذ المهدى بالمهدية يقول : سمعت عبد الحق الصقلى يقول هذا القول، و يتأول هذا التأويل فى هذه الآية، وأنها رادة على هذه الطوائف، وذكر هذا بعض الأصوليين . قال ابن عطية وأقول : إن الغرض المقصود أولا بالآية هم إبليس وذريته؛ وبهذا الوجه يتجه الرد على الطوائف المذكورة، وعلى الكهان والعرب والمعظمين للجن؛ حين يقولون: أعوذ بعزيز هذا الوادى؛ إذ الجميع من هذه الفرق متعلقون بإبليس وذريته وهم أضلوا الجميع، فهم المراد الأول بالمضلين؛ وتندرج هذه الطوائف فى معناهم . قال الثعلبى : وقال بعض أهل العلم «مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» ردّ على المنجمين أن قالوا : إن الأفلاك تحدث فى الأرض وفى بعضها فى بعض، وقوله : «والأرض» ردّ على أصحاب الهندسة حيث قالوا :

إن الأرض كرية والأفلاك تجرى تحتها، والناس ملصقون عليها وتحتها، وقوله : « ولا خلق أنفسهم» ردّ على الطبائعيين حيث زعموا أن الطبائع هى الفاعلة فى النفوس . وقرأ أبو جعفر « ما أشهدناهم » بالنون والألف على التعظيم . الباقون بالتاء بدليل قوله : «وما كنت متخذ» يعنى ما استعنتهم على خلق السموات والأرض ولا شاورتهم . ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ ﴾ يعنى الشياطين . وقيل : الكفار . ﴿ عَضُـدًا ﴾ أى أعوانا . يقال : اعتضدت بفلان إذا استعنت به وتقويت . والأصل فيه عضد اليد، ثم يوضع موضع العون؛ لأن اليد قوامها العضد . يقال: عضده وعاضده على كذا إذا أعانه وأعزه . ومنه قوله : « سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ » أى سنعينك بأخيك . ولفظ العضد على جهة المثل ، والله سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى عون أحد . وخص المضلين بالذكر لزيادة الذم والتوبيخ . وقرأ أبو جعفر الجحدرى: «وَمَا كُنْتَ» بفتح التاء؛ أى وما كنت يا محمد متخذ المضلين عضدا . وفى عضد ثمانية أوجه : «عَضُدًا» بفتح العين وضم الضاد وهى قراءة الجمهور، وهى أفصحها . و «عَضْدًا» بفتح العين وإسكان الضاد، وهى لغة بنى تميم . و « عُضُدًا » بضم العين والضاد ، وهى قراءة أبى عمرو والحسن. و «عُضْدًا» بضم العين و إسكان الضاد، وهى قراءة عكرمة. و «عِضَدًا» بكسر العين وفتح الضاد، وهى قراءة الضحاك . و «عَضَدًا» بفتح العين والضاد وهى قراءة عيسى بن عمر. وحكى هرون القارئ « عَضِدًا » . واللغة الثامنة «عِضْدا» على لغة من قال: كِتْف وفِخْذ .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ أى اذكروا يوم يقول الله : أين شركائى ؟ أى ادعوا الذين أشركتموهم بى فليمنعوكم من عذابى . وإنما يقول ذلك لعبدة الأوثان . وقرأ حمزة ويحيى وعيسى بن عمر « نقول » بنون . الباقون بالياء؛ لقوله : « شركائى » ولم يقل : شركائنا . ﴿ فَدَعَوْهُمْ ﴾ أى فعلوا ذلك . ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ أى لم يجيبوهم إلى نصرهم ، ولم يكفوا عنهم شيئا . ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴾ قال أنس ابن مالك : هو واد فى جهنم من قيح ودم . وقال ابن عباس : أى وجعلنا بين المؤمنين والكافرين حاجزا . وقيل : بين الأوثان وعبدتها ، نحو قوله : « فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ » .

قال ابن الأعرابي : كل شيء حاجز بين شيئين فهو مَوْبِق . وذكر ابن وهب عن مجاهد في قوله تعالى : « مَوْبِقا » قال وادٍ في جهنم يقال له مَوْبِق . وكذلك قال نَوْف البِكَالي إلا أنه قال : يحجز بينهم وبين المؤمنين . عكرمة : هو نهر في جهنم يسيل نارا ، على حافتيه حيات مثل البغال الدُّهم ، فإذا ثارت إليهم لتأخذهم آستغاثوا منها بالاقتحام في النار . وروى زيد بن درهم[1] عن أنس بن مالك قال : « مَوْبِقا » وادٍ من قيح ودم في جهنم . وقال عطاء والضحاك : مَهْلِكا في جهنم ؛ ومنه يقال : أوبقته ذنوبه إيباقا . وقال أبو عبيدة : موعدا للهلاك . الجوهري : وَبَق يَبِق وبوقا هَلَك ، والمَوْبِق مثل الموعد مَفْعِل من وعد يعد ، ومنه قوله تعالى : « وجعلنا بينهم موبقا » . وفيه لغة أخرى : وَبِق يَوْبَق وَبَقًا . وفيه لغة ثالثة : وَبِق يَبِق بالكسر فيهما ، وأوبقه أي أهلكه . وقال زهير :

ومن يشترى حُسنَ الثَّناء بماله * يَصُنْ عِرضَه من كلّ شَنْعاءَ مُوبِقِ

قال الفرّاء : جعل تواصلهم في الدنيا مَهلِكا لهم في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ ﴾ « رأى » أصله رَأَيَ ، قلبت الياء ألفا لانفتاحها وانفتاح ما قبلها ؛ ولهذا زعم الكوفيون أن « رأى » يكتب بالياء ، وتابعهم على هذا القول بعض البصريين . فأما البصريون الحذّاق ، منهم محمد بن يزيد فإنهم يكتبونه بالألف . قال النحاس : سمعت عليّ بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول : لا يجوز أن يكتب مضى ورمى وكل ما كان من ذوات الياء إلا بالألف ، ولا فرق بين ذوات الياء وبين [ذوات][2] الواو في الخط ، كما أنه لا فرق بينهما في اللفظ ، ولو وجب أن يكتب ذوات الياء بالياء لوجب أن يكتب ذوات الواو بالواو ، وهم مع هذا يناقضون فيكتبون رمى بالياء ورماه بالألف ، فإن كانت العلة أنه من ذوات الياء وجب أن يكتبوا رماه بالياء ، ثم يكتبون ضُحًا جمع ضَحْوة ، وكُسًا جمع كُسوة ، وهما من ذوات الواو بالياء ، وهذا ما لا يحصل ولا يثبت على أصل .

﴿ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ « فظنوا » هنا بمعنى اليقين والعلم ، كما قال[3] :

* فقلتُ لهم ظُنّوا بألفَيْ مُدَجَّجٍ *

---

(١) في الأصل يزيد وهو تحريف ؛ والتصويب عن « التهذيب » . (٢) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس .

(٣) هو دريد بن الصمة ؛ وتمام البيت : * سراتهم في الفارسي المسرد *

أى أيقنوا؛ وقد تقدّم[1] . قال ابن عباس : أيقنوا أنهم مواقعوها . وقيل : راوها من مكان بعيد فتوهموا أنهم مواقعوها ، وظنوا أنها تأخذهم فى الحال . وفى الخبر : " إن الكافر ليرى جهنم ويظن أنها موافعته من مسيرة أربعين سنة " . والمواقعة ملابسة الشىء بشدّة . [وعن علقمة أنه قرأ[2]] « فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُلَاقُوهَا » أى مجتمعون فيها ، واللّفف الجمع . ﴿ وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ أى مهربا لإحاطتها بهم من كل جانب . وقال القتبى : معْدلا ينصرفون إليه . وقيل : ملجأ يلجئون إليه ، والمعنى واحد . وقيل : ولم تجد الأصنام مصرفا للنار عن المشركين .

قوله تعالى : وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٧٥ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) الزيادة من تفسير «البحر المحيط» .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما — ما ذكره لهم من العبر والقرون الخالية. الثاني — ما أوضحه لهم من دلائل الربوبية وقد تقدم في «سبحان»[1]؛ فهو على الوجه الأول زجر، وعلى الثاني بيان. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أي جدالا ومجادلة، والمراد به النضر بن الحرث وجداله في القرآن. وقيل: الآية في أبي بن خلف. وقال الزجاج: أي الكافر أكثر شيء جدلا؛ والدليل على أنه أراد الكافر قوله: «وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ». وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يؤتى بالرجل يوم القيامة من الكفار فيقول الله له ما صنعتَ فيما أرسلتُ إليك فيقول رب آمنتُ بك وصدّقت برسلك وعملتُ بكتابك فيقول الله له هذه صحيفتك ليس فيها شيء من ذلك فيقول يارب إني لا أقبل ما في هذه الصحيفة فيقال له هذه الملائكة الحفظة يشهدون عليك فيقول ولا أقبلهم يارب وكيف أقبلهم ولا هم من عندي ولا من جهتي فيقول الله تعالى هذا اللوح المحفوظ أمّ الكتاب قد شهد بذلك فقال يارب ألم تُجِرني من الظلم قال بلى فقال يارب لا أقبل إلا شاهدا عليّ من نفسي فيقول الله تعالى الآن نبعث عليك شاهدا من نفسك فيتفكر من ذا الذي يشهد عليه من نفسه فيختم على فيه ثم تنطق جوارحه بالشرك ثم يُخلّي بينه و بين الكلام فيدخل النار و إنّ بعضه ليلعن بعضا يقول لأعضائه لعنكنّ الله فعنكنّ كنتُ أناضل فتقول أعضاؤه لعنك الله أفتعلم أن الله تعالى يُكتَم حديثا فذلك قوله تعالى «وكان الإنسان أكثر شيء جدلا» أخرجه مسلم بمعناه من حديث أنس أيضا. وفي صحيح مسلم عن عليّ أن النبي صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة فقال: "ألا تصلّون" فقلت: يارسول الله إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا؛ فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قلت له ذلك، ثم سمعته وهو مدبر يضرب فخذه ويقول: «وكان الإنسان أكثر شيء جدلا».

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾ أي القرآن والإسلام ومحمد عليه الصلاة والسلام. ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي سنتنا في إهلاكهم؛

---

[1] راجع جـ ١٠ ص ٢٦٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

أى ما منعهم عن الإيمان إلا حكمى عليهم بذلك ؛ ولو حكمت عليهم بالإيمان آمنوا . وسنة الأولين عادة الأولين فى عذاب الاستئصال . وقيل : المعنى وما منع الناس أن يؤمنوا إلا طلب أن تأتيهم سنة الأولين فحذف . وسنة الأولين معاينة العذاب ، فطلب المشركون ذلك ، وقالوا : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك » الآية . ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قِبَلًا ﴾[1] نصب على الحال ، ومعناه عيانا ؛ قاله ابن عباس . وقال الكلبى : هو السيف يوم بدر . وقال مقاتل : فجأة . وقرأ أبو جعفر وعاصم والأعمش وحمزة ويحيى والكسائى « قُبُلًا » بضمتين أرادوا به أصناف العذاب كله ؛ جمع قَبِيل نحو سَبِيل وسُبُل . النحاس : ومذهب الفراء أن « قُبُلا » جمع قَبِيل أى متفرقا يتلو بعضه بعضا . ويجوز عنده أن يكون المعنى عيانا . وقال الأعرج : وكانت قراءته « قُبُلًا » معناه جميعا . وقال أبو عمرو : وكانت قراءته « قِبَلًا » ومعناه عيانا .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ ﴾ أى بالجنة لمن آمن . ﴿ وَمُنْذِرِينَ ﴾ أى مخوفين بالعذاب من كفر . وقد تقدم . ﴿ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ قيل : نزلت فى المقتسمين ، كانوا يجادلون فى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : ساحر ومجنون وشاعر وكاهن كما تقدم[2] . ومعنى « يدحضوا » يزيلوا ويبطلوا . وأصل الدَّحْض الزَّلَق . يقال : دَحَضتْ رِجلُه أى زَلِقت ، تَدْحَض دَحْضًا ، ودَحَضت الشمسُ عن كبد السماء زالت ، ودَحَضت حُجّته دُحوضا بَطَلت ، وأدحضها الله . والإدحاض الإزلاق . وفى وصف الصراط : " ويُضرَب الجسرُ على جهنم وتَحِلّ[3] الشفاعةُ فيقولون اللهم سَلِّم سَلِّم " قيل : يا رسول الله وما الجسر ؟ قال : " دَحْضٌ مَزْلَقة " أى تزلق فيه القدم . قال طَرَفة :

أبا منذرٍ رُمْتَ الوفاءَ فهِبْتَه ... وحِدْتَ كما حادَ البعيرُ عن الدَّحْضِ

---

(١) هذه قراءة « نافع » التى كان يقرأ بها المفسر رحمه الله تعالى .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٥٨ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) تحل : تقع و يؤذن فيها ، وهو (بكسر الحاء) وقيل : (بضمها) . النووى

﴿ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي ﴾ يعني القرآن ﴿ وَمَا أُنْذِرُوا ﴾ من الوعيد ﴿ هُزُوًا ﴾ . و «ما» بمعنى المصدر أي والإنذار . وقيل : بمعنى الذي ؛ أي اتخذوا القرآن والذي أنذروا به من الوعيد هزوا أي لعبا وباطلا ؛ وقد تقدم في « البقرة »(١) بيانه . وقيل : هو قول أبي جهل في الزُّبد والتمر هـذا هو الزقوم . وقيل : هو قولهم في القرآن هو سحر وأضغاث أحلام وأساطير الأولين ، وقالوا للرسول : « هَلْ هَـذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » ، « وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » و « مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا » .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ أي لا أحد أظلم لنفسه ممن وعظ بآيات ربه ، فتهاون بها وأعرض عن قبولها . ﴿ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أي ترك كفره ومعاصيه فلم يتب منها ؛ فالنسيان هنا بمعنى الترك . وقيل : المعنى نسي ما قدم لنفسه وحصّل من العذاب ؛ والمعنى متقارب . ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ بسبب كفرهم ؛ أي نحن منعنا الإيمان من أن يدخل قلوبهم وأسماعهم . ﴿ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى ﴾ أي إلى الإيمـان ﴿ فَلَنْ يَهْتَـدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ نزل في قوم معينين ، وهو ردّ على القدرية قولهم ؛ وقد تقدم معنى هذه الآية في «سبحان»(٢) وغيرها .

قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَـةِ ﴾ أي للذنوب . وهذا يختص به أهل الإيمان دون الكفرة بدليـل قوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ » . « ذو الرحمة » فيـه أربع تأويلات : أحدها ـ ذو العفو . الثاني ـ ذو الثواب ؛ وهو على هذين الوجهين مختص بأهل الإيمـان دون الكفر . الثالث ـ ذو النعمة . الرابع ـ ذو الهدى ؛ وهو على هذين الوجهين يعم أهل الإيمـان والكفر ، لأنه ينعم في الدنيـا على الكافر كإنعامه على المؤمن . وقد أوضح هداه للكافر كما أوضحه للمؤمن وإن اهتدى به المؤمن دون الكافر . ومعنى قوله : ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَـا كَسَبُوا ﴾ أي من الكفر والمعاصي ﴿ لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ﴾ ولكنه يمهل . ﴿ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ ﴾ أي أجل مقدر يؤخرون إليه . نظيره « لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ » ، « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » .

---

(١) راجع جـ ٣ ص ١٥٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٧١ طبعة أولى أو ثانية .

أى إذا حلّ لم يتأخر عنهم إما فى الدنيا و إما فى الآخرة . ﴿لَن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ أى ملجأ؛ قاله ابن عباس وابن زيد، وحكاه الجوهرى فى الصحاح . وقد وَأَلَ يَئِلُ وَأْلًا وَوُءُولًا على فُعول أى لجأ، ووَاءَل منه على فاعل أى طلب النجاة . وقال مجاهد : مَحْرِزًا . قتادة : وليًّا . وأبو عبيدة : مَنْجًى . وقيل : مَحيصا؛ والمعنى واحد . والعرب تقول : لا وَأَلَتْ نفسُه أى لا نَجَت؛ ومنه قول الشاعر :

لا وَأَلَتْ نفسُك خَلَّيْتَها * للعامِرِيِّين ولم تُكْلَمِ

وقال الأعشى

وقد أُخَالِسُ رَبَّ البيتِ غَفْلَتَهُ * وقد يُحاذِرُ منّى ثم ما يَئِلُ

أى ما ينجو .

قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ « تلك » فى موضع رفع بالابتداء . «القرى» نعت أو بدل . و « أهلكناهم » فى موضع الخبر محمول على المعنى؛ لأن المعنى أهل القرى . ويجوز أن تكون « تلك » فى موضع نصب على [قول][1] من قال : زيدا ضربته ؛ أى وتلك القرى التى قصصنا عليك نبأهم، نحو قُرى عاد وثمود ومدين وقوم لوط أهلكناهم لما ظلموا وكفروا . ﴿وَجَعَلْنَا لِمُهْلَكِهِم[2] مَوْعِدًا﴾ أى وقتا معلوما لم تَعْدُه . و «مُهْلَك» من أُهلكوا . وقرأ عاصم « مَهْلَكهم » بفتح الميم واللام وهو مصدر هَلَك . وأجاز الكسائى والفراء «لِمَهْلِكهم» بكسر اللام وفتح الميم . النحاس : [قال الكسائى][3] وهو أحبّ إلىّ لأنه من هلك . الزجاج : اسم للزمان والتقدير : لوقت مَهْلِكهم، كما يقال : أتت الناقة على مَضْرِبِها[4] .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾

---

(١) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس . (٢) هذه قراءة الجمهور كما فى البحر وغيره .

(٣) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس . (٤) ضرب الجمل الناقة يضربها إذا نزا عليها؛ وأتت الناقة على مضربها : أى على الزمن والوقت الذى ضربها الفحل فيه؛ جعلوا الزمان كالمكان .

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ﴾ الجمهور من العلماء وأهل التاريخ أنه موسى بن عمران المذكور في القرآن ليس فيه موسى غيره. وقالت فرقة منها نَوْف البِكَالِيّ : إنه ليس ابن عمران وإنما هو موسى بن منشا بن يوسف بن يعقوب وكان نبيا قبل موسى ابن عمران. وقد ردّ هذا القول ابن عباس في صحيح البخاري وغيره. وفتاه : هو يوشع بن نون. وقد مضى ذكره في « المائدة »[1] وآخر « يوسف »[2]. ومن قال هو ابن منشا فليس الفتى يوشع بن نون. « لَا أَبْرَحُ » أي لا أزال أسير؛ قال الشاعر[3] :

وأَبْرَحُ ما أدامَ اللهُ قَوْمِي ⁂ بحمد الله مُنْتَطِقًا مُجِيدَا

وقيل : « لَا أَبْرَحُ » لا أفارقك. ﴿حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي ملتقاهما. قال قتادة : وهو بحر فارس والروم؛ وقاله مجاهد. قال ابن عطية : وهو ذراع يخرج من البحر المحيط من شمال إلى جنوب في أرض فارس من وراء أَذْرَبِيجان، فالركن الذي لاجتماع البحرين مما يلي بَرّ الشام هو مجمع البحرين على هذا القول. وقيل : هما بحر الأُرْدُنّ و بحر القُلْزُم. وقيل : مجمع البحرين عند طنجة؛ قاله محمد بن كعب. وروى عن أُبَيّ بن كعب أنه بأفريقية. وقال السدي : الكُرّ والرُّسّ[4] بأرمينية. وقال بعض أهل العلم : هو بحر الأندلس من البحر المحيط؛ حكاه النقاش؛ وهذا مما يذكر كثيرا. وقالت فرقة : إنما هما موسى والخضر؛ وهذا قول ضعيف؛ وحكى عن ابن عباس، ولا يصح؛ فإن الأمر بيّن من الأحاديث أنه إنما وُسِم له بحر ماء. وسبب هذه القصة ما خرجه الصحيحان عن أُبَيّ بن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن موسى عليه السلام قام خطيبا

---

(١) راجع جـ ٦ ص ١٣٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية. (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٧٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية. (٣) هو خداش بن زهير. يقول : لا أزال أصحب فرسي جوادا، ويقال : إنه أراد قولا يستجاد في الثناء على قومي. وفي (اللسان) : « على الأعداء » بدل « بحمد الله ».

(٤) الكر والرس : نهران.

فى بنى إسرائيل فسئل أى الناس أعلم فقال أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه إن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى يارب فكيف لى به قال تأخذ معك حوتا فتجعله فى مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم " وذكر الحديث، واللفظ للبخارى .

وقال ابن عباس : لما ظهر موسى وقومه على أرض مصر أنزل قومه مصر، فلما استقرت بهم الدار أمره الله أن ذكرهم بأيام الله، فخطب قومه فذكرهم ما آتاهم الله من الخير والنعمة إذ نجاهم من آل فرعون، وأهلك عدوهم، واستخلفهم فى الأرض، ثم قال : وكلم الله نبيكم تكليما، واصطفاه لنفسه، وألقى على محبة منه، وآتاكم من كل ما سألتموه، فجعلكم أفضل أهل الأرض، ورزقكم العز بعد الذل، والغنى بعد الفقر، والتوراة بعد أن كنتم جهالا؛ فقال له رجل من بنى إسرائيل : عرفنا الذى تقول، فهل على وجه الأرض أحد أعلم منك يانبى الله ؟ قال : لا ؛ فعتب الله عليه حين لم يرد العلم إليه، فبعث الله جبريل : أن ياموسى وما يدريك أين [أضع][1] علمى ؟ بلى ! إن لى عبدا بمجمع البحرين أعلم منك، وذكر الحديث . قال علماؤنا : قوله فى الحديث " هو أعلم منك " أى بأحكام وقائع مفصلة، وحكم نوازل معينة، لا مطلقا، بدليل قول الخضر لموسى : إنك على علم علمكه الله لا أعلمه أنا، وأنا على علم علمنيه لا تعلمه أنت، وعلى هذا فيصدق على كل واحد منهما أنه أعلم من الآخر بالنسبة إلى ما يعلمه كل واحد منهما ولا يعلمه الآخر، فلما سمع موسى هذا تشوقت نفسه الفاضلة، وهمته العالية، لتحصيل علم ما لم يعلم، وللقاء من قيل فيه : إنه أعلم منك؛ فعزم فسأل سؤال الذليل بكيف السبيل، فأمر بالارتحال على كل حال . وقيل له احمل معك حوتا مالحا فى مكتل — وهو الزنبيل — فحيث يحيا وتفقده فثم السبيل، فانطلق مع فتاه لما واتاه، مجتهدا طلبا قائلا : «لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين» . ﴿ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ بضم الحاء والقاف، وهو الدهر، والجمع أحقاب . وقد تسكن قافه فيقال : حقب . وهو ثمانون سنة . ويقال : أكثر من ذلك . والجمع حقاب . والحقبة بكسر الحاء واحدة الحقب وهى السنون .

---

(١) الزيادة من كتب التفسير .

الثانيـــة ــ فى هذا من الفقه رحلة العالم فى طلب الازدياد من العلم، والاستعانة على ذلك بالخادم والصاحب، واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن بعــدت أقطارهم، وذلك كان فى دأب السلف الصالح، وبسبب ذلك وصل المرتحلون إلى الحظ الراجح، وحصلوا على السعى الناجح، فرسخت لهم فى العلوم أقدام، وصح لهم من الذكر والأجر والفضـــل أفضل الأقسام. قال البخارى : ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس فى حديث.

الثالثـــة ــ قوله تعالى : « وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ » للعلماء فيه ثلاثة أقوال : أحدها ــ أنه كان معه يخدمه، والفتى فى كلام العرب الشاب، ولمــا كان الخدمة أكثر ما يكونون فتيانا قيل للخادم فتى على جهة حسن الأدب، وندبت الشريعة إلى ذلك فى قول النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يقل أحدكم عبــدى ولا أمتى وليقل فتاى وفتاتى " فهذا ندبٌ إلى التواضع؛ وقد تقدم هــذا فى « يوسف »[1]. والفتى فى الآية هو الخادم وهو يوشع بن نون بن إفرائيم ابن يوسف عليه السلام. ويقال : هو ابن أخت موسى عليه السلام. وقيل : إنمــا سمى فتى موسى لأنه لزمه ليتعلم منه وإن كان حرا؛ وهذا معنى الأوّل. وقيل : إنما سماه فتى لأنه قام مقام الفتى وهو العبد، قال الله تعالى : « وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ ٱجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ » وقال : « تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ » قال ابن العربى : فظاهر القرآن يقتضى أنه عبــد، وفى الحديث : أنه كان يوشع بن نون. وفى « التفسير » أنه ابن أخته، وهذا كله مما لا يُقطع به، والتوقف فيه أسلم.

الرابعـــة ــ قوله تعــالى : « أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا » قال عبد الله بن عمر : والحُقب ثمانون سنة. مجاهد : سبعون خريفا. قتادة : زمان. النحاس : الذى يعرفه أهل اللغة أن الحُقب والحقبة زمان من الدهر مبهــم غير محدود؛ كما أن رهطا وقوما مبهم غير محــدود : وجمعه أحقــاب.

---

(١) راجع جـ ٩ ص ١٩٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

قوله تعالى : فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ الضمير فى قوله : « بينهما » للبحرين ؛ قاله مجاهد . والسَّرَب المسلك ؛ قاله مجاهد . وقال قتادة : جَمَد الماء فصار كالسَّرَب . وجمهور المفسرين أن الحوت بقى موضع سلوكه فارغا ، وأن موسى مشى عليه متبعا للحوت ، حتى أفضى به الطريق إلى جزيرة فى البحر ، وفيها وجد الخضر . وظاهر الروايات والكتاب أنه إنما وجد الخضر فى ضفة البحر . وقوله : « نسيا حوتهما » وإنما كان النسيان من الفتى وحده فقيل : المعنى ؛ نسى أن يُعلم موسى بما رأى من حاله فنسب النسيان إليهما للصحبة ، كقوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » وإنما يخرج من الملح ، وقوله : « يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم » وإنما الرسل من الإنس لا من الجن . وفى البخارى ؛ فقال لفتاه : لا أكلفك إلا أن تخبرنى بحيث يفارقك الحوت ، قال : ما كلفتَ كثيرا ؛ فذلك قوله عز وجل : « وإذ قال موسى لفتاه » يوشع بن نون — ليست عن سعيد[1] — قال فبينا هو فى ظل صخرة فى مكان ثَرْيَانَ[2] إذ تضرَّب[3] الحوتُ وموسى نائم

(١) أى قال ابن جريج — هو أحد رواة الحديث — ليست تسمية الفتى عن سعيد بن جبير . (قسطلانى) .

(٢) ثريان : يقال مكان ثريان وأرض ثريا إذا كان فى ترابهما بلل وندى . (٣) تضرب : اضطرب وتحرك إذ حيى فى المكتل .

فقال فتاه : لا أوقظه ؛ حتى إذا آستيقظ نسى أن يخبره ، وتضرّب الحوتُ حتى دخل البحر ، فأمسك الله عنه جِرْيَةَ البحرِ حتى كان أثره فى حَجَر ؛ قال لى عمرو[1] : هكذا كان أثره فى حَجَر وحلّق بين إبهاميه واللتين تليانهما . وفى رواية : وأمسك الله عن الحوت جِرْيَة الماء فصار مثل الطاق[2] ، فلما آستيقظ نسى صاحبُه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه . « آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً » ولم يجد موسى النَّصَبَ حتى جاوز المكانَ الذى أمر الله به ، فقال له فتاه : « أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ » . وقيل : إن النسيان كان منهما لقوله تعالى : « نسيا » فنسب النسيان إليهما ؛ وذلك أن بدو حمل الحوت كان من موسى لأنه الذى أمر به ، فلما مضيا كان فتاه هو الحامل له حتى أويا إلى الصخرة نزلا ؛ ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ يعنى الحوت هناك منسيا ــ أى متروكا ــ فلما سأل موسى الغداء نسب الفتى النسيان إلى نفسه عند المخاطبة ، وإنما ذكر الله نسيانهما عند بلوغ مجمع البحرين وهو الصخرة ، فقد كان موسى شريكا فى النسيان ؛ لأن النسيان التأخير ؛ من ذلك قولهم فى الدعاء : أنسا الله فى أجلك . فلما مضيا من الصخرة أخرا حوتهما عن حمله فلم يحمله واحد منهما ، فجاز أن ينسب إليهما لأنهما مضيا وتركا الحوت .

قوله تعالى : ﴿ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ فيه مسئلة واحدة ، وهو آتخاذ الزاد فى الأسفار ، وهو ردٌّ على الصوفية الجهلة الأغمار[3] ، الذين يقتحمون المهامه والقفار ، زعما منهم أن ذلك هو التوكل على الله الواحد القهار ؛ هذا موسى نبى الله وكليمه من أهل الأرض قد آتخذ الزاد مع معرفته بربه ، وتوكله على رب العباد . وفى صحيح البخارى : إن ناسا من أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون ، ويقولون : نحن المتوكلون ، فإذا قدموا سألوا الناس ، فأنزل الله تعالى « وتزودوا » . وقد مضى هذا فى « البقرة »[4] . واختلف فى زاد موسى ما كان ؛ فقال ابن عباس : كان حوتا مملوحا فى زنبيل ، وكانا يصيبان منه غداء وعشاء ، فلما آنتهيا إلى

(١) أى قال ابن جريج قال لى عمرو ... الخ . (٢) الطاق : عقد البناء . (٣) الأغمار جمع غمر (بالضم) : وهو الجاهل الغر الذى لم يجرب الأمور . (٤) راجع جـ ٢ ص ٤١١ وما بعدها طبعة ثانية .

الصخرة على ساحل البحر وضع فتاه المكتل، فأصاب الحوت جرى البحر فتحرك الحوت في المكتل، فقلب المكتل وانسرب الحوت، ونسى الفتى أن يذكر قصة الحوت لموسى . وقيل : إنما كان الحوت دليلا على موضع الخضر لقوله في الحديث : احمل معك حوتا في مكتل فحيث فقدت الحوت فهو ثم، على هذا فيكون تزودا شيئا آخر غير الحوت، وهذا ذكره شيخنا الإمام أبو العباس واختاره . وقال ابن عطية : قال أبي رضي الله عنه، سمعت أبا الفضل الجوهري يقول في وعظه : مشى موسى إلى المناجاة فبقي أربعين يوما لم يحتج إلى طعام، ولما مشى إلى بشر لحقه الجوع في بعض يوم . وقوله : « نَصَباً » أي تعبا، والنصب التعب والمشقة . وقيل : عنى به هنا الجوع، وفي هذا دليل على جواز الإخبار بما يجده الإنسان من الألم والأمراض، وأن ذلك لا يقدح في الرضا، ولا في التسليم للقضاء لكن إذا لم يصدر ذلك عن ضجر ولا سخط . وفي قوله : « وَمَآ أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ » أن مع الفعل بتأويل المصدر، وهو منصوب بدل اشتمال من الضمير في «أنسانيه» وهو بدل الظاهر من المضمر، أي وما أنساني ذكره إلا الشيطان؛ وفي مصحف عبد الله «وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان». وهذا إنما ذكره يوشع في معرض الاعتذار لقول موسى: لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت؛ فقال: ما كلفت كثيرا؛ فاعتذر بذلك القول.

قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ يحتمل أن يكون من قول يوشع لموسى؛ أي اتخذ الحوت سبيله عجبا للناس . ويحتمل أن يكون قوله : « واتخذ سبيله في البحر» تمام الخبر، ثم استأنف التعجيب فقال من نفسه : « عجبا » لهذا الأمر . وموضع العجب أن يكون حوت قد مات فأكل شقه الأيسر ثم حيي بعد ذلك . قال أبو شجاع في كتاب «الطبري» : رأيته — أتيت به — فإذا هو شق حوت وعين واحدة، وشق آخر ليس فيه شيء. قال ابن عطية : وأنا رأيته والشق الذي ليس فيه شيء عليه قشرة رقيقة ليست تحتها شوكة . ويحتمل أن يكون قوله : « وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ » إخبارا من الله تعالى؛ وذلك على وجهين : إما أن يخبر عن موسى أنه اتخذ سبيل الحوت من البحر عجبا، أي تعجب منه . وإما أن يخبر

عن الحوت أنه اتخذ سبيله عجبا للناس . ومن غريب ما روى فى البخارى عن ابن عباس من قصص هذه الآية : أن الحوت إنما حيى لأنه مسه ماء عين هناك تدعى عين الحياة، ما مست قط شيئا إلا حيى . وفى « التفسير » : إن العلامة كانت أن يحيا الحوت؛ فقيل : لما نزل موسى بعد ما أجهده السفر على صخرة إلى جنبها ماء الحياة أصاب الحوت شىء من ذلك الماء فحيى . وقال الترمذى فى حديثه قال سفيان : يزعم ناس أن تلك الصخرة عندها عين الحياة، ولا يصيب ماؤها شيئا إلا عاش . قال : وكان الحوت قد أكل منه فلما قطر عليه الماء عاش . وذكر صاحب كتاب « العروس » أن موسى عليه السلام توضأ من عين الحياة فقطرت من لحيته على الحوت قطرة فحيى؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ(1) ﴾ أى قال موسى لفتاه أمرُ الحوت وفقدُه هو الذى كنا نطلب، فإن الرجل الذى جئنا له ثَمّ؛ فرجعا يقصّان آثارهما لئلا يخطئا طريقهما . وفى البخارى : فوجدا خضرا على طنفسة خضراء على كبد البحر مسجى بثوبه، قد جعل طرفه تحت رجليه، وطرفه تحت رأسه، فسلّم عليه موسى، فكشف عن وجهه وقال : هل بأرضك من سلام؟! من أنت؟ قال : أنا موسى . قال : موسى بنى إسرائيل؟ قال : نعم . قال : فما شأنك ؟ قال جئتُ لتعلّمنى مما علّمت رشدا؛ الحديث . وقال الثعلبى فى كتاب «العرائس» : إن موسى وفتاه وجدا الخضر وهو نائم على طنفسة خضراء على وجه الماء وهو متّشح بثوب أخضر فسلّم عليه موسى، فكشف عن وجهه فقال : وأنّى بأرضنا السلام؟ ! ثم رفع رأسه واستوى جالسا وقال : وعليك السلام يا نبىّ بنى إسرائيل، فقال له موسى : وما أدراك بى ؟ ومن أخبرك أنى نبىّ بنى إسرائيل ؟ قال : الذى أدراك بى ودلّك علىّ(2)؛ ثم قال : ياموسى لقد كان لك فى بنى إسرائيل شغل، قال موسى : إن ربى أرسلنى إليك لأتبعك وأتعلم من علمك ، ثم جلسا يتحدّثان، فجاءت خُطّافة وحملت بمنقارها من الماء؛ وذكر الحديث على ما يأتى .

---

(1) فى الأصل : « نبغى » بالياء وهى قراءة «نافع» . (2) الذى فى كتاب « العرائس » للثعلبى : «فقال أنا موسى، فقال : موسى بنى إسرائيل؟ قال نعم؛ قال : ياموسى لقد كان لك فى بنى إسرائيل شغل ... الخ» ولعل ما هنا زيادة فى بعض النسخ .

قوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ العبد هو الخضر عليه السلام فى قول الج . وبمقتضى الأحاديث الثابتة . وخالف من لا يعتد بقوله ، فقال : ليس صاحب موسى ... بل هو عالم آخر . وحكى أيضا هذا القول القشيري ، قال : وقال قوم هو عبد صالح ، والصحيح أنه كان الخضر ؛ بذلك ورد الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقال مجاهد : سمى الخضر لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله . وروى الترمذي عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما سُمِّى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هى تهتز تحته خضراء " هذا حديث صحيح غريب . الفروة هنا وجه الأرض ؛ قاله الخطابى وغيره . والخضر نبي عند الجمهور . وقيل : هو عبد صالح غير نبي ، والآية تشهد بنبوته ؛ لأن بواطن أفعاله لا تكون إلا بوحى . وأيضا فإن الإنسان لا يتعلم ولا يتَّبع إلا من فوقه ، وليس يجوز أن يكون فوق النبي من ليس بنبي . وقيل : كان مَلَكا أمر الله موسى أن يأخذ عنه مما حمله من علم الباطن . والأول الصحيح ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ الرحمة فى هذه الآية النبوة . وقيل : النعمة . ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ أى علم الغيب . ابن عطية : كان علم الخضر علم معرفة بواطنَ قد أوحيت إليه ، لا تُعطى ظواهرُ الأحكام أفعالَه بحسبها ؛ وكان علم موسى علم الأحكام والفتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم .

قوله تعالى : قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : « قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ » هذا سؤال الملاطف، والمخاطب المستنزل المبالغ فى حسن الأدب، المعنى : هل يتفق لك و يخف عليك؟ وهذا كما فى الحديث : هل تستطيع أن ترينى كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ ؟ وعلى بعض التأويلات يجيء كذلك قوله تعالى : « هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ » حسب ما تقدم بيانه فى « المائدة »[1] .

الثانيــة — فى هذه الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم و إن تفاوتت المراتب، ولا يظن أن فى تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل منــه ، فقد يشذ عن الفاضل ما يعلمه المفضول، والفضل لمن فضّله الله ؛ فالخضر إن كان وليا فموسى أفضل منه، لأنه نبيّ والنبي أفضل من الولىّ ، و إن كان نبيا فموسى فضله بالرسالة . والله أعلم . « ورشــدا » مفعول ثان بـ«علمنى» . ﴿قال﴾ الخضر : ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ أى إنك يا موسى لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمى؛ لأن الظواهر التى هى علمك لا تعطيه ، وكيف تصبر على ما تراه خطأ ولم تُخبَر بوجه الحكمة فيه ، ولا طريق الصواب؛ وهو معنى قوله : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ والأنبياء لا يُقِرّون على منكر، ولا يجوز لهم التقرير . أى لا يسعك السكوت جريا على عادتك وحكمك . وانتصب « خُبْرًا » على التمييز المنقول عن الفاعل . وقيل : على المصدر الملاقى فى المعنى، لأن قوله : « لَمْ تُحِطْ » معناه لم تَخبُره، فكأنه قال : لم تخبره خُبرا؛ و إليه أشار مجاهد . والخبير بالأمور هو العالم بخفاياها و بمـا يختبر منها .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا ﴾ أى سأصبر بمشيئة الله . ﴿ وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ أى قد ألزمت نفسى طاعتك . وقد اختلف فى الاستثناء، هل هو يشمل قوله : «وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا» أم لا؟ فقيل : يشمله كقوله : « والذاكرين الله كثيرا والذاكرات » . وقيــل : استثنى فى الصبر فصبر، وما استثنى فى قوله : « وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا » فاعترض

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٦٥ طبعة أولى أو ثانية .

وسأل . قال علماؤنا : إنما كان ذلك منه ؛ لأن الصبر أمر مستقبل ولا يدرى كيف يكون حاله فيه ، ونفي المعصية معزوم عليه حاصل في الحال ، فالاستثناء فيه ينافي العزم عليه . ويمكن أن يفرق بينهما بأن الصبر ليس مكتسبا لنا بخلاف فعل المعصية وتركه ، فإن ذلك كله مكتسب لنا ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ اى حتى أكون أنا الذى أفسره لك ، وهذا من الخضر تأديب وإرشاد لما يقتضى دوام الصحبة ، فلو صبر ودأب لرأى العجب ، لكنه أكثر من الاعتراض ، فتعين الفراق والإعراض .

قوله تعالى : فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — فى صحيح مسلم والبخارى : فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ، فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول ، فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ [موسى][1] إلا والخضر قد قلع منها لوحا من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى : قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها « لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا . قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا » . قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وكانت الأولى من موسى نسيانا " قال : وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر نقرة فى البحر ، فقال له الخضر : ما علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر . قال علماؤنا : حرف السفينة طرفها وحرف كل شىء طرفه ، [ومنه حرف الجبل][2] وهو أعلاه المحدد . والعلم هنا بمعنى المعلوم ، كما قال :

(١) الزيادة من البخارى . (٢) الزيادة من كتب اللغة .

« وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ » أى من معلوماته ، وهذا من الخضر تمثيل ؛ أى معلوماتى ومعلوماتك لا أثر لها فى علم الله ، كما أن ما أخذ هذا العصفور من هذا البحر لا أثر له بالنسبة إلى ماء البحر ، وإنما مثّل له ذلك بالبحر لأنه أكثر ما يشاهده مما بين أيدينا ، وإطلاق لفظ النقص هنا تجوّز قصد به التمثيل والتفهيم ، إذ لا نقص فى علم الله ، ولا نهاية لمعلوماته . وقد أوضح هذا المعنى البخارى فقال : والله ما علمى وما علمك فى جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطير بمنقاره من البحر . وفى « التفسير » عن أبى العالية : لم ير الخضر حين خرق السفينة غيرُ موسى وكان عبدا لا تراه إلا عين من أراد الله له أن يريه ، ولو رآه القوم لمنعوه من خرق السفينة . وقيل : خرج أهل السفينة إلى جزيرة ، وتخلف الخضر فخرق السفينة . وقال ابن عباس : لما خرق الخضر السفينة تنحى موسى ناحية ، وقال فى نفسه : ما كنت أصنع بمصاحبة هذا الرجل ! كنت فى بنى إسرائيل أتلو كتاب الله عليهم غدوة وعشيّة فيطيعونى ! قال له الخضر : يا موسى أتريد أن أخبرك بما حدّثتَ به نفسك ؟ قال : نعم . قال : كذا وكذا . قال : صدقت ؛ ذكره الثعلبى فى كتاب « العرائس » .

الثانيـــة — فى خرق السفينة دليل على أن للولىّ أن ينقص مال اليتيم إذا رآه صلاحا، مثل أن يخاف على رَيْعه ظالما فيخرب بعضه . وقال أبو يوسف : يجوز للولىّ أن يصانع السلطان ببعض مال اليتيم عن البعض . وقرأ حمزة والكسائى « لِيَغْرَقَ » بالياء « أَهْلُهَا » بالرفع فاعل يغرق ، فاللام على قراءة الجماعة فى « لِتُغرِق » لام المآل مثل « لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا » . وعلى قراءة حمزة لام كى ، ولم يقل لتغرقنى ؛ لأن الذى غلب عليه فى الحال فرط الشفقة عليهم ، ومراعاة حقهم . و « إِمْرًا » معناه عجبا ؛ قاله القتبىّ . وقيل : منكرا ؛ قاله مجاهد . وقال أبو عبيدة : الإمر الداهية العظيمة ، وأنشد :

قد لَقِيَ الأقرانُ مِنّى نُكْرَا * داهيــةً دَهْيَاءَ إدًّا إمْرَا

وقال الأخفش : يقال أَمِرَ أَمْرُهُ يَأْمَرُ [أَمْرًا][1] إذا اشتدّ ، والاسم الإِمْر .

---

(١) الزيادة من كتب اللغة .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ ﴾ فى معناه قولان : أحدهما — يروى عن ابن عباس، قال : هـذا من معاريض الكلام . والآخر — أنه نسى فاعتذر؛ ففيه ما يدل على أن النسيان لا يقتضى المؤاخذة ، وأنه لا يدخل تحت التكليف، ولا يتعلق به حكم طلاق ولا غيره؛ وقد تقدم . ولو نسى فى الثانية لاعتذر .

قوله تعالى : فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ﴾ فى البخارى قال يعلى قال سعيد : وجد غلمانا يلعبون فأخذ غلاما كافرا فأضجعه ثم ذبحه بالسكين، « قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ » لم تعمل بالحنث[1] . وفى الصحيحين وصحيح الترمذى : ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله ، قال له موسى : «أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا . قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا » قال[2] : وهذه أشد من الأولى . « قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا » . لفظ البخارى . وفى « التفسير » : إن الخضر مر بغلمان يلعبون فأخذ بيده غلاما ليس فيهم أضوأ منه ، وأخذ حجرا فضرب به رأسه حتى دمغه، فقتله . قال أبو العالية : لم يره إلا موسى ، ولو رأوه لحالوا بينه وبين الغلام .

---

(١) لأنها لم تبلغ الحلم ، وهو تفسير لقوله : « زكية » أى أقتلت نفسا زكية لم تعمل الحنث بغير نفس . ولأبى ذر : لم تعمل الحنث (بخاء معجمة وموحدة مفتوحتين) . قسطلانى . (٢) هو سفيان بن عيينة كما فى القسطلانى . وقيل : كانت هذه أشد من الأولى لما فيها من زيادة « لك » .

قلت : ولا ٱختلاف بين هذه الأحوال الثلاثة ، فإنه يحتمل أن يكون دَمَغه أوّلا بالحجر، ثم أضجعه فذبحه، ثم ٱقتلع رأسه؛ والله أعلم بمـا كان من ذلك؛ وحسبك بما جاء في الصحيح . وقرأ الجمهور « زَاكِيَةً » بالألف . وقرأ الكوفيون وٱبن عامر « زَكِيَّةً » بغير ألف وتشديد اليـاء ؛ قيل : المعنى واحد؛ قاله الكسائي . وقال ثعلب : الزكية أبلغ . قال أبو عمرو : الزاكية التي لم تذنب قط، والزكية التي أذنبت ثم تابت .

قوله تعالى : « غلاما » ٱختلف العلماء في الغلام هل كان بالغا أم لا ؟ فقال الكلبي : كان بالغا يقطع الطريق بين قريتين، وأبوه من عظماء أهل إحدى القريتين، وأمه من عظماء القرية الأخرى، فأخذه الخضر فصرعه، ونزع رأسه عن جسده . قال الكلبي : وٱسم الغلام شمعون . وقال الضحاك : حيسون . وقال وهب : ٱسم أبيه سلاس وٱسم أمه رُحْمَى . وحكى السهيلي أن اسم أبيه كازير وٱسم أمه سهوى . وقال الجمهور : لم يكن بالغا؛ ولذلك قال موسى زاكية لم تذنب . وهو الذي يقتضيه لفظ الغلام؛ فإن الغلام في الرجال يقال على من لم يبلغ، وتقابله الجارية في النساء . وكان الخضر قتله لمـا علم من سِرّه ، وأنه طُبع كافرا كما في صحيح الحديث، وأنه لو أدرك لأرهق أبويه كفرا . وقتلُ الصغير غير مستحيل إذا أذن الله في ذلك؛ فإن الله تعالى الفعّال لمـا يريد، القادر على مايشاء . وفي كتاب « العرائس » إن موسى لمـا قال للخضر : « أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً » — الآية — غضب الخضر وٱقتلع كتف الصبي الأيسر، وقشر اللحم عنـه، وإذا في عظم كتفه مكتوب : كافر لا يؤمن بالله أبدا . وقد ٱحتج أهـل القول الأوّل بأن العرب تبقي على الشاب ٱسم الغلام، ومنه قول ليلى الأَخْيَلِيَّة [1] :

شَفَاهَا من الدَّاءِ العُضَالِ الذي بها * غُـلام إذا هَزَّ القَنَـاةَ سَـقَاهَا

وقال صفوان لحسّان [2] :

تَلَقَّ ذُبَابَ السَّـيفِ عَـنِّي فإنَّني * غُلامٌ إذا هُوجِيتُ لَسْتُ بشاعِرِ

---

(١) البيت من قصيدة مدحت بها الحجاج بن يوسف؛ وقبله :

إذا نزل الحجاج أرضا مريضة * تتبـع أقصى دائهـا فشفاها

(٢) قد كان حسان رضي الله عنه قال شعرا يعرض فيه بصفوان بن المعطل وبمن أسلم من العرب من مضر؛ فاعترضه ٱبن المعطل وضربه بالسيف وقال البيت . (راجع القصة في سيرة ابن هشام) .

وفى الخبر : إن هـذا الغلام كان يفسد فى الأرض ، ويقسم لأبويه أنه ما فعل ، فيقسمان على قسمه ، ويحميانه ممن يطلبه ، قالوا وقوله : « بِغَيْرِ نَفْسٍ » يقتضى أنه لو كان عن قتل نفس لم يكن به بأس ، وهذا يدل على كبر الغلام ، وإلا فلو كان لم يحتلم لم يجب قتله بنفس ، وإنما جاز قتله لأنه كان بالغا عاصيا . قال ابن عباس : كان شابا يقطع الطريق . وذهب ٱبن جبير إلى أنه بلغ سنّ التكليف لقراءة أبيّ وٱبن عباس « وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين » والكفر والإيمان من صفات المكلّفين ، ولا يطلق على غير مكلّف إلا بحكم التبعية لأبويه ، وأبوا الغلام كانا مؤمنين بالنص فلا يصدق عليه ٱسم الكافر إلا بالبلوغ ، فتعين أن يصار إليه . والغلام من الاغتلام وهو شدة الشَّبَق .

قوله تعالى : ﴿ نُكْرًا ﴾ ٱختلف الناس أيهما أبلغ « إمرا » أو قوله « نكرا » فقالت فرقة : هذا قَتْلٌ بيّن ، وهناك مُترقَّب ؛ ف « نكرا » أبلغ . وقالت فرقة : هذا قَتْلُ واحد وذاك قتلُ جماعة ف « إمرا » أبلغ . قال ٱبن عطية : وعندى أنهما لمعنيين وقوله : « إِمْرًا » أفظع وأهول من حيث هو متوقع عظيم ، و « نُكْرًا » بيّن فى الفساد لأن مكروهه قد وقع ؛ وهذا بيّن . قوله : ﴿ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ﴾ شرط وهو لازم ، والمسلمون عند شروطهم ، وأحقّ الشروط أن يُوفّى به ما ٱلتزمه الأنبياء ، والتزم للأنبياء . وقوله : ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ يدل على قيام الاعتـذار بالمرة الواحدة مطلقا ، وقيام الحجـة من المرة الثانية بالقطع ؛ قاله ٱبن العربي . ٱبن عطية : ويشـبه أن تكون هـذه القصة أيضا أصلا للآجال فى الأحكام التى هى ثلاثة ، وأيام المتلوم ثلاثة ؛ فتأمله .

قوله تعالى : « فَلَا تُصَاحِبْنِي » كذا قرأ الجمهور ؛ أى تتابعنى . وقرأ الأعرج « تَصْحَبَنِّي » بفتح التاء والباء وتشديد النون . وقرئ « تَصْحَبْنِي » أى تتبعنى . وقرأ يعقوب « تُصْحِبْنِي » بضم التاء وكسر الحاء ؛ ورواها سهل عن أبى عمرو ؛ قال الكسائى : معناه فلا تتركنى أصحبك . « قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا » أى بلغت مبلغا تُعـذر به فى ترك مصاحبتى . وقرأ الجمهور : « مِن لَدُنِّي » بضم الدال ، إلا أن نافعا وعاصما خفّفا النون ، فهى « لدن » ٱتصلت بها ياء

المتكلم التي في غلامي وفرسي ، وكسر ما قبل الياء كما كسر في هذه . وقرأ أبو بكر عن عاصم « لَدْنِي » بفتح اللام وسكون الدال وتخفيف النون . وروى عن عاصم « لُدْنِي » بضم اللام وسكون الدال ؛ قال ابن مجاهد : وهي غلط ؛ قال أبو علي : هذا التغليط يشبه أن يكون من جهة الرواية : فأما على قياس العربية فهي صحيحة . وقرأ الجمهور « عُذْراً » . وقرأ عيسى « عُذُرا » بضم الذال . وحكى الداني(١) أن أُبيًّا روى عن النبي صلى الله عليه وسلم « عُذْرِي » بكسر الراء وياء بعدها .

مسـألة ـ أسند الطبري قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعا لأحد بدأ بنفسه ، فقال يوما : " رحمة الله علينا وعلى موسى لو صبر على صاحبه لرأى العجب ولكنه قال « فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً » " . والذي في صحيح مسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رحمة الله علينا وعلى موسى لولا أنه عجّل لرأى العجب ولكنه أخذته من صاحبه ذَمامة ولو صبر لرأى العجب " قال : وكان إذا ذكر أحدا من الأنبياء بدأ بنفسه : رحمة الله علينا وعلى أخي كذا . وفي البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يرحم الله موسى لوددنا أنه صبر حتى يقص علينا من أمرهما " . الذَّمامة بالذال المعجمة المفتوحة ، وهو بمعنى المَذَمّة بفتح الذال وكسرها ، وهي الرقة والعار من تلك الحرمة : يقال أخذتني منك مَذَمّة ومَذِمّة وذَمامة . وكأنه استحيا من تكرار مخالفته ، ومما صدر عنه من تغليظ الإنكار .

قوله تعالى : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) ﴾

---

(١) في بعض النسخ : « وحكى الداراني » .

فيه ثلاث عشرة مسئلة

الأولى — قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ في صحيح مسلم عن أبيّ بن كعب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : لئاما ؛ فطافا في المجالس ف ﴿ ٱسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ يقول : مائل قال : ﴿ فَأَقَامَهُ ﴾ الخضر بيده قال له موسى : قوم أتيناهم فلم يضيفونا، ولم يطعمونا ﴿ لَوْ شِئْتَ لَٱتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا . قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يرحم الله موسى لوددتُ أنه كان صبَر حتى يقصّ علينا من أخبارهما" .

الثانيــة — واختلف العلماء في القرية ؛ فقيل : هي أُبُلَّة ؛ قاله قتادة، وكذلك قال محمد ابن سيرين، وهي أبخل قرية وأبعدها من السماء . وقيل : أنطاكية . وقيل : بجزيرة الأندلس ؛ روى ذلك عن أبي هريرة وغيره ، ويذكر أنها الجزيرة الخضراء . وقالت فرقة : هي بَاجَرْوان وهي بناحية أذربيجان . وحكى السهيليّ وقال : إنها برقة . الثعلبي : هي قرية من قرى الروم يقال لها ناصرة ، وإليها تنسب النصارى ؛ وهذا كله بحسب الخلاف في أي ناحية من الأرض كانت قصة موسى . والله أعلم بحقيقة ذلك .

الثالثــة — كان موسى عليه السلام حين سقى لبنتي شعيب أحوج منه حين أتى القرية مع الخضر، ولم يسأل قوتا بل سقى ابتداء ، وفي القرية سألا القوت ؛ وفي ذلك للعلماء انفصالات كثيرة ؛ منها أن موسى كان في حديث مَدْين منفردا وفي قصة الخضر تبعا لغيره .

قلت : وعلى هذا المعنى يتمشى قوله في أوّل الآية لفتاه « آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا » فأصابه الجوع مراعاة لصاحبه يوشع ؛ والله أعلم .

وقيل : لما كان هذا سفر تأديب وُكِل إلى تكلّف المشقة ، وكان ذلك سفر هجرة فوكل إلى العون والنصرة بالقوت .

الرابعــة — في هذه الآية دليل على سؤال القوت ، وأن من جاع وجب عليه أن يطلب ما يرد جوعه خلافا لجهال المتصوفة . والاستطعام سؤال الطعام ، والمراد به هنا سؤال الضيافة ،

بدليل قوله : « فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا » فاستحق أهل القرية لذلك أن يُذَمّوا ، وينسبوا إلى اللؤم والبخل، كما وصفهم بذلك نبينا عليه الصلاة والسلام . قال قتادة فى هذه الآية : شر القُرى التى لا تضيف الضيف ولا تعرف لابن السبيل حقه . ويظهر من ذلك أن الضيافة كانت عليهم واجبة ، وأن الخضر وموسى إنما سألا ما وجب لهما من الضيافة ، وهذا هو الأليق بحال الأنبياء، ومنصب الفضلاء والأولياء . وقد تقدّم القول فى الضيافة فى «هود»[1] والحمد لله . ويعفو الله عن الحريري[2] حيث استخف فى هذه الآية وتمجّن ، وأتى بخطل من القول وزلّ ؛ فاستدل بها على الكُدْيَة[3] والإلحاح فيها ، وأن ذلك ليس بمعيب على فاعله، ولا منقصة عليه؛ فقال :

وإنْ رُدِدْتَ فما فى الردّ مَنقصةٌ ‏ ‏ عليكَ قد رُدَّ موسى قبلُ والخَضِرُ

قلت : وهذا لعب بالدين، وانسلال عن احترام النبيين، وهى شِنْشِنَة أدبية، وهفوة سخافية؛ ويرحم الله السلف الصالح، فلقد بالغوا فى وصية كل ذى عقل راجح، فقالوا : مهما كنت لاعبا بشىء فإياك أن تلعب بدينك .

الخامسة — قوله تعالى : « جِدَارًا » الجدار والجَدْر بمعنًى؛ وفى الخبر : "حتى يبلغ الماء الجدر"[4] . ومكان جَدِيرٌ بُنى حواليه جدار ، وأصله الرفع . وأجدرت الشجرةُ طلعت؛ ومنه الجادِى .

السادسة — قوله تعالى : « يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ » أى قرب أن يسقط، وهذا مجاز وتوسع وقد فسره فى الحديث بقوله : "مائل" فكان فيه دليل على وجود المجاز فى القرآن، وهو مذهب الجمهور . وجميع الأفعال التى حقها أن تكون للحى الناطق متى أسندت إلى جماد أو بهيمة فإنما هى استعارة، أى لو كان مكانهما إنسان لكان ممتثلا لذلك الفعل، وهذا فى كلام العرب وأشعارها كثير؛ فمن ذلك قول الأعشى :

---

(1) راجع ج ٩ ص ٦٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(2) هو صاحب المقامات المشهورة، والبيت الآتى الذى لمح فيه إلى الآية من مقامته « الصَّنْعانية » .

(3) الكدية : تكفف الناس .

(4) الحديث فى مخاصمة الزبير لرجل من الأنصار فى سيول شريج الحرة فقال صلى الله عليه وسلم : "اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر" أراد ما رفع حول المزرعة كالجدار .

أتنتهون ولا ينهى ذوى شطط (١) * كالطعن يذهب فيه الزيت والفتل

فأضاف النهى إلى الطعن . ومن ذلك قول الآخر :

يريد الرمح صدر أبى براء * ويرغب عن دماء بنى عقيل

وقال آخر :

إن دهرا يلف شملى بجمل * لزمان يهم بالإحسان

وقال آخر :

فى مهمه فلقت به هاماتها * فلق الفئوس إذا أردن نصولا

أى ثبوتا فى الأرض ؛ من قولهم : نصل السيف إذا ثبت فى الرمية ؛ فشبه وقع السيوف على رءوسهم بوقع الفئوس فى الأرض، فإن الفأس يقع فيها ويثبت لا يكاد يخرج . وقال حسان بن ثابت :

لو أن اللؤم ينسب كان عبدا * قبيح الوجه أعور من ثقيف

وقال عنترة :

فازور من وقع القنا بلبانه * وشكا إلى بعبرة وتحمحم

وقد فسر (٢) هذا المعنى بقوله :

* لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى *

وهذا فى هذا المعنى كثير جدا . ومنه قول الناس : إن دارى تنظر إلى دار فلان . وفى الحديث : "اشتكت النار إلى ربها" . وذهب قوم إلى منع المجاز فى القرآن ، منهم أبو إسحق الإسفراينى وأبو بكر محمد بن داود الأصبهانى وغيرهما ؛ فإن كلام الله عز وجل وكلام رسوله حمله على الحقيقة أولى بذى الفضل والدين ؛ لأنه يقص الحق كما أخبر الله تعالى فى كتابه . ومما احتجوا به أن قالوا : لو خاطبنا الله تعالى بالمجاز لزم وصفه بأنه متجوز

(١) الشطط : الجور والظلم ؛ يقول : لا ينهى الظالم عن ظلمه إلا الطعن الجائف الذى يغيب فيه الفتل

(٢) أى عنترة ؛ وتمام البيت :

* ولكان لو علم الكلام مكلمى *

أيضا ، فإن العدول عن الحقيقة إلى المجاز يقتضى العجز عن الحقيقة ، وهو على الله تعالى محال ؛ قال الله تعالى : « يَوْمَ تَشْهَدُ عليهم أَلْسِنَتُهُمْ وأَيْدِيهِمْ وأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ». وقال تعالى : « وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ » وقال تعالى : « إِذا رَأَتْهُم مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا » وقال تعالى : « تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى » و "اشتكت النار إلى ربها" "واحتجت النار والجنة" وما كان مثلها حقيقة ، وأن خالقها الذى أنطق كل شىء أنطقها . وفى صحيح مسلم من حديث أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم " فيُختَم على فِيه ويقال لفخذه أنطق فتنطق فخذُه ولحمه وعظامه بعمله وذلك لِيُعذِر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذى يَسخط الله عليه"(1). هذا فى الآخرة . وأما فى الدنيا ، ففى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذى نفسى بيده لاتقومُ الساعةُ حتى تكلم السباع الإنسَ وحتى تُكلِّمَ الرجلَ عَذَبَةُ سَوْطِهِ وشراكُ نعله وتُخبره فخذُه بما أَحدثَ أهلهُ من بعده " [قال أبو عيسى](2) : وفى الباب عن أبى هريرة ، وهذا حديث حسن غريب .

السابعة — قوله تعالى : « فَأَقَامَهُ » قيل : هدمه ثم قعد يبنيه ، فقال موسى للخضر : « لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا » لأنه فعلٌ يستحق أجرا . وذكر أبو بكر الأنبارى عن ابن عباس عن أبى بكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قرأ « فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فهدمه ثم قعد يبنيه » قال أبو بكر : وهذا الحديث إن صح سنده فهو جارٍ من الرسول عليه الصلاة والسلام مجرى التفسير للقرآن ، وأن بعض الناقلين أدخل [تفسير](3) قرآن فى موضع فسرى أن ذلك قرآن نقص من مصحف عثمان ؛ على ما قاله بعض الطاعنين . وقال سعيد بن جبير : مسحه بيده وأقامه فقام ، وهذا القول هو الصحيح ، وهو الأشبه بأفعال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، بل والأولياء . وفى بعض الأخبار : إن سُمْكَ ذلك الحائط كان ثلاثين ذراعا بذراع ذلك القرن ، وطوله على وجه الأرض خمسمائة ذراع ، وعرضه خمسون ذراعا ، فأقامه الخضر

---

(1) يعذر : بالبناء للفاعل من الإعذار ، والمعنى : ليزيل الله عذره من قبل نفسه .

(2) الزيادة من صحيح الترمذى . (3) زيادة يقتضيها السياق . وفى الأصل : « أدخل قرآنا ... الخ » .

عليه السلام أى سوّاه بيده فاستقام؛ قاله الثعلبي فى كتاب « العرائس » . فقال موسى للخضر « لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا » أى طعاما تأكله ؛ ففى هذا دليل على كرامات الأولياء ، وكذلك ما وصف من أحوال الخضر عليه السلام فى هذا الباب كلها أمور خارقة للعادة ، هذا إذا تنزلنا على أنه ولىّ لا نبىّ .

وقوله تعالى: «وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى» يدل على نبوّته وأنه يوحى إليه بالتكليف والأحكام، كما أوحى للأنبياء عليهم الصلاة والسلام غير أنه ليس برسول؛ والله أعلم .

الثامنــة — واجب على الإنسان ألا يتعرض للجلوس تحت جدار مائل يخاف سقوطه، بل يسرع فى المشى إذا كان مارا عليه؛ لأن فى حديث النبى عليه الصلاة والسلام " إذا مرّ أحدكم بطربال مائل فليسرع المشى " . قال أبو عبيد القاسم بن سلام: كان أبو عبيدة يقول: الطِّربال شبيه بالمنظرة من مناظر العجم كهيئة الصّومعة، والبناء المرتفع؛ قال جرير :

أَلْوَى(1) بِهَا شَذْبُ العُرُوقِ(2) مُشَذَّبٌ * فَكَأَنَّمَا وَكَنَتْ عَلَى طِرْبَالِ

يقال منه : وكَن يكِن إذا جلس . وفى الصحاح : الطِّربال القطعة العالية من الجدار ، والصخرة العظيمة المشرفة من الجبل، وطَرَابيل الشام صوامعها . ويقال : طَرْبل بوْلَه إذا مدّه إلى فوق .

التاسعــة — كرامات الأولياء ثابتة، على مادلت عليه الأخبار الثابتة، والآيات المتواترة، ولا ينكرها إلا المبتدع الجاحد، أو الفاسق الحائد؛ فالآيات ما أخبر الله تعالى فى حق مريم من ظهور الفواكه الشتوية فى الصيف، والصيفية فى الشتاء — على ما تقدم — وما ظهر على يدها حيث أمرت النخلة وكانت يابسة فأثمرت، وهى ليست بنبيّة؛ على الخلاف . ويدل عليها ما ظهر على يد الخضر عليه السلام من خرق السفينة ، وقتل الغلام، وإقامة الجدار . قال بعض العلماء : ولا يجوز أن يقال كان نبيا ؛ لأن إثبات النبوة لا يجوز بأخبار

---

(1) ألوى : ذهب بها حيث أراد .

(2) شذب العروق : ظاهر العروق لقلة اللحم ؛ من قولهم : رجل مشذب أى خفيف قليل اللحم .

الآحاد، لاسيما وقد روى من طريق التواتر ــ من غير أن يحتمل تأويلا ــ بإجماع الأمة قوله عليه الصلاة والسلام: "لا نبيّ بعدى" وقال تعالى: «وخاتم النبيين» والخضر و[إلياس] (١) جميعا باقيان مع هذه الكرامة، فوجب أن يكونا غير نبيين، لأنهما لو كانا نبيين لوجب أن يكون بعد نبينا عليه الصلاة والسلام نبيّ، إلا ما قامت الدلالة فى حديث عيسى أنه ينزل بعده.

قلت : الخضر كان نبيا ــ على ما تقدم ــ وليس بعد نبينا عليه الصلاة والسلام نبيّ، أى يدعى النبوة بعده أبدا؛ والله أعلم .

العاشرة ــ اختلف الناس هل يجوز أن يعلم الولىّ أنه ولىّ أم لا؟ على قولين: أحدهما ــ أنه لا يجوز؛ وأن ما يظهر على يديه يجب أن يلاحظه بعين خوف المكر، لأنه لا يأمن أن يكون مكرا واستدراجا له؛ وقد حكى عن السَّرِىّ أنه كان يقول : لو أن رجلا دخل بستانا فكلمه من رأس كل شجرة طير بلسان فصيح : السلام عليك يا ولىّ الله؛ فلو لم يخف أن يكون ذلك مكرا لكان ممكورا به؛ ولأنه لو علم أنه ولىّ لزال عنه الخوف، وحصل له الأمن . ومن شرط الولىّ أن يستديم الخوف إلى أن تتنزل عليه الملائكة، كما قال عز وجل: «تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا » ولأن الولىّ من كان مختوما له بالسعادة، والعواقب مستورة ولا يدرى أحد ما يختم له به؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : " إنما الأعمال بالخواتيم ".
القول الثانى ــ أنه يجوز للولىّ أن يعلم أنه ولىّ؛ ألا ترى أن النبى عليه الصلاة والسلام يجوز أن يعلم أنه ولىّ، ولا خلاف أنه يجوز لغيره أن يعلم أنه ولىّ الله تعالى، فجاز له أن يعلم ذلك.
وقد أخبر النبى عليه الصلاة والسلام من حال العَشرة من أصحابه أنهم من أهل الجنة، ثم لم يكن فى ذلك زوال خوفهم، بل كانوا أكثر تعظيما لله سبحانه وتعالى، وأشد خوفا وهيبة؛ فإذا جاز للعشرة ذلك ولم يخرجهم عن الخوف فكذلك غيرهم . وكان الشبلىّ يقول : أنا أَمَانُ هذا الجانب؛ فلما مات ودُفن عبر الديلم دجلة ذلك اليوم، واستولوا على بغداد، و يقول الناس : مصيبتان موت الشبلىّ وعبور الديلم . ولا يقال : إنه يحتمل أن يكون ذلك استدراجا لأنه

(١) فى الأصل: «دانيال» وهو تحريف .

لو جاز ذلك لجاز ألا يعرف النبي أنه نبيّ وولي الله، لجواز أن يكون ذلك آستدراجا، فلما لم يجز ذلك لان فيه إبطال المعجزات لم يجز هذا، لأن فيه إبطال الكرامات . وما روى من ظهور الكرامات على يدى بلعام وآنسلاخه عن الدين بعدها لقوله : «فانسلخ منها» فليس في الاية أنه كان وليا ثم آنسلخت عنه الولاية . وما نقل أنه ظهر على يديه ما يجرى مجرى الكرامات هو أخبار آحاد لا توجب العلم ؛ والله أعلم . والفرق بين المعجزة والكرامة أن الكرامة من شرطها الأستتار، والمعجزة من شرطها الإظهار. وقيل : الكرامة ما تظهر من غير دعوى ، والمعجزة ما تظهر عند دعوى الأنبياء، فيطالبون بالبرهان فيظهر أثر ذلك. وقد تقدم في مقدمة الكتاب شرائط المعجزة ، والحمد لله تعالى وحده لا شريك له . وأما الأحاديث الواردة في الدلالة على ثبوت الكرامات ، فمن ذلك ما خرجه البخارى من حديث أبي هريرة قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة رهط سريةً عينًا (١) وأمّر عليهم عاصمَ بن ثابت الأنصاريّ (٢) وهو جدّ عاصم بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهدأة وهي بين عُسفان ومكة ذُكروا لحيٍّ من هُذَيل يقال لهم بنو لحيان، فنفروا إليهم قريبا من مائتي راجل كلهم رام، فاقتصّوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمرا تزودوه من المدينة، فقالوا : هذا تمر يثرب ؛ فاقتصوا آثارهم ، فلما رآهم عاصم وأصحابه لجئوا إلى فدفد (٣)، وأحاط بهم القوم، فقالوا لهم: آنزلوا فأعطونا أيديكم ولكم العهد والميثاق ألا نقتل منكم أحدا؛ فقال عاصم بن ثابت أمير السريّة : أما فوالله لا أنزل اليوم في ذمة الكافر، اللهم أخبر عنا نبيّك، فرموا بالنّبل فقتلوا عاصما في سبعة، فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق، وهم خُبَيب الأنصاريّ وآبن الدَّثِنة ورجل آخر (٤)، فلما آستمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فأوثقوهم، فقال الرجل الثالث : هذا أول الغدر ! والله لا أصحبكم ، إن لي في هؤلاء لأسوة — يريد القتلى — فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه؛ فانطلقوا بخُبيب وآبن الدَّثِنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر، فابتاع خُبيبا بنو الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وكان خُبيب هو الذى قتل الحرث بن

(١) وقيل : أمر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوى . (٢) قال القسطلاني : هذا وهم؛ وإنما هو خال عاصم ، لأن أم عاصم جميلة بنت ثابت. (٣) فدفد : رابية مشرفة. (٤) الرجل الآخر هو عبدالله بن طارق.

عامر يوم بدر ، فلبث خُبيب عندهم أسيرا ؛ فأخبر عبيد الله بن عياض أن بنت الحرث أخبرته أنهم حين آجتمعوا آستعار منها موسى يَسْتَحِدُّ بها فأعارته ، فأخذ آبنٌ لى وأنا غافلة حتى أتاه ، قالت : فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده ، ففزعتُ فزعة عرفها خُبيب فى وجهى ؛ فقال : أتخشَيْن أن أقتله ؟ ما كنت لأفعل ذلك . قالت : والله ما رأيت أسيرا قطّ خيرا من خُبيب ؛ والله لقد وجدته يوما يأكل قِطْف عنب فى يده ، وإنه لموثق بالحديد وما بمكة من ثمر ؛ وكانت تقول : إنه لرزق رزقه الله تعالى خُبيبا ؛ فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه فى الحلّ قال لهم خُبيب : دعونى أركع ركعتين ؛ فتركوه فركع ركعتين ثم قال : لولا أن تظنوا أن ما بى جزع من الموت لزدت ؛ ثم قال : اللهمّ أَحْصِهم عددا ، وآقتلهم بَدَدًا ، ولا تُبق منهم أحدا ؛ ثم قال :

ولست أبالى حين أُقْتَلُ مُسْلِماً ❊ على أىّ شِقّ كان لله مَصْرَعى

وذلك فى ذات الإله وإنْ يَشَأْ ❊ يُبارِكْ على أوصالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

فقتله بنو الحرث ، وكان خُبيب هو الذى سنّ الركعتين لكل آمرئ مسلم قُتل صَبْرًا ؛ فآستجاب الله تعالى لعاصم يوم أصيب ؛ فأخبر النبيّ عليه الصلاة والسلام وأصحابه خبرهم وما أصيبوا . وبعث ناسٌ من كفار قريش إلى عاصم حين حُدّثوا أنه قتل ليؤتوا بشىء منه يعرفونه ، وكان قد قتل رجلا من عظمائهم يوم بدر ؛ فبعث الله على عاصم مثل الظُّلَّة من الدَّبْر[1] فحمته من رُسلهم ، فلم يقدروا على أن يقطعوا من لحمه شيئا . وقال ابن إسحق فى هذه القصة : وقد كانت هذيل حين قتل عاصم بن ثابت أرادوا رأسه ليبيعوه من سُلافة بنت سعد بن شُهَيْد ، وقد كانت نذرت حين أصاب آبنيها بأُحُد لئن قَدَرتْ على رأسه لتشربنّ فى قِحْفه[2] الخمر فمنعهم الدَّبْر ، فلما حالت بينه وبينهم قالوا : دعوه حتى يُمسى فتذهب عنه فنأخذه ، فبعث الله تعالى الوادى فاحتمل عاصما فذهب ، وقد كان عاصم أعطى الله تعالى عهدا ألّا يمسّ مشركا ولا يمسّه مشركٌ أبدا فى حياته ، فمنعه الله تعالى بعد وفاته مما آمتنع منه فى حياته . وعن عمرو بن أمية الضَّمْرى :

---

(١) الدبر : الزنابير أو ذكور النحل . (٢) القحف : الجمجمة .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه عينا وحده فقال : جئت إلى خشبة خُبيب فرقيت فيها وأنا أتخوف العيون فأطلقته ، فوقع في الأرض ، ثم اقتحمت فانتبذت قليلا ، ثم التفت فكأنما ابتلعته الأرض . وفي رواية أخرى زيادة : فلم نذكر لخبيب رِمّة حتى الساعة ؛ ذكره البيهقي .

الحادية عشرة — ولا ينكر أن يكون للولي مال وضَيْعة يصون بها ماله وعياله ، وحسبك بالصحابة وأموالهم مع ولايتهم وفضلهم ، وهم الحجة على غيرهم . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " بينا رجل بفلاة من الأرض فسمع صوتا في سحابة اسق حديقة فلان فتنحّى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حَرّة[1] فإذا شَرْجة من تلك الشِّراج قد استوعبت ذلك الماء كله فتتبع الماء فإذا رجلٌ قائم في حديقته يُحوّل الماء بمسحاته[2] فقال يا عبد الله ما اسمك قال فلان الاسم الذي سمعه في السحابة فقال له يا عبد الله لم سألتني عن اسمي قال إني سمعت صوتا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول اسق حديقة فلان لاسمك فما تصنع فيها قال أما إذ قلت هذا فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه وآكل أنا وعيالي ثلثا وأرد فيها ثلثه " وفي رواية " وأجعل ثلثه في المساكين والسائلين وابن السبيل " .

قلت : وهذا الحديث لا يناقضه قوله عليه الصلاة والسلام : " لا تتخذوا الضَّيْعة فتركنوا إلى الدنيا " خرجه الترمذي من حديث ابن مسعود وقال فيه حديث حسن ؛ فإنه محمول على من اتخذها مستكثرا أو متنعما ومتمتعا بزهرتها ، وأما من اتخذها معاشا يصون بها دينه وعياله فاتخاذها بهذه النية من أفضل الأعمال ، وهي من أفضل الأموال ؛ قال عليه الصلاة والسلام : " نعم المال الصالح للرجل الصالح " . وقد أكثر الناس في كرامات الأولياء ، وما ذكرناه فيه كفاية ؛ والله الموفق للهداية .

الثانية عشرة — قوله تعالى : « لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا » فيه دليل على صحة جواز الإجارة ، وهي سنة الأنبياء والأولياء على ما يأتي بيانه في سورة « القصص »[3] إن شاء الله تعالى . وقرأ الجمهور « لَاتَّخَذْتَ » وأبو عمرو « لَتَخِذْتَ » وهي قراءة ابن مسعود والحسن وقتادة ، وهما

---

(١) حرة : أرض ذات حجارة سود . والشرجة : طريق الماء ومسيله . (٢) المسحاة : المجرفة من الحديد .

(٣) في تفسير قوله تعالى : « قالت إحداهما يا أبت استأجره ... الخ » آية ٢٦

لغتان بمعنى واحد من الأخذ، مثل قولك : تَبِع وأتْبع، وتَقِي واتَّقى . وأدغم بعض القراء الذال في التاء، ولم يدغمها بعضهم . وفي حديث أبيّ بن كعب : لو شئتَ لأوتيت أجرا . وهذه صدرت من موسى سؤالا على جهة العَرْض لا الاعتراض، فعند ذلك قال له الخضر : « هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ » بحكم ما شرطت على نفسك . وتكريره « بيني و بينك » وعدوله عن بيننا لمعنى التأكيد . قال سيبويه : كما يقال أخزى الله الكاذب مني ومنك؛ أي منّا . وقال ابن عباس : وكان قول موسى في السفينة والغلام لله، وكان قوله في الجدار لنفسه لطلب شيء من الدنيا، فكان سبب الفراق . وقال وهب بن مُنَبِّه : كان ذلك الجدار جدارا طوله في السماء مائة ذراع .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : « سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا » تأويل الشيء مآله ؛ أي قال له : إني أخبرك لم فعلتُ ما فعلتُ . وقيل في تفسير هذه الآيات التي وقعت لموسى مع الخضر : إنها حُجّة على موسى ، وعجبا له . وذلك أنه لما أنكر أمر خرق السفينة نودي : يا موسى أين كان تدبيرك هذا وأنت في التابوت مطروحا في اليم ! فلما أنكر أمر الغلام قيل له : أين إنكارك هذا من وكزك القبطي وقضائك عليه ! فلما أنكر إقامة الجدار نودي : أين هذا من رفعك حجر البئر لبنات شعيب دون أجر !

قوله تعالى : أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾ استدل بهذا من قال : إن المسكين أحسن حالا من الفقير ، وقد مضى هـذا المعنى مستوفى فى سـورة « براءة »[1] .

وقد قيل : إنهـم كانوا تجارا ولكن من حيث هم مسافرون عن قـلة فى لجـة بحر ، وبِدِرِ ضعف عن مدافعـة خطب عبّر عنهم بمساكين ؛ إذ هم فى حالة يُشـفَق عليهم بسببها ، وهذا كما تقـول لرجل غنيّ وقع فى وهْـلة أو خطْب : مسـكينٌ . وقال كعب وغيره : كانت لعشرة إخـوة من المسا كين ورثوها من أبيهم ، خمسـة زَمْنى ، وخمسة يعملون فى البحر . وقيـل : كانوا سـبعة لكل واحد منهم زَمَانة ليست بالآخر . وقـد ذكر النقاش أسماءهم ؛ فأما العمال منهم فأحدهم كان مجذوما ، والثـانى أعور ، والثالث أعرج ، والرابع آدر ، والخامس محموما لا تنقطع عنـه الحمى الدهر كله وهو أصغرهم ؛ والخمسـة الذين لا يطيقون العمل : أعمى وأصم وأخرس ومقعد ومجنون ، وكان البحر الذى يعملون فيـه ما بين فارس والروم ؛ ذكره الثعلبي . وقرأت فرقة : « لِمَسَّاكِين » بتشديد السين ، واختلف فى ذلك فقيل : هم مَلّاحو السفينة ، وذلك أن المَسَّاك هو الذى يمسك رجل السفينة ، وكل الخدمة تصلح لإمساكه فسمى الجميع مسّاكين . وقالت فرقـة : أراد بالمسّاكين دبغة المُسُوك وهى الجلود واحدها مَسْك . والأظهر قراءة « مساكين » بالتخفيف جمع مسكين ، وأن معناها : إن السفينة لقوم ضعفاء ينبغى أن يشفق عليهم . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ أى أجعلها ذات عيب ، يقـال : عِبتُ الشيء فعاب إذا صار ذا عَيب ، فهو معيب وعائب . وقوله : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ قرأ ابن عبـاس وابن جبير « صحيحة » وقرأ أيضا ابن عبـاس وعثمان بن عفان « صالحة » .

و « وراء » أصلها بمعنى خلف ؛ فقال بعض المفسرين : إنه كان خلفه وكان رجوعهم عليه . والأكثر على أن معنى « وراء » هنا أمام ؛ يعضُده قراءة ابن عباس وابن جبير « وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَحِيحَةٍ غَصْبًا » . قال ابن عطية : « وراءهم » هو عنـدى على بابه ؛ وذلك

(١) راجع جـ ٨ ص ١٦٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

أن هذه الألفاظ إنما تجيء مراعى بها الزمان ، وذلك أن الحدث المقدم الموجود هو الأمام، والذى يأتى بعده هو الوراء وهو ما خلف ، وذلك بخلاف ما يظهر بادى الرأى ، وتأمل هذه الألفاظ فى مواضعها حيث وردت تجدها تطرد ، فهذه الآية معناها : إن هؤلاء وعملهم وسعيهم يأتى بعده فى الزمان غصب هذا الملك ؛ ومن قرأ «أمامهم» أراد فى المكان ، أى كأنهم يسيرون إلى بلد ، وقوله عليه الصلاة والسلام : "الصلاةُ أمامك"(١) يريد فى المكان ، وإلا فكونهم فى ذلك الوقت كان أمام الصلاة فى الزمان ؛ وتأمل هذه المقالة فإنها مريحة من شغب هذه الألفاظ ؛ ووقع لقتادة فى كتاب الطبرى «وكان وراءهم ملك» قال قتادة : أمامهم ألا تراه يقول : من « ورائهم جهنم » وهى بين أيديهم ؛ وهذا القول غير مستقيم ، وهذه هى العجمة التى كان الحسن بن أبى الحسن يضج منها ؛ قاله الزجاج .

قلت : وما آختاره هـذا الإمام قد سبقه إليه فى ذلك آبن عرفة ؛ قال الهروى قال آبن عرفة : يقول القائل كيف قال «من ورائه» وهى أمامه ؟ فزعم أبو عبيد وأبو علىّ قُطْرُب أن هـذا من الأضداد ، وأن وراء فى معنى قدام ، وهـذا غير محصّل ؛ لأن أمام ضد وراء ، وإنما يصلح هـذا فى الأوقات ، كقولك للرجل إذا وعد وعدا فى رجب لرمضان ثم قال : ومن ورائك شعبان لجاز وإن كان أمامه ، لأنه يخلفه إلى وقت وعده ؛ وأشار إلى هذا القول أيضا القشيرى وقال : إنما يقال هذا فى الأوقات ، ولا يقال للرجل أمامك إنه وراءك ؛ قال الفراء : وجوزه غيره ؛ والقوم ما كانوا عالمين بخبر الملك ، فأخبر الله تعالى الخضر حتى عيّب السفينة ؛ وذكره الزجاج . وقال الماوردى : آختلف أهل العربية فى آستعمال وراء موضع أمام على ثلاثة أقوال : أحدها — يجوز آستعمالها بكل حال وفى كل مكان وهو من الأضداد قال الله تعالى : «وَمِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ» أى من أمامهم : وقال الشاعر(٢) :

أَترجو بنو مَرْوانَ سَمْعِى وطاعَتِى * وقَوْمِى تَمِيمٌ والفَـلاةُ وَرائِيـا

---

(١) الحديث فى الجمع بين المغرب والعشاء بالمزدلفة .

(٢) هو سوار بن المضرب .

يعنى أمامى . والثـانى — أن وراء تستعمل فى موضع أمام فى المواقيت والأزمان لأن الإنسان يجـوزها فتصير وراءه ولا يجوز فى غيرها . الثـالث — أنه يجـوز فى الأجسام التى لا وجه لها كحجرين متقابلين كل واحد منهما وراء الآخر ولا يجوز فى غيرها؛ وهذا قول على بن عيسى . واختلف فى اسم هـذا الملك فقيـل : هُدَد بن بُدَد . وقيـل : الجلندى ؛ وقاله السهيلى. وذكر البخارى آسم الملك الآخذ لكل سفينة غصباً فقال : هو [هُدَد بن بُدَد والغلام المقتول] (١) آسمه جَيْسور، وهكذا قيدناه فى «الجـامع» من رواية يزيد المَرْوَرِى، وفى غير هذه الرواية حَيْسور بالحاء وعندى فى حاشية الكتاب رواية ثالثة : وهى حَيْسون . وكان يأخذ كل سفينة جيدة غصبا فلذلك عابها الخضر وخرقها؛ ففى هـذا من الفقه العمل بالمصالح إذا تحقق وجهها، وجواز إصلاح كل المـال بإفساد بعضه ، وقد تقدم . وفى صحيح مسلم وجه الحكمة بخرق السفينة وذلك قـوله : فإذا جاء الذى يسـخرها وجدها منخرقة فتجاوزها، فأصلحوها بخشبة؛ الحديث . وتحصّل من هذا الحضّ على الصبر فى الشدائد، فكم فى ضمن ذلك المكروه من الفوائد، وهذا معنى قوله : « وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ »

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ جاء فى صحيح الحـديث : " أنه طُبع يوم طُبع كافرا" وهذا يؤيد ظاهره أنه غير بالغ، ويحتمل أن يكون خبرا عنه مع كونه بالغا؛ وقد تقـدم .

قوله تعالى : ﴿ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا ﴾ قيل : هو من كلام الخضر عليه السلام،وهو الذى يشهد له سياق الكلام، وهو قول كثير من المفسرين ؛ أى، خفنا أن يرهقهما طغيانا وكفرا، وكان الله قد أباح له الاجتهاد فى قتل النفوس على هذه الجهة . وقيل : هو من كلام الله تعالى وعنه عبّر الخضر؛ قال الطبرى : معناه فعلمنا؛ وكذا قال ابن عباس أى فعلمنا، وهذا كما كنى عن العلم بالخوف فى قوله : « إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ » . وحكى أن أُبيًّا قرأ « فَعَلِمَ ربك» . وقيل : الخشية بمعنى الكراهة؛ يقال : فرقت بينهما خشية أن يقتتلا؛ أى كراهة

(١) الزيادة من صحيح البخارى .

ذلك . قال ابن عطية : والأظهر عندى فى توجيه هذا التأويل وإن كان اللفظ يدافعه أنها آستعارة، أى على ظن المخلوقين والمخاطبين لو علموا حاله لوقعت منهم خشية الرهق للأبوين. وقرأ ابن مسعود «فخاف ربك» وهذا بيّن فى الآستعارة، وهذا نظير ما وقع فى القرآن فى جهة الله تعالى من لعل وعسى وأن جميع ما فى هذا كله من ترجٍّ وتوقع وخوف وخشية إنما هو بحسبكم أيها المخاطبون . و « يرهقهما » يجشّمهما ويكلفهما؛ والمعنى أن يلقيهما حبّه فى آتباعه فيضلا ويتدينا بدينه

قوله تعالى : ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا ﴾ قرأ الجمهور بفتح الباء وشد الدال. وقرأ عاصم بسكون الباء وتخفيف الدال؛ أى أن يرزقهما الله ولدا . ﴿ خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً ﴾ أى دينا وصلاحا؛ يقال : بدل وأبدل مثل مهّل وأمهل ونزّل وأنزل . ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ قرأ ابن عباس «رُحُمًا» بالضم ، قال الشاعر :

وكيف بظلم جاريةٍ * ومنها اللّينُ والرُّحُمُ

الباقون بسكونها؛ ومنه قول رُؤْبَة بن العجّاج :

يا مُنْزِلَ الرُّحْمِ على إدريسا * ومُنْزِلَ اللّعْنِ على إبليسا

وآختلف عن أبى عمرو . و « رحما » معطوف على « زكاة » أى رحمة؛ يقال : رحمه رحمة ورحما، وألفه للتأنيث، ومذكره رُحْم . وقيل : الرُّحم هنا بمعنى الرَّحِم؛ قرأها آبن عباس «وأَوْصَلَ رُحْمًا» أى رَحِما ، وقرأ أيضا «أزكى منه» . وعن آبن جبير وآبن جريج أنهما بُدِّلا جارية؛ قال الكلبى فتزوجها نبىّ من الأنبياء فولدت له نبيا فهدى الله تعالى على يديه أمة من الأمم . قتادة : ولدت آثنى عشر نبيا . وعن ابن جريج أيضا أن أم الغلام يوم قتل كانت حاملا بغلام مسلم وكان المقتول كافرا . وعن آبن عباس : فولدت جارية ولدت نبيا؛ وفى رواية : أبدلهما الله به جارية ولدت سبعين نبيا؛ وقاله جعفر بن محمد عن أبيه؛ قال علماؤنا : وهذا بعيد ولا تُعرف كثرة الأنبياء إلا فى بنى إسرائيل، وهذه المرأة لم تكن فيهم ؛ ويستفاد من هذه الآية تهوين المصائب بفقد الأولاد وإن كانوا قطعا من الأكباد، ومن سلّم للقضاء

أسفرت عاقبته عن اليد البيضاء . قال قتادة : لقد فرح به أبواه حين وُلد وحزنا عليه حين قُتل ، ولو بقى كان فيه هلاكهما ، فالواجب على كل أمرئ الرضا بقضاء الله تعالى ، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه له فيما يحب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ ﴾ هذان الغلامان صغيران بقرينة وصفهما باليتم ، واسمهما أصرم وصريم . وقد قال عليه الصلاة والسلام : " لا يُتْم بعد بلوغ " هذا هو الظاهر . وقد يحتمل أن يبقى عليهما اسم اليتم بعد البلوغ إن كانا يتيمين ، على معنى الشفقة عليهما . وقد تقدم[1] أن اليتم فى الناس من قِبل فقد الأب ؛ وفى غيرهم من الحيوان من قبل فَقْد الأم . ودل قوله : « فى المدينة » على أن القرية تسمى مدينة ؛ ومنه الحديث " أُمرتُ بقرية[2] تأكل القُرَى " وفى حديث الهجرة " لمن أنت " فقال الرجل : من أهل المدينة ؛ يعنى مكة .

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ﴾ اختلف الناس فى الكنز ؛ فقال عكرمة وقتادة : كان مالا جسيما وهو الظاهر من اسم الكنز إذ هو فى اللغة المال المجموع ؛ وقد مضى القول[3] فيه . وقال ابن عباس : كان علما فى صحف مدفونة . وعنه أيضا قال : كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه بسم الله الرحمن الرحيم ، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن ، عجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب ، عجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، عجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل ، عجبت لمن يؤمن بالدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن لها ، لا إله إلا الله محمد رسول الله . وروى نحوه عن عكرمة وعمر مولى غُفْرة ، ورواه عثمان بن عفان رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ ظاهر اللفظ والسابق منه أنه والدهما دنية[4] . وقيل : هو الأب السابع ؛ قاله جعفر بن محمد . وقيل : العاشر فحُفظا فيه وإن لم يُذْكر بصلاح ؛ وكان يسمى كاشحا ؛ قاله مقاتل . واسم أمهما دنيا[5] ؛ ذكره النقاش . ففيه ما يدل على أن الله تعالى

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٤ طبعة ثانية . (٢) القرية هى مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومعنى أكلها القرى ما يفتح على أيدى أهلها من المدن ، ويصيبون من غنائمها . (٣) راجع جـ ٨ ص ١٢٣ طبعة أولى أو ثانية . (٤) دنية : لحا ، وهو الأب الأقرب . (٥) فى روح المعانى : دهنا .

يحفظ الصالح فى نفسه وفى ولده و إن بعدوا عنه . وقد روى أن الله تعالى يحفظ الصالح فى سبعة من ذريته ؛ وعلى هذا يدل قوله تعالى : « إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ » .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ يقتضى أن الخضر نبى ؛ وقد تقدم الخلاف فى ذلك . ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ ﴾ أى تفسير . ﴿ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ قرأت فرقة «تَسْتَطِعْ» . وقرأ الجمهور «تَسْطِعْ» قال أبو حاتم : كذا نقرأ كما فى خط المصحف . وهنا خمس مسائل :

الأولى – إن قال قائل لم يسمع لفتى موسى ذكر فى أول الآية ولا فى آخرها ، قيل له : اختلف فى ذلك ؛ فقال عكرمة لابن عباس : لم يسمع لفتى موسى بذكر وقد كان معه؟ فقال : شرب الفتى من الماء فخلد ، وأخذه العالم فطبّق عليه سفينة ثم أرسله فى البحر ، و إنها لتموج به فيه إلى يوم القيامة ، وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه فشرب منه . قال القشيرى : وهذا إن ثبت فليس الفتى يوشع بن نون ؛ فإن يوشع بن نون قد عُمِّر بعد موسى وكان خليفته ؛ والأظهر أن موسى صرف فتاه لما لقى الخضر . وقال شيخنا الإمام أبو العباس : يحتمل أن يكون اكتفى بذكر المتبوع عن التابع ؛ والله أعلم .

الثانية – إن قال قائل : كيف أضاف الخضر قصة استخراج كنز الغلامين لله تعالى ، وقال فى خرق السفينة : « فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا » فأضاف العيب إلى نفسه ؟ قيل له : إنما أسند الإرادة فى الجدار إلى الله تعالى لأنها فى أمر مستأنف فى زمن طويل غيب من الغيوب ، فحسن إفراد هذا الموضع بذكر الله تعالى ، و إن كان الخضر قد أراد ذلك فالذى أعلمه الله تعالى أن يريده . وقيل : لما كان ذلك خيرا كله أضافه إلى الله تعالى ، وأضاف عيب السفينة إلى نفسه رعاية للأدب ، لأنها لفظة عيب ، فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا إلى نفسه ، كما تأدب إبراهيم عليه السلام فى قوله : « وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ » فأسند الفعل قبلُ و بعدُ إلى الله تعالى ، وأسند إلى نفسه المرض ، إذ هو معنى نقص ومصيبة ، فلا يضاف إليه سبحانه وتعالى من الألفاظ إلا ما يستحسن منها دون ما يستقبح ، وهذا كما

قال تعالى: «بِيَدِكَ الْخَيْرُ» واقتصر عليه فلم ينسب الشر إليه، وإن كان بيده الخير والشر والضر والنفع، إذ هو على كل شيء قدير، وهو بكل شيء خبير. ولا اعتراض بما حكاه عليه السلام عن ربه عز وجل أنه يقول يوم القيامة: «يا ابن آدم مرضتُ فلم تَعُدْني واستطعمتُك فلم تُطعمني واستسقيتك فلم تَسقني» فإن ذلك تَنَزُّلٌ في الخطاب، وتلطُّف في العتاب، مقتضاه التعريف بفضل ذي الجلال، وبمقادير ثواب هذه الأعمال. وقد تقدّم هذا المعنى. والله تعالى أعلم. ولله تعالى أن يطلق على نفسه ما يشاء، ولا نطلق نحن إلا ما أذن لنا فيه من الأوصاف الجميلة، والأفعال الشريفة. جل وتعالى عن النقائص والآفات علوا كبيرا. وقال في الغلام: «فأردنا» فكأنه أضاف القتل إلى نفسه، والتبديل إلى الله تعالى. والأشد كمال الخَلْق والعقل. وقد مضى الكلام فيه في «الأنعام»[1] والحمد لله.

الثالثة — قال شيخنا الإمام أبو العباس: ذهب قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق تلزم منه هذه الأحكام الشرعية، فقالوا: هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأنبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص، بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم، ويحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرهم. وقالوا: وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار، وخلوها عن الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية، والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات، ويعلمون أحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، كما اتفق للخضر؛ فإنه استغنى بما تجلى له من العلوم، عما كان عند موسى من تلك الفُهوم. وقد جاء فيما ينقلون: استفت قلبك وإن أفتاك المُفتون. قال شيخنا رضي الله عنه: وهذا القول زندقة وكفر يقتل قائله ولا يستتاب؛ لأنه إنكار ما عُلم من الشرائع؛ فإن الله تعالى قد أجرى سنّته، وأنفذ حكمته، بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسله السفراء بينه وبين خلقه، وهم المبلّغون عنه رسالته وكلامه، المبيّنون شرائعه وأحكامه؛ اختارهم لذلك، وخصّهم بما هنالك؛ كما قال تعالى: «اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ

(١) راجع جـ ٧ ص ١٣٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

إنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ » وقال تعالى : « اللهُ أعلَمُ حَيثُ يَجعَلُ رِسَالَتَهُ[1] » وقال تعالى : « كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ » إلى غير ذلك من الآيات . وعلى الجملة فقد حصل العلم القطعى، واليقين الضرورى، واجتماع السلف والخلف على أن لا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى التى هى راجعة إلى أمره ونهيه، ولا يعرف شىء منها إلا من جهة الرسل، فمن قال : إن هناك طريقا آخر يُعرَف بها أمرُه ونهيُه غيرَ الرسل بحيث يستغنى عن الرسل فهو كافر، يُقتل ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب، ثم هو قول بإثبات أنبياء بعد نبينا عليه الصلاة والسلام؛ الذى قد جعله الله خاتم أنبيائه ورسله ، فلا نبىّ بعده ولا رسول . وبيان ذلك أن من قال يأخذ عن قلبه وأن ما يقع فيه حكم الله تعالى، وأنه يعمل بمقتضاه، وأنه لا يحتاج مع ذلك إلى كتاب ولا سنة، فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة، فإن هذا نحو ما قاله عليه الصلاة والسلام : " إن روح القدس نَفَثَ فى رُوْعى " الحديث .

الرابعة ـ ذهب الجمهور من الناس إلى أن الخضر مات صلى الله عليه وسلم . وقالت فرقة : حىّ لأنه شرب من عين الحياة، وأنه باق فى الأرض، وأنه يحج البيت . قال ابن عطية : وقد أطنب النقاش فى هذا المعنى، وذكر فى كتابه أشياء كثيرة عن علىّ ابن أبى طالب وغيره، وكلها لا تقوم على ساق . ولو كان الخضر عليه السلام حيا يحج لكان له فى ملة الإسلام ظهور، والله العليم بتفاصيل الأشياء لا رب غيره . ومما يقضى بموت الخضر عليه السلام الآن قوله عليه الصلاة السلام : " أرأيتكم ليلتكم هذه فإنه لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحدٌ " .

قلت : إلى هذا ذهب البخارى واختاره القاضى أبو بكر بن العربى، والصحيح القول الثانى وهو أنه حىّ على ما نذكره . والحديث خرجه مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن عمر قال صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة صلاة العشاء فى آخر حياته فلما سلّم قام فقال : " أرأيتكم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحدٌ "

(١) فى الأصل : « رسالاته » وهى قراءة نافع التى كان يقرأ بها المفسر .

قال ٱبن عمر: فوَهَل[1] الناسُ فى مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك فيما يتحدّثون من هذه الأحاديث عن مائة سنة؛ وإنما قال عليه الصلاة والسلام: "لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد" يريد بذلك أن يَنْخرِم ذلك القَرْن. ورواه أيضا من حديث جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قبل أن يموت بشهر: "تسألونى عن الساعة وإنما علمها عند الله وأقسم بالله ما على الأرض من نفس مَنْفُوسة[2] تأتى عليها مائة سنة" وفى أخرى قال سالم: تذاكرنا أنها "هى مخلوقة يومئذ". وفى أخرى: "ما من نفس منفوسة اليوم يأتى عليها مائة سنة وهى حية يومئذ". وفسرها عبد الرحمن صاحب السقاية قال: نقص العمر. وعن أبى سعيد الخدرى نحو هذا الحديث. قال علماؤنا: وحاصل ما تضمنه هذا الحديث أنه عليه الصلاة والسلام أخبر قبل موته بشهر أن كل من كان من بنى آدم موجودا فى ذلك لا يزيد عمره على مائة سنة؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: "ما من نفس مَنْفوسة" وهذا اللفظ لا يتناول الملائكة ولا الجن إذ لم يصح عنهم أنهم كذلك، ولا الحيوان غير العاقل؛ لقوله: "ممن هو على ظهر الأرض أحد" وهذا إنما يقال بأصل وضعه على من يعقل، فتعين أن المراد بنو آدم. وقد بين ٱبن عمر هذا المعنى؛ فقال: يريد بذلك أن يَنْخرِم ذلك القَرْن. ولا حجة لمن ٱستدل به على بطلان قول من يقول: إن الخضر حى لعموم قوله: "ما من نفس منفوسة" لأن العموم وإن كان مؤكد الاستغراق فليس نصًّا فيه، بل هو قابل للتخصيص، فكما لم يتناول عيسى عليه السلام، فإنه لم يمت ولم يقتل فهو حىّ بنص القرآن ومعناه، ولا يتناول الدجال مع أنه حىّ بدليل حديث الجَسّاسة[3]، فكذلك لم يتناول الخضر عليه السلام وليس مشاهدا للناس، ولا ممن يخالطهم حتى يخطر ببالهم حالة مخالطة بعضهم بعضا، فمثل هذا العموم لا يتناوله. وقد قيل: إن أصحاب الكهف أحياء

(١) وهل إلى الشيء كضرب: أى غلط وذهب وهمه إلى خلاف الصواب، والمعنى أن الصحابة رضى الله عنهم غلطوا وذهب وهمهم إلى خلاف الصواب فى تأويل مقالة النبى صلى الله عليه وسلم فكان بعضهم يقول: تقوم الساعة عند ٱنقضاء مائة سنة؛ فبين ٱبن عمر مراد النبى صلى الله عليه وسلم بقوله: يريد بذلك أن ينخرم ذلك القرن. ويجوز وهل كتعب. (٢) منفوسة: مولودة. (٣) الجساسة: دابة الأرض التى تخرج آخر الزمان، وسميت جساسة لتجسسها الأخبار للدجال.

ويحجون مع عيسى عليه الصلاة والسلام ، كما تقدم . وكذلك فتى موسى فى قول ابن عباس كما ذكرنا . وقد ذكر أبو إسحق الثعلبى فى كتاب «العرائس» له : والصحيح أن الخضر نبيّ مُعمَّر محجوب عن الأبصار؛ وروى محمد بن المتوكل عن [ضمرة بن ربيعة] عن عبد الله بن [شوذب][(1)] قال : الخضر عليه السلام من ولد فارس، و إلياس من بنى إسرائيل يلتقيان كل عام فى الموسم . وعن عمرو بن دينار قال : إن الخضر و إلياس لا يزالان حيين فى الأرض ما دام القرآن على الأرض، فإذا رفع ماتا . وقد ذكر شيخنا الإمام أبو محمد عبد المعطى بن محمود بن عبد المعطى اللخمى فى شرح الرسالة له للقشيرى حكايات كثيرة عن جماعة من الصالحين والصالحات بأنهم رأوا الخضر عليه السلام ولقوه، يفيد مجموعها غاية الظن بحياته مع ما ذكره النقاش والثعلبى وغيرهما . وقد جاء فى صحيح مسلم : " أن الدجال ينتهى إلى بعض السباخ التى تلى المدينة فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس — أو — من خير الناس " الحديث؛ وفى آخره قال أبو إسحق : يعنى أن هذا الرجل هو الخضر . وذكر ابن أبى الدنيا فى كتاب « الهواتف » بسند يوقفه إلى علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه لقى الخضر وعلمه هذا الدعاء، وذكر أن فيه ثوابا عظيما ومغفرة ورحمة لمن قاله فى أثر كل صلاة، وهو : يامن لا يشغله سمع عن سمع ، ويامن لا تغلطه المسائل، ويامن لا يتبرم من إلحاح الملحين، أذقنى بَرْد عفوك، وحلاوة مغفرتك . وذكر أيضا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى هذا الدعاء بعينه نحوا مما ذكر عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فى سماعه من الخضر . وذكر أيضا اجتماع إلياس مع النبى عليه الصلاة والسلام . وإذا جاز بقاء إلياس إلى عهد النبى صلى الله عليه وسلم جاز بقاء الخضر ، وقد ذكر أنهما يجتمعان عند البيت فى كل حول ، وأنهما يقولان عند افتراقهما : ما شاء الله ما شاء الله ، لا يصرف السوء إلا الله، ما شاء الله ما شاء الله ، ما يكون من نعمة فمن الله، ما شاء الله ما شاء الله ، توكلت على الله، حسبنا الله ونعم الوكيل . وأما خبر إلياس فيأتى فى « والصافات »[(2)] إن شاء الله تعالى . وذكر أبو عمر

(1) الزيادة والتصويب من « عقد الجمان » للعينى نقلا عن الثعلبى . وفى الأصل : « روى عن محمد بن المتوكل عن عبد الله بن سوار »

(2) فى تفسير قوله تعالى : « وإن إلياس لمن المرسلين » آية ١٢٣

آبن عبد البر فى كتاب « التمهيد » عن علي رضي الله تعالى عنه قال : لما توفي النبي صلى الله عليه وسلم وسُجِّي بثوب هتف هاتف من ناحية البيت يسمعون صوته ولا يرون شخصه : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، السلام عليكم أهل البيت ، « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » — الآية — إنّ في الله خلَفا من كل هالك، وعوضا من كل تالف، وعَزاء من كل مصيبة، فبالله فثقوا ، وإياه فارجوا ، فإن المصاب من حُرِم الثواب ؛ فكانوا يرون أنه الخضر عليه الصلاة والسلام . يعنى أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام . والألف واللام فى قوله : " على الأرض " للعهد لا للجنس وهى أرض العرب ، بدليل تصرفهم فيها وإليها غالبا دون أرض يأجوج ومأجوج ، وأقاصي جزر الهند والسند مما لا يقرع السمع اسمه ، ولا يُعلَم علمه . ولا جواب عن الدجال .

قال السهيلي : وآختلف فى آسم الخضر اختلافا متباينا ؛ فعن آبن منبه أنه قال : أَبْلَيَا بن مَلْكان بن فالغ بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح . وقيل : هو آبن عاميل بن سماقين آبن أريا بن علقما بن عيصو بن إسحق، وأن أباه كان مَلِكا، وأن أمه كانت بنت فارس وآسمها ألمى، وأنها ولدته فى مغارة، وأنه وجد هنالك وشاة ترضعه فى كل يوم من غنم رجل من القرية، فأخذه الرجل فربّاه ، فلما شبَّ وطلب الملك — أبوه — كاتبا وجمع أهل المعرفة والنبالة ليكتب الصحف التي أنزلت على إبراهيم وشيث، كان ممن أقدم عليه من الكتّاب آبنه الخضر وهو لا يعرفه، فلما استحسن خطه ومعرفته، وبحث عن جلية أمره عرف أنه ابنه، فضمه لنفسه وولاه أمر الناس، ثم إن الخضر فرّ من الملك لأسباب يطول ذكرها إلى أن وجد عين الحياة فشرب منها، فهو حيّ إلى أن يخرج الدجال، وأنه الرجل الذى يقتله الدجال ويقطعه ثم يحييه الله تعالى . وقيل : لم يدرك زمن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وهذا لا يصح . وقال البخارى وطائفة من أهل الحديث منهم شيخنا أبو بكر بن العربي رحمه الله تعالى : إنه مات قبل آنقضاء المائة، من قوله عليه الصلاة والسلام : "إلى رأس مائة عام لا يبقى على هذه الأرض ممن هو عليها أحد" يعنى من كان حيا حين قال هذه المقالة .

قلت : قد ذكرنا هذا الحديث والكلام عليه، وبيّنا حياة الخضر إلى الآن، والله أعلم .

الخامسة ـ قيل : إن الخضر لما ذهب يفارق موسى قال له موسى : أوصني؛ قال : كن بسّاما ولا تكن ضحّاكا، ودع اللّجاجة، ولا تمش في غير حاجة، ولا تعب على الخطّائين خطاياهم، وابك على خطيئتك ياابن عمران .

قوله تعالى : وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ قال ابن إسحق : وكان من خبر ذى القرنين أنه أوتى ما لم يؤت غيره ، فمدت له الأسباب حتى انتهى من البلاد إلى مشارق الأرض ومغاربها ، لا يطأ أرضا إلا سُلّط على أهلها ، حتى انتهى من المشرق والمغرب إلى ما ليس وراءه شيء من الخلق . قال ابن إسحق : حدثني من يسوق الأحاديث عن الأعاجم فيما توارثوا من علم ذى القرنين أن ذا القرنين كان من أهل مصر اسمه مرزبان ابن مردبة اليوناني من ولد يونان بن يافث بن نوح . قال ابن هشام : واسمه الإسكندر،

وهو الذى بنى الإسكندرية فنسبت إليه . قال ابن إسحق : وقد حدثنى ثور بن يزيد عن خالد بن مَعْدان الكَلاعىّ - وكان خالد رجلا قد أدرك الناس - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن ذى القرنين فقال : " ملك مسح الأرض من تحتها بالأسباب " . وقال خالد : وسمع عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه رجلا يقول يا ذا القرنين ، فقال : اللهم غفرا أما رضيتم أن تُسَمّوا بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة ! قال ابن إسحق : فالله أعلم أى ذلك كان؟ أقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أم لا؟ والحق ما قال .

قلت : وقد روى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه مثل قول عمر ؛ سمع رجلا يدعو آخر يا ذا القرنين ، فقال علىّ : أما كفاكم أن تسميتم بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة ! وعنه أنه عَبْد ملك (بكسر اللام) صالحٌ نصح اللهَ فأيّده . وقيل : هو نبىّ مبعوث فتح الله تعالى على يديه الأرض . وذكر الدارقطنىّ فى كتاب الأخبار أن ملكا يقال له رباقيل[1] كان ينزل على ذى القرنين ، وذلك الملك هو الذى يطوى الأرض يوم القيامة ، وينقضها فتقع أقدام الخلائق كلهم بالساهرة[2] ؛ فيما ذكر بعض أهل العلم . وقال السهيلىّ : وهذا مشاكل بتوكيله بذى القرنين الذى قطع الأرض مشارقها ومغاربها ؛ كما أن قصة خالد ابن سنان فى تسخير النار له مشاكلة بحال الملَك الموكل بها ، وهو مالك عليه السلام وعلى جميع الملائكة أجمعين . ذكر ابن أبى خَيْثَمة فى كتاب البدء له خالد بن سنان العبسىّ وذكر نبوّته ، وذكر أنه وكل به من الملائكة مالك خازن النار ، وكان من أعلام نبوّته أن نارا يقال لها نار الحدثان ، كانت تخرج على الناس من مغارة فتأكل الناس ولا يستطيعون ردّها ، فردّها خالد ابن سنان فلم تخرج بعد . واختلف فى اسم ذى القرنين وفى السبب الذى سمى به بذلك اختلافا كثيرا ؛ فأما اسمه فقيل : هو الإسكندر الملك اليونانى المقدونى ، وقد تشدّد قافه فيقال : المقّدونى . وقيل : اسمه هرمس . ويقال : اسمه هرديس . وقال ابن هشام : هو الصعب

(١) كذا فى الأصل ، وفى قصص الأنبياء للثعلبى « رفائيل » وفى الدر المنثور « زرافيل » .

(٢) الساهرة : أرض يجدّدها الله يوم القيامة .

ابن ذى يزن الحميرى من ولد وائل بن حمير؛ وقد تقدم قول ابن إسحق. وقال وهب بن منبه : هو رومى. وذكر الطبرى حديثا عن النبى عليه الصلاة والسلام أن ذا القرنين شاب من الروم. وهو حديث واهى السند؛ قاله ابن عطية. قال السهيلى : والظاهر من علم الأخبار أنهما اثنان : أحدهما — كان على عهد إبراهيم عليه السلام، ويقال : إنه الذى قضى لإبراهيم عليه السلام حين تحاكموا إليه فى بئر السبع بالشام. والآخر — أنه كان قريبا من عهد عيسى عليه السلام. وقيل : إنه أفريدون الذى قتل بيوراسب بن أرونداسب الملك الطاغى على عهد إبراهيم عليه السلام، أو قبله بزمان. وأما الاختلاف فى السبب الذى سمى به، فقيل : إنه كان ذا ضفيرتين من شعر فسمى بهما؛ ذكره الثعلبى وغيره. والضفائر قرون الرأس؛ ومنه قول الشاعر[1] :

فَلَثَمْتُ فَاهَا آخِــذًا بِقُـرُونِهَا * شُرْبَ النَّزِيفِ بِبَرْدِ مَاءِ الحَشْرَجِ

وقيل : إنه رأى فى أول ملكه كأنه قابض على قرنى الشمس، فقص ذلك، ففسر أنه سيغلب ما ذرت عليه الشمس، فسمى بذلك ذا القرنين. وقيل : إنما سمى بذلك لأنه بلغ المغرب والمشرق فكأنه حاز قرنى الدنيا. وقالت طائفة : إنه لما بلغ مطلع الشمس كشف بالرؤية قرونها فسمى بذلك ذا القرنين؛ أو قرنى الشيطان بها. وقال وهب بن منبه : كان له قرنان تحت عمامته. وسأل ابن الكواء عليا رضى الله تعالى عنه عن ذى القرنين أنبيا كان أم ملكا؟ فقال : لاذا ولاذا، كان عبــدا صالحا دعا قومه إلى الله تعالى فشجوه على قرنه، ثم دعاهم فشجوه على قرنه الآخر، فسمى ذا القرنين. واختلفــوا أيضا فى وقت زمانه، فقال قوم : كان بعــد موسى. وقال قوم : كان فى الفترة بعــد عيسى. وقيــل : كان فى وقت إبراهيم وإسمعيل. وكان الخضر عليه السلام صاحب لوائه الأعظم؛ وقــد ذكرناه فى « البقرة »[2]. وبالجملة فإن الله تعالى مكنــه وملكه ودانت له الملوك، فروى أن جميع ملوك الدنيــا كلها

---

(١) هو عمر بن أبى ربيعة؛ والنزيف : المحموم الذى منع من الماء؛ والسكران؛ والحشرج : النقرة فى الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو؛ والكوز الصغير اللطيف أيضا. (٢) راجع جـ ٣ ص ٢٨٩ طبعة أولى أو ثانية.

أربعة : مؤمنان وكافران ؛ فالمؤمنان سليمان بن داود و إسكندر، والكافران نمرود و بختنصر؛ وسيملكها من هـذه الأمة خامس لقوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » وهو المهدي . وقد قيل : إنما سمي ذا القرنين لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت شريف من قبل أبيه وأمه. وقيل : لأنه انقرض في وقته قرنان من الناس وهو حيّ . وقيل : لأنه كان إذا قاتل قاتل بيديه وركابيه جميعا . وقيـل : لأنه أعطى علم الظاهر والباطن . وقيل : لأنه دخل الظلمة والنور. وقيل : لأنه ملك فارس والروم .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال عليّ رضي الله عنـه : سخر له السحاب ، ومُدّت له الأسباب، وبُسط له في النور ، فكان الليل والنهار عليه سواء . وفي حديث عقبة ابن عامر أن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال لرجال من أهل الكتاب سالوه عن ذى القرنين فقال : " إن أوّل أمره كان غلاما من الروم فأعطى ملكا فسار حتى أتى أرض مصر فابتنى بها مدينة يقال لهـا الإسكندرية فلما فرغ أتاه مَلَك فعرج به فقال له انظر ما تحتك قال أرى مدينتي وحدها لا أرى غيرها فقال له الملك تلك الأرض كلها وهذا السواد الذى تراه محيطا بها هو البحر و إنمـا أراد الله تعالى أن يريك الأرض وقد جعل لك سلطانا فيها فسر في الأرض فعلِّم الجاهل وثبّت العالم" الحديث .

قوله تعـالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ قال ابن عبـاس : من كل شيء علمـا يتسبب به إلى ما يريد . وقال الحسن : بلاغا إلى حيث أراد . وقيل : من كل شيء يحتاج إليه الخلق . وقيل : من كل شيء يستعين به الملوك من فتح المدائن وقهر الأعداء . وأصل السبب الحبل فاستعير لكل ما يتوصل به إلى شيء . ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي «فَأَتْبَعَ سَبَبًا» مقطوعة الألف . وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو «فَاتَّبَعَ سَبَبًا» بوصلها؛ أي اتبع سببا من الأسباب التي أوتيها . قال الأخفش : تبعته وأتبعته بمعنى؛ مثل ردفته وأردفته . ومنـه قوله تعالى : « إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ » ومنه الإتباع في الكلام مثل حَسَنٌ بَسَنٌ وقَبِيحٌ شَقِيحٌ . قال النحاس : واختار أبو عبيد قراءة

أهـل الكوفة قال : لأنهـا من السَّيْر، وحكى هو والأصمعيّ أنه يقال : تَبِعه واتّبعه إذا سار ولم يلحقه، وأتبعه إذا لحقه؛ قال أبو عبيد : ومثـله « فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ » . قال النحاس : وهذا التفريق و إن كان الأصمعي قـد حكاه لا يقبل إلا بعـلّة أو دليل . وقوله عز وجل : « فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ » ليس فى الحديث أنهم لحقوهم، و إنمـا الحديث : لمـا خرج موسى عليه السلام وأصحابه من البحر وحصل فرعون وأصحابه انطبق عليهم البحر. والحق فى هذا أن تَبِع واتّبع وأتبع لغات بمعنى واحد، وهى بمعنى السَّيْر، فقد يجوز أن يكون معه لَحاق وألّا يكون .

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْـرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَـةٍ﴾ قرأ ابن عاصم وعامر وحمزة والكسائى « حاميـةٍ » أى حارّة . البـاقون « حَمِئة » أى كثيرة الحمأة وهى الطينة السوداء، تقول : حَمَأْتُ البئرَ حَمْأً (بالتسكين) إذا نزعت حَمْأتها . وحَمِئت البئرُ حَمَأً (بالتحريك) كثرت حَمْأتها . ويجوز أن تكون « حامية » من الحمأة فخففت الهمزة وقلبت ياء . وقـد يجمع بين القراءتين فيقال : كانت حارة وذات حَمْأة . وقال عبد الله بن عمرو : نظر النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى الشمس حين غربت، فقال : " نار الله الحامية لولا ما يَزَعُها من أمر الله لأحرقت ما على الأرض " . وقال ابن عباس : أقرأنيها أُبَيّ كما أقرأه رسـول الله صلى الله عليه وسلم « فى عين حَمِئَـة »؛ وقال معاوية : هى « حاميـة » فقال عبد الله بن عمرو بن العـاص : فأنا مع أمير المؤمنين؛ فجعلوا كعبا بينهم حَكَمًا وقالوا : يا كعب كيف تجد هـذا فى التوراة ؟ فقال : أجدها تغرب فى عين سوداء، فوافق ابن عباس . وقال الشاعر وهو تُبَّع اليمانيّ :

قـد كان ذو القرنين قبـلى مُسْلِمًـا ٭ مَلِكًا تدينُ له الملوك وتَسْـجُدُ
بَلَـغَ المغـاربَ والمشارقَ يَبْتَـغِى ٭ أسـبابَ أمرٍ من حكيـمٍ مُرْشِـدِ
فرأى مغيبَ الشّمس عند غروبها ٭ فى عـين ذِى خُـلُبٍ وثَأْطٍ حَرْمَـدِ (١)

الخُلُب : الطين . والثأط : الحمأة . والحَرْمد : الأسود . وقال القفّال قال بعض العلماء : ليس المراد أنه انتهى إلى الشمس مغربا ومشرقا حتى وصل إلى جرمها ومسّها؛ لأنهـا تدور

---

(١) حرمد (بالفتح والكسر) كجعفر وزبرج .

مع السماء حول الأرض من غير أن تلتصق بالأرض ، وهى أعظم من أن تدخل فى عين من عيون الأرض ، بل هى أكبر من الأرض أضعافا مضاعفة ، بل المراد أنه انتهى إلى آخر العمارة من جهة المغرب ومن جهة المشرق ، فوجدها فى رأى العين تغرب فى عين حمئة ، كما أنا نشاهدها فى الأرض الملساء كأنها تدخل فى الأرض ؛ ولهذا قال : « وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا » ولم يرد أنها تطلع عليهم بأن تماسهم وتلاصقهم ، بل أراد أنهم أول من تطلع عليهم . وقال القتبي : ويجوز أن تكون هذه العين من البحر ، ويجوز أن تكون الشمس تغيب وراءها أو معها أو عندها ، فيقام حرف الصفة مقام صاحبه ؛ والله أعلم . ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ﴾ أى عند العين ، أو عند نهاية العين ، وهم أهل جابرس ، ويقال لها بالسريانية : جرجيسا ؛ يسكنها قوم من نسل ثمود بقيتهم الذين آمنوا بصالح ؛ ذكره السهيلي . وقال وهب ابن منبه : كان ذو القرنين رجلا من الروم ابن عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره وكان اسمه الإسكندر ، فلما بلغ وكان عبدا صالحا قال الله تعالى : ياذا القرنين ! إنى باعثك إلى أمم الأرض وهم أمم مختلفة ألسنتهم ، وهم أمم جميع الأرض ، وهم أصناف : أمتان بينهما طول الأرض كله ، وأمتان بينهما عرض الأرض كله ، وأمم فى وسط الأرض منهم الجن والإنس ويأجوج ومأجوج ؛ فأما اللتان بينهما طول الأرض فأمة عند مغرب الشمس يقال لها ناسك ، وأما الأخرى فعند مطلعها ويقال لها منسك . وأما اللتان بينهما عرض الأرض فأمة فى قطر الأرض الأيمن يقال لها هاويل ؛ وأما الأخرى التى فى قطر الأرض الأيسر يقال لها تاويل . فقال ذو القرنين : إلهى ! قد ندبتنى لأمر عظيم لا يقدر قدره إلا أنت ؛ فأخبرنى عن هذه الأمم بأى قوة أكاثرهم ؟ وبأى صبر أقاسيهم ؟ وبأى لسان أناطقهم ؟ فكيف لى بأن أفقه لغتهم وليس عندي قوة ؟ فقال الله تعالى : سأظفرك بما حملتك ؛ أشرح لك صدرك فتسمع كل شىء ، وأثبت لك فهمك فتفقه كل شىء ، وألبسك الهيبة فلا يروعك شىء ، وأسخر لك النور والظلمة فيكونان جندا من جنودك ، يهديك النور من أمامك ، وتحفظك الظلمة من ورائك ؛ فلما قيل له ذلك سار بمن اتبعه ، فانطلق إلى الأمة التى عند مغرب الشمس ؛ لأنها

كانت أقرب الأمم منه وهي ناسك، فوجد جموعا لا يحصيها إلا الله تعالى وقوة و بأسا لا يطيقه إلا الله، وألسنة مختلفة، وأهواء مُتشتّتة، فكاثرهم بالظلمة؛ فضرب حولهم ثلاث عساكر من جند الظلمة قدر ما أحاط بهم من كل مكان، حتى جمعتهم في مكان واحد، ثم دخل عليهم بالنور فدعاهم إلى الله تعالى و إلى عبادته ، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر وصدّ عنه، فأدخل على الذين تولوا الظلمة فغشيتهم من كل مكان، فدخلت إلى أفواههم وأنوفهم وأعينهم و بيوتهم وغشيتهم من كل مكان، فتحيروا وماجوا وأشفقوا أن يهلكوا ، فعجّوا إلى الله تعالى بصوت واحد : إنا آمنا؛ فكشفها عنهم، وأخذهم عنوة، ودخلوا في دعوته، فجند من أهل المغرب أمما عظيمة فجعلهم جندا واحدا، ثم انطلق بهم يقودهم، والظلمة تسوقهم وتحرسه من خلفه، والنور أمامهم يقوده و يدله ،وهو يسير في ناحية الأرض اليمنى يريد الأمة التي في قطر الأرض الأيمن وهي هاويل، وسخر الله تعالى يده وقلبه وعقله ونظره فلا يخطئ إذا عمل عملا، فإذا أتوا مخاضة أو بحرا بنى سفنا من ألواح صغار مثل النعال فنظمها في ساعة، ثم جعل فيها جميع من معه من تلك الأمم ، فإذا قطع البحار والأنهار فتقها ودفع إلى كل رجل لوحا فلا يكترث بحمله ، فانتهى إلى هاويل وفعل بهم كفعله بناسك فآمنوا، ففرغ منهم، وأخذ جيوشهم وانطلق إلى ناحية الأرض الأخرى حتى انتهى إلى منسك عند مطلع الشمس ، فعمل فيها وجند منها جنودا كفعله في الأولى،ثم كرّ مقبلا حتى أخذ ناحية الأرض اليسرى يريد تاويل، وهي الأمة التي تقابل هاويل بينهما عرض الأرض ، ففعل فيها كفعله فيما قبلها، ثم عطف إلى الأمم التي في وسط الأرض من الجن والإنس و يأجوج ومأجوج، فلما كان في بعض الطريق مما يلي منقطع الترك من المشرق قالت له أمة صالحة من الإنس : ياذا القرنين ! إن بين هذين الجبلين خلقا من خلق الله تعالى كثيرا ليس لهم عدد ، وليس فيهم مشابهة من الإنس،وهم أشباه البهائم؛ يأكلون العشب، و يفترسون الدواب والوحش كما تفترسها السباع، و يأكلون حشرات الأرض كلها من الحيات والعقارب والوزغ وكل ذي روح مما خلق الله تعالى في الأرض ، وليس لله تعالى خلق ينمو نماءهم في العام الواحد، فإن طالت المدة

فسيملئون الأرض، و يحلون أهلها، فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا و بينهم سدا ؟ وذكر الحديث؛ وسيأتى من صفة يأجوج ومأجوج والترك إذ هم نوع منهم ما فيه كفاية .

قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ ﴾ قال القشيرى أبو نصر : إن كان نبيا فهو وحى، وإن لم يكن نبيا فهو إلهام من الله تعالى . ﴿ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ قال إبراهيم بن السرى : خيّره بين هذين كما خيّر محمدا صلى الله عليه وسلم فقال : « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم » ونحوه . وقال أبو إسحق الزجاج : المعنى أن الله تعالى خيره بين هذين الحكمين؛ قال النحاس : وردّ على بن سليمان عليه قوله؛ لأنه لم يصح أن ذا القرنين نبى فيخاطب بهذا، فكيف يقول لربه عز وجل: «ثم يردّ إلى ربه»؟ وكيف يقول: «فسوف نعذبه » فيخاطب بالنون؟ قال : التقدير؛ قلنا يا محمد قالوا ياذا القرنين . قال أبو جعفر النحاس : هذا الذى قاله أبو الحسن لا يلزم منه شىء . أما قوله : « قلنا يا ذا القرنين » فيجوز أن يكون الله عز وجل خاطبه على لسان نبى فى وقته، ويجوز أن يكون قال له هذا كما قال لنبيه : « فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً »، وأما إشكال « فسوف نعذبه ثم يردّ إلى ربه » فإن تقديره أن الله تعالى لما خيّره بين القتل فى قوله تعالى : « إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ» و بين الاستبقاء فى قوله جل وعز : «وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا» قال لأولئك القوم : ﴿ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ أى أقام على الكفر منكم : ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ أى بالقتل : ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ ﴾ أى يوم القيامة : ﴿ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴾ أى شديدا فى جهنم : ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ ﴾ أى تاب من الكفر : ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ قال أحمد بن يحيى : « أن » فى موضع نصب فى « إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا » قال : ولو رفعت كان صوابا بمعنى فإما هو، كما قال :

فسيرا فإما حاجة تقضيانها • وإما مقيلٌ صالحٌ وصديقُ

﴿ فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى ﴾ قراءة أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم « فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى » بالرفع على الابتداء أو بالاستقرار . و « الحسنى » فى موضع خفض بالإضافة ويحذف التنوين للإضافة؛ أى له جزاء الحسنى عند الله تعالى فى الآخرة وهى الجنة ، فأضاف الجزاء إلى الجنة، كقوله :

«حقُّ اليقينِ » ، « ولدارُ الآخرة »؛ قاله الفراء . ويحتمل أن يريد بـ « بالحسنى » الأعمال الصالحة . ويمكن أن يكون الجزاء من ذي القرنين ؛ أي أعطيه وأتفضل عليه . ويجوز أن يحذف التنوين لالتقاء الساكنين ويكون « الحسنى » في موضع رفع على البدل عند البصريين ، وعلى الترجمة عند الكوفيين ، وعلى هذا قراءة ابن أبي إسحق « فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى » إلا أنك لم تحذف التنوين، وهو أجود . وقرأ سائر الكوفيين « فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى » منصوبا منونا ؛ أي فله الحسنى جزاءً . قال الفراء : «جزاءً» منصوب على التمييز . وقيل : على المصدر ؛ وقال الزجاج : هو مصدر في موضع الحال؛ أي مجزيا بها جزاء . وقرأ ابن عباس ومسروق « فَلَهُ جَزَاءَ الْحُسْنَى » منصوبا غير منون . وهي عند أبي حاتم على حذف التنوين لالتقاء الساكنين مثل « فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى » في أحد الوجهين . النحاس : وهذا عند غيره خطأ لأنه ليس موضع حذف تنوين لالتقاء الساكنين، ويكون تقديره : فله الثواب جزاءَ الحسنى .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ تقدم معناه أن أتبع واتّبع بمعنى، أي سلك طريقا ومنازل. ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ ﴾ وقرأ مجاهد وابن محيصن بفتح الميم واللام؛ يقال : طلَعت الشمسُ والكواكب طُلوعا ومطلَعا . والمطلَع والمطلِع أيضا موضع طلوعها؛ قاله الجوهري . المعنى أنه انتهى إلى موضع قوم لم يكن بينهم وبين مطلع الشمس أحد من الناس . والشمس تطلع وراء ذلك بمسافة بعيدة، فهذا معنى قوله تعالى : ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ . وقد اختلف فيهم؛ فعن وهب بن منبه ما تقدم ، وأنها أمة يقال لها منسك وهي مقابلة ناسك ؛ وقاله مقاتل . وقال قتادة : يقال لها الزنج . وقال الكلبي : هم تارس وهاويل ومنسك ؛ حفاة عراة عماة عن الحق ، يتسافدون مثل الكلاب ، ويتهارجون تهارج الحمر . وقيل : هم أهل جابَلْق، وهم من نسل مؤمني عاد الذين آمنوا بهود ، ويقال لهم بالسريانية مرقيسا . والذين عند مغرب الشمس هم أهل جابَرْس ؛ ولكل واحدة من المدينتين عشرة آلاف باب، بين كل بابين فرسخ . ووراء جابَلْق أمم، وهم تافيل وتارس، وهم يجاورون يأجوج ومأجوج. وأهل جابَرْس وجابَلْق آمنوا بالنبي عليه الصلاة والسلام؛ مر بهم ليلة الإسراء فدعاهم فأجابوه،

ودعا الأمم الآخرين فلم يجيبوه؛ ذكره السهيلي وقال: ٱختصرت هـذا كله من حديث طويل رواه مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ٱبن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . ورواه الطبري مسندا إلى مقاتل يرفعه؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴾ أى حجابا يستترون منها عند طلوعها . قال قتادة : لم يكن بينهم و بين الشمس ستر؛ كانوا فى مكان لا يستقر عليـه بناء، وهم يكونون فى أسراب لهم، حتى إذا زالت الشمس عنهم رجعوا إلى معايشهم وحروثهم؛ يعنى لا يستترون منها بكهف جبل ولا بيت يكنهم منهـا . وقال أمية : وجدت رجالا بسـمرقند يحدّثون النـاس، فقال بعضهم : خرجت حتى جاوزت الصين ، فقيل لى : إن بينك و بينهم مسيرة يوم وليلة ، فاستأجرت رجلا يرينيهم حتى صبحتهم، فوجدت أحدهم يفترش أذنه ويلتحف بالأخرى ، وكان صاحبى يحسن كلامهم ، فبتنا بهم ، فقالوا : فيم جئتم ؟ قلنا : جئنا ننـظر كيف تطلع الشمس؛ فبينا نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة ، فغشى علىّ، ثم أفقت وهم يمسحوننى بالدهن ، فلما طلعت الشمس على المـاء إذا هى على المـاء كهيئة الزيت ، و إذا طرف السماء كهيئة الفسطاط، فلما ٱرتفعت أدخلونى سربا لهم، فلما ٱرتفع النهـار وزالت الشمس عن رءوسهم خرجوا يصطادون السـمك ، فيطرحونه فى الشمس فينضج . وقال ٱبن جريج : جاءهم جيش مرة، فقال لهم أهلها : لاتطلع الشمس وأنتم بها، فقالوا : مانبرح حتى تطلع الشمس . ثم قالوا : ما هذه العظام ؟ قالوا : هذه والله عظام جيش طلعت عليهم الشمس ها هنا فماتوا . قال: فولوا هاربين فى الأرض . وقال الحسن: كانت أرضهم لاجبل فيها ولا شجر، وكانت لا تحمل البناء، فإذا طلعت عليهم الشمس نزلوا فى المـاء، فإذا ٱرتفعت عنهم خرجوا، فيتراعون كما تتراعى البهائم .

قلت : وهذه الأقوال تدل على أن لا مدينة هناك . والله أعلم . وربما يكون منهم من يدخل فى النهر، ومنهم من يدخل فى السرب فلا تناقض بين قول الحسن وقتادة .

قوله تعالى : ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ وهما جبلان من قبل أرمينية وأذربيجان. روى عطاء الخراساني عن ابن عباس : «بين السدين» الجبلين أرمينية وأذربيجان. ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا﴾ أي من ورائهما : ﴿قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ . وقرأ حمزة والكسائي «يُفْقِهُونَ» بضم الياء وكسر القاف من أفقه إذا أبان أي لا يفقهون غيرهم كلاما . الباقون بفتح الياء والقاف ، أي يعلمون . والقراءتان صحيحتان، فلا هم يفقهون من غيرهم ولا يفقهون غيرهم

قوله تعالى : ﴿قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ أي قالت له أمة من الإنس صالحة : ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ . قال الأخفش : من همز « يأجوج » جعل الألفين من الأصل يقول: يأجوج يَفْعول ومأجوج مَفْعول كأنه من أجيج النار. قال: ومن لا يهمز و يجعل الألفين زائدتين يقول: «ياجوج» من يججت وماجوج من مججت وهما غير مصروفين ، قال رؤبة :

لو أن ياجوجَ وماجوجَ معَا • وعادَ عادٌ واستجاشوا تُبَّعا

ذكره الجوهرى . وقيل : إنما لم ينصرفا لأنهما آسمان أعجميان، مثل طالوت وجالوت غير مشتقين؛ علتاهما فى منع الصرف العجمة والتعريف والتأنيث . وقالت فرقة : هو معرب من أجّ وأجّج علتاه فى منع الصرف التعريف والتأنيث . وقال أبو علىّ : يجوز أن يكونا عربيين ؛ فمن همز « يأجوج » فهو على وزن يفعول مثل يربوع، من قولك أجّت النارُ أى ضويت، ومنه الأجيج، ومنه ملح أجاج، ومن لم يهمز أمكن أن يكون خفف الهمزة فقلبها ألفا مثل راس، وأما «مأجوج» فهو مفعول من أجّ، والكلمتان من أصل واحد فى الاشتقاق ومن لم يهمز فيجوز أن يكون خفف الهمزة، ويجوز أن يكون فاعولا من مَجّ، وترك الصرف فيهما للتأنيث والتعريف كأنه آسم للقبيلة . وآختلف فى إفسادهم؛ سعيد بن عبد العزيز : إفسادهم أكل بنى آدم . وقالت فرقة : إفسادهم إنما كان متوقعا، أى سيفسدون، فطلبوا وجه التحرز منهم . وقالت فرقة : إفسادهم هو الظلم والغَشْم والقتل وسائر وجوه الإفساد المعلوم من البشر، والله أعلم . وقد وردت أخبار بصفتهم وخروجهم وأنهم ولد يافث . روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "ولد لنوح سام وحام ويافث فولد سام العرب وفارس والروم والخير فيهم وولد يافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة ولا خير فيهم وولد حام القبط والبربر والسودان" . وقال كعب الأحبار : آحتلم آدم عليه السلام فاختلط ماؤه بالتراب فأسف فخلقوا من ذلك الماء، فهم متصلون بنا من جهة الأب لا من جهة الأم . وهذا فيه نظر ؛ لأن الأنبياء صلوات الله عليهم لا يحتلمون، وإنما هم من ولد يافث، وكذلك قال مقاتل وغيره . وروى أبو سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا يموت رجل منهم حتى يولد لصلبه ألف رجل" . يعنى يأجوج ومأجوج . وقال أبو سعيد : هم خمس وعشرون قبيلة من وراء يأجوج ومأجوج لا يموت الرجل من هؤلاء ومن يأجوج ومأجوج حتى يخرج من صلبه ألف رجل ؛ ذكره القشيرى . وقال عبد الله بن مسعود : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن يأجوج ومأجوج، فقال عليه الصلاة والسلام : "يأجوج ومأجوج أمتان كل أمة أربعمائة ألف [أمة][1] كل أمة لا يعلم عددها إلا الله لا يموت الرجل

(١) الزيادة من الدر المنثور .

منهم حتى يولد له ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح" قيل : يارسول الله صفهم لنا. قال : " هم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال الأرز[1] — شجر بالشام طول الشجرة عشرون ومائة ذراع — وصنف عرضه وطوله سواء نحوا من الذراع وصنف يفترش أذنه ويلتحف بالأخرى لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه ويأكلون من مات منهم مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان يشربون أنهار الشرق وبحيرة طبرية فيمنعهم الله من مكة والمدينة وبيت المقدس " . وقال علي رضي الله تعالى عنه : وصنف منهم في طول شبر، لهم مخالب وأنياب السباع، وتداعي الحمام، وتسافد البهائم، وعواء الذئاب، وشعور تقيهم الحر والبرد، وآذان عظام إحداها وبرة يشتون فيها، والأخرى جلدة يصيفون فيها، يحفرون السد حتى كادوا ينقبونه فيعيده الله كما كان، فيقولون : ننقبه غدا إن شاء الله تعالى فينقبونه ويخرجون، ويتحصن الناس بالحصون، فيرمون إلى السماء فيرد السهم عليهم ملطخا بالدم، ثم يهلكهم الله تعالى بالنغف[2] في رقابهم . ذكره الغزنوي . وقال علي عن النبي صلى الله عليه وسلم : " يأجوج أمة لها أربعمائة أمير وكذا مأجوج لا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف فارس من ولده " .

قلت : وقد جاء مرفوعا من حديث أبي هريرة ، خرجه ابن ماجه في السنن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن يأجوج ومأجوج يحفران كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا فيعيده الله أشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال ارجعوا فستحفرونه غدا إن شاء الله تعالى فاستثنوا فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون[3] الماء ويتحصن الناس منهم في حصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فيرجع عليها الدم — الذي أحفظ[4] — فيقولون قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء فيبعث الله تعالى عليهم نغفا في أقفائهم فيقتلهم بها " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكرا من لحومهم " قال الجوهري

(١) الأرز: شجر الصنوبر . | (٢) النغف (بالتحريك): دود يكون في أنوف الإبل والغنم واحدتها نغفة.
(٣) ينشفون الماء: أي يشربونه . (٤) هذا من كلام الراوي . (هامش ابن ماجه) .

شَكِرت الناقةُ تَشكَرَ شكَرًا فهى شكِرة ؛ وأشكر الضرع أمتلأ لبنا . وقال وهب بن منبه : رآهم ذو القرنين ، وطول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منا ، لهم مخـاليب فى مواضع الأظفار وأضراس وأنيـاب كالسباع ، وأحناك كأحناك الإبل ، وهم هُلْبٌ عليهم من الشعر مَا يواريهم ، ولكل واحد منهم أذنان عظيمتان ، يلتحف إحداهما ويفترش الأخرى ، وكل واحد منهم قد عرف أجله لا يموت حتى يخرج له من صلبه ألف رجل إن كان ذكرا ، ومن رحمها ألف أنثى إن كانت أنثى . وقال السدى والضحاك : الترك شرذمة من ياجوج ومأجوج خرجت تغير ، فجاء ذو القرنين فضرب السدّ فبقيت فى هذا الجانب . قال السُّدى : بُنى السدّ على إحدى وعشرين قبيلة ، وبقيت منهم قبيلة واحدة دون السدّ فهم التّرك . وقاله قتادة .

قلت : وإذا كان هـذا ، فقد نعت النبى صـلى الله عليه وسـلم الترك كما نعت يأجوج ومأجوج ، فقال عليـه الصلاة والسلام : " لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون التّرك قوماً وجوههم كالمجانّ المُطْرَقَة يلبَسون الشّعر ويمشون فى الشّعر " فى رواية " ينتعلون الشّعر " خرجه مسلم وأبو داود وغيرهما . ولمـا علم النبى صلى الله عليه وسلم عددهم وكثرتهم وحِدّة شوكتهم قال عليه الصلاة والسلام : " آتركوا الترك ما تركوكم " . وقـد خرج منهم فى هذا الوقت أمم لا يحصيهم إلا الله تعالى ، ولا يردهم عن المسلمين إلا الله تعالى ، حتى كأنهم يأجوج ومأجوج أو مقدمتهم . وروى أبو داود عن أبى بكرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ينزل ناس من أمتى بغائط يسمونه البصرة عنـد نهر يقال له دجلة يكون عليـه جسر يكثر أهلها وتكون من أمصار المهاجرين — قال ابن يحيى قال أبو معمر — وتكون من أمصار المسلمين فإذا كان فى آخر الزمان جاء بنو قنطوراء عراض الوجوه صغار الأعين حتى ينزلوا على شاطئ النهـر فيتفرق أهلها ثلاث فرق فرقة يأخذون أذناب البقـر والبرية وهلكوا وفـرقة يأخذون لأنفسهم وكفروا وفرقة يجعلون ذراريهم خلف ظهـورهم ويقاتلونهم وهم الشهداء " . الغائط المطمئن من الأرض . والبصرة الحجارة الرخوة وبها سميت البصرة . وبنو قنطوراء هم الترك . يقال : إنّ قنطوراء آسم جارية كانت لإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ، ولدت له أولادا جاء من نسلهم الترك .

قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ استفهام على جهة حسن الأدب . « خَرْجًا » أى جعلا . وقرئ « خراجا » والخرج أخص من الخراج . يقال : أَدِّ خَرْجَ رأسك وخَرَاج مدينتك . وقال الأزهرى : الخراج يقع على الضريبة ، ويقع على مال الفىء ، ويقع على الجزية ، وعلى الغلة . والخراج اسم لما يخرج من الفرائض فى الأموال . والخرج : المصدر . وقوله تعالى : ﴿ عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ أى ردما ؛ والردم ماجعل بعضه على بعض حتى يتصل . وثوب مردم أى مرقع ؛ قاله الهروى . يقال : ردمت الثلمة أردِمها بالكسر ردما أى سددتها . والردم أيضا الاسم وهو السد . وقيل : الردم أبلغ من السد إذ السد كل مايسد به ، والردم وضع الشيء على الشيء من حجارة أو تراب أو نحوه حتى يقوم من ذلك حجاب منيع . ومنه ردم ثوبه إذا رقعه برقاع متكاثفة بعضها فوق بعض . ومنه قول عنترة :

* هل غادر الشعراء من متردم * [1]

أى من قول يُركّب بعضه على بعض . وقرئ « سَدًّا » بالفتح فى السين ؛ فقال الخليل وسيبويه : الضم هو الاسم والفتح المصدر . وقال الكسائى : الفتح والضم لغتان بمعنى واحد . وقال عكرمة وأبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة : ماكان من خلقة الله لم يشاركه فيه أحد بعمل فهو بالضم ، وما كان من صنع البشر فهو بالفتح . ويلزم أهل هذه المقالة أن يقرءوا « سَدًّا » بالفتح ، وقبله « بين السُّدَّيْنِ » بالضم ، وهى قراءة حمزة والكسائى . وقال أبو حاتم عن ابن عباس وعكرمة عكس ماقال أبو عبيدة . وقال ابن أبى إسحق : مارأته عيناك فهو سُد بالضم ، وما لا ترى فهو سَد بالفتح .

الثانيــة ــ فى هذه الآية دليل على اتخاذ السجون ، وحبس أهل الفساد فيها ، ومنعهم من التصرف لما يريدونه ، ولا يتركون وما هم عليه ، بل يوجعون ضربا ويحبسون أو يكفلون ويطلقون كما فعل عمر رضى الله عنه .

---

(١) تمامه : * أم هل عرفت الدار بعد توهم *

قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ المعنى قال لهم ذو القرنين : ما بسطه الله تعالى لى من القدرة والملك خير من خرجكم وأموالكم ولكن أعينونى بقوة الأ [illegible] ؛ أى برجال وعمل منكم بالأبدان ، والآلة التى أبنى بها الردم وهو السدّ . وهذا تأييد من الله تعالى لذى القرنين فى هذه المحاورة ؛ فإن القوم لو جمعوا له خرجا لم يعنه أحد ولوكلوه إلى البنيان ، ومعونته بأنفسهم أجمل به وأسرع فى انقضاء هذا العمل ، وربما أربى ما ذكروه له على الخرج . وقرأ ابن كثير وحده «مَا مَكَّنَنِي» بنونين . وقرأ الباقون « مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي » .

الثانيــة — فى هذه الآية دليل على أن الملك فرض عليه أن يقوم بحماية الخلق فى حفظ بيضتهم ، وسدّ فرجتهم ، وإصلاح ثغورهم ، من أموالهم التى تفىء عليهم ، وحقوقهم التى تجمعها خزانتهم تحت يده ونظره ، حتى لو أكلتها الحقوق ، وأنفدتها المؤن ، لكان عليهم جبر ذلك من أموالهم ، وعليه حسن النظر لهم ؛ وذلك بثلاثة شروط : الأول — ألا يستأثر عليهم بشىء . الثانى — أن يبدأ بأهل الحاجة فيعينهم . الثالث — أن يسوّى فى العطاء بينهم على قدر منازلهم ، فإذا فنيت بعد هذا وبقيت صفرا فأطلعت الحوادث أمرا بذلوا أنفسهم قبل أموالهم ، فإن لم يغن ذلك فأموالهم تؤخذ منهم على تقدير ، وتُصرف بتدبير ؛ فهذا ذو القرنين لما عرضوا عليه المال فى أن يكفّ عنهم ما يحذرونه من عادية يأجوج ومأجوج ؛ قال : لست أحتاج إليه وإنما أحتاج إليكم « فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ » أى اخدموا بأنفسكم معى ، فإن الأموال عندى والرجال عندكم ، ورأى أن الأموال لا تغنى عنهم ، فإنه إن أخذها أجرة نقص ذلك مما يحتاج إليه ، فيعود بالأجر عليهم ، فكان التطوع بخدمة الأبدان أولى . وضابط الأمر أنه لا يحل مال أحد إلا لضرورة تعرض ، فيؤخذ ذلك المال جهرا لا سرا ، وينفق بالعدل لا بالاستئثار ، وبرأى الجماعة لا بالاستبداد بالأمر . والله تعالى الموفق للصواب .

قوله تعالى : ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ أى أعطونى زبر الحديد وناولونيها . أمرهم بنقل الآلة ، وهذا كله إنما هو استدعاء العطية التى بغير معنى الهبة ، وإنما هو استدعاء للمناولة ،

لأنه قد ارتبط من قوله : إنه لا يأخذ منهم الخرج، فلم يبق إلا استدعاء المناولة، وأعمال الأبدان . « وَزُبَرَ الْحَدِيدِ » قطع الحديد . وأصل الكلمة الاجتماع، ومنه زُبْرة الأسد لما اجتمع من الشعر على كاهله . وزبرت الكتاب أى كتبته وجمعت حروفه . وقرأ أبو بكر والمفضل « ردما آيتونى » من الإتيان الذى هو المجىء؛ أى جيئونى بزبر الحديد، فلما سقط الخافض انتصب الفعل على نحو قول الشاعر(١) :

* أَمَرْتُكَ الخَيْرَ ... *

حذف الجار فنصب الفعل . وقرأ الجمهور « زُبَرَ » بفتح الباء . وقرأ الحسن بضمها؛ وكل ذلك جمع زُبْرة وهى القطعة العظيمة منه .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ ﴾ يعنى البناء فحذف لقوة الكلام عليه . ﴿ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ قال أبو عبيدة : هما جانبا الجبل، وسميا بذلك لتصادفهما أى لتلاقيهما . وقاله الزهرى وابن عباس؛ كأنه يعرض عن الآخر؛ من الصدوف؛ قال الشاعر :

كِلَا الصَّدَفَيْنِ يَنْفُذُهُ سَنَاهَا * تَوَقُّدُ مِثْلَ مِصْبَاحِ الظَّلَامِ

ويقال للبناء المرتفع صدف، تشبيه بجانب الجبل . وفى الحديث : كان إذا مر بصدف مائل أسرع المشى . قال أبو عبيد : الصدف والهدف كل بناء عظيم مرتفع . ابن عطية : الصَّدَفان الجبلان المتناوحان(٢) ولا يقال للواحد صَدَف، وإنما يقال صَدَفان للاثنين؛ لأن أحدهما يصادف الآخر . وقرأ نافع وحمزة والكسائى « الصَّدَفَيْنِ » بفتح الصاد وشدها وفتح الدال، وهى قراءة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وعمر بن عبد العزيز، وهى اختيار أبى عبيدة لأنها أشهر اللغات . وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو « الصُّدُفين » بضم الصاد والدال . وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر « الصُّدْفَيْنِ » بضم الصاد وسكون الدال، نحو الجُرُف والجُرْف . فهو تخفيف . وقرأ ابن الماجشون بفتح الصاد وضم الدال . وقرأ قتادة « بين الصَّدْفين » بفتح الصاد وسكون الدال، وكل ذلك بمعنى واحد وهما الجبلان المتناوحان .

(١) هو عمرو بن معدى كرب الزبيدى . والبيت بتمامه :

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به ... فقد تركتك ذا مال وذا نشب

(٢) التناوح : التقابل .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱنفُخُوا ﴾ إلى آخر الآية أى على زبر الحديد بالأكيار، وذلك أنه كان يأمر بوضع طاقة من الزبر والحجارة، ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى تحمى، والحديد إذا أوقد عليه صار كالنار، فذلك قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا ﴾ ثم يؤتى بالنحاس المذاب أو بالرصاص أو بالحديد بحسب الخلاف فى القطر، فيفرغه على تلك الطاقة المنضدة، فإذا التأم واشتد ولصق البعض بالبعض استأنف وضع طاقة أخرى، إلى أن ٱستوى العمل فصار جبلا صلدا . قال قتادة : هو كالبُرد المحبَّر، طريقة سوداء، وطريقة حمراء . و يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه رجل فقال : يارسول الله ! إنى رأيت سدّ يأجوج ومأجوج ، قال : "كيف رأيته" قال : رأيته كالبُرد المحبَّر، طريقة صفراء، وطريقة حمراء، وطريقة سوداء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قد رأيته" . ومعنى « حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا » أى كالنار . ومعنى ﴿ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ أى أعطونى قطرا أفرغ عليه ، على التقديم والتأخير . ومن قرأ « ٱئتونى » فالمعنى عنده تعالوا أفرغ عليه نحاسا . والقطر عند أكثر المفسرين النحاس المذاب، وأصله من القَطْر؛ لأنه إذا أذيب قطر كما يقطر الماء . وقالت فرقة : القطر الحديد المذاب . وقالت فرقة منهم ٱبن الأنبارى : الرصاص المذاب . وهو مشتق من قَطَر يَقطُر قَطْرا . ومنه « وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ » .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ أى ما ٱستطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوه ويصعدوا فيه ؛ لأنه أملس مستو مع الجبل والجبل عالٍ لا يرام . وٱرتفاع السد مائتا ذراع وخمسون ذراعا . وروى : فى طوله ما بين طرفى الجبلين مائة فرسخ ، وفى عرضه خمسون فرسخا ؛ قاله وهب بن منبه . ﴿ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا لَهُۥ نَقْبًا ﴾ لبعد عرضه وقوته . وروى فى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثلُ هذه" وعقد وهب بن منبه بيده تسعين — وفى رواية — وحلّق بإصبعه الإبهام والتى تليها ؛ وذكر الحديث . وذكر يحيى بن سلّام عن سعد بن أبى عَرُوبة عن قتادة عن أبى رافع عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن يأجوج ومأجوج

يخرقون السدّ كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم آرجعوا فستخرقونه غدا فيعيده الله كأشدّ ما كان حتى إذا بلغت مدّتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم آرجعوا فستحفرونه إن شاء الله فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيخرقونه ويخرجون على الناس " الحديث وقد تقدّم .

قوله تعالى : « فَمَا آسْطَاعُوا » بتخفيف الطاء على قراءة الجمهور . وقيل : هي لغة بمعنى آستطاعوا . وقيل : بل آستطاعوا بعينه كثر في كلام العرب حتى حذف بعضهم منه التاء فقالوا : آسطاعوا . وحذف بعضهم منه الطاء فقال : آستاع يستيع بمعنى آستطاع يستطيع ، وهي لغة مشهورة . وقرأ حمزة وحده « فما آسطّاعوا » بتشديد الطاء كأنه أراد آستطاعوا، ثم أدغم التاء في الطاء فشدّدها ، وهي قراءة ضعيفة الوجه ؛ قال أبو علي : هي غير جائزة[1] . وقرأ الأعمش « فَمَا آسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا آسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا » بالتاء في الموضعين .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ﴾ القائل ذو القرنين، وأشار بهذا إلى الردم ، والقوّة عليه ، والآنتفاع به في دفع ضرر يأجوج ومأجوج . وقرأ ابن أبي عبلة « هذه رحمةٌ من ربي » .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ أي يوم القيامة . وقيل : وقت خروجهم . ﴿ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ أي مستويا بالأرض ؛ ومنه قوله تعالى : « إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ » قال ابن عرفة : أي جعلت مستوية لا أكمة فيها، ومنه قوله تعالى : « جعله دكا » قال اليزيدي : أي مستويا؛ يقال : ناقة دكاء إذا ذهب سنامها . وقال القتبي : أي جعله مدكوكا ملصقا بالأرض . وقال الكلبي : قطعا متكسرا؛ قال :

* هل غيرُ غادٍ دَكَّ غارا فانهدم *

(١) وقال النحاس : لا يقدر أحد أن ينطق بها ؛ لأن السين ساكنة والطاء المدغمة ساكنة ، وقال سيبويه : هذا محال .

وقال الأزهري : يقال دككته أي دققته . ومن قرأ « دَكَّاءَ » أراد جعل الجبل أرضا دكاء، وهي الرابية التي لا تبلغ أن تكون جبلا وجمعها دكاوات. قرأ حمزة وعاصم والكسائي « دكاء » بالمد على التشبيه بالناقة الدكاء، وهي التي لا سنام لها، وفي الكلام حذف تقديره جعله مثل دكاء، ولابد من تقدير هذا الحذف. لأن السد مذكر فلا يوصف بدكاء . ومن قرأ « دَكًّا » فهو مصدر دكَّ يدك إذا هدم ورض ، ويحتمل أن يكون « جعل » بمعنى خلق . وينصب «دكًّا» على الحال. وكذلك النصب أيضا في قراءة من مد يحتمل الوجهين.

قوله تعالى : وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ الضمير فى « تركنا » لله تعالى ؛ أى تركنا الجن والإنس يوم القيامة يموج بعضهم فى بعض . وقيل : تركنا يأجوج ومأجوج « يومئذ » أى وقت كمال السدّ يموج بعضهم فى بعض . وآستعارة الموج لهم عبارة عن الحيرة وتردّد بعضهم فى بعض ، كالمولهين من همّ وخوف ؛ فشبههم بموج البحر الذى يضطرب بعضه فى بعض . وقيل : تركنا يأجوج ومأجوج يوم آنفتاح السدّ يموجون فى الدنيا مختلطين لكثرتهم .

قلت : فهذه ثلاثة أقوال ، أظهرها أوسطها ، وأبعدها آخرها . وحسن الأول ؛ لأنه تقدّم ذكر القيامة فى تأويل قوله تعالى : « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي » . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ تقدّم فى « الأنعام »(١) . ﴿ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ يعنى الجن والإنس فى عرصات القيامة . ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ ﴾ أى أبرزناها لهم . ﴿ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾ . ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ ﴾ فى موضع خفض نعت « للكافرين » . ﴿ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي ﴾ أى هم بمنزلة من عينه مغطاة فلا ينظر إلى دلائل الله تعالى . ﴿ وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ أى لا يطيقون أن يسمعوا كلام الله تعالى ، فهم بمنزلة من صمّ .

قوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى ظن . وقرأ علىّ وعكرمة ومجاهد وابن محيصن « أَفَحَسْبُ » بإسكان السين وضم الباء ؛ أى كفاهم . ﴿ أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي ﴾ يعنى عيسى والملائكة وعزيرا . ﴿ مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾ ولا أعاقبهم ؛ ففى الكلام حذف . وقال الزجاج : المعنى ؛ أفحسبوا أن ينفعهم ذلك . ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَزْنًا ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى ـ قوله تعالى : « قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا » ـ الآية ـ فيه دلالة على أن من الناس من يعمل العمل وهو يظن أنه محسن وقد حبط سعيه ، والذى يوجب إحباط السعى إما فساد الاعتقاد أو المراءاة ، والمراد هنا الكفر . روى البخارى عن مصعب قال :

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

سألت أبي « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا » أهم الحَرُورية ؟ قال : لا ؛ هم اليهود والنصارى . أما اليهود فكذّبوا محمدا صلى الله عليه وسلم ، وأما النصارى فكفروا بالجنة ، فقالوا : لا طعام فيها ولا شراب ؛ والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ؛ وكان ... يسميهم الفاسقين . والآية معناها التوبيخ ؛ أى قل لهؤلاء الكفرة الذين عبدوا غيرى : يخيب سعيهم وآمالهم غدا ؛ فهم الأخسرون أعمالا ، وهم ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ فى عبادة من سواى . قال ابن عباس : يريد كفار أهل مكة . وقال علىّ : هم الخوارج أهل حروراء . وقال مرّة : هم الرهبان أصحاب الصوامع . وروى أن ابن الكواء سأله عن الأخسرين أعمالا فقال له : أنت وأصحابك . قال ابن عطية : ويضعف هذا كله قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ وليس من هذه الطوائف من يكفر بالله ولقائه والبعث والنشور ، وإنما هذه صفة مشرك مكة عبدة الأوثان ؛ وعلىّ وسعد رضى الله عنهما ذكرا أقواما أخذوا بحظهم من هذه الآية . و « أعمالا » نصب على التمييز . و « حبطت » قراءة الجمهور بكسر الباء . وقرأ ابن عباس « حبَطت » بفتحها .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ قراءة الجمهور « نقيم » بنون العظمة . وقرأ مجاهد بياء الغائب ؛ يريد فلا يقيم الله عز وجل . وقرأ عبيد بن عمير « فلا يقوم » ويلزمه أن يقرأ « وزن » وكذلك قرأ مجاهد « فَلَا يَقُومُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنٌ » . قال عبيد بن عمير : يؤتى يوم القيامة بالرجل العظيم الطويل الأكول الشروب فلا يزن عند الله جناح بعوضة .

قلت : هذا لا يقال مثله من جهة الرأى ، وقد ثبت معناه مرفوعا فى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنه ليأتى الرجلُ العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة اقرءوا إن شئتم « فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا » " . والمعنى أنهم لا ثواب لهم ، وأعمالهم مقابلة بالعذاب ، فلا حسنة لهم توزن فى موازين القيامة ومن لا حسنة له فهو فى النار . وقال أبو سعيد الخدرى : يؤتى بأعمال

بجبال تهامة فلا تزن شيئا . وقيل : يحتمل أن يريد المجاز والاستعارة؛ كأنه قال : فلا قدر لهم عندنا يومئذ؛ والله أعلم . وفى هذا الحديث من الفقه ذمّ السِّمَن لمن تكلّفه، لما فى ذلك من تكلف المطاعم والاشتغال بها عن المكارم؛ بل يدل على تحريم الأكل الزائد على قدر الكفاية المبتغى به الترفه والسِّمَن . وقد قال صلى الله عليه وسلم : " إن أبغض الرجال إلى الله تعالى الحبر السَّمين " . ومن حديث عِمران بن حُصَين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " خيركم قرنى ثم الذين يلونهم ــ قال عمران فلا أدرى أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة ــ ثم إن من بعدكم قومًا يَشهدون ولا يُستشهدون ويخونون ولا يُؤتمنون ويَنذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السِّمَن " وهذا ذمّ . وسبب ذلك أن السِّمَن المكتسب إنما هو من كثرة الأكل والشَّرَه ، والدعة والراحة والأمن والاسترسال مع النفس على شهواتها، فهو عبد نفسه لا عبد ربه ، ومن كان هذا حاله وقع لا محالة فى الحرام، وكل لحم تولد عن سحت فالنار أولى به ؛ وقد ذمّ الله تعالى الكفار بكثرة الأكل فقال : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ » فإذا كان المؤمن يتشبه بهم، ويتنعم بتنعمهم فى كل أحواله وأزمانه، فأين حقيقة الإيمان ، والقيام بوظائف الإسلام ؟! ومن كثر أكله وشربه كثر نهمه وحرصه، وزاد بالليل كسله ونومه، فكان نهاره هائما، وليله نائما . وقد مضى فى « الأعراف »(1) هذا المعنى؛ وتقدّم فيها ذكر الميزان(2) ، وأن له كفتين توزن فيهما صحائف الأعمال فلا معنى للإعادة . وقال عليه الصلاة والسلام حين ضحكوا من حَمْش(3) ساق ابن مسعود وهو يصعد النخلة : " تضحكون من ساق توزن بعمل أهل الأرض " فدل هذا على أن الأشخاص توزن؛ ذكره الغزنوى .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ ﴾ « ذلك » إشارة إلى ترك الوزن، وهو فى موضع رفع بالابتداء « جزاؤهم » خبره و ﴿ جَهَنَّمُ ﴾ بدل من المبتدإ الذى هو « ذلك » و « ما » فى قوله : ﴿ بِمَا كَفَرُوا ﴾ مصدرية؛ والهزء الاستخفاف والسخرية؛ وقد تقدّم .

---

(1) راجع جـ ٧ ص ١٩٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (2) راجع جـ ٧ ص ١٦٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (3) حمش الساق : دقيقها .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ قال قتادة : الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأعلاها وأفضلها وأرفعها. وقال أبو أمامة الباهلي: الفردوس سرة الجنة. وقال كعب : ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس؛ فيها الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر. وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقا على الله أن يدخله الجنة جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها " قالوا : يا رسول الله أفلا نبشر الناس؟ قال : "إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة — أراه قال — وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة " وقال مجاهد : والفردوس البستان بالرومية . الفراء : هو عربي . والفردوس حديقة في الجنة . وفردوس اسم روضة دون اليمامة . والجمع فراديس، قال أمية بن أبي الصلت الثقفي :

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرةً * فيها الفراديسُ والفومانُ والبصلُ

والفراديس موضع بالشام . وكَرْمٌ مُفَرْدَس أي مُعرَّش . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي دائمين . ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ أي لا يطلبون تحويلا عنها إلى غيرها . والحول بمعنى التحويل؛ قاله أبو علي . وقال الزجاج : حال من مكانه حِوَلًا كما يقال : عَظُم عِظَمًا . قال : ويجوز أن يكون من الحيلة، أي لا يحتالون منزلا غيرها . قال الجوهري : التحول التنقل من موضع إلى موضع، والاسم الحِوَل، ومنه قوله تعالى : « خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا » .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ نفد الشيء إذا تم وفرغ؛ وقد تقدم . ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ أي زيادة على البحر عددا أو وزنا . وفي مصحف أبي « مِدَادًا » وكذلك قرأها مجاهد وابن محيصن وحميد . وانتصب « مددا » على التمييز أو الحال . وقال ابن عباس : قالت اليهود لما قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » قالوا : وكيف وقد أوتينا التوراة ، ومن

أوتى التوراة فقد أوتى خيرا كثيرا ؟ فنزلت « قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ » الآية . وقيل : قالت اليهود إنك أوتيت الحكمة، ومن أوتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا، ثم زعمت أنك لاعلم لك بالروح ؟ ! فقال الله تعالى قل : وإن أوتيت القرآن وأوتيتم التوراة فهى بالنسبة إلى كلمات الله تعالى قليلة . قال ابن عباس : « كَلِمَاتُ رَبِّي » أى مواعظ ربى . وقيل : عنى بالكلمات الكلام القديم الذى لاغاية له ولا منتهى، وهو وإن كان واحدا فيجوز أن يعبر عنه بلفظ الجمع لما فيه من فوائد الكلمات، ولأنه ينوب منابها، فجازت العبارة عنها بصيغة الجمع تفخيما؛ وقال الأعشى .

ووجهٌ نقىُّ اللون صافٍ يَزِينُه * مع الجِيدِ لَبَّاتٌ لها ومَعَاصِمُ

فعبر باللبات عن اللبة . وفى التنزيل « نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ » و« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ » « وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ » وكذلك « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً » لأنه قام مقام أمة . وقيل : أى ما نفدت العبارات والدلالات التى تدل على مفهومات معانى كلامه سبحانه وتعالى. وقال السدى : أى إن كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد صفات الجنة التى هى دار الثواب . وقال عكرمة : لنفد البحر قبل أن ينفد ثواب من قال لا إله إلا الله . ونظير هذه الآية « وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ » . وقرأ حمزة والكسائى « قَبْلَ أَنْ يَنْفَدَ » بالياء لتقدم الفعل .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ أى لا أعلم إلا ما يعلمنى الله تعالى، وعلم الله تعالى لايحصى، وإنما أمرت بأن أبلغكم بأنه لا إله إلا الله . ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ أى يرجو رؤيته وثوابه ويخشى عقابه ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ قال ابن عباس : نزلت فى جُندب بن زهير العامرى، قال : يا رسول الله إنى أعمل العمل لله تعالى، وأريد وجه الله تعالى، إلا أنه إذا اطُّلِع عليه سرَّنى؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "إن الله طيِّبٌ ولا يقبل إلا الطيب ولا يقبل ما شُورِكَ فيه" فنزلت الآية . وقال طاوس قال رجل : يا رسول الله! إنى أحب الجهاد فى سبيل الله تعالى وأحب أن يُرى مكانى فنزلت

هذه الآية . وقال مجاهد : جاء رجل للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله! إني أتصدق وأصل الرَّحم ولا أصنع ذلك إلا لله تعالى فيذكر ذلك مني وأُحمد عليه فيسرّني ذلك وأُعجَب به، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئا ، فأنزل الله تعالى « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » .

قلت : والكل مراد، والآية تعم ذلك كله وغيره من الأعمال . وقد تقدم في سورة « هود »[1] حديث أبي هريرة الصحيح في الثلاثة الذين يقضى عليهم أول الناس . وقد تقدم في سورة « النساء »[2] الكلام على الرياء ، وذكرنا من الأخبار هناك ما فيه كفاية . وقال الماوردي وقال جميع أهل التأويل : معنى قوله تعالى : « وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » إنه لا يرائي بعمله أحدا . وروى الترمذي الحكيم رحمه الله تعالى في « نوادر الأصول » قال : حدثنا أبي رحمه الله تعالى قال : حدثنا مكي بن إبراهيم قال : حدثنا عبد الواحد ابن زيد عن عبادة بن نُسَيّ قال : أتيت شداد بن أوس في مصلاه وهو يبكي، فقلت : ما الذي أبكاك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما، إذ رأيت بوجهه أمرا ساءني فقلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما الذي أرى بوجهك ؟ قال : " أمرا أتخوفه على أمتي من بعدي " قلت : ما هو يا رسول الله ؟ قال : " الشرك والشهوة الخفية " قلت : يا رسول الله ! وتشرك أمتك من بعدك؟ قال : " يا شداد أما إنهم لا يعبدون شمسا ولا قمرا ولا حجرا ولا وثنا ولكنهم يراءون بأعمالهم " قلت : والرياء شرك هو؟ قال : " نعم " . قلت : فما الشهوة الخفية ؟ قال : " يصبح أحدهم صائما فتعرض له شهوات الدنيا فيفطر" قال عبد الواحد : فلقيت الحسن، فقلت : يا أبا سعيد ! أخبرني عن الرياء أشرك هو؟ قال : نعم؛ أما تقرأ « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » . وروى إسمعيل بن إسحق قال حدثنا محمد بن أبي بكر قال حدثنا المعتمر بن سليمان عن ليث عن شهر بن حوشب قال : كان عبادة بن الصامت وشداد

(١) راجع جـ ٩ ص ١٤ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٥ ص ١٨٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

ابن أوس جالسين، فقالا : إنا نتخوف على هذه الأمة من الشرك والشهوة الخفية، فأما الشهوة الخفية فمن قبل النساء . وقالا : سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من صلى صلاة يرائي بها فقد أشرك ومن صام صياما يرائي به فقد أشرك " ثم تلا « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » .

قلت : وقد جاء تفسير الشهوة الخفية بخلاف هذا، وقد ذكرناه في « النساء »(١) . وقال سهل بن عبد الله : وسئل الحسن عن الإخلاص والرياء فقال : من الإخلاص أن تحب أن تُكتم حسناتك ولا تحب أن تُكتم سيئاتك، فإن أظهر الله عليك حسناتك تقول هذا من فضلك وإحسانك ، وليس هذا من فعلي ولا من صنيعي، وتذكر قوله تعالى : « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » . « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا » الآية؛ يؤتون الإخلاص، وهم يخافون ألا يقبل منهم؛ وأما الرياء فطلب حظ النفس من عملها في الدنيا، قيل له : كيف يكون هذا ؟ قال : من طلب بعمل بينه وبين الله تعالى سوى وجه الله تعالى والدار الآخرة فهو رياء . وقال علماؤنا رضي الله تعالى عنهم : وقد يفضي الرياء بصاحبه إلى استهزاء الناس به ، كما يحكى أن طاهر بن الحسين قال لأبي عبد الله المروزي : منذ كم صرت إلى العراق يا أبا عبد الله ؟ قال : دخلت العراق منذ عشرين سنة وأنا منذ ثلاثين سنة صائم؛ فقال يا أبا عبد الله سألناك عن مسئلة فأجبتنا عن مسئلتين . وحكى الأصمعي أن أعرابيا صلى فأطال وإلى جانبه قوم ، فقالوا : ما أحسن صلاتك ؟ ! فقال : وأنا مع ذلك صائم . أين هذا من قول الأشعث بن قيس وقد صلى فخفف ، فقيل له إنك خففت، فقال : إنه لم يخالطها رياء؛ فخلص من تنقصهم بنفي الرياء عن نفسه ، والتصنع من صلاته ؛ وقد تقدم في « النساء »(٢) دواء الرياء من قول لقمان؛ وأنه كتمان العمل . وروى الترمذي الحكيم حدثنا أبي رحمه الله تعالى قال : أنبأنا الحماني قال : أنبأنا جرير عن ليث عن شيخ عن معقل بن يسار قال قال أبو بكر وشهد به على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك ، قال : " هو فيكم أخفى من دبيب النمل

(١) راجع جـ ٥ ص ١٨١ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٥ ص ١٨١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

وسأدلك على شيء إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك وكباره تقول اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم تقولها ثلاث مرات". وقال عمر بن قيس الكندى سمعت معاوية تلا هذه الآية على المنبر « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ » فقال : إنها لآخر آية نزلت من السماء . وقال عمر قال النبي صلى الله عليه وسلم : "أوحى إلى أنه من قرأ « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا » رفع له نور مابين عدن إلى مكة حشوه الملائكة يصلون عليه ويستغفرون له" . وقال معاذ بن جبل قال النبي صلى الله عليه وسلم : "من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نورا من قرنه إلى قدمه ومن قرأها كلها كانت له نورا من الأرض إلى السماء" وعن ابن عباس أنه قال له رجل : إنى أضمر أن أقوم ساعة من الليل فيغلبنى النوم ، فقال : إذا أردت أن تقوم أى ساعة شئت من الليل فاقرأ إذا أخذت مضجعك « قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي » إلى آخر السورة فإن الله تعالى يوقظك متى شئت من الليل ؛ ذكر هذه الفضائل الثعلبي رضى الله تعالى عنه . وفى مسند الدرامى أبى محمد أخبرنا محمد بن كثير عن الأوزاعى عن عبدة عن زر بن حبيش قال : من قرأ آخر سورة الكهف لساعة يريد أن يقوم من الليل قامها ؛ قال عبدة فجربناه فوجدناه كذلك . قال ابن العربى : كان شيخنا الطُّرْطُوشِيّ الأكبر يقول : لا تذهب بكم الأزمان فى مصاولة الأقران ، ومواصلة الإخوان ؛ وقد ختم سبحانه وتعالى البيان بقوله : « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » .

تفسير سورة مريم عليها السلام

وهى مكية بإجماع . وهى تسعون وثمان آيات

ولما كانت وقعة بدر ، وقتل الله فيها صناديد الكفار ، قال كفار قريش : إن ثأركم بأرض الحبشة ، فاهدوا إلى النجاشى ، وابعثوا إليه رجلين من ذوى رأيكم لعله يعطيكم من عنده من قريش ، فتقتلونهم بمن قتل منكم ببدر ؛ فبعث كفار قريش عمرو بن العاص وعبد الله

ابن أبي ربيعة، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعثهما، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضَّمْرِيّ، وكتب معه إلى النجاشي، فقدم على النجاشي، فقرأ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين، وأرسل إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم، ثم أمر جعفر أن يقرأ عليهم القرآن، فقرأ سورة مريم «كٓهيعٓصٓ» وقاموا تفيض أعينهم من الدمع، فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم «وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ». وقرأ إلى قوله: «الشاهدين». ذكره أبو داود. وفي السيرة؛ فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله شيء؟ قال جعفر: نعم؛ فقال له النجاشي: اقرأه عليّ. قال: فقرأ «كٓهيعٓصٓ» فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفتهم حتى أخضلوا لحاهم حين سمعوا ما يتلى عليهم؛ فقال النجاشي: هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما أبدا؛ وذكر تمام الخبر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾

قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ تقدّم الكلام في أوائل السور (١) . وقال ابن عباس في « كٓهيعٓصٓ » : إن الكاف من كاف، والهاء من هادٍ، والياء من حكيم، والعين من عليم، والصاد من صادق؛ ذكره ابن عزيز القشيري عن ابن عباس؛ معناه كافٍ لخلقه، هادٍ لعباده، يده فوق أيديهم، عالم بهم، صادق في وعده؛ ذكره الثعلبي عن الكلبي والسدي ومجاهد والضحاك . وقال الكلبي أيضا : الكاف من كريم وكبير وكافٍ، والهاء من هادٍ، والياء من رحيم، والعين من عليم وعظيم، والصاد من صادق؛ والمعنى واحد . وعن ابن عباس أيضا : هو اسم من أسماء الله تعالى؛ وعن عليّ رضي الله عنه هو اسم الله عز وجل وكان يقول : يا كهيعص اغفر لي؛ ذكره الغزنوي . السدي : هو اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب . قتادة : هو اسم من أسماء القرآن؛ ذكره عبد الرزاق عن معمّر عنه . وقيل : هو اسم للسورة؛ وهو اختيار القشيري في أوائل الحروف؛ وعلى هذا قيل : تمام الكلام عند قوله : « كهيعص » كأنه إعلام باسم السورة، كما تقول : كتاب كذا أو باب كذا ثم تشرع في المقصود . وقرأ ابن جعفر هذه الحروف متقطعة، ووصلها الباقون، وأمال أبو عمرو الهاء وفتح الياء، وابن عامر وحمزة بالعكس، وأمالهما جميعا الكسائي وأبو بكر وخلف . وقرأهما بين اللفظين أهل المدينة نافع وغيره . وفتحهما الباقون . وعن خارجة أن الحسن كان يضم كاف، وحكى غيره أنه كان يضم ها، وحكى إسمعيل بن إسحق أنه كان يضم يا . قال أبو حاتم : ولا يجوز ضم الكاف والهاء والياء؛ قال النحاس : قراءة أهل المدينة

(١) راجع جـ ١ ص ١٥٤ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

من أحسن ما في هذا، والإمالة جائزة في ها ويا . وأما قراءة الحسن فأشكلت على جماعة حتى قالوا : لا تجوز؛ منهم أبو حاتم . والقول فيها ما بيّنه هرون القارئ؛ قال : كان الحسن يشم الرفع؛ فمعنى هذا أنه كان يومئ؛ كما حكى سيبويه أن من العرب من يقول : الصلاة والزكاة يومئ إلى الواو، ولهذا كتبها في المصحف بالواو . وأظهر الدال من هجاء « ص » نافع وابن كثير وعاصم ويعقوب، وهو آختيار أبي عبيد؛ وأدغمها الباقون .

قوله تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا . إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ في رفع « ذكر » ثلاثة أقوال؛ قال الفراء: هو مرفوع بـ«كهيعص» ؛ قال الزجاج : هذا محال؛ لأن « كهيعص » ليس هو مما أنبأنا الله عز وجل به عن زكريا ، وقد خبّر الله تعالى عنه وعن ما بشّر به ، وليس « كهيعص » من قصته . وقال الأخفش : التقدير؛ فيما يقص عليكم ذكر رحمة ربك . والقول الثالث : أن المعنى هذا الذي يتلوه عليكم ذكر رحمة ربك. وقيل: «ذكر رحمة ربك» رفع بإضمار مبتدإ؛ أي هذا ذكر رحمة ربك ؛ وقرأ الحسن « ذَكَّرَ رَحْمَةَ رَبِّكَ » أي هذا المتلو من القرآن ذَكَّرَ رحمة ربك . وقرئ « ذَكِّرْ » على الأمر. « ورحمة » تكتب ويوقف عليها بالهاء، وكذلك كل ما كان مثلها ، لا اختلاف فيها بين النحويين، واعتلوا في ذلك أن هذه الهاء لتأنيث الأسماء فرقا بينها وبين الأفعال .

الثانيــة ــ قوله تعالى:﴿ عَبْدَهُ ﴾ قال الأخفش : هو منصوب بـ«رحمة» . «زكريا» بدل منه ؛ كما تقول : هذا ذكر ضرب زيد عمرا؛ فعمرا منصوب بالضرب، كما أن « عبده » منصوب بالرحمة . وقيل : هو على التقديم والتأخير؛ معناه : ذكر ربك عبده زكريا برحمة ؛ فـ«عبده» منصوب بالذكر؛ ذكره الزجاج والفراء . وقرأ بعضهم « عَبْدُهُ زكريا » بالرفع؛ وهي قراءة أبي العالية . وقرأ يحيى بن يعمر « ذَكَّرَ » بالنصب على معنى هذا القرآن ذَكَّرَ رحمة عبده زكريا . وتقدمت اللغات والقراءة في « زكريا » في « آل عمران »[1] .

(١) راجع جـ ٤ ص ٧٠ طبعة أولى أو ثانية .

الثالثة — قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ مثل قوله : « ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » وقد تقدم[1] . والنداء الدعاء والرغبة ؛ أي ناجى ربه بذلك في محرابه . دليله قوله : « فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ » فبيّن أنه استجاب له في صلاته ، كما نادى في الصلاة . وآختلف في إخفائه هذا النداء ؛ فقيل : أخفاه من قومه لئلا يلام على مسئلة الولد عند كبر السن ؛ ولأنه أمر دنيوي ، فإن أجيب فيه نال بغيته ، وإن لم يجب لم يعرف بذلك أحد . وقيل : مخلصا فيه لم يطلع عليه إلا الله تعالى . وقيل : لما كانت الأعمال الخفية أفضل وأبعد من الرياء أخفاه . وقيل : « خَفِيًّا » سرًّا من قومه في جوف الليل ؛ والكل محتمل والأول أظهر ؛ والله أعلم . وقد تقدم أن المستحب من الدعاء الإخفاء في سورة « الأعراف »[2] وهذه الآية نص في ذلك ؛ لأنه سبحانه أثنى بذلك على زكريا . وروى إسمعيل قال حدّثنا مسدد قال حدّثنا يحيى بن سعيد عن أسامة بن زيد عن محمد بن عبد الرحمن وهو آبن أبي كبشة عن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن خير الذكر الخفيّ وخير الرزق ما يكفي " وهذا عام . قال يونس بن عبيد : كان الحسن يرى أن يدعو الإمام في القنوت ويؤمن من خلفه من غير رفع صوت ، وتلا يونس « إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا » . قال آبن العربي : وقد أسر مالك القنوت وجهر به الشافعي ، والجهر به أفضل ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو به جهرا .

قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : « قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ » قرئ « وَهَنَ » بالحركات الثلاث أي ضعف . يقال : وهن يهن وهْنا إذا ضعف فهو واهن . وقال أبو زيد يقال : وَهَن يَهِن ووَهِن يَوْهَن . وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن ، وبه قوامه ، وهو أصل بنائه ، فإذا وهن تداعى وتساقط سائر قوته ؛ ولأنه أشد ما فيه وأصلبه ، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٢٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٢٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

منه . ووحّده لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية ، وقصده إلى أن هذا الجنس الذى هو العمود والقوام ، وأشدّ ماتركب منه الجسد قد أصابه الوهن ، ولو جمع لكان قصد إلى معنى آخر ، وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه ولكن كلها .

الثانيــة ـ قوله تعـالى : ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ أدغم السين فى الشين أبو عمرو . وهـذا من أحسن الاستعارة فى كلام العرب . والاشتعال انتشار شعاع النار ؛ شبه به انتشار الشيب فى الرأس ؛ يقول : شخت وضعفت ؛ وأضاف الاشتعال إلى مكان الشعر ومَنْبته وهو الرأس . ولم يُضف الرأس ٱكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا عليه السلام . « وشيبا » فى نصبه وجهان : أحدهما ـ أنه مصدر لأن معنى ٱشتعل شاب ؛ وهذا قول الأخفش . وقال الزجاج : وهو منصوب على التمييز . النحاس : قول الأخفش أولى لأنه مشتق من فعل فالمصدر أولى به . والشيب مخالطة الشعر الأبيض الأسود .

الثالثــة ـ قال العلماء : يستحب للمرء أن يذكر فى دعائه نعمَ الله تعالى عليه وما يليق بالخضوع ؛ لأن قوله تعالى : « وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى » إظهار للخضوع . وقـوله : « وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّـا » إظهار لعادات تفضـله فى إجابته أدعيتـه ؛ أى لم أكن بدعائى إياك شـقيا ؛ أى لم تكن تخيب دعائى إذا دعوتك ؛ أى إنك عودتنى الإجابة فيما مضى . يقال : شقى بكذا أى تعب فيه ولم يحصل مقصوده . وعن بعضهم أن محتاجا سأله وقال : أنا الذى أحسنتَ إليه فى وقت كذا ؛ فقال : مرحبا بمن توسل بنا إلينا ؛ وقضى حاجته .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّـا ﴾ فيه سبع مسـائل :

الأولى ـ قوله تعالى : « وإنى خِفتُ الموالِىَ » قرأ عثمان بن عفان ومحمد بن على وعلى ابن الحسين رضى الله تعالى عنهما ويحيى بن يعمر « خَفَّتِ » بفتح الخاء وتشديد الفاء وكسر التاء وسكون الياء من «الموالى» لأنه فى موضع رفع «بخفت» ومعناه انقطعت بالموت . وقرأ الباقون « خِفْتُ » بكسر الخـاء وسكون الفاء وضم التـاء ونصب الياء من « المَـوَالِىَ » لأنه

فى موضع نصب بـ«خفت» . و « الموالى » هنا الأقارب و بنو العم والعصبة الذين يلونه فى النسب . والعرب تسمى بنى العم الموالى؛ قال الشاعر[1] :

مَهْلاً بَنِي عَمِّنَا مَهْلاً مَوَالِينَا * لا تَنْبُشُوا بَيْنَنَا ما كان مَدْفُونَا

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : خاف أن يرثوا ماله وأن ترثه الكلالة فأشفق أن يرثه غير الولد . وقالت طائفة : إنما كان مواليه مهملين للدين فخاف بموته أن يضيع الدين ، فطلب وليا يقوم بالدين بعده؛ حكى هذا القول الزجاج؛ وعليه فلم يسل من يرث ماله ؛ لأن الأنبياء لا تُورَث. وهذا هو الصحيح من القولين فى تأويل الآية،وأنه عليه الصلاة والسلام أراد وراثة العلم والنبوة لا وراثة المال؛ لما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة " وفى كتاب أبى داود : " إن العلماء ورثة الأنبياء وأن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ورثوا العلم " . وسيأتى فى هذا مزيد بيان عند قوله : « يرثنى » .

الثانيــة — هذا الحديث يدخل فى التفسير المسند؛ لقوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ وعبارة عن قول زكريا : « فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ » وتخصيص للعموم فى ذلك، وأن سليمان لم يرث من داود مالاً خلفه داود بعده؛ و إنما ورث منه الحكمة والعلم ، وكذلك ورث يحيى من آل يعقوب ؛ هكذا قال أهل العلم بتأويل القرآن ما عدا الروافض، و إلا ما روى عن الحسن أنه قال: «يرثنى» مالاً «ويرث من آل يعقوب» النبوة والحكمة؛ وكل قول يخالف قول النبي صلى الله عليه وسلم فهو مدفوع مهجور؛ قاله أبو عمر . قال ابن عطية : والأكثر من المفسرين على أن زكريا إنما أراد وراثة المال؛ ويحتمل قول النبي صلى الله عليه وسلم : " إنا معشر الأنبياء لا نورث " ألا يريد به العموم ، بل على أنه غالب أمرهم؛ فتأمله . والأظهر الأليق بزكريا عليه السلام أن يريد وراثة العلم والدين، فتكون الوراثة مستعارة . ألا ترى أنه لما طلب وليا ولم يخصص ولدا بلغه الله تعالى أمله على أكمل الوجوه . وقال أبو صالح وغيره : قوله «من آل يعقوب» يريد العلم والنبوة.

(١) هو الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب؛ وهو من شعراء بنى هاشم فى عهد بنى أمية .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿مِنْ وَرَائِي﴾ قرأ ابن كثير بالمد والهمز وفتح الياء. وعنه أنه قرأ أيضا مقصورا مفتوح الياء مثل عصاىَ . الباقون بالهمز والمد وسكون الياء . والقراء على قراءة «خفت» مثــل نمت إلا ما ذكرنا عن عثمان . وهى قراءة شاذة بعيدة جدا؛ حتى زعم بعض العلماء أنهــا لا تجوز . قال كيف يقول : خَفَّتِ الموالى مِن بعدى أى من بعــد موتى وهو حىّ ؟ ! . النحاس : والتأويل لها ألا يعنى بقوله : « من ورائى » أى من بعد موتى ، ولكن من ورائى فى ذلك الوقت؛ وهذا أيضا بعيد يحتاج إلى دليل أنهم خفّوا فى ذلك الوقت وقلّوا، وقد أخبر الله تعالى بما يدل على الكثرة حين قالوا : « أيهم يكفل مريم ». ابن عطية : « من ورائى » من بعدى فى الزمن ، فهو الوراء على ما تقدّم فى « الكهف »[1] .

الرابعــة — قوله تعــالى : ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ امرأته هى إيشاع بنت فاقوذا ابن قبيل، وهى أخت حنة بنت فاقوذا؛ قاله الطبرى . وحنة هى أم مريم حسب ما تقدم فى « آل عمران »[2] بيانه . وقال القتبى : امرأة زكريا هى إيشاع بنت عمــران ، فعلى هذا القول يكون يحيى ابن خالة عيسى عليهما الســلام على الحقيقة . وعلى القول الآخر يكون ابن خالة أمه . وفى حديث الإسراء قال عليه الصلاة والسلام : " فلقيت ابنى الخالة يحيى وعيسى" شاهدا للقول الأوّل[3] . والله أعلم . والعاقر التى لا تلد لكبر سنها؛ وقد مضى بيانه فى « آل عمران »[4] . والعــاقر من النساء أيضا التى لا تلد من غير كبر . ومنه قوله تعــالى : « وَيَجْعَــلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا » . وكذلك العاقر من الرجال؛ ومنه قول عامر بن الطفيل :

لبئس الفتى إنْ كنتُ أعورَ عاقراً ٭ جبانا فمــا عُذْرِى لَدَى كُلِّ مَحْضَرِ

الخامســة — قوله تعالى : ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ سؤال ودعاء . ولم يصرح بولد لمــا علم من حاله وبعده عنه بسبب المرأة . قال قتادة : جرى له هــذا الأمر وهو ابن بضع وسبعين سنة . مقاتل : خمس وتسعين سنة؛ وهو أشبه؛ فقد كان غلب على ظنه أنه لا يولد له لكبره؛ ولذلك قال : « وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا » . وقالت طائفة : بل طلب الولد،

---

(١) راجع ص ٣٤ وما بعدها من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ٤ ص ٦٥ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) المراد بالقول الأول هنا قول القتبى . (٤) راجع جـ ٤ ص ٧٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

ثم طلب أن تكون الإجابة فى أن يعيش حتى يرثه، تحفظا من أن تقع الإجابة فى الولد ولكن يُخْتَرم، ولا يتحصل منه الغرض .

السادسة — قال العلماء : دعاء زكريا عليه السلام فى الولد إنما كان لإظهار دينه، وإحياء نبوته، ومضاعفة لأجره لا للدنيا، وكان ربه قد عوده الإجابة، ولذلك قال : « وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا » أى بدعائى إياك . وهذه وسيلة حسنة؛ أن يتشفع إليه بنعمه، يستدر فضله بفضله؛ روى أن حاتم الجود لقيه رجل فسأله؛ فقال له حاتم: من أنت؟ قال: أنا الذى أحسنت إليه عام أول؛ فقال : مرحبا بمن تشفَّع إلينا بنا . فإن قيل : كيف أقدم زكريا على مسئلة ما يخرق العادة دون إذن ؟ فالجواب أن ذلك جائز فى زمان الأنبياء . وفى القرآن ما يكشف عن هذا المعنى؛ فإنه تعالى قال : « كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » فلما رأى خارق العادة استحكم طمعه فى إجابة دعوته؛ فقال تعالى : « هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً » الآية .

السابعة — إن قال قائل : هذه الآية تدل على جواز الدعاء بالولد، والله سبحانه وتعالى قد حذرنا من آفات الأموال والأولاد، ونبه على المفاسد الناشئة من ذلك؛ فقال : « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ » . وقال : « إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ » . فالجواب أن الدعاء بالولد معلوم من الكتاب والسنة حسب ما تقدم فى « آل عمران »[1] بيانه . ثم إن زكريا عليه السلام تحرز فقال : « ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً » وقال : « وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا » . والولد إذا كان بهذه الصفة نفع أبويه فى الدنيا والآخرة، وخرج من حد العداوة والفتنة إلى حد المسرة والنعمة . وقد دعا النبى صلى الله عليه وسلم لأنس خادمه فقال : " اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته " فدعا له بالبركة تحرزا مما يؤدى إليه الإكثار من الهلكة . وهكذا فليتضرع العبد إلى مولاه فى هداية ولده، ونجاته فى أولاه وأخراه اقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام والفضلاء؛ وقد تقدم فى « آل عمران »[2] بيانه .

(١) راجع جـ ٤ ص ٧٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٤ ص ٧٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ فيه أربع مسائل .

الأولى — قوله تعالى : « يَرِثُنِي » قرأ أهل الحرمين والحسن وعاصم وحمزة « يَرِثُنِي وَيَرِثُ » بالرفع فيهما . وقرأ يحيى بن يعمر وأبو عمرو ويحيى بن وثاب والأعمش والكسائي بالجزم فيهما، وليس هما جواب « هب » على مذهب سيبويه، إنما تقديره إن تهبه يرثني ويرث ،والأول أصوب في المعنى لأنه طلب وارثا موصوفا؛ أي هب لي من لدنك الولي الذي هذه حاله وصفته، لأن الأولياء منهم من لا يرث؛ فقال : هب لي الذي يكون وارثي؛ قاله أبو عبيد، ورد قراءة الجزم؛ قال : لأن معناه إن وهبت ورث، وكيف يخبر الله عز وجل بهذا وهو أعلم به منه؟ ! النحاس : وهذه حجة متقصاة؛ لأن جواب الأمر عند النحويين فيه معنى الشرط والمجازاة؛ تقول : أطع الله يدخلك الجنة؛ أي إن تطعه يدخلك الجنة .

الثانيــة — قال النحاس : فأما معنى « يرثني ويرث من آل يعقوب » فللعلماء فيه ثلاثة أجوبة؛ قيل : هي وراثة نبوة . وقيل : هي وراثة حكمة . وقيل : هي وراثة مال . فأما قولهم وراثة نبوة فمحال؛ لأن النبوة لا تورث ، ولو كانت تورث لقال قائل : الناس ينتسبون إلى نوح عليه السلام وهو نبي مرسل . ووراثة العلم والحكمة مذهب حسن؛ وفي الحديث " العلماء ورثة الأنبياء " . وأما وراثة المال فلا يمتنع ، وإن كان قوم قد أنكروه لقول النبي صلى الله عليه وسلم : " لا نورث ما تركنا صدقة " فهذا لا حجة فيه؛ لأن الواحد يخبر عن نفسه بإخبار الجمع . وقد يُؤوَّل هذا بمعنى : لا نُورث الذي تركناه صدقة ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يخلّف شيئا يورث عنه؛ وإنما كان الذي أباحه الله عز وجل إياه في حياته بقوله تبارك اسمه : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ » لأن معنى « لله » لسبيل الله ، ومن سبيل الله ما يكون في مصلحة الرسول صلى الله عليه وسلم ما دام حيا؛ فإن قيل : ففي بعض الروايات " إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة " ففيه التأويلان جميعا؛ أن يكون « ما » بمعنى الذي . والآخر لا يورث من كانت هذه حاله . وقال أبو عمر : واختلف العلماء في تأويل قوله عليه السلام : " لا نورث ما تركنا صدقة " على قولين : أحدهما — وهو

الأكثر وعليه الجمهور — أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يورث وما ترك صدقة . والآخر — أن نبينا عليه الصلاة والسلام لم يُورَث؛ لأن الله تعالى خصه بأن جعل ماله كله صدقة زيادة في فضيلته، كما خُصَّ في النكاح بأشياء أباحها له وحرمها على غيره؛ وهذا القول قاله بعض أهل البصرة منهم ابن عُلية، وسائر علماء المسلمين على القول الأول .

الثالثة — قوله تعالى : « مِنْ آلِ يَعْقُوبَ » قيل : هو يعقوب إسرائيل، وكان زكريا متزوجا بأخت مريم بنت عمران، ويرجع نسبها إلى يعقوب ؛ لأنها من ولد سليمان بن داود وهو من ولد يهوذا بن يعقوب، وزكريا من ولد هرون أخي موسى، وهرون وموسى من ولد لاوى بن يعقوب، وكانت النبوة في سبط يعقوب بن إسحق . وقيل : المعنيّ بيعقوب هاهنا يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان أبي مريم أخوان من نسل سليمان بن داود عليهما السلام؛ لأن يعقوب وعمران ابنا ماثان، وبنو ماثان رؤساء بني إسرائيل؛ قاله مقاتل وغيره . وقال الكلبي : وكان آل يعقوب أخواله، وهو يعقوب بن ماثان ، وكان فيهم الملك، وكان زكريا من ولد هرون بن عمران أخي موسى . وروى قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يرحم الله — تعالى — زكريا ما كان عليه من ورثته" . ولم ينصرف يعقوب لأنه أعجمي .

الرابعة — قوله تعالى : « وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا » أي مرضيا في أخلاقه وأفعاله . وقيل : راضيا بقضائك وقدرك . وقيل : رجلا صالحا ترضى عنه . وقال أبو صالح : نبيا كما جعلت أباه نبيا .

قوله تعالى : ﴿ يَازَكَرِيَّا ﴾ في الكلام حذف؛ أي فاستجاب الله دعاءه فقال: ﴿ يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى ﴾ فتضمنت هذه البشرى ثلاثة أشياء : أحدها — إجابة دعائه وهي كرامة . الثاني — إعطاؤه الولد وهو قوة . الثالث — أن يفرد بتسميته ؛ وقد تقدم معنى تسميته في « آل عمران »(1) . وقال مقاتل : سماه يحيى لأنه حَيِي بين أب شيخ وأم عجوز؛ وهذا فيه نظر؛ لما تقدم من أن امرأته كانت عقيما لا تلد . والله أعلم .

---

(1) راجع جـ ٤ ص ٧٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ أي لم نسم أحدا قبل يحيى بهذا الاسم ؛ قاله ابن عباس وقتادة وابن أسلم والسدى . ومنّ عليه تعالى بأن لم يكل تسميته إلى الأبوين .
وقال مجاهد وغيره : « سَمِيًّا » معناه مثلا ونظيرا ، وهو مثل قوله تعالى : « هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا » معناه مثلا ونظيرا كأنه من المساماة والسمو ؛ وهذا فيه بعد ؛ لأنه لا يفضل على إبراهيم وموسى ؛ اللهم إلا أن يفضل في خاص كالسؤدد والحصر حسب ماتقدم بيانه « في آل عمران » .
وقال ابن عباس أيضا : معناه لم تلد العواقر مثله ولدا . وقيل : إن الله تعالى اشترط القَبْل ، لأنه أراد أن يخلق بعده أفضل منه وهو محمد صلى الله عليه وسلم . وفي هذه الآية دليل وشاهد على أن الأسامي السُّنُع[1] جديرة بالأثرة ، و إياها كانت العرب تنتحي في التسمية لكونها أنبه وأنزه عن النبز حتى قال قائل :

سُنُعُ الأسامي مُسْبِلِي أُزُر * حُمْرٍ تَمَسّ الأرضَ بالهُدُبِ

وقال رؤبة للنسابة البكرى وقد سأله عن نسبه : أنا ابن العجاج ؛ فقال : قَصَّرتَ وعَرَّفتَ .
قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾ ليس على معنى الإنكار لما أخبر الله تعالى به ، بل على سبيل التعجب من قدرة الله تعالى أن يخرج ولدا من امرأة عاقر وشيخ كبير .
وقيل : غير هذا مما تقدم في « آل عمران »[2] بيانه . ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ يعني النهاية في الكبر واليبس والجفاف ؛ ومثله العُسي ؛ قال الأصمعي : عَسَا الشيءُ يَعْسُو عُسُوًّا وعَسَاء ممدود أي يَبِس وصَلُب ، وقد عسا الشيخ يَعسو عُسِيًّا ولَّى وكَبِر مثل عَتَا ؛ يقال : عَتَا الشيخ يَعتو عُتيا وعِتيًّا كبر وولّى ، وعتوت يا فلان تعتو عتوا وعتيا . والأصل عتو لأنه من ذوات الواو ، فأبدلوا من الواو ياء ؛ لأنها أختها وهي أخف منها . والآيات على الياءات . ومن قال : « عِتِيًّا » كره الضمة مع الكسرة والياء ؛ وقال الشاعر :

إنما يُعذَرُ الوليدُ ولا يُعْـ * ـذَرُ من كان في الزمان عِتِيًّا

(١) الجبلة . (٢) راجع جـ ٤ ص ٧٩ طبعة أولى أو ثانية

وقرأ ابن عباس «عُسِيًّا» وهو كذلك في مصحف أبيّ. وقرأ يحيى بن وثاب وحمزة والكسائي وحفص «عِتيا» بكسر العين وكذلك «جِثيا» و «صِليا» حيث كن. وضم حفص «بُكِيًّا» خاصة، وكذلك الباقون في الجميع، وهما لغتان. وقيل: «عِتيا» قسيًّا؛ يقال: ملك عاتٍ إذا كان قاسي القلب.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أي قال له الملك «كذلك قال ربك» والكاف في موضع رفع؛ أي الأمر كذلك؛ أي كما قيل لك: «هو على هين». قال الفراء: خلقه عليّ هين. ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي من قبل يحيى. وهذه قراءة أهل المدينة والبصرة وعاصم. وقرأ سائر الكوفيين «وَقَدْ خَلَقْنَاكَ» بنون وألف بالجمع على التعظيم. والقراءة الأولى أشبه بالسواد. ﴿ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ أي كما خلقك الله تعالى بعد العدم ولم تك شيئا موجودا، فهو القادر على خلق يحيى وإيجاده.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ﴾ طلب آية على حملها بعد بشارة الملائكة إياه، وبعد قوله تعالى: «وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا» زيادة طمأنينة؛ أي تمم النعمة بأن تجعل لي آية، وتكون تلك الآية زيادة نعمة وكرامة. وقيل: طلب آية تدله على أن البشرى منه بيحيى لا من الشيطان، لأن إبليس أوهمه ذلك. قاله الضحاك وهو معنى قول السدي؛ وهذا فيه نظر لإخبار الله تعالى بأن الملائكة نادته حسب ما تقدم في «آل عمران». ﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ تقدم في «آل عمران»[1] بيانه فلا معنى للإعادة.

قوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى — قوله تعالى: «فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ» أي أشرف عليهم من المصلى. والمحراب أرفع المواضع، وأشرف المجالس، وكانوا يتخذون المحاريب فيما ارتفع من الأرض؛ دليله محراب داود عليه السلام على ما يأتي. واختلف الناس في اشتقاقه؛ فقالت فرقة:

(١) راجع جـ ٤ ص ٨٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

هو مأخوذ من الحرب كأن ملازمه يحارب الشيطان والشهوات . وقالت فرقة : هو مأخوذ من الحَرَب (بفتح الراء) كأن ملازمه يلقى منه حربا وتعبا ونصبا .

الثانيــة — هذه الآية تدل على أن ٱرتفاع إمامهم على المأمومين كان مشروعا عندهم فى صلاتهم . وقــد ٱختلف فى هذه المسئلة فقهاء الأمصار ، فأجاز ذلك الإمام أحمد وغيره متمسكا بقصــة المنبر . ومنع مالك ذلك فى الأرتفاع الكثير دون اليسير، وعلّل أصحابه المنع بخوف الكِبْر على الإمام .

قلت : وهذا فيه نظر؛ وأحسن ما فيه ما رواه أبو داود عن همام أن حذيفة أمَّ الناس بالمدائن على دكان، فأخذ أبو مسعود بقميصه فجبذه، فلما فرغ من صلاته قال : ألم تعلم أنهم كانوا ينهون عن هــذا — أو — يُنهَى عن ذلك ! قال : بلى ؛ قد ذكرت حين مددتنى . وروى أيضا عن عدى بن ثابت الأنصارى قال : حدثنى رجل أنه كان مع عمــار بن ياسر بالمدائن، فأقيمت الصلاة فتقدّم عمار بن ياسر، وقام على دكان يصلى والناس أسفل منه، فتقدّم حذيفة فأخذ على يديه فاتبعه عمــار حتى أنزله حذيفة، فلما فرغ عمــار من صلاته ، قال له حذيفة : ألم تسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا أمَّ الرجلُ القوم فلا يقم فى مكان أرفعَ من مقامهم " أو نحو ذلك؛ فقال عمّار : لذلك اتبعتك حين أخذت على يدى .

قلت : فهؤلاء ثلاثة من الصحابة قد أخبروا بالنهى عن ذلك ، ولم يحتج أحد منهم على صاحبــه بحديث المنبر فدل على أنه منسوخ . ومما يدل على نسخه أن فيــه عملا زائدا فى الصلاة، وهو النزول والصعود، فنسخ كما نسخ الكلام والسلام . وهذا أولى مما ٱعتذر به أصحابنا من أن النبى صلى الله عليــه وسلم كان معصوما من الكِبْر؛ لأن كثيرا من الأئمة يوجد لا كِبْر عندهم . ومنهم من علله بأن ارتفاع المنبر كان يسيرا؛ والله أعلم .

قوله تعــالى : « فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا » قال الكلبى وقتادة وابن منبه : أوحى إليهم أشار . القتبى : أومأ . مجاهد : كتب على الأرض . عكرمة : كتب فى كتاب . والوحى فى كلام العرب الكتابة؛ ومنه قول ذى الرُّمة :

سوى الأربع الدُّهْم اللواتى كأنّها * بقيّــةُ وَحْىٍ فى بُطونِ الصّحائفِ

وقال عَنْــترة :

كوحىِ صحائفَ من عهد كسرى * فأهـداها لأعجـــم طِمْطِمِىِّ[1]

و « بكرة وعشيا » ظرفان . وزعم الفراء أن العشى يؤنث ويجوز تذكيره إذا أبهمتَ؛ قال : وقد يكون العشىّ جمع عشية .

الرابعـــة — قد تقدّم الحكم فى الإشارة فى « آل عمران[2] » . واختلف علماؤنا فيمن حلف ألا يكلم إنسانا فكتب إليه كتابا، أو أرسل إليه رسولا؛ فقال مالك : إنه يحنث إلا أن ينوى مشافهته، ثم رجع فقال : لا ينوى فى الكتاب ويحنث إلا أن يرتجع الكتاب قبل وصوله . قال ٱبن القاسم : إذا قرأ كتابه حنث ، وكذلك لو قرأ الحالف كتاب المحلوف عليـه . وقال أشهب : لا يحنث إذا قرأه الحالف؛ وهذا بيّن؛ لأنه لم يكلمه ولا ٱبتدأه بكلام، إلا أن يريد ألا يعلم معنى كلامه فإنه يحنث وعليـه يخرج قول ابن القـاسم . فإن حلف ليكلمنه لم يبرّ إلا بمشافهته ؛ وقال ابن المـاجشون : وإن حلف لئن علم كذا ليُعلمنّــه أو ليُخبرنّه فكتب إليه أو أرسل إليه رسولا برّ؛ ولو علماه جميعا لم يبر، حتى يُعلمه لأن علمهما مختلف

الخامســـة — وٱتفق مالك والشافعى والكوفيون أن الأخرس إذا كتب الطلاق بيده لزمه ؛ قال الكوفيون : إلا أن يكون رجل أُصمت أياما فكتب لم يجز من ذلك شىء . قال الطحاوى : الخرس مخالف للصمت العارض، كما أن العجز عن الجماع العارض لمرض ونحوه يوما أو نحوه مخالف للعجز المأيوس منه الجماع، نحو الجنون فى باب خيار المرأة فى الفرقة .

قوله تعالى : ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ فى الكلام حذف؛ المعنى فولد له ولد وقال الله تعالى للمولود : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة » . وهذا ٱختصار يدل الكلام عليه . و « الكتاب » التوراة بلا خلاف . « بقوة » أى بجد وٱجتهاد؛ قاله مجاهد . وقيل : العلم به ، والحفظ له والعمل به ، وهو الالتزام لأوامره ، والكفّ عن نواهيــه؛ قاله زيد بن أسـلم؛ وقد تقدّم

---

(١) الطمطمى : الأعجم الذى لا يفصح .   (٢) راجع جـ ٤ ص ٨١ طبعة أولى أو ثانيــة .

في « البقرة »[1]. ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ قيل: الأحكام والمعرفة بها . وروى مَعْمَر أن الصبيان قالوا ليحيى : اذهب بنا نلعب؛ فقال : ما للعب خلقت . فأنزل الله تعالى « وآتيناه الحكم صبيا ». وقال قتادة : كان ابن سنتين أو ثلاث سنين. وقال مقاتل : كان ابن ثلاث سنين. و« صبيا » نصب على الحال. وقال ابن عباس : من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فهو ممن أوتي الحكم صبيا . وروى في تفسير هذه الآية من طريق عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب إلا ما كان من يحيى بن زكريا ". وقال قتادة : إن يحيى عليه السلام لم يعص الله قط بصغيرة ولا كبيرة ولا همّ بامرأة . وقال مجاهد : وكان طعام يحيى عليه السلام العشب ، وكان للدمع في خديه مجار ثابتة . وقد مضى الكلام في معنى قوله : « وَسَيِّدًا وَحَصُورًا » في « آل عمران »[2] .

قوله تعالى : « وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا » «حنانا» عطف على «الحكم» . وروى عن ابن عباس أنه قال : والله ما أدري ما « الحنان » ؟ . وقال جمهور المفسرين : الحنان الشفقة والرحمة والمحبة؛ وهو فعل من أفعال النفس . النحاس : وفي معنى الحنان عن ابن عباس قولان: أحدهما ـ قال : تعطف الله عز وجل عليه بالرحمة . والقول الآخر ما أعطيه من رحمة الناس حتى يخلصهم من الكفر والشرك . وأصله من حنين الناقة على ولدها . ويقال : حنانك وحنانيك؛ قيل : هما لغتان بمعنى واحد . وقيل: حنانيك تثنية الحنان . وقال أبو عبيدة : والعرب تقول : حنانك يا رب وحنانيك يارب بمعنى واحد؛ تريد رحمتك . وقال امرؤ القيس :

وَيَمْنَحُهَا بَنُو شَمَجَى بن جَرْمٍ * مَعِيزَهُمُ حَنَانَكَ ذا الحَنَانِ[3]

وقال طرفة :

أبا مُنْذِرٍ أفنيتَ فاستبقِ بعضَنَا * حَنَانَيْكَ بعضُ الشَّرِّ أهونُ مِنْ بَعْضِ

وقال الزمخشري : « حنانا » رحمة لأبويه وغيرهما وتعطفا وشفقة؛ وأنشد سيبويه :

فقالتْ حَنَانٌ ما أتى بكَ هَاهُنَا * أذُو نَسَبٍ أمْ أنت بالحيِّ عارفُ

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٧ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٤ ص ٨٦ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) (حنانك ذا الحنان) معناه : رحمتك يا رحمن .

قال ابن الأعرابى : الحنّـان من صفة الله تعالى مشددا الرحيم . والحنَان مخفف : العطف والرحمة . والحنان : الرزق والبركة . ابن عطية : والحنان فى كلام العرب أيضا ما عظم من من الأمور فى ذات الله تعالى؛ ومنه قول زيد بن عمرو بن نُفَيل فى حديث بلال : والله لئن قتلتم هذا العبد لأتخذن قبره حَنَانا ؛ وذكر هذا الخبر الهروى؛ فقال : وفى حديث بلال ومر عليه ورقة بن نوفل وهو يعذَّب فقال : والله لئن قتلتموه لأتخذنه حَنَانا؛ أى لأتمسحنّ به . وقال الأزهرى : معناه لأتعطفن عليه ولأترحمن عليه لأنه من أهل الجنة .

قلت : فالحنان العطف، وكذا قال مجاهد . و « حنانا » أى تعطفا منا عليه أو منه على الخلق؛ قال الحطيئة :

تحنّنْ علىَّ هَـدَاكَ المليكُ * فإنّ لكلِّ مقـامٍ مقَالاَ

عكرمة : محبة . وحَنَّة الرجل امرأته لتوادهما؛ قال الشاعر :

فقالتْ حنـانٌ ما أَتَى بكَ هاهنا * أذو نسبٍ أم أنتَ بالحىِّ عارفُ

قوله تعالى : ﴿ وَزَكَاةً ﴾ « الزكاة » التطهير والبركة والتنمية فى وجوه الخير والبر؛ أى جعلناه مباركا للناس يهديهم . وقيل : المعنى زكيناه بحسن الثناء عليه كما تزكى الشهود إنسانا . وقيل : « زكاة » صدقة به على أبويه ؛ قاله ابن قتيبة . ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ أى مطيعا لله تعـالى، ولهذا لم يعمل خطيئة ولم يُلِمَّ بها .

قوله تعالى: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ ﴾ البر بمعنى البار وهو الكثير البر. و﴿ جَبَّاراً ﴾ متكبرا. وهذا وصف ليحيى عليه السلام بلين الجانب وخفض الجناح .

قوله تعـالى : ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ﴾ قال الطبرى وغيره : معناه أمان . ابن عطية : والأظهر عندى أنها التحية المتعارفة فهى أشرف وأنبه من الأمان؛ لأن الأمان متحصل له بنفى العصيان عنه وهى أقل درجاته ، وإنمـا الشرف فى أن سلم الله عليه، وحياه فى المواطن التى الإنسان فيها فى غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقر إلى الله تعالى عظيم الحول .

قلت : وهذا قول حسن ، وقد ذكرنا معناه عن سفيان بن عيينة في سورة « سبحان »[1] عند قتل يحيى . وذكر الطبري عن الحسن أن عيسى ويحيى التقيا — وهما ابنا الخالة — فقال يحيى لعيسى : ادع الله لي فأنت خير مني ؛ فقال له عيسى : بل أنت ادع الله لي فأنت خير مني ؛ سلم الله عليك وأنا سلمت على نفسي ؛ فانتزع بعض العلماء من هذه الآية في التسليم فضل عيسى ؛ بأن قال : إدلاله في التسليم على نفسه ومكانته من الله تعالى التي اقتضت ذلك حين قرر وحكى في محكم التنزيل أعظم في المنزلة من أن يسلم عليه . قال ابن عطية : ولكل وجه .

قوله تعالى : وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٢ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ ﴾ القصة إلى آخرها . هذا ابتداء قصة ليست من الأولى . والخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم؛ أى عرّفهم قصتها ليعرفوا كمال قدرتنا . ﴿ إِذِ ٱنتَبَذَتْ ﴾ أى تنحت وتباعدت . والنبذ الطرح والرمى؛ قال الله تعالى : « فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ » . ﴿ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ أى ممن كان معها . و « إذ » بدل من « مريم » بدل اشتمال؛ لأن الأحيان مشتملة على ما فيها . والانتباذ الاعتزال والانفراد . واختلف الناس لم انتبذت؛ فقال السدى : انتبذت لتطهر من حيض أو نفاس . وقال غيره : لتعبد الله؛ وهذا حسن . وذلك أن مريم عليها السلام كانت وقفا على سدانة المعبد وخدمته والعبادة فيه ، فتنحت من الناس لذلك ، ودخلت فى المسجد إلى جانب المحراب فى شرقيه لتخلو للعبادة ، فدخل عليها جبريل عليه السلام . فقوله : ﴿ مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ أى مكانا من جانب الشرق . والشّرْق بسكون الراء المكان الذى تشرق فيه الشمس . والشَّرَق بفتح الراء الشمس . و إنما خص المكان بالشرق لأنهم كانوا يعظمون جهة المشرق ومن حيث تطلع الأنوار ، وكانت الجهات الشرقية من كل شىء أفضل من سواها ؛ حكاه الطبرى . وحكى عن ابن عباس أنه قال : إنى لأعلم الناس لم اتخذ النصارى المشرق قبلة؛ لقول الله عز وجل : « إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا » فاتخذوا ميلاد عيسى عليه السلام قبلة ؛ وقالوا : لو كان شىء من الأرض خيرا من المشرق لوضعت مريم عيسى عليه السلام فيه . واختلف الناس فى نبوة مريم؛ فقيل : كانت نبية بهذا الإرسال والمحاورة للملك . وقيل : لم تكن نبية و إنما كلمها مثال بشر، ورؤيتها للملك كما رؤى جبريل فى صفة دِحْية حين سؤاله عن الإيمان والإسلام . والأول أظهر . وقد مضى الكلام فى هذا المعنى مستوفى فى « آل عمران »[1] والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ قيل : هو روح عيسى عليه السلام؛ لأن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد، فركب الروح فى جسد عيسى عليه السلام الذى خلقه فى بطنها . وقيل : هو جبريل وأضيف الروح إلى الله تعالى تخصيصا وكرامة . والظاهر أنه جبريل عليه

(١) راجع جـ ٤ ص ٨٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

السلام؛ لقوله : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا ﴾ أي تمثل الملك لها . ﴿ بَشَرًا ﴾ تفسير أو حال . ﴿ سَوِيًّا ﴾ أي مستوى الخلقة، لأنها لم تكن لتطيق أو تنظر جبريل في صورته . ولما رأت رجلا حسن الصورة في صورة البشر قد خرق عليها الحجاب ظنت أنه يريدها بسوء فـ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ أي ممن يتقى الله . البكالى : فنكص جبريل عليه السلام فزعا من ذكر الرحمن تبارك وتعالى . الثعلبي : كان رجلا صالحا فتعوذت به تعجبا . وقيل : تقي فعيل بمعنى مفعول أي كنت ممن يُتّقى منه . في البخاري قال أبو وائل : علمت مريم أن التقي ذو نُهْيَة حين قالت : « إن كنت تقيا » . وقيل : تقي اسم فاجر معروف في ذلك الوقت ؛ قاله وهب بن منبه ؛ حكاه مكي وغيره . ابن عطية : وهو ضعيف ذاهب مع التخرص . فقال لها جبريل عليه السلام : ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ جعل الهبة من قبله لما كان الإعلام بها من قبله . وقرأ ورش عن نافع « ليهب لك » على معنى أرسلني الله ليهب لك . وقيل : معنى « لأهب » بالهمز محمول على المعنى ؛ أي قال : أرسلته لأهب لك . ويحتمل « ليهب » بلا همز أن يكون بمعنى المهموز ثم خففت الهمزة . فلما سمعت مريم ذلك من قوله استفهمت عن طريقه فـ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ أي بنكاح . ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ أي زانية . وذكرت هذا تأكيدا؛ لأن قولها لم يمسسني بشر يشمل الحلال والحرام . وقيل : ما استبعدت من قدرة الله تعالى شيئا ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد ؟ من قبل الزوج في المستقبل أم يخلقه الله ابتداء ؟ وروى أن جبريل عليه السلام حين قال لها هذه المقالة نفخ في جيب درعها وكمها ؛ قاله ابن جريج . ابن عباس : أخذ جبريل عليه السلام رُدْن قميصها بإصبعه فنفخ فيه فحملت من ساعتها بعيسى . قال الطبري : وزعمت النصارى أن مريم حملت بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة، وأن عيسى عاش إلى أن رفع اثنتين وثلاثين سنة وأياما، وأن مريم بقيت بعد رفعه ست سنين، فكان جميع عمرها نيفا وخمسين سنة . وقوله : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ ﴾ متعلق بمحذوف؛ أي ونخلقه لنجعله : ﴿ آيَةً ﴾ دلالة على قدرتنا عجيبة ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ لمن آمن به . ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ مقدرا في اللوح مسطورا .

قوله تعالى : ﴿ فَٱنتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ أى تنحت بالحمل إلى مكان بعيد ؛ قال ابن عباس : إلى أقصى الوادى ، وهو وادى بيت لحم بينه و بين إيلياء أربعة أميال ؛ وإنما بعدت فرارا من تعيير قومها إياها بالولادة من غير زوج . قال ابن عباس : ما هو إلا أن حملت فوضعت فى الحال وهذا هو الظاهر ؛ لأن الله تعالى ذكر الانتباذ عقب الحمل . وقيل : غير ذلك على ما يأتى :

قوله تعالى : ﴿ فَأَجَاءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ «أجاءها» اضطرها ؛ وهو تعدية جاء بالهمز . يقال : جاء به وأجاءه إلى موضع كذا ، كما يقال : ذهب به وأذهبه . وقرأ شبيل وروبت عن عاصم «فاجأها» من المفاجأة . وفى مصحف أبى «فلما أجاءها المخاض» . وقال زهير :

وَجَارٍ سَارَ مُعتَمِدًا إِلَينَا ... أَجَاءَتهُ المَخَافَةُ وَالرَّجَاءُ

وقرأ الجمهور «المَخَاضُ» بفتح الميم . وابن كثير فيما روى عنه بكسرها وهو الطلق وشدة الولادة وأوجاعها . مخضت المرأة تمخض مخاضا ومخاضا . وناقة ماخض أى دنا ولادها . «إلى جِذْعِ النَّخْلَةِ» كأنها طلبت شيئا تستند إليه وتتعلق به ، كما تتعلق الحامل لشدة وجع الطلق . والجذع ساق النخلة اليابسة فى الصحراء الذى لا سعف عليه ولا غصن ؛ ولهذا لم يقل إلى النخلة . ﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا ﴾ تمنت مريم عليها السلام الموت من جهة الدين لوجهين : أحدهما — أنها خافت أن يظن بها الشر فى دينها وتعير فيفتنها ذلك . الثانى — لئلا يقع قوم بسببها فى البهتان والنسبة إلى الزنى وذلك مهلك . وعلى هذا الحد يكون تمنى الموت جائزا ، وقد مضى هذا المعنى مبينا فى سورة «يوسف»[1] عليه السلام . والحمد لله .

قلت : وقد سمعتُ أن مريم عليها السلام سمعت نداء من يقول : اخرج يا من يُعبد من دون الله فحزنت لذلك ، و﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ . النسى فى كلام العرب الشىء الحقير الذى شأنه أن ينسى ولا يتألم لفقده كالوتد والحبل للمسافر ونحوه .

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٦٩ طبعة أولى أو ثانية .

وحكى عن العرب أنهم إذا أرادوا الرحيل عن منزل قالوا : احفظوا أنساءكم ، الأنساء جمع نسي وهو الشيء الحقير يغفل فينسى . ومنه قول الكميت رضي الله تعالى عنه :

أتجعلنا جسراً لكلب قضاعة ٭ ولست بنسي في معد ولا دخل

وقال الفراء : النسي ما تلقيه المرأة من خرق اعتلالها ، فقول مريم : «نسيا منسيا» أي حيضة ملقاة . وقرئ « نَسياً » بفتح النون وهما لغتان مثل الحِجر والحَجر والوِتر والوَتر . وقرأ محمد بن كعب القرظي بالهمز « نِسئاً » بكسر النون . وقرأ نوف البكالي « نَسْئاً » بفتح النون من نسأ الله تعالى في أجله أي أخره . وحكاها أبو الفتح والداني عن محمد بن كعب . وقرأ بكر بن حبيب « نَسّاً » بتشديد السين وفتح النون دون همز . وقد حكى الطبري في قصصها أنها لما حملت بعيسى عليه السلام حملت أيضا أختها بيحيى ، فجاءتها أختها زائرة فقالت : يا مريم أشعرت أنت أني حملت ؟ فقالت لها : وإني أجد ما في بطني يسجد لما في بطنك ؛ فذلك أنه روى أنها أحست بجنينها يخر برأسه إلى ناحية بطن مريم ؛ قال السدي فذلك قوله : « مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ » . وذكر أيضا من قصصها أنها خرجت فارة مع رجل من بني إسرائيل يقال له يوسف النجار ، كان يخدم معها في المسجد وطول في ذلك . قال الكلبي : قيل ليوسف — وكانت سميت له أنها حملت من الزنى — فالآن يقتلها الملك ، فهرب بها ، فهمّ في الطريق بقتلها ، فأتاه جبريل عليه السلام وقال له : إنه من روح القدس ؛ قال ابن عطية : وهذا كله ضعيف . وهذه القصة تقتضي أنها حملت ، واستمرت حاملا على عرف النساء ، وتظاهرت الروايات بأنها ولدته لثمانية أشهر . قاله عكرمة ، ولذلك قيل : لا يعيش ابن ثمانية أشهر حفظا لخاصة عيسى . وقيل : ولدته لتسعة . وقيل : لستة . وما ذكرناه عن ابن عباس أصح وأظهر . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا ﴾ قرئ بفتح الميم وكسرها . قال ابن عباس : المراد بـ« من » جبريل ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها ؛ وقاله علقمة والضحاك وقتادة ؛ ففي هذا لها آية وأمارة أن هذا من الأمور الخارقة للعادة التي لله فيها مراد عظيم . وقوله :

﴿ أَلَّا تَحْزَنِي ﴾ تفسير النداء ، « وأَنْ » مفسِّرة بمعنى أى ؛ المعنى : فلا تحزنى بولادتك .
﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ يعنى عيسى . والسرىّ من الرجال العظيم الخصال السيّد. قال الحسن : كان والله سريًّا من الرجال . ويقال : سَرِى فلان على فلان أى تكرم . وفلان سَرِىٌّ من قوم سَرَاة . وقال الجمهور : أشار لها إلى الجدول الذى كان قريب جذع النخلة . قال ابن عباس : كان ذلك نهرا قد انقطع ماؤه فأجراه الله تعالى لمريم . والنهر يسمى سَرِيًّا لأن الماء يسرى فيه ؛ قال الشاعر :

سَلْمٌ[1] تَرَى الدَّالِيَّ منه أَزْوَرَا ۞ إذا يَعُبُّ فى السَّرِىِّ هَرْهَرَا

وقال لبيد :

فتوسّطا عُرْضَ السَّرِىِّ وصَدَّعَا[2] ۞ مَسْجُورَةً مُتَجَاوِرًا قُلَّامُهَا

وقيل : ناداها عيسى ، وكان ذلك معجزة وآية وتسكينا لقلبها ؛ والأول أظهر . وقرأ ابن عباس « فناداها مَلَكٌ مِن تحتها » قالوا : وكان جبريل عليه السلام فى بقعة من الأرض أخفض من البقعة التى كانت هى عليها .

قوله تعالى : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا . فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وَهُزِّي » أمرها بهزّ الجذع اليابس لترى آية أخرى فى إحياء موات الجذع . والباء فى قوله : « بجذع » زائدة مؤكدة كما يقال : خذ بالزمام ، وأعط بيدك ؛ قال الله تعالى : « فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ » أى فليمدد سببا . وقيل : المعنى ؛ وهزى إليك رطبا على جذع النخلة . « وتَسَّاقَطْ » أى تتساقط فأدغم التاء فى السين . وقرأ حمزة « تَسَاقَطْ » مخففا فحذف التى أدغمها غيره . وقرأ عاصم فى رواية حفص « تُسَاقِطْ » بضم التاء مخففا وكسر القاف . وقرئ « تَتَسَاقَطْ » بإظهار التاءين و « يَسَّاقَطْ » بالياء وإدغام التاء « وتُسْقِط »

---

(١) السلم : الدلو التى لها عرقوة واحدة كدلو السقائين . والدالى : المستقى بالدلو . والهرهرة : صوت الماء إذا جرى . (٢) أى شق النهر والأتان النبت الذى على الماء . ومسجورة : عين مملوءة . والمتجاور المتقارب والقلام : نبت ؛ وقيل : هو القصب . والبيت من معلقته .

و « يُسقط » و « تَسقط » و « يَسقط » بالتاء للنخلة وبالياء للجذع؛ فهذه تسع قراءات ذكرها الزمخشري رحمة الله تعالى عليه. « رطبا » نصب بالهز؛ أي إذا هززت الجذع هززت بهزه « رطبا جنيا » . وعلى الجملة فـ « رطبا » يختلف نصبه بحسب معاني القراءات؛ فمرة يستند العمل إلى الجذع، ومرة إلى الهز، ومرة إلى النخلة . « وجنيا » معناه قد طابت وصلحت للاجتناء، وهي من جنيت الثمرة . ويروى عن ابن مسعود — ولا يصح — أنه قرأ « تساقط عليك رطبا جنيا برنيا(١) » . وقال مجاهد : « رطبا جنيا » قال : كانت عجوة . وقال عباس بن الفضل : سألت أبا عمرو بن العلاء عن قوله : « رطبا جنيا » فقال : لم يذو . قال وتفسيره : لم يجف ولم ييبس ولم يبعد عن يدي مجتنيه؛ وهذا هو الصحيح . قال الفراء : الجنيّ والمجنيّ واحد؛ يذهب إلى أنهما بمنزلة القتيل والمقتول والجريح والمجروح . وقال غير الفراء : الجنيّ المقطوع من نخلة واحدة، والمأخوذ من مكان نشأته؛ وأنشدوا :

وطيب ثمار في رياض أريضة ٭ وأغصان أشجار جناها على قرب

يريد بالجني ما يجنى منها أي يقطع ويؤخذ . قال ابن عباس : كان جذعا نخرا فلما هزت نظرت إلى أعلى الجذع فإذا السعف قد طلع، ثم نظرت إلى الطلع قد خرج من بين السعف، ثم اخضر فصار بلحا ثم احمر فصار زهوا، ثم رطبا؛ كل ذلك في طرفة عين، فجعل الرطب يقع بين يديها لا ينشدخ منه شيء .

الثانية — استدل بعض الناس من هذه الآية على أن الرزق وإن كان محتوما؛ فإن الله تعالى قد وكّل ابن آدم إلى سعي ما فيه؛ لأنه أمر مريم بهز النخلة لترى آية، وكانت الآية تكون بألا تهز .

الثالثة — الأمر بتكليف الكسب في الرزق سنة الله تعالى في عباده، وأن ذلك لا يقدح في التوكل، خلافا لما تقوله جهال المتزهدة؛ وقد تقدم هذا المعنى والخلاف فيه . وقد كانت قبل ذلك يأتيها رزقها من غير تكسب كما قال : « كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ

---

(١) البرني : ضرب من التمر أصفر مدور، وهو أجود التمر؛ واحدته برنية .

وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا » الآية . فلما ولدت أمرت بهز الجذع . قال علماؤنا : لما كان قلبها فارغا فرغ الله جارحتها عن النصب ، فلما ولدت عيسى وتعلق قلبها بحبه ، واشتغل سرها وأمره ، وكلها إلى كسبها ، وردها إلى العادة بالتعلق بالأسباب فى عباده . وحكى الط ... عن ابن زيد أن عيسى عليه السلام قال لها : لا تحزنى ؛ فقالت له وكيف لا أحزن وأنت معى ؟ ! لا ذات زوج ولا مملوكة ! أى شئ عذرى عند الناس ؟ ! « يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا » فقال لها عيسى : أنا أكفيك الكلام .

الرابعة — قال الربيع بن خيثم : ما للنفساء عندى خير من الرطب لهذه الآية ، ولو علم الله شيئا هو أفضل من الرطب للنفساء لأطعمه مريم ؛ ولذلك قالوا : التمر عادة للنفساء من ذلك الوقت ، وكذلك التحنيك . وقيل : إذا عسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب ، ولا للمريض خير من العسل ؛ ذكره الزمخشرى . قال ابن وهب قال مالك قال الله تعالى : « رطبا جنيا » الجنى من التمر ما طاب من غير نقش ولا إفساد . والنقش أن ينقش من أسفل البسرة حتى ترطب ؛ فهذا مكروه ؛ يعنى مالك أن هذا تعجيل للشىء قبل وقته ، فلا ينبغى لأحد أن يفعله ، وإن فعله فاعل ما كان ذلك مجوزا لبيعه ؛ ولا حكما بطيبه . وقد مضى هذا القول فى الأنعام[1] . والحمد لله . عن طلحة بن سليمان « جِنِيًّا » بكسر الجيم للإتباع ؛ أى جعلنا لك فى السرى والرطب فائدتين : إحداهما الأكل والشرب ، الثانية سلوة الصدر ؛ لكونهما معجزتين ؛ وهو [معنى][2] قوله تعالى : ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ أى فكلى من الجنى ، واشربى من السرى ، وقرى عينا برؤية الولد النبى . وقرئ بفتح القاف وهى قراءة الجمهور . وحكى الطبرى قراءة « وَقِرِّي » بكسر القاف وهى لغة نجد . يقال : قَرَّ عينا يَقُر ويَقِر بضم القاف وكسرها ؛ وأقر الله عينه فقرت . وهو مأخوذ من القُرّ والقِرّة وهما البرد . ودمعة السرور باردة ، ودمعة الحزن حارة . وضعف فرقة هذا وقالت : الدمع كله حار ، فمعنى أقر الله عينه أى سكن الله عينه بالنظر إلى من يحبه حتى تقر وتسكن ؛ وفلان قُرة عينى ؛ أى

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٥٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) الزيادة من الكشاف للزمخشرى .

نفسى تسكن بقربه . وقال الشيبانى : « وقرى عينا » معناه نامى؛ حضها على الأكل والشرب والنوم . قال أبو عمرو : أقر الله عينه أى أنام عينه ، وأذهب سهره . و « عينا » نصب على التمييز ؛ كقولك : طب نفسا . والفعل فى الحقيقة إنما هو للعين فنقل ذلك إلى ذى العين؛ وينصب الذى كان فاعلا فى الحقيقة على التفسير . ومثله طبت نفسا، وتفقأت شحما، وتصببت عرقا ، ومثله كثير .

قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : « فَإِمَّا تَرَيِنَّ » الأصل فى ترين تَرْأَيِين[1] فحذفت الهمزة كما حذفت من ترى ونقلت فتحتها إلى الراء فصار « تريين » ، ثم قلبت الياء الأولى ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها، فاجتمع ساكنان الألف المنقلبة عن الياء وياء التأنيث، فحذفت الألف لالتقاء الساكنين، فصار تَرَيْنَ، ثم حذفت النون علامة للجزم لأن إن حرف شرط وما صلة فبقى تَرَيْ، ثم دخله نون التوكيد وهى مثقلة، فكسر ياء التأنيث لالتقاء الساكنين؛ لأن النون المثقلة بمنزلة نونين الأولى ساكنة فصار تَرَيِنَّ وعلى هذا النحو قول ابن دريد :

* إما تَرَىْ رأسِيَ حاكَى لونُهُ[2] *

وقول الأفوه : * إما تَرَىْ رأسِيَ أَزْرَى به[3] *

وإنما دخلت النون هنا بتوطئة « ما » كما يوطئ لدخولها أيضا لام القسم . وقرأ طلحة وأبو جعفر وشيبة « تَرَيْنَ » بسكون الياء وفتح النون خفيفة؛ قال أبو الفتح : وهى شاذة .

الثانية ــ قوله تعالى : « فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ » هذا جواب الشرط وفيه إضمار؛ أى فسألك عن ولدك « فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا » أى صَمْتا؛ قاله ابن عباس وأنس ابن مالك . وفى قراءة أُبَيّ بن كعب « إِنِّي نَذَرْتُ لِلرحمن صَوْمًا صَمْتًا » . وروى عن أنس .

(١) أى قبل التوكيد ودخول الجازم، وهى بوزن تمنعين .

(٢) تمامه : * طرة صبح تحت أذيال الدجى *

(٣) تمامه : * مأس زمان ذى انتكاس مئوس *

وعنه أيضا « وصمتا » بواو، واختلاف اللفظين يدل على أن الحرف ذكر تفسيرا لا قرآنا؛ فإذا أتت معه واو فممكن أن يكون غير الصوم . والذى تتابعت به الأخبار عن أهل الحديث ورواة اللغة أن الصوم هو الصمت؛ لأن الصوم إمساك والصمت إمساك عن الكلام . وقيل : هو الصوم المعروف، وكان يلزمهم الصمت يوم الصوم إلا بالإشارة . وعلى هذا تخرج قراءة أنس « وصمتا » بواو، وأن الصمت كان عندهم فى الصوم ملتزما بالنذر، كما أن من نذر منا المشى إلى البيت اقتضى ذلك الإحرام بالحج أو العمرة . ومعنى هذه الآية أن الله تعالى أمرها على لسان جبريل عليه السلام — أو ابنها على الخلاف المتقدم — بأن تمسك عن مخاطبة البشر، وتحيل على ابنها فى ذلك ليرتفع عنها خجلها، وتتبين الآيةُ فيقوم عذرها . وظاهر الآية أنها أبيح لها أن تقول هذه الألفاظ التى فى الآية، وهو قول الجمهور . وقالت فرقة : معنى « قولى » بالإشارة لا بالكلام . الزمخشرى : وفيه أن السكوت عن السفيه واجب، ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافها .

الثالثة — من التزم بالنذر ألا يكلم أحدا من الآدميين فيحتمل أن يقال إنه قُربة فيلزم بالنذر، ويحتمل أن يقال: ذلك لا يجوز فى شرعنا لما فيه من التضييق وتعذيب النفس، كنذر القيام فى الشمس ونحوه . وعلى هذا كان نذر الصمت فى تلك الشريعة لا فى شريعتنا؛ وقد تقدم . وقد أمر ابن مسعود من فعل ذلك بالنطق بالكلام . وهذا هو الصحيح لحديث أبى إسرائيل، خرجه البخارى عن ابن عباس[1] . وقال ابن زيد والسدى : كانت سنة الصيام عندهم الإمساك عن الأكل والكلام .

قلت : ومن سنتنا نحن فى الصيام الإمساك عن الكلام القبيح؛ قال عليه الصلاة والسلام: "إذا كان أحدكم صائما فلا يَرفُث ولا يجهل فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنى صائم". وقال عليه الصلاة والسلام: "من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه".

(١) الحديث كما فى البخارى عن ابن عباس قال : بينا النبى صلى الله عليه وسلم يخطب إذا هو برجل قائم، فسأل عنه فقالوا : أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد، ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " مره فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه " .

قوله تعالى : ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾ روى أن مريم لما اطمأنت بما رأت من الآيات، وعلمت أن الله تعالى سيبين عذرها ، أتت به تحمله من المكان القصى الذى كانت انتبذت فيه . قال ابن عباس : خرجت من عندهم حين أشرقت الشمس، فجاءتهم عند الظهر ومعها صبي تحمله ، فكان الحمل والولادة فى ثلاث ساعات من النهار . وقال الكلبي : ولدت حيث لم يشعر بها قومها، ومكثت أربعين يوما للنفاس ، ثم أتت قومها تحمله ، فلما رأوها ومعها الصبي حزنوا وكانوا أهل بيت صالحين، فقالوا منكرين : ﴿ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ أى جئت بأمر عظيم كالآتى بالشيء يفتريه . قال مجاهد : « فريا » عظيما . وقال سعيد بن مسعدة : أى مختلقا مفتعلا ؛ يقال : فريت وأفريت بمعنى واحد . والولد من الزنى كالشيء المفترى . قال الله تعالى : « وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ » أى بولد بقصد إلحاقه بالزوج وليس منه . يقال : فلان يفرى الفرى أى يعمل العمل البالغ ، وقال أبو عبيدة : الفرى العجيب النادر ؛ وقاله الأخفش . قال : فريا عجيبا . والفرى القطع كأنه مما يخرق العادة ، أو يقطع القول بكونه عجيبا نادرا . وقال قطرب : الفرى الجديد من الأسقية ؛ أى جئت بأمر جديد بديع لم تسبق إليه . وقرأ أبو حيوة : «شيئا فريا» بسكون الراء . وقال السدى ووهب بن منبه : لما أتت به قومها تحمله تسامع بذلك بنو إسرائيل، فاجتمع رجالهم ونساؤهم، فمدت امرأة يدها إليها لتضربها فأجف الله شطرها فحملت كذلك . وقال آخر : ما أراها إلا زنت فأخرسه الله تعالى؛ فتحامى الناس من أن يضربوها، أو يقولوا لها كلمة تؤذيها ، وجعلوا يخفضون إليها القول و يلينون؛ فقالوا : « يا مريم لقد جئت شيئا فريا » أى عظيما؛ قال الراجز:[1]

(١) هو زرارة بن صعب بن دهر يخاطب العامرية ، وكان قد خرج معها فى سفر يمتارون من اليمامة فلما امتاروا وصدروا جعل زرارة بن صعب يأخذه بطنه ، فكان يتخلف خلف القوم فقالت العامرية :

لقد رأيت رجلا دهريا ۞ يمشى وراء القوم سيتيا

۞ كأنه مضطعن صبيا ۞

تريد أنه امتلأ بطنه ؛ فأجابها زرارة بالأبيات . و « جريا » منسوب إلى جر اليمامة وهو قصبتها .

قد أطعمتني دقلا حوليّا * مسوّسا مدوّدا حجريّا ;
* قد كنت تفرين به الفريّا *

أى [تنظمينه][1] .

قوله تعالى : ﴿ يَا أُخْتَ هَٰرُونَ ﴾ اختلف الناس فى معنى هذه الأخوة، ومن هرون؟ فقيل : هو هرون أخو موسى؛ والمراد من كنا نظنها مثل هرون فى العبادة تأتى بمثل هذا . وقيل : على هذا كانت مريم من ولد هرون أخى موسى فنسبت إليه بالأخوة لأنها من ولده، كما يقال للتميمى : يا أخا تميم، وللعربى يا أخا العرب . وقيل : كان لها أخ من أبيها اسمه هرون؛ لأن هذا الاسم كان كثيرا فى بنى إسرائيل تبركا باسم هرون أخى موسى، وكان أمثل رجل فى بنى إسرائيل، قاله الكلبى . وقيل : هرون هذا رجل صالح فى ذلك الزمان تبع جنازته يوم مات أربعون ألفا كلهم اسمه هرون . وقال قتادة : كان فى ذلك الزمان فى بنى إسرائيل عابد منقطع إلى الله عز وجل يسمى هرون فنسبوها إلى أخوته من حيث كانت على طريقته قبلُ، إذ كانت موقوفة على خدمة البيع؛ أى ياهذه المرأة الصالحة ما كنت أهلا لذلك . وقال كعب الأحبار بحضرة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : إن مريم ليست بأخت هرون أخى موسى ؛ فقالت له عائشة : كذبت . فقال لها : يا أم المؤمنين إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قاله فهو أصدق وأخبر، وإلا فإنى أجد بينهما من المدة ستمائة سنة . قال : فسكتت . وفى صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة قال : لما قدمتُ نجران سألونى فقال إنكم تقرءون « يا أخت هرون » وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك، فقال : " إنهم كانوا يسمّون بأنبيائهم والصالحين قبلهم " . وقد جاء فى بعض طرقه فى غير الصحيح أن النصارى قالوا له : إن صاحبك يزعم أن مريم هى أخت هرون وبينهما فى المدة ستمائة سنة؟! قال المغيرة : فلم أدر ما أقول؛ وذكر الحديث . والمعنى أنه اسم وافق اسما . ويستفاد من هذا جواز التسمية بأسماء الأنبياء؛ والله أعلم .

---

(١) فى الأصل : « تطعمينه » وهو تحريف .

قلت : فقد دل الحديث الصحيح أنه كان بين موسى وعيسى وهرون زمان مديد . الزمخشري : كان بينهما و بينه ألف سنة أو أكثر فلا يتخيل أن مريم كانت أخت موسى وهرون؛ و إن صح فكما قال السدي لأنها كانت من نسله ؛ وهذا كما تقول للرجل من قبيلة : يا أخا فلان . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : " إن أخا صُداء[1] قد أذَّن فمن أذَّن فهو يُقيم " وهذا هو القول الأوّل . ابن عطية : وقالت فرقة بل كان في ذلك الزمان رجل فاجر اسمه هرون فنسبوها إليه على جهة التعيير والتوبيخ؛ ذكره الطبري ولم يسم قائله .

قلت : ذكره الغزنوي عن سعيد بن جبير أنه كان فاسقا مثلا في الفجور فنسبت إليه . والمعنى: ما كان أبوك ولا أمك أهلا لهذه الفعلة فكيف جئت أنت بها؟ !وهذا من التعريض الذي يقوم مقام التصريح . وذلك يوجب عندنا الحد وسيأتي في سورة « النور» القول فيه إن شاء الله تعالى . وهذا القول الأخير يرده الحديث الصحيح ، وهو نص صريح فلا كلام لأحد معه ، ولا غبار عليه . والحمد لله . وقرأ عمر بن لجا التيمي «مَا كَانَ أَبَاكِ آمْرُؤُ سَوْءٍ»[2] .

قوله تعالى : فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

فيها خمس مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ التزمت مريم عليها السلام ما أمرت به من ترك الكلام ، ولم يرد في هذه الآية أنها نطقت

---

(١) هو زياد بن الحرث الصدائي ؛ كان قد أمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يؤذن لصلاة الفجر فأذن فأراد بلال أن يقيم فقال صلى الله عليه وسلم : " إن أخا صداء قد أذن ... " الحديث .

(٢) قال في « البحر » : يجعل الخبر المعرفة والاسم النكرة ، وحسن ذلك قليلا كونها فيها مسوغ جواز الابتداء بالنكرة وهو الإضافة .

بـ « إنى نذرت للرحمن صوما » وإنما ورد بأنها أشارت، فيقوى بهذا قول من قال : إن أمرها بـ « قولى » إنما أريد به الإشارة . ويروى أنهم لما أشارت إلى الطفل قالوا : آستخفافها بنا أشدّ علينا من زناها، ثم قالوا لها على جهة التقرير : « كيف نكلم من كان فى المهد صبيا » و« كان » هنا ليس يراد بها الماضى ؛ لأن كل واحد قد كان فى المهد صبيا، وإنما هى فى معنى هو [الآن][1] . وقال أبو عبيدة : « كان » هنا لغو ؛ كما قال[2] :

* وجيرانٍ لنا كانوا كرامِ *

وقيل : هى بمعنى الوجود والحدوث كقوله : « وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ » وقد تقدّم . وقال ابن الأنبارى : لا يجوز أن يقال زائدة وقد نصبت « صبيا »، ولا أن يقال « كان » بمعنى حدث ؛ لأنه لو كانت بمعنى الحدوث والوقوع لاستغنى فيه عن الخبر، تقول : كان الحرّ وتكتفى به . والصحيح أن « من » فى معنى الجزاء و « كان » بمعنى يكن؛ التقدير : من يكن فى المهد صبيا فكيف نكلمه؟ ! كما تقول : كيف أعطى من كان لا يقبل عطية ؛ أى من يكن لا يقبل . والماضى قد يذكر بمعنى المستقبل فى الجزاء ؛ كقوله تعالى : « تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أى إن يشأ يجعل . وتقول : من كان إلىّ منه إحسان كان إليه منى مثله، أى من يكن منه إلى إحسان يكن إليه منى مثله . « والمهد » قيل : كان سريرا كالمهد . وقيل : « المهد » هاهنا حجر الأم. وقيل : المعنى كيف نكلم من كان سبيله أن ينوّم فى المهد لصغره، فلما سمع عيسى عليه السلام كلامهم قال لهم من مرقده ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ وهى :

الثانيـــة — فقيل : كان عيسى عليه السلام يرضع فلما سمع كلامهم ترك الرضاعة وأقبل عليهم بوجهه، وآتكأ على يساره، وأشار إليهم بسبابته اليمنى، و « قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ » فكان أول ما نطق به الاعتراف بعبوديته لله تعالى وربوبيته ، ردا على من غلا من بعده فى شأنه . والكتاب الإنجيل؛ قيل : آتاه فى تلك الحالة الكتاب، وفهمه وعلمه، وآتاه النبوة كما علم آدم

(١) الزيادة من كتب التفسير . (٢) هو الفرزدق؛ وصدر البيت :

* فكيف إذا رأيت ديار قوم *

الأسماء كلها، وكان يصوم ويصلى . وهذا فى غاية الضعف على مانبينه فى المسئلة بعد هذا .
وقيل : أى حكم لى بإيتاء الكتاب والنبوة فى الأزل، وإن لم يكن الكتاب منزلا فى الحال؛
وهذا أصح . ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا ﴾ أى ذا بركات ومنافع فى الدين والدعاء إليه ومعلّما له .
التُّسْتَرِىّ : وجعلنى آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأرشد الضال، وأنصر المظلوم،
وأغيث الملهوف. ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾ أى لأؤديهما إذا أدركنى التكليف، وأمكننى
أداؤهما، على القول الأخير الصحيح. ﴿ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ فى موضع نصب على الظرف أى دوام
حياتى . ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ قال ابن عباس : لما قال « وَبَرًّا بِوَالِدَتِي » ولم يقل بوالدىّ
علم أنه شىء من جهة الله تعالى . ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا ﴾ أى متعظا متكبرا يقتل ويضرب على
الغضب . وقيل : الجبار الذى لا يرى لأحد عليه حقا قط . ﴿ شَقِيًّا ﴾ أى خائبا من الخير .
ابن عباس : عاقا . وقيل : عاصيا لربه . وقيل : لم يجعلنى تاركا لأمره فأشقى كما شقى إبليس
لما ترك أمره .

الثالثة ـ قال مالك بن أنس رحمه الله تعالى فى هذه الآية : ما أشدها على أهل القدر!
أخبر عيسى عليه السلام بما قضى من أمره، وبما هو كائن إلى أن يموت . وقد روى
فى قصص هذه الآية عن ابن زيد وغيره أنهم لما سمعوا كلام عيسى أذعنوا وقالوا : إن هذا
لأمر عظيم . وروى أن عيسى عليه السلام إنما تكلم فى طفولته بهذه الآية، ثم عاد إلى حالة
الأطفال، حتى مشى على عادة البشر إلى أن بلغ مبلغ الصبيان، فكان نطقه إظهار براءة أمه
لا أنه كان ممن يعقل فى تلك الحالة، وهو كما ينطق الله تعالى الجوارح يوم القيامة . ولم ينقل
أنه دام نطقه، ولا أنه كان يصلى وهو ابن يوم أو شهر، ولو كان يدوم نطقه وتسبيحه
ووعظه وصلاته فى صغره من وقت الولادة لكان مثله مما لا ينكتم، وهذا كله مما يدل على
فساد القول الأول، ويصرح بجهالة قائله . ويدل أيضا على أنه تكلم فى المهد خلافا لليهود
والنصارى . والدليل على ذلك إجماع الفرق على أنها لم تحد . وإنما صح براءتها من الزنى
بكلامه فى المهد . ودلت هذه الآية على أن الصلاة والزكاة وبر الوالدين كان واجبا على الأمم

السالفة، والقرون الخالية الماضية، فهو مما يثبت حكمه، ولم ينسخ فى شريعة أمره . وكان عيسى عليه السلام فى غاية التواضع، يأكل الشجر، ويلبس الشعر، ويجلس على التراب، ويأوى حيث جنّه الليل، لا مسكن له، صلى الله عليه وسلم .

الرابعة — الإشارة بمنزلة الكلام، وتُفهِم ما يُفهِم القول . كيف لا وقد أخبر الله تعالى عن مريم فقال: «فأشارت إليه» وفهم منها القوم مقصودها وغرضها فقالوا: «كيف نكلم» وقد مضى هذا فى «آل عمران»[1] مستوفى .

الخامسة — قال الكوفيون : لا يصح قذف الأخرس ولا لعانه . وروى مثله عن الشعبي، وبه قال الأوزاعيّ وأحمد وإسحق، وإنما يصح القذف عندهم بصريح الزنى دون معناه، وهذا لا يصح من الأخرس ضرورة، فلم يكن قاذفا؛ ولا يتميز بالإشارة بالزنى من الوطء الحلال والشبهة . قالوا : واللعان عندنا شهادات، وشهادة الأخرس لا تقبل بالإجماع . قال ابن القصار : قولهم إن القذف لا يصح إلا بالتصريح فهو باطل بسائر الألسنة ماعدا العربية، فكذلك إشارة الأخرس . وما ذكروه من الإجماع فى شهادة الأخرس فغلط . وقد نص مالك أن شهادته مقبولة إذا فهمت إشارته، وأنها تقوم مقام اللفظ بالشهادة، وأما مع القدرة باللفظ فلا تقع منه إلا باللفظ . قال ابن المنذر : والمخالفون يلزمون الأخرس الطلاق والبيوع وسائر الأحكام، فينبغي أن يكون القذف مثل ذلك . قال المهلب : وقد تكون الإشارة فى كثير من أبواب الفقه أقوى من الكلام؛ مثل قوله عليه الصلاة والسلام : "بعثت أنا والساعة كهاتين" نعرف قرب ما بينهما بمقدار زيادة الوسطى على السبابة . وفى إجماع العقول على أن العيان أقوى من الخبر دليل على أن الإشارة قد تكون فى بعض المواضع أقوى من الكلام . ﴿ والسَّلَامُ عَلَيَّ ﴾ أى السلامة علىّ من الله تعالى؛ قال الزجاج : ذكر السلام قبل هذا بغير ألف ولام فحسن فى الثانية ذكر الألف واللام . وقوله : ﴿ يَوْمَ وُلِدتُّ ﴾ يعنى فى الدنيا . وقيل : من همز الشيطان كما تقدّم فى «آل عمران»[2] . ﴿ وَيَوْمَ أَمُوتُ ﴾ يعنى

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٨١ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٤ ص ٦٨ طبعة أولى أو ثانية .

فى القبر . ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ يعنى فى الآخرة؛لأن له أحوالا ثلاثة : فى الدنيا حيا،وفى القبر ميتا ، وفى الآخرة مبعوثا ؛ فسلم فى أحواله كلها ؛ وهو معنى قول الكلبي . ثم انقطع كلامه فى المهد حتى بلغ مبلغ الغلمان . وقال قتادة : ذكر لنا أن عيسى عليه السلام رأته امرأة يحيي الموتى ، ويبرئ الأكمه والأبرص فى سائر آياته فقالت : طوبى للبطن الذى حملك، والثدى الذى أرضعك؛ فقال لها عيسى عليه السلام: طوبى لمن تلا كتاب الله تعالى واتبع ما فيه وعمل به.

قوله تعالى : ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ﴾ أى ذلك الذى ذكرناه عيسى بن مريم فكذلك اعتقدوه، لا كما تقول اليهود إنه لغير رشدة، وأنه ابن يوسف النجار، ولا كما قالت النصارى: إنه الإله أو ابن الإله . ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ قال الكسائى : « قَوْلُ الْحَقِّ » نعت لعيسى؛ أى ذلك عيسى ابن مريم [قول الحق](١) . وسمى قول الحق كما سمى كلمة الله ؛ والحق هو الله عز وجل . وقال أبو حاتم : المعنى هو قول الحق . وقيل : التقدير هذا الكلام قول الحق . قال ابن عباس : يريد هذا كلام عيسى صلى الله عليه وسلم قول الحق ليس بباطل؛ وأضيف القول إلى الحق كما قال : « وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ » أى الوعد الصدق . وقال :

(١) زيادة يقتضيها المقام .

« وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ » أى ولا الدار الآخرة . وقرأ عاصم وعبد الله بن عامر « قَوْلَ الْحَقِّ » بالنصب على الحال ؛ أى أقول قولا حقا . والعامل معنى الإشارة فى « ذلك » . الزجاج : هو مصدر أى أقول قول الحق ؛ لأن ما قبله يدل عليه . وقيل : مدح . وقيل : إغراء . وقرأ عبد الله «قَالُ الحقّ» . وقرأ الحسن «قُولُ الحقّ» بضم القاف ، وكذلك فى «الأنعام» « قَوْلُهُ الْحَقُّ » . والقَوْلُ والقَالُ والقُولُ بمعنى واحد، كالرَّهْب والرَّهَب والرُّهْب. ﴿الَّذِى﴾ من نعت عيسى . ﴿فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أى يشكون؛ أى ذلك عيسى بن مريم الذى فيه يمترون القول الحق . وقيل : « يمترون » يختلفون . ذكر عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله تعالى : « ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون » قال : اجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر، أخرج كل قوم عالمهم فامتروا فى عيسى حين رفع ؛ فقال أحدهم : هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا وأمات من أمات، ثم صعد إلى السماء وهم اليعقوبية . فقالت الثلاثة : كذبت . ثم قال اثنان منهم للثالث : قل فيه، قال : هو ابن الله وهم النسطورية ، فقال الاثنان كذبت ، ثم قال أحد الاثنين للآخر قل فيه ؛ فقال : هو ثالث ثلاثة، الله إله وهو إله ، وأمه إله ، وهم الإسرائيلية ملوك النصارى . قال الرابع : كذبت بل هو عبد الله و رسوله و روحه وكلمته وهم المسلمون ، فكان لكل رجل منهم أتباع — على ما قال — فاقتتلوا فظُهر على المسلمين ، فذلك قول الله تعالى : «وَيَقْتُلُونَ الذين يَأْمُرُونَ بِالقسطِ من الناس» . وقال قتادة : وهم الذين قال الله تعالى فيهم : « فَاخْتلف الأحزابُ منْ بينِهم » اختلفوا فيه فصاروا أحزابا فهذا معنى قوله : « الذى فيه تمترون» بالتاء المعجمة من فوق وهى قراءة أبى عبد الرحمن السُّلَمى وغيره . قال ابن عباس : فر بمريم ابن عمها ومعها ابنها إلى مصر فكانوا فيها اثنتى عشرة سنة حتى مات الملك الذى كانوا يخافونه ؛ ذكره الماوردى .

قلت : ووقع فى تاريخ مصر فيما رأيت وجاء فى الإنجيل الظاهر أن السيد المسيح لما ولد فى بيت لحم كان هيرودس فى ذلك الوقت ملكا ، وأن الله تعالى أوحى إلى يوسف النجار

في الحلم وقال له : قم تخذ الصبي وأمه واذهب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لك ، فإن هيرودس مزمع أن يطلب عيسى ليهلكه ، فقام من نومه ؛ وامتثل أمر ربه ، وأخذ السيد المسيح ومريم أمه وجاء إلى مصر ، وفي حال مجيئه إلى مصر نزل ببئر البلسان التي بظاهر القاهرة ، وغسلت ثيابه على ذلك البئر ، فالبلسان لا يطلع ولا ينبت إلا في تلك الأرض ، ومنه يخرج الدهن الذي يخالط الزيت الذي تعمد به النصارى ، ولذلك كانت قارورة واحدة في أيام المصريين لها مقدار عظيم ، وتقع في نفوس ملوك النصارى مثل ملك القسطنطينية وملك صقلية وملك الحبشة وملك النوبة وملك الفرنجة وغيرهم من الملوك عندما يهاديهم به ملوك مصر موقعا جليلا جدا ، وتكون أحب إليهم من كل هدية لها قدر . وفي تلك السفرة وصل السيد المسيح إلى مدينة الأشمونين[(١)] وقسقام[(٢)] المعروفة الآن بالمحرقة[(٣)] ، فلذلك يعظمها النصارى إلى الآن ، ويحضرون إليها في عيد الفصح من كل مكان ؛ لأنها نهاية ما وصل إليها من أرض مصر ، ومنها عاد إلى الشام . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ ﴾ أي ما ينبغي له ولا يجوز ﴿ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ «من» صلة للكلام ؛ أي أن يتخذ ولدا . و « أن » في موضع رفع اسم « كان » أي ما كان لله أن يتخذ ولدا ؛ أي ما كان من صفته اتخاذ الولد ، ثم نزه نفسه تعالى عن مقالتهم فقال : ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ أن يكون له ولد . ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ تقدم في «البقرة»[(٤)] مستوفى . ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾ قرأ أهل المدينة وابن كثير وأبو عمرو بفتح « أن » وأهل الكوفة « وإن » بكسر الهمزة على أنه مستأنف . تدل عليه قراءة أبي « كُن فيكون . إنَّ اللهَ » بغير واو على العطف على « قَالَ إِنِّي عبدُ اللهِ » . وفي الفتح أقوال : فذهب الخليل وسيبويه أن المعنى ؛ ولأن الله ربي وربكم ، وكذا « وأنَّ المَسَاجِدَ لِلَّهِ » فـ « أن » في موضع نصب عندهما . وأجاز الفراء أن يكون في موضع خفض على حذف اللام ، وأجاز أن يكون أيضا في موضع

---

(١) الأشمونين : إحدى قرى مركز ملوى . (٢) قسقام : هي القوصية الآن إحدى قرى مركز منفلوط .
(٣) المحرقة : وتعرف اليوم بالدير المحرق بمركز منفلوط . (٤) راجع جـ ٢ ص ٨٧ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

خفض بمعنى؛ وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبأن الله ربى وربكم . وأجاز الكسائى أن يكون فى موضع رفع بمعنى، والأمر أن الله ربى وربكم . وفيها قول خامس: حكى أ أن أبا عمرو بن العلاء قاله، وهو أن يكون المعنى : وقضى أن الله ربى وربكم؛ فهى معطوفة على قوله : «أمرا» من قوله : «إِذَا قَضَى أَمْرًا» والمعنى إذا قضى أمرا وقضى أن الله . ولا يبتدأ بـ «أن» على هذا التقدير، ولا على التقدير الثالث . ويجوز الابتداء بها على الأوجه الباقية . ﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أى دين قويم لا اعوجاج فيه .

قوله تعالى : ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ «من» زائدة؛ أى اختلف الأحزاب بينهم . وقال قتادة : أى ما بينهم . فاختلفت الفرق من أهل الكتاب فى أمر عيسى عليه السلام فاليهود بالقدح والسحر . والنصارى قالت النسطورية منهم: هو ابن الله . والملكانية ثالث ثلاثة . وقالت اليعقوبية : هو الله؛ فأفرطت النصارى وغلت، وفرطت اليهود وقصرت، وقد تقدّم هذا فى «النساء»[1] . وقال ابن عباس : المراد من الأحزاب الذين تحزبوا على النبى صلى الله عليه وسلم وكذبوه من المشركين . ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أى من شهود يوم القيامة، والمشهد بمعنى المصدر، والشهود الحضور . ويجوز أن يكون الحضور لهم، ويضاف إلى الظرف لوقوعه فيه، كما يقال : ويل لفلان من قتال يوم كذا ؛ أى من حضوره ذلك اليوم . وقيل : المشهد بمعنى الموضع الذى يشهده الخلائق، كالمحشر للموضع الذى يحشر إليه الخلق . وقيل : فويل للذين كفروا من حضورهم المشهد العظيم الذى اجتمعوا فيه للتشاور، فأجمعوا على الكفر بالله، وقولهم : إن الله ثالث ثلاثة .

قوله تعالى : ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ قال أبو العباس : العرب تقول هذا فى موضع التعجب، فتقول : أسمع بزيد وأبصر بزيد أى ما أسمعه وأبصره . قال : فمعناه أنه عجّب نبيه منهم . قال الكلبى : لا أحد أسمع منهم يوم القيامة ولا أبصر، حين يقول الله تبارك وتعالى لعيسى : «أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ» . وقيل: «أسمع»

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٢١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

بمعنى الطاعة ؛ أى ما أطوعهم لله فى ذلك اليوم . ﴿ لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ ﴾ يعنى فى الدنيا. ﴿ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ وأى ضلال أبين من أن يعتقد المرء فى شخص مثله حملته الأرحام ، وأكل وشرب، وأحدث واحتاج أنه إله ؟! ومن هذا وصفه فهو أصم أعمى ولكنه سيبصر ويسمع فى الآخرة إذا رأى العذاب، ولكنه لا ينفعه ذلك؛ قال معناه قتادة وغيره .

قوله تعالى : ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : ما من أحد يدخل النار إلا وله بيت فى الجنة فيتحسر عليه . وقيل : تقع الحسرة إذا أعطى كتابه بشماله . « إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ » أى فرغ من الحساب ، وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار . وفى صحيح مسلم من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح[1] فيوقف بين الجنة والنار فيقال يا أهل الجنة هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت ــ قال ــ ثم يقال يا أهل النار هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت ــ قال ــ فيؤمر به فيذبح ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت ــ ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ « وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون» " خرجه البخارى بمعناه عن ابن عمر، وابن ماجه من حديث أبى هريرة ، والترمذى عن أبى سعيد يرفعه وقال فيه حديث حسن صحيح . وقد ذكرنا ذلك فى كتاب «التذكرة» وبينا هناك أن الكفار مخلدون بهذه الأحاديث والآى ردا على من قال: إن صفة الغضب تنقطع، وإن إبليس ومن تبعه من الكفرة كفرعون وهامان وقارون وأشباههم يدخلون الجنة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ أى نميت سكانها فنرثها . ﴿ وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ يوم القيامة فنجازى كلا بعمله ، وقد تقدم هذا فى « الحجر »[2] وغيرها .

---

(١) الأملح : الذى بياضه أكثر من سواده ؛ وقيل النقى البياض .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ١٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ المعنى : واذكر في الكتاب الذى أنزل عليك وهو القرآن قصة إبراهيم وخبره . وقد تقدم معنى الصديق في « النساء »[1] واشتقاق الصدق في « البقرة »[2] فلا معنى للإعادة . ومعنى الآية : اقرأ عليهم يا محمد في القرآن أمر إبراهيم فقد عرفوا أنهم من ولده ، فإنه كان حنيفا مسلما وما كان يتخذ الأنداد ، فهؤلاء لم يتخذون الأنداد ؟ ! وهو كما قال : « وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ » .

قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ وهو آزر وقد تقدم[3] . ﴿يَا أَبَتِ﴾ قد تقدم القول فيه في « يوسف »[4] ﴿لِمَ تَعْبُدُ﴾ أى لأى شيء تعبد : ﴿مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٧٢ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٣٣ طبعة ثانية .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع جـ ٩ ص ١٢١ طبعة أولى أو ثانية .

شيئا ﴾ يريد الأصنام . ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ أى من اليقين والمعرفة بالله وما يكون بعد الموت ، وأن من عبد غير الله عذب ﴿ فَاتَّبِعْنِي ﴾ إلى ما أدعوك إليه . ﴿ أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ أى أرشدك إلى دين مستقيم فيه النجاة . ﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ﴾ أى لا تطعه فيما يأمرك به من الكفر، ومن أطاع شيئا فى معصية فقد عبده . ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾ « كان » صلة زائدة . وقيل: بمعنى صار . وقيل: بمعنى الحال؛ أى هو للرحمن . وعصيا وعاص بمعنى واحد؛ قاله الكسائى . ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ﴾ أى إن متّ على ما أنت عليه . ويكون « أخاف » بمعنى أعلم . ويجوز أن يكون « أخاف » على بابها فيكون المعنى : إنى أخاف أن تموت على كفرك فيمسك العذاب . ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ أى قرينا فى النار. ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ أى أترغب عنها إلى غيرها . ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ قال الحسن : يعنى بالحجارة . الضحاك : بالقول ؛ أى لأشتمنك . ابن عباس: لأضربنك . وقيل : لأظهرن أمرك . ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ . قال ابن عباس: أى اعتزلنى سالم العرض لا يصيبك منى معرة؛ واختاره الطبرى، فقوله: « مليا » على هذا حال من إبراهيم . وقال الحسن ومجاهد: « مليا » دهرا طويلا؛ ومنه قول المهلهل :

فَتَصَدَّعَتْ صُمُّ الجبالِ لموته * وبَكَتْ عليه المُرْمِلاتُ مليًّا

قال الكسائى : يقال هجرته مليًّا ومَلْوة ومُلْوة ومَلاوة ومُلاوة، فهو على هذا القول ظرف، وهو بمعنى الملاوة من الزمان، وهو الطويل منه .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ﴾ لم يعارضه إبراهيم عليه السلام بسوء الرد ؛ لأنه لم يؤمر بقتاله على كفره . والجمهور على أن المراد بسلامه المسالمة التى هى المتاركة لا التحية ؛ قال الطبرى : معناه أمنة منى لك . وعلى هذا لا يبدأ الكافر بالسلام . وقال النقاش : حليم خاطب سفيها ؛ كما قال : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » . وقال بعضهم فى معنى تسليمه : هو تحية مفارق ؛ وجوز تحية الكافر وأن يبدأ بها . قيل لابن عيينة : هل يجوز السلام على الكافر؟ قال : نعم؛ قال الله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين

ولم يخرجوكم من دياركم أنْ تبروهم وتُقسِطُوا إليهم إنَّ اللهَ يُحبُّ المقسِطين » . وقال : « قد كانتْ لكُم أُسوةٌ حسنة في إبراهيم » الآية، وقال إبراهيم لأبيه : « سلام عليك » .

قلت : الأظهر من الآية ما قاله سفيان بن عيينة؛ وفي الباب حديثان صحيحان : روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام فإذا لقيتم أحدهم في الطريق فاضطروه إلى أضيقه" خرجه البخارى ومسلم. وفي الصحيحين عن أسامة ابن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم ركب حمارا عليه إكاف تحته قطيفة فَدَكيّة، وأردف وراءه أسامة بن زيد، وهو يعود سعد بن عبادة في بني الحرث بن الخزرج، وذلك قبل وقعة بدر، حتى مر في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفيهم عبد الله بن أبيّ بن سلول، وفي المجلس عبد الله بن رَوَاحة، فلما غشيت المجلسَ عجاجةُ الدابة، خمر عبد الله بن أبيّ أنفه بردائه، ثم قال: لا تُغبّروا علينا، فسلّم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم؛ الحديث . فالأول يفيد ترك السلام عليهم ابتداء، لأن ذلك إكرام، والكافر ليس أهله . والحديث الثاني يجوز ذلك . قال الطبرى : ولا يعارض ما رواه أسامة بحديث أبي هريرة، فإنه ليس في أحدهما خلاف للآخر، وذلك أن حديث أبي هريرة مخرجه العموم، وخبر أسامة يبين أن معناه الخصوص . وقال النَّخَعى : إذا كانت لك حاجة عند يهودى أو نصرانى فابدأه بالسلام؛ فبان بهذا أن حديث أبي هريرة "لا تبدءوهم بالسلام" إذا كان لغير سبب يدعوكم إلى أن تبدءوهم بالسلام، من قضاء ذمام أو حاجة تعرض لكم قبلهم، أو حقّ صحبة أو جوار أو سفر . قال الطبرى : وقد روى عن السلف أنهم كانوا يسلمون على أهل الكتاب . وفعله ابن مسعود بدهقان صحبه في طريقه؛ قال علقمة : فقلت له يا أبا عبد الرحمن أليس يكره أن يبدءوا بالسلام ؟ ! قال : نعم؛ ولكن حقّ الصحبة . وكان أبو أسامة إذا انصرف إلى بيته لا يمر بمسلم ولا نصرانى ولا صغير ولا كبير إلا سلم عليه؛ فقيل له في ذلك فقال : أمرنا أن نفشي السلام . وسئل الأوزاعى عن مسلم مر بكافر فسلم عليه، فقال : إن سلمت فقد سلم الصالحون قبلك ، وإن تركت فقد ترك الصالحون قبلك . وروى عن الحسن البصرى أنه قال : إذا مررت بمجلس فيه مسلمون وكفار فسلم عليهم .

قلت : وقد احتج أهل المقالة الأولى بأن السلام الذى معناه التحية إنما خص به هذه الأمة؛ لحديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى أعطى أمتى ثلاثا لم تعط أحدا قبلهم السلام وهى تحية أهل الجنة" الحديث، ذكره الترمذى الحكيم؛ وقد مضى فى الفاتحة[1] بسنده . وقد مضى الكلام فى معنى قوله : « سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي » . وارتفع السلام بالابتداء، وجاز ذلك مع نكرته لأنه نكرة مخصصة فقربت المعرفة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ : الحفى المبالغ فى البر والإلطاف؛ يقال : حفى به وتحفى إذا بره . وقال الكسائى يقال : حفى بى حفاوة وحفوة . وقال الفراء : «إنه كان بى حفيا » أى عالما لطيفا يجيبنى إذا دعوته .

قوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ ﴾ : العزلة المفارقة وقد تقدم فى « الكهف »[2] بيانها . وقوله : ﴿ عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ قيل : أراد بهذا الدعاء أن يهب الله تعالى له أهلا وولدا يتقوى بهم حتى لا يستوحش بالاعتزال عن قومه . ولهذا قال : ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ أى آنسنا وحشته بولد ؛ عن ابن عباس وغيره . وقيل : « عسى» يدل على أن العبد لا يقطع بأنه يبقى على المعرفة أم لا فى المستقبل . وقيل : دعا لأبيه بالهداية . فـ « عسى » شك لأنه كان لا يدرى هل يستجاب له فيه أم لا ؟ والأول أظهر . وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ أى أثنينا عليهم ثناء حسنا؛ لأن جميع الملل تحسن الثناء عليهم . واللسان يذكر ويؤنث؛ وقد تقدم[3] .

قوله تعالى : وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٣٠ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٦٧ طبعة أولى أو ثانية

(٣) راجع جـ ٤ ص ١٢١ طبعة أولى أو ثانية

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ﴾ أى واقرأ عليهم من القرآن قصة موسى . ﴿ إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصاً[1] ﴾ فى عبادته غير مراءٍ . وقرأ أهل الكوفة بفتح اللام؛ أى أخلصناه فجعلناه مختارا . ﴿ وَنَادَيْنَاهُ ﴾ أى كلمناه ليلة الجمعة . ﴿ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾ أى يمين موسى، وكانت الشجرة فى جانب الجبل عن يمين موسى حين أقبل من مدين إلى مصر؛ قاله الطبرى وغيره؛ فإن الجبال لا يمين لها ولا شمال . ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ نصب على الحال ؛ أى كلمناه من غير وحى . وقيل : أدنيناه لتقريب المنزلة حتى كلمناه . وذكر وكيع وقبيصة عن سفيان عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قول الله عز وجل : « وقربناه نجيا » أى أدنى حتى سمع صريرَ الأقلام . ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً ﴾ وذلك حين سأل فقال : « وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي » .

قوله تعالى : وَاذْكُرْ فِي الْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ﴾ اختلف فيه؛ فقيل : هو إسمعيل ابن حزقيل، بعثه الله إلى قومه فسلخوا جلدة رأسه ، فخيره الله تعالى فيما شاء من عذابهم، فاستعفاه ورضى بثوابه، وفوض أمرهم إليه فى عفوه وعقوبته . والجمهور أنه إسمعيل الذبيح أبو العرب بن إبراهيم . وقد قيل : إن الذبيح إسحق ؛ والأول أظهر على ما تقدم ويأتى فى «والصافات»[2] إن شاء الله تعالى . وخصه الله تعالى بصدق الوعد وإن كان موجودا فى غيره من الأنبياء تشريفا له وإكراما ، كالتلقيب بنحو الحليم والأواه والصدّيق ؛ ولأنه المشهور المتواصف من خصاله .

---

(١) بكسر اللام قراءة «نافع» . (٢) فى تفسير قوله تعالى : « فلما بلغ معه السعى ... الخ » . آية ١٠٢

الثانيــة ــ صدق الوعد محمود وهو من خلق النبيين والمرسلين ، وضده وهو الخلف مذموم، وذلك من أخلاق الفاسقين والمنافقين على ما تقدم بيانه في « براءة »[1] . وقد أثنى الله تعالى على نبيه إسمعيل فوصفه بصدق الوعد . واختلف في ذلك ؛ فقيل : إنه وعد من نفسه بالصبر على الذبح فصبر حتى فدى . هذا في قول من يرى أنه الذبيح . وقيل : وعد رجلا أن يلقاه في موضع لجاء إسمعيل وانتظر الرجل يومه وليلته ، فلما كان في اليوم الآخر جاء ؛ فقال له : مازلت هاهنا في انتظارك منذ أمس . وقيل : انتظره ثلاثة أيام . وقد فعل مثله نبينا صلى الله عليه وسلم قبل بعثه ؛ ذكره النقاش وخرجه الترمذي وغيره عن عبد الله بن أبي الحمساء قال : بايعت النبي صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها في مكانه فنسيت ، ثم ذكرت بعد ثلاثة أيام، لجئت فإذا هو في مكانه؛ فقال : "يافتى لقد شققت علي أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك" لفظ أبي داود . وقال يزيد الرقاشي : انتظره إسمعيل اثنين وعشرين يوما ؛ ذكره الماوردي . وفي كتاب ابن سلام أنه انتظره سنة . وذكره الزمخشري عن ابن عباس أنه وعد صاحبا له أن ينتظره في مكان فانتظره سنة . وذكره القشيري قال : فلم يبرح من مكانه سنة حتى أتاه جبريل عليه السلام ؛ فقال : إن التاجر الذي سألك أن تقعد له حتى يعود هو إبليس فلا تقعد ولا كرامة له . وهذا بعيد ولا يصح . وقد قيل : إن إسمعيل لم يعد شيئا إلا وفى به، وهذا قول صحيح، وهو الذي يقتضيه ظاهر الآية؛ والله أعلم .

الثالثــة ــ من هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم : "العدة دين" . وفي الأثر "وأي[2] المؤمن واجب" أي في أخلاق المؤمنين . وإنما قلنا إن ذلك ليس بواجب فرضا لإجماع العلماء على ما حكاه أبو عمر أن من وعد بمال ما كان ليضرب به مع الغرماء ؛ فلذلك قلنا إيجاب الوفاء به حسن مع المروءة ، ولا يقضى به . والعرب تمتدح بالوفاء، وتذم بالخلف والغدر، وكذلك سائر الأمم، ولقد أحسن القائل :

متى ما يقل حر لصاحب حاجة * نعم يقضها والحر للوأي ضامن

(١) راجع جـ ٨ ص ٢١٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) الوأي : الوعد .

ولا خلاف أن الوفاء يستحق صاحبه الحمد والشكر، وعلى الخلف الذم . وقد أثنى الله تبارك وتعالى على من صدق وعده، ووفى بنذره؛ وكفى بهذا مدحا وشناء، وبما خالفه ذما .

الرابعة — قال مالك : إذا سأل الرجل الرجل أن يهب له الهبة فيقول له نعم، ثم يبدو له ألا يفعل فما أرى يلزمه . قال مالك : ولو كان ذلك في قضاء دين فسأله أن يقضيه عنه فقال نعم، وثمّ رجال يشهدون عليه فما أحراه أن يلزمه إذا شهد عليه آثنان . وقال أبو حنيفة وأصحابه والأوزاعي والشافعي وسائر الفقهاء : إن العدة لا يلزم منها شيء لأنها منافع لم يقبضها في العارية لأنها طارئة ، وفي غير العارية هي أشخاص وأعيان موهوبة لم تقبض فلصاحبها الرجوع فيها . وفي البخاري « وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ »؛ وقضى ابن أَشْوَع بالوعد وذكر ذلك عن سَمُرة بن جُنْدب. قال البخاري[1] : ورأيت إسحق بن إبراهيم يحتج بحديث ابن أَشْوَع .

الخامسة — ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ قيل : أرسل إسمعيل الى جُرْهم . وكل الأنبياء كانوا إذا وعدوا صدقوا، وخص إسمعيل بالذكر تشريفا له . والله أعلم .

السادسة — ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ ﴾ قال الحسن : يعني أمته . وفي حرف ابن مسعود « وكان يأمر أهله جُرْهم وولده بالصلاة والزكاة » . ﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ أي رضيا زاكيا صالحا . قال الكسائي والفراء : من قال مرضيّ بناه على رضيت ؛ قالا . وأهل الحجاز يقولون : مرضوّ . وقال الكسائي والفراء : من العرب من يقول رِضَوان ورِضَيان[2] فرضوان على مرضوّ، ورضيان على مرضيّ ولا يجيز البصريون أن يقولوا إلا رضوان وربوان . قال أبو جعفر النحاس : سمعت أبا إسحق الزجاج يقول : يخطئون في الخط فيكتبون ربا بالياء ثم يخطئون فيما هو أشد من هذا فيقولون رِبيان ولا يجوز الا رِبَوان ورِضَوان؛ قال الله تعالى : « وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ » .

---

(١) قاله في « التاريخ الأوسط » كما في « تهذيب التهذيب » . (٢) أي في تثنية الرضا .

قوله تعالى : وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ إدريس عليه السلام أوّل من خط بالقلم، وأوّل من خاط الثياب ولبس المخيط، وأوّل من نظر في علم النجوم والحساب وسيرها . وسمى إدريس لكثرة درسه لكتاب الله تعالى . وأنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة كما في حديث أبي ذر . الزمخشري : وقيل سمى إدريس إدريس لكثرة درسه كتاب الله تعالى ؛ وكان اسمه أخنوخ وهو غير صحيح ؛ لأنه لو كان إفعيلا من الدرس لم يكن فيه إلا سبب واحد وهو العلمية وكان منصرفا، فامتناعه من الصرف دليل على العجمة ؛ وكذلك إبليس أعجمي وليس من الإبلاس كما يزعمون؛ ولا يعقوب من العقب، ولا إسرائيل بإسرال كما زعم ابن السكيت، ومن لم يحقق ولم يتدرب بالصناعة كثرت منه أمثال هذه الهنات ؛ يجوز أن يكون معنى إدريس عليه السلام في تلك اللغة قريبا من ذلك فحسبه الراوى مشتقا من الدرس . قال الثعلبي والغزنوى وغيرهما : وهو جدّ نوح وهو خطأ؛ وقد تقدّم في «الأعراف»[1] بيانه . وكذا وقع في السيرة أن نوحا عليه السلام بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس النبي فيما يزعمون ؛ والله تعالى أعلم . وكان أوّل من أعطى النبوّة من بنى آدم، وخط بالقلم . ابن يرد بن مهلائيل بن قينان بن يانش بن شيث بن آدم صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ قال أنس بن مالك وأبو سعيد الخدرى وغيرهما : يعني السماء الرابعة . وروى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وقاله كعب الأحبار . وقال ابن عباس والضحاك : يعني السماء السادسة؛ ذكره المهدوى .

قلت : ووقع في البخارى عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر قال سمعت أنس بن مالك يقول ليلة أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة ، الحديث، وفيه : كل سماء فيها أنبياء — قد سماهم — منهم إدريس في الثانية . وهو وهْم، والصحيح أنه في السماء

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

الرابعة، كذلك رواه ثابت البُنَانيّ عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم، ذكره مسلم في الصحيح. وروى مالك بن صعصعة قال قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لما عرج بي إلى السماء أتيت على إدريس في السماء الرابعة". خرجه مسلم أيضا. وكان سبب رفعه على ما قال ابن عباس وكعب وغيرهما: أنه سار ذات يوم في حاجة فأصابه وهج الشمس، فقال: يارب أنا مشيت يوما فكيف بمن يحملها خمسمائة عام في يوم واحد! اللهم خفِّف عنه من ثقلها. يعني الملك الموكل بفلك الشمس؛ يقول إدريس: اللهم خفِّف عنه من ثقلها وآحمل عنه من حرها. فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس والظل ما لا يعرف، فقال: يارب خلقتني لحمل الشمس فما الذي قضيت فيه؟ فقال الله تعالى: «أما إن عبدي إدريس سألني أن أخفف عنك حملها وحرها فأجبته» فقال: يارب آجمع بيني وبينه، واجعل بيني وبينه خلة. فأذن الله له حتى أتى إدريس، وكان إدريس عليه السلام يسأله. فقال: أخبرت أنك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت، فاشفع لي إليه ليؤخر أجلي، فأزداد شكرا وعبادة. فقال الملك: لا يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها؛ فقال للملك: قد علمت ذلك ولكنه أطيب لنفسي. قال نعم. ثم حمله على جناحه فرفعه إلى السماء ووضعه عند مطلع الشمس، ثم قال لملك الموت: لي صديق من بني آدم تشفّع بي إليك لتؤخر أجله. فقال: ليس ذلك إليّ ولكن إن أحببت علمه أعلمته متى يموت. قال: «نعم» ثم نظر في ديوانه، فقال: إنك تسألني عن إنسان ما أراه يموت أبدا. قال «وكيف»؟ قال: لا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس. قال: فإني أتيتك وتركته هناك؛ قال: آنطلق فما أراك تجده إلا وقد مات فوالله ما بقي من أجل إدريس شيء. فرجع الملك فوجده ميتا. وقال السدي: إنه نام ذات يوم، وآشتد عليه حرّ الشمس، فقام وهو منها في كرب؛ فقال: اللهم خفف عن ملك الشمس حرها، وأعنه على ثقلها، فإنه يمارس نارا حامية. فأصبح ملك الشمس وقد نصب له كرسي من نور، عنده سبعون ألف ملك عن يمينه، ومثلها عن يساره يخدمونه، ويتولون أمره وعمله من تحت حكمه؛ فقال ملك الشمس: يارب من أين لي هذا؟. قال: «دعا لك رجل من بني آدم يقال له إدريس» ثم ذكر نحو حديث كعب. قال فقال له ملك الشمس: أتريد حاجة؟ قال: نعم وددت أني لو رأيت الجنة.

قال : فرفعه على جناحه ، ثم طار به ، فبينا هو فى السماء الرابعة التى بها ملك الموت ينظر فى السماء ، ينظر يمينا وشمالا ، فسلم عليه ملك الشمس ، وقال : يا إدريس هذا ملك الموت فسلم عليه ، فقال ملك الموت : سبحان الله ! ولأى معنى رفعته هنا ؟ قال : رفعته لأريه الجنة . قال : فإن الله تعالى أمرنى أن أقبض روح إدريس فى السماء الرابعة . قلت : يا رب وأين إدريس من السماء الرابعة ، فنزلت فإذا هو معك ، فقبض روحه فرفعها إلى الجنة ، ودفنت الملائكة جثته فى السماء الرابعة ، فذلك قوله تعالى : « ورفعناه مكانا عليا » . قال وهب بن منبه : كان يرفع لإدريس كل يوم من العبادة مثل ما يرفع لأهل الأرض فى زمانه ، فعجب منه الملائكة واشتاق إليه ملك الموت ، فاستأذن ربه فى زيارته فأذن له ، فأتاه فى صورة آدمى ، وكان إدريس عليه السلام يصوم النهار ، فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه فأبى أن يأكل . ففعل به ذلك ثلاث ليال فأنكره إدريس ، وقال له : من أنت ! قال : أنا ملك الموت ، استأذنت ربى أن أصحبك فأذن لى ، فقال : إن لى إليك حاجة . قال : وما هى ؟ قال : أن تقبض روحى . فأوحى الله تعالى إليه أن اقبض روحه ، فقبضه ورده إليه بعد ساعة ، وقال له ملك الموت : ما الفائدة فى قبض روحك ؟ قال : لأذوق كرب الموت فأكون له أشد استعدادا . ثم قال له إدريس بعد ساعة : إن لى إليك حاجة أخرى . قال : وما هى ؟ قال : أن ترفعنى إلى السماء فأنظر إلى الجنة والنار ، فأذن الله تعالى له فى رفعه إلى السموات ، فرأى النار فصعق ، فلما أفاق قال أرنى الجنة ، فأدخله الجنة ، ثم قال له ملك الموت : اخرج لتعود إلى مقرك . فتعلق بشجرة وقال : لا أخرج منها . فبعث الله تعالى بينهما ملكا حكما ، فقال : مالك لا تخرج ؟ قال : لأن الله تعالى قال : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » وأنا ذقته ، وقال : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » وقد وردتها ، وقال : « وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ » فكيف أخرج ؟ قال الله تبارك وتعالى لملك الموت : « بإذنى دخل الجنة وبأمرى يخرج » . فهو حى هنالك فذلك [illegible] له تعالى : « ورفعناه مكانا عليا » قال النحاس : قول إدريس « وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ » يج [illegible] يكون الله أعلم هذا إدريس ، ثم نزل القرآن به . قال وهب ابن منبه : فإدريس تارة يرتع فى الجنة ، وتارة يعبد الله تعالى مع الملائكة فى السماء .

قوله تعالى : أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ يريد إدريس وحده . ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ يريد إبراهيم وحده . ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ يريد إسمعيل و إسحق ويعقوب . ﴿وَ﴾ من ذرية ﴿إِسْرَائِيلَ﴾ موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى . فكان لإدريس ونوح شرف القرب من آدم ، ولإبراهيم شرف القرب من نوح ولإسمعيل وإسحق ويعقوب شرف القرب من إبراهيم . ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾ أى إلى الاسلام : ﴿وَاجْتَبَيْنَا﴾ بالإيمان . ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ﴾ . وقرأ شبل بن عباد المكى «يتلى» بالتذكير لأن التأنيث غير حقيقى مع وجود الفاصل . ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ وصفهم بالخشوع لله والبكاء . وقد مضى فى «سبحان»[1] . يقال بكى يبكى بكاء وبُكًى وبُكِيًّا ، إلا أن الخليل قال : إذا قصرت البكاء فهو مثل الحزن ؛ أى ليس معه صوت كما قال الشاعر[2] :

بكت عيني وحُقّ لها بكاها ＊ وما يغني البكاء ولا العويلُ

«وسجدا» نصب على الحال «وبكيا» عطف عليه .

الثانيــــة — فى هــذه الآية دلالة على أن لآيات الرحمن تأثيرا فى القلوب . قال الحسن «إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجــدا وبكيا» فى الصلاة . وقال الأصم : المراد بآيات الرحمن الكتب المتضمنة لتوحيده وحججه ، وأنهم كانوا يسجدون عند تلاوتها ، ويبكون عند ذكرها . والمروى عن ابن عباس أن المراد به القرآن خاصة ، وأنهم كانوا يسجدون ويبكون

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٤١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) هو عبد الله بن رواحة يبكى حمزة بن عبد المطلب ، رحمه الله وأنشده أبو زيد لكعب بن مالك فى أبيات .

عند تلاوته ؛ قال الكيا : وفى هــذا دلالة من قوله على أن القرآن هو الذى كان يتلى على جميع الأنبياء، ولو كان كذلك لما كان الرسول عليه الصلاة والسلام مختصا بإنزاله إليه .

الثالثــة ــ احتج أبو بكر الرازى بهــذه الاية على وجوب سجــود القرآن على المستمع والقارئ . قال الكيا : وهــذا بعيد، فإن هذا الوصف شامل لكل آيات الله تعالى . وضم السجود إلى البكاء، وأبان به عن طريقة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى تعظيمهم لله تعالى وآياته، وليس فيه دلالة على وجوب ذلك عند آية مخصوصة .

الرابعــة ــ قال العلماء : ينبغى لمن قرأ سجدة أن يدعو فيها بما يليق بآياتها ، فإن قرأ سورة السجدة « الم تنزيل » قال : اللهم اجعلنى من الساجدين لوجهك، المسبحين بحمدك، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك . وإن قرأ سجدة « سبحان » قال : اللهم اجعلنى من الباكين إليك، الخاشعين لك . وإن قرأ هذه قال: اللهم اجعلنى من عبادك المنعم عليهم، المهديين الساجدين لك، الباكين عند تلاوة آياتك .

قوله تعالى : فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾

فيــه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ أى أولاد سوء . قال أبو عبيدة : حدثنا حجاج عن ابن جريج عن مجاهد قال : ذلك عند قيام الساعة، وذهاب صالحى هذه الأمة

أمة محمد صلى الله عليه وسلم ينزو بعضهم على بعض فى الأزقة زنى. وقد تقدّم القول فى «خَلْف» فى « الأعراف »[1] فلا معنى للإعادة .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ وقرأ عبد الله والحسن «أضاعوا الصلوات» على الجمع . وهو ذمّ ونص فى أن إضاعة الصلاة من الكبائر التى يوبق بها صاحبها ولا خلاف فى ذلك. وقد قال عمر : ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع . واختلفوا فيمن المراد بهذه الآية ؛ فقال مجاهد : النصارى خلفوا بعد اليهود. وقال محمد بن كعب القرظى ومجاهد أيضا وعطاء : هم قوم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فى آخر الزمان ؛ أى يكون فى هذه الأمة من هذه صفته لا أنهم المراد بهــذه الآية . واختلفوا أيضا فى معنى إضاعتها ؛ فقــال القرظى : هى إضاعة كفر وجحد بها . وقال القاسم بن مخيمرة، وعبد الله بن مسعود : هى إضاعة أوقاتها، وعدم القيام بحقوقها وهو الصحيح ، وأنها إذا صليت مخلًّى بها لا تصح ولا تجزئ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذى صــلى وجاء فسلم عليــه " ارجع فصل فإنك لم تصل " ثلاث مرات خرجه مسلم ، وقال حذيفة لرجل يصلى فطفف[2] : منذ كم تصلى هذه الصلاة؟ قال منذ أربعين عاما . قال : ما صليت، ولو مت وأنت تصلى هذه الصلاة لمت على غير فطــرة محمد صلى الله عليه وســلم . ثم قال : إن الرجل ليخفف الصــلاة ويتم ويحسن . خرجه البخارى واللفظ للنسائى، وفى الترمذى عن أبى مسعود الأنصارى قال قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : " لا تجزئ صلاة لا يقيم فيها الرجل " يعنى صلبه فى الركوع والسجود ؛ قال : حديث حسن صحيح ؛ والعمل على هــذا عند أهل العلم من أصحــاب النبى صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم؛ يرون أن يقيم الرجل صلبه فى الركوع والســجود؛ قال الشافعى وأحمــد و إسحق : من لم يقم صلبه فى الركوع والسجود فصلاته فاســدة ؛ قال صلى الله عليه وســلم " تلك الصلاة صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى الشــيطان قام فنقرها أربعــا لا يذكر الله فيها إلا قليلا " . وهــذا ذم لمن يفعل ذلك . وقال فروة بن خالد بن ســنان : استبطأ

(١) راجع جـ ٧ ص ٣١٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) أى نقص، والتطفيف يكون بمعنى الزيادة والنقص .

أصحاب الضحاك مرة أميرا فى صلاة العصر حتى كادت الشمس تغرب ؛ فقرأ الضحاك هذه الآية ، ثم قال : والله لأن أدعها أحبّ إلى من أن أضيّعها . وجملة القول فى هذا الباب أن من لم يحافظ على كمال وضوئها وركوعها وسجودها فليس بمحافظ عليها ، ومن لم يحافظ عليها فقد ضيعها ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع ، كما أن من حافظ عليها حفظ الله عليه دينه ، ولا دين لمن لاصلاة له . وقال الحسن : عطلوا المساجد ، واشتغلوا بالصنائع والأسباب . « وَٱتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ » أى اللذات والمعاصى .

الثالثة ــ روى الترمذى وأبو داود عن أنس بن حكيم الضبى أنه أتى المدينة فلق أبا هريرة فقال له : يافتى ألا أحدثك حديثا لعل الله تعالى أن ينفعك به ؛ قلت : بلى . قال : " إن أوّل مايحاسَب به الناس يوم القيامة من أعمالهم الصلاة فيقول الله تبارك وتعالى لملائكته وهو أعلم انظروا فى صلاة عبدى أتمها أم نقصها فإن كانت تامة كتبت له تامة وإن كان انتقص منها شيئا قال انظروا هل لعبدى من تطوّع فإن كان له تطوّع قال أكملوا لعبدى فريضته من تطوّعه ثم تؤخذ الأعمال على ذلك " . قال يونس : وأحسبه عن النبى صلى الله عليه وسلم ؛ لفظ أبى داود . وقال : حدّثنا موسى بن إسمعيل حدّثنا حماد حدّثنا داود بن أبى هند عن زرارة بن أوفى عن تميم الدارى عن النبى صلى الله عليه وسلم بهذا المعنى . قال : " ثم الزكاة مثل ذلك" " ثم تؤخذ الأعمال على حسب ذلك" . وأخرجه النسائى عن همام عن الحسن عن حُرَيث بن قَبيصة عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أوّل مايحاسب به العبد يوم القيامة بصلاته فإن صلحت فقد أفلح وأنجح وإن فسدت فقد خاب وخسر ــ قال همام : لاأدرى هذا من كلام قتادة أو من الرواية ــ فإن انتقص من فريضته شىء قال انظروا هل لعبدى من تطوّع فيكمل به ما نقص من الفريضة ثم يكون سائر عم [illegible] على نحو ذلك " . خالفه أبو العوام فرواه عن قتادة عن الحسن عن أبى رافع عن أبى [illegible] : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " إن أوّل مايحاسب به العبد يوم القيامة صلاته فإن وجدت تامة كتبت تامة وإن كان انتقص منها شىء قال انظروا هل تجدون له من

تطوع يكمل ما ضيع من فريضته من تطوعه ثم سائر الأعمال تجرى على حسب ذلك ". قال النسائى : أخبرنا إسحق بن إبراهيم قال حدثنا النضر بن شميل قال أنبأنا حماد بن سلمة عن الأزرق بن قيس عن يحيى بن يعمر عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته فإن كان أكملها وإلا قال الله عز وجل انظروا لعبدى من تطوع فإن وجد له تطوع قال أكملوا به الفريضة ". قال أبو عمر بن عبد البر فى كتاب « التمهيد » : أما إكمال الفريضة من التطوع فإنما يكون — والله أعلم — فيمن سها عن فريضة فلم يأت بها، أو لم يحسن ركوعها وسجودها ولم يدر قدر ذلك؛ وأما من تركها، أو نسى ثم ذكرها، فلم يأت بها عامدا، واشتغل بالتطوع عن أداء فرضها وهو ذاكر له، فلا تكمل له فريضة من تطوعه، والله أعلم. وقد روى من حديث الشاميين فى هذا الباب حديث منكر يرويه محمد بن حمير عن عمرو بن قيس السكونى عن عبد الله بن قُرْط عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " من صلى صلاة لم يكمل فيها ركوعه وسجوده زيد فيها من تسبيحاته حتى تتم ". قال أبو عمر : وهذا لا يحفظ عن النبى صلى الله عليه وسلم إلا من هذا الوجه، وليس بالقوى؛ وإن كان صح كان معناه أنه خرج من صلاة كان قد أتمها عند نفسه وليست فى الحكم بتامة.

قلت : فينبغى للإنسان أن يحسن فرضه ونفله حتى يكون له نفل يجده زائدا على فرضه يقربه من ربه، كما قال سبحانه وتعالى : « وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه » الحديث. فأما إذا كان نفل يكمل به الفرض فحكمه فى المعنى حكم الفرض. ومن لا يحسن أن يصلى الفرض فأحرى وأولى ألا يحسن التنفل؛ لا جرم تنفل الناس فى أشد ما يكون من النقصان والخلل لخفته عندهم، وتهاونهم به، حتى كأنه غير معتد به. ولعمر الله لقد يشاهد فى الوجود من يشار إليه، ويظن به العلم تنفله كذلك؛ بل فرضه إذ ينقره نقر الديك لعدم معرفته بالحديث؛ فكيف بالجهال الذين لا يعلمون. وقد قال العلماء : ولا يجزئ ركوع ولا سجود، ولا وقوف بعد الركوع، ولا جلوس بين السجدتين، حتى يعتدل راكعا وواقفا

وساجداً وجالساً . وهذا هو الصحيح في الأثر، وعليه جمهور العلماء وأهل النظر . وهذه رواية ابن وهب وأبي مصعب عن مالك . وقد مضى هذا المعنى في « البقرة »[1] . وإذا كان هذا فكيف يكمل بذلك التنفل ما نقص من هذا الفرض على سبيل الجهل والسهو ؟! بل كل ذلك غير صحيح ولا مقبول؛ لأنه وقع على غير المطلوب . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿وَٱتَّبَعُوا ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ وعن علي رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى: « واتبعوا الشهواتِ » هو من بنى [المشيد][2] وركب المنظور، ولبس المشهور .

قلت : الشهوات عبارة عما يوافق الإنسان ويشتهيه ويلائمه ولا يتقيه . وفي الصحيح : "حُفَّت الجنة بالمكاره وحُفَّت النار بالشهوات" . وما ذكر عن علي رضي الله عنه جزء من هذا .

قوله تعالى : ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ قال ابن زيد : شرا أو ضلالا أو خيبة، قال[3] :

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره ٭ ومن يغوَ لا يعدمْ على الغيِّ لائما

وقال عبد الله بن مسعود : هو وادٍ في جهنم . والتقدير عند أهل اللغة فسوف يلقون هذا الغيّ؛ كما قال جل ذكره : « وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا » . والأظهر أن الغيّ اسم للوادي سمي به لأن الغاوين يصيرون إليه . قال كعب : يظهر في آخر الزمان قوم بأيديهم سياط كأذناب البقر، ثم قرأ « فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا » أي هلاكا وضلالا في جهنم . وعنه : غيٌّ واد في جهنم أبعدها قعرا، وأشدها حرا، فيه بئر يسمى البهيم، كلما خبت جهنم فتح الله تعالى تلك البئر فتسعر بها جهنم . وقال ابن عباس : غيٌّ وادٍ في جهنم ، وأن أودية جهنم لتستعيذ من حره، أعدّ الله تعالى ذلك الوادي للزاني المصر على الزنى، ولشارب الخمر المدمن عليه، ولآكل الربا الذي لا ينزع عنه ، ولأهل العقوق ، ولشاهد الزور ، ولامرأة أدخلت على زوجها ولدا ليس منه .

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٧٠ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) في الأصل : « من بنى الشديد » .

(٣) البيت للمرقش كما في اللسان .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ ﴾ أى من تضييع الصلاة واتباع الشهوات، فرجع إلى طاعة ربه . ﴿ وَآمَنَ ﴾ به ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ﴾ . قرأ أبو جعفر وشيبة وابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو ويعقوب وأبو بكر « يُدْخَلُون » بفتح الخاء . وفتح الياء الباقون . ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ أى لا ينقص من أعمالهم الصالحة شىء، إلا أنهم يكتب لهم بكل حسنة عشر إلى سبعمائة . ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ بدلا من الجنة فانتصبت . قال أبو إسحق الزجاج : ويجوز « جَنَّاتُ عَدْنٍ » على الابتداء . قال أبو حاتم : ولولا الخط لكان « جَنَّةَ عدنٍ » لأن قبله « يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ » . ﴿ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ أى من عبده وحفظ عهده بالغيب . وقيل : آمنوا بالجنة ولم يروها . ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴾ « مأتيا » مفعول من الإتيان . وكل ما وصل إليك فقد وصلت إليه؛ تقول : أتت علىّ ستون سنة وأتيت على ستين سنة . ووصل إلىّ من فلان خير ووصلت منه إلى خير . وقال القتبى : « مأتيا » بمعنى آت فهو مفعول بمعنى فاعل. و « مأتيا » مهموز لأنه من أتى يأتى. ومن خفف الهمزة جعلها ألفا. وقال الطبرى : الوعد هاهنا الموعود وهو الجنة؛ أى يأتيها أولياؤه . ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴾ أى فى الجنة . واللغو معناه الباطل من الكلام والفحش منه والفضول وما لا ينتفع به . ومنه الحديث : " إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لغوت " ويروى " لغيت " وهى لغة أبى هريرة؛ كما قال الشاعر[1] :

وَرَبِّ أَسْرَابٍ حَجِيجٍ كُظَّمِ ۝ عن اللَّغَا ورَفَثِ التَّكَلُّمِ

قال ابن عباس : اللغو كل ما لم يكن فيه ذكر الله تعالى؛ أى كلامهم فى الجنة حمد الله وتسبيحه . ﴿ إِلَّا سَلَامًا ﴾ أى لكن يسمعون سلاما فهو من الاستثناء المنقطع ، يعنى سلام بعضهم على بعض، وسلام الملك عليهم؛ قاله مقاتل وغيره . والسلام اسم جامع للخير؛ والمعنى أنهم لا يسمعون فيها إلا ما يحبون . قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ أى لهم ما يشتهون من المطاعم والمشارب بكرة وعشيا؛ أى فى قدر هذين الوقتين؛ إذ لا بكرة ثَمَّ ولا عشيا؛

---

(١) هو رؤبة ونسبه ابن برى للعجاج . « اللسان » .

كقوله تعالى : «غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ » أى قدر شهر؛ قال معناه ابن عباس وابن جريج وغيرهما . وقيل : عرّفهم اعتدال أحوال أهل الجنة؛ وكان أهنأ النعمة عند العرب التمكين من المطعم والمشرب بكرة وعشيا . قال يحيى بن أبى كثير وقتادة : كانت العرب فى زمانها من وجد غداء وعشاء معا فذلك هو الناعم؛ فنزلت . وقيل : أى رزقهم فيها غير منقطع؛ كما قال : « لا مقطوعة ولا ممنوعة » وهو كما تقول : أنا أصبح وأمسى فى ذكرك . أى ذكرى لك دائم . ويحتمل أن تكون البكرة قبل تشاغلهم بلذاتهم، والعشى بعد فراغهم من لذاتهم؛ لأنه يتخللها فترات انتقال من حال إلى حال . وهذا يرجع إلى القول الأول . وروى الزبير ابن بكار عن اسمعيل بن أبى أويس قال قال مالك بن أنس : طعام المؤمنين فى اليوم مرتان، وتلا قول الله عز وجل : « وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا » ثم قال : وعوّض الله عز وجل المؤمنين فى الصيام السحور بدلا من الغداء ليقووا به على عبادة ربهم . وقيل : إنما ذكر ذلك لأن صفة الغداء وهيئته [تختلف][1] عن صفة العشاء وهيئته؛ وهذا لا يعرفه إلا الملوك . وكذلك يكون فى الجنة رزق الغداء غير رزق العشاء تتلون عليهم النعم ليزدادوا تنعما وغبطة . وخرج الترمذى الحكيم فى « نوادر الأصول » من حديث أبان عن الحسن وأبى قلابة قالا قال رجل : يا رسول الله هل فى الجنة من ليل؟ قال : " وما هيّجك على هذا " قال سمعت الله تعالى يذكر فى الكتاب « وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا » فقلت : الليل بين البكرة والعشى . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ليس هناك ليل إنما هو ضوء ونور يردّ الغدو على الرواح والرواح على الغدو وتأتيهم طُرَف الهدايا من الله تعالى لمواقيت الصلاة التى كانوا يصلون فيها فى الدنيا وتسلم عليهم الملائكة" وهذا فى غاية البيان لمعنى الآية، وقد ذكرناه فى كتاب « التذكرة » . وقال العلماء : ليس فى الجنة ليل ولا نهار، وإنما هم فى نور أبدا ؛ إنما يعرفون مقدار الليل من النهار بإرخاء الحجب، وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وفتح الأبواب . ذكره أبو الفرج الجوزى والمهدوى وغيرهما .

(١) زيادة يقتضيها السياق .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِى ﴾ أى هذه الجنة التى وصفنا أحوال أهلها ﴿ نُورِثُ ﴾ بالتخفيف . وقرأ يعقوب « نُوَرِّثُ » بفتح الواو وتشديد الراء . والاختيار التخفيف؛ لقوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب » . ﴿ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾ قال ابن عباس : أى من آتقانى وعمل بطاعتى . وقيل : هو على التقديم والتأخير؛ تقديره : نورث من كان تقيا من عبادنا .

قوله تعالى : وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

روى الترمذى عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : "ما منعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا" قال: فنزلت هذه الآية «وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ» إلى آخر الآية . قال هذا حديث حسن غريب . ورواه البخارى : حدثنا خلاد بن يحيى حدثنا عمر بن ذر قال سمعت أبى يحدث عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : " ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فنزلت « وما نتنزل إلا بأمر ربك » " الآية ؛ قال : كان هذا الجواب لمحمد صلى الله عليه وسلم . وقال مجاهد : أبطأ الملك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أتاه، فقال : " ما الذى أبطأك " قال : كيف نأتيكم وأنتم لا تقصون أظفاركم، ولا تأخذون من شواربكم ، ولا تُنَقُّون رَوَاجِبَكم[1]، ولا تستاكون ؛ قال مجاهد : فنزلت الآية فى هذا . وقال مجاهد أيضا وقتادة وعكرمة والضحاك ومقاتل والكلبي: آحتبس جبريل عن النبىّ صلى الله عليه وسلم حين سأله قومه عن قصة أصحاب الكهف وذى القرنين والروح ولم يدر ما يجيبهم، ورجا أن يأتيه جبريل بجواب ما سألوا عنه؛ قال عكرمة : فأبطأ عليه أربعين يوما . وقال مجاهد : آثنتى عشرة ليلة . وقيل : خمسة عشر يوما؛ وقيل : ثلاثة عشر. وقيل: ثلاثة أيام . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أبطأت علىّ حتى

---

(١) الرواجب : ما بين عقد الأصابع من داخل؛ واحدها راجبة .

ساء ظنى واشتقت إليك" فقال جبريل عليه السلام : إنى كنت أشوق، ولكنى عبد مأمور إذا بعثت نزلت، و إذا حبست احتبست ، فنزلت الآية : « وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ » وأنزل « وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى » . ذكره الثعلبى والواحدى والقشيرى وغيرهم . وقيل : هو إخبار من أهل الجنة أنهم يقولون عند دخولها : وما نتنزل هذه الجنان إلا بأمر ربك، وعلى هذا تكون الآية متصلة بما قبل، وعلى ما ذكرنا من الأقوال قبل: تكون غير متصلة بما قبلها، والقرآن سور، ثم السور تشتمل على جمل؛ وقد تنفصل جملة عن جملة . «وَمَا نَتَنَزَّلُ» أى قال الله تعالى : قل يا جبريل «وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ» . وهذا يحتمل وجهين : أحدهما ـ إنا إذا أمرنا نزلنا عليك . الثانى ـ إذا أمرك ربك نزلنا عليك ؛ فيكون الأمر على الأول متوجها إلى النزول، وعلى الوجه الثانى متوجها إلى التنزيل .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُ ﴾ أى لله . ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ أى علم ما بين أيدينا ﴿ وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ قال ابن عباس وابن جريج : ما مضى أمامنا من أمر الدنيا، وما يكون بعدنا من أمرها وأمر الآخرة « وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ » من البرزخ . وقال قتادة ومقاتل : « له ما بين أيدينا » من أمر الآخرة « وما خلفنا » ما مضى من الدنيا « وما بين ذلك » ما بين النفختين وبينهما أربعون سنة . الأخفش : « ما بين أيدينا » ما كان قبل أن نخلق « وما خلفنا » ما يكون بعد أن نموت « وما بين ذلك » ما يكون منذ خلقنا إلى أن نموت . وقيل : « ما بين أيدينا » لمن الثواب والعقاب وأمور الآخرة . « وما خلفنا » ما مضى من أعمالنا فى الدنيا « وما بين ذلك » أى ما يكون من هذا الوقت إلى يوم القيامة . ويحتمل خامسا : « ما بين أيدينا » السماء « وما خلفنا » الأرض « وما بين ذلك » أى ما بين السماء والأرض . وقال ابن عباس فى رواية : « له ما بين أيدينا » يريد الدنيا إلى الأرض « وما خلفنا » يريد السموات ـ وهذا على عكس ما قبله ـ «وما بين ذلك» يريد الهواء؛ ذكر الأول الماوردى والثانى القشيرى . الزمخشرى : وقيل ما مضى من أعمارنا وما غبر منها، والحال التى نحن فيها . ولم يقل : ما بين ذينك لأن المراد ما بين ما ذكرنا؛ كما قال : « لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ »

أى بين ماذكرنا . ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ أى ناسيا إذا شاء أن يرسل إليك أرسل . وقيل : المعنى لم ينسك وإن تأخر عنك الوحى . وقيل : المعنى أنه عالم بجميع الأشياء متقدمها ومتأخرها ، ولا ينسى شيئا منها .

قوله تعالى : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أى ربهما وخالقهما وخالق ما بينهما ومالكهما ومالك ما بينهما ، فكما إليه تدبير الأزمان كذلك إليه تدبير الأعيان . ﴿ فَاعْبُدْهُ ﴾ أى وحّده لذلك . وفى هذا دلالة على أن اكتسابات الخلق مفعولة لله تعالى ، كما يقوله أهل الحق ، وهو القول الحق ؛ لأن الرب فى هذا الموضع لا يمكن حمله على معنى من معانيه إلا على المالك ، و إذا ثبت أنه مالك ما بين السماء والأرض ، دخل فى ذلك اكتساب الخلق ، ووجبت عبادته ؛ لما ثبت أنه المالك على الإطلاق ، وحقيقة العبادة الطاعة بغاية الخضوع ، ولا يستحقها أحد سوى المالك المعبود . ﴿ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ أى لطاعته ولا تحزن لتأخير الوحى عنك ، بل اشتغل بما أمرت به . وأصل اصطبر اصتبر ، فثقل الجمع بين التاء والصاد لاختلافهما ، فأبدل من التاء طاء ؛ كما تقول من الصوم : اصطام . ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ قال ابن عباس : يريد هل تعلم له ولدا أى نظيرا ، أو مثلا ، أو شبيها يستحق مثل اسمه الذى هو الرحمن . وقاله مجاهد . مأخوذ من المساماة . وروى إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال : هل تعلم له أحدا سمى الرحمن . قال النحاس : وهذا أجلّ إسناد علمته روى فى هذا الحرف ، وهو قول صحيح ؛ لا يقال الرحمن إلا لله .

قلت : وقد مضى هذا مبينا فى البسملة [1] . والحمد لله . روى ابن أبى نجيح عن مجاهد « هل تعلم له سميا » قال : مثلا . ابن المسيب : عدلا . قتادة والكلبى : هل تعلم أحدا يسمى الله تعالى غير الله ، أو يقال له الله إلا الله . وهل بمعنى لا ؛ أى لا تعلم . والله تعالى أعلم .

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٠٣ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ الإنسان هنا أبي ابن خلف، وجد عظاما بالية ففتتها بيده، وقال : زعم محمد أنا نبعث بعد الموت؛ قاله الكلبي؛ ذكره الواحدي والثعلبي والقشيري . وقال المهدوي : نزلت في الوليد بن المغيرة وأصحابه، وهو قول ابن عباس . واللام في « لسوف أخرج حيا » للتأكيد ، كأنه قيل له : إذا مامت لسوف تبعث حيا فقال : « أئذا مامت لسوف أخرج حيا » ! قال ذلك منكرا فجاءت اللام في الجواب كما كانت في القول الأول، ولو كان مبتدئا لم تدخل اللام؛ لأنها للتأكيد والإيجاب وهو منكر للبعث . وقرأ ابن ذكوان « إذا مامت » على الخبر . والباقون بالاستفهام على أصولهم بالهمز . وقرأ الحسن وأبو حيوة « لَسَوْفَ أَخْرُجُ حَيًّا » ؛ قاله استهزاء لأنهم لا يصدقون بالبعث . والإنسان هاهنا الكافر .

قوله تعالى :﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ ﴾ أي أو لا يذكر هذا القائل ﴿ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي من قبل سؤاله وقوله هذا القول ﴿ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ فالإعادة مثل الابتداء فلم يناقض . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما، وأهل مكة وأبو عمرو وأبو جعفر «أَوَلَا يَذَّكَّرُ» . وقرأ شيبة ونافع وعاصم « أَوَلَا يَذْكُرُ» بالتخفيف . والاختيار التشديد وأصله يتذكر؛ لقوله تعالى : «إنما يتذكر أولو الألباب » وأخواتها . وفي حرف أبي «أَوَلَا يَتَذَكَّرُ» وهذه القراءة على التفسير لأنها مخالفة لخط المصحف . ومعنى « يَتَذَكَّرُ » يتفكر، ومعنى « يَذْكُرُ » يتنبه و يعلم ؛ قاله النحاس .

قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ أقسم بنفسه بعد إقامة الحجة بأنه يحشرهم من قبورهم إلى المعاد كما يحشر المؤمنين . ﴿ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ أى ولنحشرن الشياطين قرناء لهم . قيل : يحشر كل كافر مع شيطان فى سلسلة؛ كما قال : « احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ » . الزمخشرى : والواو فى « والشياطين » يجوز أن تكون للعطف و بمعنى مع ؛ وهى بمعنى مع أوقع . والمعنى أنهم يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم؛ يقرنون كل كافر مع شيطان فى سلسلة . فإن قلت هذا إذا أريد بالإنسان الكفرة خاصة، فإن أريد الأناسى على العموم فكيف يستقيم حشرهم مع الشياطين؟ قلت : إذا حشر جميع الناس حشرا واحدا وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين ، فقد حشروا مع الشياطين كما حشروا مع الكفرة . فإن قلت : هلا عزل السعداء عن الأشقياء فى الحشر كما عزلوا عنهم فى الجزاء ؟ قلت : لم يفرق بينهم فى المحشر، وأحضروا حيث تجاثوا حول جهنم ، وأوردوا معهم النار ليشاهد السعداء الأحوال التى نجاهم الله منها وخلصهم، فيزدادوا لذلك غبطة ، وسرورا إلى سرور، ويشمتوا بأعداء الله تعالى وأعدائهم ؛ فتزداد مساءتهم وحسرتهم، وما يغيظهم من سعادة أولياء الله وشماتتهم بهم . فإن قلت : ما معنى إحضارهم جثيا؟ قلت : أما إذا فسر الإنسان بالخصوص فالمعنى أنهم يعتلون من المحشر إلى شاطئ جهنم عتلا[1] على حالهم التى كانوا عليها فى الموقف، جثاة على ركبهم غير مشاة على أقدامهم . وذلك أن أهل الموقف وصفوا بالجثو؛ قال الله تعالى : « وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً » على الحالة المعهودة فى مواقف المقاولات والمناقلات، من تجاثى أهلها على الركب . لما فى ذلك من الاستيفاز[2] والقلق ، وإطلاق الحُبا خلاف الطمأنينة؛ أو لما يدهمهم من شدة الأمر التى لا يطيقون معها القيام على أرجلهم فيحبون على ركبهم جثوا . وإن فسر بالعموم فالمعنى أنهم يتجاثون عند موافاة شاطئ جهنم . على أن «جثيا» حال مقدرة كما كانوا فى الموقف متجاثين؛ لأنه من توابع التواقف للحساب، قبل التواصل إلى الثواب والعقاب . ويقال : إن معنى ﴿ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾

---

(١) العتل : الدفع والإرهاق بالسوق العنيف . (٢) الاستيفاز : عدم الاطمئنان؛ قال الجوهرى : قعد مستوفزا أى غير مطمئن .

أي جثيا على ركبهم؛ عن مجاهد وقتادة؛ أي أنهم لشدّة ماهم فيه لا يقدرون على القيام .
« وحول جهنم » يجوز أن يكون داخلها ؛ كما تقول : جلس القوم حول البيت أي داخله
مطيفين به ؛ فقوله : « حول جهنم » على هذا يجوز أن يكون بعد الدخول . ويجوز
أن يكون قبل الدخول . و « جثيا » جمع جاث . يقال : جثا على ركبتيه يجثو ويجثي جُثُوًّا
وجُثِيًّا على فعول فيهما . وأجثاه غيره . وقوم جُثِيٌّ أيضا؛ مثل جلس جلوسا وقوم جلوس؛
وجِثِيّ أيضا بكسر الجيم لما بعدها من الكسر . وقال ابن عباس : « جثيا » جماعات . وقال
مقاتل: جمعا جمعا؛ وهو على هذا التأويل جمع جُثْوة وجَثْوة وجِثْوة ثلاث لغات، وهي الحجارة
المجموعة والتراب المجموع؛ فأهل الخمر على حدة، وأهل الزنى على حدة، وهكذا؛ قال طرفة :

تَرَى جُثْوتين من تُراب عليهما * صفائحُ صُمٌّ من صفيحٍ مُنَضَّدِ

وقال الحسن والضحاك: جاثية على الركب. وهو على هذا التأويل جمع جاث على ما تقدّم.
وذلك لضيق المكان ؛ أي لا يمكنهم أن يجلسوا جلوسا تاما . وقيل : جثيا على ركبهم
للتخاصم ؛ كقوله تعالى : « ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ » . وقال الكميت :

هم تَرَكُوا سَرَاتَهُمْ جثيًّا * وهم دون السراة مقرَّنينا

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ أي لنستخرجن من كل أمة وأهل دين
﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴾ النحاس : وهذه آية مشكلة في الإعراب ؛ لأن القراء كلهم
يقرءون « أيهم » بالرفع إلا هرون القارئ الأعور فإن سيبويه حكى عنه : « ثم لننزعن من كل
شيعة أيَّهُمْ » بالنصب أوقع على أيهم لننزعن . قال أبو إسحق في رفع « أيهم » ثلاثة أقوال؛
قال الخليل بن أحمد حكاه عنه سيبويه : إنه مرفوع على الحكاية؛ والمعنى : ثم لننزعن من كل
شيعة الذي يقال من أجل عتوه أيهم أشد على الرحمن عتيا؛ وأنشد الخليل، فقال :

ولقد أبيت من الفتاة بمنزلٍ * فأبيت لا حرج ولا محروم

فأبيت بمنزلة الذي يقال له لا هو حرج ولا محروم . وقال أبو جعفر النحاس : ورأيت
إسحق يختار هذا القول ويستحسنه؛ قال : لأنه معنى قول أهل التفسير . وزعم أن معنى

« ثم لننزعن من كل شيعة » ثم لننزعن من كل فرقة الأعتى فالأعتى . كأنه يبتدأ بالتعذيب بأشدهم عتيا ثم الذى يليه ؛ وهذا نص كلام أبى إسحق فى معنى الآية . وقال يونس : « لننزعن » بمنزلة الأفعال التى تلغى ورفع « أيهم » على الابتداء . المهدوى : والفعل الذى هو «لننزعن» عند يونس معلق ؛ قال أبو على : معنى ذلك أنه يعمل فى موضع « أيهم أشد » لا أنه ملغى . ولا يعلق عند الخليل وسيبويه مثل «لننزعن» ، إنما يعلق بأفعال الشك وشبهها ما لم يتحقق وقوعه . وقال سيبويه : « أيهم » مبنى على الضم لأنها خالفت أخواتها فى الحذف ؛ لأنك لو قلت : رأيت الذى أفضل ومن أفضل كان قبيحا ، حتى تقول من هو أفضل ، والحذف فى « أيهم » جائز . قال أبو جعفر : وما علمت أحدا من النحويين إلا وقد خطأ سيبويه فى هذا ، وسمعت أبا إسحق يقول : ما يبين لى أن سيبويه غلط فى كتابه إلا فى موضعين هذا أحدهما ؛ قال : وقد علمنا أن سيبويه أعرب أيا وهى مفردة لأنها تضاف ، فكيف يبنيها وهى مضافة ؟ ! ولم يذكر أبو إسحق فيما علمت إلا هذه الثلاثة الأقوال . أبو على : إنما وجب البناء على مذهب سيبويه ؛ لأنه حذف منه ما يتعرف به وهو الضمير مع افتقار إليه ، كما حذف فى « من قبل ومن بعد » ما يتعرفان به مع افتقار المضاف إلى المضاف إليه ؛ لأن الصلة تبين الموصول وتوضحه كما أن المضاف إليه يبين المضاف ويخصصه . قال أبو جعفر : وفيه أربعة أقوال سوى هذه الثلاثة التى ذكرها أبو إسحق ؛ قال الكسائى : « لننزعن » واقعة على المعنى ، كما تقول : لبست من الثياب ، وأكلت من الطعام ، ولم يقع « لننزعن » على « أيهم » فينصبها . زاد المهدوى : وإنما الفعل عنده واقع على موضع « من كل شيعة » وقوله : « أيهم أشد » جملة مستأنفة مرتفعة بالابتداء ؛ ولا يرى سيبويه زيادة « من » فى الواجب . وقال الفراء : المعنى ثم لننزعن بالنداء ، ومعنى « لننزعن » لننادين . المهدوى : ونادى فعل يعلق إذا كان بعده جملة ، كظننت فتعمل فى المعنى ولا تعمل فى اللفظ . قال أبو جعفر : وحكى أبو بكر بن شقير أن بعض الكوفيين يقول فى « أيهم » معنى الشرط والمجازاة ، فلذلك لم يعمل فيها ما قبلها ؛ والمعنى : ثم لننزعن من كل فرقة إن تشايعوا أو لم يتشايعوا ، كما تقول : ضربت القوم أيهم غضب ، والمعنى إن غضبوا أو لم يغضبوا . قال أبو جعفر : فهذه ستة

أقوال، وسمعت على بن سليمان يحكى عن محمد بن يزيد قال : « أيهم » متعلق « بشيعة » فهو مرفوع بالابتداء؛ والمعنى : ثم لننزعن من الذين تشايعوا أيهم؛ أى من الذين تعاونوا فنظروا أيهم أشدّ على الرحمن عتيا؛ وهذا قول حسن . وقد حكى الكسائى أن التشايع التعاون . و « عتيا » نصب على البيان . ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صُلِيًّا ﴾[1] أى أحق بدخول النار . يقال : صَلَى يَصْلَى صُليا، نحو مضى الشيء يمضى مُضيا إذا ذهب، وهوى يهوى هُويا. وقال الجوهرى : ويقال صليت الرجل نارا إذا أدخلته النار وجعلته يَصلاها ؛ فإن ألقيته فيها إلقاء كأنك تريد الإحراق قلت : أصليته بالألف وصَلّيته تصلية . وقرئ « ويُصَلَّىٰ سَعِيرًا » . ومن خفف فهو من قولهم : صَلِي فلان بالنار (بالكسر) يصلى صُليا احترق ؛ قال الله تعالى : « هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صُلِيًّا » . قال العجاج :[2]

* والله لولا النارُ أن نصلاها *

ويقال أيضا : صلِي بالأمر إذا قاسى حره وشدّته . قال الطُّهَوِى :

وَلَا تَبْلَى بَسَالَتُهُمْ وإنْ هُمْ * صَلُوا بالحرب حِيناً بعد حِينِ

واصطليت بالنار وتصلّيت بها . قال أبو زبيد :

وقد تَصَلَّيْتُ حَرَّ حَرْبِهِمُ * كما تَصَلَّى المَقْرُورُ من قَرَسِ

وفلانٌ لا يُصطَلَى بناره إذا كان شجاعا لا يُطاق .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ » هذا قسم، والواو يتضمنه . ويفسره حديث النبي صلى الله عليه وسلم " لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تَحِلَّةَ

---

(١) « صليا » بضم الصاد قراءة « نافع » وعليها التفسير .

(٢) ونسب فى اللسان مادة « تيه » إلى الزفيان، وأورده فى أبيات هى :

ما بال عين شوقها استبكاها * فى رسم دار لبست بلاها

تالله لولا النار أن نصلاها * أو يدعو الناس علينا الله

* لما سمعنا لأمير قاها *

ا الطاعة .

القسم "[1] قال الزهرى : كأنه يريد هذه الآية : « وإن منكم إلا واردها » ذكره أبو داود الطيالسى؛ فقوله : « إلا تحلة القسم » يخرج فى التفسير المسند؛ لأن القسم المذكور فى هذا الحديث معناه عند أهل العلم قوله تعالى : « وإن منكم إلا واردها » . وقد قيل : إن المراد بالقسم قوله تعالى : « والذاريات ذروا » إلى قوله : « إنما توعدون لصادق . وإن الدين لواقع » والأول أشهر؛ والمعنى متقارب .

الثانيـة — واختلف الناس فى الورود؛ فقيل : الورود الدخول؛ روى عن جابر ابن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الورود الدخول لا يبقى برٌّ ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين بردا وسلاما كما كانت على إبراهيم « ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا » " أسنده أبو عمر فى كتاب « التمهيد » . وهو قول ابن عباس وخالد بن معدان وابن جريج وغيرهم . وروى عن يونس أنه كان يقرأ « وإن منكم إلا واردها » الورود الدخول؛ على التفسير للورود، فغلط فيه بعض الرواة فألحقه بالقرآن . وفى مسند الدارمى عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يرد الناس النار ثم يصدرون منها بأعمالهم فمنهم كلمح البصر ثم كالريح ثم كحُضْر[2] الفرس ثم كالراكب المجد فى رحله ثم كشد الرجل فى مشيته " . وروى عن ابن عباس أنه قال فى هذه المسئلة لنافع بن الأزرق الخارجى : أما أنا وأنت فلا بد أن نردها، أما أنا فينجينى الله منها، وأما أنت فما أظنه ينجيك لتكذيبك . وقد أشفق كثير من العلماء من تحقق الورود والجهل بالصدر؛ وقد بيناه فى « التذكرة » . وقالت فرقة : الورود الممر على الصراط . وروى عن ابن عباس وابن مسعود وكعب الأحبار والسدى، ورواه السدى عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم، وقاله الحسن أيضا؛ قال : ليس الورود الدخول، إنما تقول : وردت البصرة ولم أدخلها . قال : فالورود أن يمروا على الصراط . قال أبو بكر الأنبارى : وقد بنى على مذهب الحسن قوم من أهل اللغة، واحتجوا بقول الله تعالى : « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها

---

(١) " إلا تحلة القسم " : أى لا يدخل النار ليعاقب بها ، ولكنه يجوز عليها فلا يكون ذلك إلا بقدر ما يبر الله به قسمه . (٢) الحضر (بالضم) : العدو؛ وشد الرجل : عدوه أيضا .

مبعدون » قالوا : فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده منها . وكان هؤلاء يقرءون « ثمَّ » بفتح الثاء « نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا » . واحتج عليهم الآخرون أهل المقالة الأولى بأن معنى قوله : « أولئك عنها مبعدون » عن العذاب فيها، والإحراق بها . قالوا : فمن دخلها وهو لا يشعر بها ، ولا يحس منها وجعا ولا ألما ، فهو مبعد عنها في الحقيقة . ويستدلون بقوله تعالى : « ثم ننجي الذين اتقوا » بضم الثاء ؛ فـ « ثم » تدل على نجاء بعد الدخول .

قلت : وفي صحيح مسلم " ثم يُضرَبُ الجسر على جهنم وتَحِلُّ الشفاعة فيقولون اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ " قيل : يا رسول الله وما الجسرُ ؟ قال : " دَحْضٌ مَزِلَّةٌ[1] فيه خطاطيفُ وكلاليبُ وحَسَكٌ تكون بنجد فيها شُوَيْكَةٌ يقال لها السَّعْدان فيمرُّ المؤمنون كطرْف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناجٍ مُسلَّمٌ ومخدوشٌ مُرْسَل ومَكْدُوس في نار جهنم " الحديث . وبه احتج من قال : إن الجواز على الصراط هو الورود الذي تضمنته هذه الآية لا الدخول فيها . وقالت فرقة : بل هو ورود إشراف واطلاع وقرب . وذلك انهم يحضرون موضع الحساب وهو بقرب جهنم، فيرونها وينظرون إليها في حالة الحساب ، ثم ينجي الله الذين اتقوا مما نظروا إليه، ويصار بهم إلى الجنة . ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ أي يؤمر بهم إلى النار قال الله تعالى : « وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ » أي أشرف عليه لا أنه دخله . وقال زهير :

فَلَمَّا وَرَدْنَ المَاءَ زُرْقًا[2] جِمَامُهُ ... وَضَعْنَ عِصِيَّ الحَاضِرِ المُتَخَيِّمِ

وروت حفصة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يدخل النار أحدٌ من أهل بدر والحديبية " قالت فقلت : يا رسول الله وأين قول الله تعالى: « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " فَمَهْ «ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا»". أخرجه مسلم من حديث أم مُبَشِّر،قالت: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول عند حفصة . الحديث . ورجح الزجاج هذا القول بقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » . وقال مجاهد :

---

(١) دحض مزلة : هما بمعنى ، وهو الموضع الذي تزل فيه الأقدام ولا تستقر. (٢) يقال : ماء أزرق إذا كان صافيا . وجمام جمع جم وجمة ، وهو الماء المجتمع . والحاضر: النازل على الماء . والمتخيم : المقيم ، وأصله من تخيم إذا نصب الخيمة . يصف زهير الظعائن بأنهن في أمن ومنعة ، فإذا نزلن نزلن آمنات كنزول من هو في أهله ووطنه . والبيت من معلقته .

ورود المؤمنين النار هو الحمى التي تصيب المؤمن في دار الدنيا، وهي حظ المؤمن من النار فلا يردها . روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد مريضا من وعك به، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " أبشر فإن الله تبارك وتعالى يقول « هي نارى أسلطها على عبدى المؤمن لتكون حظه من النار » " أسنده أبو عمر قال : حدثنا عبد الوارث بن سفيان قال حدثنا قاسم بن أصبغ قال حدثنا محمد بن إسمعيل الصائغ قال حدثنا أبو أسامة قال حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن إسمعيل بن عبد الله [عن أبى صالح][1] الأشعرى عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم عاد مريضا فذكره . وفي الحديث " الحُمَّى حَظُّ المؤمن من النار ". وقالت فرقة : الورود النظر إليها في القبر، فينجى منها الفائز، ويصلاها من قدر عليه دخولها، ثم يخرج منها بالشفاعة أو بغيرها من رحمة الله تعالى . واحتجوا بحديث ابن عمر : " إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشى " الحديث . وروى وكيع عن شعبة عن عبد الله بن السائب عن رجل عن ابن عباس أنه قال في قول الله تعالى : « وإن منكم إلا واردها » قال : هذا خطاب للكفار . وروى عنه أنه كان يقرأ « وإن منهم » ردا على الآيات التي قبلها في الكفار : قوله « فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا . ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا . ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا . وإن منهم » وكذلك قرأ عكرمة وجماعة، وعليها فلا شغب في هذه القراءة . وقالت فرقة : المراد بـ « منكم » الكفرة، والمعنى : قل لهم يا محمد . وهذا التأويل أيضا سهل التناول، والكاف في « منكم » راجعة إلى الهاء في « لنحشرنهم والشياطين . ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا » فلا ينكر رجوع الكاف إلى الهاء، فقد عرف ذلك في قوله عز وجل : « وسقاهم ربهم شرابا طهورا . إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا » معناه كان لهم، فرجعت الكاف إلى الهاء . وقال الأكثر : المخاطب العالم كله، ولا بد من ورود الجميع، وعليه نشأ الخلاف في الورود . وقد بينا أقوال العلماء فيه . وظاهر الورود الدخول؛ لقوله عليه الصلاة

(١) الزيادة من « تهذيب التهذيب » وتفسير الطبرى .

والسلام : " لتمسّه النار " لأن المسيس حقيقته فى اللغة المماسة ، إلا أنها تكون برداً وسلاما على المؤمنين ، وينجون منها سالمين . قال خالد بن معدان : إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا ألم يقل ربنا : إنا نرد النار ؟ فيقال : لقد وردتموها فألفيتموها رمادا .

قلت : وهذا القول يجمع شتات الأقوال ، فإن من وردها ولم تؤذه بلهبها وحرها فقد أبعد عنها ونُجّى منها . نجانا الله تعالى منها بفضله وكرمه ، وجعلنا ممن وردها فدخلها سالما ، وخرج منها غانما . فإن قيل : فهل يدخل الأنبياء النار ؟ قلنا : لا نطلق هذا ، ولكن نقول : إن الخلق جميعا يردونها كما دل عليه حديث جابر أول الباب ؛ فالعصاة يدخلونها بجرائمهم ، والأولياء والسعداء لشفاعتهم فبين الدخولين بَوْنٌ . وقال ابن الأنبارى محتجا لمصحف عثمان وقراءة العامة : جائز فى اللغة أن يرجع من خطاب الغيبة إلى لفظ المواجهة بالخطاب ؛ كما قال : «وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا . إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا» فأبدل الكاف من الهاء . وقد تقدم هذا المعنى فى « يونس »[1] .

الثالثة — الاستثناء فى قوله عليه السلام : " إلا تحلّة القسم " يحتمل أن يكون استثناء منقطعا : لكن تحلة القسم ؛ وهذا معروف فى كلام العرب ؛ والمعنى ألا تمسه النار أصلا ، وتم الكلام هنا ثم ابتدأ " إلا تحلة القسم " أى لكن تحلة القسم لا بد منها فى قوله تعالى : « وإن منكم إلا واردها » وهو الجواز على الصراط أو الرؤية أو الدخول دخول سلامة ، فلا يكون فى ذلك شىء من مسيس ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : " لا يموت لأحدكم ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له جُنّة من النار " والجُنّة الوقاية والستر ، ومن وُقى النار وسُتر عنها فلن تمسّه أصلا ، ولو مسّته لما كان موقى .

الرابعة — هذا الحديث يفسر الأول لأن فيه ذكر الحِسْبة ؛ ولذلك جعله مالك بأثره مفسرا له . ويقيد هذا الحديث الثانى أيضا ما رواه البخارى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم " من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحِنْث كان[2] له حجابا من النار — أو —

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٢٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) "كان" : بالإفراد واسمها ضمير يعود على المفهوم مما سبق ؛ أى كان موتهم له حجابا . ولأبى ذر عن الكشميهنى كانوا له حجابا " . « قسطلانى » .

دخل الجنة " فقوله عليه السلام : " لم يبلغوا الحِنْث " — ومعناه عند أهل العلم لم يبلغوا الحُلُم ولم يبلغوا أن يلزمهم حِنْث — دليل على أن أطفال المسلمين فى الجنة — والله أعلم — لأن الرحمة إذا نزلت بآبائهم آستحال أن يُرحَموا من أجل [من] (١) ليس بمرحوم . وهذا إجماع من العلماء فى أن أطفال المسلمين فى الجنة ، ولم يخالف فى ذلك إلا فرقة شذت من الجبرية فجعلتهم فى المشيئة ؛ وهو قول مهجور مردود بإجماع الحجة الذين لا تجوز مخالفتهم ، ولا يجوز على مثلهم الغلط ، إلى ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من أخبار الآحاد الثقات العدول ؛ وأن قوله عليه الصلاة والسلام : " الشقىّ من شقى فى بطن أمه والسعيد من سعد فى بطن أمه وأن الملك ينزل فيكتب أجله وعمله ورزقه " الحديث مخصوص ، وأن من مات من أطفال المسلمين قبل الاكتساب فهو ممن سعد فى بطن أمه ولم يشقَ بدليل الأحاديث والإجماع . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله تعالى عنها : " يا عائشة إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا وهم فى أصلاب آبائهم وخلق النار وخلق لها أهلا وهم فى أصلاب آبائهم " ساقط ضعيف مردود بالإجماع والآثار ، وطلحة بن يحيى الذى يرويه ضعيف لا يحتج به . وهذا الحديث مما انفرد به فلا يعرّج عليه . وقد روى شعبة عن معاوية بن قرة ابن إياس المزنى عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا من الأنصار مات له آبن صغير فوَجد عليه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أما يَسرك ألا تأتى بابا من أبواب الجنة إلا وجدتَه يَستفتح لك " فقالوا : يا رسول الله أله خاصة أم للسلمين عامة ؟ قال : " بل للسلمين عامة " قال أبو عمر : هذا حديث ثابت صحيح ؛ يعنى ما ذكرناه مع إجماع الجمهور ، وهو يعارض حديث يحيى ويدفعه . قال أبو عمر : والوجه عندى فى هذا الحديث وما أشبهه من الآثار أنها لمن حافظ على أداء فرائضه ، وآجتنب الكبائر ، وصبر وآحتسب فى مصيبته ؛ فإن الخطاب لم يتوجه فى ذلك العصر إلا إلى قوم الأغلب من أمرهم ما وصفنا ، وهم الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين . وذكر النقاش عن بعضهم أنه قال : نسخ قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » قولُه : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَٰئِكَ عَنْهَا

(١) زيادة يقتضيها السياق .

مُبْعَدُونَ » وهذا ضعيف، وهذا ليس موضع نسخ . وقد بينا أنه إذا لم تمسه النار فقد أبعد عنها . وفي الخبر : " تقول النار للمؤمن يوم القيامة جُزْيا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي " .

الخامسة ـ قوله تعالى : « كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا » الحتم إيجاب القضاء ؛ أي كان ذلك حتما . « مقضيا » أي قضاه الله تعالى عليكم . وقال ابن مسعود : أي قسما واجبا .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ أي نخلصهم ﴿ وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ وهذا مما يدل على أن الورود الدخول ؛ لأنه لم يقل : وندخل الظالمين . وقد مضى هذا المعنى مستوفى . والمذهب أن صاحب الكبيرة وإن دخلها فإنه يعاقب بقدر ذنبه ثم ينجو . وقالت المرجئة : لا يدخل . وقالت الوعيدية : يخلد . وقد مضى بيان هذا في غير موضع . وقرأ عاصم الجحدري ومعاوية بن قرة « ثُمَّ نُنْجِي » مخففة من أنجى . وهي قراءة حميد ويعقوب والكسائي . وثقّل الباقون . وقرأ ابن أبي ليلى « ثَمَّهْ » بفتح الثاء أي هناك . و « ثَمَّ » ظرف إلا أنه مبني لأنه غير محصل فبني كما بني ذا ؛ والهاء يجوز أن تكون لبيان الحركة فتحذف في الوصل ، ويجوز أن تكون لتأنيث البقعة فتثبت في الوصل تاء .

قوله تعالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ أي على الكفار الذين سبق ذكرهم في قوله تعالى : « أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا » . وقال فيهم : « ونذر الظالمين فيها جثيا » أي هؤلاء إذا قرئ عليهم القرآن تعززوا بالدنيا ، وقالوا : فما بالنا ـ إن كنا على باطل ـ أكثر أموالا وأعز نفرا . وغرضهم إدخال الشبهة على المستضعفين وإيهامهم أن من كثر ماله دل ذلك على أنه

الحق في دينه، وكأنهم لم يروا في الكفار فقيرا ولا في المسلمين غنيا، ولم يعلموا أن الله تعالى نحى أولياءه عن الاغترار بالدنيا، وفرط الميل إليها . و « بينات » معناه مرتلات الألفاظ، ملخصة المعاني، مبينات المقاصد، إما محكمات، أو متشابهات قد تبعها البيان بالمحكمات، أو تبيين الرسول صلى الله عليه وسلم قولا أو فعلا . أو ظاهرات الإعجاز تُحدي بها فلم يقدر على معارضتها . أو حججا و براهين . والوجه أن تكون حالا مؤكدة ؛ كقوله تعالى : « وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا » لأن آيات الله تعالى لا تكون إلا واضحة وحججا . ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يريد مشركي قريش النضر بن الحرث وأصحابه . ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني فقراء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت فيهم قشافة، وفي عيشهم خشونة، وفي ثيابهم رثاثة؛ وكان المشركون يرجلون شعورهم، و يدهنون رءوسهم، و يلبسون خير ثيابهم، فقالوا للمؤمنين : ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ . قرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد وشبل بن عباد « مُقَامًا » بضم الميم وهو موضع الإقامة . و يجوز أن يكون مصدرا بمعنى الإقامة . الباقون « مَقَامًا » بالفتح، أي منزلا ومسكنا . وقيل : المقام الموضع الذي يقام فيه بالأمور الجليلة ؛ أي أيّ الفريقين أكثر جاها وأنصارا . « وَأَحْسَنُ نَدِيًّا » أي مجلسا؛ عن ابن عباس . وعنه أيضا المنظر وهو المجلس في اللغة وهو النادي . ومنه دار الندوة لأن المشركين كانوا يتشاورون فيها في أمورهم . وناداه جالسه في النادي . قال : « أنادي به آل الوليد وجعفرا »

والندىّ على فعيل مجلس القوم ومتحدّثهم، وكذلك الندوة والنادي [والمُنتَدَى][1] والمُتَنَدَّى، فإن تفرق القوم فليس بندىّ ؛ قاله الجوهري .

قوله تعالى : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي من أمة وجماعة . ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا﴾ أي متاعا كثيرا؛ قال[2] :

وفرعٍ يَزِينُ المَتْنَ أسودَ فاحمٍ ... أثيثٍ كقِنْوِ النخلةِ المُتَعَثْكِلِ

---

(1) الزيادة من « الصحاح » للجوهري . (2) هو امرؤ القيس . والفرع : الشعر التام . والمتن ما بين الصلب والكاهل من العصب واللحم . والفاحم الشديد السواد . والأثيث : كثير أصل النبات . والقنو : العذق بما عليه من الشماريخ . والمتعثكل الذي قد دخل بعضه في بعض لكثرته . وقيل : المتدلي .

والأثاث متاع البيت . وقيل : هو ما جد من الفرش والخُرْثِيّ ما لُبس منها، وأنشد الحسن ابن عليّ الطوسي فقال :

تقادم العهد من أم الوليد بنا * دهرا وصار أثاث البيت خُرْثيّا

وقال ابن عباس : هيئة . مقاتل : ثيابا . « وَرِئْيًا » أى منظرا حسنا . وفيه خمس قراءات : قرأ أهل المدينة « ورِيًّا » بغير همز . وقرأ أهل الكوفة « ورِئيا » بالهمز . وحكى يعقوب أن طلحة قرأ « وَرِيًا » بياء واحدة مخففة . وروى سفيان عن الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس : « هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وزِيًّا » بالزاى ؛ فهذه أربع قراءات . قال أبو إسحق : ويجوز « هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا ورِيئًا » بياء بعدها همزة . النحاس : وقراءة أهل المدينة فى هذا حسنة وفيها تقديران : أحدهما — أن تكون من رأيت ثم خففت الهمزة فأبدل منها ياء، وأدغمت الياء فى الياء . وكان هذا حسنا لتتفق رءوس الآيات لأنها غير مهموزات . وعلى هذا قال ابن عباس : الرِّئْى المنظر؛ فالمعنى : هم أحسن أثاثا ولباسا . والوجه الثانى — أن جلودهم مرتوية من النعمة؛ فلا يجوز الهمز على هذا . وفى رواية ورش عن نافع وابن ذكوان عن ابن عامر « ورئيا » بالهمز تكون على الوجه الأول . وهى قراءة أهل الكوفة وأبي عمرو من رأيت على الأصل . وقراءة طلحة بن مُصَرِّف « ورِيًا » بياء واحدة مخففة أحسبها غلطا . وقد زعم بعض النحويين أنه كان أصلها الهمز فقلبت الهمزة ياء، ثم حذفت إحدى اليائين . المهدوى : ويجوز أن يكون « رِيئًا » فقلبت ياء فصارت رييا ثم نقلت حركة الهمزة على الياء وحذفت . وقد قرأ بعضهم « ورِيًا » على القلب وهى القراءة الخامسة . وحكى سيبويه رَآءَ بمعنى رأى . الجوهرى : من همزه جعله من المنظر من رأيت ، وهو ما رأته العين من حال حسنة وكسوة ظاهرة . وأنشد أبو عبيدة لمحمد بن نمير الثقفى فقال :

أشاقتك الظعائن يوم بانوا * بذى الرِّئْى الجميل من الأثاث

ومن لم يهمز إما أن يكون على تخفيف الهمزة أو يكون من رَوِيت ألوانهم وجلودهم رِيًّا ؛ أى امتلأت وحسنت . وأما قراءة ابن عباس وأبيّ ابن كعب وسعيد بن جبير والأعصم المكى

ويزيد البربرى « وزيا » بالزاى فهو الهيئة والحسن . ويجوز أن يكون من زَوَيْتُ أى جمعت ، فيكون أصلها زويا فقلبت الواو ياء . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " زُويت لى الأرض " أى جمعت ؛ أى فلم يغن ذلك عنهم شيئا من عذاب الله تعالى ؛ فليعش هؤلاء ما شاءوا فمصيرهم إلى الموت والعذاب وإن عُمِّروا ؛ أو العذاب العاجل يأخذهم الله تعالى به.

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ ﴾ أى فى الكفر ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ أى فليدعه فى طغيان جهله وكفره ؛ فلفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر ؛ أى من كان فى الضلالة مدّه الرحمن مدا حتى يطول اغتراره فيكون ذلك أشدّ لعقابه . نظيره : « إنما نملى لهم ليزدادوا إثما » وقوله : « ونذرهم فى طغيانهم يعمهون » ومثله كثير ؛ أى فليعش ما شاء ، وليوسع لنفسه فى العمر ؛ فمصيره إلى الموت والعقاب . وهذا غاية فى التهديد والوعيد . وقيل : هذا دعاء أمر به النبي صلى الله عليه وسلم ؛ تقول : من سرق مالى فليقطع الله تعالى يده ؛ فهو دعاء على السارق . وهو جواب الشرط . وعلى هذا فليس قوله : « فليمدد » خبرا .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ ﴾ قال « رأوا » لأن لفظ « من » يصلح للواحد والجمع . و « إذا » مع الماضى بمعنى المستقبل ؛ أى حتى يروا ما يوعدون . والعذاب هنا إما أن يكون بنصر المؤمنين عليهم فيعذبونهم بالسيف والأسر ؛ وإما أن تقوم الساعة فيصيرون إلى النار . ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾ أى تنكشف حينئذ الحقائق . وهذا رد لقولهم : « أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا » .

قوله تعالى : وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ أى ويثبت الله المؤمنين على الهدى ، ويزيدهم فى النصرة ، وينزل من الآيات ما يكون سبب زيادة اليقين مجازاة لهم . وقيل : يزيدهم هدى بتصديقهم بالناسخ والمنسوخ الذى كفر به غيرهم ؛ قال معناه الكلبي ومقاتل .

ويحتمل ثالثا ــ أي « ويزيد الله الذين اهتدوا » إلى الطاعة « هدى » إلى الجنة ؛ والمعنى متقارب . وقد تقدّم القول في معنى زيادة الأعمال وزيادة الإيمان والهدى في « آل عمران »[1] وغيرها . ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ﴾ تقدّم في « الكهف »[2] القول فيها . ﴿ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾ أي جزاء : ﴿ وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴾ أي في الآخرة مما افتخر به الكفار في الدنيا . و « المردّ » مصدر كالرد ؛ أي وخير ردا على عاملها بالثواب ؛ يقال : هذا أردّ عليك ، أي أنفع لك . وقيل : « خير مردا » أي مرجعا فكل أحد يردّ إلى عمله الذي عمله .

قوله تعالى : أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا ﴾ روى الأئمة ــ واللفظ لمسلم ــ عن خباب قال كان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال لي : لن أقضيك حتى تكفر بمحمد. قال : فقلت له لن أكفر به حتى تموت ثم تبعث. قال : وإني لمبعوث من بعد الموت ؟! فسوف أقضيك إذا رجعت إلى مال وولد . قال وكيع : كذا قال الأعمش؛ فنزلت هذه الآية « أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا » إلى قوله : « ويأتينا فردا » . في رواية قال : كنت قينا[3] في الجاهلية فعملت للعاص بن وائل عملا، فأتيته أتقاضاه . خرجه البخاري أيضا . وقال الكلبي ومقاتل : كان خباب قينا فصاغ للعاص حليا ثم تقاضاه أجرته؛ فقال العاص : ما عندي اليوم ما أقضيك . فقال خباب : لست بمفارقك حتى تقضيني ؛ فقال العاص ياخباب مالك ؟ ! ما كنت هكذا، وإن كنت لحسن الطلب . فقال خباب : إني كنت على دينك فأما اليوم فأنا على دين الإسلام مفارق لدينك . قال : أو لستم تزعمون أن في الجنة ذهبا وفضة وحريرا ؟ قال خباب : بلى . قال : فأخرني حتى أقضيك

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٨٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٤١٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٣) القين : الحداد والصائغ .

فى الجنة — استهزاء — فوالله لئن كان ما تقول حقا إنى لأفضيك فيها، فوالله لا تكون أنت ياخباب وأصحابك أولى بهـا منى، فأنزل الله تعالى « أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا » يعنى العاص ابن وائل؛ الآيات . ﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ ﴾ قال ابن عباس : أنظر فى اللوح المحفوظ ؟ ! . وقال مجاهد : أعلم الغيب حتى يعلم أفى الجنـة هو أم لا ؟ ! ﴿ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ قال قتادة والثورى : أى عملا صالحـا . وقيل : هو التوحيد . وقيل : هو من الوعد . وقال الكلبى: عاهد الله تعـالى أن يدخله الجنة . ﴿ كَلَّا ﴾ ردٌّ عليـه ، أى لم يكن ذلك؛ لم يطلع الغيب، ولم يتخـذ عند الرحمن عهدا، وتم الكلام عند قوله : « كَلَّا » . وقال الحسن : إن الآيات نزلت فى الوليد بن المغيرة . والأول أصح لأنه مدوّن فى الصحاح . وقرأ حمزة والكسائى « وَوُلْدًا » بضم الواو، والباقون بفتحها . واختلف فى الضم والفتح على وجهين : أحدهما — أنهما لغتان معناهما واحد، يقال وَلد ووُلْد كما يقال عَدَم وعُدْم . وقال الحرث بن حِلِّزة :

ولقـــد رأيتُ معاشـــرًا ۝ قد ثَمَّـــرُوا مالًا ووُلْدَا

وقال آخـــر :

فليتَ فلانا كان فى بطن أمِّه ۝ وليت فلانا كانَ وُلْدَ حِمارِ

والثـانى — أن قيسا تجعل الوُلد بالضم جمعا والوَلد بالفتح واحدا . قال الماوردى : وفى قوله تعالى : « لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا » وجهان : أحدهما — أنه أراد فى الجنة استهزاء بما وعد الله تعالى على طاعته وعبادته؛ قاله الكلبى . الثانى — أنه أراد فى الدنيا، وهو قول الجمهور؛ وفيه وجهـان محتملان : أحدهما — إن أقمت على دين آبائى وعبادة آلهتى لأوتين مالا وولدا . الثـانى — ولو كنت على باطل لمـا أوتيت مالا وولدا .

قلت : قول الكلبى أشبه بظاهر الأحاديث ، بل نصها يدل على ذلك ؛ قال مسروق : سمعت خبّاب بن الأرتّ يقول : جئت العاصى بن وائل السَّهْمى أتقاضاه حقا لى عنـده . فقال : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد . فقلت : لا حتى تموت ثم تبعث . قال : وإنى لميت ثم مبعوث ؟ ! . فقلت : نعم . فقـال : إن لى هناك مالا وولدا فأقضيك ؛ فنزلت هـذه الآية ؛ قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

قوله تعالى : « أَطَّلَعَ الْغَيْبَ » ألفه ألف استفهام لمجيء « أم » بعدها، ومعناه التوبيخ، وأصله أأطلع فحذفت الألف الثانية لأنها ألف وصل . فإن قيل : فهلا أتوا بمدة بعد الألف فقالوا : آطلع كما قالوا : « آللهُ خيرٌ » « آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ » قيل له : كان الأصل في هذا « أالله » « أالذكرين » فأبدلوا من الألف الثانية مدة ليفرقوا بين الاستفهام والخبر، وذلك أنهم لو قالوا : الله خير بلا مد لالتبس الاستفهام بالخبر، ولم يحتاجوا إلى هذه المدة في قوله : «أطلع» لأن ألف الاستفهام مفتوحة وألف الخبر مكسورة، وذلك أنك تقول في الاستفهام : أطلع ؟ أفترى ؟ أصطفى ؟ أستغفرت ؟ بفتح الألف، وتقول في الخبر : اِطلع، اِفترى، اصطفى، اِستغفرت لهم بالكسر، فجعلوا الفرق بالفتح والكسر ولم يحتاجوا إلى فرق آخر .

قوله تعالى : « كَلَّا » ليس في النصف الأول ذكر[1] « كلا » وإنما جاء ذكره في النصف الثاني . وهو يكون بمعنيين : أحدهما بمعنى حقا . والثاني بمعنى لا . فإذا كانت بمعنى حقا جاز الوقف على ما قبله، ثم تبتدئ « كلا » أي حقا . وإذا كانت بمعنى لا، كان الوقف على « كلا » جائزا، كما في هذه الآية ؛ لأن المعنى : لا ليس الأمر كذا . ويجوز أن تقف على قوله : « عَهْدًا » وتبتدئ « كلا » أي حقا « سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ » . وكذا قوله تعالى : « لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا » يجوز الوقف على « كلا » وعلى « تركت » . وقوله : « وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ . قَالَ كَلَّا » الوقف على « كلا » لأن المعنى؛ لا — وليس الأمر كما تظن « فاذهبا » . فليس للحق في هذا المعنى موضع . وقال الفراء : « كلا » بمنزلة سوف لأنها صلة، وهي حرف رد فكأنها «نعم» و «لا» في الاكتفاء . قال : وإن جعلتها صلة لما بعدها لم تقف عليها، كقولك : كلا ورب الكعبة؛ لا تقف على كلا؛ لأنه بمنزلة إي ورب الكعبة . قال الله تعالى : « كَلَّا وَالْقَمَرِ » فالوقف على « كلا » قبيح لأنه صلة لليمين . وكان أبو جعفر محمد بن سعدان يقول في « كلا » مثل قول الفراء . وقال الأخفش : معنى

---

(١) أي من القرآن؛ قال الألوسي : « وهذا أول موضع وقع فيه من القرآن، وقد تكرر في النصف الأخير فوقع في ثلاثة وثلاثين موضعا » .

كلا الردع والزجر . وقال أبو بكر بن الأنبارى : وسمعت أبا العباس يقول : لا يوقف على « كلا » فى جميع القرآن ؛ لأنها جواب والفائدة تقع فيما بعدها . والقول الأول هو قول أهل التفسير .

قوله تعالى : ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ أى سنحفظ عليه قوله فنجازيه به فى الآخرة . ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴾ أى سنزيده عذابا فوق عذاب . ﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾ أى نسلبه ما أعطيناه فى الدنيا من مال وولد . وقال ابن عباس وغيره : أى نرثه المال والولد بعد إهلاكنا إياه . وقيل : نحرمه ما تمناه فى الآخرة من مال وولد ، ونجعله لغيره من المسلمين . ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ أى منفردا لا مال له ولا ولد ولا عشيرة تنصره .

قوله تعالى : وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ يعنى مشركى قريش . و « عِزًّا » معناه أعوانا ومنعة ؛ يعنى أولادا . والعِزّ المطر الجَوْد[1] أيضا ؛ قاله الهروى . وظاهر الكلام أن « عزا » راجع إلى الآلهة التى عبدوها من دون الله . ووحد لأنه بمعنى المصدر ؛ أى لينالوا بها العز ويمتنعون بها من عذاب الله ؛ فقال الله تعالى : ﴿ كَلَّا ﴾ أى ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا بل يكفرون بعبادتهم ؛ أى ينكرون أنهم عبدوا الأصنام ، أو تجحد الآلهة عبادة المشركين لها ؛ كما قال : « تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ » . وذلك أن الأصنام جمادات لا تعلم العبادة . ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ أى أعوانا فى خصومتهم وتكذيبهم . عن مجاهد والضحاك : يكونون لهم أعداء . ابن زيد : يكونون عليهم بلاء فتحشر آلهتهم ، وتركب لهم عقول فتنطق ، وتقول : يارب عَذِّبْ هؤلاء الذين عبدونا من دونك . و « كلا » هنا يحتمل أن تكون بمعنى لا ، ويحتمل أن تكون بمعنى حقًّا ؛ أى حقا « سيكفرون بعبادتهم » . وقرأ

---

(١) المطر الجود : الغزير .

أبو نهيك : « كُلًّا سيكفرون » بالتنوين . وروى عنه مع ذلك ضم الكاف وفتحها . قال المهدوى : « كلا » ردع وزجر وتنبيه ورد لكلام متقدم، وقد تقع لتحقيق مابعدها والتنبيه عليه كقوله : « كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى » فلا يوقف عليها على هذا، و يوقف عليها فى المعنى الأول؛ فإن صلح فيها المعنيان جميعا جاز الوقف عليها والابتداء بهـا . فمن نون « كلا » من قوله : « كَلًّا سيكفرون بعبادتهم » مع فتح الكاف فهو مصدر كَلَّ، ونصبه بفعل مضمر، والمعنى كَلَّ هذا الرأى والاعتقاد كَلًّا ، يعنى اتخاذهم الآلهة « لِيكونوا لهم عِزا » فيوقف على هـذا على « عِزا » وعلى « كَلًّا » . وكذلك فى قراءة الجماعة ، لأنها تصلح للرد لمـا قبلها ، والتحقيق لمـا بعدها .ومن روى ضم الكاف مع التنوين،فهو منصوب أيضا بفعل مضمر، كأنه قال : سيكفرون « كُلًّا سيكفرون بعبادتهم » يعنى الآلهة .

قلت : فتحصل فى « كَلَّا » أربعة معان : التحقيق وهو أن تكون بمعنى حقا، والنفى، والتنبيه ،وصلة للقسم ، ولا يوقف منها إلا على الأول . وقال الكسائى : «لا» تنفى فحسب ، و «كلا» تنفى شيئا وتثبت شيئا، فإذا قيل : أكلت تمرا، قلت: كلا إنى أكلت عسلا لا تمرا، ففى هذه الكلمة نفى ما قبلها، وتحقق مابعدها . والضد يكون واحدا ويكون جمعا ، كالعدو والرسول . وقيل : وقع الضد موقع المصدر؛ أى ويكونون عليهم عونا؛ فلهذا لم يجمع،وهذا فى مقابلة قوله : « لِيكونوا لهم عِزا » والعـز مصدر، فكذلك ماوقع فى مقابلته . ثم قيل : الآية فى عبدة الأصنام، فأجرى الأصنام مجرى من يعقل؛ جريا على توهم الكفرة . وقيل : فيمن عبد المسيح أو الملائكة أو الجن أو الشياطين؛ فالله تعالى أعلم .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أى سلطناهم عليهم بالإغواء .
وذلك حين قال لإبليس : « وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ » . وقيل : « أرسلنا »
أى خلينا ؛ يقال : أرسلت البعير أى خليته ، أى خلينا الشياطين وإياهم ولم نعصمهم من القبول
منهم . الزجاج : قيضنا . ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ قال ابن عباس : تزعجهم إزعاجا من الطاعة إلى
المعصية . وعنه : تغريهم إغراء بالشر : أمض أمض فى هذا الأمر ، حتى توقعهم فى النار .
حكى الأول الثعلبى ، والثانى الماوردى ، والمعنى واحد . الضحاك : تغويهم إغواء . مجاهد :
تشليهم إشلاء ، وأصله الحركة والغليان ، ومنه الخبر المروى عن النبى صلى الله عليه وسلم "قام
إلى الصلاة ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء" . وائتزت القدر ائتزازا اشتد غليانها .
والأز التهييج والإغراء ، قال الله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا »
أى تغريهم على المعاصى . والأز الاختلاط . وقد أززت الشىء أؤزه أزا أى ضممت بعضه
إلى بعض . قاله الجوهرى .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى تطلب العذاب لهم . ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ قال
الكلبى : آجالهم ؛ يعنى الأيام والليالى والشهور والسنين إلى انتهاء أجل العذاب . وقال الضحاك :
الأنفاس . ابن عباس : أى نعد أنفاسهم فى الدنيا كما نعد سنيهم . وقيل : الخطوات . وقيل :
اللذات . وقيل : اللحظات . وقيل : الساعات . وقال قطرب : نعد أعمالهم عدا . وقيل :
لا تعجل عليهم فإنما نؤخرهم ليزدادوا إثما . روى : أن المأمون قرأ هذه السورة ، فمر بهذه
الآية وعنده جماعة من الفقهاء ، فأشار برأسه إلى ابن السماك أن يعظه ، فقال : إذا كانت
الأنفاس بالعدد ، ولم يكن لها مدد ، فما أسرع ما تنفد . وقيل فى هذا المعنى :

حياتك أنفاس تعد فكلما ٭ مضى نفس منك انتقصت به جزءا
يميتك ما يحييك فى كل ليلة ٭ ويحدوك حاد ما يريد به الهزءا

ويقال : إن أنفاس ابن آدم بين اليوم والليلة أربعة وعشرون ألف نفس : اثنا عشر ألف
نفس فى اليوم ، واثنا عشر ألفا فى الليلة — والله أعلم — فهى تعد وتحصى إحصاء ، ولها عدد
معلوم ، وليس لها مدد فما أسرع ما تنفد .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ فى الكلام حذف ، أى إلى جنة الرحمن ، ودار كرامته . كقوله : « إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ » وكما فى الخبر " من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله " . والوفد اسم للوافدين ، كما يقال : صَوْم وفَطْر وزَوْر ، فهو جمع الوافد ، مثل رَكْب وراكب وصَحْب وصاحب ، وهو من وفد يفد وَفْدا ووفودا ووِفادة ، إذا خرج إلى ملك فى فتح أو أمر خطير . الجوهرى : يقال وفد فلان على الأمير ، أى ورد رسولا فهو وافد ، والجمع وفد مثل صاحب وصَحْب ، وجمع الوفد وِفاد ووفود ، والاسم الوِفادة وأوفدته أنا إلى الأمير ، أى أرسلته . وفى التفسير : « وفدا » أى ركبانا على نجائب طاعتهم . وهذا لأن الوافد فى الغالب يكون راكبا ، والوفد الركبان ووحد لأنه مصدر . ابن جريج : وفدا على النجائب . وقال عمرو بن قيس المُلَائى : إن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله عمله فى أحسن صورة وأطيب ريح ، فيقول : هل تعرفنى ؟ فيقول : لا — إلا إن الله قد طيب ريحك وحسن صورتك . فيقول : كذلك كنتُ فى الدنيا أنا عملك الصالح ، طالما ركبتك فى الدنيا اركبنى اليوم ، وتلا « يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا » وإن الكافر يستقبله عمله فى أقبح صورة وأنتن ريح ، فيقول : هل تعرفنى ؟ فيقول : لا — إلا إن الله قد قبح صورتك وأنتن ريحك . فيقول : كذلك كنتُ فى الدنيا أنا عملك السيئ طالما ركبتنى فى الدنيا وأنا اليوم أركبك . وتلا « وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ » . ولا يصح من قِبل إسناده . قاله ابن العربى فى « سراج المريدين » . وذكر هذا الخبر فى تفسيره أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيرى ، عن ابن عباس بلفظه ومعناه . وقال أيضا عن ابن عباس : من كان يحب الخيل وفد إلى الله تعالى على خيل لا تَرُوث ولا تبول ، لجمها من الياقوت الأحمر ، ومن الزبرجد الأخضر ، ومن الدر الأبيض ، وسروجها من السندس والإستبرق ، ومن كان يحب ركوب الإبل فعلى نجائب لا تبعر ولا تبول ، أزمتها من الياقوت والزبرجد ، ومن كان يحب ركوب السفن فعلى سفن من ياقوت ، قد أمنوا الغرق ، وأمنوا الأهوال .
وقال أيضا عن على رضى الله عنه : ولما نزلت الآية قال على رضى الله عنه : يا رسول الله !

إني قد رأيت الملوك ووفودهم، فلم أر وفدا إلا ركبانا فما وفد الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما إنهم لا يحشرون على أقدامهم ولا يساقون سوقا ولكنهم يؤتون بنوق من نوق الجنة لم ينظر الخلائق إلى مثلها رحالها الذهب وزمامها الزبرجد فيركبونها حتى يقرعوا باب الجنة". ولفظ الثعلبي في هذا الخبر عن علي أبين. وقال علي لما نزلت هذه الآية قلت: يا رسول الله! إني رأيت الملوك ووفودهم فلم أر وفدا إلا ركبانا. قال: "يا علي إذا كان المنصرف من بين يدي الله تعالى تلقت الملائكة المؤمنين بنوق بيض رحالها وأزمتها الذهب على كل مركب حلة لا تساويها الدنيا فيلبس كل مؤمن حلة ثم تسير بهم مراكبهم فتهوي بهم النوق حتى تنتهي بهم إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ»".

قلت: وهذا الخبر ينص على أنهم لا يركبون ولا يلبسون إلا من الموقف، وأما إذا خرجوا من القبور فمشاة حفاة عراة غرلا(١) إلى الموقف؛ بدليل حديث ابن عباس قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال: "يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله - تعالى - حفاة عراة غرلا" الحديث خرجه البخاري ومسلم، وسيأتي بكماله في سورة «المؤمنين» إن شاء الله تعالى. وتقدم في «آل عمران»(٢) من حديث عبد الله بن أنيس بمعناه والحمد لله تعالى. ولا يبعد أن تحصل الحالتان للسعداء، فيكون حديث ابن عباس مخصوصا؛ والله أعلم. وقال أبو هريرة: «وفدا» على الإبل. ابن عباس: ركبانا يؤتون بنوق من الجنة؛ عليها رحائل من الذهب وسروجها وأزمتها من الزبرجد فيحشرون عليها. وقال علي: ما يحشرون والله على أرجلهم، ولكن على نوق رحالها من ذهب، ونجب سروجها يواقيت، إن هموا بها سارت وإن حركوها طارت. وقيل: يفدون على ما يحبون من إبل أو خيل أو سفن، على ما تقدم عن ابن عباس. والله أعلم. وقيل: إنما قال «وفدا» لأن من شأن الوفود عند العرب أن يقدموا بالبشارات، وينتظرون الجوائز، فالمتقون ينتظرون العطاء والثواب. ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ السوق الحث على السير. و «وردا» عطاشا؛ قاله ابن عباس

---

(١) الغرل (جمع الأغرل): وهو الأقلف.   (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٧٣ طبعة أولى أو ثانية.

وأبو هريرة رضي الله عنهما والحسن . والأخفش والفراء وابن الأعرابي : حفاة مشاة . وقيل : أفواجا . وقال الأزهري : أي مشاة عطاشا ، كالإبل ترد الماء ؛ فيقال : جاء وِرد بني فلان . القشيري : وقوله « وِردا » يدل على العطش ؛ لأن الماء إنما يورد في الغالب للعطش . وفي « التفسير » : مشاة عطاشا تتقطع أعناقهم من العطش ، وإذا كان سوق المجرمين إلى النار لحشر المتقين إلى الجنة . وقيل : « وِردا » أي الورود ؛ كقولك : جئتك إكراما لك أي : لإكرامك ؛ أي نسوقهم لورود النار .

قلت : ولا تناقض بين هذه الأقوال ، فيساقون عطاشا حفاة مشاة أفواجا . قال ابن عرفة : الورد القوم يردون الماء ، فسمى العطاش وردا لطلبهم ورود الماء ؛ كما تقول : قوم صَوْم أي صيام ، وقوم زَوْر أي زوّار ، فهو اسم على لفظ المصدر ، واحدهم وارد . والورد أيضا الجماعة التي ترد الماء من طير وإبل . والورد الماء الذي يورد . وهذا من باب الإيماء بالشيء إلى الشيء . والورد الجزء [من القرآن][1] يقال : قرأت وِردى . والورد يوم الحمى إذا أخذت صاحبها لوقت . فظاهره لفظ مشترك[2] . وقال الشاعر يصف قليبا :

« يَطمو إذا الوِرْدُ عليه التَكَّا[3] »

أي الورّاد الذين يردون الماء .

قوله تعالى : ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ ﴾ أي هؤلاء الكفار لا يملكون الشفاعة لأحد ﴿ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ وهم المسلمون فيملكون الشفاعة ، فهو استثناء الشيء من غير جنسه ؛ أي لكن « من اتخذ عند الرحمن عهدا » يشفع ؛ فـ « من » في موضع نصب على هذا . وقيل : هو في موضع رفع على البدل من الواو في « يملكون » ؛ أي لا يملك أحد عند الله الشفاعة « إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا » فإنه يملك ؛ وعلى هذا يكون الاستثناء

---

(١) الزيادة من « اللسان » . (٢) القليب : البئر . (٣) صدره :

« صبحن من وشحى قليبا سكا »

وشحى : اسم بئر . والسك : الضيقة . والتك الورد : ازدحم وضرب بعضه بعضا . وطمت البئر تطمو طموا وتطمى طميا : امتلأت .

متصلا . و «المجرمين» في قوله : «وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا» يعم الكفرة والعصاة، ثم أخبر أنهم لا يملكون الشفاعة إلا العصاة المؤمنون ، فإنهم يملكونها بأن يشفع فيهم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا أزال أشفع حتى أقول يا رب شفعني فيمن قال لا إله إلا الله محمد رسول الله فيقول يا محمد إنها ليست لك ولكنها لي" خرجه مسلم بمعناه، وقد تقدم . وتظاهرت الأخبار بأن أهل الفضل والعلم والصلاح يشفعون فيشفّعون ؛ وعلى القول الأول يكون الكلام متصلا بقوله : « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا » فلا تقبل غدا شفاعة عبدة الأصنام لأحد ، ولا شفاعة الأصنام لأحد ، ولا يملكون شفاعة أحد لهم ؛ أي لا تنفعهم شفاعة ؛ كما قال : « فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ » . وقيل : أي نحشر المتقين والمجرمين ولا يملك أحد شفاعة « إلا من آتخذ عند الرحمن عهدا » أي إذا أذن له الله في الشفاعة . كما قال : « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه » . وهذا العهد هو الذي قال « أم اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا » وهو لفظ جامع للإيمان وجميع الصالحات التي يصل بها صاحبها إلى حيز من يشفع . وقال ابن عباس : العهد لا إله إلا الله . وقال مقاتل وابن عباس أيضا : لا يشفع إلا من شهد أن لا إله إلا الله ، وتبرأ من الحول والقوة [إلا][1] لله ، ولا يرجو إلا الله تعالى . وقال ابن مسعود : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه : "أيعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهدا" قيل : يا رسول الله وما ذاك ؟ قال : "يقول عند كل صباح ومساء اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك في هذه الحياة بأني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمدا عبدك ورسولك [فلا تكلني إلى نفسي][2] فإنك إن تكلني إلى نفسي تباعدني من الخير وتقربني من الشر وإني لا أثق إلا برحمتك فاجعل لي عندك عهدا توفينيه يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد فإذا قال ذلك طبع الله عليها طابعا ووضعها تحت العرش فإذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين لهم عند الله عهد فيقوم فيدخل الجنة" .

---

(١) زيادة يقتضيها المقام . (٢) الزيادة من رواية الترمذي .

قوله تعالى : وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾ يعنى اليهود والنصارى ، ومن زعم أن الملائكة بنات الله . وقرأ يحيى والأعمش وحمزة والكسائى وعاصم وخلف : « وُلْدًا » بضم الواو وإسكان اللام ، فى أربعة مواضع : من هذه السورة قوله تعالى : « لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوُلْدًا » وقد تقدم ، وقوله : « أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وُلْدًا . وَمَا يَنْبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وُلْدًا » . وفى سورة نوح : « مَالُهُ وَوُلْدُهُ » . ووافقهم فى « نوح » خاصة ابن كثير ومجاهد وحميد وأبو عمرو ويعقوب . والباقون فى الكل بالفتح فى الواو واللام ، وهما لغتان مثل العَرَب والعُرْب والعَجَم والعُجْم . قال :

ولقد رأيت معاشرا ... قد ثَمَّرُوا مالاً ووُلْدا

وقال آخر :

وليتَ فلانا كان فى بطنِ أُمِّه ... وليت فلانا كان وُلْدَ حمارِ

وقال فى معنى ذلك النابغة :

مَهْلاً فداءً لكَ الأقوامُ كلُّهم ... وما أُثَمِّرُ من مالٍ ومن وَلَدِ

ففتح . وقيس يجعلون الوُلْد بالضم جمعا والوَلَد بالفتح واحدا . قال الجوهرى : الوَلَد قد يكون واحدا وجمعا ، وكذلك الوُلْد بالضم . ومن أمثال بنى أسد : وُلْدُكِ من دَمَّى عَقِبَيْكِ[1] . وقد يكون الوُلْد جمع الوَلَد مثل أُسْد وأَسَد . والوِلْد بالكسر لغة فى الوُلْد . النحاس : وفرق

(١) [illegible]

أبو عبيدة بينهما ؛ لزعم أن الوَلَد يكون للأهل والوَلَد جميعا . قال أبو جعفر : وهـذا قول مردود لا يعرفه أحد من أهل اللغة، ولا يكون الوَلَد والوُلْد إلا ولد الرجل، وولد ولده، إلا أن وَلَدا أكثر في كلام العرب؛ كما قال :

مَهْلاً فِداءٌ لكَ الأقوامُ كلُّهم ٭ وما أُثَمِّرُ مِنْ مالٍ ومن وَلَدِ

قال أبو جعفر وسمعت محمد بن الوليد يقول : يجوز أن يكون وُلْد جمع وَلَد، كما يقال وَثَن ووُثْن وأَسَد وأُسْد، ويجوز أن يكون وَلَد ووُلْد بمعنى واحد، كما يقال عَجَم وعُجْم وعَرَب وعُرْب كما تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ أى منكرا عظيما؛ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما . قال الجوهري : الإِدّ والإِدّة الداهية والأمر الفظيع، ومنه قوله تعالى : « لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا » وكذلك الآدّ مثل فاعل . وجمع الإدة إِدَد . وأَدَّت فلانا داهيةٌ تؤُدُّه أدًّا (بالفتح) . والإِدُّ أيضا الشدّة . [والأَدُّ الغلبة والقوة](1) قال الراجز :

نَضَوْنَ عَنّى شِدَّةً وأُدّا ٭ من بَعْدِ ما كنتُ صُمُلاًّ جَلْدا(2)

انتهى كلامه . وقرأ أبو عبد الله، وأبو عبد الرحمن السلمي « أَدًّا » بفتح الهمزة . النحاس : يقال أدّ يؤد أدًّا فهو آدّ والاسم الإِدّ؛ إذا جاء بشيء عظيم منكر . وقال الراجز :

قد لَقِيَ الأقرانُ مِنِّي نُكْرَا ٭ داهيةً دهياء إدًّا إمْرا

عن غير النحاس؛ الثعلبي : وفيه ثلاث لغات « إدًّا » بالكسر وهى قراءة العامة، « وأَدًّا » بالفتح وهى قراءة السُّلَمِيّ، و « آدٌّ » مثل مادّ، وهى لغة لبعض العرب؛ ورويت عن ابن عباس وأبى العالية؛ وكأنها مأخوذة من الثقل [يقال] : آدَه الحمل يئوده أَوْدًا أثقله .

قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ ﴾ قراءة العامة هنا وفى « الشورى » بالتاء . وقراءة نافع ويحيى والكسائى « يكاد » بالياء لتقدم الفعل . ﴿ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ أى يتشققن . وقرأ نافع وابن كثير وحفص وغيرهم بتاء بعد الياء وشد الطاء من التفطر هنا وفى « الشورى » .

(1) فى الأصل : الأد القوة والشدة؛ وصوابه كما فى اللسان : الإد بالكسر الشدة والأد بالفتح الغلبة والقوة .
(2) الصمل الشديد الصلب . وورد فى كتب اللغة : « صملا نهدا » والنهد : القوى الشديد .

ووافقهم حمزة وابن عامر فى « الشورى » . وقرآ هنا « ينفطرن » من الانفطار ؛ وكذلك قرأها أبو عمرو وأبو بكر والمفضل فى السورتين . وهى اختيار أبى عبيد؛ لقوله تعالى : « إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ » وقوله : « السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ » . وقوله : ﴿ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ ﴾ أى تتصدع . ﴿ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾ قال ابن عباس : هدما أى تسقط بصوت شديد . وفى الحديث "اللهم إنى أعوذ بك من الهدّ والهدّة" قال شمر قال أحمد بن غياث المروزى : الهدّ الهدم والهدّة الخسوف . وقال الليث : هو الهدم الشديد؛ كحائط يهدّ بمرة؛ يقال : هدّنى الأمر وهدّ ركنى أى كسرنى و بلغ منى؛ قاله الهروى . الجوهرى : وهدّ البناء يهدّه هدّا كسره وضعضعه ، وهدّته المصيبة أى أوهنت ركنه ، وانهدّ الجبل انكسر . الأصمعى : والهدّ الرجل الضعيف؛ يقول الرجل للرجل إذا أوعده : إنى لغير هدّ أى غير ضعيف . وقال ابن الأعرابى : الهدّ من الرجال الجواد الكريم ، وأما الجبان الضعيف فهو الهِدّ بالكسر؛ وأنشد[1] :

لَيْسُوا بِهِدِّينَ فى الحُرُوبِ إِذَا ۞ تُعْقَدُ فَوْقَ الحَرَاقِفِ النُّطُقُ

والهدّة صوت وقع الحائط ونحوه ، تقول منه : هَدَّ يهِدُّ (بالكسر) هَدِيدًا . والهادّ صوت يسمعه أهل الساحل ، يأتيهم من قبل البحر له دوىٌّ فى الأرض ، وربما كانت منه الزلزلة ، ودويّه هديده . النحاس : « هَدًّا » مصدر؛ لأن معنى « تَخِرُّ » تُهَدّ . وقال غيره : حال أى مهدودة : ﴿ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ « أن » فى موضع نصب عند الفراء بمعنى لأن دعوا ومن أن دعوا ، فموضع « أن » نصب بسقوط الخافض . وزعم الفراء أن الكسائى قال : هى فى موضع خفض بتقدير الخافض . وذكر ابن المبارك : حدثنا مسعر، عن واصل، عن عون بن عبدالله قال قال عبد الله بن مسعود : إن الجبل ليقول للجبل يافلان هل مر بك اليوم ذاكر لله؟ فإن قال نعم سُرَّ به[2] . ثم قرأ عبد الله « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا » الآية؛ قال : أفتراهن يسمعن الزور ولا يسمعن الخير؟! . قال : وحدثنى عوف عن غالب بن عجرد[3] قال :

---

(١) البيت للعباس بن عبد المطلب رضى الله عنه . والحراقف (جمع حرقفة) : مجتمع رأس الفخذ . والنطق (جمع نطاق) : ما تشد به الأوساط . (٢) أى قال عون كما فى « الدر المنثور » وغيره .

(٣) كذا فى الأصل؛ ولعله « غالب بن حجرة » وما هنا تحريف .

حدثني رجل من أهل الشام في مسجد منى ، قال : إن الله تعالى لما خلق الأرض وخلق مافيها من الشجر، لم تك فى الأرض شجرة يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منها منفعة، وكان لهم منها منفعة، فلم تزل الأرض والشجر كذلك حتى تكلم بفجرة بنى آدم تلك الكلمة العظيمة ، قولهم : اتخذ الرحمن ولدا ؛ فلما قالوها اقشعرت الأرض وشاك الشجر . وقال ابن عباس : اقشعرت الجبال وما فيها من الأشجار ، والبحار وما فيها من الحيتان ، فصار من ذلك الشوك فى الحيتان، وفى الأشجار الشوك . وقال ابن عباس أيضا وكعب : فزعت السموات والأرض والجبال ، وجميع المخلوقات إلا الثقلين، وكادت أن تزول ، وغضبت الملائكة فاستعرت جهنم ، وشاك الشجر، واكفهرت الأرض وجدبت حين قالوا : اتخذ الله ولدا . وقال محمد بن كعب : لقد كاد أعداء الله أن يقيموا علينا الساعة، لقوله تعالى : « تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا » قال ابن العربى : وصدق فإنه قول عظيم سبق به القضاء والقدر، ولولا أن البارى تبارك وتعالى لا يضعه كفر الكافر، ولا يرفعه إيمان المؤمن، ولا يزيد هذا فى ملكه، كما لا ينقص ذلك من ملكه، لما جرى شيء من هذا على الألسنة ، ولكنه القدوس الحكيم الحليم، فلم يبال بعد ذلك بما يقول المبطلون .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ نفى عن نفسه سبحانه وتعالى الولد؛ لأن الولد يقتضى الجنسية والحدوث على ما بيناه فى « البقرة »[(١)] أى لا يليق به ذلك ولا يوصف به ولا يجوز فى حقه؛ لأنه لا يكون ولد إلا من والد يكون له والد وأصل والله سبحانه يتعالى عن ذلك ويتقدس . قال[(٢)] :

فى رأس خَلْقَاء من عنقاء مُشْرِفة * ما ينبغى دونها سَهْلٌ ولا جَبَلُ

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٥ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) هو ابن أحمر الباهلى يصف جبلا . والخلقاء : الصخرة ليس فيها وصم ولا كسر أى الملساء . والعنقاء : أكمة جبل مشرف .

﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً ﴾ « إن » نافية بمعنى ما؛ أى ما كل من فى السموات والأرض إلا وهو يأتى يوم القيامة مقرا له بالعبودية ، خاضعا ذليلا كما قال : « وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ » أى صاغرين أذلاء؛ أى الخلق كلهم عبيده، فكيف يكون واحد منهم ولدا له عز وجل؛ تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا . و « آتى » بالياء فى الخط، والأصل التنوين فحذف استخفافا وأضيف .

الثانيــة ــ فى هــذه الآية دليل على أنه لا يجوز أن يكون الولد مملوكا للوالد ، خلافا لمن قال : إنه يشــتريه فيملكه ولا يعتق عليه إلا إذا أعتقه . وقد أبان الله تعالى المنافاة بين الأولاد والملك، فإذا ملك الوالد ولده بنوع من التصرفات عتق عليه . ووجه الدليل عليــه من هذه الآية أن الله تعالى جعل الولدية والعبدية فى طرفى تقابل؛ فنفى أحدهما وأثبت الآخر؛ ولو اجتمعا لما كان لهذا القول فائدة يقع الاحتجاج بها . وفى الحديث الصحيح " لا يجزى ولد والدا إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه " خرجه مسلم . فإذا لم يملك الأب ابنه مع مرتبته عليه، فالابن بعدم ملك الأب أولى لقصوره عنه .

الثالثــة ــ ذهب إسحق بن راهويه فى تأويل قوله عليه الصلاة والسلام : " من أعتق شركا له فى عبد " أن المراد به ذكور العبيد دون إناثهم فلا يكمل على من أعتق شركا فى أنثى، وهو على خلاف ما ذهب إليه الجمهور من السلف ومن بعدهم، فإنهم لم يفرقوا بين الذكر والأنثى؛ لأن لفظ العبد يراد به الجنس، كما قال تعالى: « إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا » فإنه قد يتناول الذكر والأنثى من العبد قطعا . وتمسك إسحق بأنه حكى عبدة فى المؤنث .

الرابعــة ــ روى البخارى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول الله تبارك وتعالى كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياى فقوله ليس يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق بأهون على من إعادته وأما شتمه إياى فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن لى كفوا أحد " وقد تقــدم فى « البقرة »[1] وغيرها وإعادته فى مثل هذا الموضع حسن جدا .

---

(١) تقدم الحديث فى ج ٢ ص ٨٥ بلفظ آخر .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ ﴾ أى علم عددهم ﴿ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ تأكيد؛ أى فلا يخفى عليه أحد منهم .

قلت : ووقع لنا فى أسمائه سبحانه المحصى ؛ أعنى فى السنة من حديث أبى هريرة ؛ خرجه الترمذى ، واشتقاق هذا الفعل يدل عليه . وقال الأستاذ أبو إسحق الإسفراينى : ومنها المحصى ويختص بأنه لاتشغله الكثرة عن العلم ؛ مثل ضوء النور ، وأشتداد الريح، وتساقط الأوراق ، فيعلم عند ذلك أجزاء الحركات فى كل ورقة ، وكيف لا يعلم وهو الذى يخلق ، وقد قال : « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » . ووقع فى تفسير ابن عباس أن معنى « لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا » يريد أقروا له بالعبودية ، وشهدوا له بالربوبية .

قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ أى واحدا لا ناصر له ولا مال معه ينفعه ؛ كما قال تعالى : « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » فلا ينفعه إلا ماقدم من عمل، وقال: « وَكُلُّهُمْ آتِيهِ » على لفظ كل وعلى المعنى آتوه . وقال القشيرى: وفيه إشارة إلى أنكم لا ترضون لأنفسكم باستعباد أولادكم والكل عبيده ، فكيف رضيتم له مالا ترضون لأنفسكم . وقد رد عليهم فى مثل هذا، فى أنهم لا يرضون لأنفسهم بالبنات، ويقولون : الملائكة بنات الله، تعالى الله عن ذلك، وقولهم : الأصنام بنات الله . وقال : « فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ » .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى صدقوا . ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ أى حبا فى قلوب عباده . كما رواه الترمذى من حديث سعد وأبى هريرة : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أحب الله عبدا نادى جبريل إنى قد أحببت فلانا فأحبه — قال — فينادى فى السماء ثم تنزل له المحبة فى أهل الأرض فذلك قوله تعالى « سَيَجْعَلُ لَهُمُ

الرَّحْمَنُ وُدًّا » وإذا أبغض الله عبدا نادى جبريل إنى أبغضت فلانا فينادى فى السماء ثم تنزل له البغضاء فى الأرض » " قال هـذا حديث حسن صحيح . وخرجه البخارى ومسلم بمعناه ، ومالك فى الموطأ، وفى نوادر الأصول . وحدثنا أبو بكر بن سابق الأموى قال حدثنا أبو مالك الجنبى عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله أعطى المؤمن الألفة والملاحة والمحبة فى صدور الصالحين والملائكة المقربين — ثم تلا — « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا » ". واختلف فيمن نزلت؛ فقيل فى على رضى الله تعالى عنه؛ روى البراء بن عازب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب : " قل يا على اللهم اجعل لى عندك عهدا واجعل لى فى قلوب المؤمنين مودة " فنزلت الآية ؛ ذكره الثعلبى . وقال ابن عبـاس : نزلت فى عبد الرحمن بن عوف ؛ جعل الله تعالى له فى قلوب العباد مودة ؛ لا يلقاه مؤمن إلا وقره ، ولا مشرك ولا منافق إلا عظمه . وكان هرم بن حيّان يقول : ما أقبل أحد بقلبه على الله تعالى إلا أقبل الله تعـالى بقلوب أهل الإيمان إليه ، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهـم . وقيل : يجعل الله تعالى لهم مودة فى قلوب المؤمنين والملائكة يوم القيامة .

قلت : إذا كان محبوبا فى الدنيا فهو كذلك فى الآخرة ؛ فإن الله تعالى لا يحب إلا مؤمنا تقيا، ولا يرضى إلا خالصا نقيا؛ جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه . روى مسلم عن أبى هريرة قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعـالى إذا أحب عبدا دعا جبريل عليه السلام فقال إنى أحب فلانا فأحبّه فيحبه جبريل ثم ينادى فى السماء فيقول إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهـل السماء — قال — ثم يوضع له القبول فى الأرض وإذا أبغض عبدا دعا جبريل عليه السلام وقال إنى أبغض فلانا فأبغضه فيبغضه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء إن الله يبغض فلانا فأبغضوه — قال — فيبغضونه ثم توضع له البغضاء فى الأرض " .

قوله تعـالى : فَإِنَّمَـا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾ أى القرآن ، يعنى بيناه بلسانك العربى وجعلناه سهلا على من تدبره وتأمله . وقيل : أنزلناه عليك بلسان العرب ليسهل عليهم فهمه . ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ اللد جمع الألد وهو الشديد الخصومة ، ومنه قوله تعالى : « أَلَدُّ الْخِصَامِ » وقال الشاعر :

أبيتُ نَجِيًّا للهمومِ كأنني ＊ أخاصم أقواما ذَوِى جَدَلٍ لُدَّا

وقال أبو عبيدة : الألد الذى لا يقبل الحق ويدعى الباطل . الحسن : اللد الصُّمّ عن الحق . قال الربيع : صم آذان القلوب . مجاهد : فجارا . الضحاك : مجادلين فى الباطل . ابن عباس : شدادا فى الخصومة . وقيل : الظالم الذى لا يستقيم ، والمعنى واحد . وخصوا بالإنذار ، لأن الذى لا عناد عنده يسهل انقياده .

قوله تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أى من أمة وجماعة من الناس ، يخوف أهل مكة . ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ فى موضع نصب ، أى هل ترى منهم أحدا وتجد . « أو تسمع لهم رِكزا » أى صوتا ، عن ابن عباس وغيره ، أى قد ماتوا وحصلوا أعمالهم . وقيل : حِسًّا ، قاله ابن زيد . وقيل : الركز مالا يفهم من صوت أو حركة ، قاله اليزيدى وأبو عبيدة ، كركز الكتيبة ، وأنشد أبو عبيدة بيت لبيد :

وتَوَجَّسَتْ رِكْزَ الأَنِيسِ فَرَاعَهَا ＊ عن ظَهْرِ غَيْبٍ والأَنِيسُ سَقَامُها [(1)]

وقيل : الصوت الخفى ، ومنه رَكَزَ الرُّمحَ إذا غيَّب طرفه فى الأرض . وقال طرفة :

وصادِقَتَا سَمْعِ التَّوَجُّسِ للسُّرَى ＊ لِرِكْزٍ خَفِيٍّ أو لصَوْتٍ مُنَدَّدِ [(2)]

---

(1) توجست : تسمعت البقرة صوت الناس فأفزعها ولم تر الناس . والأنيس سقامها معناه : والأنيس هلاكها ، أى يصيدها . (2) يصف طرفة فى هذا البيت أذنى ناقته ، يعنى أذنها لا تكذبها النبأة . والمندد صفة للصوت ، والصوت المندد المبالغ فى النداء . ويروى : « لصوت مندد » بالإضافة وكسر الدال ، والأول هى الرواية الجيدة .

وقال ذو الرمة يصف ثورا تسمع إلى صوت صائد وكلاب :

إذا توجس رِكْزًا مقفِرٌ نَدُسٌ * بنبأة الصوتِ ما في سمعه كذب

أي ما في استماعه كذب ؛ أي هو صادق الاستماع . والنَّدِس الحاذق ؛ يقال : نَدُسٌ ونَدِس ، كما يقال : حَذِر وحَذُر ، ويَقِظ ويَقُظ . والنبأة الصوت الخفي ، وكذلك الرِّكز ، والركاز المال المدفون . والله تعالى أعلم بالصواب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة طه عليه السلام

سورة طـه عليه السلام مكية فى قول الجميع . نزلت قبل إسلام عمر رضى الله عنه .
روى الدارقطنى فى سننه عن أنس بن مالك رضى الله عنـه قال : خرج عمر متقلدا بسيف، فقيل له : إن خَتَنك قـد صبوا[1] فأتاهما عمر وعندهما رجل من المهاجرين يقـال له خَبّاب ، وكانوا يقرءون «طـه» . فقال : أعطونى الكتاب الذى عندكم فأقرؤه — وكان عمر رضى الله عنه يقرأ الكتب — فقالت له أخته : إنك رِجْس ولا يمسه إلا المطهرون، فقم فاغتسل أو توضأ فقام عمر رضى الله عنه وتوضأ وأخذ الكتاب فقرأ « طـه » . وذكره ابن إسحق مطوّلا : فإن عمر خرج متوشحا سـيفه يريد رسول الله صلى الله عليـه وسلم وقتله، فلقيه نعيم ابن عبـد الله، فقال : أين تريد يا عمر؟ فقال : أريد محمدا هـذا الصابئ، الذى فرّق أمر قريش، وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسبّ آلهتها فأقتله . فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا ؟ ! أفلا ترجع إلى أهلك فتقيم أمرهم ؟ ! . فقال : وأى أهل بيتى؟ . قال : خَتَنك وابن عمك سعيد بن زيد، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقـد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه فعليك بهما . قال : فرجع عمر عامدا إلى أخته وخَتَنه، وعندهما خبّاب بن الأَرَتّ معه صحيفة فيها

---

(١) صبأ الرجل : خرج من دين إلى دين آخر .

« طه » يقرئهما إياها، فلما سمعوا حسّ عمر تغيب خبّاب في مخدع لهم أو في بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خبّاب عليهما؛ فلما دخل قال : ما هذه الهينمة (١) التي سمعت ؟ قالا له : ما سمعت شيئا . قال : بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه . وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفّه عن زوجها فضربها فشجها . فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك . ولما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فآرعوى، وقال لأخته : أعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرءونها آنفا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد . وكان عمر كاتبا، فلما قال ذلك قالت له أخته : إنا نخشاك عليها. قال لها : لا تخافي وحلف لها بآلهته ليردنّها إذا قرأها، فلما قال ذلك طمعت في إسلامه، فقالت له : يا أخي إنك نجس على شركك ، وإنه لا يمسها إلا الطاهر . فقام عمر وآغتسل ، فأعطته الصحيفة وفيها « طه » فلما قرأ منها صدرا قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! فلما سمع ذلك خبّاب خرج إليه ، فقال له : يا عمر والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصّك بدعوة نبيه ، فإني سمعته أمس وهو يقول : " اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب " فالله الله يا عمر . فقال له عند ذلك : فدلني يا خبّاب على محمد حتى آتيه فأسلم؛ وذكر الحديث .

مسئلة — أسند الدارمي أبو محمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تبارك وتعالى قرأ « طه » و «يس» قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالت طوبى لأمة ينزل هذا عليها وطوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لألسنة تتكلم بهذا " قال ابن فورك معنى قوله : " إن الله تبارك وتعالى قرأ «طه» و «يس» " أي أظهر وأسمع وأفهم كلامه من أراد من خلقه من الملائكة في ذلك الوقت؛ والعرب تقول : قرأت الشيء إذا تتبعته، وتقول : ما قرأت هذه

---

(١) الهينمة : الكلام الخفي لا يفهم .

الناقة فى رحمها سَلًا قط؛ أى ما ظهر فيها ولد؛ فعلى هذا يكون الكلام سائغا، وقرأته أسمعه وأفهمه بعبارات يخلقها وكتابة يحدثها . وهى معنى قولنا : قرأنا كلام الله ، ومعنى قوله : «فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْآنِ»، «فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ» . ومن أصحابنا من قال معنى قوله : «قرأ» أى تكلم به ، وذلك مجاز كقولهم : ذقت هذا القول ذواقا بمعنى اختبرته . ومنه قوله : «فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ» أى ابتلاهم الله تعالى به، فسمى ذلك ذوقا ، والخوف لا يذاق على الحقيقة؛ لأن الذوق فى الحقيقة بالفم دون غيره من الجوارح . قال ابن فورك : وما قلناه أولا أصح فى تأويل هذا الخبر؛ لأن كلام الله تعالى أزلى قديم سابق لجملة الحوادث ، وإنما أسمعَ وأفهمَ من أراد من خلقه على ما أراد فى الأوقات والأزمنة؛ لا أن عين كلامه يتعلق وجوده بمدة وزمان .

قوله تعالى : طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ طه ﴾ اختلف العلماء فى معناه ؛ فقال الصدّيق رضى الله تعالى عنه : هو من الأسرار ؛ ذكره الغزنوى . ابن عباس : معناه يا رجل؛ ذكره البيهقى . وقيل : إنها لغة معروفة فى عُكْل . وقيل : فى عَكّ؛ قال الكلبى : لو قلت فى عَكّ لرجل يا رجل لم يجب حتى تقول طه . وأنشد الطبرى فى ذلك فقال[1] :

دعوت بطه فى القتال فلم يُجِبْ ۞ فخفتُ عليه أن يكون مُوائلا

(١) هو متمم بن نويرة؛ ووائل : طلب النجاة .

ويروى « مُزَايلا ». وقال عبد الله بن عمرو « يا حبيبي بلغة عك »؛ ذكره الغزنوى . وقال قطرب « هو بلغة طيّئ »؛ وأنشد ليزيد بن المهلهل :

إنّ السّفاهة طَهَ من شمائلكم • لا بارك الله فى القوم الملاعين

وكذلك قال الحسن : معنى « طه » يا رجل . وقاله عكرمة ، وقال : هو بالسريانية كذلك ؛ ذكره المهدوى ، وحكاه الماوردى عن ابن عباس أيضا ومجاهد . وحكى الطبرى : أنه بالنَّبَطية يا رجل . وهذا قول السدى وسعيد بن جبير وابن عباس أيضا ؛ قال :

إن السفاهة طـه من خلائقكم • لا قدّس الله أرواح الملاعين

وقال عكرمة أيضا : هو كقولك يا رجل بلسان الحبشة ؛ ذكره الثعلبي . والصحيح أنها وإن وجدت فى لغة أخرى فإنها من لغة العرب كما ذكرنا ، وأنها لغة يمنية فى عَكّ وطيّء وعُكل أيضا . وقيل : هو اسم من أسماء الله تعالى ، وقَسَمٌ أقسم به . وهذا أيضا مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما . وقيل : هو اسم للنبي صلى الله عليه وسلم سماه الله تعالى به كما سماه محمدا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لى عند ربى عشرة أسماء " فذكر أن فيها طه ويس . وقيل : هو اسم للسورة ، ومفتاح لها . وقيل : إنه اختصار من كلام الله خص الله تعالى رسوله بعلمه . وقيل : إنها حروف مُقطّعة يدل كل حرف منها على معنى ؛ واختلف فى ذلك ؛ فقيل : الطّاء شجرة طوبى ، والهاء النار الهاوية ، والعرب تعبر عن الشيء كله ببعضه ؛ كأنه أقسم بالجنة والنار . وقال سعيد بن جبير : الطاء افتتاح اسمه طاهر وطيب ، والهاء افتتاح اسمه هادى . وقيل : « طاء » يا طامع الشفاعة للأمة ، « هاء » يا هادى الخلق إلى الله . وقيل : الطاء من الطهارة ، والهاء من الهداية ؛ كأنه يقول لنبيه عليه الصلاة والسلام : يا طاهرا من الذنوب ، يا هادى الخلق إلى علام الغيوب . وقيل : الطاء طُبول الغُزاة ، والهاء هيبتهم فى قلوب الكافرين . بيانه قوله تعالى : « سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ » وقوله : « وقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ » . وقيل : الطاء طرب أهل الجنة فى الجنة ، والهاء هوان أهل النار فى النار . وقول سادس : إن معنى « طه » طوبى لمن اهتدى ؛ قاله مجاهد ومحمد بن الحنفية .

وقول سابع : إن معنى « طه » طَإِ الأرض، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتحمل مشقة الصـلاة حتى كادت قدماه تورم، ويحتاج إلى الترويح بين قدميـه، فقيل له : طإِ الأرض؛ أى لا تتعب حتى تحتاج إلى الترويح؛ حكاه ابن الأنبارى . وذكر القاضى عياض فى « الشفاء » أن الربيع بن أنس قال : كان النبي صلى الله عليـه وسلم إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى، فأنزل الله تعـالى « طه » يعنى طَإِ الأرض يا محمـد « مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ » . الزمخشرى : وعن الحسن « طَهْ » وفُسّر بأنه أمر بالوطء، وأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقوم فى تهجده على إحدى رجليه، فأمر أن يطأ الأرض بقدميه معا، وأن الأصل طَأْ فقلبت همزته هاء كما قلبت [ألفا](1) فى « يطا » فيمن قال :

* ... ... لا هَنَاكِ المرتعُ *(2)

ثم بنى عليه هذا الأمر، والهاء للسكت . وقال مجاهد : كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يربطون الحبال فى صدورهم فى الصلاة بالليل من طول القيام، ثم نسخ ذلك بالفرض، فنزلت هذه الآية . وقال الكلبي : لمـا نزل على النبي صلى الله عليه وسلم الوحى بمكة اجتهد فى العبادة، واشتدت عبادته، فجعل يصلى الليل كله زمانا حتى نزلت هذه الآية، فأمره الله تعالى أن يُخفِّف عن نفسه فيصلى وينام، فنسخت هذه الآيةُ قيامَ الليل؛ فكان بعد هذه الآية يصلى وينام . وقال مقاتل والضحاك : فلما نزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم قام هو وأصحابه فصلوا، فقال كفار قريش : ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى؛ فأنزل الله تعالى «طه» يقول: يا رجل «ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى» أى لتتعب؛ على ما يأتى . وعلى هذا القول: إن «طه» [طاها أى](3) طَإِ الأرض؛ فتكون الهاء والألف ضمـير الأرض ، أى طَإِ الأرض برجليـك فى صلواتك، وخُفِّفت الهمزة فصارت ألفا ساكنة . وقرأت طائفة «طَهْ» وأصله طَأْ بمعنى

---

(1) الزيادة من تفسير الزمخشرى . (2) الشعر للفرزدق وتمام البيت :

راحت بمسلمة البغال عشية * فارعى فزارة لا هناك المرتع

قال هـذا حين عزل مسلمة بن عبد الملك عن العراق، ووليها عمر بن هبيرة الفزارى، فهجاهم الفرزدق، ودعا لقومه ألا يهنئوا النعمة بولايته . وأراد ببغال البريد التى قدمت بمسلمة عند عزله . « شواهد سيبويه » .

(3) الزيادة من كتب التفسير .

طَأ الأرض فحذفت الهمزة وأدخلت هاء السكت . وقال زِرّ بن حبيش : قرأ رجل على عبد الله بن مسعود «طَهَ . مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى» فقال له عبد الله : «طِهِ» فقال : يا أبا عبد الرحمن أليس قد أمر أن يطأ الأرض برجله أو بقدميه . فقال : «طِهِ» كذلك أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأمال أبو عمرو وأبو إسحق الهاء وفتحا الطاء . وأمالهما جميعا أبو بكر وحمزة والكسائى والأعمش . وقرأهما أبو جعفر وشيبة ونافع بين اللفظين، واختاره أبو عبيد . الباقون بالتفخيم . قال الثعلبى : وهى كلها لغات صحيحة فصيحة . النحاس : لا وجه للإمالة عند أكثر أهل العربية لعلتين : إحداهما أنهُ ليس ها هنا ياء ولا كسرة فتكون الإمالة ؛ والعلة الأخرى أن الطاء من الحروف الموانع للإمالة ، فهاتان علتان بينتان .

قوله تعالى : ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ وقرئ « مَا نُزِّلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ لِتَشْقَى » . قال النحاس : بعض النحويين يقول هذه لام النفى ، وبعضهم يقول لام الجحود . وقال أبو جعفر : وسمعت أبا الحسن بن كيسان يقول : إنها لام الخفض ، والمعنى ما أنزلنا عليك القرآن للشقاء . والشقاء يمدّ ويقصر . وهو من ذوات الواو . وأصل الشقاء فى اللغة العناء والتعب، أى ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب . قال الشاعر :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله ٭ وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

فمعنى لتشقى «لتتعب» بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم ،وتحسرك على أن يؤمنوا ؛ كقوله تعالى : «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ» أى ما عليك إلا أن تبلغ وتُذكِّر، ولم يُكتب عليك أن يؤمنوا لا محالة بعد أن لم تفرط فى أداء الرسالة والموعظة الحسنة . وروى أن أبا جهل ــ لعنه الله تعالى ــ والنضر بن الحرث قالا للنبى صلى الله عليه وسلم : إنك شقىّ لأنك تركت دين آبائك؛ فأريد ردّ ذلك بأن دين الإسلام وهذا القرآن هو السلم إلى نيل كل فوز، والسبب فى درك كل سعادة ، وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها . وعلى الأقوال المتقدمة أنه عليه الصلاة والسلام صلى بالليل حتى تورمت قدماه؛ فقال له جبريل : أبق على نفسك فإن لها عليك حقا ؛ أى ما أنزلنا عليك القرآن لتنهك نفسك فى العبادة، وتذيقها المشقة الفادحة ، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَن يَخْشَى ﴾ قال أبو إسحق الزجاج : هو بدل من « تشقى » أى ما أنزلناه إلا تذكرة . النحاس : وهذا وجه بعيد، وأنكره أبو على من أجل أن التذكرة ليست بشقاء، وإنما هو منصوب على المصدر، أى أنزلناه لتذكر به تذكرة، أو على المفعول من أجله، أى ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى به، ما أنزلناه إلا للتذكرة . وقال الحسين بن الفضل : فيه تقديم وتأخير، مجازه : ما أنزلنا عليك القرآن إلا تذكرة لمن يخشى، ولئلا تشقى . ﴿ تَنزِيلًا ﴾ مصدر، أى نزلناه تنزيلا . وقيل : بدل من قوله : « تذكرة » . وقرأ أبو حيوة الشامى « تنزيل » بالرفع على معنى هذا تنزيل . ﴿ مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴾ أى العالية الرفيعة، وهى جمع العليا، كقوله : كُبْرى وكُبَر وصُغْرى وصُغَر، أخبر عن عظمته وجبروته وجلاله ثم قال : ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ ويجوز النصب على المدح . قال أبو إسحق : الخفض على البدل . وقال سعيد بن مسعدة : الرفع بمعنى هو الرحمن . النحاس : يجوز الرفع بالابتداء، والخبر « لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » فلا يوقف على « استوى » وعلى البدل من المضمر فى « خلق » فيجوز الوقف على « استوى » . وكذلك إذا كان خبر ابتداء محذوف، ولا يوقف على « العلى » . وقد تقدم القول فى معنى الاستواء « فى الأعراف »(١) . والذى ذهب إليه الشيخ أبو الحسن وغيره أنه مستو على عرشه بغير حد ولا كيف، كما يكون استواء المخلوقين . وقال ابن عباس : يريد خلق ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة وبعد القيامة . ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴾ يريد ما تحت الصخرة التى لا يعلم ما تحتها إلا الله تعالى . وقال محمد بن كعب : يعنى الأرض السابعة . ابن عباس(٢) : الأرض على نون، والنون على البحر، وأن طرفى النون رأسه وذنبه يلتقيان تحت العرش، والبحر على صخرة خضراء خضرة السماء منها، وهى التى قال الله تعالى فيها « فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ »، والصخرة على قرن ثور، والثور على الثرى، وما يعلم ما تحت الثرى إلا الله تعالى . وقال وهب بن منبه : على وجه الأرض سبعة أبحر، والأرضون سبع،

(١) راجع جـ ٧ ص ٢١٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٢) هذه الرواية وما شاكلها رواها عن ابن عباس رواة غير ثقات وقد تكلم العلماء فى هذه الرواية وأمثالها ه

بين كل أرضين بحر، فالبحر الأسفل مطبق على شفير جهنم، ولولا عظمه وكثرة مائه وبرده لأحرقت جهنم كل من عليها . قال : وجهنم على متن الريح، ومتن الريح على حجاب من الظلمة لا يعلم عظمه إلا الله تعالى، وذلك الحجاب على الثرى، وإلى الثرى انتهى علم الخلائق .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ قال ابن عباس : السر ما حدّث به الإنسان غيره فى خفاء، وأخفى منه ما أضمر فى نفسه مما لم يحدّث به غيره . وعنه أيضا : السر حديث نفسك، وأخفى من السر ما ستحدث به نفسك مما لم يكن وهو كائن ؛ أنت تعلم ما تسر به نفسك اليوم، ولا تعلم ما تُسِرّ به غدا، والله يعلم ما أسررت اليوم وما تسرّه غدا ؛ والمعنى : الله يعلم السّر وأخفى من السّر . وقال ابن عباس أيضا : « السر » ما أسر ابن آدم فى نفسه، « وَأَخْفَى » ما خفى على ابن آدم مما هو فاعله وهو لا يعلمه، فالله تعالى يعلم ذلك كله، وعلمه فيما مضى من ذلك وما يستقبل علم واحد، وجميع الخلائق فى علمه كنفس واحدة . وقال قتادة وغيره : « السر » ما أضمره الإنسان فى نفسه، « وأخفى » منه ما لم يكن ولا أضمره أحد . وقال ابن زيد : « السر » من الخلائق، « وأخفى » منه سره عز وجل ؛ وأنكر ذلك الطبرى، وقال : إن الذى « أخفى » ما ليس فى سر الإنسان وسيكون فى نفسه كما قال ابن عباس . ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ « الله » رفع بالابتداء، أو على إضمار مبتدإ، أو على البدل من الضمير فى « يعلم » . وحّد نفسه سبحانه ؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا المشركين إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، فكبر ذلك عليهم، فلما سمعه أبو جهل يذكر الرحمن قال للوليد بن المغيرة : محمد ينهانا أن ندعو مع الله إلها آخر وهو يدعو الله والرحمن ؛ فأنزل الله تعالى « قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ » وهو واحد وأسماؤه كثيرة ؛ ثم قال : « اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ » وقد تقدم التنبيه عليها فى سورة « الأعراف »[1] .

---

(١) ج ٧ ص ٣٢٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ قال أهل المعانى : هو استفهام وإثبات وإيجاب معناه؛ أليس قد أتاك؟ وقيل : معناه وقد أتاك؛ قاله ابن عباس . وقال الكلبي : لم يكن أتاه حديثه بعد ثم أخبره . ﴿ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ قال ابن عباس وغيره : هذا حين قضى الأجل وسار بأهله وهو مقبل من مدين يريد مصر ، وكان قد أخطأ الطريق ، وكان موسى عليه السلام رجلا غيورا ، يصحب الناس بالليل ويفارقهم بالنهار غيرة منه ، لئلا يروا امرأته ؛ فأخطأ الرفقة — لما سبق فى علم الله تعالى — وكانت ليلة مظلمة . وقال مقاتل : وكانت ليلة الجمعة فى الشتاء . وهب بن منبه : استأذن موسى شعيبا فى الرجوع إلى والدته فأذن له فخرج بأهله بغنمه ، وولد له فى الطريق غلام فى ليلة شاتية باردة مثلجة ، وقد حاد عن الطريق وتفرقت ماشيته ، فقدح موسى النار فلم تور المقدحة شيئا ، إذ بصر بنار من بعيد على يسار الطريق ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا ﴾ أى أقيموا بمكانكم ﴿ إِنِّى آنَسْتُ نَارًا ﴾ أى أبصرت . قال ابن عباس : فلما توجه نحو النار فإذا النار فى شجرة عناب ، فوقف متعجبا من حسن ذلك الضوء ، وشدة خضرة تلك الشجرة ، فلا شدة حر النار تغير حسن خضرة الشجرة ، ولا كثرة

ماء الشجرة ولا نعمة الخضرة تغيران حسن ضوء النار . وذكر المهدوى : فرأى النار ـ فيما روى ـ وهى فى شجرة من العُلَّيق، فقصدها فتأخرت عنه، فرجع وأوجس فى نفسه خيفة، ثم دنت منه وكلمه الله عز وجل من الشجرة . الماوردى : كانت عند موسى نارا، وكانت عند الله تعالى نورا . وقرأ حمزة « لِأَهْلِهُ امْكُثُوا » بضم الهاء، وكذا فى « القصص » . قال النحاس وهذا على لغة من قال : مررت بِهُ يارجل، فجاء به على الأصل ، وهو جائز إلا أن حمزة خالف أصله فى هذين الموضعين خاصة . وقال : «امكثوا» ولم يقل أقيموا، لأن الإقامة تقتضى الدوام ، والمكث ليس كذلك . « وآنست » أبصرت، قاله ابن الأعرابى . ومنه قوله : « فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا » أى علمتم . وآنست الصوت سمعته، والقبس شعلة من نار، وكذلك المِقباس . يقال : قبستُ منه نارا أقبس قبسا فأقبسنى أى أعطانى منه قبسا، وكذلك اقتبست منه نارا، واقتبست منه علما أيضا أى استفدته، قال اليزيدى : أقبستُ الرجل علما وقبّسته نارا؛ فإن كنت طلبتها له قلت أقبسته . وقال الكسائى : أقبسته نارا أو علما سواء . وقال : وقبسته أيضا فيهما . « هُدًى » أى هاديا .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا ﴾ يعنى النار ﴿ نُودِيَ ﴾ أى من الشجرة كما فى سورة «القصص» أى من جهتها وناحيتها على ما يأتى ﴿ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ روى الترمذى عن عبدالله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " كان على موسى يوم كلمه ربه كساء صوف وجُبّة صوف وكُمّة صوف وسراويلُ صوف وكانت نعلاه من جلد حمار ميت " قال : هذا حديث غريب لانعرفه إلا من حديث حميد الأعرج [حميد ـ هو ابن على الكوفى[1] ـ] منكر الحديث، وحميد ابن قيس الأعرج المكى صاحب مجاهد ثقة؛ والكمة القلنسوة الصغيرة . وقرأ العامة « إنى » بالكسر؛ أى نودى فقيل له ياموسى إنى، واختاره أبو عبيد . وقرأ أبو عمرو وابن كثير

---

(١) الزيادة من الترمذى .

وابن محيصن وحميـد « وأنّى » بفتح الألف بإعمال النداء . واختلف العلماء في السبب الذى من أجله أمر بخلع النعلين . والخلع النزع . والنعل ما جعلته وقاية لقـدميك من الأرض . فقيل : أمر بطرح النعلين؛ لأنهـا نجسة إذ هى من جلد غير مُـذَكَّى ؛ قاله كعب وعكرمـة وقتادة . وقيل : أمر بذلك لينال بركة الوادى المقـدس، وتمس قدماه تربة الوادى؛ قاله علىّ بن أبى طالب رضى الله عنـه والحسن وابن جريج . وقيـل : أمر بخلع النعلين للخشوع والتواضع عند مناجاة الله تعالى . وكذلك فعل السلف حين طافوا بالبيت . وقيل : إعظاما لذلك الموضع كما أن الحـرَم لا يُدخَل بنعلين إعظاما له . قال سـعيد بن جبير : قيل له طَإِ الأرض حافيا كما تدخل الكعبة حافيا . والعرف عنـد الملوك أن تخلع النعال ويبلغ الإنسان إلى غاية التواضع، فكأن موسى عليه السلام أمر بذلك على هذا الوجه؛ ولا تبالى كانت نعلاه من ميتة أو غيرها . وقد كان مالك لا يرى لنفسه ركوب دابة بالمدينة برا بتربتها المحتوية على الأعظم الشريفـة ، والجثة الكريمة . ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام لبشير بن الخَصَاصِيَة وهو يمشى بين القبور بنعليه : "إذا كنت فى مثل هذا المكان فاخلع نعليك" قال : فخلعتهما . وقول خامس : إن ذلك عبـارة عن تفريغ قلبـه من أمر الأهـل والولد . وقد يعبر عن الأهل بالنعل. وكذلك هو فى التعبير : من رأى أنه لابس نعلين فإنه يتزوج. وقيل : لأن الله تعالى بسـط له بساط النور والهدى ، ولا ينبغى أن يطأ بساط رب العالمين بنعـله . وقد يحتمل أن يكون موسى أُمر بخلع نعليه، وكان ذلك أوّل فرض عليه؛ كما كان أوّل ما قيل لمحمد صلى الله عليه وسلم : « قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّـرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ » والله أعلم بالمراد من ذلك .

الثانيـــة — فى الخبر أن موسى عليه السلام خلع نعليه وألقاهما من وراء الوادى . وقال أبو الأحوص : زار عبـد الله أبا موسى فى داره ، فأقيمت الصلاة فأقام أبو موسى؛ فقال أبو موسى لعبد الله : تقدّم . فقال عبـد الله : تقدّم ، أنت فى دارك . فتقدّم وخلع نعليه ؛ فقال عبدالله : أبالوادى المقدس أنت ؟ ! وفى صحيح مسلم عن سـعيد بن يزيد قال : قلت

لأنس أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فى نعلين؟ قال: نعم. ورواه النسائى عن عبدالله ابن السائب: أن النبيّ صلى الله عليه وسلم صلى يوم الفتح فوضع نعليه عن يساره. وروى أبو داود من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بأصحابه، إذ خلع نعليه، فوضعهما عن يساره، فلما رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة قال: "ما حملكم على إلقائكم نعالكم" قالوا: رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن جبريل أتانى فأخبرنى أن فيهما قذرا" وقال: "إذا جاء أحدكم المسجد فلينظر فإن رأى فى نعليه قذرا أو أذًى فليمسحه وليصلِّ فيهما". صححه أبو محمد عبد الحق. وهو يجمع بين الحديثين قبله، ويرفع بينهما التعارض. ولم يختلف العلماء فى جواز الصلاة فى النعل إذا كانت طاهرة من ذكىّ، حتى لقد قال بعض العلماء: إن الصلاة فيهما أفضل، وهو معنى قوله تعالى: «خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ» على ما تقدم. وقال إبراهيم النخعى فى الذين يخلعون نعالهم: لوددت أن محتاجا جاء فأخذها.

الثالثة ـ فإن خلعتهما فاخلعهما بين رجليك؛ فإن أبا هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا صلى أحدكم فليخلع نعليه بين رجليه". وقال أبو هريرة للمقبرى: اخلعهما بين رجليك ولا تُؤذِ بهما مسلما. وما رواه عبد الله بن السائب رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام خلعهما عن يساره فإنه كان إماما، فإن كنت إماما أو وحدك فافعل ذلك إن أحببت، وإن كنت مأموما فى الصف فلا تُؤذِ بهما من على يسارك، ولا تضعهما بين قدميك فتشغلاك، ولكن قدام قدميك. وروى عن جُبير بن مطعم أنه قال: وضع الرجل نعليه بين قدميه بدعة.

الرابعة ـ فإن تحقق فيهما نجاسة مُجمع على تنجيسها كالدم والعذرة من بول بنى آدم لم يطهّرها إلا الغسل بالماء، عند مالك والشافعى وأكثر العلماء، وإن كانت النجاسة مختلفا فيها كبول الدواب وأرواثها الرطبة فهل يطهّرها المسح بالتراب من النعل والخفّ أولا؟ قولان عندنا. وأطلق الإجزاء بمسح ذلك بالتراب من غير تفصيل الأوزاعىّ وأبو ثور. وقال

أبو حنيفة : يزيله إذا يبس الحك والفرك ، ولا يزيل رطبه إلا الغسل ماعدا البول ، فلا يجزئ فيه عنده إلا الغسل . وقال الشافعي : لا يطهّر شيئا من ذلك كله إلا الماء . والصحيح قول من قال : إن المسح يطهّره من الخف والنعل ؛ لحديث أبي سعيد . فأما لو كانت النعل والخف من جلد ميتة فإن كان غير مدبوغ فهو نجس باتفاق ، ما عدا ما ذهب إليه الزهري والليث ، على ما تقدّم بيانه في سورة « النحل »[1] . ومضى في سورة « براءة »[2] القول في إزالة النجاسة والحمد لله .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ المقدس : المطهر . والقُدْس : الطهارة ، والأرض المقدسة أي المطهرة ؛ سميت بذلك لأن الله تعالى أخرج منها الكافرين وعمرها بالمؤمنين . وقد جعل الله تعالى لبعض الأماكن زيادة فضل على بعض ؛ كما قد جعل لبعض الأزمان زيادة فضل على بعض ، ولبعض الحيوان كذلك . ولله أن يفضل ما شاء . وعلى هذا فلا اعتبار بكونه مقدسا بإخراج الكافرين وإسكان المؤمنين ؛ فقد شاركه في ذلك غيره . و « طُوًى » اسم الوادي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وقال الضحاك : هو واد عميق مستدير مثل الطَّوِيّ . وقرأ عكرمة « طِوًى » . الباقون « طُوًى » . قال الجوهري : « طوى » اسم موضع بالشام ، تكسر طاؤه وتضم ، ويصرف ولا يصرف ، فمن صرفه جعله اسم واد ومكان وجعله نكرة ، ومن لم يصرفه جعله بلدة وبقعة وجعله معرفة . وقال بعضهم : « طُوًى » مثل « طِوًى » وهو الشيء المَثْنِيّ ، وقالوا في قوله « المُقَدَّسِ طُوًى » : طُوِيَ مرتين أي قُدِّس . وقال الحسن : ثُنِّيَتْ فيه البركة والتقديس مرتين . وذكر المهدوي عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه قيل له « طوى » لأن موسى طواه بالليل إذ مرّ به فارتفع إلى أعلى الوادي ؛ فهو مصدر عمل فيه ما ليس من لفظه ، فكأنه قال : « إنك بالواد المقدس » الذي طويته طوى ؛ أي تجاوزته فطويته بسيرك . الحسن : معناه أنه قدّس مرتين ؛ فهو مصدر من طويته طويا أيضا .

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٥٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ٨ ص ٢٦٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ ﴾ أي اصطفيتك للرسالة . وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو وعاصم والكسائي « وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ » . وقرأ حمزة « وَأَنَّا ٱخْتَرْنَاكَ » . والمعنى واحد؛ إلا أن « وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ » هاهنا أولى من جهتين : إحداهما أنها أشبه بالخط، والثانية أنها أولى بنسق الكلام؛ لقوله عز وجل : « يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ » وعلى هذا النسق جرت المخاطبة؛ قاله النحاس .

قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾ فيه مسئلة واحدة ـ قال ابن عطية : وحدثني أبي ـ رحمه الله ـ قال سمعت أبا الفضل الجوهري رحمه الله تعالى يقول : لما قيل لموسى صلوات الله وسلامه عليه : « ٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ » وقف على حجر، واستند إلى حجر، ووضع يمينه على شماله، وألقى ذقنه على صدره، ووقف يستمع، وكان كل لباسه صوفا .

قلت : حسن الاستماع كما يجب قد مدح الله عليه فقال : « الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ » وذم على خلاف هذا الوصف فقال : « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ » الآية . فمدح المنصت لاستماع كلامه مع حضور العقل، وأمر عباده بذلك أدبا لهم، فقال : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » وقال هاهنا : « فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ » لأن بذلك ينال الفهم عن الله تعالى . روى عن وهب بن منبه أنه قال : من أدب الاستماع سكون الجوارح وغض البصر، والإصغاء بالسمع ، وحضور العقل، والعزم على العمل، وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى؛ وهو أن يكف العبد جوارحه، ولا يشغلها . فيشتغل قلبه عما يسمع، ويغض طرفه فلا يلهو قلبه بما يرى، ويحصر عقله فلا يحدث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه، ويعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم . وقال سفيان بن عيينة : أول العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر؛ فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام بنية صادقة على ما يحب الله أفهمه كما يحب، وجعل له في قلبه نورا .

قوله تعالى : ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى — اختلف في تأويل قوله : « لِذِكْرِي » فقيل : يحتمل أن يريد لتذكرني فيها ، أو يريد لأذكرك بالمدح في عليين بها ؛ فالمصدر على هـذا يحتمل الإضافة إلى الفاعل وإلى المفعول . وقيل : المعنى ؛ أي حافظ بعد التوحيد على الصلاة . وهذا تنبيه على عظم قدر الصلاة إذ هي تضرع إلى الله تعالى ، وقيام بين يديه ؛ وعلى هـذا فالصلاة هي الذكر . وقد سمى الله تعالى الصلاة ذكرا في قوله : « فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ » . وقيل : المراد إذا نسيت فتذكرت فصلّ كما في الخبر " فليصلّها إذا ذكرها " . أي لا تسقط الصلاة بالنسيان .

الثانيـــة — روى مالك وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من نام عن صلاة أو نسـيها فليصلّها إذا ذكرها فإن الله عز وجل يقول « أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي » " . وروى أبو محمد عبد الغني بن سعيد من حديث حجاج بن حجاج — وهو حجاج الأول الذي روى عنه يزيد بن زُرَيع — قال حدثنا قتادة عن أنس بن مالك قال : سئل رسـول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يرقد عن الصلاة ويغفل عنها قال : "كفارتها أن يصليها إذا ذكرها " تابعه إبراهيم بن طَهْمان عن حجـاج ، وكذا روى همام بن يحيى عن قتادة . وروى الدارقطنيّ عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من نسي صلاة فوقتها إذا ذكرها " فقوله : " فليصلّها إذا ذكرها " دليل على وجوب القضاء على النائم والغافل ، كثرت الصلاة أو قلّت ، وهو مذهب عامة العلماء . وقد حكى خلاف شاذ لا يعتد به ، لأنه مخالف لنص الحديث عن بعض الناس فيما زاد على خمس صلوات أنه لا يلزمه قضاء .

قلت : أمر الله تعـالى بإقامة الصلاة ، ونص على أوقات معينة ، فقال : « أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ » الآية وغيرها من الآي . ومن أقام بالليل ما أمر بإقامته بالنهار ، أو بالعكس لم يكن فعله مطابقا لمـا أمر به ، ولا ثواب له على فعـله وهو عاص ؛ وعلى هـذا الحد كان لا يجب عليه قضاء ما فات وقته . ولولا قوله عليـه الصلاة والسلام : " من نام عن صلاة أو نسيها فليصلّها إذا ذكرها " لم ينتفع أحد بصلاة وقعت في غير وقتها ، وبهذا الاعتبار كان قضاء لا أداء ؛ لأن القضاء بأمر متجدّد وليس بالأمر الأول .

الثالثــة ــ فأما من ترك الصلاة متعمدا ، فالجمهور أيضا على وجوب القضاء عليه ، وإن كان عاصيا إلا داود . ووافقه أبو عبد الرحمن الأشعرى الشافعى ،حكاه عنه ابن القصّار . والفرق بين المتعمد والناسى والنائم ، حط المأثم ، فالمتعمد مأثوم وجميعهم قاضون . والحجة للجمهور قوله تعالى : « أَقِيمُوا الصَّلَاةَ » ولم يفرق بين أن يكون فى وقتها أو بعدها . وهو أمر يقتضى الوجوب . وأيضا فقد ثبت الأمر بقضاء النائم والناسى ،مع أنهما غير مأثومين ، فالعامد أولى . وأيضا قوله : "من نام عن صلاة أو نسيها" والنسيان الترك ،قال الله تعالى: « نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ » و « نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ » سواء كان مع ذهول أو لم يكن ؛ لأن الله تعالى لا يَنْسَى وإنما معناه تركهم و « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا » أى نتركها . وكذلك الذكر يكون بعد نسيان وبعد غيره . قال الله تعالى : «من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى» وهو تعالى لاينسى وإنما معناه علمت . فكذلك يكون معنى قوله : " إذا ذكرها " أى علمها . وأيضا فإن الديون التى للآدميين إذا كانت متعلقة بوقت ،ثم جاء الوقت لم يسقط قضاؤها بعد وجوبها ،وهى مما يسقطها الإبراء كان فى ديون الله تعالى الايصح فيها الإبراء أولى ألا يسقط قضاؤها إلا بإذن منه . وأيضا فقد اتفقنا أنه لو ترك يوما من رمضان متعمدا بغير عذر لوجب قضاؤه فكذلك الصلاة . فإن قيل فقد روى عن مالك : من ترك الصلاة متعمدا لا يقضى أبدا . فالإشارة إلى أن ما مضى لا يعود ، أو يكون كلاما خرج على التغليظ ، كما روى عن ابن مسعود وعلىّ : أن من أفطر فى رمضان عامدا لم يكفّره صيام الدهر وإن صامه . ومع هذا فلا بد من توفية التكليف حقه بإقامة القضاء مقام الأداء ، أو إتباعه بالتوبة ، ويفعل الله بعد ذلك مايشاء . وقد روى أبو المطَوّس عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من أفطر يوما من رمضان متعمدا لم يجزه صيام الدهر وإن صامه" وهذا يحتمل أن لو صح كان معناه التغليظ ؛ وهو حديث ضعيف خرجه أبو داود . وقد جاءت الكفارة بأحاديث صحاح ، وفى بعضها قضاء اليوم ، والحمد لله تعالى .

الرابعــة ــ قوله عليه الصلاة والسلام : "من نام عن صلاة أو نسيها" الحديث ، يخصص عموم قوله عليه الصلاة والسلام : "رفع القلم عن ثلاثة عن النائم حتى يستيقظ" والمراد بالرفع

هنا رفع المأثم لا رفع الفرض عنه ، وليس هـذا من باب قوله : "وعن الصبي حتى يحتلم" وإن كان ذلك جاء في أثر واحد، فقف على هذا الأصل .

الخامسة — اختلف العلماء في هذا المعنى فيمن ذكر صلاة فائتة وهو في آخر وقت صلاة، أو ذكر صلاة وهو في صلاة، فجملة مذهب مالك : أن من ذكر صلاة وقد حضر وقت صلاة أخرى، بدأ بالتي نسي إذا كان خمس صلوات فأدنى، وإن فات وقت هذه . وإن كان أكثر من ذلك بدأ بالتي حضر وقتها، وعلى نحو هـذا مذهب أبي حنيفة والثوري والليث ؛ إلا أن أبا حنيفة وأصحابه قالوا : الترتيب عندنا واجب في اليوم والليلة إذا كان في الوقت سعة للفائتة ولصلاة الوقت . فإن خشي فوات الوقت بدأ بها، فإن زاد على صلاة يوم وليلة لم يجب الترتيب عندهم . وقد روى عن الثوري وجوب الترتيب ، ولم يفرق بين القليل والكثير . وهو تحصيل مذهب الشافعي . قال الشافعي : الاختيار أن يبدأ بالفائتة ما لم يخف فوات هذه ، فإن لم يفعل وبدأ بصلاة الوقت أجزأه . وذكر الأثرم أن الترتيب عند أحمد واجب في صلاة ستين سنة فأكثر . وقال : لا ينبغي لأحد أن يصلي صلاة وهو ذاكر لما قبلها لأنها تفسد عليه . وروى الدَّارَقُطْني عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال قال عليه الصلاة والسلام : "إذا ذكر أحدكم صلاة في صلاة مكتوبة فليبدأ بالتي هو فيها فإذا فرغ منها صلى التي نسي" وعمر بن أبي عمر مجهول[1] .

قلت : وهذا لو صح كانت حجة للشافعي في البداءة بصلاة الوقت . والصحيح ما رواه أهل الصحيح عن جابر بن عبد الله : أن عمر يوم الخندق جعل يسب كفار قريش ، وقال : يا رسول الله والله ما كدت أن أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فوالله إنْ[2] صَلَّيْتُها" فنزلنا البطحان[3] فتوضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوضأنا فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العصر بعد ما غربت الشمس ، ثم صلى بعدها

---

(١) عمر بن أبي عمر : هو أحد رواة هـذا الحديث عن مكحول عن ابن عباس . ولفظ الحديث في الدارقطني هكذا : "إذا نسي أحدكم الصلاة فذكرها وهو في صلاة مكتوبة فليبدأ بالتي هو فيها فإذا فرغ منها صلى التي نسي" .

(٢) إن نافية ؛ أي ما صليتها . (٣) بطحان (بالضم أو الصواب الفتح وكسر الطاء) : موضع بالمدينة .

المغرب . وهذا نصٌّ فى البداءة بالفائتة قبل الحاضرة ، ولا سيما والمغرب وقتها واحد مضيّق غير ممتد فى الأشهر عندنا ، وعند الشافعى كما تقدم . وروى الترمذى عن أبى عبيدة بن عبد الله ابن مسعود عن أبيه : أن المشركين شغلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أربع صلوات يوم الخندق، حتى ذهب من الليل ماشاء الله تعالى، فأمر بالأذان بلالا فقام فاذن، ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ثم أقام فصلى المغرب؛ ثم أقام فصلى العشاء . وبهـذا استدل العلماء على أن من فاتته صلاة، قضاها مرتبة كما فاتته إذا ذكرها فى وقت واحد . واختلفوا إذا ذكر فائتـة فى مضيّق وقت حاضرة على ثلاثة أقوال : يبـدأ بالفائتة وإن خرج وقت الحاضرة، وبه قال مالك والليث والزهرى وغيرهم كما قدّمناه . الثانى ـــ يبدأ بالحاضرة وبه قال الحسن والشافعى وفقهاء أصحاب الحديث والمحاسبي وابن وهب من أصحابنا . الثالث ـــ يتخير فيقدم أيتهما شاء، وبه قال أشهب .

وجه الأول : كثرة الصلوات ولا خلاف أنه يبدأ بالحاضرة مع الكثرة؛ قاله القـاضى عياض . واختلفوا فى مقدار اليسير؛ فعن مالك : الخمس فدون، وقد قيـل : الأربع فدون لحديث جابر؛ ولم يختلف المذهب أن الست كثير .

السادســـة ـــ وأما من ذكر صلاة وهو فى صلاة ؛ فإن كان وراء الإمام فكل من قال بوجوب الترتيب ومن لم يقل به، يتمادى مع الإمام حتى يكمل صـلاته . والأصل فى هـذا ما رواه مالك والدارقطنى عن ابن عمر قال : " إذا نسى أحدكم صـلاة فلم يذكرها إلا وهو مع الإمام فليصل مع الإمام فإذا فرغ من صلاته فليصلّ الصلاة التى نسى ثم ليعد صلاته التى صلّى مع الإمام " لفظ الدارقطنى؛ وقال موسى بن هرون : وحدثناه أبو إبراهيم التَّرْجُمانىّ، قال : حدثنا سعيد [به][1] ورفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم ووهم فى رفعه ، فإن كان قد رجع عن رفعـه فقد وفق للصواب . ثم اختلفوا؛ فقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل : يصـلى التى ذكر، ثم يصلى التى صلى مع الإمام إلا أن يكون بينهما أكثر من خمس صلوات ؛ على ما قدمنا ذكره عن الكوفيين . وهـو مذهب جماعة من أصحاب مالك المدنيين . وذكر الخِرَقى[2] عن

(١) الزيادة من الدارقطنى . (٢) هذه النسبة لمن يبيع الخرق والثياب .

أحمد بن حنبل أنه قال : من ذكر صلاة وهو فى أخرى فإنه يتمها ويقضى المذكورة، وأعاد التى كان فيها إذا كان الوقت واسعا ، فإن خشى خروج الوقت وهو فيها أعتقد ألّا يعيدها ، وقد أجزأته ويقضى التى عليه . وقال مالك : من ذكر صلاة وهو فى صلاة قد صلى منها ركعتين سلّم من ركعتيه، فإن كان إماما انهدمت عليه وعلى من خلفه وبطلت . هذا هو الظاهر من مذهب مالك، وليس عند أهل النظر من أصحابه كذلك؛ لأن قوله فيمن ذكر صلاة فى صلاة قد صلى منها ركعة أنه يضيف إليها أخرى ويسلّم . ولو ذكرها فى صلاة قد صلى منها ثلاث ركعات أضاف إليها رابعة وسلّم، وصارت نافلة غير فاسدة ولو انهدمت عليه كما ذكرو بطلت لم يؤمر أن يضيف إليها أخرى، كما لو أحدث بعد ركعة لم يضف إليها أخرى .

السابعة — روى مسلم عن أبى قتادة قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر حديث الميضأة بطوله ، وقال فيه ثم قال : " أَمَا لكم فىّ أُسوة " ثم قال : " أَمَا إنه ليس فى النوم تفريط إنما التفريط على من لم يصلّ الصلاة حتى يجيء وقت الصلاة الأخرى فمن فعل ذلك فليصلها حين ينتبه لها فإذا كان الغد فليصلها عند وقتها " وأخرجه الدارقطنى هكذا بلفظ مسلم سواء، فظاهره يقتضى إعادة المقضية مرتين عند ذكرها وحضور مثلها من الوقت الآتى ؛ ويعضد هذا الظاهر ما خرجه أبو داود من حديث عمران بن حُصَين، وذكر القصة وقال فى آخرها : "فمن أدرك منكم صلاة الغَداة من غدٍ صالحا فليقض معها مثلها".

قلت : وهذا ليس على ظاهره، ولا تعاد غير مرة واحدة، لما رواه الدارقطنى عن عِمران ابن حصين قال : سرينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غَزاة — أو قال فى سرِيّة — فلما كان وقت السحر عَرّسْنا، فما استيقظنا حتى أيقظنا حرُّ الشمس ، فجعل الرجل منا يَثِب فَزِعا دَهِشا، فلما استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا فارتحلنا، ثم سرنا حتى ارتفعتْ الشمس، فقضى القوم حوائجهم، ثم أمر بلالا فأذن فصلينا ركعتين، ثم أمره فأقام فصلينا الغداة، فقلنا : يا نبى الله ألا نقضيها لوقتها من الغد ؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم " أينهاكم الله عن الربا و يقبله منكم ". وقال الخطّابى : لا أعلم أحدا قال بهذا وجوبا، ويشبه

أن يكون الأمر به استحبابا ليحرز فضيلة الوقت فى القضاء. والصحيح ترك العمل لقوله عليه السلام : " أينهاكم الله عن الربا و يقبله منكم " ولأن الطرق الصحاح من حديث عمران بن حُصَين ليس فيها من تلك الزيادة شيء، إلا ما ذكر من حديث أبى قتادة وهو محتمل كما بيناه .

قلت : ذكر الكيا الطبرى فى « أحكام القرآن » له أن من السلف من خالف قوله عليه الصلاة والسلام : " من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك " فقال : يصبر إلى مثل وقته فليصل ؛ فإذا فات الصبح فليصل من الغد . وهذا قول بعيد شاذ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ آية مشكلة ؛ فروى عن سعيد بن جبير أنه قرأ « أَكَادُ أَخْفِيهَا » بفتح الهمزة ؛ قال : أظهرها . « لِتُجْزَى » أى الإظهار للجزاء؛ رواه أبو عبيد عن الكسائى عن محمد بن سهل عن وِقاء بن إياس عن سعيد ابن جبير . وقال النحاس : وليس لهذه الرواية طريق غير هذا .

قلت : وكذا رواه أبو بكر الأنبارى فى كتاب الرد ؛ حدثنى أبى حدثنا محمد بن الجهم حدثنا الفراء حدثنا الكسائى؛ ح ــ وحدثنا عبد الله بن ناجية، حدثنا يوسف حدثنا يحيى الحمانى حدثنا محمد بن سهل . قال النحاس ؛ وأجود من هذا الإسناد ما رواه يحيى القطان عن الثورى عن عطاء بن السائب عن سعيد عن جبير : أنه قرأ « أَكَادُ أُخْفِيهَا » بضم الهمزة .

قلت : وأما قراءة ابن جبير « أَخْفِيهَا » بفتح الهمزة بالإسناد المذكور فقال أبو بكر الأنبارى قال الفراء : معناه أظهرها من خفيت الشيء أخفيه إذا أظهرته . وأنشد الفراء لامرئ القيس :

فإنْ تدفنُوا الدَّاءَ لانَخْفِه * وإنْ تبعثُوا الحربَ لا نَقعُد

أراد لا نظهره؛ وقد قال بعض اللغويين : يجوز أن يكون « أُخْفِيهَا » بضم الهمزة معناه أظهرها لأنه يقال : أَخفيتُ الشيء وأَخفيته إذا أظهرته ؛ فأخفيته من حروف الأضداد يقع على الستر والإظهار . وقال أبو عبيدة : خَفيت وأَخفيت بمعنى واحد . النحاس : وهذا حسن؛ وقد

حكاه عن أبي الخطّاب[1] وهو رئيس من رؤساء اللغة لا يشك في صدقه ؛ وقد روى عنه سيبويه وأنشد :

وإنْ تكتُموا الداءَ لا نُخفِه * وإنْ تَبعثُوا الحربَ لا نَقعُد

كذا رواه أبو عبيدة عن أبي الخطاب بضم النون . وقال امرؤ القيس أيضا :

خَفَاهنَّ من أنفاقِهنَّ كأنّما * خفاهنَّ وَدْقٌ من عَشِيّ مُجلِّبِ[2]

أي أظهرهن . وروى : « من سحاب مركّب » بدل « من عشيّ مجلّب » . وقال أبو بكر الأنباري : وتفسير للآية آخر : « إن الساعة آتية أكاد » انقطع الكلام على « أكاد » وبعده مضمر أكاد آتي بها ، والابتداء « أُخفيها لِتُجْزَى كُلُّ نَفْس » . قال ضابئُ البُرْجميّ[3] :

هَمَمْتُ ولم أفعلْ وكِدتُ وليتَني * تَركْتُ على عثمانَ تَبكي حَلَائلُهْ

أراد وكدت أفعل ، فأضمر مع كدت فعلا كالفعل المضمر معه في القرآن .

قلت : هذا الذي اختاره النحاس ، وزيف القول الذي قبله فقال يقال : خَفَى الشيءَ يخفيه إذا أظهره ، وقد حكى أنه يقال : أخفاه أيضا إذا أظهره ، وليس بالمعروف ؛ قال : وقد رأيت علي بن سليمان لما أشكل عليه معنى « أُخْفِيها » عدل إلى هذا القول ، وقال : معناه كمعنى « أَخْفِيها » . قال النحاس : ليس المعنى على أظهرها ولا سيما و « أَخْفِيها » قراءة شاذة ، فكيف تردّ القراءة الصحيحة الشائعة إلى الشاذة ، ومعنى المضمر أولى ؛ ويكون التقدير : إن الساعة آتية أكاد آتي بها ؛ ودل « آتية » على آتي بها ؛ ثم قال : « أُخْفِيها » على الابتداء . وهذا معنى صحيح ؛ لأن الله عز وجل قد أخفى الساعة التي هي القيامة ، والساعة التي يموت فيها الإنسان ليكون الإنسان يعمل ، والأمر عنده مبهم ، فلا يؤخر التوبة .

---

(١) هو الأخفش الأكبر عبد الحميد بن عبد المجيد . (٢) خفاهن : أظهرهن . والأنفاق (جمع نفق) : وهو الجحر . والودق : المطر . والمجلب : الذي له جلبة . وقبله :

ترى الفأر في مستنقع القاع لاحبا * على جدد الصحراء من شد ملهب

يقول : وقع حوافر الفرس على الأرض أخرج الفأر من جحرتها لأنه ظنه مطرا .

(٣) قاله وهو محبوس ؛ حبسه سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه لهجائه بعض بني جرول بن نهشل ؛ ولم يزل في حبسه إلى أن مات .

قلت : وعلى هذا القول تكون اللام في « لتجزى » متعلقة بـ« أخفيها » . وقال أبو علي : هذا من باب السلب وليس من باب الأضداد، ومعنى « أُخفيها » أزيل عنها خفاءها، وهو سترها كخفاء الأخفية [وهي الأكسية] والواحد خفاء بكسر الخاء [ما تلف به[1]] القربة ، و إذا زال عنها سترها ظهرت . ومن هذا قولهم : أشكيته، أي ازلت شكواه، وأعديته أي قبلت استعداءه ولم أحوجه إلى إعادته . وحكى أبو حاتم عن الأخفش : أن« كاد» زائدة مؤكدة . قال : ومثله « إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا » لأن الظلمات التي ذكرها الله تعالى بعضها يحول بين الناظر والمنظور إليه . وروى معناه عن ابن جبير، والتقدير : إن الساعة آتيـة أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . وقال الشاعر[2] :

سريعٌ إلى الهيجاء شاكٍ سِلاحُهُ ٭ فما إنْ يَكادُ قِـرْنُهُ يَتنفَّسُ

أراد فما يتنفَّس . وقال آخر :

وألَّا ألوم النفسَ فيما أصابني ٭ وألَّا أكاد بالذى نِلتُ أنجحُ

معناه : وألا أنجح بالذى نلت ؛ فأكاد توكيد للكلام . وقيل : المعنى « أَكَادُ أُخْفِيهَا » أى أقارب ذلك ؛ لأنك إذا قلت : كاد زيد يقـوم ، جاز أن يكون قام ، وأن يكون لم يقم . ودل على أنه قد أخفاها بدلالة غير هذه على هذا الجواب . قال اللغويون : كدت أفعل معناه عند العرب: قاربت الفعل ولم أفعل ،وما كدت أفعل معناه: فعلت بعد إبطاء . وشاهده قول الله عزت عظمته «فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ» معناه : وفعلوا بعد إبطاء لتعذر وجدان البقرة عليهم . وقد يكون ما كدت أفعل بمعنى ما فعلت ولا قاربت إذا أكد الكلام بأكاد . وقيل : معنى « أَكَادُ أُخفِيها » أريد أخفيها . قال الأنبارى : وشاهد هذا قول الفصيح من الشعر :

كادتْ وكِدتُ وتلكَ خـيرُ إرادةٍ ٭ لو عادَ من لَهْـوِ الصَّبابةِ ما مَضَى

معناه : أرادت وأردت . وقال ابن عبـاس وأكثر المفسرين فيما ذكر الثعلبي : إن المعنى أكاد أخفيها من نفسي ؛ وكذلك هو في مصحف أبيّ . وفي مصحف ابن مسعود : أكاد

(١) الزيادة من كتب اللغة . (٢) هو زيد الخيل .

أخفيها من نفسى فكيف يعلمها مخلوق . وفى بعض القراءات : فكيف أظهرها لكم . وهو محمول على أنه جاء على ما جرت به عادة العرب فى كلامها، من أن أحدهم إذا بالغ فى كتمان الشيء قال : كدت أخفيه من نفسى . والله تعالى لا يخفى عليه شيء ؛ قال معناه قطرب وغيره . وقال الشاعر :

أيامَ تَصحبنى هند وأخبرُها ◦ ما أكتم النفسَ من حاجى وأسرارِى

فكيف يخبرها بما تكتم نفسه . ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم : "ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه" الزمخشرى وقيل معناه : أكاد أخفيها من نفسى؛ ولا دليل فى الكلام على هذا المحذوف، ومحذوف لا دليل عليه مُطَّرح، والذى غرهم منه أن فى مصحف أبىّ : أكاد أخفيها من نفسى ؛ وفى بعض المصاحف : أكاد أخفيها من نفسى فكيف أظهركم عليها .

قلت : وقيل إن معنى قول من قال أكاد أخفيها من نفسى ؛ أى إن إخفاءها كان من قِبَلى ومن عندى لا من قِبَل غيرى . وروى عن ابن عباس أيضا : أكاد أخفيها من نفسى؛ ورواه طلحة بن عمرو عن عطاء . وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : لا أظهر عليها أحدا . وروى عن سعيد بن جبير قال : قد أخفاها . وهذا على أن كاد زائدة . أى إن الساعة آتية أخفيها، والفائدة فى إخفائها التخويف والتهويل . وقيل : تعلق «لتجزى» بقوله تعالى : « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ » فيكون فى الكلام تقديم وتأخير؛ أى أقم الصلاة لتذكرنى « لِتجزى كل نفس بما تسعى » أى بسعيها « إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا » . والله أعلم . وقيل : هى متعلقة بقوله : « آتية » أى إن الساعة آتية لتجزى . ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا ﴾ أى لا يصرفنك عن الإيمان بها والتصديق لها ﴿ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ . ﴿ فَتَرْدَى ﴾ أى فتهلك . وهو فى موضع نصب بجواب النهى .

قوله تعالى : وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ﴾ قيل : كان هذا الخطاب من الله تعالى لموسى وحيا؛ لأنه قال : « فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى » ولابد للنبي في نفسه من معجزة يعلم بها صحة نبوّة نفسه ، فأراه في العصا وفي نفسه ما أراه لذلك . ويجوز أن يكون ما أراه في الشجرة آية كافية له في نفسه ، ثم تكون اليد والعصا زيادة توكيد ، وبرهانا يلقى به قومه . واختلف في «ما» في قوله : « وَمَا تِلْكَ » فقال الزجاج والفراء : هي اسم ناقص وصلت بـ « بيمينك » أي ما التي بيمينك؟ وقال أيضا : «تلك» بمعنى هذه؛ ولو قال : ما ذلك لجاز؛ أي ما ذلك الشيء ؛ ومقصود السؤال تقرير الأمر حتى يقول موسى : هي عصاي؛ ليثبت الحجة عليه بعد ما اعترف ، وإلا فقد علم الله ما هي في الأزل . وقال ابن الجوهري : وفي بعض الآثار أن الله تعالى عتب على موسى إضافة العصا إلى نفسه في ذلك الموطن؛ فقيل له : ألقها لترى منها العجب فتعلم أنه لا ملك لك عليها ولا تضاف إليك . وقرأ ابن أبي إسحق «عَصَيّ» على لغة هذيل؛ ومثله «يَابُشْرَيَّ» و «مَحْيَيَّ» وقد تقدّم . وقرأ الحسن «عَصَايِ» بكسر الياء لالتقاء الساكنين . ومثل هذا قراءة حمزة «وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيِّ» . وعن ابن أبي إسحق سكون الياء .

الثانية ـ في هذه الآية دليل على جواب السؤال بأكثر مما سئل ؛ لأنه لما قال : « وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى » ذكر معاني أربعة : وهي : إضافة العصا إليه ، وكان حقه أن يقول عصا ؛ والتوكؤ ، والهش ، والمآرب المطلقة . فذكر موسى من منافع عصاه عُظْمها وجمهورها وأجمل سائر ذلك . وفي الحديث سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ماء البحر فقال: "هو الطَّهورُ ماؤه الحِلُّ مَيتته" . وسألته امرأة عن الصغير حين رفعته إليه فقالت : ألهذا حج ؟ قال "نعم ولك أجر" . ومثله في الحديث كثير .

الثالثة ـ قوله تعالى : ﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ﴾ أي أتحامل عليها في المشي والوقوف؛ ومنه الاتكاء . ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا ﴾ «وأَهِشُّ» أيضا؛ ذكره النحاس . وهي قراءة النخعي[1] ؛ أي أخبط بها

(١) وروى عن النخعي أيضا أنه قرأ « وأهش » بضم الهمزة والشين من «أهش» رباعيا .

الورق، أي أضرب أغصان الشجر ليسقط ورقها، فيسهل على غنمي تناوله فتأكله .
قال الراجز :

أَهُشُّ بالعَصَا على أَغْنَامي * من ناعِمِ الأَراكِ والبَشَامِ

يقال : هَشَّ على غنمه يَهُشُّ بضم الهاء في المستقبل . وهشَّ إلى الرجل يَهَش بالفتح .
وكذلك هشّ للمعروف يَهَش وهشِشت أنا ؛ وفي حديث عمر : هشِشْت يوما فقبّلت وأنا صائم .
قال شِمْر : أي فرحتِ وٱشتهيت . قال : ويجوز هَاشَ بمعنى هَشَّ . قال الراعي :

فكبّر للرؤيا وهَاشَ فؤادُهُ * وبَشّر نفسًا كان قبل يَلُومها

أي طَرِب . والأصل في الكلمة الرِّخاوة . يقال : رجل هَشّ وزوج هَشّ . وقرأ
عكرمة «وأَهُسُّ» بالسين غير معجمة ؛ قيل : هما لغتان بمعنى واحد . وقيل : معناهما مختلف ؛
فالهشّ بالإعجام خبط الشجر ، والهس بغير إعجام زَجْر الغنم ؛ ذكره الماوردي ؛ وكذلك ذكر
الزمخشري . وعن عكرمة : « وأَهُسُّ » بالسين أي أنحى عليها زاجرا لها والهَسّ زَجْر الغنم .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ أي حوائج . واحدها مأْرُبة ومأْرَبة
ومأْرِبة . وقال : «أخرى» على صيغة الواحد ؛ لأن مآرب في معنى الجماعة ، لكن المَهْيَع[(1)] في توابع
جمع ما لا يعقل الإفراد والكناية عنه بذلك ؛ فإن ذلك يجري مجرى الواحدة المؤنثة ؛ كقوله
تعالى : « وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا » وكقوله : « يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ » وقد تقدّم هذا
في « الأعراف »[(2)] .

الخامسة — تعرض قوم لتعديد منافع العصا منهم ابن عباس ، قال : إذا انتهيت
إلى رأس بئر فقصُر الرِّشا وصلته بالعصا ، وإذا أصابني حر الشمس غرزتها في الأرض
وألقيت عليها ما يظلني ، وإذا خفت شيئا من هوام الأرض قتلته بها ، وإذا مشيت ألقيتها
على عاتقي وعلقت عليها القوس والكنانة والمخلاة ، وأقاتل بها السباع عن الغنم .

---

(1) المهيع : الطريق الواضح الواسع البين . (2) جـ ٧ ص ٣٢٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

وروى عنه ميمون بن مهران قال: إمساك العصا سنة للأنبياء، وعلامة للمؤمن . وقال الحسن البصري : فيها ست خصال ؛ سنة للأنبياء، وزينة الصلحاء، وسلاح على الأعداء، وعون للضعفاء، وغم المنافقين، وزيادة في الطاعات . ويقال : إذا كان مع المؤمن العصا يهرب منه الشيطان، ويخشع منه المنافق والفاجر، وتكون قبلته إذا صلى، وقوة إذا أعيا . ولقي الحجاجُ أعرابيا فقال: من أين أقبلت يا أعرابي؟ قال : من البادية . قال: وما في يدك؟ قال : عصايَ أركزها لصلاتي، وأعدها لعداتي، وأسوق بها دابتي، وأقوى بها على سفري، وأعتمد بها في مشيتي لتتسع خطوتي، وأثب بها النهر، وتؤمنني من العثر، وألقي عليها كسائي فيقيني الحر، ويُدفئني من القر، وتدني إليّ ما بعد مني، وهي محمل سُفرتي، وعلاقة إداوتي؛ أعصي بها عند الضراب، وأقرع بها الأبواب، وأتقي بها عقور الكلاب؛ وتنوب عن الرمح في الطعان، وعن السيف عند منازلة الأقران؛ ورثتها عن أبي، وأورثها بعدي ابني؛ وأهش بها على غنمي، ولي فيها مآرب أخرى، كثيرة لا تحصى .

قلت : منافع العصا كثيرة، ولها مدخل في مواضع من الشريعة : منها أنها تتخذ قبلة في الصحراء؛ وقد كان للنبي عليه الصلاة والسلام عنزة[1] تُركز له فيصلي إليها، وكان إذا خرج يوم العيد أمر بالحربة فتوضع بين يديه فيصلي إليها؛ وذلك ثابت في الصحيح . والحربة والعنزة والنيزك والآلة اسم لمسمى واحد . وكان له محجن وهو عصا معوجة الطرف يشير به إلى الحجر إذا لم يستطع أن يقبله ؛ ثابت في الصحيح أيضا . وفي الموطأ عن السائب بن يزيد أنه قال : أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبيّ بن كعب وتميما الداريّ أن يقوما للناس بإحدى عشرة ركعة، وكان القارئ يقرأ بالمئين حتى كنا نعتمد على العصيّ من طول القيام ، وما كنا ننصرف إلا في بزوغ الفجر . وفي الصحيحين : أنه عليه الصلاة والسلام كان له مخصرة[2] . والإجماع منعقد على أن الخطيب يخطب متوكئا على سيف أو عصا ، فالعصا مأخوذة من أصل كريم، ومعدن شريف، ولا ينكرها إلا جاهل . وقد جمع الله لموسى

(١) العنزة : مثل نصف الرمح أو أكبر شيئا ، وفيها سنان مثل سنان الرمح . (٢) المخصرة بالخاء المعجمة والصاد المهملة : ما يختصره الإنسان بيده فيمسكه من عصا أو عكازة أو مقرعة أو قضيب وقد يتكئ عليه . النهاية .

فى عصاه من البراهين العظـام، والآيات الجسام، ما آمن به السـحرة المعاندون . واتخذها سليمان لخطبته وموعظته وطول صلاته . وكان ابن مسـعود صاحب عصا النبي صلى الله عليه وسلم وعنزته ؛ وكان يخطب بالقضيب — وكفى بذلك فضلا على شرف حال العصا — وعلى ذلك الخلفاء وكبراء الخطباء، وعادة العرب العرباء، الفصحاء اللسن البلغاء أخذ المخصرة والعصا والاعتماد عليها عنـد الكلام، وفى المحافل والخطب . وأنكرت الشُّعوبية على خطباء العرب أخذ المخصرة والإشارة بها إلى المعانى. والشُّعوبية تبغض العرب وتفضل العجم. قال مالك: كان عطاء بن السائب يمسك المخصرة يستعين بهـا . قال مالك : والرجل إذا كبر لم يكن مثل الشباب يقوى بها عند قيامه .

قلت : وفى مشيته كما قال بعضهم :

قد كنتُ أمشى على رجلين معتـمدًا * فصرتُ أمشى على أخرى من الخشَبِ

قال مالك رحمه الله ورضى عنه : وقد كان الناس إذا جاءهم المطر خرجوا بالعصى يتوكئون عليها، حتى لقد كان الشباب يحبسون عصيهم، وربما أخذ ربيعة العصا من بعض من يجلس إليـه حتى يقوم . ومن منافع العصا ضرب الرجل نساءه بها فيما يصلحهم، ويصلح حاله وحالهم معه. ومنه قوله عليه السلام : " وأما أبو جَهْم فلا يضع عصاه عن عاتقه "[1] فى إحدى الروايات. وقد روى عنه عليه السلام أنه قال لرجل أوصاه: " لا ترفع عصاك عن أهلك أخفهم فى الله" رواه عبادة بن الصامت؛ خرجه النسائى . ومن هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم : " علّق سوطك حيث يراه أهلك" وقد تقدم هذا فى «النساء»[2] . ومن فوائدها التنبيه على الانتقال من هذه الدار؛ كما قيل لبعض الزهاد : مالك تمشى على عصا ولست بكبير ولا مريض ؟ قال : إنى أعلم أنى مسافر، وأنها دار قُلعة، وأن العصا من آلة السفر؛ فأخذه بعض الشعراء فقال:

حملتُ العصا لا الضّعفُ أوجبَ حملَها * علىّ ولا أنى تحنّيتُ من كِبَرْ

ولكننى ألزمتُ نفسىَ حملَهـا * لأُعلمها أنّ المقيمَ على سَـفَرْ

---

(١) هذا من حديث فاطمة بنت قيس ، حيث جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت له أن أباجهم بن حذيفة ومعاوية بن أبى سفيان خطباها فقال: " أما أبو جهم فرجل لا يرفع عصاه عن النساء، وأما معاوية فصعلوك لا مال له" الترمذى .

(٢) راجع جـ ٥ ص ١٧٤ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ﴾ : لما أراد الله تعالى أن يُدرِّبه في تلقي النبوة وتكاليفها أمره بإلقاء العصا ﴿ فَأَلْقَاهَا ﴾ موسى فقلب الله أوصافها وأعراضها. وكانت عصا ذات شُعبتين فصارت الشُّعبتان لها فمًا ، وصارت حية تسعى أى تنتقل ، وتمشى وتلتقم الحجارة؛ فلما رآها موسى عليه السلام رأى عبرة فـ « ولَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ » فقال الله له : « خُذْهَا وَلَا تَخَفْ » وذلك أنه « أَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً » أى لحقه ما يلحق البشر. وروى أن موسى تناولها بكمى جُبَّته فنُهى عن ذلك، فأخذها بيده فصارت عصا كما كانت أول مرة وهى سيرتها الأولى، وإنما أظهر له هذه الآية لئلا يفزع منها إذا ألقاها عند فرعون. ويقال: إن العصا بعد ذلك كانت تماشيه وتحادثه ويعلق عليها أحماله، وتضيء له الشُّعبتان بالليل كالشمع؛ وإذا أراد الاستقاء انقلبت الشعبتان كالدلو، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فى الأرض فأثمرت تلك الثمرة. وقيل : إنها كانت من آس الجنة . وقيل : أتاه جبريل بها . وقيل : مَلَك . وقيل قال له شعيب : خذ عصا من ذلك البيت فوقعت بيده تلك العصا ، وكانت عصا آدم عليه السلام هبط بها من الجنة . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ النحاس : ويجوز «حيَّةً»؛ يقال : خرجت فإذا زيد جالس وجالسا . والوقف « حيَّه » بالهاء . والسعى المشى بسرعة وخفة . وعن ابن عباس: انقلبت ثعبانا ذكرا يبتلع الصخر والشجر، فلما رآه يبتلع كل شيء خافه ونفر منه. وعن بعضهم: إنما خاف منه لأنه عرف ما لقى آدمُ منها . وقيل لما قال له ربه : « لَا تَخَفْ » بلغ من ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه أن أدخل يده فى فمها وأخذ بلحيها. ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ سمعت على بن سليمان يقول : التقدير إلى سيرتها، مثل « وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ » قال : ويجوز أن يكون مصدرا لأن معنى سنعيدها سنسيرها .

قوله تعالى : ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ ﴾ يجوز فى غير القرآن ضُمّ بفتح الميم وكسرها لالتقاء الساكنين ، والفتح أجود لخفته ، والكسر على الأصل . ويجوز الضم على الإتباع . ويَدٌ أصلها يَدْيٌ على فَعْل ؛ يدل على ذلك أيد . وتصغيرها يُدَيّة . والجناح العضد ؛ قاله مجاهد . وقال : «إلى» بمعنى تحت . قطرب : «إِلَىٰ جَنَاحِكَ» إلى جيبك ؛ ومنه قول الراجز :

* أَضُمُّه للصدر والجَنَاح *

وقيل : إلى جنبك فعبر عن الجنب بالجناح لأنه مائل فى محل الجناح . وقيل : إلى عندك . وقال مقاتل : « إلى » بمعنى مع أى مع جناحك . و﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ من غير برص نورا ساطعا ، يضيء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر وأشد ضوءا . عن ابن عباس وغيره : فخرجت نورا مخالفة للونه . و « بَيْضَاءَ » نصب على الحال ، ولا ينصرف لأن فيها ألفى التأنيث لا يزايلانها فكأن لزومهما علة ثانية ، فلم ينصرف فى النكرة ، وخالفتا الهاء لأن الهاء تفارق الاسم . و « مِنْ غَيْرِ سُوءٍ » «من» صلة «بيضاء» كما تقول : ابيضت من غير سوء . ﴿ آيَةً أُخْرَىٰ ﴾ سوى العصا . فأخرج يده من مِدْرَعة له مصرية لها شعاع مثل شعاع الشمس يعشى البصر . و « آيَةً » منصوبة على البدل من بيضاء ؛ قاله الأخفش . النحاس : وهو قول حسن . وقال الزجاج : المعنى آتيناك آية أخرى أو نؤتيك ؛ لأنه لما قال : « تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ » دل على أنه قد آتاه آية أخرى . ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ﴾ يريد العظمى . وكان حقه أن يقول الكبيرة ، و إنما قال «الكبرى» لوفاق رءوس الآى . وقيل : فيه إضمار ؛ معناه لنريك من آياتنا الآية الكبرى ؛ دليله قول ابن عباس يد موسى أكبر آياته .

قوله تعالى : اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ لما آنسه بالعصا واليد، وأراه ما يدل على أنه رسول، أمره بالذهاب إلى فرعون ، وأن يدعوه . و « طغى » معناه عصى وتكبر وكفر وتجبر وجاوز الحد . ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۔ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۔ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ۔ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۔ هَٰرُونَ أَخِى ﴾ طلب الإعانة لتبليغ الرسالة . ويقال : إن الله أعلمه بأنه ربط على قلب فرعون وأنه لا يؤمن ؛ فقال موسى : يا رب فكيف تأمرنى أن آتيه وقد ربطت على قلبه ؛ فأتاه ملك من خزان الريح فقال : يا موسى انطلق إلى ما أمرك الله به . فقال موسى عند ذلك : « رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى » أى وسّعه ونوّره بالإيمان والنبوة . « وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى » أى سهّل علىّ ما أمرتنى به من تبليغ الرسالة إلى فرعون . « وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى » يعنى العجمة التى كانت فيه من جمرة النار التى أطفأها فى فيه وهو طفل . قال ابن عباس : كانت فى لسانه رُتّة . وذلك أنه كان فى حجر فرعون ذات يوم وهو طفل فلطمه لطمة، وأخذ بلحيته فنتفها فقال فرعون لآسية : هذا عدوّى فهات الذبّاحين . فقالت آسية : على رِسْلك فإنه صبىّ لا يفرق بين الأشياء . ثم أتت بطَسْتين فجعلت فى أحدهما جمرا وفى الآخر جوهرا، فأخذ جبريل بيد موسى فوضعها على النار حتى رفع جمرة ووضعها فى فيه على لسانه، فكانت تلك الرتّة . وروى أن يده احترقت وأن فرعون اجتهد فى علاجها فلم تبرأ . ولما دعاه قال : إلى أىّ ربّ تدعونى؟ قال : إلى الذى أبرأ يدى وقد عجزت عنها . وعن بعضهم : إنما لم تبرأ يده لئلا يدخلها مع فرعون فى قَصْعة واحدة فتنعقد بينهما حرمة المؤاكلة . ثم اختلف هل زالت تلك الرتّة؛ فقيل : زالت بدليل قوله : «قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ» . وقيل : لم تزل كلها؛ بدليل قوله حكاية عن فرعون : « وَلَا يَكَادُ يُبِينُ » . ولأنه لم يقل : احلل كل لسانى ، فدل على أنه بقى فى لسانه شىء من الاستمساك . وقيل : زالت بالكلية بدليل قوله : « أُوتِيتَ سُؤْلَكَ » وإنما قال فرعون : « وَلَا يَكَادُ يُبِينُ » لأنه عرف منه تلك العقدة فى التربية، وما ثبت عنده أن الآفة زالت .

قلت : وهذا فيه نظر؛ لأنه لو كان ذلك لما قال فرعون : « وَلَا يَكَادُ يُبِينُ » حين كلمه موسى بلسان ذَلِق فصيح . والله أعلم . وقيل : إن تلك العقدة حدثت بلسانه عند مناجاة ربه ، حتى لا يكلم غيره إلا بإذنه . ﴿ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ أى يعلموا ما أقوله لهم ويفهموه . والفقه فى كلام العرب الفهم . قال أعرابى لعيسى بن عمر : شهدت عليك بالفقه . تقول منه : فَقِه الرجل بالكسر . وفلانٌ لا يَفْقَه ولا يَنْقَه[(1)] . وأفقهتك الشيء ثم خُصّ به علم الشريعة، والعالم به فقيه . وقد فَقُه بالضم فَقَاهة وفَقَّهه الله وتَفَقَّه إذا تعاطى ذلك . وفاقهته إذا باحثته فى العلم؛ قاله الجوهرى . والوزير المؤازر كالأكيل للمؤاكل؛ لأنه يحمل عن السلطان وزره أى ثقله . فى كتاب النسائى عن القاسم بن محمد : سمعت عمتى تقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من ولى منكم عملا فأراد الله به خيرا جعل له وزيرا صالحا إن نسى ذَكَّره وإن ذَكَر أعانه" . ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام: "ما بعث الله من نبيّ ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتحضّه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه فالمعصوم من عصمه الله" رواه البخارى. فسأل موسى الله تعالى أن يجعل له وزيرا، إلا أنه لم يرد أن يكون مقصورا على الوزارة حتى لا يكون شريكا له فى النبوّة، ولولا ذلك لجاز أن يستوزره من غير مسئلة . وعيَّن فقال : «هَـٰرُونَ» . وانتصب على البدل من قوله : « وَزِيرًا » . ويكون منصوبا بـ « أجعل » على التقديم والتأخير، والتقدير: واجعل لى هرون أخى وزيرا . وكان هرون أكبر من موسى بسنة ، وقيل : بثلاث . ﴿ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴾ أى ظهرى . والأزر الظهر من موضع الحَقْوين، ومعناه تقوى به نفسى؛ والأزر القوة ، وآزره قوّاه . ومنه قوله تعالى : « فَآزَرَهُ فَٱسْتَغْلَظَ » . وقال أبو طالب[(2)] :

أليس أبونا هاشمٌ شَدَّ أزْرَه ‌ ‌ * ‌ ‌ وأوصى بنيه بالطِّعانِ وبالضَّرْبِ

وقيل : الأزر العون . أى يكون عونا يستقيم به أمرى . قال الشاعر :

شَددتُ به أزْرِى وأيقنتُ أنّهُ ‌ ‌ * ‌ ‌ أخو الفقر من ضاقت عليه مذاهبُه

---

(1) معناه لا علم ولا يفهم . ونقهت الحديث أنقهه إذا فهمته .
(2) هذا البيت فى قصيدة له قالها فى أمر الشعب والصحيفة .

وكان هرون أكثر لحما من موسى، وأتم طولا ، وأبيض جسما، وأفصح لسانا . ومات قبل موسى بثلاث سنين . وكان في جبهة هرون شامة ، وعلى أرنبة أنف موسى شامة، وعلى طرف لسانه شامة ، ولم تكن على أحد قبله ولا تكون على أحد بعده، وقيل : إنها كانت سبب العقدة التي في لسانه . والله أعلم . ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ أي في النبوة وتبليغ الرسالة . قال المفسرون : كان هرون يومئذ بمصر، فأمر الله موسى أن يأتي هو هرون، وأوحى إلى هرون وهو بمصر أن يتلقى موسى، فتلقاه إلى مرحلة وأخبره بما أوحى إليه؛ فقال له موسى : إن الله أمرني أن آتي فرعون فسألت ربي أن يجعلك معي رسولا . وقرأ العامة « أخي ٱشْدُدْ » بوصل الألف « وَأَشْرِكْهُ » بفتح الهمزة على الدعاء، أي آشدد يارب أزري ، وأشركه معي في أمري . وقرأ ابن عامر ويحيى بن الحرث وأبو حَيْوة والحسن وعبد الله بن أبي إسحق « أَشْدُدْ » بقطع الألف « وَأُشْرِكْهُ » أي أنا يارب « في أمري » . قال النحاس : جعلوا الفعلين في موضع جزم جوابا لقوله : « ٱجْعَلْ لِي وَزِيراً » وهذه القراءة شاذة بعيدة؛ لأن جواب مثل هذا إنما يتخرج بمعنى الشرط والمجازاة ؛ فيكون المعنى : إن تجعل لي وزيرا من أهلي أشدد به أزري ، وأشركه في أمري . وأمره النبوة والرسالة، وليس هذا إليه صلى الله عليه وسلم فيخبر به ، إنما سأل الله عز وجل أن يشركه معه في النبوة . وفتح الياء من « أخي » ابن كثير وأبو عمرو . ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ﴾ قيل : معنى « نسبحك » نصلي لك . ويحتمل أن يكون التسبيح باللسان . أي ننزهك عما لا يليق بجلالك . « وَكَثِيراً » نعت لمصدر محذوف . ويجوز أن يكون نعتا لوقت . والإدغام حسن؛وكذا ﴿ وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ﴾ . ﴿ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً ﴾ قال الخطابي : البصير المبصر ، والبصير العالم بخفيات الأمور ، فالمعنى؛ أي عالما بنا ، ومدركا لنا في صغرنا فأحسنت إلينا ، فأحسن إلينا كذلك يارب .

قوله تعالى : قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي

وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ لما سأله شرح الصدر، وتيسير الأمر إلى ما ذكر، أجاب سؤله، وأتاه طلبته ومرغوبه . والسؤل الطِّلْبة؛ فُعْل بمعنى مفعول، كقولك خُبز بمعنى مخبوز وأكل بمعنى مأكول . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴾ أي قبل هذه، وهي حفظه سبحانه له من شر الأعداء في الابتداء؛ وذلك حين الذبح . والله أعلم . والمنّ الإحسان والإفضال . وقوله : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴾ قيل : « أوحينا » ألهمنا . وقيل : أوحى إليها في النوم . وقال ابن عباس : أوحى إليها كما أوحى إلى النبيين . ﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ ﴾ قال مقاتل : مؤمن آل فرعون هو الذي صنع التابوت ونجره وكان اسمه حزقيل . وكان التابوت من جُمَّيز . ﴿ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ ﴾ أي اطرحيه في البحر : نهر النيل . ﴿ فَلْيُلْقِهِ ﴾ قال الفراء : « فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ » أمر وفيه معنى المجازاة . أي اقذفيه يلقه اليمّ . وكذا قوله : « ٱتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ » . ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ﴾ يعني فرعون؛ فاتخذت تابوتا، وجعلت فيه نطعا، ووضعت فيه موسى، وقيّرت رأسه وخصاصه — يعني شقوقه — ثم ألقته في النيل، وكان يَشْرَع منه نهر كبير في دار فرعون، فساقه الله في ذلك النهر إلى دار فرعون . وروى أنها جعلت في التابوت قطنا محلوجا، فوضعته فيه وقيّرته وجصّصته، ثم ألقته في اليمّ . وكان يَشْرَع منه إلى بستان فرعون نهر كبير، فبينا هو جالس على رأس بركة مع آسية، إذا بالتابوت، فأمر به فأخرج، ففتح فإذا صبيّ أصبح

الناس، فأحبه عدو الله حبًّا شديدا لا يتمالك أن يصبر عنه . وظاهر القرآن يدل على أن البحر ألقاه بساحله وهو شاطئه ، فرأى فرعون التابوت بالساحل فأمر بأخذه . ويحتمل أن يكون ألقاه اليم بموضع من الساحل ، فيه فُوَّهة نهر فرعون ، ثم أداه النهر إلى حيث البركة . والله أعلم . وقيل : وجدته ابنة فرعون وكان بها برص ، فلما فتحت التابوت شفيت . وروى أنهم حين التقطوا التابوت عالجوا فتحه فلم يقدروا عليه ، وعالجوا كسره فأعياهم ، فدنت آسية فرأت فى جوف التابوت نورا فعالجته ففتحته ، فإذا صبيّ نوره بين عينيه ، وهو يمصّ إبهامه لبنا فأحبوه . وكانت لفرعون بنت برصاء ، وقال له الأطباء : لا تبرأ إلا من قبل البحر ، يوجد فيه شبه إنسان دواؤها ريقه ؛ فلطخت البرصاء برصها بريقه فبرئت . وقيل : لما نظرت إلى وجهه برئت . والله أعلم . وقيل : وجدته جوار لامرأة فرعون ، فلما نظر إليه فرعون فرأى صبيا من أصبح الناس وجها ، فأحبه فرعون ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ﴾ قال ابن عباس : أحبه الله وحبّبه إلى خلقه . وقال ابن عطية : جعل عليه مَسْحة من جمال لا يكاد يصبر عنه من رآه . وقال قَتَادة : كانت فى عينى موسى ملاحة ما رآه أحد إلا أحبّه وعشقه . وقال عِكْرمة : المعنى جعلت فيك حسنا وملاحة فلا يراك أحد إلا أحبّك . وقال الطبرى : المعنى وألقيت عليك رحمتى . وقال ابن زيد : جعلت من رآك أحبّك حتى أحبّك فرعون فسلمت من شرّه ، وأحبّتك آسية بنت مُزاحم فتبنّتك . ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ قال ابن عباس : يريد إن ذلك بعيني حيث جُعلت فى التابوت ، وحيث أُلقى التابوت فى البحر ، وحيث التقطك جوارى امرأة فرعون ؛ فأردن أن يفتحن التابوت لينظرن ما فيه ، فقالت منهن واحدة : لا تفتحنه حتى تأتين به سيدتكن فهو أحظى لكن عندها ، وأجدر بألا تتهمكن بأنكن وجدتن فيه شيئا فأخذتموه لأنفسكن . وكانت امرأة فرعون لا تشرب من الماء إلا ما استقينه أولئك الجوارى . فذهبن بالتابوت إليها مغلقا ، فلما فتحته رأت صبيا لم يُرَ مثله قطّ ، وألقى عليها محبته فأخذته فدخلت به على فرعون ، فقالت له : «قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ» قال لها فرعون : أما لك فنعم ، وأما لى فلا . فبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لو أن فرعون قال

نعم هو قرة عين لى ولك لا من وصدّق " فقالت : هبه لى ولا تقتله ، فوهبه لها . وقيل : « وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي » أى تُرَبَّى وتُغذَّى على مرأى منى ؛ قاله قتادة . قال النحاس : وذلك معروف فى اللغة ؛ يقال : صنعت الفرس وأصنعته إذا أحسنت القيام عليه . والمعنى « ولتصنع على عينى » فعلت ذلك . وقيل : اللام متعلقة بما بعدها من قوله : « إذ تمشى أختك » على التقديم والتأخير ، « إذ » ظرف « لتصنع » . وقيل : الواو فى « ولتصنع » زائدة . وقرأ ابن القعقاع « وَلْتُصْنَعْ » بإسكان اللام على الأمر ، وظاهره للخاطب والمأمور غائب . وقرأ أبو نَهِيك « وَلِتَصْنَعَ » بفتح التاء . والمعنى ولتكون حركتك وتصرفك بمشيئتى وعلى عين منى ؛ ذكره المهدوى . ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ ﴾ العامل فى « إذ تمشى » « أَلْقَيْتُ » أو « تصنع » . ويجوز أن يكون بدلا من « إِذْ أَوْحَيْنَا » وأخته اسمها مريم . ﴿ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ ﴾ وذلك أنها خرجت متعرفة خبره ، وكان موسى لما وهبه فرعون من امرأته طلبت له المراضع ، وكان لا يأخذ من أحد حتى أقبلت أخته ، فأخذته ووضعته فى حجرها وناولته ثديها فمصه وفرح به . فقالوا لها : تقيمين عندنا ؛ فقالت : إنه لا لبن لى ولكن أدلكم على من يكفله وهم له ناصحون . قالوا : ومن هى ؟ . قالت : أمى . فقالوا : لها لبن ؟ قالت : لبن أخى هرون . وكان هرون أكبر من موسى بسنة . وقيل : بثلاث . وقيل : بأربع ؛ وذلك أن فرعون رحم بنى إسرائيل فرفع عنهم القتل أربع سنين ، فولد هرون فيها ؛ قاله ابن عباس . فجاءت الأم فقبل ثديها . فذلك قوله تعالى : ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ ﴾ وفى مصحف أبىّ « فرددناك » . ﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ وروى عبد الحميد عن ابن عامر « كَىْ تَقِرَّ عَيْنُهَا » بكسر القاف . قال الجوهرى : وقررتُ به عينا وقَرِرْتُ به قُرّة وقُرورا فيهما ورجل قرير العين ؛ وقد قرت عينه تَقَرّ وتَقِرّ نقيض سخنت . وأقر الله عينه أى أعطاه حتى تقر فلا تطمح إلى من هو فوقه ، ويقال : حتى تبرد ولا تسخن . وللسرور دمعة باردة ، وللحزن دمعة حارة . وقد تقدم هذا المعنى فى « مريم »[1] . « وَلَا تَحْزَنَ » أى على فقدك . ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا ﴾ قال ابن عباس : قتل قبطيا كافرا . قال كعب : وكان إذ ذاك ابن اثنى

(١) راجع تفسير آية ٢٦ من هذا الجزء .

عشرة سنة . في صحيح مسلم ؛ وكان قتله خطأ؛ على ما يأتي . ﴿ فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ ﴾ أي آمناك من الخوف والقتل والحبس . ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ أي إختبرناك اختبارا حتى صلحت للرسالة . وقال قتادة : بلوناك بلاء . مجاهد : أخلصناك إخلاصا . وقال ابن عباس : اختبرناك بأشياء قبل الرسالة، أولها حملته أمه في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الأطفال، ثم إلقاؤه في اليم، ثم منعه من الرضاع إلا من ثدي أمه، ثم جره بلحية فرعون، ثم تناوله الجمرة بدل الدُّرّة؛ فدرأ ذلك عنه قتل فرعون، ثم قتله القبطي وخروجه خائفا يترقب، ثم رعايته الغنم ليتدرب بها على رعاية الخلق . فيقال : إنه نَدّ له من الغنم جَدْيٌ فاتبعه أكثر النهار ، وأتعبه ، ثم أخذه فقبله وضمه إلى صدره، وقال له : أتعبتني وأتعبت نفسك؛ ولم يغضب عليه . قال وهب ابن منبه : ولهذا اتخذه الله كليما؛ وقد مضى في « النساء »[1] .

قوله تعالى : ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ يريد عشر سنين أتم الأجلين . وقال وهب : لبث عند شعيب ثماني وعشرين سنة، منها عشر مهر امرأته صفورا ابنة شعيب، وثماني عشرة أقامها عنده حتى ولد له عنده . وقوله : ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾ قال ابن عباس وقتادة وعبد الرحمن بن كيسان : يريد موافقا للنبوة والرسالة؛ لأن الأنبياء لا يبعثون إلا أبناء أربعين سنة . وقال مجاهد ومقاتل : « على قدر » على وعد . وقال محمد بن كعب : ثم جئت على القدر الذي قدرت لك أنك تجيء فيه . والمعنى واحد . أي جئت في الوقت الذي أردنا إرسالك فيه . وقال الشاعر :

نال الخلافة أو كانت له قَدَرًا ◦ كما أتى ربَّه موسى على قَدَر

قوله تعالى : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ قال ابن عباس : أي اصطفيتك لوحيي ورسالتي . وقيل : « اصْطَنَعْتُكَ » خلقتك ؛ مأخوذ من الصنعة . وقيل : قويتك وعلمتك لتبلغ عبادي أمري ونهيي . ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي ﴾ قال ابن عباس : يريد التسع الآيات التي أنزلت عليه . ﴿ وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ قال ابن عباس : تضعفا أي في أمر الرسالة ؛ وقاله قتادة . وقيل : تفترا . قال الشاعر[2] :

فما وَنَى محمدٌ مذ أن غَفَرْ ◦ له الإلهُ ما مَضَى وما غَبر

(١) راجع ج ٦ ص ١٨ طبعة أولى أو ثانية . (٢) هو العجاج .

والوَنَى الضّعف والفتور، والكَلال والإعياء . وقال امرؤ القيس :

مِسَحٌّ إذا ما السابحاتُ على الوَنَى ❊ أَثَرْنَ غُبارًا بالكَدِيدِ المُرَكَّلِ [1]

ويقال: ونيت فى الأمر أنِى وَنًى ووَنْيًا أى ضَعُفت، فأنا وانٍ وناقة وانية وأونيتها أنا أضعفتها وأتعبتها . وفلان لا يَنِى كذا، أى لا يزال، وبه فسّر أبان معنى الآية واستشهد بقول طَرَفة :

كأنّ القُدُورَ الراسياتِ أمامَهُم ❊ قِبابٌ بَنَوْها لا تَنِى أبدًا تَغْلِى

وعن ابن عباس أيضا : لا تبطئا . وفى قراءة ابن مسعود « وَلَا تَهِنَا فِى ذِكْرِى » وتحميدى وتمجيدى وتبليغ رسالتى .

قوله تعالى : ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ ٱذْهَبَا ﴾ قال فى أول الآية : « ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِى » وقال هنا : « اذهبا » فقيل : أمر الله تعالى موسى وهرون فى هذه الآية بالنفوذ إلى دعوة فرعون، وخاطب أولا موسى وحده تشريفا له؛ ثم كرر للتأكيد . وقيل : بيّن بهذا أنه لا يكفى ذهاب أحدهما . وقيل : الأول أمر بالذهاب إلى كل الناس، والثانى بالذهاب إلى فرعون .

الثانيــة ــ فى قوله تعالى : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ دليل على جواز الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن ذلك يكون باللين من القول لمن معه القوة، وضمنت له العصمة، ألا تراه قال : « فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا » . وقال : « لَا تَخَافَا إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى » فكيف بنا فنحن أولى بذلك . وحينئذ يحصل الآمر والناهى على مرغوبه، ويظفر بمطلوبه؛ وهذا واضح

---

(1) مسح معناه يصب الجرى صبا . والسابحات اللاتى عدوهن سباحة ؛ والسباحة فى الجرى بسط الأيدى . والكديد : الموضع الغليظ . والمركل : الذى يركل بالأرجل . ومعنى البيت : أن الخيل السريعة إذا فترت فأثارت الغبار بأرجلها من التعب، جرى هذا الفرس جريا سهلا .

الثالثة ــ واختلف الناس فى معنى قوله « لَيِّنًا » فقالت فرقة منهم الكلبى وعكرمة : معناه كَنِّياه، وقاله ابن عباس ومجاهد والسدى . ثم قيل : وكنيته أبو العباس . وقيل : أبو الوليد . وقيل : أبو مرة ؛ فعلى هذا القول تكنية الكافر جائزة إذا كان وجيها ذا شرف وطُمِع بإسلامه. وقد يجوز ذلك و إن لم يُطمَع بإسلامه؛لأن الطمع ليس بحقيقة توجب عملا. وقد قال صلى الله عليه وسلم "إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه" ولم يقل و إن طمعتم فى إسلامه، ومن الإكرام دعاؤه بالكُنية . وقد قال صلى الله عليه وسلم لصفوان بن أمية : " انزل أبا وهب " فكناه . وقال لسعد : " ألم تسمع مايقول أبو حُبَاب " يعنى عبدالله بن أبيّ . وروى فى الإسرائيليات أن موسى عليه السلام قام على باب فرعون سنة ، لايجد رسولا يبلغ كلاما حتى خرج . فجرى له ماقصّ الله علينا من ذلك، وكان ذلك تسلية لمن جاء بعده من المؤمنين فى سيرتهم مع الظالمين، وربك أعلم بالمهتدين . وقيل قال له موسى : تؤمن بما جئتُ به ، وتعبد ربّ العالمين ؛ على أن لك شبابا لايَهرَم إلى الموت، وملكا لاينزع منك إلى الموت، وينسأ فى أجلك أربعمائة سنة، فإذا متّ دخلت الجنة . فهذا القول اللين . وقال ابن مسعود: القول اللين قوله تعالى : « فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى . وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى » . وقد قيل إن القول اللين قول موسى : يافرعون إنا رسولا ربك ربّ العالمين . فسماه بهذا الاسم لأنه أحب إليه مما سواه مما قيل له ، كما يسمى عندنا الملك ونحوه .

قلت : القول اللّين هو القول الذى لاخشونة فيه ؛ يقال : لان الشئ يَلين لِينًا ؛ وشىء لَيِّن ولَيْن مخفف منه؛ والجمع ألْيِناء . فإذا كان موسى أمر بأن يقول لفرعون قولا لينا ، فمن دونه أحرى بأن يقتدى بذلك فى خطابه ، وأمره بالمعروف فى كلامه . وقد قال تعالى : « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا »[1] . على ماتقدم فى « البقرة » بيانه والحمد لله .

الرابعة ــ قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ معناه : على رجائكما وطمعكما؛ فالتوقع فيها إنما هو راجع إلى جهة البشر؛ قاله كبراء النحويين : سيبويه وغيره . وقد تقدم فى أول « البقرة »[2] . قال الزجاج : «لعل» لفظة طمع وترج فخاطبهم بما يعقلون . وقيل : «لعل» هاهنا بمعنى

(١) راجع جـ ٢ ص ١٦ ، وما بعدها طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٢٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

الاستفهام، والمعنى فانظر هل يتذكر. وقيل: هى بمعنى كى. وقيل: هو إخبار من الله تعالى عن قول هرون لموسى لعله يتذكر أو يخشى؛ قاله الحسن. وقيل: إن لعل وعسى فى جميع القرآن لما قد وقع. وقد تذكر فرعون حين أدركه الغرق وخشى فقال: «آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ». ولكن لم ينفعه ذلك؛ قاله أبو بكر الوراق وغيره. وقال يحيى بن معاذ فى هذه الآية: هذا رفقك بمن يقول أنا الإله فكيف رفقك بمن يقول أنت الإله؟!. وقد قيل: إن فرعون ركَنَ إلى قول موسى لما دعاه، وشاور امرأته فآمنت وأشارت عليه بالإيمان، فشاور هامان فقال: لا تفعل؛ بعد أن كنت مالكا تصير مملوكا، وبعد أن كنت ربا تصير مربوبا. وقال له: أنا أردك شابا؛ فخضب لحيته بالسواد فهو أول من خضب.

قوله تعالى: قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ قال الضحاك: «يَفْرُطَ» يعجِّل. قال: و «يَطْغَى» يعتدى. النحاس: التقدير نخاف أن يفرط علينا منه أمر؛ قال الفراء: فَرَط منه أمرٌ أى بدر؛ قال: وأفرط أسرف. قال: وفرَّط ترك. وقراءة الجمهور «يَفْرُطَ» بفتح الياء وضم الراء، ومعناه يعجِّل ويبادر بعقوبتنا. يقال: فَرَط منى أمرٌ أى بدر؛ ومنه الفارط فى الماء الذى يتقدم القوم إلى الماء؛ أى يعذبنا عذاب الفارط فى الذنب وهو المتقدم فيه؛ قاله المبرِّد. وقرأت فرقة منهم ابن محيصن «يَفْرَطَ» بفتح الياء والراء؛ قال المهدوى: ولعلها لغة. وعنه أيضا بضم الياء وفتح الراء ومعناها أن يحمله حامل على التسرع إلينا. وقرأت طائفة «يُفْرِط» بضم الياء وكسر الراء؛ وبها قرأ ابن عباس ومجاهد وعكرمة وابن محيصن أيضا. ومعناه يشطط فى أذيتنا؛ قال الراجز:

* قد أفرطَ العِلْجُ علينا وعَجَلْ *

قوله تعالى: قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قال العلماء : لما لحقهما ما يلحق البشر من الخوف على أنفسهما عرّفهما الله سبحانه أن فرعون لا يصل إليهما ولا قومه . وهذه الآية تردّ على من قال : إنه لا يخاف ؛ والخوف من الأعداء سنة الله فى أنبيائه وأوليائه مع معرفتهم به وثقتهم . ولقد أحسن البصرى رحمه الله حين قال للخبر عن عامر بن عبد الله — أنه نزل مع أصحابه فى طريق الشام على ماء، فحال الأسد بينهم وبين الماء، فجاء عامر إلى الماء فأخذ منه حاجته، فقيل له : فقد خاطرت بنفسك . فقال : لأن تختلف الأسنّة فى جوفى أحبّ إلىّ من أن يعلم الله أنى أخاف شيئا سواه — :قد خاف من كان خيرا من عامر؛ موسى صلى الله عليه وسلم حين قال له : « إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ . فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » وقال : « فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ » وقال حين ألقى السحرة حبالهم وعصيّهم : « فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى . قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى » .

قلت : ومنه حفْر النبى صلى الله عليه وسلم الخندق حول المدينة تحصينا للسلمين وأموالهم، مع كونه من التوكل والثقة بربه بمحل لم يبلغه أحد ؛ ثم كان من أصحابه ما لا يجهله أحد من تحولهم عن منازلهم ، مرة إلى الحبشة ، ومرة إلى المدينة ؛ تخوفا على أنفسهم من مشركى مكة ؛ وهربا بدينهم أن يفتنوهم عنه بتعذيبهم . وقد قالت أسماء بنت عميس لعمر لما قال لها سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم منكم : كذبتَ ياعمر ؛ كلا والله كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، يُطعِم جائعكم، ويَعظ جاهلكم، وكنا فى دار — أو أرض — البُعداء البُغَضاء[1] فى الحبشة ؛ وذلك فى الله ورسوله ؛ وأيمُ الله لا أَطْعَم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أذكر ما قلتَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ونحن كنا نُؤْذَى ونُخاف. الحديث بطوله خرجه مسلم . قال العلماء : فالمخبر عن نفسه بخلاف ما طبع الله نفوس بنى آدم

(١) البعداء : أى فى النسب . البغضاء : أى فى الدين وقول أسماء : كذبت ياعمر أى أخطأت وقد استعملوا كذب بمعنى أخطأ .

[عليه][1] كاذب ، وقد طبعهم على الهرب مما يضرها ويؤلمها أو يتلفها . قالوا : ولا ضلو أضرّ من سبع عادٍ فى فلاة من الأرض على من لا آلة معه يدفعه بها عن نفسه ، من سيف أو رمح أو نبل أو قوس وما أشبه ذلك .

الثانيــة — قوله تعـالى : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا ﴾ يريد بالنصر والمعونة والقدرة على فرعون . وهـذا كما تقول : الأمير مع فـلان إذا أردت أنه يحميه . وقوله : ﴿ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ عبارة عن الإدراك الذى لا تخفى معه خافية ، تبارك الله رب العالمين .

قوله تعـالى : ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ فى الكلام حذف ، والمعنى : فأتياه فقالا له ذلك . ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى خلِّ عنهم . ﴿ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ أى بالسُّخرة والتعب فى العمل ، وكانت بنـو إسرائيل عنـد فرعون فى عذاب شـديد ، يذبّح أبناءهم ، ويستحيى نساءهم ، ويكلّفهم من العمل فى الطّين واللّبِن وبناء المـدائن ما لا يطيقونه . ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ ﴾ قال ابن عباس : يريد العصـا واليد . وقيـل : إن فرعون قال له : وما هى ؟ فأدخل يده فى جيب قميصـه ، ثم أخرجها بيضاء لهـا شعاع مثل شعاع الشمس ، غلب نورها على نور الشمس فعجب منهـا . ولم يره العصـا إلا يوم الزّينـة . ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ قال الزجاج : أى من اتّبع الهدى سلم من سخط الله عز وجل وعذابه . قال : وليس بتحيـة ، والدليل على ذلك أنه ليس بابتـداء لقاءٍ ولا خطاب .

(١) الزيادة يقتضيها السياق .

الفراء : السلام على من اتبع الهدى ولمن اتبع الهدى سواء . ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ ﴾ يعنى الهلاك والدمار فى الدنيا والخلود فى جهنم فى الآخرة ﴿ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ ﴾ أنبياء الله ﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أعرض عن الإيمان . وقال ابن عباس : هذه أرجى آية للموحدين لأنهم لم يكذبوا ولم يتولوا .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴾ ذكر فرعون موسى دون هرون لرءوس الآى . وقيل : خصصه بالذكر لأنه صاحب الرسالة والكلام والآية . وقيل : إنهما جميعا بلّغا الرسالة وإن كان ساكتا؛ لأنه فى وقت الكلام إنما يتكلم واحد، فإذا انقطع وازره الآخر وأيّده . فصار لنا فى هذا البناء فائدة علم؛ أن الاثنين إذا قُلّدا أمرا فقام به أحدهما، والآخر شخصه هناك موجود مستغنى عنه فى وقت دون وقت أنهما أدّيا الأمر الذى قُلّدا وقاما به واستوجبا الثواب ؛ لأن الله تعالى قال : « اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ » وقال : « اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ » وقال : « فَقُولَا لَهُ » فأمرهما جميعا بالذهاب وبالقول، ثم أعلمنا فى وقت الخطاب بقوله : « فَمَنْ رَبُّكُمَا » أنه كان حاضرا مع موسى . ﴿ قَالَ ﴾ موسى : ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴾ أى أنه يُعرف بصفاته، وليس له اسم علَم حتى يقال فلان، بل هو خالق العالم، وهو الذى خصّ كل مخلوق بهيئة وصورة ، ولو كان الخطاب معهما لقالا : قالا ربنا . « وَخَلْقَهُ » أول مفعولى أعطى ، أى أعطى خليقته كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به، أو ثانيهما أى أعطى كل شيء صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به ؛ على قول الضحاك على ما يأتى . ﴿ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير والسدى : أعطى كل شيء زوجه من جنسه ، ثم هداه إلى منكحه ومطعمه ومشربه ومسكنه . وعن ابن عباس : ثم هداه إلى الألفة والاجتماع والمناكحة . وقال الحسن وقتادة : أعطى كل شيء صلاحه، وهداه لما يصلحه . وقال مجاهد : أعطى كل شيء صورة؛ لم يجعل خلق الإنسان فى خلق البهائم، ولا خلق البهائم فى خلق الإنسان، ولكن خلق كل شيء فقدّره تقديرا . وقال الشاعر :

وله فى كل شيء خلقةٌ ❊ وكذاك الله ما شاء فعلْ

يعني بالخلقة الصورة؛ وهو قول عطية ومقاتل . وقال الضحاك : أعطى كل شيء خلقه من المنفعة المنوطة به المطابقة له . يعني اليد للبطش ، والرجل للمشي ، واللسان للنطق ، والعين للنظر ، والأذن للسمع . وقيل : أعطى كل شيء ما ألهمه من علم أو صناعة . وقال الفراء : خلق الرجل للمرأة ، ولكل ذكر ما يوافقه من الإناث ، ثم هدى الذكر للأنثى . فالتقدير على هذا أعطى كل شيء مثل خلقه .

قلت : وهذا معنى قول ابن عباس . والآية بعمومها تتناول جميع الأقوال . وروى زائدة عن الأعمش أنه قرأ « الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ » بفتح اللام؛ وهي قراءة ابن أبي إسحق . ورواها نصير عن الكسائي وغيره ؛ أي أعطى بني آدم كل شيء خلقه مما يحتاجون إليه . فالقراءتان متفقتان في المعنى .

قوله تعالى : قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (٥٢)

فيـه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ﴾ البال الحال؛ أي ما حالها وما شأنها، فأعلمه أن علمها عند الله تعالى ، أي إن هـذا من علم الغيب الذي سألت عنـه ، وهو مما استأثر الله تعالى به لا يعلمه إلا هو، وما أنا إلا عبد مثلك ؛ لا أعلم منه إلا ما أخبرني به علام الغيوب ، وعلم أحوال القرون مكتوبة عنـد الله في اللوح المحفوظ . وقيـل : المعنى فما بال القرون الأولى لم يقروا بذلك . أي فما بالهم ذهبوا وقد عبدوا غير ربك . وقيل : إنما سأله عن أعمال القرون الأولى، فأعلمه أنها محصاة عند الله تعالى، ومحفوظة عنده في كتاب . أي هي مكتوبة فسيجازيهم غدا بها وعليها . وعنى بالكتاب اللوح المحفوظ . وقيل: هو كتاب مع بعض الملائكة .

الثانيـة — هـذه الآية ونظائرها مما تقدم ويأتي تدل على تدوين العلوم وكتبها لئلا تُنسى . فإن الحفظ قـد تعتريه الآفات من الغلط والنسيان . وقد لا يحفظ الإنسان ما يسمع فيقيده لئلا يذهب عنه . وروينا بالإسناد المتصل عن قتادة أنه قيل له : أنكتب ما نسمع

منك ؟ قال : وما يمنعك أن تكتب وقد أخبرك اللطيف الخبير أنه يكتب ؛ فقال : «عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى» . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما قضى الله الخلق كتب في كتابه على نفسه فهو موضوع عنده إن رحمتي تغلب غضبي " . وأسند الخطيب أبو بكر عن أبي هريرة قال : كان رجل من الأنصار يجلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستمع منه الحديث و يعجبه ولا يحفظه ، فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ! إني أسمع منك الحديث يعجبني ولا أحفظه ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " استعن بيمينك " وأومأ إلى الخط . وهذا نص . وعلى جواز كَتْب العلم وتدوينه جمهور الصحابة والتابعين ؛ وقد أمر صلى الله عليه وسلم بكَتْب الخطبة التي خطب بها في الحج لأبي شاه — رجل من اليمن — لما سأله كَتْبها . أخرجه مسلم . وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " قَيِّدوا العلمَ بالكتابة " . وقال معاوية بن قُرّة : من لم يكتب العلم لم يعد علمه علما . وقد ذهب قوم إلى المنع من الكَتْب ؛ فروى أبو نضرة قال قيل لأبي سعيد : أنكتب حديثكم هذا ؟ قال : لم تجعلونه قرآنا ؟ ولكن احفظوا كما حفظنا . وممن كان لا يكتب الشعبي ويونس بن عبيد وخالد الحذاء — قال خالد : ما كتبت شيئا قط إلا حديثا واحدا ، فلما حفظته محوته — وابن عون والزهري . وقد كان بعضهم يكتب فإذا حفظ محاه ؛ منهم محمد بن سيرين وعاصم بن ضَمْرة . وقال هشام بن حسان : ما كتبت حديثا قط إلا حديث الأعماق فلما حفظته محوته .

قلت : وقد ذكرنا عن خالد الحذاء مثل هذا . وحديث الأعماق خرجه مسلم في آخر الكتاب : " لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق[1] — أو — بدابق " الحديث ذكره في كتاب الفتن . وكان بعضهم يحفظ ثم يكتب ما يحفظ ؛ منهم الأعمش وعبد الله بن أدريس وهشيم وغيرهم . وهذا احتياط على الحفظ . والكَتْب أولى على الجملة ، وبه وردت الآي والأحاديث ؛ وهو مروي عن عمر وعلي وجابر وأنس رضي الله عنهم ، ومن يليهم من كبراء التابعين كالحسن

(١) الأعماق : موضع من أطراف المدينة ؛ ودابق : اسم موضع سوق بها . والشك من الراوي .

وعطاء وطاوس وعروة بن الزبير، ومن بعدهم من أهل العلم ؛ قال الله تعالى : « وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » . وقال تعالى : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » . وقال تعالى : « وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً » الآية . وقال تعالى : « وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ . وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ » . وقال : « عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ » إلى غير هذا من الآى . وأيضا فإن العلم لا يضبط إلا بالكتاب، ثم بالمقابلة والمدارسة والتعهد والتحفظ والمذاكرة والسؤال والفحص عن الناقلين والثقة بما نقلوا، وإنما كره الكتب من كره من الصدر الأول لقرب العهد، وتقارب الإسناد لئلا يعتمده الكاتب فيهمله، أو يرغب عن حفظه والعمل به؛ فأما والوقت متباعد، والإسناد غير متقارب، والطرق مختلفة، والنقلة متشابهون، وآفة النسيان معترضة، والوهم غير مأمون؛ فإن تقييد العلم بالكتاب أولى وأشفى، والدليل على وجوبه أقوى؛ فإن احتج محتج بحديث أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا تكتبوا عني ومن كتب غير القرآن فليمحه" خرجه مسلم؛ فالجواب أن ذلك كان متقدما؛ فهو منسوخ بأمره بالكتابة، وإباحتها لأبي شاه وغيره . وأيضا كان ذلك لئلا يخلط بالقرآن ما ليس منه . وكذا ما روى عن أبي سعيد أيضا — حرصنا أن يأذن لنا النبي صلى الله عليه وسلم في الكتابة فأبى — إن كان محفوظا فهو قبل الهجرة، وحين كان لا يؤمن الاشتغال به عن القرآن.

الثالثة — قال أبو بكر الخطيب : ينبغي أن يكتب الحديث بالسواد ؛ ثم الحبر خاصة دون المداد[1] لأن السواد أصبغ الألوان ، والحبر أبقاها على مر الدهور . وهو آلة ذوي العلم، وعدة أهل المعرفة. ذكر عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثني أبي قال: رآني الشافعي وأنا في مجلسه وعلى قميصي حبر وأنا أخفيه؛ فقال : لم تخفيه وتستره ؟ إن الحبر على الثوب من المروءة لأن صورته في الأبصار سواد، وفي البصائر بياض . وقال خالد بن يزيد: الحبر في ثوب صاحب الحديث مثل الخلوق[2] في ثوب العروس . وأخذ هذا المعنى أبو عبد الله البلوي فقال :

مداد المحابر طيب الرجال ... وطيب النساء من الزعفران
فهذا يليق بأثواب ذا ... وهذا يليق بثوب الحصان

(١) لا فرق في اللغة بين المداد والحبر؛ ولعل المراد الكتابة بغير الأسود خاصة؛ فالتفرقة بحسب العرف على ما يبدو.

(٢) الخلوق : طيب معروف يتخذ من الزعفران وغيره .

وذكر المـاوردى أن عبد الله[١] بن سليمان فيما حكى ، رأى على بعض ثيابه أثر صفرة ، فأخذ من مداد الدواة وطلاه به ، ثم قال : المداد بنا أحسن من الزعفران ، وأنشد :

إنمـا الزعفرانُ عطرُ العَذَارَى ✽ ومدادُ الدُّوِيِّ عطـرُ الرِّجالِ

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿لَا يَضِـلُّ رَبِّى وَلَا يَنْسَى﴾ اختلف فى معناه على أقوال خمسة ، الأول : إنه ابتـداء كلام ، تنزيه لله تعالى عن هاتين الصفتين . وقد كان الكلام تم فى قـوله : « فى كتاب » . وكذا قال الزجاج ، وأن معنى « لا يضلّ » لا يهلك من قوله : « أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ » ، « وَلَا يَنْسَى » شيئا ؛ نزهه عن الهلاك والنّسيان . القول الثانى : « لَا يَضِلُّ » لا يخطئ ؛ قاله ابن عباس ؛ أى لا يخطئ فى التدبير ، فمن أنظره فلحكمة أنظره ، ومن عاجله فلحكمة عاجله . القول الثالث : « لا يضل » لا يغيب . قال ابن الأعرابى : أصل الضلال الغيبوبة ؛ يقال : ضلّ الناسى إذا غاب عنه حفظ الشىء . قال : ومعنى « لَا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنْسَى » أى لا يغيب عنه شىء ولا يغيب عن شىء . القول الرابع : قاله الزجاج أيضا وقال النحاس وهو أشبهها بالمعنى — : أخبر الله عز وجل أنه لا يحتاج إلى كتاب ؛ والمعنى ؛ لا يضل عنه علم شىء من الأشياء ولا معرفتها ، ولا ينسى ما علمه منها .

قلت : وهذا القول راجع إلى معنى قول ابن الأعرابى . وقول خامس : إن « لَا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنْسَى » فى موضع الصفة لـ « كتاب » أى الكتاب غير ضال عن الله عز وجل ؛ أى غير ذاهب عنه . « وَلَا يَنْسَى » أى غير ناس له فهما نعتان لـ « كتاب » . وعلى هذا يكون الكلام متصلا ، ولا يوقف على « كتاب » . تقول العرب : ضلّنى الشىء إذا لم أجده ، وأضللته أنا إذا تركته فى موضع فلم تجده فيه . وقرأ الحسن وقتادة وعيسى بن عمر وابن محيصن وعاصم الجحدرى وابن كثير فيما روى شبل عنه « لَا يُضِـلُّ » بضم الياء على معنى لا يُضيعه ربى ولا ينساه . قال ابن عرفة : الضلالة عند العرب سلوك سبيل غير القصد ؛ يقال : ضلّ عن الطريق ، وأضل الشىء إذا أضاعه . ومنه قرأ من قرأ « لا يُضِلُّ رَبِّى » أى لا يُضيع ؛ هذا مذهب العرب .

(١) فى « أدب الدنيا والدين » : عبيد الله بن سليمان .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهَادًا[1] ﴾ « الذى » فى موضع نعت « لربى » أى لايضل ربى الذى جعل . ويجوز أن يكون خبر ابتداء مضمر أى هو « الذى » . ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار أعنى . وقرأ الكوفيون « مَهْدًا » هنا وفى « الزخرف » بفتح الميم وإسكان الهاء . الباقون « مِهَادًا » واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لاتفاقهم على قراءة « أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا » . النحاس : والجمع أولى لأن « مهدا » مصدر وليس هذا موضع مصدر إلا على حذف؛ أى ذات مهد . المهدوى : ومن قرأ « مَهْدًا » جاز أن يكون مصدرا كالفرش أى مَهَد لكم الأرض مَهْدًا؛ وجاز أن يكون على تقدير حذف المضاف؛ أى ذات مهد . ومن قرأ «مِهَادًا» جاز أن يكون مفردا كالفراش . وجاز أن يكون جمع «مهد» استعمل استعمال الأسماء فكسر . ومعنى «مِهَادًا» أى فراشا وقرارا تستقرون عليها . ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ أى طرقا . نظيره « وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا . لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا » . وقال تعالى : «الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهَادًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» . ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ تقدم معناه . وهذا آخر كلام موسى؛ ثم قال الله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ . وقيل : كله من كلام موسى؛ والمعنى «فأخرجنا به» أى بالحرث والمعالجة؛ لأن الماء المنزل سبب خروج النبات . ومعنى ﴿ أَزْوَاجًا ﴾ ضروبا وأشباها ، أى أصنافا من النبات المختلفة الأزواج والألوان . وقال الأخفش : التقدير أزواجا شتى من نبات . قال : وقد يكون النبات شتى؛ فـ«شتى» يجوز أن يكون نعتا لأزواج، ويجوز أن يكون نعتا للنبات . و«شتى»

(١) «مهادا» بالجمع قراءة « نافع » وعليها الأصل .

مأخوذ من شتّ الشيءُ أي تفرق . يقال : أمر شَتٌّ أي متفرق . وشتّ الأمرُ شتًّا وشتاتًا تفرق ؛ واستشتّ مثله . وكذلك التّشتت . وشتّته تشتيتا فرقه . وأشتّ بي قومي أي فرقوا أمري . والشّتيت المتفرق . قال رُؤبة يصف إبلا :

جاءتْ معًا وأطْرقتْ شتيتَا * وهي تُثيرُ السّاطعَ السّخْتيتَا[1]

وثغر شتيتٌ أي مُفلّج . وقوم شتّى ، وأشياء شتّى ، وتقول : جاءوا أشتاتا ؛ أي متفرقين ؛ واحدهم شتٌّ ؛ قاله الجوهري .

قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ أمر إباحة . «وَارْعَوْا» من رعت الماشية الكلأ ، ورعاها صاحبها رعاية ؛ أي أسامها وسرحها ؛ لازم ومتعد. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ أي العقول . الواحدة نُهْيَة . قال لهم ذلك ؛ لأنهم الذين يُنتهى إلى رأيهم . وقيل : لأنهم ينهون النفس عن القبائح . وهذا كله من موسى احتجاج على فرعون في إثبات الصانع جوابا لقوله : « فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى » . وبين أنه إنما يستدل على الصانع اليوم بأفعاله .

قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ يعني آدم عليه السلام لأنه خلق من الأرض؛ قاله أبو إسحق الزجاج وغيره . وقيل : كل نطفة مخلوقة من التراب ؛ على هذا يدل ظاهر القرآن . وروى أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مامن مولود إلا وقد ذُرّ عليه من تراب حُفْرته" أخرجه أبو نعيم الحافظ في باب ابن سيرين، وقال : هذا حديث غريب من حديث عون لم نكتبه إلا من حديث أبي عاصم النبيل، وهو أحد الثقات الأعلام من أهل البصرة . وقد مضى هذا المعنى مبينا في سورة «الأنعام»[2] عن ابن مسعود . وقال عطاء الخراساني : إذا وقعت النطفة في الرحم انطلق الملك الموكل بالرحم فأخذ من تراب المكان الذي يدفن فيه فيذرّه على النطفة، فيخلق الله النّسمة من النّطفة ومن التراب ؛ فذلك قوله تعالى : « مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى » . وفي حديث البراء عن النبي صلى الله عليه وسلم : "إن العبد المؤمن إذا خرجت روحه صعدت به الملائكة فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة

(١) السختيت : دقاق التراب : وهو الغبار الشديد الارتفاع . ويروى : « الشختيتا » بالشين المعجمة .

(٢) راجع جـ ٦ ص ٣٨٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

إلا قالوا ما هذه الروح الطيبة فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا فيستفتحون لها فيفتح فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل «اكتبوا لعبدى كتابا فى عليين وأعيدوه إلى الأرض فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى» فتعاد روحه فى جسده " وذكر الحديث . وقد ذكرناه بتمامه فى كتاب «التذكرة» وروى من حديث على رضى الله عنه؛ ذكره الثعلبى . ومعنى ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ أى بعد الموت ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ ﴾ أى للبعث والحساب . ﴿تَارَةً أُخْرَى﴾ يرجع هذا إلى قوله : « مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ » لا إلى « نُعِيدُكُمْ » . وهو كقولك : اشتريت ناقة ودارا وناقة أخرى ؛ فالمعنى : من الأرض أخرجناكم ونخرجكم بعد الموت من الأرض تارة أخرى .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا ﴾ أى المعجزات الدالة على نبوة موسى . وقيل : حجج الله الدالة على توحيده . ﴿ فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴾ أى لم يؤمن . وهذا يدل على أنه كفر عنادا؛ لأنه رأى الآيات عيانا لا خبرا . نظيره « وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا »

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴾ لما رأى الآيات التى أتاه بها موسى قال : إنها سحر؛ والمعنى : جئت لتوهم الناس أنك جئت بآية توجب اتباعك والإيمان بك، حتى تغلب على أرضنا وعلينا . ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ ﴾ أى لنعارضنك

بمثل ماجئت به ليتبين للناس أن ماأتيت به ليس من عند الله . ﴿ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴾ هو مصدر ؛ أى وعدا . وقيل : الموعد اسم لمكان الوعد ؛ كما قال تعالى : « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ » فالموعد هاهنا مكان . وقيل : الموعد اسم لزمان الوعد ؛ كقوله تعالى : « إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ » فالمعنى : اجعل لنا يوما معلوما ، أو مكانا معروفا . قال القشيرى : والأظهر أنه مصدر ولهذا قال : ﴿ لَا نُخْلِفُهُ ﴾ أى لا نخلف ذلك الوعد ، والإخلاف أن يعد شيئا ولا ينجزه . وقال الجوهرى : والميعاد المواعدة والوقت والموضع وكذلك المَوْعِد . وقرأ أبو جعفر ابن القعقاع وشيبة والأعرج « لَا نُخْلِفْهُ » بالجزم جوابا لقوله « اجْعَلْ » . ومن رفع فهو نعت لـ « موعد » والتقدير : موعدا غير مخلف . ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة « سُوًى » بضم السين . الباقون بكسرها ؛ وهما لغتان مثل عُدًا وعِدًا وطُوًى وطِوًى . واختار أبو عبيد وأبو حاتم كسر السين لأنها اللغة العالية الفصيحة . وقال النحاس : والكسر أعرف وأشهر . وكلهم نونوا الواو ، وقد روى عن الحسن ، واختلف عنه ضم السين بغير تنوين . واختلف فى معناه فقيل : سوى هذا المكان ؛ قاله الكلبى . وقيل : مكانا مستويا يتبين للناس ما بيننا فيه ؛ قاله ابن زيد . ابن عباس : نصفا . مجاهد : منصفا ؛ وعنه أيضا وقتادة عَدلا بيننا وبينك . قال النحاس : وأهل التفسير على أن معنى « سُوًى » نَصَف وعَدْل وهو قول حسن ؛ قال سيبويه يقال : سِوى وسُوًى أى عَدْل ؛ يعنى مكانا عَدْلا بين المكانين فيه النَّصَفة ؛ وأصله من قولك : جلس فى سَواء الدار بالمد أى فى وسطها ؛ ووسط كل شىء أعدله ؛ وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا » أى عدلا ، وقال زهير :

أَرُونَا خُطَّةً لَا ضَيْمَ فِيهَا * يُسَوِّى بيننا فيها السَّوَاءُ

وقال أبو عبيدة والقتبى : وسطا بين الفريقين ؛ وأنشد أبو عبيدة لموسى بن جابر الحنفى :

وإنَّ أبانا كان حَلَّ ببلدةٍ * سِوًى بين قيس قيس عَيْلانَ والفِزْرِ

والفِزْر : سعد بن زيد مَناة بن تميم . وقال الأخفش : « سُوًى » إذا كان بمعنى غير أو بمعنى العدل يكون فيه ثلاث لغات : إن ضممت السين أو كسرت قصرت فيهما جميعا . وإن فتحت مددت ، تقول : مكان سِوًى وسُوًى وسَواء ؛ أى عدل ووسط فيما بين الفريقين . قال موسى بن جابر :

* وجدنا أبانا كان حَلَّ ببلدةٍ *

البيت . وقيل : « مكانا سوى » أى قصدا؛ وأنشد صاحب هذا القول :

لو تمنّتْ حبيبتى ما عَـدَتْنى * أو تَمنَّيتُ ما عَدوتُ سِواها

وتقول : مررت برجل سِواك وسُواك وسَـوائك أى غيرك . وهما فى هذا الأمر سواء وإن شئت سواءان . وهم سواء للجمع وهم أسواء؛ وهم سواسية مثل ثمانية على غير قياس . وانتصب « مكانا » على المفعـول الثانى لـ « جعل » . ولا يحسن انتصابه بالموعد على أنه مفعـول أو ظرف له؛ لأن الموعد قد وصف، والأسماء التى تعمل عمل الأفعال إذا وصفت أو صغّرت لم يسغ أن تعمل لخروجها عن شبه الفعل، ولم يحسن حمله على أنه ظرف وقع موقع المفعول الثانى؛ لأن الموعد إذا وقع بعده ظرف لم تجره العرب مجـرى المصادر مع الظروف، لكنهم يتسعون فيه كقوله تعالى : « إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ » و« مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَـةِ » . واختلف فى يوم الزينة، فقيل هو يوم عيد كان لهم يتزيّنون ويجتمعون فيه؛ قاله قتادة والسدى وغيرهما. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : كان يوم عاشوراء . وقال سعيد بن المسيّب : يوم سوق كان لهم يتزيّـنون فيها؛ وقاله قتادة أيضـا . وقال الضحاك : يوم السبت . وقيـل : يوم النيروز؛ ذكره الثعلبى . وقيل : يومٌ يكسر فيه الخليج؛ وذلك أنهم كانوا يخرجون فيه يتفرجون ويتنزهون؛ وعند ذلك تأمن الديار المصرية من قِبل النيل . وقرأ الحسن والأعمش وعيسى الثقفى والسُّلَمى وهبيرة عن حفص « يَوْمَ الزِّينَـةِ » بالنصب . وروىت عن أبى عمرو؛ أى فى يوم الزينـة إنجاز موعدنا . الباقون بالرفع على أنه خبر الابتـداء . ﴿ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ أى وجمع الناس؛ فـ « أَنْ » فى موضع رفع على قراءة من قرأ « يَوْمُ » بالرفع . وعطف « وَأَنْ يُحْشَرَ » يقوّى قراءة الرفع ؛ لأن « أَنْ » لا تكون ظرفا، وإن كان المصـدر الصريح يكون ظرفا كمقدم الحاج؛ لأن من قال : آتيك مقدم الحاج لم يقل آتيك أن يقدم الحاج . النحاس : وأولى من هـذا أن يكون فى موضع خفض عطفا على الزينـة . والضحا مؤنثـة تصغرها العرب بغير هاء لئلا يشبه تصغيرها تصغير ضحوة؛ قاله النحاس . وقال الجوهرى :

ضحوة النهار بعد طلوع الشمس، ثم بعده الضّحا وهى حين تُشرق الشمس؛ مقصورة تؤنث وتذكّر؛ فمن أنث ذهب الى أنها جمع ضحوة؛ ومن ذكّر ذهب الى أنه اسم على فُعَل مثل صُرَد ونُغَر، وهو ظرف غير متمكن مثل سحر؛ تقول : لقيته ضُحًا، وضُحَا إذا أردت به ضُحَا يومك لم تنونه، ثم بعده الضَّحاء ممدود مذكر، وهو عند ارتفاع النهار الأعلى . وخصّ الضُحا لأنه أول النهار، فلو امتد الأمر فيا بينهم كان فى النهار متّسع . وروى عن ابن مسعود والجحدرى وغيرهما « وَأَنْ يَحْشُرَ النَّاسَ ضُحًا » على معنى وأن يحشر الله الناس ونحوه . وعن بعض القراء « وَأَنْ تَحْشُرَ النَّاسَ » والمعنى وأن تحشر أنت يا فرعون الناس . وعن الجحدرى أيضا « وَأَنْ نَحْشُرَ » بالنون . وإنما واعدهم ذلك اليوم؛ ليكون علو كلمة الله، وظهور دينه، وكبت الكافر، وزهوق الباطل على رءوس الأشهاد، وفى المجمع الغاصّ لتقوى رغبة من رغب فى الحق، ويكلّ حدّ المبطلين وأشياعهم، ويكثر المحدّثُ بذلك الأمر العلمَ فى كل بدو وحضر، ويشيع فى جمع أهل الوَبَر والمدَر .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ أى حيله وسحره؛ والمراد جَمْع السّحرة . قال ابن عباس : كانوا اثنين وسبعين ساحرا، مع كل ساحر منهم حبال وعصيّ . وقيل : كانوا أربعمائة . وقيل : كانوا اثنى عشر ألفا . وقيل : أربعة عشر ألفا . وقال ابن المنكدر : كانوا ثمانين ألفا . وقيل : كانوا مجمعين على رئيس يقال له شمعون . وقيل : كان اسمه يوحنا معه اثنا عشر نقيبا، مع كل نقيب عشرون عريفا، مع كل عريف ألف ساحر . وقيل : كانوا ثلثمائة ألف ساحر من الفيوم، وثلثمائة ألف ساحر من الصعيد، وثلثمائة ألف ساحر من الريف، فصاروا تسعمائة ألف، وكان رئيسهم أعمى . ﴿ ثُمَّ أَتَى ﴾ أى أتى الميعاد . ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى ﴾ أى قال لفرعون والسحرة ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ دعاء عليهم بالويل . وهو بمعنى المصدر . وقال أبو إسحق الزجاج : هو منصوب بمعنى ألزمهم الله وَيْلا . قال : ويجوز أن يكون نداء كقوله تعالى : « يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا » . ﴿ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أى لا تختلقوا عليه الكذب، ولا تشركوا به، ولا تقولوا للمعجزات إنها سحر . ﴿ فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ ﴾ من عنده أى يستأصلكم بالإهلاك .

يقال فيه : سَحَت وأسحت بمعنًى . وأصله من ٱستقصاء الشَّعْر . وقرأ الكوفيون « فَيُسْحِتَكُمْ » من أَسْحَت، الباقون «فَيَسْحَتَكُمْ» من سَحَت وهذه لغة أهل الحجاز و[الأولى لغة][1] بني تميم . وانتصب على جواب النهى . وقال الفرزدق :

وعَضّ زمانٍ يابنَ مَرْوانَ لم يَدَعْ ... من المالِ إلا مُسْحتًا[2] أو مُجَلَّفُ[3]

الزمخشري : وهذا بيت لا تزال الركب تصطك في تسوية إعرابه . ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ أي خسر وهلك، وخاب من الرحمة والثواب من ٱدعى على الله مالم يأذن به .

قوله تعالى : ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ۝٦٢ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ۝٦٣ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ۝٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أي تشاوروا ؛ يريد السحرة . ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ قال قتادة ﴿قَالُوا﴾ : إن كان ما جاء به سحرا فسنغلبه ، وإن كان من عند الله فسيكون له أمر؛ وهذا الذي أسروه . وقيل الذي أسروا قولهم : « إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ » الآية ، قاله السدي ومقاتل . وقيل الذي أسروا قولهم : إن غَلَبنا اتبعناه؛ قاله الكلبي ؛ دليله ما ظهر من عاقبة أمرهم . وقيل : كان سرهم أن قالوا حين قال لهم موسى « وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » : ما هذا بقول ساحر . و « النجوى » المناجاة يكون ٱسما ومصدرا ؛ وقد تقدم في « النساء »[4] بيانه .

---

(١) الزيادة من كتب التفسير . (٢) ويروى : « إلا مسحت » ومن رواه كذلك جعل معنى « لم يدع » لم يتقار؛ ومن رواه « إلا مسحتا » جعل « لم يدع » بمعنى لم يترك . ورفع « مجلف » بإضمار؛ كأنه قال : أو هو مجلف . « اللسان » . (٣) المجلف : الذي بقيت منه بقية . (٤) راجع جـ ٥ ص ٢٨٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ قرأ أبو عمرو « إِنَّ هَذَيْنِ لَسَاحِرَانِ » . وروبت عن عثمان وعائشة رضى الله عنهما وغيرهما من الصحابة؛ وكذلك قرأ الحسن وسعيد بن جبير و إبراهيم النَّخَعىّ وغيرهم من التابعين؛ ومن القراء عيسى بن عمر وعاصم الجحدرى؛ فيما ذكر النحاس . وهذه القراءة موافقة للإعراب مخالفة للمصحف . وقرأ الزهرىّ والخليل بن أحمد والمفضّل وأبان وابن محيصن وابن كثير وعاصم فى رواية حفص عنه « إِنْ هَذَانِ » بتخفيف «إن» «لساحران» وابن كثير يشدّد نون «هذانّ» . وهذه القراءة سلمت من مخالفة المصحف ومن فساد الإعراب، ويكون معناها ما هذان إلا ساحران . وقرأ المدنيون والكوفيون « إِنَّ هَـٰذَانِ » بتشديد « إنّ » « لساحران » فوافقوا المصحف وخالفوا الإعراب . قال النحاس : فهذه ثلاث قراءات قد رواها الجماعة عن الأئمة، وروى عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ « إِنْ هذانِ إِلّا ساحِرانِ » وقال الكسائى فى قراءة عبد الله : « إِنْ هَذَانِ سَاحِرَانِ » بغير لام؛ وقال الفراء فى حرف أبىّ « إِنْ ذَانِ إِلّا سَاحِرَانِ » فهذه ثلاث قراءات أخرى تحمل على التفسير لا أنها جائز أن يقرأ بها لمخالفتها المصحف .

قلت : وللعلماء فى قراءة أهل المدينة والكوفة ستة أقوال ذكرها ابن الأنبارى فى آخر كتاب الردّ له ، والنحاس فى إعرابه ، والمهدوى فى تفسيره ، وغيرهم أدخل كلام بعضهم فى بعض . وقد خطأها قوم حتى قال أبو عمرو : إنى لأستحى من الله أن أقرأ « إِنَّ هَذَانِ » : وروى عروة عن عائشة رضى الله عنها أنها سئلت عن قوله تعالى : « لَٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ » ثم قال : « والمقيمين » وفى « المائدة » « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ » و « إِنَّ هَـٰذَانِ لَسَاحِرَانِ » فقالت : يابن أختى ! هـذا خطأ من الكاتب . وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه : فى المصحف لحن وستقيمه العرب بألسنتهم . وقال أبان بن عثمان : قرأت هذه الآية عند أبى عثمان بن عفان . فقال : لحن وخطأ ؛ فقال له قائل : ألا تغيروه؟ فقال : دعوه فإنه لا يحرّم حلالا ولا يحلّل حراما . القول الأول من الأقوال الستة أنها لغة بنى الحرث بن كعب وزبيد وخثعم وكنانة بن زيد يجعلون رفع الاثنين ونصبه وخفضه بالألف ؛

يقولون: جاء الزيدان ورأيت الزيدان ومررت بالزيدان، ومنه قوله تعالى: «ولا أدراكم به» على ما تقدّم[1] . وأنشد الفراء لرجل من بني أسد[2] — قال: وما رأيت أفصح منه :

فأطرقَ إطراقَ الشُّجاعِ ولو يَرَى ٭ مَساغًا لِنَاباهُ الشُّجاعُ لَصَمَّمَا[3]

ويقولون : كسرت يداه وركبت عَلَاه[4] ؛ بمعنى يديه وعليه ؛ قال شاعرهم :

تَزَوَّدَ مِنّا بين أُذْناه ضَرْبةً ٭ دعته إلى هابِي التُّرابِ عقيمِ

وقال آخر :[5] ٭ طاروا عَلَاهُنَّ فَطِرْ عَلَاهَا ٭

أي عليهنّ وعليها .

وقال آخر :[6] إنّ أباها وأبَا أباهَا ٭ قد بَلَغَا في المجدِ غايتاها

أي إن أبا أبيها وغايتيها. قال أبو جعفر النحاس: وهذا القول من أحسن ما حملت عليه الآية ؛ إذ كانت هذه اللغة معروفة، وقد حكاها من يرتضى بعلمه وأمانته ؛ منهم أبو زيد الأنصاري، وهو الذي يقول : إذا قال سيبويه حدثني من أثق به فإنما يعنيني ؛ وأبو الخطاب الأخفش وهو رئيس من رؤساء اللغة، والكسائي والفراء كلهم قالوا هذا على لغة بني الحرث بن كعب . وحكى أبو عبيدة عن أبي الخطاب أن هذه لغة بني كنانة . المهدوي : وحكى غيره أنها لغة لخثعم . قال النحاس ومن أبين ما في هذا قول سيبويه : واعلم أنك إذا ثنيت الواحد زدت عليه زائدتين ، الأولى منهما حرف مد ولين وهو حرف الإعراب ؛ قال أبو جعفر فقول سيبويه : وهو حرف الإعراب ، يوجب أن الأصل ألا يتغير ، فيكون « إنّ هذانِ » جاء

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٢٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) هو المتلمس كما في « اللسان » .

(٣) صمم الشجاع في عضه : أي عض ونيب فلم يرسل ما عض . (٤) هو هوبر الحارثي . والهابي من التراب ما ارتفع ودق . (٥) قيل : هو لبعض أهل اليمن ، وأن قبله :

أيّ قلوص راكب تراها ٭ طاروا علاهن فطر علاها

واشدد بمثنى حقب حقواها ٭ ناجية وناجيا أباها

والحقو : الخاصرة . والناجية : السريعة . (٦) نسبه الجوهري لأبي النجم ، وأن قبله :

واها لسلمى ثم واها واها ٭ هي المنى لو أننا نلناها

يا ليت عيناها لنا وفاها ٭ بثمن نرضى به أباها

إن أباها ... الخ . ونسبه بعضهم لرؤبة . وقيل : لبعض أهل اليمن ؛ وأن قبله :

أي قلوص راكب تراها ٭ طاروا علاهن ... الخ .

على أصله ليعلم ذلك ، وقد قال تعالى : « ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ » ولم يقل ٱستحاذ ؛ فجاء هذا ليدل على الأصل ، وكذلك « إِنَّ هَذَانِ » ولا يفكر فى إنكار من أنكر هذه اللغة إذا كان الأئمة قد رووها . القول الثانى : أن يكون « إنّ » بمعنى نعم ؛ كما حكى الكسائى عن عاصم قال : العرب تأتى بـ « إنّ » بمعنى نعم ، وحكى سيبويه أن « إنّ » تأتى بمعنى أَجَلْ ، وإلى هذا القول كان محمد بن يزيد ، وإسمعيل بن إسحق القاضى يذهبان ؛ قال النحاس : ورأيت أبا إسحق الزجاج وعلى بن سليمان يذهبان إليه . الزمخشرى : وقد أعجب به أبو إسحق . النحاس : وحدثنا علىّ بن سليمان ، قال حدثنا عبد الله بن أحمد بن عبد السلام النيسابورىّ ، ثم لقيت عبد الله بن أحمد [هذا][1] فحدثنى ، قال حدثنى عمير بن المتوكل ، قال حدثنا محمد بن موسى النوفلى من ولد حرث بن عبد المطلب ، قال حدثنا عمر بن جميع الكوفى عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علىّ ــ وهو ابن الحسين ــ عن أبيه عن علىّ بن أبى طالب رضوان الله عليهم أجمعين ، قال : لا أحصى كم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على منبره : " إنَّ الحمدُ لله نحمده ونستعينه " ثم يقول : " أنا أفصح قريش كلها وأفصحها بعدى أبان بن سعيد بن العاص " قال أبو محمد الخفاف قال عمير : إعرابه عند أهل العربية والنحو " إنّ الحمد لله " بالنصب إلا أن العرب تجعل « إن » فى معنى نعم ، كأنه أراد صلى الله عليه وسلم نعم الحمد لله ؛ وذلك أن خطباء الجاهلية كانت تفتتح خطبها بنعم . وقال الشاعر فى معنى نعم :

قالوا غَدَرْتَ فقلتُ إنّ وربّما * نَالَ العُلاَ وشَفَى الغَلِيلَ الغادِرُ

وقال عبد الله بن قيس الرُّقيات :

بَكَرَ العواذلُ فى الصَّبا * حِ يَلُمْنَنِي وأَلُومُهُنَّه

ويَقُلْنَ شيبٌ قد علا * كَ وقد كَبِرتَ فقلتُ إنَّهْ

فعلى هذا جائز أن يكون قول الله عز وجل : « إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ » بمعنى نعم ولا تنصب . قال النحاس : أنشدنى داود بن الهيثم ، قال أنشدنى ثعلب

ليت شعرى هل للمحبّ شفاءٌ * من جَوَى حبّهن إنَّ اللقاءُ

---

(١) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس .

قال النحاس : وهذا قول حسن إلا أن فيه شيئا لأنه إنما يقال: نعم زيد خارج، ولا تكاد تقع اللام هاهنا، وإن كان النحويون قد تكلموا فى ذلك فقالوا: اللام ينوى بها التقديم، كما قال :

خالِى لأنتَ ومَنْ جريرٌ خالُه * ينَلِ العَلاء ويُكْرِمِ الأَخوالا

آخـر :

أُمُّ الحُلَيْسِ لَعَجُوزٌ شَهْرَبَهْ * تَرْضَى من الشّاةِ بعَظْمِ الرَّقَبَهْ

أى لخالى ولأم الحليس ؛ وقال الزجاج : والمعنى فى الآية إن هـذان لهما ساحران ثم حذف المبتدأ . المهدوى : وأنكره أبو علىّ وأبو الفتح بن جنىّ . قال أبو الفتح : « هما » المحذوف لم يحذف إلا بعد أن عُرِف، وإذا كان معروفا فقد آستغنى بمعرفته عن تأكيده باللام، ويقبح أن تحذف المؤكَّد وتترك المؤكِّد . القول الثالث قاله الفراء أيضا : وجدت الألف دعامة ليست بلام الفعل ، فزدت عليها نونا ولم أغيرها ، كما قلت : « الذى » ثم زدت عليه نونا فقلت : جاءنى الذين عندك ، ورأيت الذين عندك ، ومررت بالذين عندك . القـول الرابع قاله بعض الكوفيين؛ قال: الألف فى «هذان» مشبهة بالألف فى يفعلان؛ فلم تغير . القول الخامس: قال أبو إسحق : النحويون القدماء يقولون الهاء هاهنا مضمرة ، والمعنى : إنه هذان لساحران ؛ قال ابن الأنبارى : فأضمرت الهاء التى هى منصوب « إن » و « هـذان » خبر « إن » و « ساحران » يرفعها « هما » المضمر [والتقدير] [1] إنه هذان لها ساحران . والأشبه عند أصحاب أهل هذا الجواب أن الهاء اسم « إن » و « هذان » رفع بالابتداء وما بعده خبر الابتداء . القول السادس : قال أبو جعفر النحاس وسألت أبا الحسن بن كيسان عن هذه الآية ، فقال : إن شئت أجبتك بجواب النحويين ، وإن شئت أجبتك بقولى ؛ فقلت : بقولك؛ فقال: سألنى إسمعيل بن إسحق عنها فقلت : القول عندى أنه لما كان يقال «هذا» فى موضع الرفع والنصب والخفض على حال واحدة ، وكانت التثنية يجب ألا يغير لها الواحد ، أجريت التثنية مجرى الواحدة ؛ فقال : ما أحسن هذا لو تقدمك أحد بالقول به حتى يؤنس به ؛ قال ابن كيسان : فقلت له : فيقول القاضى به حتى يؤنس به ؛ فتبسم .

---

(١) الزيادة يقتضيها السياق .

قوله تعالى : ﴿ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴾
هذا من قول فرعون للسحرة ؛ أى غرضهما إفساد دينكم الذى أنتم عليه ؛ كما قال فرعون : « إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِى الْأَرْضِ الْفَسَادَ » . ويقال: فلان حسن الطريقة أى حسن المذهب . وقيل : طريقة القوم أفضل القوم ؛ وهذا الذى ينبغى أن يسلكوا طريقته ويقتدوا به ؛ فالمعنى : ويذهبا بسادتكم ورؤسائكم ؛ آستمالة لهم . أو يذهبا ببنى إسرائيل وهم الأماثل وإن كانوا خولا لكم لما يرجعون إليه من الانتساب إلى الأنبياء . أو يذهبا بأهل طريقتكم فحذف المضاف . و « المثلى » تأنيث الأمثل ؛ كما يقال الأفضل والفضلى . وأنث الطريقة على اللفظ ، وإن كان يراد بها الرجال . ويجوز أن يكون التأنيث على الجماعة . وقال الكسائى : « بطريقتكم » بسنتكم وسمتكم . و « المثلى » نعت كقولك آمرأة كبرى . تقول العرب : فلان على الطريقة المثلى يعنون على الهدى المستقيم .

قوله تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ﴾ الإجماع الإحكام والعزم على الشىء . تقول : أجمعت الخروج وعلى الخروج أى عزمت . وقراءة كل الأمصار « فَأَجْمِعُوا » إلا أبا عمرو فإنه قرأ « فَاجْمَعُوا » بالوصل وفتح الميم . وآحتج بقوله : « فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى » . قال النحاس وفيما حكى لى عن محمد بن يزيد أنه قال : يجب على أبى عمرو أن يقرأ بخلاف قراءته هذه ، وهى القراءة التى عليها أكثر الناس . قال : لأنه احتج بـ « جمع » وقوله عز وجل : «فجمع كيده» قد ثبت هذا فيبعد أن يكون بعده «فَاجْمَعُوا» ويقرب أن يكون بعده «فَأَجْمِعُوا» أى آعزموا وجدّوا؛ ولما تقدم ذلك وجب أن يكون هذا بخلاف معناه يقال : أمر مجمع ومُجْمَع عليه . قال النحاس : ويصحح قراءة أبى عمرو « فَاجْمَعُوا » أى آجمعوا كل كيد لكم وكل حيلة فضُمُّوه مع أخيه . وقاله أبو إسحق . الثعلبى : القراءة بقطع الألف وكسر الميم لها وجهان : أحدهما ــ بمعنى الجمع ، تقول : أجمعت الشىء وجمعته بمعنى واحد ، وفى الصحاح : وأجمعت الشىء جعلته جميعا؛ قال أبو ذؤيب يصف حُمُرا :

فكأنها بالجِزْعِ بين نُبَايِعٍ[(1)] ﴿ وأولاتِ ذى العَرْجاءِ نَهْبٌ مُجْمَعُ

(1) نبايع : اسم مكان أو جبل أو واد فى بلاد هذيل ؛ ويجمع على « نبايعات » .

أى مجموع . والثانى — أنه بمعنى العزم والإحكام؛ قال الشاعر :

ياليت شعرى والمُنَى لاتنفعُ * هـل أغدُوَن يوماً وأمرِى مُجمَعُ

أى مُحكَم . ﴿ ثُمَّ ٱئْتُوا صَفًّا ﴾ قال مقاتل والكلبي : جميعا . وقيل : صفوفا ليكون أشد لهيبتكم . وهو منصوب بوقوع الفعل عليه على قول أبى عبيدة؛ قال يقال : أتيت الصّفّ يعنى المصلّى؛ فالمعنى عنده ائتوا الموضع الذى تجتمعون فيه يوم العيد . وحكى عن بعض فصحاء العرب : ماقدرت أن آتى الصفّ؛ يعنى المصلّى . وقال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى ثم ائتوا والناس مصطفون؛ فيكون على هذا مصدرا فى موضع الحال . ولذلك لم يجمع . وقرئ « ثُمَّ ايتُوا » بكسر الميم وياء . ومن ترك الهمز أبدل من الهمزة ألفا . ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾ أى من غلب . وهذا كله من قول السحرة بعضهم لبعض . وقيل : من قول فرعون لهم .

قوله تعالى : قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَامُوسَىٰ ﴾ يريد السحرة . ﴿ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ ﴾ عصاك من يدك ﴿ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾ تأدبوا مع موسى فكان ذلك سبب إيمانهم . ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ ﴾ في الكلام حذف، أي فألقوا؛ دل عليه المعنى . وقرأ الحسن ﴿ وَعُصِيُّهُمْ ﴾ بضم العين . قال هرون القارئ : لغة بني تميم « وعُصِيُّهم » وبها يأخذ الحسن . الباقون بالكسر إتباعا لكسرة الصاد . ونحوه دُلِيّ ودِلِيّ وقُسِي وقِسِي . ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ . وقرأ ابن عباس وأبو حيوة وابن ذكوان وروح عن يعقوب « تُخَيَّلُ » بالتاء ؛ وردّوه إلى العصيّ والحبال إذ هي مؤنثة . وذلك أنهم لطخوا العصيّ بالزئبق، فلما أصابها حرّ الشمس ٱرتهشت وٱهتزت . قال الكلبي : خُيِّل إلى موسى أن الأرض حيات وأنها تسعى على بطنها . وقرئ « تَخَيَّلُ » بمعنى تتخيل وطريقه طريق « تُخَيَّلُ » ومن قرأ « يُخَيَّلُ » بالياء رده إلى الكيد . وقرئ « نُخَيِّل » بالنون على أن الله هو المخيِّل للمحنة والابتلاء . وقيل : الفاعل « أَنَّهَا تَسْعَىٰ » فـ « أنّ » في موضع رفع ؛ أي يخيّل إليه سعيها ؛ قاله الزجاج . وزعم الفراء أن موضعها موضع نصب؛ أي بأنها ثم حذف الباء . والمعنى في الوجه الأوّل : تشبّه إليه من سحرهم وكيدهم حتى ظن أنها تسعى . وقال الزجاج : ومن قرأ بالتاء جعل «أنّ» في موضع نصب أي تخيّل إليه ذاتَ سعي . قال : ويجوز أن تكون في موضع رفع بدلا من الضمير في «تخيّل» وهو عائد على الحبال والعصيّ، والبدل فيه بدل اشتمال . و «تسعى» معناه تمشي .

قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ﴾ أي أضمر . وقيل : وجد . وقيل : أحسّ . أي من الحيات وذلك على مايعرض من طباع البشر على ماتقدم . وقيل : خاف أن يفتتن الناس قبل أن يلق عصاه . وقيل : خاف حين أبطأ عليه الوحي بإلقاء العصا أن يفترق الناس قبل ذلك فيفتتنوا . وقال بعض أهل الحقائق : إنما كان السبب أن موسى عليه السلام لما التقى بالسحرة وقال لهم : « وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ » التفت فإذا جبريل على يمينه فقال له ياموسى تَرَفَّق بأولياء الله . فقال موسى : ياجبريل هؤلاء سحرة جاءوا بسحر عظيم ليبطلوا المعجزة، وينصروا دين فرعون، ويردوا دين الله، تقول : ترفّق

بأولياء الله ! فقال جبريل : هم من الساعة إلى صلاة العصر عندك، وبعد صلاة العصر في الجنة . فلما قال له ذلك ، أُوجس في نفس موسى ، وخَطَر أن ما يُدريني ما عِلْم الله فيّ ، فلعلّي أكون الآن في حالة، وعِلْم الله فيّ على خلافها كما كان هؤلاء . فلما علم الله ما في قلبه أوحى الله إليه ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ أي الغالب لهم في الدنيا، وفي الدرجات العلا في الجنة؛ للنبوّة والاصطفاء الذي آتاك الله به . وأصل « خِيفة » خِوْفة فانقلبت الواو ياء لانكسار الخاء .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ[1] مَا صَنَعُوا ﴾ ولم يقل وألق عصاك ، فجائز أن يكون تصغيرا لها؛ أي لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم ، وألق العُوَيد الفَرْد الصغير الجِرْم الذي في يمينك، فإنه بقدرة الله يتلقفها على وحدته وكثرتها ، وصغره وعظمها . وجائز أن يكون تعظيما لها أي لا تحفل بهذه الأجرام الكثيرة الكبيرة فإن في يمينك شيئا أعظم منها كلها، وهذه على كثرتها أقل شيء وأنزره عندها؛ فألقه يتلقّفها بإذن الله ويمحقها. و « تَلَقَّفْ » بالجزم جواب الأمر؛ كأنه قال : إن تلقه تتلقّف؛ أي تأخذ وتبتلع . وقرأ السُّلَمِيّ وحفص « تَلْقَفْ » ساكنة اللام من لَقِف يَلْقَف لَقْفا . وقرأ ابن ذكوان وأبو حيوة الشامي ويحيى بن الحرث « تَلَقَّفُ » بحذف التاء ورفع الفاء، على معنى فإنها تتلقف . والخطاب لموسى . وقيل : للعصا. واللقف الأخذ بسرعة . يقال : لَقِفتُ الشيء (بالكسر) ألقفه لَقْفا، وتلقفته أيضا أي تناولته بسرعة . عن يعقوب : يقال رجل لَقْف ثَقْف أي خفيف حاذق . واللَّقَف (بالتحريك) سقوط الحائط . ولقد لقِف الحوضُ لَقَفا أي تَهَوّر من أسفله واتسع . وتَلْقَف وتلقم وتلهم بمعنى . وقد مضى في « الأعراف »[2] . لقِمت اللُّقمة (بالكسر) لَقْما، وتلقّمتها إذا ابتلعتها في مهلة . وكذلك لَهِمه (بالكسر) إذا ابتلعه . ﴿ مَا صَنَعُوا ﴾ أي الذي صنعوه وكذا ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا ﴾ أي إن الذي صنعوه ؛ ﴿ كَيْدُ ﴾ بالرفع ﴿ سِحْرٍ ﴾ بكسر السين وإسكان الحاء؛ وهي قراءة الكوفيين إلا عاصما . وفيه وجهان : أحدهما — أن يكون الكيد مضافا إلى السحر

(١) « تلقف » بالتشديد قراءة « نافع » . (٢) راجع ج ٧ ص ٢٥٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

على الإتباع من غير تقدير حذف . والثاني ـ أن يكون في الكلام حذف أي كيد ذي سحر. وقرأ الباقون « كَيْدَ » (١) بالنصب بوقوع الصنع عليه ، و « ما » كافة ولا تضمر هاء « ساحر » بالإضافة . والكيد في الحقيقة على هذه القراءة مضاف للساحر لا للسحر . ويجوز فتح « أنّ » على معنى لأن ما صنعوا كيد ساحر . ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ أي لا يفوز ولا ينجو حيث أتى من الأرض . وقيل : حيث احتال . وقد مضى في « البقرة » (٢) حكم الساحر ومعنى السحر فتأمله هناك .

قوله تعالى : ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا ﴾ لما رأوا من عظيم الأمر وخرق العادة في العصا ، فإنها ابتلعت جميع ما احتالوا به من الحبال والعصي ، وكانت حمل ثلثمائة بعير ثم عادت عصا لا يعلم أحد أين ذهبت الحبال والعصي إلا الله تعالى . وقد مضى في « الأعراف » (٣) هذا المعنى وأمر العصا مستوفى . ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى . قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ ﴾ أي به ؛ يقال : آمن له وآمن به ؛ ومنه « فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ » وفي الأعراف « قَالَ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ » . إنكار منه عليهم ؛ أي تعديتم وفعلتم ما لم آمركم به . ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ . أي رئيسكم في التعليم ، وإنما غلبكم لأنه أحذق به منكم . وإنما أراد فرعون بقوله هذا ليشبه على الناس حتى لا يتبعوهم فيؤمنوا كإيمانهم ، وإلا فقد علم فرعون أنهم لم يتعلموا من موسى ، بل قد علموا السحر قبل قدوم موسى وولادته . ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ أي على جذوع النخل : قال سويد بن أبي كاهل :

هُمُ صَلَبُوا العبديّ في جذع نخلةٍ ❊ فلا عَطَسَتْ شيبانُ إلا بأجدعا

فقطع وصلب حتى ماتوا رحمهم الله تعالى . وقرأ ابن محيصن هنا وفي الأعراف « فَلَأَقْطَعَنَّ » ، « وَلَأَصْلُبَنَّكُمْ » بفتح الألف والتخفيف من قطع وصلب . ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ يعني أنا أم رب موسى .

(١) العبارة هنا على إطلاقها تفيد أن هذه قراءة الجمهور ، والجمهور قرأ « كيد ساحر » برفع « كيد » كما في « البحر » وغيره ؛ قال في البحر : وقرأ الجمهور « كيد » بالرفع . (٢) راجع ج ٢ ص ٤٢ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

(٣) راجع ج ٧ ص ٢٥٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ﴾ يعنى السحرة ﴿ لَنْ نُؤْثِرَكَ ﴾ أى لن نختارك ﴿ عَلَى مَاجَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ قال ابن عباس : يريد من اليقين والعلم . وقال عكرمة وغيره : لما سجدوا أراهم الله فى سجودهم منازلهم فى الجنة؛ فلهذا قالوا « لن نؤثرك » . وكانت امرأة فرعون تسأل من غلب ، فقيل لها : غلب موسى وهرون ؛ فقالت : آمنت برب موسى وهرون . فأرسل إليها فرعون فقال : أنظروا أعظم صخرة فإن مضت على قولها فالقوها عليها ؛ فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت منزلها فى الجنة ، فمضت على قولها فانتزع روحها، وألقيت الصخرة على جسدها وليس فى جسدها روح . وقيل : قال مقدم السحرة لمن يثق به لما رأى من عصا موسى ما رأى : انظر إلى هذه الحية هل تخوفت[1] فتكون جنياً أو لم تخوف فهى من صنعة الصانع الذى لا يعزب عليه مصنوع ؛ فقال : ما تخوفت ؛ فقال : آمنت برب هرون وموسى . ﴿ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾ قيل : هو معطوف على « مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ » أى لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ولا على الذى فطرنا أى خلقنا . وقيل : هو قسم أى والله لن نؤثرك . ﴿ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴾ التقدير ما أنت قاضيه . وليست « ما » ها هنا التى تكون مع الفعل بمنزلة المصدر؛ لأن تلك توصل بالأفعال، وهذه موصولة بابتداء وخبر .

(١) فى نسخة « تجوفت — أو لم تجوف — ما تجوفت » بالجيم .

قال ابن عباس : فاصنع ما أنت صانع . وقيل : فاحكم ما أنت حاكم ؛ أي من القطع والصلب .
وحذفت الياء من قاض في الوصل لسكونها وسكون التنوين . واختار سيبويه إثباتها في الوقف
لأنه قد زالت علة الساكنين . ﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أي إنما ينفذ أمرك فيها .
وهي منصوبة على الظرف ، والمعنى : إنما تقضي في متاع هذه الحياة الدنيا . أو وقت هذه
الحياة الدنيا ، فتقدر حذف المفعول . ويجوز أن يكون التقدير : إنما تقضي أمور هذه الحياة
الدنيا ، فتنتصب انتصاب المفعول و « ما » كافة لإن . وأجاز الفراء الرفع على أن تجعل « ما »
بمعنى الذي وتحذف الهاء من تقضي ورفعت « هذه الحياة الدنيا » . ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا ﴾
أي صدقنا بالله وحده لا شريك له وما جاءنا به موسى ﴿ لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ﴾ يريدون الشرك
الذي كانوا عليه . ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾ « ما » في موضع نصب معطوفة على الخطايا .
وقيل : لا موضع لها وهي نافية ؛ أي ليغفر لنا خطايانا من السحر وما أكرهتنا عليه . النحاس :
والأول أولى . المهدوي : وفيه بعد ؛ لقولهم : « إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ » وليس
هذا بقول مُكْرَهين ؛ ولأن الإكراه ليس بذنب ، وإن كان يجوز أن يكونوا أكرهوا على تعليمه
صغارا . قال الحسن : كانوا يعلمون السحر أطفالا ثم عملوه مختارين بعد . ويجوز أن يكون
« ما » في موضع رفع بالابتداء ويضمر الخبر ، والتقدير : وما أكرهتنا عليه من السحر موضوع
عنا . و « من السحر » على هذا القول والقول الأول يتعلق بـ « ما أكرهتنا » . وعلى أن
« ما » نافية يتعلق بـ « خطايانا » . ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ أي ثوابه خير وأبقى فحذف المضاف ؛
قاله ابن عباس . وقيل : الله خير لنا منك وأبقى عذابا لنا من عذابك لنا . وهو جواب قوله :
« وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى » وقيل : الله خير لنا إن أطعناه ، وأبقى عذابا منك إن عصيناه .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا ﴾ قيل : هو من قول السحرة لما آمنوا . وقيل :
ابتداء كلام من الله عز وجل . والكناية في « إنه » ترجع إلى الأمر والشأن . ويجوز إن
من يأت ، ومنه قول الشاعر[1] :

إن من يدخل الكنيسة يوما * يلق فيها جآذرا وظباء

(١) البيت للأخطل وهو نصراني .

أراد إنه من يدخل؛ أى إن الأمر هذا؛ وهو أن المجرم يدخل النار، والمؤمن يدخل الجنة .
والمجرم الكافر . وقيل : الذى يقترف المعاصى و يكتسبها . والأول أشبه؛ لقوله : ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا ﴾ وهذه صفة الكافر المكذب الجاحد — على ما تقدم بيانه فى سورة « النساء » وغيرها — فلا ينتفع بحياته ولا يستريح بموته . قال الشاعر :

ألا مَنْ لنفس لا تموت فينقضى ٭ شقاها ولا تحيا حياةً لها طَعْمُ

وقيل : نفس الكافر معلقة فى حنجرته ؛ كما أخبر الله تعالى عنه فلا يموت بفراقها، ولا يحيا باستقرارها . ومعنى « مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا » من يأت موعد ربه . ومعنى ﴿ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا ﴾ أى يمت عليه و يوافيه مصدقا به . ﴿ قَدْ عَمِلَ ﴾ أى وقد عمل ﴿ الصَّالِحَاتِ ﴾ أى الطاعات وما أمر به ونهى عنه . ﴿ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا ﴾ أى الرفيعة التى قصرت دونها الصفات . ودل قوله : « وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا » على أن المراد بالمجرم المشرك .

قوله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ بيان للدرجات و بدل منها، والعَدْن الإقامة؛ وقد تقدم بيانه (1) . ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ﴾ أى من تحت غرفها وسررها ﴿ الْأَنْهَارُ ﴾ من الخمر والعسل واللبن والماء وقد تقدم . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى ماكثين دائمين . ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾ أى من تطهّر من الكفر والمعاصى . ومن قال هذا من قول السّحرة قال : لعل السّحرة سمعوه من موسى، أو من بنى إسرائيل إذ كان فيهم بمصر أقوام، وكان فيهم أيضا المؤمن من آل فرعون .

قلت : و يحتمل أن يكون ذلك إلهاما من الله لهم أنطقهم بذلك لما آمنوا؛ والله أعلم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴿٧٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى ﴾ تقدم الكلام فى هذا مستوفى .
﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا ﴾ أى يابسا لا طين فيه ولا ماء؛ وقد مضى فى «البقرة» (2)

(1) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٦ طبعة أولى أو ثانية . (2) جـ ١ ص ٣٨٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

ضرب موسى البحر وكنيته إياه ، وإغراق فرعون فلا معنى للإعادة . ﴿ لَا تَخَافُ دَرَكًا ﴾ أى لحاقا من فرعون وجنوده . ﴿ وَلَا تَخْشَى ﴾ قال ابن جريج قال أصحاب موسى : هذا فرعون قد أدركنا ، وهذا البحر قد غشينا ، فأنزل الله تعالى « لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى » أى لا تخاف دركا من فرعون ولا تخشى غرقا من البحر أن يمسك إن غشيك . وقرأ حمزة « لا تخف » على أنه جواب الأمر . التقدير إن تضرب لهم طريقا فى البحر لا تخف . و « لا تخشى » مستأنف على تقدير : ولا أنت تخشى . أو يكون مجزوما والألف مشبعة من فتحة ؛ كقوله : « فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا » أو يكون على حد قول الشاعر[1] :

* كأنْ لم ترى قبلى أسيرا يمانيا *

على تقدير حذف الحركة كما تحذف حركة الصحيح . وهذا مذهب الفراء . وقال آخر :

هجوت زَبَّان ثم جئتَ معتذرا * من هجو زَبَّانَ لَم تهجُو ولَم تَدَع

وقال آخر[2] : أَلَمْ يأتيكَ والأنباءُ تَنْمِى * بما لاقتْ لَبُونُ بَنِى زِيادِ

قال النحاس : وهذا من أقبح الغلط أن يحمل كتاب الله عز وجل على الشذوذ من الشعر ؛ وأيضا فإن الذى جاء به من الشعر لا يشبه من الآية شيئا ؛ لأن الياء والواو مخالفتان للألف ؛ لأنهما تتحركان والألف لا تتحرك ، وللشاعر إذا اضطر أن يقدرهما متحركتين ثم تحذف الحركة للجزم ، وهذا محال فى الألف ؛ والقراءة الأولى أبين لأن بعده « وَلَا تَخْشَى » مجمع عليه بلا جزم ؛ وفيها ثلاث تقديرات : الأول — أن يكون « لا تخاف » فى موضع الحال من المخاطب ، التقدير فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا غير خائف ولا خاش . الثانى — أن يكون فى موضع النعت للطريق ؛ لأنه معطوف على يبس الذى هو صفة ، ويكون التقدير لا تخاف فيه ؛ فحذف الراجع من الصفة . والثالث — أن يكون منقطعا خبر ابتداء محذوف تقديره وأنت لا تخاف .

---

(١) هو عبد يغوث بن وقاص من شعراء الجاهلية . وصدر البيت :

* وتضحك منى شيخة عبشمية *

(٢) البيت من أبيات لقيس بن زهير بن جذيمة بن رواحة العبسى ، وكان قد نشأت بينه وبين الربيع بن زياد شحناء فى شأن درع فاستاق إبل الربيع وباعها بمكة من عبد الله بن جدعان القرشى .

قوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ﴾ أى أتبعهم ومعه جنوده، وقرئ « فَاتَّبَعَهُمْ » بالتشديد فتكون الباء فى « بجنوده » عدت الفعل إلى المفعول الثانى؛ لأن أتبع يتعدى إلى مفعول واحد . أى تبعهم ليلحقهم بجنوده أى مع جنوده كما يقال : ركب الأمير بسيفه أى مع سيفه . ومن قطع « فأتبع » يتعدى إلى مفعولين : فيجوز أن تكون الباء زائدة، ويجوز أن يكون اقتصر على مفعول واحد . يقال : تبعه وأتبعه ولحقه وألحقه بمعنى واحد . وقوله : « بجنوده » فى موضع الحال؛ كأنه قال : فأتبعهم سائقا جنوده . ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ أى أصابهم من البحر ما غرقهم، وكرر على معنى التعظيم والمعرفة بالأمر . ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴾ أى أضلهم عن الرشد وما هداهم إلى خير ولا نجاة؛ لأنه قدر أن موسى عليه السلام ومن معه لا يفوتونه؛ لأن بين أيديهم البحر . فلما ضرب موسى البحر بعصاه انفلق منه اثنا عشر طريقا، وبين الطرق الماء قائما كالجبال . وفى سورة الشعراء « فكان كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ » أى الجبل الكبير؛ فأخذ كل سبط طريقا . وأوحى الله إلى أطواد الماء أن تشبكى فصارت شبكات يرى بعضهم بعضا، ويسمع بعضهم كلام بعض، وكان هذا من أعظم المعجزات، وأكبر الآيات، فلما أقبل فرعون ورأى الطرق فى البحر والماء قائما أوهمهم أن البحر فعل هذا لهيبته، فدخل هو وأصحابه فانطبق البحر عليهم . وقيل إن قوله : « وَمَا هَدَى » تأكيد لإضلاله إياهم . وقيل : هو جواب قول فرعون « مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ » فكذبه الله تعالى . وقال ابن عباس : « وَمَا هَدَى » أى ما هدى نفسه بل أهلك نفسه وقومه .

قوله تعالى : يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ ﴾ لما أنجاهم من فرعون قال لهم هذا ليشكروا . ﴿ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ ﴾ « جانب » نصب على المفعول الثاني « لواعدنا » ولا يحسن أن ينتصب على الظرف ؛ لأنه ظرف مكان محض غير مبهم . وإنما تتعدى الأفعال والمصادر إلى ظروف المكان بغير حرف جر إذا كانت مبهمة . قال مكي : هذا أصل لا خلاف فيه ؛ وتقدير الآية : وواعدناكم إتيان جانب الطور ؛ ثم حذف المضاف . قال النحاس : أي أمرنا موسى أن يأمركم بالخروج معه ليكلمه بحضرتكم فتسمعوا الكلام . وقيل : وعد موسى بعد إغراق فرعون أن يأتي جانب الطور الأيمن فيؤتيه التوراة ، فالوعد كان لموسى ولكن خوطبوا به لأن الوعد كان لأجلهم . وقرأ أبو عمرو « وَوَعَدْنَاكُمْ » بغير ألف واختاره أبو عبيد ؛ لأن الوعد إنما هو من الله تعالى لموسى خاصة ، والمواعدة لا تكون إلا من اثنين ؛ وقد مضى في « البقرة »(1) هذا المعنى . و « الْأَيْمَنَ » نصب ؛ لأنه نعت للجانب وليس للجبل يمين ولا شمال ، فإذا قيل : خذ عن يمين الجبل فمعناه خذ على يمينك من الجبل . وكان الجبل على يمين موسى إذ أتاه . ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾ أي في التيه وقد تقدم القول فيه(2) . ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ أي من لذيذ الرزق . وقيل : من حلاله إذ لا صنع فيه لآدمي فتدخله شبهة . ﴿ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ ﴾ أي لا تحملنكم السعة والعافية أن تعصوا ؛ لأن الطغيان التجاوز إلى ما لا يجوز . وقيل : المعنى ؛ أي لا تكفروا النعمة ولا تنسوا شكر المنعم بها عليكم . وقيل : أي ولا تستبدلوا بها شيئا آخر كما قال : « أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ » . وقيل : لا تدخروا منه لأكثر من يوم وليلة ؛ قال ابن عباس : فيتدود عليهم ما ادخروه ؛ ولولا ذلك ما تدود طعام أبدا . ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ أي يجب وينزل ، وهو منصوب بالفاء في جواب النهي من قوله : « وَلَا تَطْغَوْا » . ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴾ قرأ الأعمش ويحيى بن وثاب والكسائي « فَيَحُلَّ » بضم الحاء « وَمَنْ يَحْلُلْ » بضم اللام الأولى . والباقون بالكسر وهما لغتان . وحكى

(1) راجع جـ ١ ص ٣٩٤ طبعة ثانية أو ثالثة .
(2) راجع جـ ١ ص ٤٠٦ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

أبو عبيدة وغيره : أنه يقال حَلّ يحِلّ إذا وجب وحَلّ يحُلّ إذا نزل . وكذا قال الفراء : الضم من الحلول بمعنى الوقوع والكسر من الوجوب . والمعنيان متقاربان إلا أن الكسر أولى؛لأنهم قـد أجمعوا على قوله : « وَيَحِلُّ عَلَيْـهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ » . وغضب الله عقابه ونقمته وعذابه . ﴿ فَقَدْ هَوَى ﴾ قال الزجاج : فقد هلك؛ أى صار إلى الهاوية وهى قعر النار،من هوى يهوى هويا أى سـقط من علو إلى سفل ، وهوى فلان أى مات . وذكر ابن المبـارك : أخبرنا إسمعيل بن عياش قال حدثنـا ثعلبة بن مسلم عن أيوب بن بشـير عن شُفَىّ الأصبحىّ[1] قال : إن فى جهنم جبلا يدعى صَعُودًا يطلع فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يرقاه ؛ قال الله تعالى : « سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا » وإن فى جهنم قصرا يقال له هَوَى يُرمى الكافر من أعلاه فيهوى أربعين خريفا قبل أن يبلغ أصله قال الله تعالى : « وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَى» وذكر الحديث؛ وقد ذكرناه فى كتاب « التذكرة » .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ ﴾ أى من الشرك . ﴿ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ أى أقام على إيمـانه حتى مات عليه ؛ قاله سفيان الثورى وقتادة وغيرهما . وقال ابن عباس : أى لم يشكّ فى إيمـانه؛ ذكره المـاوردى والمهدوى . وقال سهل بن عبد الله التُّسترىّ وابن عباس أيضا : أقام على السنّة والجماعة ؛ ذكره الثعلبى . وقال أنس : أخذ بسنّة النبى صلى الله عليه وسلم؛ ذكر المهدوى، وحكاه المـاوردى عن الربيع بن أنس . وقول خامس : أصاب العمل ؛ قاله ابن زيد؛وعنه أيضا تعلم العلم ليهتدى كيف يفعل؛ذكر الأوّل المهدوى،والثانى الثعلبىّ . وقال الشعبىّ ومقاتل والكلبىّ : علم أن لذلك ثوابا وعليـه عقابا ؛ وقاله الفراء . وقول ثامن : « ثم اهتدى » فى ولاية أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم؛ قاله ثابت البُنَانِى ، والقول الأول أحسن هذه الأقوال — إن شاء الله — وإليه يرجع سائرها . قال وكيع عن سفيان : كنا نسمع فى قوله عز وجل : « وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ » أى من الشرك « وآمن » أى بعد الشرك « وَعَمِلَ صَالِحًا » صلّى وصام « ثُمَّ اهْتَدَى » مات على ذلك .

---

(١) بالتصغير بن ماتع (بالتاء المثناة الفوقية) الاصبحى .

قوله تعالى: وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ أى ما حملك على أن تسبقهم . قيل : عنى بالقوم جميع بنى إسرائيل؛ فعلى هذا قيل : آستخلف هرونَ على بنى إسرائيل، وخرج معه بسبعين رجلا للميقات . فقوله : ﴿هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي﴾ ليس يريد أنهم يسيرون خلفه متوجهين إليه، بل أراد أنهم بالقرب منى ينتظرون عودى إليهم . وقيل : لا بل كان أمر هرون بأن يتبع فى بنى إسرائيل أثره ويلتحقوا به . وقال قوم : أراد بالقوم السبعين الذين آختارهم، وكان موسى لما قرب من الطور سبقهم شوقا إلى سماع كلام الله . وقيل : لما وفد إلى طور سينا بالوعد آشتاق إلى ربه، وطالت عليه المسافة من شدّة الشوق إلى الله تعالى، فضاق به الأمر حتى شقّ قميصه، ثم لم يصبر حتى خلّفهم ومضى وحده؛ فلما وقف فى مقامه قال الله تبارك وتعالى : « وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى » فبقى صلى الله عليه وسلم متحيرا عن الجواب وكنى عنه بقوله : « هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي » وإنما سأله عن السبب الذى أعجله بقوله : « ما » فأخبر عن مجيئهم بالأثر . ثم قال : ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ فكنى عن

ذكر الشوق وصدقه إلى ابتغاء الرضا . ذكر عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله « وعجلتُ إليك رب لترضى » قال : شوقا . وكانت عائشة رضي الله عنها إذا آوت إلى فراشها تقول : هاتوا المجيد . فتؤتى بالمصحف فتأخذه في صدرها وتنام معه تسلى بذلك؛ رواه سفيان عن مِسْعَر عن عائشة رضي الله عنها . وكان عليه الصلاة والسلام إذا أمطرت السماء خلع ثيابه وتجرد حتى يصيبه المطر ويقول : " إنه حديث عهد بربي " فهذا من الرسول صلى الله عليه وسلم وممن بعده من قبيل الشوق ؛ ولذلك قال الله تبارك اسمه فيما يروى عنه : « طال شوق الأبرار إلى لقائي وأنا إلى لقائهم أشوق » . قال ابن عباس : كان الله عالما ولكن قال « وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ » رحمة لموسى، وإكراما له بهذا القول، وتسكينا لقلبه، ورقة عليه؛ فقال مجيبا لربه : « هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي » . قال أبو حاتم قال عيسى : بنو تميم يقولون : « هُمْ أُولَى » مقصورة مرسلة، وأهل الحجاز يقولون « أولاء » ممدودة . وحكى الفراء « هُمْ أُولَايَ عَلَى أَثَرِي » وزعم أبو إسحق الزجاج : أن هذا لا وجه له . قال النحاس : وهو كما قال؛ لأن هذا ليس مما يضاف فيكون مثل هُدَايَ . ولا يخلو من إحدى جهتين : إما أن يكون اسما مبهما فإضافته محال ، وإما أن يكون بمعنى الذين فلا يضاف أيضا؛ لأن ما بعده من تمامه وهو معرفة . وقرأ ابن أبي إسحق ونصر ورويس عن يعقوب « على إِثْرِي » بكسر الهمزة وإسكان الثاء وهو بمعنى أثر؛ لغتان . « وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى » أي عجلت إلى الموضع الذي أمرتني بالمصير إليه لترضى عني . يقال : رَجُلٌ عَجِلٌ وعَجُلٌ وعَجُولٌ وعَجْلَانُ بين العَجَلة؛ والعجلة خلاف البطء .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ﴾ أي اختبرناهم وامتحناهم بأن يستدلوا على الله عز وجل . ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ أي دعاهم إلى الضلالة أو هو سببها . وقيل : فتناهم ألقيناهم في الفتنة : أي زيّنا لهم عبادة العجل؛ ولهذا قال موسى : « إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ » . قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان السامريّ من قوم يعبدون البقر، فوقع بأرض مصرَ فدخل في دين بني إسرائيل بظاهره ، وفي قلبه ما فيه من عبادة البقر . وقيل : كان رجلا

من القبط، وكان جارا لموسى آمن به وخرج معه . وقيل : كان عظيما من عظماء بنى إسرائيل، من قبيلة تعرف بالسامرة وهم معروفون بالشام . قال سعيد بن جبير: كان من أهل كرمان.

قوله تعالى : ﴿ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ حال وقد مضى فى « الأعراف (١) » بيانه مستوفى . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ﴾ وعدهم عز وجل الجنة إذا أقاموا على طاعته، ووعدهم أنه يسمعهم كلامه فى التوراة على لسان موسى؛ ليعملوا بما فيها فيستحقوا ثواب عملهم . وقيل : وعدهم النصر والظفر . وقيل : وعده قوله « وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وآمن » الآية . ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ﴾ أى أفنسيتم؛ كما قيل؛ والشيء قد ينسى لطول العهد. ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ «يحلّ» أى يجب وينزل. والغضب العقوبة والنقمة. والمعنى : أم أردتم أن تفعلوا فعلا يكون سبب حلول غضب الله بكم ؛ لأن أحدا لا يطلب غضب الله، بل قد يرتكب ما يكون سببا للغضب . ﴿ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِى ﴾ لأنهم وعدوه أن يقيموا على طاعة الله عز وجل إلى أن يرجع إليهم من الطور . وقيل : وعدهم على أثره للميقات فتوقفوا . ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾ بفتح الميم ، وهى قراءة نافع وعاصم وعيسى بن عمر. قال مجاهد والسدى : ومعناه بطاقتنا . ابن زيد : لم نملك أنفسنا أى كنا مضطرين . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر «بِمِلْكِنَا» بكسر الميم . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأنها اللغة العالية . وهو مصدر ملكت الشيء أملكه ملكا . والمصدر مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف؛ كأنه قال: بِمِلْكِنَا الصواب بل أخطأنا فهو اعتراف منهم بالخطأ . وقرأ حمزة والكسائى « بِمُلْكِنَا » بضم الميم والمعنى بسلطاننا . أى لم يكن لنا مُلك فنخلف موعدك . ثم قيل قوله : « قَالُوا » عام يراد به الخاص؛ أى قال الذين ثبتوا على طاعة الله إلى أن يرجع إليهم من الطور: « مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا » وكانوا اثنى عشر ألفا ، وكان جميع بنى إسرائيل ستمائة ألف . ﴿ وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا ﴾ بضم الحاء وتشديد الميم مكسورة؛ قرأه نافع وابن كثير وابن عامر وحفص ورويس . الباقون بفتح الحرفين خفيفة . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأنهم حملوا حُلى القوم

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٨٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

معهم وما حملوه كرها . ﴿ أَوْزَارًا ﴾ أى أثقالا ﴿ مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ ﴾ أى من حليهم، وكانوا استعاروه حين أرادوا الخروج مع موسى عليه السلام، وأوهموهم أنهم يجتمعون فى عيد لهم أو وليمة . وقيل : هو ما أخذوه من آل فرعون ، لما قذفهم البحر إلى الساحل . وسميت أوزارا بسبب أنها كانت آثاما . أى لم يحل لهم أخذها ولم تحل لهم الغنائم، وأيضا فالأوزار هى الأثقال فى اللغة . ﴿ فَقَذَفْنَاهَا ﴾ أى ثقل علينا حمل ما كان معنا من الحلى فقذفناه فى النار ليذوب، أى طرحناه فيها . وقيل : طرحناه إلى السامرى لترجع فترى فيها رأيك . قال قتادة: إن السامرى قال لهم حين استبطأ القومُ موسى : إنما احتبس عليكم من أجل ما عندكم من الحلى ؛ فجمعوه ودفعوه إلى السامرى فرمى به فى النار، وصاغ لهم منه عجلا، ثم ألقى عليه قبضة من أثر فرس الرسول وهو جبريل عليه السلام . وقال معمر : الفرس الذى كان عليه جبريل هو الحياة، فلما ألقى عليه القبضة صار عجلا جسدا له خُوار . والخُوار صوت البقر . وقال ابن عباس : لما انسكبت الحلى فى النار، جاء السامرى وقال لهرون : يانبى الله أؤلقى ما فى يدى — وهو يظن أنه كبعض ما جاء به غيره من الحلى — فقذف التراب فيه، وقال: كن عجلا جسدا له خُوار ، فكان كما قال؛ للبلاء والفتنة؛ فخار خَورة واحدة لم يُتبعها مثلها . وقيل : خُواره وصوته كان بالريح؛ لأنه كان عمل فيه خروقا فإذا دخلت الريح فى جوفه خار ولم تكن فيه حياة . وهذا قول مجاهد . وعلى القول الأول كان عجلا من لحم ودم، وهو قول الحسن وقتادة والسدى . وروى حماد عن سماك عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال : مر هرون بالسامرى وهو يصنع العجل، فقال : ما هذا ؟ فقال : ينفع ولا يضر؛ فقال : اللهم أعطه ما سألك على ما فى نفسه؛ فقال : اللهم إنى أسألك أن يخور . وكان إذا خار سجدوا، وكان الخوار من أجل دعوة هرون . قال ابن عباس : خار كما يخور الحى من العجول . وروى أن موسى قال : يا رب هذا السامرى أخرج لهم عجلا جسدا له خُوار من حليهم ، فمن جعل الجسد والخوار ؟ قال الله تبارك وتعالى : أنا . قال موسى صلى الله عليه وسلم : وعزتك وجلالك وارتفاعك وعلوك وسلطانك ما أضلهم غيرك . قال : صدقت ياحكيم

الحكماء . وقد تقدم هذا كله في سورة « الأعراف »[1] . ﴿ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى ﴾ أي قال السامري ومن تبعه وكانوا ميالين إلى التشبيه؛ إذ قالوا : « اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ » . ﴿ فَنَسِيَ ﴾ أي فضل موسى [وذهب][2] يطلبه فلم يعلم مكانه، وأخطأ الطريق إلى ربه . وقيل معناه : فتركه موسى هنا وخرج يطلبه . أي ترك موسى إلهه هنا . وروى إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال : أي فنسي موسى أن يذكر لكم أنه إلهه . وقيل : الخطاب خبر عن السامري . أي ترك السامري ما أمره به موسى من الإيمان فضل؛ قاله ابن الأعرابي . فقال الله تعالى محتجا عليهم : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ ﴾ أي يعتبرون ويتفكرون في ﴿ أن ﴾ ـه ﴿ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ﴾ أي لا يكلمهم . وقيل : لا يعود إلى الخوار والصوت . ﴿ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ فكيف يكون إلها؟! والذي يعبده موسى صلى الله عليه وسلم يضر وينفع ويثيب ويعطي ويمنع . « أَنْ لَا يَرْجِعُ » تقديره أنه لا يرجع فلذلك ارتفع الفعل فخففت « أن » وحذف الضمير . وهو الاختيار في الرؤية والعلم والظن . قال :

في فتية من سيوف الهند قد علموا * أنْ هالكٌ كلُّ من يحفَى وينتعلُ

وقد يحذف مع التشديد؛ قال :

فلو كنتَ ضبيًّا عرفتَ قرابتي * ولكنَّ زنجيٌّ عظيمُ المشافرِ

أي ولكنك .

قوله تعالى : وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي من قبل أن يأتي موسى ويرجع إليهم ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ﴾ أي ابتليتم وأضللتم به؛ أي بالعجل ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ ﴾

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٨٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) زيادة يقتضيها السياق .

لا العجل (فَاتَّبِعُونِي) في عبادته (وَأَطِيعُوا أَمْرِي) لا أمر السامري. أو فاتبعوني في مسيري إلى موسى ودعوا العجل؛ فعصوه و(قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ) أي لن نزال مقيمين على عبادة العجل (حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى) فينظر هل يعبده كما عبدناه؛ فتوهموا أن موسى يعبد العجل، فاعتزلهم هرون في اثني عشر ألفا من الذين لم يعبدوا العجل، فلما رجع موسى وسمع الصياح والجلبة وكانوا يرقصون حول العجل قال للسبعين معه: هذا صوت الفتنة؛ فلما رأى هرون أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله غضبا و(قَالَ يَا هَرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا) أي أخطئوا الطريق وكفروا. (أَلَّا تَتَّبِعَنِ) «لا» زائدة أي أن تتبع أمري ووصيتي. وقيل: ما منعك عن اتباعي في الإنكار عليهم. وقيل: معناه هلّا قاتلتهم إذ قد علمت أني لو كنت بينهم لقاتلتهم على كفرهم. وقيل: ما منعك من اللحوق بي لما فُتنوا. (أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي) يريد أن مقامك بينهم وقد عبدوا غير الله تعالى عصيان منك لي، قاله ابن عباس. وقيل: معناه هلّا فارقتهم فتكون مفارقتك إياهم تقريعا لهم وزجرا. ومعنى «أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي» قيل: إن أمره ما حكاه الله تعالى عنه «وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَرُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ» فلما أقام معهم، ولم يبالغ في منعهم، والإنكار عليهم، نسبه إلى عصيانه ومخالفة أمره.

مسألة — وهذا كله أصل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتغييره ومفارقة أهله، وأن المقيم بينهم لا سيما إذا كان راضيا حكمه كحكمهم. وقد مضى هذا المعنى في آل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال. وسئل الإمام أبو بكر الطُّرْطُوشي رحمه الله: ما يقول سيدنا الفقيه في مذهب الصوفية؟ وأعلم — حرس الله مدته — أنه اجتمع جماعة من رجال، فيكثرون من ذكر الله تعالى، وذكر محمد صلى الله عليه وسلم، ثم إنهم يوقعون بالقضيب على شيء من الأديم، ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشيا عليه، ويحضرون شيئا يأكلونه. هل الحضور معهم جائز أم لا؟ أفتونا مأجورين. وهذا القول الذي يذكرونه:

يا شيخُ كُفَّ عن الذُّنوب * قبـلَ التَّفـرُّق والزَّلَلْ
واعمَـلْ لنفسكَ صالحاً * مادام ينفعـك العَمَـلْ
أمّا الشبابُ فقـد مَضَى * ومَشِيبُ رأسكَ قد نَزَلْ

وفى مثل هذا ونحوه . الجواب : ـــ يرحمك الله ـــ مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة ، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ؛ وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامرىّ ، لما آتخذ لهم عجلا جسدا له خُوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون؛ فهو دين الكفار وعبّاد العجل ؛ وأما القضيب فأول من آتخذه الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى؛ وإنما كان يجلس النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه كأنما على رءوسهم الطير من الوقار ؛ فينبغى للسلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور فى المساجد وغيرها ؛ ولا يحلّ لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضُر معهم ، ولا يعينهم على باطلهم ؛ هـذا مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين وبالله التوفيق .

قوله تعالى : قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا

قوله تعالى : ﴿ يَا بْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾ ابن عباس : أخذ شعره بيمينه ولحيته بيساره؛ لأن الغيرة فى الله ملكته؛ أى لا تفعل هـذا فيتوهموا أنه منك آستخفاف

أو عقوبة . وقد قيل : إن موسى عليه السلام إنما فعل هذا على غير استخفاف ولا عقوبة كما يأخذ الإنسان بلحية نفسه . وقد مضى هذا في «الأعراف»[1] مستوفى . والله عز وجل أعلم بما أراد نبيه عليه السلام . ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي خشيت أن أخرج وأتركهم وقد أمرتني أن أخرج معهم، فلو خرجت لاتبعني قوم ويتخلف مع العجل قوم؛ وربما أدى الأمر إلى سفك الدماء؛ وخشيت إن زجرتهم أن يقع قتال فتلومني على ذلك . وهذا جواب هرون لموسى عليه السلام عن قوله : «أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي» وفي الأعراف «إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ» لأنك أمرتني أن أكون معهم . وقد تقدم . ومعنى ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ لم تعمل بوصيتي في حفظه؛ قاله مقاتل . وقال أبو عبيدة : لم تنتظر عهدي وقدومي . فتركه موسى ثم أقبل على السامري ف ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ أي ، ما أمرك وشأنك، وما الذي حملك على ما صنعت ؟ قال قتادة : كان السامري عظيما في بني إسرائيل من قبيلة يقال لها سامرة؛ ولكن عدو الله نافق بعد ما قطع البحر مع موسى، فلما مرت بنو إسرائيل بالعمالقة وهم يعكفون على أصنام لهم «قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ» فاغتنمها السامري وعلم أنهم يميلون إلى عبادة العجل فاتخذ العجل . ف ﴿قَالَ﴾ السامري مجيبا لموسى : ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ يعني : رأيت ما لم يروا؛ رأيت جبريل عليه السلام على فرس الحياة، فألقى في نفسي أن أقبض من أثره قبضة، فما ألقيته على شيء إلا صار له روح ولحم ودم؛ فلما حالوك أن تجعل لهم إلها زَيَّنَتْ لي نفسي ذلك . وقال علي رضي الله عنه : لما نزل جبريل ليصعد بموسى عليه السلام إلى السماء، أبصره السامري من بين الناس فقبض قبضة من أثر الفرس . وقيل قال السامري : رأيت جبريل على الفرس وهي تلقي خطوها مد البصر، فألقي في نفسي أن أقبض من أثرها فما ألقيته على شيء إلا صار له روح ودم . وقيل : رأى جبريل يوم نزل على رَمَكَةٍ[2] وديق، فتقدم خيل فرعون في ورود البحر . ويقال : إن أم السامري جعلته حين وضعته في غار خوفا

---

(١) راجع ج ٧ ص ٢٨٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) الرمكة : الفرس والبرذونة التي تتخذ للنسل؛ معرب . وهي هنا الفرس «الوديق» التي تشتهي الفحل .

من أن يقتله فرعون؛ فجاءه جبريل عليه السلام ، فجعل كفّ السامرىّ فى فم السامرىّ ، فرضع العسل واللبن فاختلف إليه فعرفه من حينئذ . وقد تقدم هذا المعنى فى «الأعراف»[1] .

ويقال : إن السامرىّ سمع كلام موسى عليه السلام ، حيث عمل تمثالين من شمع أحدهما ثور والآخر فرس فألقاهما فى النيل طلب قبر يوسف عليه السلام وكان فى تابوت من حجر فى النيل ، فأتى به الثور على قرنه ، فتكلم السامرىّ بذلك الكلام الذى سمعه من موسى ، وألقى القبضة فى جوف العجل فخار . وقرأ حمزة والكسائى والأعمش وخلف « بِمَا لَمْ تَبْصُرُوا » بالتاء على الخطاب . الباقون بالياء على الخبر . وقرأ أبىّ بن كعب وابن مسعود والحسن وقتادة «فقبصت قبصة» بصاد غير معجمة . وروى عن الحسن ضم القاف من « قبصة » والصاد غير معجمة . الباقون : ﴿ قَبَضْتُ قَبْضَةً ﴾ بالضاد المعجمة . والفرق بينهما أن القبض بجميع الكفّ ، والقبص بأطراف الأصابع ، ونحوهما الخَضْم والقَضْم ، والقُبْصة بضم القاف القدر المقبوض؛ ذكره المهدوى . ولم يذكر الجوهرى « قُبْصة » بضم القاف والصاد غير معجمة ، وإنما ذكر « القُبْضة » بضم القاف والضاد المعجمة وهو ما قبضت عليه من شىء؛ يقال : أعطاه قُبْضة من سَويق أو تمر أى كفا منه ، وربما جاء بالفتح . قال : والقِبْص بكسر القاف والصاد غير المعجمة العدد الكثير من الناس؛ قال الكميت :

لكم مسجدا الله المَزُوران والحَصَى ＊ لكم قِبْصُهُ من بين أَثْرَى وأَقْتَرَى[2]

﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ أى طرحتها فى العجل .

﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ أى زينته ؛ قاله الأخفش . وقال ابن زيد : حدثتنى نفسى . والمعنى متقارب .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَاذْهَبْ ﴾ أى قال له موسى فاذهب أى من بيننا ﴿ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ أى لا أمسّ ولا أُمسّ طول الحياة . فنفاه موسى عن قومه وأمر بنى إسرائيل ألّا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلّموه عقوبة له . قال الشاعر :

تميمٌ كرهط السّامرىّ وقوله ＊ ألا لا يريدُ السامرىّ مساسا

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٨٤ طبعة أولى أو ثانية . (٢) أى من بين مثر ومقل .

قال الحسن : جعل الله عقوبة السامرى ألا يماس الناس ولا يماسوه عقوبة له ولمن كان منه إلى يوم القيامة ؛ وكأن الله عز وجل شدد عليه المحنة ، بأن جعله لا يماس أحدا ولا يمكن من أن يمسه أحد ، وجعل ذلك عقوبة له فى الدنيا . ويقال : ابتلى بالوسواس ؛ وأصل الوسواس من ذلك الوقت . وقال قتادة : بقاياهم إلى اليوم يقولون ذلك — لامساس — وإن مس واحد من غيرهم أحدا منهم حم كلاهما فى الوقت . ويقال : إن موسى هم بقتل السامرى ، فقال الله تعالى له : لا تقتله فإنه سخى . ويقال لما قال له موسى : ﴿ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ خاف فهرب فجعل يهيم فى البرية مع السباع والوحش ، لا يجد أحدا من الناس يمسه حتى صار كالقائل لا مساس ؛ لبعده عن الناس وبعد الناس عنه ؛ كما قال الشاعر :

حَمَّالُ رايات بها قَنَاعِسا * حتى تقولَ الأزدُ لا مسابسا[1]

مسألة : هذه الآية أصل فى نفى أهل البدع والمعاصى وهجرانهم وألا يخالطوا ، وقد فعل النبى صلى الله عليه وسلم ذلك بكعب بن مالك والثلاثة الذين خُلِّفوا . ومن التجأ إلى الحرم وعليه قتل لا يقتل عند بعض الفقهاء ، ولكن لا يعامل ولا يبايع ولا يشارى ، وهو إرهاق إلى الخروج . ومن هذا القبيل التغريب فى حد الزنى ، وقد تقدم جميع هذا كله فى موضعه ، فلا معنى لإعادته . والحمد لله وحده . وقال هرون القارئ : ولغة العرب لا مَساس بكسر السين وفتح الميم . وقد تكلم النحويون فيه ؛ فقال سيبويه : هو مبنى على الكسر كما يقال اضربِ الرجل . وقال أبو إسحق : لا مساسِ نفى وكسرت السين لأن الكسرة من علامة التأنيث ؛ تقول : فعلتِ يا امرأة . قال النحاس : وسمعت على بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول : إذا اعتل الشىء من ثلاث جهات وجب أن يبنى ، وإذا اعتل من جهتين وجب ألا ينصرف ؛ لأنه ليس بعد ترك الصرف إلا البناء ؛ فمساسِ ودراكِ اعتل من ثلاث جهات : منها أنه معدول ، ومنها أنه مؤنث ، وأنه معرفة ؛ فلما وجب البناء فيه وكانت الألف قبل السين ساكنة كسرت السين لالتقاء الساكنين ؛ كما تقول : اضربِ الرجلَ . ورأيت أبا إسحق

(١) كذا فى الأصل ، ولم نقف عليه .

يذهب إلى أن هــذا القول خطأ ، وألزم أبا العباس إذا سمى امرأة بفرعون يبنيه ، وهذا لا يقوله أحد . وقال الجوهري في الصحاح : وأما قول العرب لا مَساس مثال قطام فإنما بني على الكسر لأنه معدول عن المصدر وهو المسّ . وقرأ أبو حيوة «لا مَسَاس» . ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ﴾ يعني يوم القيامة . والموعد مصــدر ؛ أي إن لك وعدا لعــذابك . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «تُخْلِفَهُ» بكسر اللام وله معنيان : أحدهما ــ ستأتيه ولن تجده مخلفا ؛ كما تقول : أحمدته أي وجدته محمودا . والثاني ــ على التهــديد أي لا بد لك من أن تصير إليه . الباقون بفتح اللام ؛ بمعنى : إن الله لن يخلفك إياه .

قوله تعالى : ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ﴾ أي دمت وأقمت عليه . ﴿عَاكِفًا﴾ أي ملازمــا . وأصله ظللت ؛ قال (١) :

خَلَا أنّ العِتاقَ من المطايا * أَحَسْنَ به فهنّ إليه شُوسُ

أي أحسســن . وكذلك قرأ الأعمش بلامين على الأصل . وفي قراءة ابن مسعود «ظِلْتَ» بكسر الظاء . يقال : ظَلِلت أفعــل كذا إذا فعلته نهارا وظَلْت وظِلْت ؛ فمن قال : ظَلْت حذف اللام الأولى تخفيفــا ؛ ومن قال : ظِلْت ألقى حركة اللام على الظاء . و﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ قراءة العامة بضم النون وشــد الراء من حرّق يحرّق . وقرأ الحسن وغيره بضم النون وسكون الحاء وتخفيف الراء ؛ من أحرقه يُحرقه . وقرأ عليّ وابن عباس وأبو جعفر وابن محيصن وأشهب العقيلي «لَنَحْرُقَنَّهُ» بفتح النون وضم الراء خفيفة ، من حرقت الشيء أحرقه حرقا بردته وحككت بعضه ببعض ، ومنه قولهم : حَرَق نابه يَحرِقه ويَحرُقه أي سحقه حتى سُمع له صَريف ؛ فمعنى هذه القراءة لنبردنّه بالمبارد ، ويقال للبرد المِحرَق . والقراءتان الأوليان معناهما الحــرق بالنار . وقد يمكن جمع ذلك فيــه ؛ قال السدي : ذبح العجل فسال منه كما يسيل من العجل إذا ذبح ، ثم بَرَد عظامه بالمبرد وحَرَقه . وفي حرف ابن مسعود «لنذبحنه ثم لنحرقنه» واللحم والدم إذا أحرقا

---

(١) هو أبو زبيد ؛ والشوس (بالتحريك) قال ابن سيدة : أن ينظر بإحدى عينيه ، ويميل وجهه في شق العين التي ينظر بها ؛ ويكون ذلك خلقة ، ويكون من الكبر والتيه والغضب .

صارا رمادا فيمكن تذريته في اليم؛ فأما الذهب فلا يصير رمادا. وقيل: عرف موسى ما صير به الذهب رمادا، وكان ذلك من آياته . ومعنى ﴿لَنَنْسِفَنَّهُ﴾ لنطيّرنه. وقرأ أبو رجاء «لَنَنْسُفَنَّه» بضم السين لغتان ، والنّسف نفض الشيء ليذهب به الريح وهو التذرية، والمنسف ما يُنسف به الطعام ؛ وهو شيء متصوّب الصدر أعلاه مرتفع ، والنُّسافة ما يسقط منه ؛ يقال : أعزل النُّسافة وكُل من الخالص . ويقال : أتانا فلان كأن لحيته منسف ؛ حكاه أبو نصر أحمد بن حاتم . والمِنسفة آلة يقلع بها البناء ، ونسفت البناء نسفا قلعته، ونَسَف البعيرُ الكلأَ يَنسِفه بالكسر اذا اقتلعه بأصله ، وانتسفت الشيء اقتلعته ؛ عن أبي زيد .

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ لا العجل؛ أي وسع كل شيء علمه ؛ يفعل الفعل عن العلم؛ ونصب على التفسير. وقرأ مجاهد وقتادة «وَسَّعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا» .

قوله تعالى : كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف، أي كما قصصنا عليك خبر موسى ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ قصصا كذلك من أخبار ما قد سبق ؛ ليكون تسلية لك ، وليدل على صدقك . ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ يعني القرآن . وسمى القرآن ذكرا؛ لما فيه من الذكر كما سمى الرسول ذكرا؛ لأن الذكر كان ينزل عليه . وقيل : «آتيناك من لدنا ذكرا» أي شرفا، كما قال تعالى : «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ» أي شرف وتنويه باسمك .

قوله تعالى : ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أى القرآن فلم يؤمن به، ولم يعمل بما فيه ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ أى إثما عظيما وحملا ثقيلا. ﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ يريد مقيمين فيه؛ أى فى جزائه وجزاؤه جهنم. ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ يريد بئس الحمل حملوه يوم القيامة. وقرأ داود ابن رفيع « فَإِنَّهُ يُحَمَّلُ ».

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ قراءة العامة «يُنْفَخُ» بضم الياء على الفعل المجهول. وقرأ أبو عمرو وابن أبى إسحق بنون مسمى الفاعل. واستدل أبو عمرو بقوله تعالى: «وَنَحْشُرُ» بنون. وعن ابن هرمز «يَنْفُخُ» بفتح الياء أى ينفخ إسرافيل. أبو عياض : « فِي الصُّوَرِ ». الباقون : « فى الصُّورِ » وقد تقدم هذا فى « الأنعام »[1] مستوفى وفى كتاب « التذكرة ». وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « ويُحْشَرُ » بضم الياء « الْمُجْرِمُونَ » رفعا بخلاف المصحف. والباقون ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى المشركين. ﴿زُرْقًا﴾ حال من المجرمين، والزَّرَق خلاف الكَحَل. والعرب تتشاءم بزَرَق العيون وتذمه؛ أى تشوه خلقتهم بزرقة عيونهم وسواد وجوههم. وقال الكلبي والفراء : « زرقا » أى عميا. وقال الأزهرى : عطاشا قد أزرقت أعينهم من شدة العطش؛ وقاله الزجاج؛ قال : لأن سواد العين يتغير ويَزرق من العطش. وقيل : إنه الطمع الكاذب إذا تعقبته الخيبة؛ يقال : ابيضت عينى لطول انتظارى لكذا. وقول خامس : إن المراد بالزرقة شخوص البصر من شدة الخوف؛ قال الشاعر :

لقد زَرِقت عيناك يابنَ مُكَعْبَرٍ ... كما كُلُّ ضَبِّيٍّ من اللؤم أَزْرَقُ

يقال : رجل أزرق العين، والمرأة زرقاء بينة الزَّرَق، والاسم الزُّرقة. وقد زَرِقت عينه بالكسر وازرقت عينه ازرقاقا، وازراقت عينه ازريقاقا. وقال سعيد بن جبير : قيل لابن عباس فى قوله « وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا » وقال فى موضع آخر : « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا » فقال : إن ليوم القيامة حالات؛ فحالة يكونون فيه زرقا، وحالة عميا. ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أصل الخفت فى اللغة السكون، ثم قيل لمن خفض صوته خفته.

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

يتسارون؛ قاله مجاهد ؛ أي يقول بعضهم لبعض في الموقف سرا ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي ما لبثتم يعني في الدنيا ، وقيل : في القبور ﴿إِلَّا عَشْرًا﴾ يريد عشر ليال. وقيل: أراد ما بين النفختين وهو أربعون سنة؛ يرفع العذاب في تلك المدة عن الكفار — في قول ابن عباس — فيستقصرون تلك المدة . أو مدة مقامهم في الدنيا لشدة ما يرون من أحوال يوم القيامة؛ ويخيل إلى أمثلهم أي أعدلهم قولا وأعقلهم وأعلمهم عند نفسه أنهم مالبثوا إلا يوما واحدا يعني لبثهم في الدنيا؛ عن قتادة؛ فالتقدير : إلا مثل يوم. وقيل : إنهم من شدة هول المطلع نسوا ما كانوا فيه من نعيم الدنيا حتى رأوه كيوم . وقيل : أراد بيوم لبثهم ما بين النفختين، أو لبثهم في القبور على ما تقدم . «وعشرا» و «يوما» منصوبان بـ «لبثتم» .

قوله تعالى : وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ أي عن حال الجبال يوم القيامة . ﴿فَقُلْ﴾ جاء هذا بفاء وكل سؤال في القرآن «قل» بغير فاء إلا هذا ، لأن المعنى إن سألوك عن الجبال فقل، فتضمن الكلام معنى الشرط . وقد علم الله أنهم يسئلونه عنها، فأجابهم قبل السؤال، وتلك أسئلة تقدمت سألوا عنها النبي صلى الله عليه وسلم فجاء الجواب عقب السؤال؛ فلذلك كان بغير فاء، وهذا سؤال لم يسئلوه عنه بعد؛ فتفهمه . ﴿يَنسِفُهَا﴾ يطيرها . ﴿نَسْفًا﴾ قال ابن الأعرابي وغيره : يقلعها قلعا من أصولها، ثم يصيرها رملا يسيل سيلا، ثم يصيرها كالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا وهكذا . قال : ولا يكون العهن من الصوف إلا المصبوغ ، ثم كالهباء المنثور. ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي يذر مواضعها ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ القاع الأرض الملساء

بلا نبات ولا بناء؛ قاله ابن الأعرابي . وقال الجوهري : والقاع المستوى من الأرض والجمع أقوُعٌ وأقواعٌ وقيعانٌ صارت الواو ياء لكسر ما قبلها . وقال الفراء : القاع مستنقع الماء والصفصف القرعاء . الكلبي : هو الذي لا نبات فيه . وقيل : المستوى من الأرض كأنه على صفّ واحد في استوائه؛ قاله مجاهد . والمعنى واحد في القاع والصفصف؛ فالقاع الموضع المنكشف، والصفصف المستوى الأملس . وأنشد سيبويه[1] :

وكَمْ دُونَ بيتكَ من صَفْصَفٍ * ودَكْدَاكِ رَمْــلٍ وأَعْقَـادِهَا

و «قاعا» نصب على الحال والصفصف. و ﴿لَا تَرَى﴾ في موضع الصفة . ﴿فِيهَا عِوَجًا﴾ قال ابن الأعرابي : العوج التعوج في الفجاج . والأَمْت النَّبْك . وقال أبو عمرو : الأَمْت النِّبَاك وهي التلال الصغار واحدها نَبْك؛ أي هي أرض مستوية لا انخفاض فيها ولا ارتفاع . تقول : امتلأ فما به أَمْت، وملأتُ القربة مَلْئًا لا أمت فيه؛ أي لا استرخاء فيه . والأمت في اللغة المكان المرتفع . وقال ابن عباس : «عِوَجًا» مَيْلا . قال : والأمت الأثر مثل الشراك . وعنه أيضا «عِوَجًا» واديا «وَلَا أَمْتًا» رابية . وعنه أيضا : العوج [الانخفاض][2] والأمت الارتفاع . وقال قتادة : «عِوَجًا» صدعا «وَلَا أَمْتًا» أي أكمة . وقال يمان : الأمت الشقوق في الأرض . وقيل : الأمت أن يغلظ مكان في الفضاء أو الجبل ويدق في مكان؛ حكاه الصولى .

قلت : وهذه الآية تدخل في باب الرُّقَى، ترقى بها الثآليل وهي التي تسمى عندنا (بالبراريق) واحدها (بروقة)؛ تطلع في الجسد وخاصة في اليد : تأخذ ثلاثة أعواد من تبن الشعير، يكون في طرف كل عود عقدة، تُمِرّ كل عُقدة على الثآليل وتقرأ الآية مرة، ثم تدفن الأعواد في مكان ندى؛ تعفّن وتعفّن الثآليل، فلا يبقى لها أثر؛ جربت ذلك في نفسي وفي غيري فوجدته نافعا إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ يريد إسرافيل عليه السلام إذا نفخ في الصور ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أي لا معدل لهم عنه؛ أي عن دعائه لا يزيغون ولا ينحرفون بل يسرعون إليه ولا يحيدون

(١) البيت للأعشى؛ وقد وصف بعد المسافة بينه وبين الممدوح الذي قصده ليستوجب بذلك جائزته . والدكداك من الرمل المستوى . والأعقاد (جمع) عقدة وهو المتعقد من الرمل المتراكب .

(٢) زيادة يقتضيها المعنى .

عنه . وعلى هذا أكثر العلماء . وقيل : « لَا عِوَجَ لَهُ » أى لدعائه . وقيل : يتبعون الداعى اتباعا لا عوج له؛ فالمصدر مضمر؛ والمعنى : يتبعون صوت الداعى للحشر؛ نظيره « وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِى مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ » الآية . وسيأتى . ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ ﴾ أى ذلّت وسكنت؛ عن ابن عباس قال : لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشّع، فكل لسان ساكت هناك للهيبة . ﴿ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ أى من أجله . ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ الهمس الصوت الخفى؛ قاله مجاهد . عن ابن عباس : الحس الخفى . الحسن وابن جريج : هو صوت وقع الأقدام بعضها على بعض إلى المحشر؛ ومنه قول الراجز :

* وهُنَّ يَمْشِينَ بنا هَمِيسَا *

يعنى صوت أخفاف الإبل فى سيرها . ويقال للأسد الهموس؛ لأنه يهمس فى الظلمة؛ أى يطأ وطئا خفيا . قال رؤبة يصف نفسه بالشدة :

لَيْثٌ يَدُقُّ الأسدَ الهَمُوسَا * والأَقْهَبَيْنِ[1] الفِيلَ والجاموسَا

وهمس الطعام؛ أى مضغه وفوه منضمّ؛ قال الراجز :

لقد رأيتُ عجبًا مُذْ أَمْسَا * عجائزًا مثلَ السَّعالِى خَمْسَا

* يأكُلْنَ ما أَصْنَعُ هَمْسًا هَمْسَا *

وقيل : الهمس تحريك الشفة واللسان . وقرأ أبىّ بن كعب « فَلَا يَنْطِقُونَ إِلَّا هَمْسًا » . والمعنى متقارب؛ أى لا يسمع لهم نطق ولا كلام ولا صوت أقدام . وبناء (هـ م س) أصله الخفاء كيفما تصرف؛ ومنه الحروف المهموسة، وهى عشرة يجمعها قولك : (حثّه شخص فسكت) وإنما سمى الحرف مهموسا لأنه ضعف الاعتماد من موضعه حتى جرى معه النفس .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ « من » فى موضع نصب على الاستثناء الخارج من الأول؛ أى لا تنفع الشفاعة أحدا إلا شفاعة من أذن له الرحمن . ﴿ وَرَضِىَ لَهُ قَوْلًا ﴾ أى رضى قوله فى الشفاعة . وقيل : المعنى؛ أى إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن فى أن يشفع له ، وكان له قول يرضى . قال ابن عباس : هو قول لا إله إلا الله .

(١) سمى الفيل والجاموس أقهبين للونهما وهو الغبرة .

قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى من أمر الساعة . ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ من أمر الدنيا قاله قتادة . وقيل : يعلم ما يصيرون إليه من ثواب أو عقاب «وما خلفهم» ما خلفوه وراءهم في الدنيا ، ثم قيل : الآية عامة في جميع الخلق . وقيل : المراد الذين يتبعون الداعي . والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ الهاء في « به » لله تعالى ؛ أى أحد لا يحيط به علما ، إذ الإحاطة مشعرة بالحدّ ويتعالى الله عن التحديد . وقيل : تعود على العلم ؛ أى أحد لا يحيط علما بما يعلمه الله . وقال الطبري : الضمير في «أيديهم» و «خلفهم» و «يحيطون» يعود على الملائكة ؛ أعلم الله من يعبدها أنها لا تعلم ما بين أيديها وما خلفها .

قوله تعالى : ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ ﴾ أى ذلّت وخضعت ؛ قاله ابن الأعرابي وغيره . ومنه قيل للأسير عانٍ . قال أمية بن أبي الصَّلْت :

مليكٌ على عرش السماء مُهيمنٌ ❊ لعزّته تعنو الوجوهُ وتسجدُ

وقال أيضا :

وعَنَا له وَجْهي وخَلْقي كلُّه ❊ في الساجدين لوجهه مشكورا

قال الجوهري : عنا يعنو خضع وذلّ وأعناه غيره ؛ ومنه قوله تعالى : « وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ » . ويقال أيضا : عَنَا فيهم فلان أسيرا ؛ أى أقام فيهم على إساره واحتبس . وعنّاه غيرُه تعنيةً حبسه . والعاني الأسير . وقوم عُناة ونسوة عَوانٍ . وعَنَتْ به أمورٌ نزلت . وقال ابن عباس : « عَنَت » ذلّتْ . وقال مجاهد : خشعت . الماوردي : والفرق بين الذل والخشوع — وإن تقارب معناهما — أن الذل أن يكون ذليل النفس ، والخشوع أن يتذلّل لذي طاعة . وقال الكلبي : « عنت » أى علمت . عطية العوفي : استسلمت . وقال طَلْق

ابن حبيب : إنه وضع الجبهة والأنف على الأرض في السجود . النحاس : «وَعَنَتِ الْوُجُوهُ» في معناه قولان : أحدهما — أن هـذا في الآخرة . وروى عكرمة عن ابن عباس «وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ» قال : الركوع والسجود؛ ومعنى «عنت» في اللغة القهر والغلبة؛ ومنه فتحت البلاد عَنوة أي غلبة؛ قال الشاعر (١) :

فما أخذوها عَنْوةً عن مودّة * ولكنّ ضربَ المَشْرِفِيّ ٱستقالها

وقيل : هو من العناء بمعنى التعب؛ وكنى عن الناس بالوجوه؛ لأن آثار الذل إنما تتبين في الوجه . ﴿لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ وفي القيوم ثلاث تأويلات؛ أحدها — أنه القائم بتدبير الخلق . الثاني — أنه القائم على كل نفس بما كسبت . الثالث — أنه الدائم الذي لا يزول ولا يبيد . وقد مضى في «البقرة» (٢) هذا . ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي خسر من حمل شركا .

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لأن العمل لا يقبل من غير إيمان . و«من» في قوله : «مِنَ الصَّالِحَاتِ» للتبعيض؛ أي شيئا من الصالحات . وقيل: للجنس؛ ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ قرأ ابن كثير ومجاهد وابن محيصن «يَخَفْ» بالجزم جوابا لقوله : «وَمَنْ يَعْمَلْ» . الباقون «يَخَافُ» رفعا على الخبر؛ أي فهو لا يَخافُ؛ أو فإنه لا يخاف . ﴿ظُلْمًا﴾ أي نقصا لثواب طاعته ، ولا زيادة عليه في سيئاته . ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ بالانتقاص من حقه . والهضم النقص والكسر؛ يقال : هضمتُ ذلك من حقي أي حططتُه وتركته . وهذا يهضم الطعام أي ينقص ثقله . وٱمرأة هَضِيمُ الكشح ضامرة البطن . الماوردي : والفرق بين الظلم والهضم أن الظلم المنع من الحق كله ، والهضم المنع من بعضه ، والهضم ظلم وإن افترقا من وجه؛ قال المتوكل الليثي :

إنّ الأذلّةَ واللئامَ لَمعشرٌ * مَوْلاهُمُ المتهضَّم المظلومُ

قال الجوهري : ورجل هَضِيمٌ ومُهتَضَم أي مظلوم . وتَهضَّمه أي ظلمه وٱهتضمه إذا ظلمه وكسر عليه حقه .

---

(١) أنشده الفراء لكثير كما في «اللسان» . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢٧١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أى كما بيّنا لك فى هذه السّورة من البيان فكذلك جعلناه ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أى بلغة العرب . ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ ﴾ أى بيّنا ما فيه من التخويف والتهديد والثواب والعقاب . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أى يخافون الله فيجتنبون معاصيه، و يحذرون عقابه . ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ أى موعظة . وقال قتادة : حذرا وورعا . وقيل : شرفا؛ فالذكر ها هنا بمعنى الشرف؛ كقوله : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » . وقيل : أى ليتذكروا العذاب الذى توعدوا به . وقرأ الحسن «أَوْ نُحْدِثُ» بالنون؛ وروى عنه رفع الثاء وجزمها .

قوله تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ لما عرف العباد عظيم نعمه، و إنزال القرآن نزّه نفسه عن الأولاد والأنداد فقال : «فَتَعَالَى اللَّهُ» أى جلّ الله الملك الحق؛ أى ذو الحق. ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ علّم نبيه كيف يتلقى القرآن . قال ابن عباس : كان عليه السلام يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحى حرصا على الحفظ ، وشفقة على القرآن مخافة النسيان ، فنهاه الله عن ذلك وأنزل « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ » . وهذا كقوله : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ » على ما يأتى . وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد قال : لا تتله قبل أن نبيّنه . وقيل : «وَلَا تَعْجَلْ» أى لا تسل إنزاله «مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى» أى يأتيك « وَحْيُهُ » . وقيل : المعنى لا تلقه إلى الناس قبل أن يأتيك بيان تأويله . وقال الحسن : نزلت فى رجل لطم وجه امرأته، فجاءت إلى النبى صلى الله عليه وسلم تطلب القصاص، فجعل النبى صلى الله عليه وسلم لها القصاص، فنزل « الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ » ولهذا قال : « وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا » أى فهما ؛ لأنه عليه السلام حكم بالقصاص وأبى الله ذلك . وقرأ ابن مسعود وغيره « مِنْ قَبْلِ أَنْ نَقْضِيَ » بالنون وكسر الضاد « وَحْيَهُ » بالنصب .

قوله تعالى : وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ ﴾ قرأ الأعمش باختلاف عنه «فَنَسِي» بإسكان الياء وله معنيان: أحدهما — ترك؛ أي تَرَكَ الأمر والعهد، وهذا قول مجاهد وأكثر المفسرين ومنه «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ». و[وثانيهما](١) قال ابن عباس: «نسي» هنا من السهو والنسيان، وإنما أخذ الإنسان منه لأنه عهد إليه فنسي. قال ابن زيد: نسي ما عهد الله إليه في ذلك، ولو كان له عزم ما أطاع عدوه إبليس. وعلى هذا القول يحتمل أن يكون آدم عليه السلام في ذلك الوقت مأخوذا بالنسيان، وإن كان النسيان عنا اليوم مرفوعا.

ومعنى «مِنْ قَبْلُ» أي من قبل أن يأكل من الشجرة؛ لأنه نهي عنها. والمراد تسلية النبي صلى الله عليه وسلم؛ أي طاعة بني آدم الشيطان أمر قديم؛ أي إن نقض هؤلاء العهد فإن آدم أيضا عهدنا إليه فنسي؛ حكاه القشيري وكذلك الطبري. أي وإن يعرض يا محمد هؤلاء الكفرة عن آياتي، ويخالفوا رسلي، ويطيعوا إبليس، فقدمًا فعل ذلك أبوهم آدم. قال ابن عطية: وهذا التأويل ضعيف، وذلك كون آدم مثالا للكفار الجاحدين بالله ليس بشيء، وآدم إنما عصى بتأويل، ففي هذا غضاضة عليه صلى الله عليه وسلم؛ وإنما الظاهر في الآية إما أن يكون ابتداء قصص لا تعلق له بما قبله، وإما أن يجعل تعلقه أنه لما عهد إلى محمد صلى الله عليه وسلم ألا يعجل بالقرآن، مثل له بنبي قبله عهد إليه فنسي فعوقب؛ ليكون أشد في التحذير، وأبلغ في العهد إلى محمد صلى الله عليه وسلم؛ والعهد هاهنا في معنى الوصية؛ «ونسي» معناه ترك؛ ونسيان الذهول لا يمكن هنا؛ لأنه لا يتعلق بالناسي عقاب. والعزم المضي على المعتقد في أي شيء كان؛ وآدم عليه السلام قد كان يعتقد ألا يأكل من الشجرة لكن لما وسوس إليه إبليس لم يعزم على معتقده. والشيء الذي عهد إلى آدم هو ألا يأكل من الشجرة، وأعلم مع ذلك أن إبليس عدو له. واختلف في معنى قوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ فقال ابن عباس وقتادة: لم نجد له صبرا عن أكل الشجرة، ومواظبة على التزام الأمر. قال

(١) لم يحفظ بنفسها السياق-ع

الناس ؛ وكذلك هو فى اللغة ؛ يقال : لفلان عزم أى صبر وثبات على التحفظ من المعاصى حتى يسلم منها ، ومنه « فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ » . وعن ابن عباس أيضا وعطية العوفى : حفظا لما أمر به ؛ أى لم يتحفظ مما نهيته حتى نسى ، وذهب عن علم ذلك بترك الاستدلال ؛ وذلك أن إبليس قال له : إن أكلتها خُلِّدت فى الجنة ، يعنى عين تلك الشجرة ، فلم يطعه فدعاه إلى نظير تلك الشجرة مما دخل فى عموم النهى وكان يجب أن يستدل عليه فلم يفعل ؛ وظن أنها لم تدخل فى النهى فأكلها تأويلا ، ولا يكون ناسيا للشىء من يعلم أنه معصية . وقال ابن زيد : « عزما » محافظة على أمر الله . وقال الضحاك : عزيمة أمر . ابن كيسان : إصرارا ولا إضمارا للعود إلى الذنب . قال القشيرى : والأول أقرب إلى تأويل الكلام ؛ ولهذا قال قوم : آدم لم يكن من أولى العزم من الرسل ؛ لأن الله تعالى قال : « وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » . وقال المُعَظَّم : كل الرسل أولو العزم ، وفى الخبر : " ما من نبى إلا وقد أخطأ أوهَمَّ بخطيئة ما خلا يحيى بن زكريا " فلو خرج آدم بسبب خطيئته من جملة أولى العزم لخرج جميع الأنبياء سوى يحيى . وقد قال أبو أمامة : لو أن أحلام بنى آدم جمعت منذ خلق الله الخلق إلى يوم القيامة ، ووضعت فى كفة ميزان ، ووضع حلم آدم فى كفة أخرى لرجحهم ؛ وقد قال الله تبارك وتعالى : « وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴾ تقدم فى « البقرة » (١) مستوفى . ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا ﴾ نهى ؛ ومجازه :

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩١ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

لا قليلا منه فيكون ذلك سببا لخروجكما « مِنَ الْجَنَّةِ » . « فَتَشْقَىٰ » يعنى أنت وزجك لأنهما في استواء العلة واحد ؛ ولم يقل : فتشقيا ؛ لأن المعنى معروف ، وآدم عليه السلام هو المخاطب وهو المقصود . وأيضا لما كان الكادّ عليها والكاسبَ لها كان بالشقاء أخص . وقيل : الإخراج واقع عليهما والشقاوة على آدم وحده ، وهو شقاوة البدن ؛ ألا ترى أنه عقبه بقوله : « إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ » أى فى الجنة « وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ » فأعلمه أن له فى الجنة هذا كله : الكسوة والطعام والشراب والمسكن ؛ وأنك إن ضيّعت الوصية ، وأطعت العدوّ أخرجكما من الجنة فشقيت تعبا ونصبا ؛ أى جُعْتَ وعريتَ وظمئتَ وأصابتك الشمس ؛ لأنك ترد إلى الأرض إذا أخرجت من الجنة . وإنما خصّه بذكر الشقاء ولم يقل فتشقيان : يعلمنا أن نفقة الزوجة على الزوج ؛ فمن يومئذ جرت نفقة النساء على الأزواج ، فلما كانت نفقة حواء على آدم كذلك نفقات بناتها على بنى آدم بحق الزوجية . وأعلمنا فى هذه الآية أن النفقة التى تجب للمرأة على زوجها هذه الأربعة : الطعام والشراب والكسوة والمسكن ؛ فإذا أعطاها هذه الأربعة فقد خرج إليها من نفقتها ؛ فإن تفضل بعد ذلك فهو مأجور ، فأما هذه الأربعة فلا بد لها منها ؛ لأن بها إقامة المهجة . قال الحسن المراد بقوله : « فتشقى » شقاء الدنيا ، لا يُرَى ابنُ آدم إلا ناصبا . وقال الفراء : هو أن يأكل من كدّ يديه . وقال سعيد بن جبير : أهبط إلى آدم ثور أحمر فكان يحرث عليه ، ويمسح العرق عن جبينه ، فهو شقاؤه الذى قال الله تبارك وتعالى . وقيل : لما أُهبط من الجنة كان من أول شقائه أن جبريل أنزل عليه حبات من الجنة ؛ فقال : يا آدم ازرع هذا ، فحرث وزرع ، ثم حصد ثم درس ثم نقى ثم طحن ثم عجن ثم خبز ، ثم جلس ليأكل بعد التعب ؛ فتدحرج رغيفه من يده حتى صار أسفل الجبل ، وجرى وراءه آدم حتى تعب وقد عرق جبينه ، قال : يا آدم فكذلك رزقك بالتعب والشقاء ، ورزق ولدك من بعدك ما كنت فى الدنيا .

قوله تعالى : « إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ . وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ »

فيه مسئلتان :

الأولى : قوله تعالى : « إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا » أي في الجنة « وَلَا تَعْرَى » ، « وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا » أي لا تعطش . والظمأ العطش . « وَلَا تَضْحَى » أي تبرز للشمس فتجد حرها . إذ ليس في الجنة شمس ، إنما هو ظل ممدود، كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . قال أبو العالية : نهار الجنة هكذا ؛ وأشار إلى ساعة المصلين صلاة الفجر . قال أبو زيد : ضَحَا الطريقُ يَضْحُو ضُحُوًّا إذا بدا لك وظهر . وضَحَيْتُ وضَحِيتُ (بالكسر) ضَحًا عرقت . وضَحِيتُ أيضا للشمس ضَحَاء ممدود برزتُ وضَحَيْتُ (بالفتح) مثله ، والمستقبل أَضْحَى في اللغتين جميعا ؛ قال عمر بن أبي ربيعة :

رَأَتْ رَجُلًا أَيْمَا إذا الشمسُ عَارَضَتْ ... فَيَضْحَى وأَمَّا بالعَشِيِّ فَيَخْصَرُ

وفي الحديث أن ابن عمر رأى رجلا محرما قد استظل ، فقال : أَضْحِ لمن أحرمت له . هكذا يرويه المحدثون بفتح الألف وكسر الحاء من أضحيت . وقال الأصمعي : إنما هو آضْحَ لمن أحرمتَ له ؛ بكسر الألف وفتح الحاء ، من ضَحِيت أَضْحَى ؛ لأنه أمره بالبروز للشمس ؛ ومنه قوله تعالى : « وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى » وأنشد :

ضَحِيتُ له كَيْ أَستظِلَّ بِظِلِّهِ ... إذا الظلُّ أَضْحَى في القيامة قَالِصا

وقرأ أبو عمرو والكوفيون إلا عاصما في رواية أبي بكر عنه « وَأَنَّكَ » بفتح الهمزة عطفا على « أَلَّا تَجُوعَ » . ويجوز أن يكون في موضع رفع عطفا على الموضع ، والمعنى : ولك أنك لا تظمأ فيها . الباقون بالكسر على الاستئناف، أو على العطف على « إِنَّ لَكَ » .

قوله تعالى : فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢)

قوله تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ﴾ تقدّم في « الأعراف »[1] . ﴿ قَالَ ﴾ يعني الشيطان ﴿ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴾ وهذا يدل على المشافهة، وأنه دخل الجنة في جوف الحية على ما تقدّم في « البقرة »[2] بيانه، وتقدم هناك تعيين الشجرة ، وما للعلماء فيها فلا معنى للإعادة . ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ تقدّم في « الأعراف »[3] مستوفى . وقال الفراء : « وَطَفِقَا » في العربية أقبلا؛ قال وقيل : جعلا يلصقان عليهما ورق التين .

قوله تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وَعَصَى » تقدّم في « البقرة »[4] القول في ذنوب الأنبياء . وقال بعض المتأخرين من علمائنا والذي ينبغي أن يقال : إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم، ونسبها إليهم، وعاتبهم عليها، وأخبروا بذلك عن نفوسهم، وتنصّلوا منها، واستغفروا منها وتابوا ، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها، وإن قبل ذلك آحادها، وكل ذلك مما لا يزري بمناصبهم ، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهة الندور، وعلى جهة الخطأ والنسيان، أو تأويل دعا إلى ذلك، فهي بالنسبة إلى غيرهم حسنات، وفي حقهم سيئات بالنسبة إلى مناصبهم، وعلو أقدارهم ؛ إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس؛ فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة، مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة . قال : وهذا هو الحق . ولقد أحسن الجنيد حيث قال : حسنات الأبرار سيئات المقربين؛ فهم — صلوات الله وسلامه عليهم — وإن كانوا قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم، فلم يخل ذلك بمناصبهم، ولا قدح في رتبتهم، بل قد تلافاهم، واجتباهم وهداهم، ومدحهم وزكاهم واختارهم واصطفاهم؛ صلوات الله عليهم وسلامه .

الثانيــة — قال القاضي أبو بكر بن العربي : لا يجوز لأحد منا اليوم أن يخبر بذلك عن آدم إلا إذا ذكرناه في أثناء قوله تعالى عنه ، أو قول نبيه ، فأما أن يبتدئ ذلك من قبل

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٧٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٠٥ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٣) راجع جـ ٧ ص ١٨٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع جـ ١ ص ٣٠٨ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

نفسه فليس بجائز لنا فى آبائنا الأدنين إلينا المماثلين لنا، فكيف فى أبينا الأقدم الأعظم الأكرم النبى المقدّم، الذى عذّره الله سبحانه وتعالى وتاب عليه وغفر له .

قلت: وإذا كان هذا فى المخلوق لا يجوز، فالإخبار عن صفات الله عز وجل كاليد والرجل والإصبع والجنب والنزول إلى غير ذلك أولى بالمنع ، وأنه لا يجوز الابتداء بشيء من ذلك إلا فى أثناء قراءة كتابه أو سنة رسوله، ولهذا قال الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه : من وصف شيئا من ذات الله عز وجل مثل قوله : « وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ » فأشار بيده إلى عنقه قطعت يده، وكذلك فى السمع والبصر يقطع ذلك منه؛ لأنه شبه الله تعالى بنفسه .

الثالثة — روى الأئمة واللفظ [لمسلم][1] عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة فقال آدم يا موسى اصطفاك الله عز وجل بكلامه وخطّ لك بيده يا موسى: أتلومنى على أمر قدّره الله علىّ قبل أن يخلقنى بأربعين سنة فحجّ آدم موسى ثلاثا[2] " قال المهلب قوله : " فحج آدم موسى " أى غلبه بالحجة . قال الليث بن سعد إنما صحت الحجة فى هذه القصة لآدم على موسى عليهما السلام من أجل أن الله تعالى قد غفر لآدم خطيئته وتاب عليه ، فلم يكن لموسى أن يعيره بخطيئة قد غفرها الله تعالى له؛ ولذلك قال آدم : أنت موسى الذى آتاك الله التوراة ، وفيها علم كل شيء، فوجدت فيها أن الله قد قدّر علىّ المعصية، وقدّر على التوبة منها، وأسقط بذلك اللوم عنى أفتلومنى أنت والله لا يلومنى ؛ وبمثل هذا احتج ابن عمر على الذى قال له : إن عثمان فرّ يوم أحد؛ فقال ابن عمر : ما على عثمان ذنب؛ لأن الله تعالى قد عفا عنه بقوله : « وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ » . وقد قيل : إن آدم عليه السلام أب وليس تعييره من برّه أن لو كان مما يعيّر به غيره ؛ فإن الله تبارك وتعالى يقول فى الأبوين الكافرين : « وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا » ولهذا إن إبراهيم عليه السلام لما قال له أبوه وهو كافر : « لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا . قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ » فكيف بأب هو نبىّ قد اجتباه ربه وتاب عليه وهدى .

(١) فى الأصول : اللفظ للبخارى . والتصويب عن صحيح مسلم .

(٢) ثلاثا : أى قال النبى صلى الله عليه وسلم " فحج آدم موسى " ثلاث مرات .

الرابعة — وأما من عمل الخطايا ولم تأته المغفرة، فإن العلماء يجمعون على أنه لا يجوز له أن يحتج بمثل حجة آدم، فيقول تلومني على أن قتلت أو زنيت أو سرقت وقد قدّر الله على ذلك؛ والأمة مجمعة على جواز حمد المحسن على إحسانه، ولوم المسيء على إساءته، وتعديد ذنوبه عليه.

الخامسة — قوله تعالى: ﴿فَغَوَىٰ﴾ أي فقسد عليه عيشه، حكاه النقاش واختاره القشيري. وسمعت شيخنا الأستاذ المقرئ أبا جعفر القرطبي يقول: « فَغَوَىٰ » ففسد عيشه بنزوله إلى الدنيا، والغيّ الفساد، وهو تأويل حسن، وهو أولى من تأويل من يقول: « فغوى » معناه ضلّ؛ من الغيّ الذي هو ضد الرشد. وقيل: معناه جهل موضع رشده؛ أي جهل أن تلك الشجرة هي التي نهي عنها؛ والغيّ الجهل. وعن بعضهم « فغوى » فبشم من كثرة الأكل؛ الزمخشري: وهذا وإن صحّ على لغة من يقلب الياء المكسور ما قبلها ألفاً؛ فيقول في فَنِيَ وبَقِيَ: فَنَى وبَقَى وهم بنو طيّ تفسير خبيث.

السادسة — قال القشيري أبو نصر قال قوم يقال: عصى آدم وغوى ولا يقال له عاص ولا غاو، كما أن من خاط مرة يقال له: خاط، ولا يقال له خيّاط ما لم تتكرر منه الخياطة. وقيل: يجوز للسيد أن يطلق في عبده عند معصيته ما لا يجوز لغيره أن يطلقه، وهذا تكلّف؛ وما أضيف من هذا إلى الأنبياء فإما أن تكون صغائر، أو ترك الأولى، أو قبل النبوّة.

قلت: هذا حسن؛ قال الإمام أبو بكر بن فورك رحمه الله تعالى: كان هذا من آدم قبل النبوّة، ودليل ذلك قوله تعالى: « ثُمَّ ٱجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ » فذكر أن الاجتباء والهداية كانا بعد العصيان، وإذا كان هذا قبل النبوّة فجائز عليهم الذنوب وجهاً واحداً؛ لأن قبل النبوّة لا شرع علينا في تصديقهم، فإذا بعثهم الله تعالى إلى خلقه وكانوا مأمونين في الأداء معصومين لم يضر ما قد سلف منهم من الذنوب. وهذا نفيس والله أعلم.

قوله تعالى: قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾

قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ خاطب آدم وإبليس . « مِنها » أى من الجنة . وقد قال لأبليس : « ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا » فلعله أخرج من الجنة إلى موضع من السماء، ثم أهبط إلى الأرض . ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ تقدم فى « البقرة »[1] أى أنت عدوّ للحية ولأبليس وهما عدوّان لك . وهذا يدل على أن قوله : « ٱهبطا » ليس خطابا لآدم وحوّاء؛ لأنهما ما كانا متعاديين؛ وتضمن هبوط آدم هبوط حوّاء. ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ أى رشدا وقولا حقا . وقد تقدم فى « البقرة »[2] . ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ يعنى الرسل والكتب . ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ قال ابن عباس : ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل فى الدنيا، ولا يشقى فى الآخرة، وتلا الآية . وعنه : من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب، ثم تلا الآية . ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى ﴾ أى دينى، وتلاوة كتابى، والعمل بما فيه . وقيل : عما أنزلت من الدلائل . ويحتمل أن يحمل الذكر على الرسول؛ لأنه كان منه الذكر . ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ أى عيشا ضيقا؛ يقال : منزل ضنك وعيش ضنك يستوى فيه الواحد والاثنان والمذكر والمؤنث والجمع؛ قال عنترة :

إنْ يُلحقوا أكْرُرْ وإنْ يُستلحَموا ٭ أشْدُدْ وإنْ يُلفَوْا بضَنْكٍ أنزِلِ

وقال أيضا :

إنّ المنيّةَ لو تُمثّل مُثّلتْ ٭ مثلى إذا نزلوا بضَنْكِ المنزِلِ

وقرئ «ضَنْكَى» على وزن فَعْلَى : ومعنى ذلك أن الله عز وجل جعل مع الدين التسليم والقناعة والتوكل عليه وعلى قسمته ، فصاحبه ينفق مما رزقه الله ــ عز وجل ــ بسماح وسهولة

(١) راجع جـ ١ ص ٣١٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) راجع جـ ١ ص ٣٢٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

ويعيش عيشاً رافغاً[1]؛ كما قال الله تعالى : « فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً » . والمعرض عن الدين مستولٍ عليه الحرص الذى لا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا، مسلط عليه الشحّ، الذى يقبض يده عن الإنفاق، فعيشه ضَنك، وحاله مظلمة، كما قال بعضهم : لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته، وتشوّش عليه رزقُه، وكان فى عيشة ضنك . وقال عكرمة : « ضَنْكاً » كسبا حراما . الحسن : طعام الضَّريع والزَّقُّوم . وقول رابع وهو الصحيح أنه عذاب القبر ؛ قاله أبو سعيد الخدرى وعبد الله بن مسعود، ورواه أبو هريرة مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ذكرناه فى كتاب « التذكرة »؛ قال أبو هريرة : يضيق على الكافر قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، وهو المعيشة الضنك . ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ قيل : أعمى فى حال وبصيرا فى حال ؛ وقد تقدّم فى آخر « سبحان »[2] . وقيل : أعمى عن الحجة ؛ قاله مجاهد . وقيل : أعمى عن جهات الخير، لا يهتدى لشىء منها . وقيل : عن الحيلة فى دفع العذاب عن نفسه، كالأعمى الذى لا حيلة له فيما لا يراه . ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى ﴾ أى بأى ذنب عاقبتنى بالعمى . ﴿ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً ﴾ أى فى الدنيا، وكأنه يظن أنه لا ذنب له . وقال ابن عباس ومجاهد : أى « لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى » عن حجتى « وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً » أى عالما بحجتى؛ القشيرى : وهو بعيد إذ ما كان للكافر حجة فى الدنيا . ﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا ﴾ أى قال الله تعالى له : « كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا » أى دلالاتنا على وحدانيتنا وقدرتنا . ﴿ فَنَسِيتَهَا ﴾ أى تركتها ولم تنظر فيها، وأعرضت عنها . ﴿ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ أى تترك فى العذاب؛ يريد جهنم . ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ﴾ أى وكما جزينا من أعرض عن القرآن، وعن النظر فى المصنوعات، والتفكر فيها، وجاوز الحدّ فى المعصية . ﴿ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾ أى لم يصدق بها . ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ ﴾ أى أفظع من المعيشة الضّنك، وعذاب القبر . ﴿ وَأَبْقَى ﴾ أى أدوم وأثبت؛ لأنه لا ينقطع ولا ينقضى .

---

(١) عيش أرفغ ورافغ ورفيغ : خصيب واسع طيب .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ يريد أهل مكة ؛ أى أفلم يتبين لهم خبر من أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إذا سافروا وخرجوا فى التجارة طلب المعيشة، فيرون بلاد الأمم الماضية، والقرون الخالية خاوية ؛ أى أفلا يخافون أن يحل بهم مثل ماحلّ بالكفار قبلهم . وقرأ ابن عباس والسلمى وغيرهما « نَهْدِ لَهُمْ » بالنون وهى أبين . و « يهد » بالياء مشكل لأجل الفاعل؛ فقال الكوفيون : ﴿ كَمْ ﴾ الفاعل؛ النحاس : وهذا خطأ ؛ لأن « كم » استفهام فلا يعمل فيها ما قبلها . وقال الزجاج : المعنى أو لم يهد لهم الأمر بإهلاكنا من أهلكنا . وحقيقة «يهد» يدل على الهدى؛ فالفاعل هو الهدى تقديره : أفلم يهد الهدى لهم ؛ قال الزجاج : « كم » فى موضع نصب بـ﴿ أهلكنا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا ﴾ فيه تقديم وتأخير؛ أى ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما؛ قاله قتادة . واللزام الملازمة؛ أى لكان العذاب لازما لهم . وأضمر اسم كان . قال الزجاج : ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ عطف على « كلمة » . قتادة : والمراد القيامة؛ وقاله القتبى . وقيل : تأخيرهم إلى يوم بدر .

قوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أمره تعالى بالصبر على أقوالهم : إنه ساحر ؛ إنه كاهن ؛ إنه كذاب؛ إلى غير ذلك . والمعنى : لا تحفل بهم ؛ فإن لعذابهم وقتا مضروبا لا يتقدم ولا يتأخر . ثم قيل : هذا منسوخ بآية القتال . وقيل : ليس منسوخا ؛ إذ لم يستأصل الكفار بعد آية القتال بل بقى المعظم منهم .

قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ قال أكثر المتأولين : هذا إشارة إلى الصلوات الخمس « قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ » صلاة الصبح ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ صلاة العصر ﴿ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ ﴾ العتمة ﴿ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ﴾ المغرب والظهر؛ لأن الظهر في آخر طرف النهار الأول، وأول طرف النهار الآخر؛ فهي في طرفين منه؛ والطرف الثالث غروب الشمس وهو وقت المغرب. وقيل: النهار ينقسم قسمين فصلهما الزوال، ولكل قسم طرفان، فعند الزوال طرفان؛ الآخر من القسم الأول والأول من القسم الآخر؛ فقال عن الطرفين أطرافا على نحو «فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا» وأشار إلى هذا النظر ابن فورك في المشكل. وقيل: النهار للجنس فلكل يوم طرف، وهو إلى جمع لأنه يعود في كل نهار. «وآناء الليل» ساعاته وواحد الآناء إِنْيٌ وإِنًى وأَنًى. وقالت فرقة: المراد بالآية صلاة التطوع؛ قاله الحسن.

قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ بفتح التاء؛ أي لعلك تثاب على هذه الأعمال بما ترضى به. وقرأ الكسائي وأبو بكر عن عاصم « تُرْضَى » بضم التاء؛ أي لعلك تُعطَى ما يرضيك.

قوله تعالى: وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ ﴾ وقد تقدم معناه في «الحجر»(1). ﴿ أَزْوَاجًا ﴾ مفعول بـ « متعنا ». و﴿ زَهْرَةَ ﴾ نصب على الحال. وقال الزجاج: « زهرة » منصوبة بمعنى « متعنا » لأن معناه جعلنا لهم الحياة الدنيا زهرة؛ أو بفعل مضمر وهو « جعلنا » أي جعلنا لهم زهرة الحياة الدنيا؛ عن الزجاج أيضا. وقيل: هي بدل من الهاء في « به » على الموضع، كما تقول: مررت به أخاك. وأشار الفراء إلى نصبه على الحال؛ والعامل فيه « متعنا » قال: كما تقول مررت به المسكين؛ وقدره: متعناهم به زهرةً الحياة في الدنيا وزينة فيها. ويجوز أن ينتصب على المصدر مثل « صُنْعَ اللهِ » و« وَعْدَ اللهِ » وفيه

(1) راجع جـ ١٠ ص ٥٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

نظر . والأحسن أن ينتصب على الحال ويحذف التنوين لسكونه وسكون اللام من الحياة ؛ كما قرئ « وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارَ » بنصب النهار بسابق على تقدير حذف التنوين لسكونه وسكون اللام ، وتكون « الحياة » مخفوضة على البدل من « ما » في قوله : « إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ » فيكون التقدير : ولا تمدن عينيك إلى الحياة الدنيا زهرةً أي في حال زهرتها . ولا يحسن أن يكون « زهرة » بدلا من « ما » على الموضع في قوله : « إلى ما متعنا » لأن « لِنَفْتِنَهُمْ » متعلق بـ « متعنا » و « زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » يعني زينتها بالنبات . والزَّهْرة ، بالفتح في الزاي والهاء نَوْر النبات . والزُّهَرة بضم الزاي وفتح الهاء النجم . وبنو زُهْرة بسكون الهاء ؛ قاله ابن عزيز . وقرأ عيسى بن عمر « زَهَرَةَ » بفتح الهاء مثل نَهْر ونَهَر . ويقال : سراج زاهر أي له بريق . وزهر الأشجار ما يروق من ألوانها . وفي الحديث : كان النبي صلى الله عليه وسلم أزهر اللون ؛ أي نيّر اللون ؛ يقال لكل شيء مستنير: زاهر، وهو أحسن الألوان . ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ أي لنبتليهم . وقيل . لنجعل ذلك فتنة لهم وضلالا . ومعنى الآية : لا تجعل يا محمد لزهرة الدنيا وزنا، فإنه لا بقاء لها . «ولَا تَمُدَّنَّ» أبلغ من لا تنظرن، لأن الذي يمد بصره، إنما يحمله على ذلك حرص مقترن، والذي ينظر قد لا يكون ذلك معه .

مسئلة ــ قال بعض الناس : سبب نزول هذه الآية ما رواه أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : نزل ضيف برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسلني عليه السلام إلى رجل من اليهود، وقال قل له يقول لك محمد : نزل بنا ضيف ولم يُلْفَ عندنا بعضُ الذي يصلحه ؛ فبعني كذا وكذا من الدقيق ، أو أسلفني إلى هلال رجب فقال : لا ، إلا برهن . قال : فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال : " والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض ولو أسلفني أو باعني لأديت إليه اذهب بدرعي إليه " ونزلت الآية تعزية له عن الدنيا . قال ابن عطية : وهذا معترض أن يكون سببا ؛ لأن السورة مكية والقصة المذكورة مدنية في آخر عمر النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه مات ودرعه مرهونة عند يهودي بهذه القصة التي ذكرت ؛ وإنما الظاهر أن الآية متناسقة مع ما قبلها ، وذلك أن الله تعالى

لا يحثهم على ترك الاعتبار بالأمم السالفة ثم توعدهم بالعذاب المؤجل ، ثم أمر نبيه بالاحتقار لشأنهم ، والصبر على أقوالهم ، والإعراض عن أموالهم وما فى أيديهم من الدنيا ؛ إذ ذلك منصرم عنهم صائر إلى خزى .

قلت : وكذلك ما روى عنه عليه السلام أنه مر بإبل بنى المصطلق وقد عبست[1] فى أبوالها [وأبعارها][2] من السمن فتقنع بثوبه ثم مضى؛ لقوله عز وجل : « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ » الآية . ثم سلاه فقال : ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ أى ثواب الله على الصبر وقلة المبالاة بالدنيا أولى ؛ لأنه يبقى والدنيا تفنى . وقيل : يعنى بهذا الرزق ما يفتح الله على المؤمنين من البلاد والغنائم .

قوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ ﴾ أمره تعالى بأن يأمر أهله بالصلاة ويمتثلها معهم ، ويصطبر عليها ويلازمها . وهذا خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ويدخل فى عمومه جميع أمته ، وأهل بيته على التخصيص . وكان عليه السلام بعد نزول هذه الآية يذهب كل صباح إلى بيت فاطمة وعلى رضوان الله عليهما فيقول : " الصلاة " . وروى أن عروة بن الزبير رضى الله عنه كان إذا رأى شيئا من أخبار السلاطين وأحوالهم بادر إلى منزله فدخله ، وهو يقرأ « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ » — الآية — إلى قوله : « وَأَبْقَىٰ » ثم ينادى بالصلاة : الصلاة يرحمكم الله ؛ ويصلى . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوقظ أهل داره لصلاة الليل ويصلى وهو يتمثل بالآية .

قوله تعالى : ﴿ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ﴾ أى لا نسألك أن ترزق نفسك وإياهم ، وتشتغل عن الصلاة بسبب الرزق ، بل نحن نتكفل برزقك وإياهم ؛ فكان عليه السلام إذا نزل بأهله ضيق أمرهم بالصلاة . وقد قال الله تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ » .

قوله تعالى : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ أى الجنة لأهل التقوى ؛ يعنى العاقبة المحمودة . وقد تكون لغير التقوى عاقبة ولكنها مذمومة فهى كالمعدومة .

---

(١) عبست فى أبوالها : هو أن تجف أبوالها وأبعارها على أفخاذها وذلك إنما يكون من الشحم .

(٢) الزيادة من « النهاية » لابن الأثير .

قوله تعالى : وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴿١٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ يريد كفار مكة ؛ أى لولا يأتينا محمد بآية توجب العلم الضرورى . أو بآية ظاهرة كالناقة والعصا . أو هلا يأتينا بالآيات التى نقترحها نحن كما أتى الأنبياء من قبله .

قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ يريد التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة ، وذلك أعظم آية إذ أخبر بما فيها . وقرئ « الصُّحْف » بالتخفيف . وقيل : أو لم تأتهم الآية الدالة على نبوته بما وجدوه فى الكتب المتقدمة من البشارة . وقيل : أو لم يأتهم إهلاكنا الأمم الذين كفروا واقترحوا الآيات ، فما يؤمّنهم إن أتتهم الآيات أن يكون حالهم حال أولئك . وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وأبو عمرو ويعقوب وابن أبى إسحق وحفص « أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ » بالتاء لتأنيث البينة . الباقون بالياء لتقدم الفعل ؛ ولأن البينة هى البيان والبرهان فردّوه إلى المعنى ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم . وحكى الكسائى « أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى » قال : ويجوز على هذا « بَيِّنَةً مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى » . قال النحاس : إذا نونت « بينة » ورفعت جعلت « ما » بدلا منها ، وإذا نصبتها فعلى الحال ؛ والمعنى : أو لم يأتهم ما فى الصحف الأولى مبيّنا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى من قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن ﴿ لَقَالُوا ﴾ أى يوم القيامة ﴿ رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ أى هلا أرسلت إلينا رسولا . ﴿ فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى ﴾ وقرئ « نُذَلَّ وَنُخْزَى » على

ما لم يسمّ فاعله . وروى أبو سعيد الخدريّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهالك فى الفترة والمعتوه والمولود قال: "يقول الهالك فى الفترة لم يأتنى كتاب ولا رسول — ثم تلا — « وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا » — الآية — و يقول المعتوه ربِّ لم تجعل لى عقلا أعقل به خيرا ولا شرا ويقول المولود ربِّ لم أدرك العمل فيرفع لهم نار فيقول لهم رِدوها وادخلوها — قال — فيردها أو يدخلها من كان فى علم الله سعيدا لو أدرك العمل و يمسك عنها من كان فى علم الله شقيا لو أدرك العمل فيقول الله تبارك وتعالى إياى عصيتم فكيف رسلى لو أتتكم" و يروى موقوفا عن أبى سعيد قوله؛ وفيه نظر؛ وقد بيناه فى كتاب «التذكرة» و به احتج من قال : إن الأطفال وغيرهم يمتحنون فى الآخرة . « فَنَتَّبِعَ » نصب بجواب التخصيص . « آيَاتِكَ » يريد ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . « مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ » أى فى العذاب « وَنَخْزَى » فى جهنم ؛ قاله ابن عباس . وقيل : « مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ » فى الدنيا بالعذاب « وَنَخْزَى » فى الآخرة بعذابها . ﴿ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ ﴾ أى قل لهم يا محمد كل متربص ؛ أى كل المؤمنين والكافرين منتظر دوائر الزمان ولمن يكون النصر . ﴿ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾ يريد الدين المستقيم والهدى ؛ والمعنى : فستعلمون بالنصر من اهتدى إلى دين الحق . وقيل : فستعلمون يوم القيامة من اهتدى إلى طريق الجنة . وفى هذا ضرب من الوعيد والتخويف والتهديد ختم به السورة . وقرئ « فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » . قال أبو رافع : حفظته من رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ذكره الزمخشرى . و « من » فى موضع رفع عند الزجاج . وقال الفراء : يجوز أن يكون فى موضع نصب مثل « وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ » . قال أبو إسحق : هذا خطأ؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله ، و « من » هاهنا استفهام فى موضع رفع بالابتداء؛ والمعنى : فستعلمون أصحاب الصراط السوى نحن أم أنتم ؟. قال النحاس : والفراء يذهب إلى أن معنى « مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ » من لم يضل، وإلى أن معنى « وَمَنِ اهْتَدَى » من ضل ثم اهتدى . وقرأ يحيى بن يعمر وعاصم الجحدرى « فَسَيُعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ

الصِّرَاطِ السُّوِّي » بتشديد الواو بعدها ألف التأنيث على فُعْلَى بغير همزة ؛ وتأنيث الصراط شاذ قليل؛ قال الله تعالى : « ٱهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » فجاء مذكرا في هذا وفي غيره؛ وقد ردّ هذا أبو حاتم قال: إن كان من السوء وجب أن يقال السُّوءَى وإن كان من السَّواء وجب أن يقال : السِّيَّا بكسر السين والأصل السِّوْيَا . قال الزمخشري : وقرئ « السَّواءَ » بمعنى الوسط والعدل ؛ أو المستوى . النحاس : وجواز قراءة يحيى بن يعمر والجحدري أن يكون الأصل « السُّوءَى » والساكن ليس بحاجز حصين ؛ فكأنه قلب الهمزة ضمة فأبدل منها واوا كما يبدل منها ألف إذا انفتح ما قبلها . تمت والحمد لله وحده .

